



إهداءات ٢٠٠١

الدكتور / القطب محمد طلبة

القاهرة

كتاب الشعب

نفس القرآن العظيم

للحافظ ابن كثير

٧٠٠-٧٧٤ هـ

د. محمد إبراهيم البنا
تحقيق محمد أحمدا شور
عبد العزيز بن غنيم
المجلد السابع

الشعب

٩٨ شارع النصر القديم والتاريخي
بدمشق - سورية

وقوله: (إِنْ لَكُمْ لُوحَدٌ) ، هذا هو النجم عليه : أنه تعالى لإله إلا هو (رب السموات والأرض وما بينهما) ،
أي : من الخلق ، (ورب المشرق) ، أي : هو الملائكة المخصوصة في الخلق بتفسيره بما فيه من الكواكب نوابت ،
وسيارات تبتدئ من المشرق ، وتقرب من المغرب . واكتفى بذكر المشرق عن المغرب للدلالة عليه . وقد صرح بذلك
في قوله : (فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَنَاقِرُونَ) (١) . وقال في الآية الأخرى : (رب المشرقين ورب
المغربين) (٢) ، يعني : في الشتاء والصيف ، للشمس والقمر ،

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ ﴿وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى اللَّامِ الْأَعْلَى﴾
﴿وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

يعبر تعالى أنه زين السماء الدنيا لناظرين إليها من أهل الأرض (زينة الكواكب) قرئ بالاضافة وبالبدل ،
وكلاما بمعنى واحد ، فالكواكب السيارة والنوابت يتنصب ضوءها جرم السماء الشفاف . فتضيء لأهل الأرض ،
كما قال تعالى : (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ، وأعتدنا لهم عذاب السعير) (٣) . وقال :
(ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب
منين) (٤) .

وقوله هاهنا : (وحفظا) ، تقديره : وحفظناها حفظا ، (من كل شيطان مراد) ، يعني : للشمر العاني إذا
أراد أن يسترق السمع ، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ، ولهذا قال : (لا يسمعون إلى اللام الأعلى) ، أي : لا يصلوا إلى
اللام الأعلى ، وهي السموات ومن فيها من الملائكة ، إذا تكلموا بما يوحى الله مما يقوله من شره وقدره ، كما تقدم بيان
ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تعالى : (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟) قالوا : الحق
وهو الحق الكبير) (٥)

ولهذا قال : (ويقدفون) ، أي : يرمون (من كل جانب) ، أي : من كل جهة يقصدون السماء منها ، (دحورا) ،
أي : رجما يسحرون به ويخرجون ، ويمنعون من الوصول إلى ذلك (ولهم جلاب واصب) ، أي : في الدار الآخرة
لهم عذاب دائم موجه مستمر ، كما قال : (وأعتدنا لهم جلاب السعير) (٦) .

وقوله : (إلا من خطف الخطفة) ، أي : إلا من اختطف من الشياطين الخطفة ، وهي الكلمة سمعها من السماء
فيلتها إلى الذي سمته ، ويلتها الآخر إلى الذي سمته ، فربما أحرته الشهاب قبل أن يقع . وربما ألفها بعد الله قبل أن

(١) سورة المعارج ، آية : ٤٠ .

(٢) سورة الرحمن ، آية : ١٧ .

(٣) سورة الملك ، آية : ٥ .

(٤) سورة النجم ، الآيات : ١٦ - ١٨ .

(٥) سورة سبأ ، آية : ٢٣ . وانظر ٦/٥٠٢ - ٥٠٤ .

(٦) سورة الملك ، آية : ٥ .

تفسير سورة الصافات

يأتيه الشهاب فيحرقه ، فيذهب بها الآخر إلى الكائن ، كما تقدم في الحديث : وهذا قال : (إلا من خطفت الطلقة فأتبعه شهاب ثاقب) ، أي : مستتر .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبلة ، عن ابن عباس قال : كانت للشياطين مقاعد في السماء ، فكانوا يستمعون الوحي . قال : وكانت النجوم لا تجرى ، وكانت الشياطين لا ترمى . قال : فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض ، فزادوا في الكلمة سمعاً . قال : فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب قلم يخططه حتى يحرقه . قال : فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هو إلا من أمر حدث . قال : فبستجوده فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي بين جبلين نخلة - قال : وكيع : يعني بعن (١) نخلة - قال : فرجعوا إلى إبليس فأخبروه ، فقال : هذا الذي حدث (٢) .

وستأتي الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا للمنى عند قوله تعالى إتياراً عن الجن أنهم قالوا : (وأنا لمسا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباء وأنا كنا نعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) وأنا لا ندرى أشد لزيد من في الأرض أم أولادهم وبهم رشداً (٣) ؟

فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَهْمُ أَشَدَّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝ وَإِنَّا دَرُوزُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ۝ وَقَالُوا إِنَّا مِنْكُمْ إِلَّا جَرَمِينَ ۝ أَوَدَّامِنَّا وَكَا تَرَابًا وَعِظْلَمًا أَوَأَنَّا لَمَبْعُورُونَ ۝ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۝ فَلَمَّا مَيَّزْنَاهُ وَاحِدَةً فَمِنْهَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝

يقول تعالى : فصل هؤلاء المتكررين البعث : إنا أشد خلقاً هم أم السموات والأرض ، وما بينهما من الملائكة والشياطين والخلوقات العظيمة ؟ - وقرأ ابن مسعود : (أم من حدثنا (٤)) - فإنهم يخفون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم ، وإذا كان الأمر كذلك فلم يتكروا البعث ؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا ، كما قال تعالى : (تخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥)) .

ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف : فقال : (إنا خلقناهم من طين لازب) ، قال مجاهد ، وسعيد بن جبر . والضحك : هو الجيد الذي يلتصق ببعضه ببعض .

وقال ابن عباس ، وعكرمة : هو اللزج .

وقال قتادة : هو الذي يلصق باليد (٦) .

(١) بعن نخلة : قرية قريبة من المدينة حل طريق البصرة .

(٢) تفسير الطبري : ٢٥ / ٢٣ .

(٣) سورة الجن : الآيات ٨ - ١٠ .

(٤) البحر المحيط لأبي حيان : ٣٥٤ / ٧ . وتفسير الطبري : ٢٨ / ٢٢ .

(٥) سورة غافر ، آية : ٥٧ .

(٦) تفسير الطبري : ٢٨ / ٢٣ - ٢٩ .

وقوله : (يا عجب ويسخرون) ، أى : يا عجب - يا عجم - من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب ، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها . وهم بخلاف أمرك ، من شدة تكذيبهم يسخرون [عما تقول لهم من ذلك]

قال قتادة : عجب محمد صلى الله عليه وسلم (١) ، وسخر ضلأك بنى آدم ،

(وإذا رأوا آية) ، أى : دلالة واضحة على ذلك ، (يستسخرون) - قال مجاهد ، وقتادة : يستهزئون ،

(وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين) ، أى : إن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين ، (أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباءنا الأولون) ، يستبعدون ذلك ويكذبون به ، (قل : نعم ، وأنتم داخرون) ، أى : قل لهم يا محمد : نعم ببعثون يوم القيامة بعلمنا تصيرون ترابا وعظاما ، (وأنتم داخرون) ، أى : حقيقون تحت القدرة العظيمة . كما قال تعالى : (وكل أنه داخرين (٢)) : وقال : (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) (٣) .

ثم قال : (فلأنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) ، أى : لأنما هو أمر واحد من الله عز وجل ، يدهم دعوة [واحدة] أن يخرجوا من الأرض ، فإذا هم بين يديه ، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة :

وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿١١﴾ * أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَامْدُودُهُمْ لَكَ صِرَاطٌ الْحَجِيمُ ﴿١٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿١٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿١٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَلْبِوْنَ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى عن قبيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا . فإذا عاينوا أهوال القيامة تسموا كل التدم حيث لا ينفعهم التدم ، (وقالوا : يا ويلتنا ! هذا يوم الدين) ، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون : (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) . وهذا يقال لهم على وجه التعريض والتوبيخ ، وبأمر الله للملائكة أن تسمى الكفار من المؤمنين في الموقف في عسرهم ومنشرهم . ولهذا قال تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) - قال الثعالب بن بشر ، رضى الله عنه - : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم . وكذا قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ومجاهد ، والسدى ، وأبو صالح ، وأبو العالية ، وزيد بن أسلم .

وقال سفيان الثوري ، عن مالك ، عن الثعالب بن بشر ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) ، قال : إخوانهم (٤) ،

(١) أثر قتادة كما تفسير الطبري ٢٩/٢٣ : « حجب محمدا عليه السلام من هذا القرآن حين أخطبه ، ونصر منه أهل الضلالة » .

(٢) سورة النمل ، آية : ٨٧ .

(٣) سورة غافر ، آية : ٦٠ .

(٤) تفسير الطبري ٢٩/٢٣ . ولفظه : « قال : غربائهم » .

وقال شريك ، عن [ماله (١)] عن الثعلب قال : سمعت عمر يقول : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) ، قال : أشابعهم . قال : بين صاحب الرباع أصحاب الربا ، وصاحب الزنا مع أصحاب الزنا ، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر ، وقال خصيف ، عن ميسم ، عن ابن عباس : أزواجهم : نساءهم ،

وهذا غريب ، والمعروف عنه الأول ، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير ، عنه : أزواجهم : قُرُاعهم ،

(وما كانوا يعلمون من دون الله) ، أي : من الأصنام والأنداد ، تحشر معهم في أمكنتهم ،

وقوله : (فاعدهم إلى صراط الجحيم) ، أي : أرسلهم إلى طريق جهنم . وهذا كقوله تعالى : (وتحشرهم يوم القيامة على وجوههم غصبا وبكرا وطمعا ، فأمرهم جهنم ، كلما خبت زفتهم سعيرا (٢)) ،

وقوله : (وقفهم إثم مسؤولون) ، أي : قفهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا ،

كما قال الضحاك ، عن ابن عباس ، يعني أحسبهم إثم محاسبين ،

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الثعلبي ، حدثنا المعتمر بن سليمان قال : سمعت ليثا يحدث عن بشر ، عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعا داع دعا إلى شيء كان موقفا معه إلى يوم القيامة ، لا يقدره ولا يفارقه ، وإن دعا رجل رجلا » . ثم قرأ : (وقفهم إثم مسؤولون) ،

ورواه الترمذي ، من حديث ليث بن أبي سليم (٣) . ورواه ابن جرير ، عن يعقوب بن إبراهيم ، عن معتمر ، عن ليث ، عن رجل ، عن أنس مرفوعا (٤) .

وقال عبد الله بن المبارك : سمعت عثمان بن زائدة يقول : إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه ثم يقال ثم على سبيل التصريح والتوبيخ : (ما لكم لا تنصرون) ، أي : كما زعمتم أنكم جميع منتصر ، (بل هم اليوم مستسلمون) ، أي : هذا قد دون لأمر الله ، لا شئافوته ولا عيونه .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا إِنَّا أَنْكُرُكُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿١١﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغَيْنَ ﴿١٣﴾ حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا عَاوِينَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّ تَسَمَّ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٨﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ الْغَيْبِ لِنَاصِرٍ يُجَاهِدُونَ ﴿١٩﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾

يلكو تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة ، كما يخاصمون في دركات النار ، (فيقول الضعفاء للذين استكبروا)

(١) في المخطوطة : « شريك » ، عن شريك . وثلثت على الطباعت السابقة . وانظر ترجمة « سلك » في حرب : في الهادي : ٢٣٣/٤ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٩٧ .

(٣) تحفة الأحاديث ، تفسير سورة الصافات ، الحديث ٣٢٨١ : ٩٦/٩ ، وقال الترمذي : « هذا حديث غريب » .

(٤) تفسير الطبري : ٢٢/٢٣ .

إنّا كنّا لكم تبعاً ، فهم أنّهم معتقون عتاً نصيباً من النار . قال الذين استكبروا : إنّا كلّ فيها ، إنّا لله قد حكم بن العباد (١) : وقال : (ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنّهم كنّا مومنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحنّ صد دنّاكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجمل له أننداداً ، وأسروا الندامة لما أولوا العدا ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون (٢) . وهكذا قالوا لهم هاهنا : (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) - قال الضحّاك ، عن ابن عباس : كنتم تظهروننا بالقدرة منكم علينا ، لأنّا كنّا أذلاء وكنتم أعزّاء .

وقال مجاهد : يعني عن الحق ، الكفار يقولون للشياطين (٣) :

وقال قتادة : قالت الإنس الجن : إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين . قال : من قبل الخير ، فتهوتوا عنه وتبطلتوا عنه (٤) :

وقال السدي : تأتوننا من قبل الحق ، تريون لنا الباطل ، وتصدوننا عن الحق (٥) .

وقال الحسن في قوله : (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) ، إني والله بأنيّه عند كل خير يريدّه فيصدّه عنه ،

وقال ابن زيد : معناه تحولوا بيننا وبين الخير ، ورددونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به (٦) :

وقال يزيد الرضائي : من قبل « لا إله إلا الله » .

وقال خصيف : يعنون من قبل ميامتهم .

وقال حكيم : (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) ، قال : من حيث تأمنكم .

وقوله : (قالوا : بل لم تكونوا مومنين) ، تقول القادة من الجن والإنس للأتباع : ما الأمر كما ترهون ؟ بل كانت قلوبكم منكراً للإيمان ، قابلة للكفر والعصيان) ، (وما كان لنا عليكم من سلطان) ، أي : من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ، (بل كنتم قوما طاغين) ، أي : بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ، فلها استنجيت لنا وتركتم الحق الذي جاءكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجة على صحة ما جاءوكم به ، فخالفتهم .

(فحق علينا قول ربنا إنا للظالمون . فأغريناكم إنّا كنّا غاوين) ، يقول الكفار للمستضعفين : حقّت علينا كلمة الله : إنّا من الأشرار الذين العذاب يوم القيامة ، فأغريناكم) ، أي : دعوناكم إلى الضلالة ، (إنّا كنّا غاوين) ، أي : دعوناكم إلى ما نحن فيه ، فاستنجيت لنا . قال الله تعالى : (فأنهم يومئذ في العذاب مشركون) ، أي : الجميع في النار ، كل بحسبه ، (إنّا كنّا لنفعل بالغير من - إنهم كانوا) ، أي : في الدار الدنيا (إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، يستكبرون) ، أي : يستكبرون أن يقولوها ، كما يقولها المومنون .

(١) سورة غافر ، آية : ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) سورة سبأ ، الآيات : ٣١ - ٣٣ .

(٣) تفسير الطبري : ٣٢ / ٢٣ .

(٤) تفسير الطبري : ٣٢ / ٢٣ ، ٣٣ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب ، حدثنا عيسى ، حدثنا الليث ، عن ابن مسافر - يعني عبد الرحمن بن خالد - عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فن قال : لا إله إلا الله ، قد عصم مني ماله ونفسه إلا عني ، وحبايبه على الله . وأنزل الله في كتابه - وذكر قوما استكبروا - فقال : (لهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، يستكبرون) .

وقال ابن أبي حاتم أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، عن سعيد الجعفي ، عن أبي العلاء قال : يوقى باليهود يوم القيامة فيقال لهم : ما كنتم تعملون ؟ فيقولون : الله وعزيرنا . فيقال لهم : خلوا ذات الشمال ، ثم يوقى بالنصارى فيقال لهم : ما كنتم تعملون ؟ فيقولون : نعيد الله والمسيح . فيقال لهم : خلوا ذات الشمال ، ثم يوقى بالمشرقة فيقال لهم : « لا إله إلا الله » ، فيستكبرون . ثم يقال لهم : « لا إله إلا الله » ، فيستكبرون . فيقال لهم : خلوا ذات الشمال - قال أبو العلاء - ثم يوقى بالمسلمين فيقال لهم : ما كنتم تعملون ؟ فيقولون : كنا نعيد الله . فيقال لهم : هل تعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم . فيقال لهم : فكيف تعرفونه ولم تروه ؟ قالوا : نعلم أنه لا هديل له (١) . قال : فيتعرف لهم تبارك وتعالى ، وينبئ الله المؤمنين :

(ويقولون : أننا نأركو ككتنا لشاعر مجنون) ، أي : أنحن نترك عبادة ككتنا وآله آباءنا عن قول الشاعر المجنون ، يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم [قال الله تعالى تكذيبا لهم : وَرَدًّا عَلَيْهِمْ : (يَلْجَأُ الْخَلْقُ) ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق في جميع شرعة الله له من الإختيار والطلب ، (وصدق المرسلين) ، أي : صدقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة . وأخبر عن الله في شرعه وأمره كما أخبروا ، (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) (٢) ... الآية .

إِنَّكُمْ لَذَاقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝ وَمَا تَحْزَنُونَ إِلَّا مَا كنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الرِّزْقُ مَعْلُومٌ ۝ فَوَكَّهَهُمْ مَعْلُومٌ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ فَاكِهَةٍ مِّنْ مَّعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِ ۝ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ۝ وَعِنْدَهُمْ قَنْصَرُوتُ الطَّرْفِ ۝ عَيْنٌ ۝ ثَابِتِينَ بِيضٌ مَّكَوَّتُونَ ۝

يقول تعالى مخاطبا للناس : (إنكم لذائقوا العذاب الأليم . وما تحزنون إلا ما كنتم تعملون) : ثم امتحن من ذلك عباده المخلصين ، كما قال تعالى : (والعصر . إن الإنسان لبي حسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (٣) .

(١) أي : لا مثل له ولا نظير .

(٢) سورة فصلت ، آية : ٤٣ .

(٣) سورة العصر ، الآيات : ١ - ٣ .

وقال : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم • ثم رددناه أسفل سافلين • إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (١)) : وقال : (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً • ثم تنجي الذين آمنوا وتلج الظالمين فيها جحاً (٢)) . وقال : (كل نفس بما كسبت رهينة • إلا أصحاب اليمين) (٣) ، ولهذا قال هاتنا : (لإعبد الله المخلصين) ، أي : ليسوا يلقون العذاب الأليم ، ولا يناقشون في الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم ، إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، إلى ما يشاء الله من التضييف .

وقوله : (أولئك هم رزق معلوم) - قال قتادة ، والسدي : يعني الجنة . ثم فسره بقوله تعالى : (فواكه) ، أي : متونة (وهم مكرمون) ، أي : يخدمون ويرفهون ويتمعون ، (في جنات النعيم • على سرر متقابلين) - قال مجاهد : لا ينظر بعضهم في قفا بعض ،

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يحيى بن حبلك القزويني ، حدثنا حسان بن حسن ، حدثنا إبراهيم بن بشر ، حدثنا يحيى بن معين : حدثنا إبراهيم القرشي ، عن سعيد بن شرحبيل ، عن زيد بن أبي أوفى قال : خرج علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتلا هذه الآية : (على سرر متقابلين) ، ينظر بعضهم إلى بعض . حديث غريب .

وقوله : (يطاف عليهم بكأس من معين • بيشاء للشاربين • لا فيها غول • ولا هم عنها يزفون) ، كما قال في الآية الأخرى : (يطوف عليهم ولدان مخلدون • بأكواب وأباريق وكأسي من معين • لا يصدون عنها ولا يزفون (٤)) فنزله الله خمر الأخرى عن الآيات التي في خمر الدنيا ، من صداع الرأس ووجع البطن - وهو الغول - وذهابها بالعقل جملة ، فقال هاتنا : (يطاف عليهم بكأس من معين) ، أي : يتمر من أنهار جارية ، لا غافلون انقطاعها ولا فراغها .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : خمر جارية بيشاء . أي : لونها مشرق حسن يهين لا تخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء ، من حمرة أو سوداء أو اصفرار أو كدورة (٥) ، إلى غير ذلك مما ينظر الطبع السليم .

وقوله : (للشاربين) ، أي : طعمها طيب كلونها ، وطيب الطعم دليل على طيب الريح ، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك .

وقوله : (لا فيها غول) ، يعني : لا تؤثر فيها غولا - وهو وجع البطن . قاله مجاهد ، وقاتة ، وابن زيد - كما فعله خمر الدنيا من التلوث (٦) ونحوه ، لكثرة ما فيها .

وقيل : المراد بالغلوك هاتنا صداع الرأس . وروى هكلنا عن ابن عباس :

(١) سورة التين ، الآيات : ٤ - ٦ .

(٢) سورة مريم ، آية : ٧١ - ٧٢ .

(٣) سورة المائدة ، آية : ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٤) سورة الواقعة ، الآيات : ١٧ - ١٩ .

(٥) لكثرة : تفيض الصفاء .

(٦) التلوث - بضم اللام وفتحها ، وكسر الهمزة وفتحها - : مرض مشهور معزى ، مؤلم جداً ، يستر معه خروج

الفضل والريح . وهي كلمة مجسية .

وقال فتادة : هو صلداع الرأس ، ورجع البطن :

وعنه ، وعن السدي : لا فتال عقولم (١) : كما قال الشاعر :

فما زالت الكأسُ تفتالنا وتشدُّهيبُ بالأوكِ الأولِ

وقال سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى : والصحيح قول مجاهد : أنه وجع البطن ،

وقوله : (ولا هم عنها ينزفون) ، قال مجاهد : لا تلعب عقولهم . وكذا قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، والحسن ،

وعطاء بن أبي مسلم الخراساني ، والسدي ، وغيرهم :

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : في النمر أربع خصائل : السكر ، والعبداء ، والقيء ، والبول : فلذلك نمر الجنة فنزهاها عن هذه انفصال ، كما ذكر في سورة الصافات .

وقوله : (وعندهم قاصرات الطرف) ، أي : عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن : كما قال ابن عباس ، ومجاهد ،

وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم :

وقوله : (حين) ، أي : حسان الأعين : وقيل : شمام الأعين : وهو يرجع إلى الأول ، وهي النجلاء العباء ، فوصف مبرهنين بالحسن والشفقة ، فقول زليخا في يوسف حين جعلته وأخرجته على تلك النسوة ، فأعظمته وأكبرته ، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره ، قالت : (فلذلك الذي لفتني فيه ، ولقد راودته من نفسه فاستعصم) (٢) ، أي : هو مع هذا الجمال عفيف بقيت . وهكذا المحرور العين (خيرات حسان) (٣) . ولهذا قال : (وعندهم قاصرات الطرف حين) .

وقوله : (كأنهن بيض مكنون) (وصفهن (٤) بتراب (٥) الأبدان بأحسن الألوان :

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : (كأنهن بيض مكنون) (٦) ، يقول : اللؤلؤ المكنون (٧) .

وينشد هاهنا بيت أبي دحبل الشاعر في نصيحة له :

وهي زهرته مثل لؤلؤة الفؤاد
أص مبرزة من جواهر مكنون

(١) إلى هنا ينتهي أثر السدي ، كما في تفسير الطبري : ٣٥/٢٣ . وروى البيت في هذا السياق غل : وقد ذكره الطبري ، ولكن بعد أن قدم له بقوله : « يقول : لا تلعب هذه الخمر بمقول شاربها ، كما تلعب بها خور أهل الدنيا إذا شربوها فأكثروا منها ، كما قال الشاعر » وذكر البيت .

(٢) سورة يوسف ، آية : ٣٢ .

(٣) سورة الرحمن ، آية : ٧٠ .

(٤) من هنا وقع سقط في غلطة الأثر . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٥) كذا ، ولم يقع لنا هذا المصدر .

(٦) إلى هنا ينتهي السقط .

(٧) تفسير الطبري : ٣٧/٢٣ .

وقال الحسن : (كأهن بيض مكتون) ، يعني : عصون لم تحسه الأيدي :

وقال السدي : البيض في شفه مكتون :

وقال سعيد بن جبير : (بيض مكتون) ، يعني : بطن البيض :

وقال عطاء الخرماني : هو السجاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة :

وقال السدي : (كأهن بيض مكتون) ، يقول : يبيض البيض حين يتزع قشره . واختاره ابن جرير لقوله : (مكتون) ،

لأنه : واقترة العليا عسها جناح الطير والتمش وتالها الأيدي بخلاف داخلها ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ، حدثنا محمد بن الفرج الصدقي النبطي ، عن عمرو بن هاشم ، عن ابن أبي كريمة ، عن هشام ، عن الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : يا رسول الله ، أخبرني عن قول الله : (كأهن بيض مكتون) : قال : « رقتن كرة الجلد التي رأيتها في داخل البيضة ، التي تلى القشر ، وهي الفيرقي » (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو غسان النهدي ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن ليث ، عن الربيع بن أنس ، عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا حزوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا . لواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي عز وجل ولا فخر ، يطوف على ألف خادم كأهن البيض المكتون - أو : اللؤلؤ للمكتون » .

عَاقِبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٢٥﴾ يَقُولُ أَأُنْكَ لَمِنَ الْمُتَذَكِّرِينَ ﴿٢٦﴾ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَإِنَّا لَمَعِينُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْعَمُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَمْلَغَ قَرَأَهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٢٩﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كُنتَ لَتَرُدُنَّ ﴿٣٠﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ ﴿٣١﴾ أَفَأَنْتُمْ بِمُعْجِزَاتِنَا ﴿٣٢﴾ إِلَّا مَوَئِدَتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ﴿٣٤﴾ لَعَنَّا هَذَا قَلِيلًا أَلْعَلَّيْنَا ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقل بعضهم على بعض يتعاملون ، أى : عن أحوالهم ، وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا كانوا يباينون فيها ؟ وذلك من حديثهم على شرايم ، واجتماعهم في تناولهم وعشرتهم في مجالسهم ، وهم جلوس على السُرر ، ولخدمهم بين أيديهم ، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم ، من مأكول ومشروب وملابس ، وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر - (قال قائل منهم : إني كان لي قرين) ، قال مجاهد : يعني شيطاناً .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : هو الرجل المشرك ، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا (٢) .

(١) تفسير الطبري : ٢٣/٢٧ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٨/٢٣٢ .

ولا تثنى بين كلام مجاهد ، وابن عباس ، فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس ، ويكون من الإنس فيقول كلاما نسمعه الأذن ، وكلاما نمتاديان ؛ قال الله تعالى : (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) (١) : وكل منها يوسوس ، كما قال تعالى : (من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس) (٢) ، ولهذا (قال قائل منهم : إني كان لي قرين ، يقول : أتلك لمن المصدقين) ، أى : أأنت تُصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ؟ ! يعنى يقول ذلك على وجه التعجب والتكليب والاستبعاد ، والكفر والعناد ، (أتأنا متنا وكنا ترابا وعظاما أأنا لمدينون) — قال مجاهد ، والسدى : محاسبون ؟ وقال ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظي : غزيرون بأعمالنا ؟ وكلاما صحيح — قال : (قال : هل أنتم مطلقون) ؟ أى : مشرفون . يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة : (فاطلع فرآه في سواء الجحيم) ، قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وخليفة العنبري ، وعاتدة ، والسدى ، وعطاء الخراساني : يعنى في وسط الجحيم .

وقال الحسن البصري : في وسط الجحيم كأنه شهاب ينقد .

وقال قتادة : ذكر لنا أنه اطلع فرأى جاجم القوم تفل . وذكر لنا أن كعب الأحبار قال : في الجنة كُرى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار اطلع فيها ، فازداد شكرا .

(قال : تائه إن كنت لرددين) ، يقول المؤمن مخاطبا للكافر : والله إن كنت لتُهلِكُنِي لو أطعك ، (ولولا نعمة ربى لكنت من الخسرين) ، أى : ولولا فضل الله على لكنت مظلما في سواء الجحيم حيث أنت ، محضر معك في العذاب ، ولكنه تفصل ورخصى مهدنى للإيمان ، وأرشدنى إلى توحيده ، (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) (٣) ،

وقوله : (أفأما عن يمين . إلا موتنا الأولى وما نحن بعملين) ، هذا من كلام المؤمن مُخَيَّباً (٤) نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة ، لا موت فيها ولا عذاب ، ولهذا قال : (إن هذا هو الفوز العظيم) ،

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبد الله الطهراني ، حدثنا حفص بن عمر العدني ، حدثنا الحكم بن أبان ، عن حكيم قال : قال ابن عباس : رضى الله عنها ، في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة : (كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) ، قال ابن عباس رضى الله عنها (٥) : قوله (هنيئا) ، أى : لا يموتون فيها . فعندما قالوا : (أفأما نحن يمين . إلا موتنا الأولى وما نحن بعملين) .

أفأما نحن البصري : علموا أن كل نسم فإن الموت يقطعه ، فقالوا : (أفأما نحن يمين . إلا موتنا الأولى وما نحن بعملين) ، قيل : لا . قالوا : (إن هذا هو الفوز العظيم) .

(١) سورة الأنعام : آية : ١١٢ .

(٢) سورة الناس : الآيات : ٤ - ٦ .

(٣) سورة الأعراف : آية : ٤٣ .

(٤) كذا في المخطوطة ، وهذا تيسير غير صالح ، فالفضل المتعمى منه ثلاث .

(٥) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، وانظر الأثر في الدر المنثور : ٢٧٧/٥ .

وقوله: ﴿لَمَّا فَعِلُوا قِصَّةَ الْمَاعُونِ﴾ - قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة:

وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لَمَّا فَعِلُوا الْقَوْدَ فَعِلُوا الْعَامِلُونَ فِي الدُّنْيَا، لِيُصْبِرُوا إِلَيْهِ قِيَامُ الْآخِرَةِ (١).

وقد ذكرنا قصة وجلين كانوا شريكين في بني إسرائيل، تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة:

قال أبو جعفر بن جرير: حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن فرات بن عبد الله البهركاني في قوله: ﴿إِنِّي كَانُ لِي قَرِينٌ﴾، قال: إن وجلين كانا شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذي له حرفة: ليس عندك حرفة، ما أراؤني إلا مفارقتك ومقاسمك، فقامه، وفارقه، ثم إن الرجل اشترى داراً بألف دينار كانت الملك، مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف ترى هذه الدار؟ ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم، إن صاحبي ابتاع هذه الدار بألف دينار، وإن أسألك داراً من دور الجنة: فتصدق بألف دينار، ثم مكث ماشاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار، فدعاها وصنع له طعاماً، فلما أتاه قال: إني تزوجت امرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يا رب، إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار، وإن أسألك امرأة من الخور النين: فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث. ثم اشترى بستانين بألف دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إني بعيت هذين البستانين. قال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يا رب، إن صاحبي قد اشترى بستانين بألف دينار، وأما أسألك بستانين في الجنة: فتصدق بألف دينار، ثم إن الملك أتاهما فوفاهما، ثم انطلق بهذا المصدق، فأدخله داراً تعجبه، وإذا امرأة تتلصق بغيري ما تحبها من حسنها، ثم أدخلته بستانين وشيئاً الله به حليم، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كلنا وكلنا. قال: فإنه ذلك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لي صاحب يقول: أتلك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه في الجحيم. قال: هل أنتم مظلومون؟ فاطلع فرأه في سواء الجحيم. فقال عند ذلك: (تالله إن كلمت لردين، ولولا نعمة ربي لكنت من الخسرين) - الآية.

قال ابن جرير: وهذا يقوى قراءة من قرأ: (أتلك لمن المصدقين)، بالتشديد (٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا حمير بن عبد الرحمن الأبواب أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدي عن هذه الآية: ﴿قَالَ قَاتِلْهُمْ مِنْهُمْ﴾: إني كان لي قرين. يقول: أتلك لمن المصدقين؟ قال: فقال لي: ما ذكرتك هذا؟ قلت: قرأته أتفا فأنحيت أن أسألك عنه؟ فقال: أما حفظ؟ كان شريكاً في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فكانا ماشاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك؟ أجبت (٣) به شيئاً؟ أتجرت به في شيء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضاً ومخلاً ونهاراً، فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ماشاء الله أن يصلي، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوصفها بين يديه، ثم قال: اللهم، إن فلانا -

(١) تفسير الطبري ٤/٢٣.

(٢) تفسير الطبري ٤/٢٣.

(٣) أي: أكسبت به ديناً؟

يعني شريكه الكافر - اشترى أرضاً ونخلًا وأنهاراً بألف دينار ، ثم يموت غداً ويتركها ، اللهم ، إني اشتريت منك بهذه الألف دينار أرضاً ونخلًا وأنهاراً في الجنة . قال : ثم أصبح قسمها في المساكين : قال : ثم مكثنا ما شاء الله أن يمكث ، ثم التفتيا فقال الكافر للمؤمن : ما صنعت في مالك ، أضريت به في شيء ؟ أنجرت به في شيء ؟ قال : لا ، فما صنعت أنت . قال : كانت ضيقتي قد اشتد على موتها ، فاشتريت رقيقاً بألف دينار ، يتوهون في فيها ، ويمهلون لي فيها . فقال له المؤمن : أوفعلت ؟ قال : نعم : قال : فرجع للمؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصل ، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعهما بين يديه ، ثم قال : اللهم إن فلانا - يعني شريكه الكافر - اشترى رقيقاً من وثيق الدنيا بألف دينار ، يموت غداً ويتركهم ، أو يموتون فيتركونه ، اللهم ، وإني اشتري منك بهذه الألف الدينار رقيقاً في الجنة . ثم أصبح قسمها في المساكين . قال : ثم مكثنا ما شاء الله أن يمكث ، ثم التفتيا فقال الكافر للمؤمن : ما صنعت في مالك ؟ أضريت به في شيء ؟ أنجرت به في شيء ؟ قال : لا ، فما صنعت أنت ؟ قال : أمرى كله قد تم إلا شيئاً واحداً ، فإني قد مات عنها زوجها ، فأصفتها ألف دينار ، فجاءني بها ومثلها معها . فقال له المؤمن : أوفعلت ؟ قال : نعم ، فرجع للمؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصل ، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية ، فوضعهما بين يديه ، وقال : اللهم ، إن فلانا - يعني شريكه الكافر - تزوج زوجة من أزواج الدنيا فيموت غداً فيتركها ، أو يموت فتتركه ، اللهم وإني أطلب إليك بهذه الألف الدينار حوراء عتيقة في الجنة . ثم أصبح قسمها بين المساكين . قال : بقي للمؤمن ليس عنده شيء . قال : فليس قسمياً من قطن ، وكساء من صوف ، ثم أخذ مراً (١) فجعله على رقبته ، يعمل الشيء ويغير الشيء بوقته : قال : فجاءه رجل فقال : يا عبد الله ، أتواجرني نفسك مشاهرة ، شهراً بشهر ، تقوم على ذواب لي تعلقها وتكتسب سركيها ؟ قال : نعم : قال : فواجبه نفسه مشاهرة ، شهراً بشهر ، يقوم على ذوابه . قال : فكان صاحب الذواب يغتسل كل يوم ينظر إلى ذوابه ، فإذا رأى منها ذابة ضامرة ، أخذ برأسه فجاء عقه ، ثم يقول له : سركت شعير هذه البارحة ؟ فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال : لاثنين شريكي الكافر ، فكلأهم في أرضه فيطعمني هذه الكسرة يوماً ، ويكسوني هذين الثوبين إذا بليا : قال : فانطلق يريده فلما انتهى إلى بابهِ وهو مسمس ، فإذا قصر مشيد في السماء ، وإذا حوله البوابون ، فقال لهم : استأذنوا لي صاحب هذا القصر ، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك . فقالوا له : انطلق إن كنت صادقاً فتسم في ناحية ، فإذا أصبحت فتعرض له . قال : فانطلق للمؤمن ، فألقى نصف كسائه تحته ، ونصفه فوقه ، ثم نام . فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له ، فخرج شريكه الكافر وهو راكب ، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه ، ثم قال له : ألم تأخذ من المال مثل ما أخلت ؟ قال : بلى وهذه حالى وهذه حالك ؟ قال : أشعرتني ما صنعت في مالك ؟ قال : لا تسألني عنه . قال : فما جاء بك ؟ قال : جئت أعمل في أرضك هذه ، فطعمني هذه الكسرة يوماً بيوم ، وتكسوني هذين الثوبين إذا بليا . قال : لا ، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا ، ولكن لا تترى مني خيراً حتى تخبرني ما صنعت في مالك ؟ قال : أقرضه ! قال : من ؟ قال : المكي (٢)

الوفى . قال : من ؟ قال : الله بلى . قال وهو مصافحه ، فانتزع يده من يده ، ثم قال : (أنتك لمن المصلفين أنما متنا وكنا نرابا وعظما أننا لمدنن) - قال السدي : عاصبون - قال : فانطلق الكافر وتركه . قال : فلما رآه المؤمن ليس يلقى عليه ، رجع وتركه ، يعيش للمؤمن في شدة من الزمان ، ويعيش الكافر في رخاء من الزمان : قال : فلما كان يوم القيامة

(١) المر - بفتح الميم - الخيل .

(٢) المكي : الكوفي .

وَأَدْخَلَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ ، يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ بِأَرْسِ غَيْرِهَا وَنَحْلُ وَنَهَارٍ ، يَقُولُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيَقَالُ : هَذَا لَكَ ، يَقُولُ : يَا سَابِحَانَ اللَّهِ : أَوْ يُلَاحِظُ مِنْ فَضْلِ عَلَى أَنَّ أَتَابَ عَمَلِ هَذَا ؟ ! قَالَ : ثُمَّ يَرَى إِذَا هُوَ [يَرْتَقِي لِاتِّصَافِهِ عَدَّتِهِمْ] يَقُولُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيَقَالُ : هَذَا لَكَ ، يَقُولُ : يَا سَابِحَانَ اللَّهِ ، أَوْ يُلَاحِظُ مِنْ فَضْلِ عَلَى أَنَّ أَتَابَ عَمَلِ هَذَا ؟ ! قَالَ : ثُمَّ يَلْتَمِسُ لِلْمُؤْمِنِ شَرِيكَ الْكَافِرَ فَيَقُولُ : (إِنْ كَانَ لِي قَرِينٌ ، يَقُولُ : أَتَأْتِيكَ لِمَنْ الْمَصْدَقِينَ ؟ أَلَا مَتَا وَكَتَابًا وَعَصَامًا أَتَانَا عِدْنُونَ) — قَالَ : فَالْجَنَّةُ حَالِيَّةٌ ، وَالنَّارُ هَالِيَّةٌ ، قَالَ : فَيَرِيهِ اللَّهُ شَرِيكَهُ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ ، مِنْ بَيْنِ أَهْلِ النَّارِ ، فَإِذَا رَأَاهُ الْمُؤْمِنُ حَرَفَهُ ، فَيَقُولُ : (تَأْتِيكَ لِمَنْ كُنْتُ رَقِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ، أَلَا تُحْسِنُ عَمَلِي) إِلَّا مَتَا الْأَوَّلَى وَمَا تُحْسِنُ عَمَلِي) إِنْ هَذَا هُوَ الْقَوِيُّ الْعَظِيمُ ، لَمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) : يَمَثَلُ مَامَنْ عَلَيْهِ ، قَالَ : فَيَتَلَكَّرُ لِلْمُؤْمِنِ مَامَنْ عَلَيْهِ فِي (النَّارِ مِنَ الشَّعَةِ) ، فَلَا يَلْتَمِسُ مَا مَرَّ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّعَةِ ، أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (١) .

أَذَلِكَ خَيْرٌ زَلًا أَمْ غَيْرُهُ الرُّقُومُ ﴿١﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ إِنَّا شَجَرَةَ تَجْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَنَّةِ ﴿٣﴾ عَلَمُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّجَرِينَ ﴿٤﴾ فَلَهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا لِقَاؤُهُمْ مِنْهَا أَبَدُونَ ﴿٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ عَلَى شُجَرٍ ثَوْبًا مِنْ جَبِينٍ ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى آيَاتِهِمْ ﴿٧﴾ إِنَّهُمْ أَلْقَوْا أَبَاءَهُمْ سَالِينَ ﴿٨﴾ فَهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ ﴿٩﴾

يقول الله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّجَرَةَ الَّتِي ذَكَرَهُ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَتَاعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُلَافِخَةِ ضِيافَةً وَعَصَاهُ (لَمْ شَجَرَةُ الرُّقُومِ) ؟ أَيْ : فِي جَنَّتِهِمْ .
وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة مبنية ، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فرودها إلى جميع هلال جهنم ، كما أن شجرة طوبى مامن دار في الجنة إلا وفيها منها غصن .

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر ، يقال له : الرُّقُومُ ، كقوله تعالى : (وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ مِثْنَاءَ تَنْبُتٍ بِالْبَلَدِ وَمِصْبِ (٢) لِلْكَافِرِينَ) ، يَنْبُتُ الزَيْتُونَةُ . وَيُرِيدُ ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى : (ثُمَّ إِنَّكُمْ أُنْهِيَوا الصَّالُونَ الْمَكْلُوبِينَ) لَأَكُونُوا مِنْ شَجَرٍ مِنْ رُقُومٍ (٣))

وقوله : (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) ، قَالَ قَتَادَةُ : ذُكِرَتْ شَجَرَةُ الرُّقُومِ ، فَاتَّقَتْ بِهَا أَمَلُ الْفُضَالَةِ ، وَقَالُوا : صَاحِبُكُمْ يَنْبِئُكُمْ أَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً ، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ ، فَأَتَزَلُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (لَهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَنَّةِ) ، غَضِبَتْ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْهَا خَلَقَتْ (٤) .

وقال مجاهد : (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) ، قَالَ أَبُو جَهْلٍ لَمَنْ لَمْ يَلَهُ اللَّهُ : (إِنَّا الرُّقُومُ النَّارُ وَزَيْدُ أَثَرِهِمْ (٥))

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابن أبي حمزة : ٢٧٥/٥ - ٢٧٦ .

(٢) سورة المؤمنون : آية ٢٠ .

(٣) سورة الواقعة : آية ٥١ - ٥٢ .

(٤) التفسير المأثور : ٤١/٢٧٧ .

قلت : ومعنى الآية : إنما أمرناك يا محمد بشجرة الزقوم لتختبر به الناس ، من يصدق منهم من يكذب ، كقول تعالى : (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة للجنة في الآخرة ، وغفورهم فابزيمهم إلا طغيانا كبيرا) (١) ،

وقوله : (إنها شجرة تخرج في أصل جنح) ، أي : أصل منبها في قراقرز ، (علمها كأنه رموس الشياطين) تبيح وتكره للذكرا .

قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء :

وإنما شبهها برموس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند الخاطئين ، لأنه قد استقر في الطولس أن الشياطين قبيحة المنظر .

وقيل : المراد بذلك ضرب من الحيات ، رموسها بشمة المنظر .

وقيل : جنس من الثبات ، طلعه في غايه الضحاة .

وفي هلين الاحبالن نظر ، وقد ذكرها ابن جرير ، والأول أقوى وأولى ، والله أعلم .

وقوله : (فإنهم لا يكون منها فالتون منها الفون) ، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا تبشع منها ، ولا أتبع من منظرها ، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع ، فإنهم يضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم لا يجدون إلا إياها ، وما في مطاها ، كما قال : (ليس لهم طعام إلا من ضريح) لا يسفن ولا ينفى من جوع .

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس — رضى الله عنهم — : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ، وقال : « أتتوا الله حتى تقاته ، فلو أن فطرة من الزقوم قطرت في بحر الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم ، فكيف من يكون طعامه ؟ »

ورواه الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن حديث شعبة ، وقال الترمذي : « حسن صحيح » (٢) .

وقوله تعالى : (ثم إن لهم عليها كشوبا من حميم) . قال ابن عباس : يعني شرب الخمر على الزقوم (٣) .

وقال في رواية عنه : (شوبا من حميم) ، مزجا من حميم (٤) .

وقال غيره : يعني يمزج لهم الخمر بعصيدة وضماق ، مما يسيل من فروجهم وخصوماتهم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا حيوة بن شريح الحضرمي ، حدثنا ياقبة بن الوليد ، عن حماد بن عمار ، عن أنس بن مالك ، عن عبيد الله بن بسر (٥) عن أبي أمامة الساهلي : رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنه كان يقول : « يغرب — يعني إلى أهل النار — ماء فينكرهه » فإذا أتى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه فيه . فإذا شربه طلع أمامه حتى تخرج من دبره .

(١) سورة الإسراء ، آية : ٦٠ .

(٢) تحفة الأحرف ، أبواب صفة جهنم ، باب : « ما جاء في شراب أهل النار » ، الحديث ٣٧١١ = ٢٠٧/٧ - ٢٠٨ . وقال الترمذي : « هذا حديث صحيح » . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب : « في صفة النار » ، الحديث ٣٣٢ = ٢٧/٢ .

(٣) تفسير الطبري : ٤٢/٢٣ .

(٤) في المغنطة : « عبيد بن بشر » . « ولم ينفه » . « ولشئت من ترجمة عبيد الله بن بسر » . في التفسير : ٤/٧ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن رافع ، حدثنا يعقوب بن عبد الله ، عن جعفر وهارون بن عثرة ، عن سعيد بن جبير قال : إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم ، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم ، فلو أن ماراً يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش ، فيستغيثون فيقاتون ماء كلهم - وهو الذي قد انتهى حره - فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ، ويصهر ما في بطونهم ، فيمشون [تسيل] أمعاؤهم وتتساقط جلودهم ، ثم يضرئون بمقام من حديد ، فيسقط كل عضو على حاله ، يدهون بالثور .

وقوله : (ثم إن مرجعهم إلى الجحيم) ، أي : ثم إن مرادهم بعد هذا الفصل إلى نار تتأجج ، وحجم تتوقد ، وسعير تتوهج ، فثارة في هذا وثارة في هذا ، كما قال تعالى : (يطوفون بينها وبين حميم آن) : (١) . هكذا تلا فتادة هذه الآية عند هذه الآية (٢) ، وهو تفسير حسن قوي .

وقال السدي في قراءة عبد الله : (ثم إن مقيلهم (٣) إلى الجحيم) : وكان عبد الله يقول : والذي نفسي بيده لا يتصف التهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار . ثم قرأ : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا)

وروى الثوري ، عن ميسرة ، عن للنهال بن عمرو ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله قال : لا يتصف التهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء . قال سفيان : أراه ، ثم قرأ : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) ، (ثم إن مقيلهم إلى الجحيم (٤))

قلت : هل هذا التفسير تكون له عاقلة خبر على خبر ؟

وقوله : (إنهم أفروا أيادهم ضالين) ، أي : إذا جازيهم بذلك لأنهم وجعلوا أيادهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك ، من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال : (فهم على أكثرهم يهرعون) ، قال مجاهد : شبيهة بالهرولة . وقال سعيد بن جبير : يستسهبون .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٧١﴾ فَأَنْظَرْتَهُمْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٢﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٧٣﴾

غير تعالى عن الأمم للآية أن أكثرهم كانوا ضالين يضلون مع الله كلمة أخرى ، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ، يندرون بأمر الله ، وعذبوهم سطوته ونمته ، من كفر به وعبد غيره ، وأنهم عادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم ، فأهلك المكذبين وحمرهم ، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم ، ولهذا قال : (فأنظر كيف كان عذاب المنذرين . إلا عباد الله المخلصين) .

(١) سورة الرحمن ، آية : ٤٤ .

(٢) تفسير الطبري : ٤٢/٢٣ .

(٣) في تفسير الطبري : منقلبهم . والصواب ما هنا ، وأنظر لدر المنصور : ٢٧٨ .

(٤) أنظر هذا الأمر عند تفسير الآية الرابعة والمشرين من سورة الفرقان : ١١٢/٦ .

وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٦٧﴾ وَبَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦٨﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٦٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٠﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْغَمَلَيْنِ ﴿٧١﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٢﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٧٤﴾

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يُبين ذلك مُفصلاً ، فذكر نوحاً عليه السلام وما لقي من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نكراً ، فغاره أن يغلوب فانتصر ، فغضب الله لغضبه عليهم ، ولهذا قال : (ولقد نادانا نوح فلنعم للمجيئين) أي : فلنعم للمجيئين له ، (وبجيناؤه وأهله من الكرب العظيم) ، وهو التكذيب والأذى ، (وجعلنا ذريته هم الباقين) - قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس يقول : لم يبق إلا ذرية نوح عليه السلام (١) .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة في قوله : (وجعلنا ذريته هم الباقين) ، قال : الناس كلهم من ذرية نوح ؛ وقد روى الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، من حديث سعيد بن يشر ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (وجعلنا ذريته هم الباقين) ، قال : سام ، وحام ، ويافث (٢) .
وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم (٣) »

ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العبَّاسي ، عن يزيد بن زريع ، عن سعيد - وهو ابن أبي ليث - عروبة ، عن قتادة ، به (٤) .
قال الخافظ أبو عمر بن عبد البر : وقد روى عن عمران بن حصين ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - مثله ، والمراد بالروم هاهنا : هم الروم الأول ، وهم اليونان المتسبون إلى رومي بن ليثي بن يوثان بن يافث بن نوح عليه السلام ؛ ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : ولد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث ، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة ، فولد سام العرب وفارس والروم ، وولد يافث الترك والصقالية وألجرج وألجرج ، وولد حام القبط والسودان والبربر - وروى عن وهب بن منبه نحو هذا ، والله أعلم .

وقوله : (وتركنا عليه في الآخرين) ، قال ابن عباس : يذكر غير (٥)

وقال مجاهد : يعني لسان صدق لأتبياه كلهم

(١) تفسير الطبري : ٤٣/٢٣ .

(٢) تحفة الأسماء ، تفسير سورة الصافات ، الحديث ٣٢٨٣ : ٩٧/٩ - ٩٨ ، وقال الترمذي : وهذا حديث حسن غريب ، لا نمره إلا من حديث سعيد بن يشر .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٩/٥٠ .

(٤) تحفة الأسماء ، تفسير سورة الصافات ، الحديث ٣٢٨٤ : ٩٨/٩ .

(٥) تفسير الطبري : ٤٣/٢٣ .

وقال قتادة ، والسدى ؛ أبى الله عليه (الثناء الحسن في الآخرين .

قال الضحاك : السلام والثناء الحسن :

وقوله تعالى : (سلام على نوح في العالين) ، مفسر لما أبى عليه (من الذكر الجميل والثناء الحسن : أنه يسلم عليه في جميع العوالم والأمم :

(إنا كذلك نجزي المحسنين) ، أى : هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله ، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك .

ثم قال : (إنه من عبادنا المؤمنين) ، أى : للمصدقين للوحيين المؤمنين ، (ثم أفرقنا الآخرين) ، أى : أهلكتهم ، فلم يبق منهم من تعرف ، ولا ذكر لهم ولا حين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا هذه الصفة الفريدة .

❦ وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لَأِبراهيمَ ❶ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ❷ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ❸ أَفَسَكَ اللَّهُ دُونَ اللَّهِ يُرِيدُونَ ❹ لَّا ظَنُّكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ❺

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وإن من شيعة لإبراهيم) ، يقول : من أهل دينه (١) .

وقال مجاهد : حل منهاجه وسسته :

(إذا جاء به بقلب سليم) ، قال ابن عباس : يعنى شهادة أن لا إله إلا الله .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن حوف : قلت لمحمد بن سيرين : ما قلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حق ، وأن الساحة آتية لأبيه فيها ، وأن الله يبعث من في القبور .

وقال الحسن : سليم من الشرك .

وقال عروة : لا يكون لمانا .

وقوله : (إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون) ؟ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ، ولهذا قال : أنفكا كلمة دون الله يريدون . فأنظروا رب العالمين) - قال قتادة : ما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا بقيتموه وقد هدمتم غيره ؟ !

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي الشُّجَرِ ❶ فَقَالَ إِنْ سَقِمَ ❷ فَعَتَوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ❸ فَرَأَى إِلَـهَ الْغَيْمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ❹ مَا لَكُم لَّا تَعْقِلُونَ ❺ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرَبًا بِالْإِيمَانِ ❻ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ❼ قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَحْمِلُونَ ❽ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ❾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَهَنَّمَ ❿ فَاَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ ❶لَا أَعْقِلُونَ ❷

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى هبعهم ، فإنه كان قد أُرِفَ خروجهم إلى حيد لهم ، فأحب أن يخل بينهم فيكسروها ، فقال لهم كلاما هو حق في نفس الأمر ، فهدموا منه أنه سقيم على

مقتضى مايقصده ، (فتولوا عنه مدبرين) — قال قتادة : والمرب يقول لمن تفكر : نظر في النجوم ؛ يعني قتادة أنه نظر في السماء متفكرا فيما يليهيم به ، فقال : (إلى سقيم) ، أى : ضعيف .

فأما الحديث الذى رواه ابن جرير هاهنا :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثني هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كلمات : ثنتين في ذات الله ، قوله : (إلى سقيم) ، وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) ، وقوله في سورة : « هي (١) آتني »

فهو حديث غرغ في الصحيح (٢) والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يلم فاعله ، حاشا وكلا . وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا ، وإنما هو من الماريض في الكلام لقصد شرعى ديني ، كما جاء في الحديث : « إن للماريض لمنحة عن الكذب »

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن أبي بصير ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال — « مامنها كلمة إلا ماحل بها من دين الله تعالى ، (قال : إلى سقيم) ، وقال : (بل فعله كبيرهم هذا) ، وقال للملك حين أراد المرأة : هي آتني »

قال سفيان في قوله : (إلى سقيم) ، يعني : طعين : وكانوا يفرعون من المطعون ، فأراد أن يخبرهم : وكذا قال العوفي ، عن ابن عباس : (فخطر نظرة في النجوم . قال : إلى سقيم) ، فقالوا له وهو في بيت كفتهم : اخرج : فقال : إلى مطعون فتركوه عفاة الطاهرون :

وقال قتادة ، عن سعيد بن المسيب : رأى نبأ طلع فقال : (إلى سقيم) كابدني الله حين دينه (فقال إلى (٣) سقيم) ،

وقال آخرون : (فقال : إلى سقيم) بالنسبة إلى ما يستقبل ، يعني مريض الموت :

وتيل : أراد (إلى سقيم) ، أى : مريض القلب من حداثكم الأوثان من دون الله عز وجل .

وقال الحسن البصري : خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم ، فأرادوه على الخروج ، فاضطجع على ظهره وقال : (إلى سقيم) وجعل ينظر في السماء ، فلما خرجوا أقبل إلى كفتهم فكسرها : رواه ابن أبي حاتم .

ولهذا قال تعالى : (فتولوا عنه مدبرين) ، أى : إلى عيدهم ، (فراغ إلى كفتهم) ، أى : ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء ، (فقال : ألا تأكلون ؟) ، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتبرك لهم فيه :

قال السدي : دخل إبراهيم — عليه السلام — إلى بيت الآلهة ، فإذا هم في جهنم عظيمة ، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم ، إلى جنبه أصغر منه ، بعضها إلى جنب بعض ، كل صنم يليه أصغر منه ، حتى بلغوا باب البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاما وضوه بين أيدي الآلهة ، وقالوا : إذا كان حين نرجع وقد بركت الآلهة في طعامنا أكلنا ، فلما نظر إبراهيم — عليه السلام — إلى ما بين أيديهم من الطعام قال : (ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تتنطقون ؟)

(١) تفسير الطبري : ٤٥/٢٣ .

(٢) تقدم تخريج الحديث منه تفسير الآية الثالثة من سورة الأنبياء ، انظر : ٣٤٢/٥ — ٣٤٤ .

(٣) تفسير الطبري : ٤٥/٢٣ .

وقوله : (فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضُرِبًا بِالْيَمِينِ) - قال القرطبي : معناه مال عليهم ضربا باليمين (١) :

وقال قتادة والجرجري : فأقبل عليهم ضربا باليمين .

وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأكبر ، ولذا تركهم جلدًا إلا كبراً لهم لعلهم إليه يرجعون ، كما تقدم في سورة الأنبياء تفسير قتادة (٢) :

وقوله هاهنا : (فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْقُونَ) - قال عجاج وغير واحد : أي يسرعون :

وهذه القصة هاهنا مختصرة ، وفي سورة الأنبياء مبسطة ، فإنهم لما رجعوا ماعرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا ، فعرفوا أن إبراهيم - عليه السلام - هو الذي فعل ذلك . فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبتهم ، فقال : (أَنْتُمْ بِلُحُوبِكُمْ) ١٩ : أي : أنتم بكونكم من دون الله من الأصنام ما أنتم تحتونها وتجعلونها بآيديكم ٢٠ : (والله خلقكم وما تعملون) ، يجعل أن تكون « ما » مصدرة ، فيكون تقدير الكلام : (والله خلقكم) وعسلكم . ويحتمل أن تكون بمعنى « الذي » فتعبره : (والله خلقكم) والتي تعملونه . وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر ، لما رواه البخاري في كتاب « أعمال العباد » ، عن علي بن الحسين ، عن مروان بن معاوية ، عن أبي مالك ، عن ربيعة بن حبراش ، عن حنيفة مرفوعا قال : (إن الله يصنع كل صنعة وصنعتة .) وقرأ بعضهم : (والله خلقكم وما تعملون (٢)) .

فبعد ذلك لما قامت عليهم الحجة حللوا إلى أخذه باليد والظهر ، فقالوا : (ابنوا له بيانا فاقروه في الحجم) : وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء ، ونجا الله من النار وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ، ولذا قال تعالى : (ولقد آتينا بك حكما فبطلتهم الأسافل) :

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿١٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿٢١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرِي فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَبْنَئِي أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿٢٤﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَكِلْهُمْ ۖ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْلَاكَ الْمَلِكُ ﴿٢٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾ وَتَرَكَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٢٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٠﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى خبرا عن خليله إبراهيم : أنه بعد ما نصره الله على قومه وأبى من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة ، هاجر من بين أظهرهم ، وقال : (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ . رب هب لي من الصالحين) ، يعني : أولادا

(١) معاني القرآن للقرطبي : ٣٨٨/٢ . ولفظه : « مال عليهم ضربا » . ونحسب أن كلمة « باليمين » زيادة من الناسخ .

(٢) انظر : ٣٤٣/٥ .

(٣) أخرجه السيوطي في كتابه المشهور من البخاري ، والحاكم ، والبيهقي : ٢٧٩/٥ .

مطعين عرضاً من قومه وعشرته الذين قارقهم . قال الله تعالى : (فيشرناه بسلام حلیم) : وهذا السلام هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام — وهو أكبر من إسماعيل باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، بل من نص كتابهم أن إسماعيل ولد لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة ، وولد إسماعيل وعشر إبراهيم تسع وتسعون سنة . وعندهم أن الله — تعالى — أمر إبراهيم أن يبيع ابنه وحيداً ، وفي نسخة : يكرهه ، فأتهموا هاهنا كتباً وبشانا « إسماعيل » ، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أتهموا « إسماعيل » لأنه أبوه ، وإسماعيل أبو العرب ، فحسبهم فزادوا ذلك وحزقوا وحيداً ، بمعنى الذي ليس عنده غيره ، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة . وهذا تأويل وتحريف باطل ، فإنه لا يقال « وحيد » إلا لمن ليس له غيره ، وأيضاً فإن أول ولد [له مزة (١)] ما ليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بلبسه أبلغ في الابتلاء والاختبار .

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن النبیح هو إسماعيل ، وحكى ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضاً ، وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تُلغى إلا عن أخبار أهل الكتاب ، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة . وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر الإشارة بالسلام الحلیم ، وذكر أنه النبیح ، ثم قال بعد ذلك : (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) . ولا بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : (إنا نبشركم بسلام حلیم (٢)) ، وقال تعالى : (فيشرناها بإسحاق ومن وراء إسماعيل يعقوب (٣)) ، أي : يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذرية عقب ونسل . وقد قلنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بلبسه وهو صغير ، لأن الله قد وعدنا بأنه سيعقب ، ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بلبسه صغيراً ، وإسماعيل وصفت هاهنا بالحلم ، لأنه مناسب لهذا المقام .

وقوله : (فلما بلغ معه السعي) ، أي : كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه وبشيت معه . وقد كان إبراهيم — عليه السلام — يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأمه وولدته ببلاد « فلان (٤) » وينظر في أمرهما ، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك ، فلفقه أعلم .

وعن ابن عباس ، وعجايد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، وعطاء الخراساني ، وزيد بن أسلم ، وغيرهم : (فلما بلغ معه السعي) ، بمعنى : شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل ، (فلما بلغ معه السعي قال : يا بني ، إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى) — قال حيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحی ، ثم تلا هذه الآية : (قال : يا بني ، إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى) .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا حل بن الحسن بن الجندی ، (حدثنا [أبو عبد الملك الكرندي (٥)] ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن إسرائيل بن يونس ، عن سفيان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رؤيا الأنبياء في المنام وحی » . ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه .

(١) ما بين القوسين من الطبقات السابقة ، ومكانه في المخطوطة كلمة غير واضحة .

(٢) سورة الحجر ، آية ٥٣ .

(٣) سورة هود ، آية ٧١ .

(٤) فلان : كلمة عبرانية معربة ، وهي من أسماء مكة ، قيل : هراسم بلال مكة (يافوت) .

(٥) كلما في المخطوطة .

وإنما أحرم ابنه بذلك ليكون أهدى عليه ، وليخبر صبره وجلده وحرمة من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه .

(قال : يا أبت ، انفل ما توتر) ، أى : لئلا أمرك الله من ضيقى ، (ستجلبى إن شاء الله من الصابرين) ، أى : صابراً وأحسبه ذلك عند الله عز وجل . وصدق - صلواته الله وسلامه عليه - فيما وعد ، ولهذا قال الله تعالى : (ولذكر الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان هداه ربنا مرصيا (١)) .

قاله الله تعالى : (فلما أسلما وتله لجبين) ، أى : فلما تشهدا وذكر الله تعالى : إبراهيم على النبي والولد على شهادة الموت : وقبل : (أسلما) ، استسلما وانقادا : إبراهيم لامتثال أمر الله ، وإسماعيل طاعة الله وأبيه . قاله مجاهد ، وعكرمة والسدي ، وقتادة ، وابن إسحاق ، وغيرهم .

ومعنى (تله لجبين) ، أى : صرعه على وجهه ليبلغه من قفاه ، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ، ليكون أهدى عليه .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعبد بن جبر ، والنضحاك ، وقتادة : (وتله لجبين) : أكيه على وجهه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبي حنيفة ، عن ابن عباس ، عن أبي الطويل ، عن ابن عباس أنه قال : لما أمر إبراهيم بالناسك فترس له الشيطان عند السعى ، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمره البقية ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ضرب ، فقال له : يا أبت ، إنه ليس لك ثوب تكفئ في ضربه ، فأنطه حتى تكفئ فيهِ . فمالجه ليخلعه ، فتردى من خلقه : (أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا) ، فالتفت إبراهيم فإذا يكوش أبى القرن أعب - قال ابن عباس : لقد رأيتنا نتبع (٢) ذلك الضرب من الكباش (٣) .

وذكر تمام الحديث في « الناسك » بطوله . ثم رواه أحمد بطوله عن يونس ، عن حماد بن سلمة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فذكر نحوه إلا أنه قال : « وإسحاق » . فعن ابن عباس في تسمية النبي وإسحاق ، والأظهر أنه إسماعيل لما سئل بيانه .

وقال محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن دينار ، عن قتادة ، عن جعفر بن إياس ، عن ابن عباس في قوله : (وفد بناه بلذبح حظيم) ، قال : خرج عليه كيش من الجنة . قد دعى (٤) قيل ذلك أربعين حرفاً ، فأول إبراهيم ابنه وإتيه الكيش ، فأخرج به إلى الجمره الأولى ، فرماه بسبع حصيات فألقته عندها . فجاء الجمره الوسطى فأخرج به عندها ، فرماه بسبع حصيات ثم ألقته [فأدركه عند الجمره الكبرى ، فرماه بسبع حصيات فأخرج به عندها . ثم أخذ ، فلقى به المنحرف من منى فذهبه ، فواللهي فعرض ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام ، وإن رأس الكيش لمعلق بقربنيه في ميزاب الكعبة قد أحسن] .

يحيى : (٥) .

(١) سورة مريم : آية : ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) في المصنف : « تبع » . وفي تفسير الطبري ١/٢٢ : « يتبع » .

(٣) عند الإمام أحمد : ٢٩٧/١ .

(٤) في تفسير الطبري : « رماعا » .

(٥) تفسير الطبري : ١/٢٢ : « وما ينفق القرابين عنه » .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن الزهري ، أن نجرنا القاسم قال : اجتمع أبو هريرة وكعب ، فجلس أبو هريرة يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وجلس كعب يحدث عن الكُتُب ، فقال أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وإنني قد غيبتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة . فقال له كعب : أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : فذلك لي وأبي - أو : فله لي وأبي - ألا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام ؟ إنه لما أُرِيَ دَسِيسَ ابنه إسماعيل قال الشيطان : إن لم أَرَنْ حَوْلَهُ عند هذه لم أقتنهم أبدا . فخرج إبراهيم بابنه ليُبلِغَه ، فلعب الشيطان فدخل على سارة ، فقال : أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت : غدا به لبعض حاجته . قال : لم يبق حاجة . وإنما ذهب به ليُبلِغَه . قالت : وكَمْ يُلِغُه ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قالت : فقد أحسن أن يطيع ربه . فلعب الشيطان في أثرها فقال للغلام : أين يذهب بك أبوك ؟ قال : لبعض حاجته . قال : إنه لا يذهب بك حاجة ، ولكنه يلعب بك ليُبلِغَك . قال : ولم يُلِغني ؟ قال : زعم أن ربه أمره بذلك . قال : فوالله لأن كان الله أمره بذلك ليعملن . قال : فيس منه فالحق بإبراهيم . فقال : أين غلبت بابنك ؟ قال : لحاجة . قال : فذلك لم تعد به لحاجة ، وإنما غلبت به لئله . قال : وكَمْ أَكْذَبْه ؟ قال : تزعم أن ربك أمرك بذلك . قال : فوالله لأن كان الله أمرني بذلك لأفعلن . قال : فتركه ويس أن يطاع .

وقد رواه ابن جرير عن يونس ، عن ابن وهيب ، عن يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، أن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية التقي أخبره ، أن كعبا قال لأبي هريرة . . . فلذكره بطوله ، وقال في آخره : وأوصي الله إلى إسماعيل أن أعطيكم دعة أستجيب لك فيها . قال إسماعيل : اللهم ، إني أدهو أن تستجيب لي : أيما عبدك إليك من الأولين والآخرين ، لا يشر لك شيئا ، فأدخله الجنة (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن الوزير النحشي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم ، عن أبيه ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يخبرني أن يغفر نصف أمتي ، وبين أن أخفي شفاعتي ، فاختبئت شفاعتي ، ورجوت أن تكفر الجحيم لأمتي ، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتمجعت فيها دعوتي ، إن الله لما فرج عن إسماعيل كرب الذبح قيل له : يا إسماعيل ، سكتَ تَعَطُّهُ . فقال : أما والذي نفسي بيده لأعجلنها قبل نزغات الشيطان ، اللهم من مات لا يترك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة » .

هذا حديث غريب منكر ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث ، وأضحى أن يكون في الحديث زيادة مدرجة ، وهي قوله : « إن الله تعالى لما فرج عن إسماعيل . . . إلى آخره ، والله أعلم . فهذا إن كان مغفورا فالأشبه أن السائق إنما هو » « إسماعيل » ، وإنما حرقه إسماعيل ، حسدا منهم كما تقدم ، وإلا غلغلتك والباحث إنما عملها بمنى من أرض مكة ، حيث كان إسماعيل لإسماعيل ، فإنه إنما كان يبلاد كتمان من أرض الشام » .

وقوله تعالى : (وناديناه أن يا إبراهيم) . قد صدقت الرواية ، أي : قد حصل المقصود من رؤياك بإضحاكك ولذك للذبح .

وذكر السدي وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً ، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس ، ونودي إبراهيم - عليه السلام - عند ذلك : (قد صدقت الرضا) .

وقوله (إنا نلكم نغزي المحسنين) ، أي : هكذا نصرف عن أطاعنا للمكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ، ونخرجهم ، كقوله تعالى : (ومن بين الله جعل له فرجاً . وبرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء (١) قدراً) ،

وقد استدلل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل ، خلافاً لطائفة من المعتزلة ، والدلالة من هذه الظاهرة ، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذبح ولده ، ثم نسخه عنه وصرفه إلى القداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ، ولهذا قال تعالى : (إن هذا هو البلاء المبين) ، أي : الاختيار الواضح للجل ، حيث أمير بليغ ولده ، فسارع إلى ذلك مستتبلاً لأمر الله ، متقائاً لطاعته . ولهذا قال تعالى : (وإبراهيم الذي (٢) وفى) .

وقوله : (وفديناه بليح عظيم) - قال سفيان الثوري ، عن جابر الجعفي ، عن أبي الطفيل ، عن علي رضي الله عنه : (وفديناه بليح عظيم) ، قال : يكبش أبيض أمين أقرن ، قد ربط بسمرة - قال أبو الطفيل وجملوه مربوطاً بسمرة في ثبير (٣) .

وقال الثوري أيضاً ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كبش قادي ، في الجنة أبيض غريفاً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار ، حدثنا داود القطار ، عن ابن خثيم ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : الصخرة التي بنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه ، هبط عليه من ثبير كبش أمين أقرن له فداء ، فذبحه ، وهو الكبش الذي آثره ابن آدم فضيلته ، فكان غزواً حتى فدى به إسماعيل .

وروى أيضاً عن سعيد بن جبير أنه قال : كان الكبش يرتع في الجنة حتى تشقت عنه ثبير ، وكان عليه صهي (٤) أحمر .

وعن الحسن البصري : أنه كان اسم كبش إبراهيم : جبر .

وقال ابن جريج : قال عبيد بن عمر : ذبحه بالحق . وقال مجاهد : ذبحه بنى عند النحر . وقال هشيم ، عن سيار ، عن عكرمة : أن ابن عباس كان ألقى الذي جعل عليه [نذراً] أن ينحر نفسه ، فأمره بمائة من الإبل . ثم قال بعد ذلك : لو كنت أجيته [كبش لأجراه أن يذبح كبشاً ، فإن الله تعالى قال في كتابه : (وفديناه بليح عظيم) .

(١) سورة الطلاق ، آية : ٢ : ٣ .

(٢) سورة التيمم ، آية : ٣٧ .

(٣) تفسير الطبري : ٥٥/٢٣ . وفيه : موضع بنى .

(٤) الصوف : ٥ .

والصحيح الذي عليه الأكثر أنهُ قُدس بكبش : وقال الثوري ، عن رجل ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس في قوله :
(وفديناه ببيع حنظل) ، قال : وحمل (١)

وقال محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن حبيب ، عن الحسن أنه كان يقول : ما فدى إسماعيل إلا ببيع من الأزد (٢) ، أحبب
عليه من لير .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثني منصور ، عن خاله مسافع ، عن صفية بنت شيبة قاله : أخبرني امرأة
من بني سليم - وكنت عامية - أهل دارنا - أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة - وقال (٣) مرة :
إنها سألت عثمان : لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال : (إني كنت رأيتُ قرعة الكبش ، حين دخلت اليده ، فصبه
أن أمرك أن تحضرهما) (٤) ، فحضرهما ، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصل : قال سفيان : لم يزل قرعة
الكبش مقلبين في البيت حتى احرقوا البيت ، فاحرقوا (٥) .

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل - عليه السلام - فإن قريشا تولوا قرعة الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفا عن سلفه
وجيلا بعد جيل ، إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن البيع من هو ؟

ذكر من قال : هو إسحاق :

قال حمزة الزيات ، عن أبي ميسرة - رحمه الله - قال : قال يوسف - عليه السلام - الملاك في وجهه : ترهب أن
تأكل معي ، وأنا - والله - يوسف بن يعقوب نبي الله ، ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله (٦) .
وقال الثوري ، عن أبي سنان ، عن ابن أبي المليح : أن يوسف عليه السلام قال للملاك كذلك أيضا .

وقال سفيان الثوري ، عن زيد بن أسلم ، عن عبد الله بن عبيد بن جبر ، عن أبيه قال : قال موسى : يا رب ، يقولون
يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يمدك في شيء قط إلا انتظرت عليه : وإن إسحاق جاد
لي بالبيع ، وهو بفكر ذلك أجود . وإن يعقوب كلما زاده بلاء زادني حسن ظن .

وقال شعبه ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص قال : افتخر رجل عند ابن مسعود قال : أنا فلان بن فلان ، ابن
الأشياخ الكرام . فقال عبد الله : ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ،

(١) القول - بفتح كسر - : التيسر الجبل .

(٢) الأزد : جمع أروية - بضم فسكون ، فكر الرواد : قرية مشقة - وهي الشاة الواحدة من شياه الجبل ، وقيل :
أنش الوهول ، وهي ثوب من الجبل .

(٣) في الخطبة : «وقالت» ، والمثبت عن المسند في الموضوعين اللذين ستذكرهما به .

(٤) التخيير : التعلية .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦٨/٤ ، ٣٨٠/٥ .

(٦) تفسير الطبري : ٢٣/٢٠٤ .

وهذا صحيح إلى ابن مسعود ، وكذا روى عكرمة ، عن ابن عباس أنه إسحاق . وعن أبيه العباس ، وحلى بن أبي طالب مثل ذلك . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والشعبي ، وعبيد بن حمير ، وأبو ميسرة ، وزيد بن أسلم ، وعبد الله بن شقيق ، والزهرى ، والقاسم بن أبي يَزْة ، ومكحول ، وعثمان بن حاضر ، والسدى ، والحسن ، وقتادة ، وأبو الخليل ، وابن سابط . وهو اختيار ابن جرير . وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق .

وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر ، عن الزهرى ، عن أبي سفيان بن العلاء بن جارية ، عن أبي هريرة ، عن كعب الأحبار ، أنه قال : هو إسحاق (١) ،

وهذه الأقوال - والله أعلم - كلها مأخوذة عن كعب الأحبار ، فإنه لما أسلم في الدولة الممصرية جعل يحدث عمر رضى الله عنه عن كعب ، فرمما استمع له عمر رضى الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ، ونقلوا عنه غشها وسميتها ، وليس لهذه الأمة - والله أعلم - حاجة إلى حرف واحد مما عنده . وقد حكى الباقى هذا القول بأنه إسحاق عن عمر ، وحلى ، وابن مسعود والعباس ، ومن التابعين عن كعب الأحبار ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، ومسروق ، وعكرمة ، ومقاتل ، وعطاء ، والزهرى ، والسدى - قال : وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ،

وقد ورد في ذلك حديث - لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ، ولكن لم يصبح سنده - قال ابن جرير :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن حُبَاب ، عن الحسن بن دينار ، عن حلى بن زيد بن جُدعان ، عن الحسن ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديث ذكره قال : هو إسحاق .

ففى إسناد ضعیفان ، وهما الحسن بن دينار البصرى ، ومروك . وحلى بن زيد بن جُدعان منكر الحديث . وقد رواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن حماد بن سلمة ، عن حلى بن زيد بن جُدعان ، به مرفوعا . ثم قال : قد رواه مبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن الأحنف ، عن العباس قوله ، وهذا أشبه وأصح .

[ذكر الآثار الواردة بأنه اسماعيل - عليه السلام - وهو الصحيح المطروح به]

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس أنه إسحاق ، قال سعيد بن جبير ، وعامر الشعبي ، ويوسف بن مهران ، ومجاهد ، وعطاء ، وغير واحد ، عن ابن عباس ، هو اسماعيل عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن قيس ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس أنه قال : لقدئى اسماعيل عليه السلام ، وزعت اليهود أنه إسحاق ، وكلبت اليهود (٢) .

وقال إسرائيل ، عن ثور ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : اللبيح اسماعيل .

وقال ابن أبي نجيب ، عن مجاهد : هو اسماعيل . وكذا قال يوسف بن مهران ،

وقال الشعبي : هو اسماعيل عليه السلام . وقد رأيت قرنى الكهش في الكعبة ،

(١) تفسير الطبرى : ٥٢٢٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ٥٢٢٣ - ٥٣ .

وقال محمد بن إسحاق ، عن الحسن بن دينار وعمر بن عبيد ، عن الحسن البصري : أنه كان لا يشك في ذلك : أن الذي أمر بنوح من أبي إبراهيم إسماعيل .

قال ابن إسحاق : وسمعت محمد بن كعب القرظي (وهو) يقول : إن الذي أمر الله إبراهيم بنوح من أبيه إسماعيل : وإنما نجا ذلك في كتاب الله ، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبح من أبي إبراهيم قال : (وبشرناه بإسحاق نيا من الصالحين) يقول (١) الله تعالى : (وبشرناه بإسحاق ومن وراءه إسحاق يعقوب) ، يقول : بآبى وابن آبى ، فلم يكن ليأمره ببيع إسحاق وله فيه من الموعود بما وعده ، وما الذي أمر بنوح إلا إسماعيل .

وقال ابن إسحاق ، عن يريدة بن سفيان بن قروة الأسدي ، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم : أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام ، فقال له عمر : إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت : ثم أرسل إلى رجل (كان) عنده بالشام ، كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمهم ، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك — قال محمد بن كعب : وأنا عند عمر بن عبد العزيز — فقال له عمر : أي أبي إبراهيم أمر بنوح ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن يهود تعلم بذلك ، ولكنهم يمدونكم معشر العرب ، على أن يكون أبائكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجعلون ذلك ، ويؤمنون أنه إسحاق ، يكون إسحاق أبويهم ، والله أعلم بأبائكم ، وكل قد كان طاهرا عليا مطعيا لله عز وجل (١) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل — رحمه الله — سألت أبي عن النبي ، من هو ؟ إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال : إسماعيل . ذكره في كتاب الزهد .

وقال ابن أبي حاتم : وسمعت أبي يقول : الصحيح أن النبي إسماعيل عليه السلام . قال : ورؤي من علي ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، وأبي الطفيل ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد ، وأنشبي ، ومحمد بن كعب القرظي ، وأبي جعفر محمد بن علي ، وأبي صالح أنهم قالوا : للنبي إسماعيل .

وقال البيهقي في تفسيره : وإليه ذهب عبد الله بن عمر ، وسعيد بن المسيب ، والسدي ، والحسن البصري ، ومجاهد ، والربيع بن أنس ، ومحمد بن كعب القرظي ، والكلبي . وهو رواية . عن ابن عباس ، وحكاها أيضا عن أبي عمرو ابن العلاء .

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا قال : حدثني محمد بن عمار الرازي ، حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة ، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الحطائي ، عن عبيد الله بن محمد العتيبي — من ولد عتبة بن أبي سفيان — عن أبيه : حدثني عبد الله ابن سعيد ، عن الصمدي قال : كنا عند معاوية بن أبي سفيان ، فذكروا النبي : إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال : حل الأخير مستظلم ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاه رجل فقال : يا رسول الله ، عبد علي ما أماء الله عليك يا ابن النبيين . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، وما النبيان ؟ فقال : إن عبد المطلب لما أمر

(١) لفظ الطبري ٤/ ٢٣ هـ : يقول : وبشرناه بإسحاق ومن وراءه إسحاق يعقوب هـ .

بغير زعم نزل الله إن سهل أمرها عليه ، ليكتب حسن لشد ولده ، قال : فخرج السهم على عبد الله ، ففهم أحواله وقالوا :
أفد ابنك بمائة من الإبل . ففداه بمائة من الإبل ، وإسحاق الثاني (١) :

وهذا حديث غريب جداً ، وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا ، أخبرنا إسحاق بن حبيب بن أبي كريمة ،
حدثنا حرب بن عبد الرحمن القرظي ، حدثنا عبيد الله بن محمد الغني . من ولد حنيفة بن أبي سفيان — حدثنا عبيد الله بن سعيد ،
حدثنا الصباحي قال : حضرنا ابن جليس معاوية ، فذكر القوم لإسحاق ، وذكره . كذلكه من نسخة (مخطوطة (٢)) :
وإنما حوكن ابن جرير في اختياره أن اللبنيح إسحاق على قوله تعالى : (فبشرناه بسلام حليم) ، فجعل هذه البشارة
هي البشارة بإسحاق في قوله : (وبشروه بسلام حليم) . وأجاب عن البشارة يعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي ، أي العمل ،
ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضاً . قال : وأما القرآن اللذان كانا معلقين بالكعبة فن الجائر أنها نقلنا
من بلاد الشام . قال : وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه [ذبيح (٣)] إسحاق هناك . هذا ما اعتمد عليه في تفسيره ،
وليس ما ذهب إليه بلعجب ولا لازم ، بل هو بعيد جداً ، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسحاق أثبت وأصح
وأقوى ، والله أعلم .

• • •

وقوله : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) ، لما تعلقت البشارة باللبنيح — وهو إسحاق — عطف بذكر البشارة بأخيه
إسحاق ، وقد ذكرت في سورة هود ، والحجر (٤) :

وقوله : (ليا) حال مقدرة ، أي : سيصير منه نبي من الصالحين .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن حنكة ، عن داود ، عن حكيم قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما :
للذبيح إسحاق قال : وقوله : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) ، قال : بشر بنيوته . قال : (ووهبنا له من
رحمتنا أخاه هارون نبياً) ، قال : كان هارون أكبر من موسى ، ولكن أراد : وهب له نبوته .

وحدثنا ابن عبد الأمل ، حدثنا لمصر بن سليمان قال : سمعتُ داود يحدث ، عن حكيم ، عن ابن عباس في هذه
الآية : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) ، قال : إنما بُشِّرَ به نبياً حين فداه الله من الذبيح ، ولم تكن البشارة بالنبوة عند
مولده (٥) .

وقال (ابن أبي حاتم) : حدثنا أبي ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان الثوري ، عن داود ، عن حكيم ، عن ابن عباس :
(وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) ، قال : بُشِّرَ به حين ولد ، وحين نُفِثَ .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة في قوله : (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) ، قال : بعد ما كان من أمره ،
لما جاد الله بنفسه (٥) . وقال الله : (وإبرأنا عليه وعلى إسحاق) .

(١) تفسير الطبري : ٤٢/٢٣ .

(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

(٣) في المخطوطة : « أنه ذبح إسحاق » . واختلفت عن الطبعات السابقة . لفظ الطبري : ٤٢/٢٣ . وقد زوى عن جماعة
من أهل العلم أن إبراهيم إنما أمر ببيع ابنه إسحاق بالتمام .

(٤) انظر تفسير الآية الحادية والستين من سورة هود : ٢٦٤ - ٢٦٦ ، والآية الثالثة والخمسين من سورة الحجر :
٤٥٨/٤ - ٤٥٩ .

(٥) تفسير الطبري : ٥٧/٢٤ .

وقوله : (وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتها بحسن وظالم لنفسه مبين) ، كقوله تعالى : (قيل يا لوط ، اهبط إلى سلامنا وباركنا عليك ، وعلى أمم عن معك ، وأمم سمتهم ثم يمتهمنا حطاب ألم) (١) .

وَلَقَدْ مَتَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۖ وَخَيَيْنَهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۖ وَتَوَّسَّوْنَهُمْ فَكَفَرُوا بِهٖمُ الْغَلِيظِينَ ۖ وَآتَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَفِيرَ ۖ وَهَدَيْنَهُمَا السَّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۖ وَتَرَكَآ عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ۖ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۖ إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۖ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۖ

يلكى تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة عن آثم معيها ، من قهر فرعون وقومه ، وما كان يحمله في حقهم من الإساءة العظيمة ، من قتل الأبناء واستحياء النساء ، واستعالم في أخس الأشياء . ثم بعد هلاكه نصرهم عليهم ، وأقر أعينهم منهم ، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأبوالهم وما كانوا يجمعوه طول حياتهم . ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين ، وهو التوراة ، كما قال تعالى : (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء (٢)) ، وقال هاتما : (وآتيناهم الكتاب للتبين . وهديناها السراط المستقيم) ، أى : في الأقوال والأفعال ، (وتركنا عليهما في الآخرين) ، أى : أبقينا لما من بعدهما ذكرا جديلا وثنا حسنا ، ثم فسر بقوله : (سلام على موسى وهارون . إننا كذلك نجزي المحسنين . إننا كذلك نجزي المؤمنين) .

وَإِنِ الْيَاسَ لَبَيْنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ۖ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ۖ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۖ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ ۖ إِلَآ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۖ وَتَرَكَآ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۖ سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ۖ إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۖ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

قال قتادة ، ومحمد بن إسحاق ، يقال : إلياس هو إدريس .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو ثعلبة ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبيدة بن ربيعة ، عن عبد الله ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : إلياس هو إدريس . وكلنا قال الضحاك .

وقال وهب بن منبته : هو إلياس بن (ياسين (٣)) بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران ، بعث الله في بني إسرائيل بعد حزقيل عليها السلام ، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له « بعل » ، فدعاهم إلى الله ، ونهاهم عن عبادة ما سواه . وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد ، واستمر على ضلالتهم ، ولم يؤمن به منهم أحد . فدعا الله عليهم ، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين ، ثم سأله أن يكشف ذلك عنهم ، ووعدوه الإيمان به إن هم أصابهم المطر . فدعا الله لهم ، فجاءهم الغيث فاستمروا على أعنبت ما كانوا عليه من الكفر ، فقال الله أن يقبضه إليه . وكان قد نشأ على يد ياليس بن أعطوب - عليه السلام - فأمر إلياس أن ينهب إلى (مكان) كذا وكذا ، فيها جاه فليركبه ولا يجبه ، فجاءته فرس من نار فركب ، وأبسه الله النور وكساه الريش ، وكان يطير مع الملائكة ملكا إنسيا ساويا أرضيا ، هكلما حكاه وهب عن أهل الكتاب ، والله أعلم بصحته (٤) .

(١) سورة هود ، آية : ٥٨ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٥٨ .

(٣) في المخطوطة : « نسي » . والمثبت من تفسير الطبري .

(٤) انظر تفسير الطبري : ٥٩/٢٢ - ٦٠ .

(إِنْ تَأْتُوا الْقَوْمَ : أَلَا تَتَقُونَ ؟) أى : أَلَا تَخَافُونَ اللَّهَ فِي عِبَادَتِكُمْ خِيَرَهُ ؟ (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) ؟ قَالَ ابْنُ حِبَّاسٍ ، وَجَاهِدٌ ، وَعِكْرَمَةُ ، وَتُقَادَةُ ، وَالسُّدَى : [بَعْلًا] ، يَتْنَى : وَبَيْتٌ .

قَالَ تُقَادَةُ وَعِكْرَمَةُ : وَهِيَ لُفَةُ أَهْلِ الْيَمَنِ . وَفِي رَوَايَةٍ عَنْ تُقَادَةَ قَالَ : هِيَ لُفَةُ لَزْدِ شَتُّومَةٍ ،

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : أَخْبَرَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ كَانُوا يَعْبُدُونَ امْرَأَةً اسْمُهَا « بَيْل » ،

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، عَنْ أَبِيهِ : هُوَ اسْمُ صِنْمٍ كَانَ يَعْبُدُهُ أَهْلُ مَدِينَةِ بَقَالٍ مَا « بَعْلِيكَ » ، غَرِيبٌ وَمَشْقُوعٌ

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : هُوَ صِنْمٌ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ ،

وَقَوْلُهُ : (أَتَدْعُونَ بَعْلًا) ؟ أى : أَتُعْبُدُونَ صِنْمًا ؟ (وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) : اللَّهُ دِينُكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ، ، أى : أَلَمْ تَتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى ؟ (فَكَلِمَةُ فُلَانٍ هَضْرُونٌ) ، أى : كَلِمَةُ لَبَّابٍ يَوْمَ الْحِسَابِ ، (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) ، أى : الْمُوَحِّدِينَ مِنْهُمْ ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُتَقَطِعٌ مِنْ مَقْصِدٍ .

وَقَوْلُهُ : (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) ، أى : ثَنَاءٌ جَمِيلًا ، (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) ، كَمَا يُقَالُ فِي إِبْرَاهِيمَ : إِبْرَاهِيمُ . وَهِيَ لُفَةُ بَنِي أَسَدَ ، وَأَشْفَدُ بَعْضُ بَنِي نَعْمَرٍ فِي غُضْبٍ صَادِهِ (١) .

يَقُولُ رَبِّ السَّوْقِ لَسْنَا نَجِيئًا هَكَذَا وَرَبِّ الْبَيْتِ إِسْرَافِيئًا

وَيَقَالُ : مِيكَالُ ، وَمِيكَائِيلُ ، وَمِيكَائِيلُ . وَإِبْرَاهِيمُ ، وَإِبْرَاهِيمُ . وَإِسْرَافِيلُ . وَإِسْرَافِيلُ . وَطُورُ سَيْنَاءَ ، وَطُورُ سَيْنَاءَ ، وَهُوَ مَوْضِعٌ وَاحِدٌ ، وَكُلُّ هَذَا سَائِقٌ ،

وَقَرَأَ آخَرُونَ : (سَلَامٌ عَلَى إِدْرَاسَ بْنِ) ، وَهِيَ قُرَافَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودَ ، وَآخَرُونَ : (سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ) ، يَتْنَى : أَلَمْ نَحْمَدِ صِلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَوْلُهُ : (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْخَيْرَ) ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، ، قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ ،

وَإِنْ لَوْ لَمْ يَلَمْزِ الْمُرْسَلِينَ (١٦) إِذْ يُحْيِيهِمْ وَأَهْلُهُمْ أَجْمَعِينَ (١٧) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَنِيِّ (١٨) ثُمَّ دَرَسْنَا الْآخِرِينَ (١٩) وَلَنْ يَكُنْ لَكُمْ لِيَعْرِفُونَ عَلَيْهِمْ مَضْرُوبِينَ (٢٠) وَيَأْتِيهِمْ أَفْئَالٌ تَعْتَلُونَ (٢١)

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادَةِ وَرَسُولِهِ لُوطَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ فَكَلِمَهُ ، فَجَاءَهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ هُوَ وَأَهْلُهُ ، إِلَّا امْرَأَتَهُ فَلَهَا هَلَكَتْ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَوْمِهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَهْلَكَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابَاتِ ، وَجَعَلَ مَحَلَّتَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ

(١) معاني القرآن للقرطبي : ٢ / ٣٩١ ، وتفسير الطبري : ٢٣ / ٦١ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان : ٧ / ٣٧٢ - ٣٧٤ . وتفسير الطبري : ٢٣ / ٦٣ .

بحيرة مستنقحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسيل مقيم يمر بها المسافرين ليلاً ونهاراً . ولما قال : (واذكروا نوحاً عليه السلام) ، وبابيل أفلا تقولون () ، أى : أفلا تتصرون بهم ، كيف دمر الله عليهم ، وتعلمون أن للكافرين أمثالها ؟

وَإِنْ يُؤْخَذُ لِمَنْ أُرْسِلِينَ ﴿١٥﴾ إِذْ أَبَى إِلَى آلِفَالِكِ الْمُشْحُونِ ﴿١٦﴾ فَسَأَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٧﴾ فَأَلْتَقَمَهُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٨﴾ فَعَلَوْا أَنْهَرَكَا مِنَ الْمُسِيِّينَ ﴿١٩﴾ كَيْفَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾ * فَبَدَّلَ لَهُ الْعَرَاءُ وَهُوَ سَعِيمٌ ﴿٢١﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ نَجْمَةً مِنْ يَقْلِينِ ﴿٢٢﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿٢٣﴾ فَآمَنُوا فَنَجَّيْنَاهُمْ إِلَى جِوْنِ ﴿٢٤﴾

قد تقدمت قصة يونس - عليه السلام - في سورة الأنبياء (١) . وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ينهى لبعده أن يقول : أنا خير من يونس بن متى وتَسَبَّه إلى أمه (٢) » ، وفي رواية قيل : « إلى أبيه » .

وقوله : (إِذْ أَبَى إِلَى آلِفَالِكِ الْمُشْحُونِ) - قال ابن عباس : هو للوقت . أى : المملوء بالأمته :

(فسام) ، أى : قارع ، (فكان من المدحضين) ، أى : المنلوين . وذلك أن السفينة تكتعب بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الفرق ، فساموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر ، لتخف بهم السفينة ، فوقع القرعة على نبي الله يونس - عليه الصلاة والسلام - ثلاث مرات ، وهم يفتنون به أن يلقى من بينهم ، فتجدد من ثيابه ليلتي نفسه وهم يأبون عليه ذلك . وأمر الله تعالى حوثاً من البحر الأخضر أن يشق البحار ، وأن يلتقم يونس - عليه السلام - فلا يؤشس له لها ، ولا يكرس له عظاماً . فجامدك الحوت والقي يونس - عليه السلام - نفسه ، فالتقمه الحوت ، وذهب به فطاف به البحار كلها . ولما استقر يونس في بطن الحوت ، حسب أنه قد مات ، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي ، فقام يصل في بطن الحوت ، وكان من جملة دعائه : « يا رب ، اخلت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس » . واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت ، فقيل : ثلاثة أيام . قاله قتادة . وقيل : جمعة (٣) . قاله جعفر الصادق . وقيل : أربعين يوماً ، قاله أبو مالك .

وقال مجاهد ، عن الشعبي : التقمه ضحى ، وقلقه عشية .

والله أعلم بمقدار ذلك . وفي شعر أمية بن أبي الصلت (٤) :

وَأَنْتَ بِفَضْلِكَ مِثْلُكَ تَجِيتَ يُونُسًا وَقَدْ بَكَتَ فِي أَصْحَافِ حَوْتٍ لِيَالِيَا

(١) انظر : ٣٦٥ - ٣٦٤ .

(٢) البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ الْمَرَسِلِينَ) : ١٩٣/٤ . ومسلم ، كتاب التفسير ، باب : في ذكر يونس عليه السلام ، وقول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا ينهى ... » : ١٢٢/٧ - ١٢٣/٤ .

(٣) كذا في المخطوطة . وفي الطبقات السابقة : « سبعة » .

(٤) سيرة ابن هشام : ٢٢٨/١ .

وقوله : (فلما أنه كان من المسيحين) ، ثبت في بطله إلى يوم يبعثون) ، قيل : لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء : قاله الفضالة بن قيس ، وأبو العالية ، ووهب بن منبه ، وقادة ، وغير واحد ، واختاره ابن جرير . وقد ورد في الحديث الذي سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر : وفي حديث عن ابن عباس : « تحرف إلى الله في الرخاء يرفلك في الشدة » . وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والفضالة ، وهطاء بن السائب ، والسدي ، والحسن ، وقادة : (فلما أنه كان من المسيحين) ، يعني : للمسلمين .

وصرح بعضهم بأنه كان من المسلمين قيل ذلك : وقال بعضهم : كان من المسلمين في جوف أبيه : وقيل المراد : (فلما أنه كان من المسلمين) ، هو قوله : (فتأذى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين) ، فاستجبت له وبغيتاه من النعم وكذلك نبي المؤمنين) ، قاله سعيد بن جبير وغيره .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو حنيفة ابن أنس بن وهب ، حدثنا حمي ، حدثنا أبو صخر : أن يزيد الرقاشي حدثه : أنه سمع أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن يونس النبي - صلى الله عليه وسلم - حين بدا له أن يذهب إليه الكليات ، وهو في بطن الحوت ، قال : « اللهم ، لا إله إلا أنت سبحانه ، إني كنت من الظالمين » ، فأقبلت السمكة تحت بالعرض ، قالت لللاككة : يارب ، هذا صوت ضيف معروف من بلاد بعيدة غريبة ؟ قال : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يارب ، ومن هو ؟ قال : حبيبي يونس . لا قالوا : حبيبي يونس ؟ الذي لم يزل يرفع له حل مقبل ، ودعوة مستجابة ؟ قالوا : يارب ، أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتجنيه من البلاء ؟ قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه بالمرأى^(١) .

ورواه ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب ، به^(٢) : زاد ابن أبي حاتم : « قال أبو صخر حميد بن زياد : فاعترف ابن قسيط وأنا أحده هنا الحديث : أنه سمع أبا هريرة يقول : طرح بالمرأى ، وأثبت الله عليه القبطية . قلنا : يا أبا هريرة ، وما القبطية ، قال : شجرة الدباء . قال أبو هريرة : وحيّا الله له أروية^(٣) وحشية تأكل من خشاش الأرض - لو قال : خشاش الأرض - قال : فتشكش^(٤) عليه فتقرّوه من لبنهاكل عسقية وبكرة حتى تبت .

وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتا من شعره :

فأثبتت يقطينا عليه برحمة من الله ، لولا الله القبي ضحيا

وقد تقدم حديث أبي هريرة مستأ مرفوعا في تفسير سورة الأنبياء : «

ولمّا قال تعالى : (فبئانه) ، أي : أقتناه (بالمرأى) - قال ابن عباس ، وغيره : وهي الأرض التي ليس بها نبات ولا بناء : قيل : على جانبها دجلة . وقيل : بأرض اليمن . فآله أعلم :

(١) تقدم هذا الخبر بهذا المتن عند تفسير الآية السابعة والثلاثين من سورة الأنبياء ، وخرجناه هناك ، انظر : ٣٦٢/٥ .

(٢) تفسير الطبري : ٦٤/٢٣ .

(٣) الأروية - بضم فسكون ، فراو مكسورة - نياه شدة - : لثاة الحليّة . وخشاش الأرض : حوامها ومطراتها .

(٤) تشكش : يخرج ما بين رجلها ، ويقال يالجح والهاء المهملة .

(وهو سقيم) ، أي : ضعیف البدن . قال ابن مسعود رضى الله عنه : كهية القرخ ليس عليه ريش : وقال السدي : كهية الصبي حين يولد ، وهو المتفوس . وقاله ابن عباس ، وابن زيد أيضا :
(وأنبأنا عليه شجرة من يقطين) ، قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وبجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، وهوب بن منبه ، وهلال بن يساف ، وعبد الله بن طلوس ، والسدي ، وقادة ، والفصاحك ، وعطاء الخراساني ، وغير واحد قالوا كلهم : اليقطين هو القرع .

وقال هشيم ، عن القاسم بن أبي أيوب ، عن سعيد بن جبیر : كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين (١) .
وفي رواية عنه : كل شجرة تنبتك من عاصمها فهي من اليقطين :

وذكر بعضهم في القرع فوائد ، منها : مرحة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ، وتعمته ، وأنه لا يقربها الذباب ، ووجوده أغلبية ثمره ، وأنه يؤكل نبتا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا . وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب البياض ، ويتبعه من حواشي الصحفة (٢) .

وقوله تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) -- روى شهر بن حوشب ، عن ابن عباس أنه قال : إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذ الحوت . رواه ابن جرير : حدثني [الحارث قال : حدثنا الحسن قال : حدثنا (٣) أبو هلال ، عن شهر ، به (٤) .

وقال ابن أبي سريج ، عن مجاهد : أرسل إليهم قبل أن يلقمهم الحوت :

قلت : ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا ، أمر بالعدو إليهم بعد خروجه من الحوت ، فمصدقو كلهم وآمنوا به . وحكي البصري أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون :

وقوله : (أو يزيدون) ، قال ابن عباس -- في رواية عنه -- : بل يزيدون ، وكانوا مائة وثلاثين ألفا : وعنه : مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفا . وعنه : مائة ألف وبضعة وأربعين ألفا :

وقال سعيد بن جبیر : يزيدون سبعين ألفا :

وقال مكحول : كانوا مائة ألف وعشرة آلاف : رواه ابن أبي حاتم :

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي ، حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال : سمعت زهيراً عن سمع أبي العالية قال : حدثني أبي بن كعب (٥) أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) ، قال : يزيدون عشرين ألفا (٦) :

(١) تفسير الطبري : ٦٥/٢٣ .

(٢) الليثي ، كتاب الأسماء ، باب : الثريد ، ٩٨/٧ . وياقوت من : ناول أوتهم إل صاحبه على المائدة : شيئا . ١٠٢/٧ .

(٣) ما بين القوسين من تفسير الطبري .

(٤) تفسير الطبري : ٦٧/٢٣ .

(٥) في خطبة الأثر : محمد بن أبي بن كعب . والمثبت من تفسير الطبري : والدار المنيرة : ٢٩١/٥ .

(٦) تفسير الطبري : ٩٧/٢٣ .

ورواه الترمذي عن علي بن حجر، عن الوليد بن مسلم، عن زهير، عن رجل، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب، به ، وقال : « غريب (١) » . ورواه ابن أبي حاتم من حديث زهير ، به .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك : معناه إلى المائة الألف ، أو كانوا يزينون عندهم ، يقول : كذلك كانوا عندهم .

وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة (٢)) ، وقوله : (إذا فريق منهم ينجشون الناس كخشية الله أو أشد خشية (٣)) . وقوله : (فكان قاب قوسين أو أدنى (٤)) أن المراد ليس أنقص من ذلك ، بل أزيد .

وقوله : (فآمنوا) ، أي : فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم ، (ففتحناهم إلى حين) ، أي : إلى وقت أجلم ، كتوله : (فلولا كانت قرية آمنت فظعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، وفتحناهم إلى حين (٥)) .

فَاسْتَفْتَيْنَاهُمُ أَلَيْسَ الْبَنَاتُ لَكُمْ أَبْنَاءُ ۖ أَمْ أَفْلَحَ الْيَهُودُ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْسَانًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ لَدُنْهُمْ أَفْئِدَةٌ ۖ وَلَدَّ اللَّهُ ۚ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۖ أَصْطَلَى الْبَنَاتُ عَلَى الْبَنِينَ ۖ مَالِكُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُبِينٌ ۚ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا ۚ وَقَدْ عَلِمْتِ الْخُنْءَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۚ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۚ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۚ

يقول تعالى متكرراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله البنات - سبحانه - ولم ما يشتهون ، أي : من التكاثر . أي : يتودون لأنفسهم الجيد . (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم (٦)) ، أي : يسوؤه ذلك ، ولا يختار لنفسه إلا البنين . يقول تعالى : فكيف نسبوا إلى الله القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم ؟ ولهذا قال : (فاستفتهم) ، أي : سألهم على سبيل الإنكار عليهم : (أليكن البنات ولهم البنون) ؟ كقوله : (أليكن الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى (٧)) .

(١) تحفة الأحرف : تفسير سورة المسافات : الحديث ٣٢٨٧ : ٩٧/٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية : ٧٤ ، وانظر : ١٦٣/١ .

(٣) سورة النساء : آية : ٧٧ .

(٤) سورة النجم : آية : ٩ .

(٥) سورة يونس : آية : ٩٨ .

(٦) سورة القتل : آية : ٥٨ .

(٧) سورة القلم : آية : ٢٩ ، ٢٧ .

وقوله : (أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شامدون) . أى : كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم ؟
كقولہ : (وجعلوا للملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا . أشهدوا خلقهم ؟) مكتوب شهادتهم ويسألون (١) ، أى : يسألون
عن ذلك يوم القيامة ؛

وقوله : (ألا إنهم من إنكهم) ، أى : من كنسهم (ليقولون : ولد الله) ، أى : صدر منه الولد ، (وأنهم لكاذبون)
فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكلب ، فأولاً جعلهم بنات الله ، فجعلوا لله ولداً . وجعلوا ذلك
الولد أنثى ، ثم هبواهم من دون الله . وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم ؛

ثم قال منكرا عليهم : (أصطفى البنات على البنين) ، أى : أى شئ يحمله من أن يختار البنات دون البنين ؟ كقوله :
(أأصابكم ربكم بالبلية) ولقد من الملائكة إناثا ؟ إنكم تقولون قولاً عظيماً (٢) . ولهذا قال : (مالكم كيف تكونون) ؟ أى :
مالكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ؟ أفلا تتذكرون . أم لكم سلطان مبين) ، أى : حجة على ما تقولونه ، (فأولاً بكتابتكم
إن كنتم صادقين) ، أى : ها هنا برهان على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء عن الله : أنه اتخذ ما تقولونه ،
فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يجوزُهُ العقل بالكلية .

وقوله : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) ، قال مجاهد : قال المشركون : للملائكة بنات الله . فسأل (٣) أبو بكر وعمر الله
عنه : فمن أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سرورات الجن (٤) . وكذا قال قتادة وابن زيد . ولهذا قال تعالى : (ولقد علمت الجنة) ،
أى : الذين سبوا إليهم ذلك : (إنهم حضرون) ، أى : إن الذين قالوا ذلك حضرون في العذاب يرم الحساب ليكنسهم في
ذلك والقرائهم ، وقولهم اليائس بلا علم .

وقال المولى عن ابن عباس في قوله : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) ، قال : زعم أهلنا الله أنه تبارك وتعالى هو
وليئليس أخوان . حكاه ابن جرير (٥) .

وقوله : (سبحان الله عما يصفون) ، أى : تعان وتفس وتتره من أن يكون له ولد ، وما يصفه به الظالمون للحميون
خلوا كبيراً .

وقوله : (إلا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع ، وهو من مثبت ، إلا أن يكون التفسير في قوله : (عباد يصفون)
عالم إلى جميع الناس م استثنى منهم المخلصين . وهم للتبعون الحق المتزل على كل نبي ومرسل . وجعل ابن جرير هنا
الاستثناء من قوله : (إنهم حضرون ... إلا عباد الله المخلصين) ، وفي هذا التفسير قاله نظر (٦) .

(١) سورة الزخرف ، آية : ١٤ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٥٠ .

(٣) في المخطوطة : « قال أبو بكر » . والمثبت من تفسير الطبري .

(٤) تفسير الطبري : ٢٤ / ٩٩ .

فَإِن كَرِهْتُمُ يَعْبُدُونَهُ ۖ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَعَّالِينَ ﴿١٦٧﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٨﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٩﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٧٠﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُنَّ ﴿١٧٢﴾ لَوْ أَنَّا عِدَّتْنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧٣﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٧٤﴾ فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين : (فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفائزين . إلا من هو صال الجحيم) ، أى : لا ما لا يتقاد لمخالكم وما أنتم عليه من الفضلة والعبادة الباطلة إلا من هو أصل منكم من ذرى لئار (١) : (لم قلوب لا يفقهون بها ، ولم آمن لا بصرون بها ، ولم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون (٢)) : فهذا الضرب من الناس هو الذى يتقاد لدين الشرك والكفر والفضالة ، كما قال تعالى : (إنك لى قول مختلف : يؤفك عنه من أفك (٣)) ، أى : إنما يضل به (٤) من هو مأفوك ومبطل .

ثم قال تعالى مستزهاً لفلانك مما تسبوا إليهم من الكفر بهم والكلب عليهم أنهم بنات الله : (وما منا إلا له مقام معلوم) ، أى : له موضع مخصوص فى السموات ومقامات العبادة لا يتجاوزوه ولا يتعداه .

وقال ابن عساکر فى ترجمته محمد بن خالد ، بسنده إلى عبد الرحمن بن الملا بن سعد ، عن أبيه - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً لجلسائه : « أطمت (٥) السماء وحشاً لما أن تبيض ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك أو ساجد » . ثم قرأ : (وإنا لنحن الصافون • وإنا لنحن المسبحون (٦)) •

وقال الضحاك فى تفسيره : (وما منا إلا له مقام معلوم) ، قال : كان مسروق يروى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم » . فذلك قوله : (وما منا إلا له مقام معلوم) .

وقال الأعمش ، عن أبي إسحاق ، عن مسروق ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : إن فى السموات أسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدامه ، ثم قرأ عبد الله : (وما منا إلا له مقام معلوم (٦)) . وكذا قال سعيد بن جبیر .

وقال قتادة : كانوا يصلون الرجال والنساء جميعاً ، حتى نزلت : (وما منا إلا له مقام معلوم) ، فنظم الرجال وتأخر النساء .

(١) أى : خلق .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٩٧ .

(٣) سورة الداريات : آية ٨ ، ٩ .

(٤) أطمت - بتشديد الطاء - من الأظبط ، وهو : صوت الرجل ، والأظبط الإبل ، أصواتها وحشياً ؛ أى : إن كثرة ما فيها من الملائكة قد انقلها حتى أمت . وهذا مثل وإيدان بكثرة الملائكة ، وإن لم يكن ثم أظبط ، وإنما هو كلام تقريب ، أريد به تقرير حقيقة الله تعالى .

(٥) انظر ترجمة الملا بن سعد الساعدي فى أصله الثانية : ٧٦/٤ بتحقيقنا ، وقد خرجنا هذا الحديث هناك .

(٦) تفسير الطبري : ٧١/٢٣ .

(وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) ، أى : نتف صفوفاً فى الطاعة ، كما تقدم عند قوله : (والصافات صفاءً) — قال ابن جريج عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال : كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى تزلت : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) ، فصفوا . وقال أبو نضرة : كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ، ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استروا قياماً ، يريد الله بكم هدى الملائكة ، ثم يقول : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) ، تأخر يافلان ، تقدم يافلان ، ثم يقدم فيكبر رضى الله عنه . رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير (١) .

وفى صحيح مسلم عن حليقة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ! « فضلنا على الناس بثلاث ! جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وتريتها طهوراً ... » الحديث (٢) . (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) ، أى : نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقلسه ونزحه عن الفناء ، فنحن عبيد له ، فقراء إليه ، خاضعون لديه .

وقال ابن عباس ، وساجد : (وما منا إلا له مقام معلوم) : للملائكة ، (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) : للملائكة ، (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) : للملائكة يسبحون الله عز وجل .

وقال قتادة : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) ، أى : المصلون ، يبتغون بمكانهم من العبادة ، كما قال تعالى : (وقالوا ! اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يَّمُكُلْ منهم : إني إله من دونه ، فلذلك ننجزيه جهنم ، كذلك ننجزي الظالمين (٣)) .

وقوله : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ) لو أن عتقا ذكرا من الأولين . لكننا عباد الله المخلصين ، أى : قد كانوا يمتحنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله ، وما كان من أمر القرون الأولى ، وأتيتهم بكتاب الله ، كما قال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن ليكن جامهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جامهم ظهير ما زادهم إلا نفورا (٤)) ، وقال : (أن تقولوا : إننا أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم لغافلين ، أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدقت عنها ، سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون (٥)) . ولما قال هاتما : (فكفروا به فسوف يعلمون) ، وعبد أكيد وتهديد شديد ، على كفرهم بربهم — سبحانه وتعالى — وتكذيبهم رسوله صلى الله عليه وسلم ،

(١) تفسير الطبري : ٧١/٢٣ .

(٢) مسلم ، كتاب المساجد : ٦٣/٢ - ٦٤ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآيات : ٢٦ - ٢٩ .

(٤) سورة ظلم ، آية : ٤٢ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَمُتَّصِرُونَ ﴿١٧٧﴾ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى جِيئَ ﴿١٧٩﴾ وَأَبْصَرَهُمْ قُوفٌ يَبْصُرُونَ ﴿١٨٠﴾ أَفَعَبَدْنَا بِمَسْجِدٍ أَوْ أَفَعْبَدُوا شَيْئًا فَلَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨١﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى جِيئَ ﴿١٨٢﴾ وَأَبْصَرَهُمْ قُوفٌ يَبْصُرُونَ ﴿١٨٣﴾

يقول تعالى : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) ، أى : تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسول وأنبأهم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) (١) : وقال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (٢) : ولما قال : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين • إنهم لهم المنصورون) ، أى : في الدنيا والآخرة . كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم بمن كتبهم وخالقهم ، وكيف أهلك الله الكافرين ، ونجى عباده المؤمنين : (وإن جندنا لهم الغالبون) ، [أى : تكون لهم العاقبة . وقوله جل وعلا : (فتولى عنهم حتى جئ) ، أى : أصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤجل ، فلما منجى لك العاقبة والنصرة والظفر ، ولما قال بعضهم : غيبي (٣) ذلك إلى يوم يدرى : وما بعدها أيضاً في معناها]

وقوله : (وأبصرهم قفوف يفسرون) ، أى : انظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والتكال على مخالفتك وتكذيبك : ولما قال على وجه التهديد والوعيد : (سوف يفسرون) . ثم قال هن وجل : (أفعلينا يستعجلون) ، أى : هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم ، فإن الله ينقض عليهم بذلك ، ويعجل لهم العقوبة ، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة . قال الله تعالى : (فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) ، أى : فإذا نزل العذاب بحلقتهم ، فبئس ذلك اليوم يومئهم ، بإهلاكهم ودمارهم .

قال السدي : (فإذا نزل بساحتهم) ، يعنى : يذللهم ، (فساء صباح المنذرين) ، أى : فبئس ما يصبحتون ، أى : بئس الصباح صباحهم . ولما ثبت في الصحيحين من حديث إسماعيل ابن حكيم ، عن عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس رضي الله عنه - قال : صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم خير ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحهم ورأوا الجيش رجعوا يقولون : محمد والله ، محمدنا لميس : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر خربت خير ، إنا إذ نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (٤) »

ورواه البخاري من حديث مالك ، عن حميد ، عن أنس (٥) :

-
- (١) سورة المجادلة : آية : ٢١ .
 - (٢) سورة غافر : آية : ٥١ .
 - (٣) أى : جبل يوم يدرى غايته للكل .
 - (٤) البخاري ، كتاب الصلاة ، باب « ما يذكر في القنطرة » : ١٠٤-١٠٣/١ . ورواه في كتاب إلهيات ، باب « غزوة حبر » : ١٨٥/٥ .
 - (٥) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « غزوة حبر » : ١٦٧/٥ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك ، عن أبي طلحة قال : لا يصح رسول الله صلى الله عليه وسلم خبير ، وقد أنزلوا ساحيتهم وعقدوا إلى حروثهم وأرضهم ، فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ولوا مدبرين ، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : لا إله أكبر ، إله أكبر ، إنا (١) ، إذا نزلنا بساحة قوم فضاء صباح الملوك (٢) »

ثم يخرجوه من هذه الوجه ، وهو صحيح على شرط الشيخين ، وفوله : (وتول عنهم حتى حين) وأبهر نفوس يبصرون ، تأكيد لا تقدم من الأمر بذلك .

سَبِّحْ لِلَّهِ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥٢﴾

بقره تعالى نفسه الكريمة ويقدمها ويرثها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون - تعالى وتقدس - عن قولهم حلوأ كبيراً . ولهذا قال : (سبحان ربك رب العزة) ، أى : ذى العزة التى لا تُرام ، (عما يصفون) ، أى : عن قول هؤلاء المعتدين المقتدرين ، (وسلام على المرسلين) ، أى : سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة ، لسلامة ما قالوه فى ربهم ، وصحته وحقيقته ، (والحمد لله رب العالمين) ، أى : له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال - ولما كان التسبيح يتضمن التزكية والتبعية من النص بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النص - قرن بينهما فى هذا الموضع ، وفى مواضع كثيرة من القرآن ، ولهذا قال : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

وقال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سلمتم على فسلموا على المرسلين ، فإنما أنا رسول من المرسلين » .

هكذا رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، من حديث سعيد ، عنه كذلك (٣) .

وقد أسنده ابن أبي حاتم رحمه الله فقال : حدثنا علي بن الحسين بن الجند : حدثنا أبو بكر الأعمش وعبد بن عبد الرحيم صاعقة قال : حدثنا حسين بن عمار ، حدثنا شيان ، عن قتادة قال : حدث أنس بن مالك ، عن أبي طلحة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا سلمتم على فسلموا على المرسلين » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا نوح (٤) ، حدثنا أبو هارون ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا سلم قال : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين » ثم يسلم : « إسناده ضعيف » .

(١) ما بين القوسين من المتن .

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٨٤/٢٩ .

(٣) تفسير الطبري ٧٤/٢٣ .

(٤) فى المخطوطة : « حدثنا فرج » . والصواب : « فرج » . وهو : فرج بن قيس بن رباح الأرقى ، يرمى عن أبي هارون

صارة بن جعفر . انظر التلخيص ١٧٧/١٥ : ٨٥/١٥ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن خالد الواسطي ، حدثنا شاذان ، عن يونس بن أبي إسحاق ، عن الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) » .

وروى من وجه آخر متصل موقوف على علي ، رضى الله عنه .

قال أبو محمد البغوي في تفسيره : أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح (١) ، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي ، أخبرني ابن فضال ، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ، حدثنا إبراهيم بن سهلويه ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا وكيع ، عن ثابت بن أبي صفية ، عن الأصمعي بن نباتة ، عن علي رضى الله عنه قال : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) .

وروى الطبراني من طريق عبد الله بن مسهر (٢) بن أنس (٣) ، عن عبد الله بن زيد بن أرقم ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال دبر كل صلاة : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) ، ثلاث مرات ، فقد أكتال بالجزيب (٤) الأوفى من الأجر » .

وقد وردت أحاديث في كثرة المجلس : (سبحانك اللهم وعملك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك) ، وقد أفردت لها جزءاً على حدة ، فلتكتبها ما هنا إن شاء الله تعالى :

﴿ أكثر تفسير سورة الصافات ﴾

(١) كذا في غزوة الأحرار . وفي الطبقات السابقة : « أسد بن إبراهيم الترمذي » . ولم تقع لنا ترجمته .

(٢) في الغزوة : « ... مسهر الأسي عبد الله بن زيد » . وللتبليغ من الطبقات السابقة .

(٣) الجزيب : مكيال .

تفسير سورة ص

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝ كَرَاهَلِكُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَ ۝
وَلَاتِ جِنَّ مَنَاصٍ ۝

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة (١) بما أغنى عن إعادته ههنا :

وقوله : (والقرآن ذى الذكر) ، أى : والقرآن للمشتغل على ما فيه ذكر للباد ، ونفع لم فى المماش والمعاد .

قال الضحاك فى قوله : (ذى الذكر) ، كقوله : (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم) ، أى : تكبركم .
وكذا قال قتادة ، واختاره ابن جرير (٢) :

وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبیر ، وإسماعيل بن أبى خالد ، وابن هبيرة ، وأبو حمزة ، وأبو صالح ، والسدى :
(ذى الذكر) : ذى الشرف ، أى : ذى الشأن والمكانة .

ولا منافاة بين القولين ، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعلاء والإللال .

واختلفوا فى جواب هذا القسم ، فقال بعضهم : هو قوله : (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) : وقيل : قوله :
(إن ذلك لمن خصم أهل النار) ، حكاه ابن جرير ، (وهذا الثانى فيه بعد كبير ، وضَعَفَهُ ابن جرير) (٣) .

وقال قتادة : جوابه (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) ، (واختاره ابن جرير) :

وقيل : جوابه ما تضمنه سياق السورة بكلمة ، والله أعلم .

ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العلم أنه قال : جوابه ص : ٦ بمعنى : صديق حق والقرآن ذى الذكر (٤) .

وقوله : (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) ، أى : إن فى هذا القرآن للذكر لمن يتذكر ، وعبرة لمن يعثر . وإنما
لم ينتفع به الكافرون لأنهم (فى عزة) ، أى : استكبار عنه وحمية ، (وشقاق) ، أى : مخالفة له ومماندة ومفارقة .

(١) النظر : ٥٦/١ - ٦٠ .

(٢) تفسير الطبرى : ٧٥/٢٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٧٦/٢٣ .

(٤) قال الطبرى : ٧٥/٢٣ : وكان بعض أهل العربية يقول (ص) فى معناها ككفره وجب راءه - وحق راءه .

وهى جواب قوله (والقرآن) ، كما تقول : وحق راءه ، وحق راءه .

ثم خوفهم مالهك به الأمم المكتبة قبلهم بسبب مخالفتهم الرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فقال : (كم أهلكتنا من قبلهم من قرن) ، أي : من أمة مكتبة ، (فتادوا) ، أي : حين جاءهم الطلاب استغاثوا وجأروا إلى الله ، وليس ذلك بمسجدٍ عنهم شيئاً كما قال تعالى : (فلما أحسوا بأسنا إذاهم منها يركضون) ، أي : يهربون ، (لاركضوا وارجعوا إلى ما أنتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) (١)

قال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن التميمي قال : سألت ابن عباس عن قول الله : (فتادوا ولات حين مناص) ، قال : ليس بين ٣ نداء ، ولا نَزْو ، ولا قرار (٢) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ليس بين مناص :

وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : نادوا النداء حين لا ينفعهم ، وأنشد :

• تَدَكَّرَ حَبِ لَيْلَى لَاتَ حِينَ تَكَاكَرَ •

وقال محمد بن كعب في قوله : (فتادوا ولات حين مناص) ، يقول : نادوا بالوحيد حين تولت الدنيا عنهم ، واستأصوا في القربة [حين تولت الدنيا عنهم (٣)] .

وقال قتادة : [وألوا الطلاب أرادوا القربة في خير حين النداء]

وقال مجاهد : (فتادوا ولات حين مناص) ، ليس بين قرار ولا إجابة .

وقد روي نحو هذا عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبي مالك ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، والحسن ، وقاتدة :

وعن مالك ، عن زيد بن أسلم : (ولات حين مناص) ، ولا نداء في خير حين النداء .

وهذه الكلمة وهي « لات » ، هي « لا » التي تأتي « زيدت معها » التاء ، كما تزد في « ثم » ، فيقولون : « وثُمَّت » ، و « رب » فيقولون : « رَبَّت » ، وهي مفصلة ، والوقف عليها . ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيها ذكره [ابن جرير] أنها متصلة بحين : (ولا نعين مناص) . والمشهور الأول . ثم قرأ الجمهور بنصب « حين » ، تقديره : وليس إلين حين مناص . ومنهم من جوز النصب بها ، وأنشد (٤) :

تَدَكَّرَ حَبِ لَيْلَى لَاتَ حِينَ وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرْنَ

ومنهم من جرَّز الجر بها ، وأنشد : (٥)

مَلِكِيَا صَلَحَتَا وَلَاتَ أَوَاكِ فَتَجِيئُنَا أَنْ لَيْسَ حِينَ يَنْقَامِ

(١) سورة الأنبياء ، آية : ١٢ ، ١٣ .

(٢) أخرجه ابن جرير من طريق سليمان وإسرائيل ، وعصبة ، عن أبي إسحاق بنحوه : ٧٧/٢٣ .

(٣) أئد للثور : ٢٩٦/٥ .

(٤) معاني القرآن للفراء : ٣٩٧/٢ . وتفسير الطبري : ٧٧/٢٣ .

(٥) البيت لأبي زيد الطائي ، انظر خزانة الأدب : ١٥٣/٢ . ومعاني القرآن للفراء : ٣٩٨/٢ . وتفسير الطبري :

وأنشد بعضهم أيضاً (١) :

• ولات ساعة مندم •

يخفف الساعة : وأهل اللغة يقولون : التوس : التأخر : والتوس : التقدم : ولهذا قال تعالى : (ولات ساعة مندم) أي : ليس المين حين قراي ولا ذهاب :

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٢﴾ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا بِأَصْبِرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادٌ ﴿٣﴾ مَا مَعَنَا بِهِدَا فِي الْآلِهَةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آخِطٌ ﴿٤﴾ أَنْ تَزِلَّ عَلَيْهِ أَلْدُكُم مِّنْ بَيْنِنَا وَلَكُمْ فِي شَيْءٍ مِّنْ ذِكْرٍ وَلَكُمْ يَدْعُونَ عَذَابٌ ﴿٥﴾ أَمْ عَنْهُمْ عَزَإٌ ﴿٦﴾ الْعَزِيزُ الرَّؤُوفُ ﴿٧﴾ أَمْ لَهُمْ حُلُقُ السَّمَرَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَسْتَفْتُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿٨﴾ جُنْدًا هَٰؤُلَاءِ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿٩﴾

يقول تعالى ضرباً من التشكيك في تصديقهم من يضة الرسول يشرأ ، كما قال تعالى : (أكان للناس حجباً أن لوحي إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، ويشر اللين آمنوا أن لم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون : إن هذا ساحر بديع (١)) ، وقال هاتنا : (وعجبوا أن يجمع مندم منهم) ، أي : يشر مثلهم ، (وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب • أجعل الآلهة إلهاً واحداً) ، أي : أزعج أن الميود واحد لا إله إلا هو ؟ ! أنكر للمشركون ذلك سقبحهم لله تعالى - وتسجوا من ترك الشرك بالله ، فأنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشرية قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى خلق ذلك من قلوبهم ، وإفراد الله بالوحدانية ، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب • وانطلق للمؤمنين) ، وهم سادتهم وقادتهم وروساؤهم وكبرائهم قائلين : (أمشوا) ، أي : استمروا على دينكم ، (وأصبروا هل كنتم) ، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد :

وقوله : (إن هذا لشيء يراد) ، قال ابن جرير : إن هذا الذي يدعو إلى محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء ، وأن يكون له منكم أتباع ، ولنا صريحه (٢) :

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

قال السدي : إن أناساً من قريش اجتمعوا ، فيهم : أبو جهل بن هشام ، والعامر بن وائل ، والأسود بن الخطاب ، والأسود بن جندب ، في نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبي طالب فنكسككم فيه ، فكيف صنفتنا منه ، فكيف عن شتم أكتنا ، ولقدعه وإله الذي يعبد : فلما خاف أن يموت هذا الشيخ ، فيكون منا إليه شيء ، فصرخوا

(١) انظر البص في المراجع المتقدمة •

(٢) سورة يونس : آية ٢ •

(٣) تفسير الطبري : ٤ : ٢٧ • ٤ •

العرب ، يقولون : « تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه » . فبعض الرجال منهم يقال له « للطالب » ، فاستأذن لهم على أبي طالب ، فقال : هؤلاء مشيخة قومك وسرّتهم يستأذنون عليك ؟ قال : أدخلهم . فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، فأصفا من ابن أخيك ، فره فليكف عن شتم ألفتنا وندعه وإلهه . قال : فبعت إليه أبو طالب ، فلما دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا ابن أخي ، هؤلاء مشيخة قومك وسرّاتهم ، وقد سألوكم أن تكف عن عن شتم ألفتهم وبدعوك وإلهمك . قال : « يا عم ، أفلا أَدعُوهم إلى ما هو خير لهم ؟ » . قال : « وإلام تدعوهم ؟ قال : أَدعُوهم أن يتكلموا بكلمة تدِين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » . فقال أبو جهل من بين القوم : ما هي وأبيك ؟ لتعلمينا عشرة أمثالها . قال : تقولون : « لا إله إلا الله » . فغفر وقال (١) : « سكتنا خير هذا . قال : « لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ، ما سألتكم غيرها » . فقاموا من عنده غضباً ، وقالوا : والله لنشتمنك وإلهمك الذي أترك بهذا ، (واطلن للآل منهم : أن امشوا واصبروا على ألفتكم ، إن هذا لشيء يراد) .

رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وزاد : فلما خرجوا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم همه إلى قول ولا إله إلا الله ، فأبى وقال : بل على دين الأشياخ . ونزلت : (إِنَّكَ لَأَنْتَ مِنْ سَاجِدِينَ) (٢) .

وقال أبو جعفر بن جرير : خدشنا أبو كرب وابن وكيع قالوا : حدثنا أبو أمامة ، حدثنا الأعمش ، حدثنا عباد ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما مرض أبو طالب ، دخل عليه رهط من قريش ، فيهم أبو جهل ، فقالوا : إن ابن أخيك يشتم ألفتنا ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول ، فلو بشت إليه فنهيت ؟ فبعت إليه ، فجاء النبي - صلى الله عليه وسلم - فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل ، قال : فخنثى أبو جهل إلى جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه : فوثب فجلس في ذلك المجلس ، ولم يجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مجلساً قرب همه ، فجلس عند الباب . فقال له أبو طالب : أي ابن أخي ، ما بال قومك يشكوك ، يزعمون أنك تشتم ألفتهم ، وتقول وتقول ؟ قال : وأكثروا عليهم من القول . وتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا عم ، إنني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدِين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية » . فزعموا لكلمته وقولوه ، وقالوا : كلمة واحدة ! ثم وأبيك عشرة فقالوا : وما هي ؟ وقال أبو طالب : وأي ظلمة هي يا ابن أخي ؟ فقال : « لا إله إلا الله » . فقاموا فزعموا يفضون ثيابهم ، وهم يقولون : (لجعل الآلهة إلهاً واحداً ! إن هذا لشيء عجاب) . قال : ونزلت من هذا الموضع إلى قوله : (لَا يَدْعُوا هَدَاباً) . فلفظ أبي كرب (٣) :

وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي ، عن حديث محمد بن عبد الله بن غير ، كلاهما عن أبي أمامة ، عن الأعمش ، عن عباد ، غير منسوب ، به نحوه . ورواه الترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير أيضاً ، كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن يحيى بن عسكرة الكوفي ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس ، فذكر نحوه . وقال الترمذي : « حسن » . (٤)

(١) في تفسير الطبري : « فغفروا وقالوا » .

(٢) تفسير الطبري : ٨٠/٢٣ - ٨١ .

(٣) تفسير الطبري : ٧٩/٢٣ .

(٤) سنة الإمام أحمد : ٣٦٢/١ ، ونخبة الأحاديث : تفسير سورة « ص » : الطبع ٣٢٨٥ : ٩٩/٩ - ١٠١ .

وقولهم : (ما سمعنا بهذا في ليلة الآخرة) ، أى : ما سمعنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد من التوحيد في ليلة الآخرة :

قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : يبنون دين قريش :

وقال خريم : يبنون النصرانية : قاله محمد بن كعبه ، والسلي :

وقال العوفي ، عن ابن عباس : (ما سمعنا بهذا في ليلة الآخرة) ، يعنى النصرانية ، قالوا : لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى (١) :

(إن هذا إلا اختلاق) ، قال مجاهد ، وقتادة : كذب : وقال ابن عباس : تحزى :

وقولهم : (أنزل عليه الذكر من بيننا) ، يعنى : أنهم يستعملون تخصيصه بإزال القرآن عليه من بينهم كلهم ، كما قالوا في الآية الأخرى : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ؟ قال الله تعالى : (لم يسмон رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) (٢) ، ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم ، في استبعادهم لإزال القرآن على الرسول من بينهم ، قال الله تعالى : (بل لما يدرون عذاب) ، أى : إنما يقولون هذا لأهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك حباب الله وقمته ، سيطمون غيبه (٣) ما قالوا ، وما كذبوا به ، يوم يذخون إلى عازهم دما :

ثم قال ميتا أنه المتصرف في ملكه ، القائل لما يشاء ، الذى يعطى من يشاء ما يشاء ، ويمن من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويتزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ، ويحكم على قلب من يشاء ، فلا يديه أحد من بعد الله ، وإن المباد لا يملكون شيئا من الأمر ، وليس إلههم من التصرف في الملك ولا مقال ذمة ، وما يملكون من قطمير . ولهذا قال تعالى متكررا عليهم : (لم ندعهم عزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) ؟ أى : العزيز الذى لا يرأى جهنابه ، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد :

وهذه الآية شبيهة بقوله : (أم لم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيرا . أم يسملون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما . ففهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سمرا) (٤) . وقوله : (قل : لو أنتم تملكون عزائن رحمة ربك ، إننا لأمسكن خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتورا) (٥) . وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعة الرسول البشري . وكما أخبر تعالى عن قوم صالح حين قالوا : (ألقى الله ذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشرس . سيعطون غدا من الكذاب الشئ) (٦) :

(١) تفسير الطبرى : ٨٠/٢٤٤ .

(٢) سورة الزمر : آية ٢١ ، ٣٢ .

(٣) أى : حالته .

(٤) سورة لقمان : آية ٥٢ - ٥٥ .

(٥) سورة الإسراء : آية ١٠٠ .

(٦) سورة قمر : آية ٢٥ ، ٢٦ .

وقوله : (أَمْ لَمْ يَمْلِكِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا أَنْ يَنْفِخَ فِي الْسَّابِقِ) ، أى : إِنْ كَانَ لَمْ ذَلِكَ فَلْيَصْغُرُوا
فِي الْآيَاتِ .

قال ابن عباس ، وعجمه ، ومعيد بن جبر ، وقادة ، وغيرهم : ينفخ طرق السحاب
وقال الضحاك : فليصغروا إلى السحاب السابعة :

ثم قال : (جند ما هلك مهزوم من الأحزاب) ، أى : هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في حزة وشفاق سيهزمون
ويقتلون ويكفون ، كما كتبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين . وهذه قوله : (أَمْ يَقُولُونَ : نحن جميع منتصر)
سيهزم الجمع ويولون الدبر) ، وكان ذلك يوم بدر ، (بل الساعة موعدهم لأمدى وأمر) (١) .

كَتَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١١﴾ وَمَعْمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٢﴾
إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَبَ الْأَرْسُلَ حَقَّ عِقَابٍ ﴿١٣﴾ وَمَا يَنْظُرُ مَتَّوْلًا إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا مِنْ فَوْقَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا
رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْلَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٥﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ

يقول تعالى خبراً عن هؤلاء القرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والهلاك والقمصات في غائلة الرسل وتكذيب
الأنبياء . وقد تكذبت قصصهم ميسولة في أمان كن متصلة :

وفوله : (أولئك الأحزاب) ، أى : كانوا أكثر منكم وأشد قوة ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فما دفع ذلك عنهم
من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك . ولهذا قال : (إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَبَ الْأَرْسُلَ حَقَّ عِقَابٍ) . فجعل علة هلاكهم
هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخالفون من ذلك أشد الحذر

وفوله : (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا مِنْ فَوْقَ) - قال مالك ، عن زيد بن أسلم : أى ليس لها
مَشْنُوءَةٌ (٢) ، أى : ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، أى : قد اقتربت وذنت وأزفت . وهذه
الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله إسرائيل أن ينفثها ، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع ، إلا من
استثنى الله عز وجل .

وفوله : (وَقَالُوا : رَبَّنَا ، عَجِّلْ لَنَا قِطْلَنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) : هذا إنكار من الله على المشركين في دعائهم
على أنفسهم بتعجيل العذاب ، فإن القبط هو الكتاب ، وقيل : هو الحظ والنصيب .

قال ابن عباس ، وعجمه ، والضحاك ، والحسن ، وغير واحد : سألوها تعجيل العذاب - زاد قتادة : كما قالوا :
(اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ، أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (٣) .

(١) سورة القمر ، الآيات : ٤٤ - ٤٦ .

(٢) أى : ليس لها مشنوءة ولا رد .

(٣) تفسير الطبري : ٢٣٪ ٨٥ .

وقيل : سألو تمجيل تصيهم من الجنة ، إن كانت موجودة أن يقولوا ذلك في الدنيا ، وإنا نخرج هذا منهم منخرج الاستبعاد والتكذيب .

وقال ابن جرير : سألو تمجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا (١) : وهذا الذي قاله جيد ، وعليه يندرج كلام الضحاك ، وإسحاق بن أبي خالد ، والله أعلم .

ولما كان هذا الكلام منهم حل وجه الاستهزاء والاستبعاد ، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم آزر آل به الصبر حل أذاهم ، ومبشراً له حل صبره بالمعاقبة والعسر والظفر .

وَأَذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ وَأَبَى ۖ ﴿١٠﴾ إِنَّا نَحْنُ الْجَبَالُ مَعَهُ يُسَبِّحُ بِالْعَمَى ۖ وَالْإِشْرَاقِ ۖ وَالطَّيْرِ ۖ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ۖ ﴿١١﴾ وَتَسْتَدِينَا مَلَكُهُ وَآتِيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطْبِ ۖ ﴿١٢﴾

يلتكر تعالى عن عبده ورسوله داود - عليه الصلاة والسلام - أنه كان ذا أيدي ، والأيد : القوة في العلم والعمل ؛ قال ابن زيد والسدي : الأيد : القوة - وغرأ ابن زيد : (والسماوات بيتها بأيدي المرسلين (١)) ؛ وقال مجاهد : الأيد : القوة في الطاعة .

وقال قتادة : أعطى داود قوة في العبادة ، وفهما في الإسلام ، وقد ذكر لنا أنه - عليه السلام - كان يقوم ثلاث الليل ، ويصوم نصف الدهر (١) .

وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يتم نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سمنه : وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى (٢) » : وإنه كان أواباً ، وهو الرجاء إلى الله عز وجل في جميع أموره وشئونه .

وقوله : (إِنَّا نَحْنُ الْجَبَالُ مَعَهُ يُسَبِّحُ بِالْعَمَى وَالْإِشْرَاقِ) ، أي : إنه تعالى يضر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال تعالى : (يا جبال ، أوبي معه والطير (٣)) . وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه ، وترجع بترجيحه ، إذا مر به الطير وهو صابغ في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور ، لا تستطيع الدباب ، بل تنف في الهواء ، وتسبح معه وتجيبه الجبال للشاغل ، ترجع معه ، وتسبح تبعاً له .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا محمد بن بشر ، عن مسعر ، عن عبد الكريم ، عن موسى بن أبي كبر ، عن ابن عباس أنه بلغه : أن أم هانئ ذكرت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة صلى الفصحى ثمان ركعات : قال ابن عباس : قد ظننت أن هذه الساعة صلاة ، يقول الله تعالى : (يسبحن الحسن والاشراق) .

(١) تفسير الطبري : ٨٦/٢٣ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثالثة عشرة من سورة سبأ ، وهرجناه هناك : انظر : ٤٨٨/٦ .

(٣) سورة سبأ : آية : ١٥ .

ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عسوية ، عن أبي المتوكل ، عن أبيوب بن صفوان ، عن مولاه (١) عبدالله ابن الحارث بن نوفل ، أن ابن عباس كان لا يميل الضحى . قال : فأدخلته على أم هانئ فقلت : أخبرني هذا ما أخبرني [به] : فقالت أم هانئ : دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الفتح في بيته ، ثم أمر بآء صب في قصعة ، ثم أمر بثوب ، فأخذ بيبي وبينه ، فاغتسل ثم رَشَ ناحية البيت ، فصلى ثمان ركعات ، وذلك من الضحى ، قيامين وركعتين وسجودهن [وجلسهن] سواء ، قريب بعضهن من بعض . فخرج ابن عباس وهو يقول : لقد قرأت ما بين القومين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن : (يسبحن بالمشي والإشراق) ، وكنت أقول : أين صلاة الإشراق . وكان بعد يقول : صلاة الإشراق (٢) .

ولهذا قال : (والطير عشورة) ، أي : عيوسة في الهواء ، (كل له أبواب) ، أي : مطبخ يسبح بها له ؛ قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، ومالك بن زيد بن أسلم ، وابن زيد : (كل له أبواب) ، أي : مطبخ ؛ (وشهدنا ملكه) ، أي : جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك ؛ قال ابن أبي نجیح ، عن جاهد : كان أشد أهل الدنيا سلطاناً ؛ وقال السدي : كان عرسه في كل يوم أربعة آلاف .

وقال بعض السلف : بلغني أنه كان حرسه في كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً ؛ لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام [القابل] :

وقال غيره : أربعون ألفاً مشتملون (٣) بالسلاح .

وقد ذكر ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، من رواية حنبل بن أسمر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن نكمرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود - عليه السلام - أنه اغتصبه بقرأ ، فأنكر الآخر ، ولم يكن للمدعي بينه ، فأرجأ أمرهما ؛ فلما كان الليل أمر داود - عليه السلام - في المنام بقتل المدعي . فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعي ، فقال : يا بني الله ، سلام تقتلي وقد اغتصبني هذا بقرى ؟ فقال : إن الله عز وجل أمرني بقتلك ، فأنا قاتلك لا محالة . فقال : والله يا بني الله إن الله لم يأمرك بقتلي لأجل هذا الذي ادعيت عليه ، وإنني لصادق فيما ادعيت ، ولكنني كنت قد اغتبت آباء وقتله ، ولم يشعر بذلك أحد ، فأمر به داود فقتل .

قال ابن عباس : فاشتلت هيبة في بني إسرائيل ، وهو الذي يقول الله عز وجل : (وشهدنا ملكه (٤)) .

(١) في المخطوطة : « من مول » . والصواب ما أثبتناه ، انظر الجرح والتعديل لابن أبي ساتم : ٢٥٠/١٧٦ .

(٢) تفسير الطبري : ٨٧/٢٣ .

(٣) كلما في الطبقات السابقة . وفي المخطوطة : « مشتملون بالسلاح » . ولعل صوابه : شاكرون السلاح .

(٤) تفسير الطبري : ٨٨/٢٣ .

وقوله : (وآتيناه الحكمة) - قال مجاهد : يعنى الفهم والمقل والفعلة : وقال مرة : الحكمة والعدل : وقال مرة : الصواب .

وقال قتادة : كتاب الله واتباع ما فيه .

وقال السدى : (الحكمة) : النبوة .

وقوله : (وفصل الخطاب) ، قال شريح القاضي ، والشهي : فصل الخطاب : الشهود والأيمان .

وقال قتادة : شاهدان على للمضى ، أو عين للمضى عليه ، هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل - أو قال : المؤمنين والصالحون - وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة . وكذا قال أبو عبد الرحمن السلى :

وقال مجاهد ، والسدى : هو إصابة القضاء وفهمه .

وقال مجاهد أيضا : هو الفصل فى الكلام وفى الحكم .

وهذا يشمل هلكا كله ، وهو المراد ، واختاره ابن جرير (١) :

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمر بن قتيبة التمرى ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثني عبد العزيز بن أبى ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبى الزناد ، عن أبيه ، عن بلال بن أبى بردة ، عن أبيه ، عن أبي موسى - رضى الله عنه - قال : أول من قال : أما بعد ، خالد عليه السلام ، وهو فصل الخطاب .

وكذا قال الشهي : فصل الخطاب : أما بعد .

﴿ وَهَلْ أَنتَ بِأَنَّكَ تَبُوءُ الْخَصْمَ إِذْ تَسُوْرُوا الْحَرْبَ ۚ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْضُ حَضَمَيْنِ ۚ يَفْعَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاجْهَدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ لَاحِقٌ ۚ فَلَا تُسَلِّطْ وَآخِذْنَا بِسَوَاءِ الْفِرَاطِ ۚ إِنَّ هَٰذَا أَمْرٌ لَّهِ نَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْبَةَ وَلِي نَعْبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَالَ أَكْفَلْنِيَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۚ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْبَتِكَ إِلَىٰ تَعَابِهِ ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۚ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۚ فَفَعَلْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّا لَهُ عَزْدَانٌ ۚ ذُوْ حُسْنِ مَّطْلَبٍ ۚ ۝١٧﴾

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سند ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي ، عن أس - يزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد حلها إلى الله عز وجل ، فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضا ،

وقوله : (ففرغ منهم) ، إنما كان ذلك لأنه كان في عرابه ، وهو أشرف مكان في داره ، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسلّوا عليه المحراب ، أى : احتاطا به بسلامته عن شأنهما .

وقوله : (وعزني في الخلق) ، أى : عكّيتي : يقال : عز يزن : إذا نهر وغلب .

وقوله : (وظن داود أنما قتله) - قال على ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس : أى اختبرناه : (١) .

وقوله : (وغير راكم) ، أى : ساجدا (وأناب) . ويحتمل أنه ركع أولا ، ثم سجد بعد ذلك : وقد ذكر أنه استمر ساجدا أربعين صباحا ، (ففترنا له ذلك) : أى : ما كان منه مما يقال فيه : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد اختلف الأئمة - رضى الله عنهم - في سجدة « ص » ، هل هي من عزائم السجود ؟ على قولين ، الجديدين من ملعب الشافعي - رحمه الله - أنها ليست من عزائم السجود ، بل هي سجدة شكر : والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا إسماعيل - وهو ابن حكيم - عن أبيوب ، عن ابن عباس أنه قال في السجود في « ص » : ليست من عزائم السجود : وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها (٢) .

ورواه البخاري ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي في تفسيره ، من حديث أبيوب ، به وقال الترمذي : حسن صحيح (٣) .

وقال النسائي أيضا عند تفسير هذه الآية : أخبرني إبراهيم بن الحسن - هو المفسسي - حدثنا حجاج بن محمد ، عن عمرو بن ذر ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - رضى الله عنهم - أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في « ص » ، وقال : « سجدها داود - عليه السلام - توبة » وسجدتها شكرا .

تفرد بروايته النسائي ، ورجال إسناده كلهم ثقات . وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج الميزي قراءة عليه وأنا أسمع :

أخبرنا أبو إسحاق اللدجي ، أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الثقفي ، أخبرنا زاهر بن طاهر الشحامى ، أخبرنا أبو سعد اللكجرونى ، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ ، أخبرنا أبو العباس السراج ، حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا محمد بن يزيد بن حكيم ، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال : قال لي ابن جريج : يا حسن ، حدثني جلدك عبيد الله بن أبي يزيد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إنى رأيت فيها يرى النائم كأنى أصل خلف شجرة ، فقرأت السجدة ، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودى ، فستعنها تقول وهي ساجدة : اللهم ، اكسب لي بها عتلك أجرا . واجعلها لي عتلك ذخرا . وضع ضئى بها وزرا ، وأقبلها منى كما قبلتها من عتلك داود .

(١) تفسير الطبري : ٩٢/٢٣ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٦٠/١ .

(٣) البخاري ، أبواب سجود القرآن : ٢/٢٠٤ . وضمن أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب : « السجود في « ص » » الحديث

٥٩/٢١٤٩ . وحققة الأحرفى ، أبواب السفر ، باب « ما جاء في السجدة في « ص » » الحديث ٥٧٤ ، ١٧٦/٣ .

قال ابن عباس : قرأت النبي صلى الله عليه وسلم قام فقرأ السجدة ، ثم سجد ، فسمعه يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة .

رواه الترمذى عن قتبية ، وابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد ، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس ، نحوه ، وقال الترمذى : « غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (١) » .

وقال البخارى عند تفسيرها أيضاً : حدثنا محمد بن عبد الله ، حدثنا محمد بن عبيد اللطافى ، عن الهوام قال : سألت مجاهداً عن سجدة « ص » فقال : سألت ابن عباس : من أين سجدت ؟ فقال : أو ما تقرأ : (ومن ذرية داود وسليان) ، أولئك الذين هدانا الله فيهم ، فكان داود - عليه السلام - حين أمر نبيكم - صلى الله عليه وسلم - أن يقتدى به ، فسجد داود عليه السلام ، فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا حميد ، حدثنا بكر - هو ابن عبد الله المزنى - أنه أخبره : أن أبا سعيد الخدرى رأى رؤيا أنه يكتب « ص » ، فلما بلغ إلى التي يسجد (٣) بها رأى اللواة والقلم وكل شيء يحضرته انقلب ساجداً ، قال : قصصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يسجد بها ، بعد . ففرد به أحمد (٤) .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر (ص) ، فلما بلغ السجدة نزل فسجد ، وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تشترن (٥) الناس للسجود ، فقال : « إنما هي توبة نبي ، ولكنى رأيتكم تشترنتم » . فترنل وسجد (٦) وتسجدوا .

ففرد به أبو داود ، وإسناده على شرط الصحيح :

وقوله : (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ، أى : وإن له يوم القيامة لتقريبه الله عز وجل بها ، وحسن مرجع ، وهو الدرجات العالىات في الجنة ، لتوبته وعمله التام في ملكه . كما جاء في الصحيح : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يسقطون في أهلهم وما ولوا (٧) » .

(١) بحفة الأعرافى ، أبواب التضرع : باب « ما جاء ما يقول في سجود القرآن » ، الحديث ٣٤٨٤ : ٣٨٣/٩ . وابن ماجه ، كتاب الإلتماس ، باب « سجود القرآن » ، الحديث ١٠٥٣ : ٣٢٤/١ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة ص : ١٥٥/٦ .

(٣) في المسند : « بلغ إلى سجدة » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٧٨/٣ . وانظر أيضاً : ٨٤/٣ .

(٥) التشترن : تشأم والتجؤ القهوى والاستعداد له .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « السجود » ، الحديث ١٤١٠ : ٥٩/٢ - ٦٠ ، وما بين التوسين منه .

(٧) مسلم ، كتاب الإمامة ، باب « فضيلة الإمام العادل » : ٧/٦ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا فضيل ، عن عطاء ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا ، إمام عادل . وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأبغضهم عدلا ، إمام جائر (١) »

ورواه الترمذي من حديث فضيل - وهو ابن مروق الآخر - عن عطاء ، به : وقال : « لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه (٢) »

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر بن سليمان : سمعت مالك بن دينار في قوله : « وإن له عندنا ثلثي وحسن مأب » ، قال : يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش ، ثم يقول : يا داود ، جئني اليوم بملك الصوت الحسن الرنيم الذي كنت تجعلني به في الدنيا . فيقول : وكيف وقد سلبته ؟ فيقول : إن أردته عليك اليوم ، قال : فرفع داود بصوت يستخرج نيم أهل الجنان :

يَعْنِدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ۝

وله وصية من الله عز وجل لولاء الأمور أن يحكموا بين الناس [بالحق] المتزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سيده . وقد تواعد تعالى من ضل عن سيده ، وتناسى يوم الحساب ، بالوعد الأكيد والمطالب الشديد :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا الوايد ، حدثنا مروان بن جناح ، حدثني إبراهيم أبو زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له : أعاسب الخليفة ، فإني قد قرأت الكتاب الأول ، وقرأت القرآن وقصبتها ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، أقول ؟ قال : قل في أمان . قلت : يا أمير المؤمنين ، أنت أكرم على الله أو داود ؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة والحلافة ، ثم توعد في كتابه فقال : (يا داود . إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون) : الآية .

وقال عكرمة : (لم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ، هذا من المقدم والمؤخر ، لم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا .

وقال السدي : لم عذاب شديد بما تركوا أن يصلوا ليوم الحساب .

وهذا القول أمثلي على ظاهر الآية ، فله أعلم .

(١) مسند الإمام أحمد ٥ / ٢٢٧ .

(٢) نسخة الأوسري : أبواب الأحكام ، باب ما جاء في الإمام للعادل ، الحديث ١٣٤٤ : ٥٠٩٤ - ٥١٠٠ .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿١٧﴾ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿١٨﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ۚ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾

يُخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبده ويوحده ، ثم يجمعهم ليوم الجمع ، فيجيب المطيع ويُعذب الكافر . ولما قال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا) ، أي : الذين لا يرون شيئاً ولا معاداً ، وإنما يعتقدون هذه الباطل قطعاً ، (فويل للذين كفروا من النار) ، أي : ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار للعلة لهم .

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمن والكافر ، فقال : (أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) ، أي : لا تفعل ذلك ، ولا يستوي عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ من دار أخرى ، يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر : وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والضمائر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء ، فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه وموت كذلك ، ونرى المطيع المظلم يموت بكماله ، فلا بد من حكمة الحكيم المليم العادل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فعين [أن هناك] داراً أخرى لهذا الجزاء والجزاء : ولا كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والملائمة العقلية الصريحة ، قال : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليذكروا أُولُو الْأَلْبَابِ) ، أي : ذُور العقول ، وهي الْأَلْبَابِ ، جميع لب ، وهو العقل .

قال الحسن البصري : والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم يقول : قرأت القرآن ، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل . رواه ابن أبي حاتم .

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ۖ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٢٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّنِيعَةُ الْجِيَادُ ﴿٢١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْلِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْيُنِ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى غيراً أنه وهب لداود سليمان ، أي : نبياً ، كما قال : (وورث سليمان داود) (١) ، أي : في النبوة ، وإلا فقد كان له بنون غيره ، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر :

وقوله : (نعم العبد إنه أواب) ، ثناء على سليمان عليه السلام بأنه كثير الطاعة والعبادة والإجابة إلى الله عز وجل :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمود بن خالد ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن جابر ، حدثنا مكحول قال : لما وهب الله لداود سليمان عليه السلام قال له : يا بني ، ما أحسن ؟ قال : سكينه الله وإيمان ، قال : فما أحسن ؟ قال : كثر

بعد إعادته قال : فما أجل ؟ قال : روح الله بين يديه . قال : فما أبره ؟ قال : هو الله من الناس ، وعفو الناس بعضهم عن بعض . قال داود عليه السلام : فأنسني .

وقوله : (إذ عرض عليه بالمضي الصافات الجياد) ، أي : إذ عرض علي سليمان في حال ملكه وسلطانه أنيل الصافات .

قال مجاهد : وهي التي تنف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والجياد : السراع . وكذا قال غير واحد من المفسرين .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، عن أبيه سعيد بن مسروق ، عن إبراهيم التيمي في قوله : (إذ عرض عليه بالمضي الصافات الجياد) ، قال : كانت عشرين فرساً ذات أجنحة . كذا رواه ابن جرير (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا ابن أبي زائدة ، أخبرني إسرائيل ، عن سعيد بن مسروق ، عن إبراهيم التيمي قال : كانت أنيل التي شملت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس ، حقرها ، وهذا أشبه ، والله أعلم .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، أخبرنا يحيى بن أبيوب ، حدثني هشام بن عروة ، أن محمد بن إبراهيم حدثه ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوة تبوك - أو : خيبر - وفي سهوها (٢) سر ، فهب الرياح ، فكشفت ناحية السر عن ينات لعائشة - رضي الله عنها - فقال : ما هذا يا عائشة ؟ قالت : بناتي . ورأى بينهن فرساً له جناحان من وقاع (٣) ، فقال : ما هذا الذي أرى ومطهر ؟ قالت : نرس . قال : وما هذا الذي عليه ؟ قالت : جناحان قال : فرس له جناحان ؟ قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه (٤) صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (فقال : إني أحببت حبه لغير عن ذكر ربّي حتى توارت بالحجاب) ، ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، ولذا قطع به أنه لم يتركها عدلاً بل تسياناً ، كما شغل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه ، من ذلك عن جابر قال : جاء عمر - رضي الله عنه - يوم الخندق بعد ما غربت الشمس ، فجلل يسب كفار قريش ، ويقول : يا رسول الله ، والله ما كنت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) تفسير الطبري : ٩٩/٢٣ .

(٢) للبهمة : بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً ، شبيه بالقدم والخراقة . وقيل : هو كالصفة تكون بين يدي البيت . وقيل : شبيه بالرف أو الخاك يوضع فيه الشيء .

(٣) أي : جلد .

(٤) سنن أبي داود : كتاب الأدب ، باب : الحب بالينان .

« والله ما صليتها » : فقال : قمنا إلى بُعْثَاكَ (١) فتوضأ للصلاة وتوضأنا ما ، فصل العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صل بها للمغرب (٢) .

ويجمل أنه كان سائقاً في ملتهم تأخير الصلاة لملل الغزو والقتال ، والتحليل ترداد القتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف . ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسابقة والمضايقة ، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود ، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تَمُتْر ، وهو متفوق عن مكحول ، والأوزاعي ، وغيرهما . والأول أقرب ، لأنه قال بطحا : (رويها على فطلق مسحاً بالسوق والأعناق) .

قال الحسن البصري : قال : لا ، والله لا تشظي عن عبادة ربي آخر ما عليك : ثم أمر بها ففترت : وكنا قال قتادة • وقال السدي : ضرب أعناقها وهرقها بالسيف :

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : جبل يمسح أعراف الخيل ، وهرقيها جافاً (٣) •

وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال : لأنه لم يكن ليعذب حيراناً بالعرقبة ، وبذلك مالا من ماله بلاسبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها . وهذا الذي رجّح به ابن جرير فيه نظر ، لأنه قد يكون في شرمهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضباً لله عز وجل بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ، ولهذا لما خرج عنها الله تعالى عوفه الله تعالى ما هو خير منها ، وهي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر وروها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل • وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن حميد بن هلال ، عن أبي قتادة وأبي الدرداء - وكانا يكران السفر نحو البيت - قالأ : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البيهقي : أخذ يئس رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يلمن بما علمه الله تعالى ، وقال : « إنك لاتدع شيئاً اتقاء الله - عز وجل - إلا أعطاك الله خيراً منه » (٤) .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿١﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْصِبُنِي لِأَحَدٍ مِنْهُمْ دَعْوَى ۖ فَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢﴾ تَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ يَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٤﴾ وَالْخَزَنَيْنِ مُقَرَّنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦﴾ وَإِنْ لَمْ جَنَدْنَا لِرَبِّكَ وَحَسَنَ مَقَابٍ ﴿٧﴾

يقول تعالى : (ولقد فتنا سليمان) ، أى : اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة ، (وألقينا على كرسيه جسداً) - قال ابن عباس ، وعجابه ، وسعيد بن جببر ، والحسن ، وقاتدة ، وغيرهم : يعنى شيطاناً . (ثم أناب) ، أى : رجع إلى ملكه وسلطانه وأبته .

(١) يملحنا - بضم أول ، وسكون ثانيه عند الحديثين . ولما أهل اللغة فيقولونه بفتح أوله وكسر ثانيه - : « واده بالملكية » .

(٢) البخاري ، كتاب المغازی ، باب « غزوة أُنْشَق » وهي غزوة الأحرار ، ١٤١/٥ . ومسلم ، كتاب المساجد .

باب « الدليل لمن قال : الصلاة الوتر على هي صلاة العصر » : ١١٢/٢ •

(٣) تفسير الطبري : ١٠٠/٢٢ •

(٤) مستدرك الإمام أحمد : ٧٨٢/٥ . وانظر أيضاً : ٧٩٤/٥ •

قال ابن جرير : وكان اسم ذلك الشيطان صخرًا (١) : قاله ابن عباس ، وقناة : وقيل : أصف : قاله مجاهد . وقيل : أمصروا : قاله مجاهد أيضاً : وقيل : حقيق قاله السدي : وقد ذكروا هذه القصة مبسطة ومختصرة .

وقد قال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة : قاله أمير سليمان — عليه والسلام — ببناء بيت المقدس ، قيل له : ابنه ولا يسمعُ فيه صوت حديد ؟ قال : فطلب ذلك فلم يقدِر عليه : قيل له : إن شيطاناً في البحر يقال له (صخر) شبه للارد : قال : فطلبه وكانت عين في البحر يردُّها في كل سبعة أيام مرة ، فنُزِح ماؤها وجعل فيها خَمَسْر ، فجاء يوم وودَّه فإذا هو بالخمر ، فقال : إنك لشراب طيب ، إلا أنك تُصيِّبُ (٢) الخليم ، وتزيدين الجاهل جهلاً . ثم وجع حتى عطشَ عطشاً شديداً ، ثم أتاهما قال : إنك لشراب طيب ، إلا أنك تُصيِّبُ الخليم ، وتزيدين الجاهل جهلاً : ثم شرَّها حتى غلبت على عقله ، قال : فأرى الخاتم ، أو ختم به بين كَتِفَيْهِ فَنَدَلْتُ . قال : وكان ملكه في خاتمه ، فأتى به سليمان فقال : إنه قد أمرنا ببناء هذا البيت ، وقيل لنا : لا يسمعن فيه صوت حديد . قال : فأتى بيض المدهد فجعل عليه زجاجة ، فجاء المدهد فلما حوَّلها ، فجعل يترى بيضه ولا يقدِر عليه ، فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه ، فقطعها به ، حتى أفضى إلى بيضه ، فأخذ الماس ، فجعلوا يقطعون به الحجارة : وكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء — أو الحمام — لم يدخل خاتمه فاطلَّق يوماً إلى الحمام ، وذلك الشيطان صخر معه ، وذلك عند مقارفة قارف فيه بعض نساءه ، قال : فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه ، فألقاه في البحر ، فالتصمته سمكة ، ونَزَعَ ملكُ سليمان منه ، وألقى على الشيطان شَبَّةَ سليمان ، قال : فجاء فهدد على كرسيه وسريده ، وسَلَطَ على ملك سليمان كله خير نساءه . قال : فجعل يقضي بينهم ، وجعلوا يذكرون منه أشياء ، حتى قالوا : لقد فَنَى نبي الله . وكان فيهم رجل يشبهونه بامرئ بن الخطاب في القوة فقال : والله لأجرعه : قال : فقال : يا نبي الله — وهو لا يرى إلا أنه نبي الله — أهدنا تصيبه الجنابة في الليلة الباردة ، فيعد الفصل عمداً حتى تطلع الشمس ، أترى عليه بأساً ؟ فقال : لا : قال : فيتنا هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبي الله خاتمه في بطن سمكة ، فأقبل فجعل لا يستقبله جنى ولا طير إلا سجد له ، حتى انتهى إليهم ، (وألقينا على كرسيه جسداً) ، قال : هو الشيطان صخر (٣) .

وقال السدي : (ولقد فتنا سليمان) ، أي : ابتلينا سليمان ، (وألقينا على كرسيه جسداً) ، قال : جلس الشيطان على كرسية أربعين يوماً : قال : وكان سليمان — عليه السلام — مائة امرأة ، وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة ، وهي أكثر نساءه وأمتهم عنده ، وكان إذا أحببت أو أتى حاجة نزع خاتمه ، ولم يأتسمن عليه أحد من الناس غيرها ، فأعطاهما يوماً خاتمه ودخل الخلاء ، فخرج الشيطان في صورته ، فقال : هاتى الخاتم ؟ فأعطته ، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان وخرج سليمان بعد ذلك مسلماً أن تعطيه خاتمه ، فقالت : ألم تأخذه قبل ؟ قال : لا ، وخرج مكانه ثانياً : قال : ومكث الشيطان يحكي بين الناس أربعين يوماً ، قال : فأفكر الناس أحكامه ، فاجتمع قرأه بين إسرائيل وعلمائهم ، فجاءوا حتى دخلوا على نساءه ، فقالوا : إنا قد أنكرنا هذا ، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه : قال : فهكي النساء

(١) تفسير الطبري : ١٠٠/٢٣ .

(٢) أي : تجليه يقبل مثل أهل الهوى والميل .

(٣) تفسير الطبري : ١٠١/٢٣ .

هند ذلك ، قال : فأقبلوا عموث حتى أتوا ، فأخذوا به ثم نشروا التوراة فقرأوا (١) قال : فظار من بين أبيهم حتى وقع على شرفة ، وانخام منه . ثم طار حتى ذهب إلى البحر ، فوقع الخاتم منه في البحر ، فأقبله حوت من حيطان البحر . قال : وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها ، حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر ، وهو جاثع ، وقد اشتد جوعه ، فاستطعمهم (٢) من صيدهم ، وقال : إني أنا سليمان : فقام إليه بعضهم فصر به بصا فشمجّه ، فجعل ينسل دمه وهو على شاطئ البحر ، فلام الصيادون الذي صر به ، فقالوا : بش ما صنعت حيث صرته : قال : إنه زعم أنه سليمان : قال : فأعطوه سمكتين مما قد مكدور (٣) عندهم ، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر ، فشق بطونهما ، فجعل ينسل ، فوجد خاتمه في بطن إحداهما ، فأخذه فلبسه ، فرد الله عليه بهاء وملكة ، وجاءت الطير حتى حامت عليه . فعرف القوم أنه سليمان - عليه السلام - فقام القوم يعترون بما صنعوا ، فقال : ما أحمدكم على ملركم ، ولا أؤيكم على ما كان منكم ، كان هذا الأمر لأبد منه : قال : فجاء حتى [أتى] ملكه ، وأرسل إلى الشيطان ، فجاء به - أمر به فجعل في صندوق من حديد ، ثم أطبق عليه ، وقفل عليه بقفل ، وختم عليه بخاتمه ، ثم أمر به فألقى في البحر ، فهو فيه حتى تقوم الساعة : وكان اسمه حقيق (٤) : قال : وسخر له الريح ، ولم تكن سخرت له قبل ذلك ، وهو قوله : (وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) ، إنك أنت الوهاب .

وقال ابن أبي نجيب ، عن مجاهد قوله : (وألقينا على كرسيه جسداً) ، قال : شيطاناً يقال له : آصف : فقال له سليمان : كيف تفتنون الناس ؟ قال : [أرني خاتمك لأخبرك : فلما أعطاه إياه لبده آصف في البحر ، فراح سليمان وذهب ملكه ، وقعد آصف على كرسيه ، ومنعه الله تسلم سليمان فلم يقربه - ولم يقربه وأنكرته . قال : فكان سليمان يستطعم ، فيقول : أصرقوني ؟ أطعموني . أنا سليمان . فيكذبونه ، حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً فجعل يطيب بطنه ، فوجد خاتمه في بطنه ، فرجع إليه ملكه ، وفر آصف ، فدخل البحر فاراً (٥) .

وهذه كلها من الإسرائيليات ، ومن أنكرها مقال ابن أبي حاتم :

حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن العلاء وحضبان بن أبي شبة وعلي بن محمد قالوا : حدثنا أبو معاوية ، أخبرنا الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) ، قال : أراد سليمان أن يدخل الخلاه ، فأعطى الجردة خاتمة - وكانت الجردة امرأته ، وكانت أحب نساءه إليه - فجاء الشيطان في صورة سليمان ، فقال لها : هاتي خاتمي . فأعطته [إياه] . فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين ، فلما خرج سليمان من الخلاه قال لها : هاتي خاتمي . قالت : قد أعطيتك سليمان . [قال : أنا سليمان] . قالت : كذبت ، لست سليمان ، فجعل لا يأتي أحداً فيقول له : أنا سليمان ، إلا كذبه ، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة . فلما رأى ذلك عرت أنه من أمر الله عز وجل . قال : وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ، أتى في قلوب الناس

(١) في المخطوطة : ثم نشروا التوراة . والمثبت عن تفسير الطبري ،

(٢) في المخطوطة : فاستطعمه من صيده . والمثبت عن تفسير الطبري .

(٣) أي : سيد .

(٤) تفسير الطبري : ٢٣ ٪ ١٠١ - ١٠٢ .

(٥) تفسير الطبري : ٢٤ ٪ ١٠٥ - ١٠٦ .

إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ : قَالَ : فَأَرْسَلُوا إِلَى نَسَاءِ سُلَيْمَانَ فَقَالُوا لَهَا : أَتَتَكْرَهُنَّ مِنْ سُلَيْمَانَ شَيْئًا ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، إِنَّهُ يَأْتِينَا وَنَحْنُ حَيَّصُ ، وَمَا كَانَ يَأْتِينَا قَبْلَ ذَلِكَ : فَلَمَّا رَأَى الشَّيْطَانُ أَنَّ قَدْ فُتِحَ لَهُ ، ظَنَّ أَنَّ أَمْرَهُ قَدْ انْقَطَعَ ، فَكَتَبُوا كِتَابًا فِيهَا سِحْرٌ وَكُفْرٌ ، فَدَفَنُوهُا تَحْتَ كَرْسِيِّ سُلَيْمَانَ ، ثُمَّ أَتَارَوْهَا وَفَرَمَوْهَا عَلَى النَّاسِ . وَقَالُوا : هَلْ كَانَ يَظْهَرُ سُلَيْمَانَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَكْفَرُ النَّاسُ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَلَمْ يَزَالُوا يَكْفُرُونَهُ ، وَبَعَثَ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ بِالْخَاتَمِ فَطَرَحَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَتَلَقَّاهُ سَمَكَةٌ فَأَخَذَتْهُ . وَكَانَ سُلَيْمَانَ يَعْمَلُ عَلَى شَطَلِ الْبَحْرِ بِالْأَجْرِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَاشْتَرَى سَمَكًا فِيهِ تِلْكَ السَّمَكَةُ الَّتِي فِي بَطْنِهَا الْخَاتَمُ ، فَجَاءَ سُلَيْمَانَ فَقَالَ : تَحْمِلُ لِي هَذَا السَّمَكُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ : قَالَ : بِكَمْ ؟ قَالَ : بِسَمَكَةٍ مِنْ هَذَا السَّمَكِ . قَالَ : فَحَمَلَ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - السَّمَكَ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَتَرَلَهُ ، فَلَمَّا انْتَهَى الرَّجُلُ إِلَى بَابِهِ أَعْطَاهُ تِلْكَ السَّمَكَةَ الَّتِي فِي بَطْنِهَا الْخَاتَمُ ، فَأَخَذَهَا سُلَيْمَانَ فَفَتَحَ بَطْنَهَا ، فَإِذَا الْخَاتَمُ فِي جَوْفِهَا ، فَأَخَذَهُ قَلْبُهُ . قَالَ : فَلَمَّا لَيْسَ دَانَتْ لَهُ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ وَالشَّيَاطِينُ ، وَعَادَ إِلَى حَالِهِ ، وَهَرَبَ الشَّيْطَانُ حَتَّى دَخَلَ جَزِيرَةً مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ ، فَأَرْسَلَ سُلَيْمَانَ فِي طَلَبِهِ ، وَكَانَ شَيْطَانًا مَرِيدًا ، فَجَعَلُوا يَطْلُبُونَهُ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ ، حَتَّى وَجَدُوهُ يَوْمًا تَائِمًا ، فَجَاءُوا فَبَنَوْا عَلَيْهِ بِنَانًا مِنْ رِصَاصٍ ، فَاسْتَبَقَ قَوْثُ فَجَعَلَ لَا يَنْتَهِبُ فِي مَكَانٍ مِنَ الْبَيْتِ إِلَّا انْطَاطَ (١) مَعَهُ الرِّصَاصُ ، قَالَ : فَأَخَذُوهُ فَأَوْتَقَوْهُ ، وَجَاءُوا بِهِ إِلَى سُلَيْمَانَ ، فَأَمَرَ بِهِ فَفُتِحَ لَهُ تَحْتَ مِنْ رِخَامٍ ، ثُمَّ ادْخَلَ فِي جَوْفِهِ ، ثُمَّ سَدَ بِالنَّحَاسِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَطَرَحَ فِي الْبَحْرِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ) ، قَالَ : يَهَيِّئِ الشَّيْطَانُ الَّتِي كَانَ سُلْطَ عَلَيْهِ .

إِسْتِنَادُهُ إِلَى ابْنِ حِبَّاسٍ قَوِي ، وَلَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ إِذَا تَلَقَّاهُ ابْنُ حِبَّاسٍ - لِإِنْ صَحَّ عَنْهُ - مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَفِيهِمْ طَائِفَةٌ لَا يَعْتَقِدُونَ نُبُوَّةَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ يَكْلِبُونَهُ عَلَيْهِ ، وَهَذَا كَانَ فِي هَذَا السِّيَاقِ مَتَكَاتٍ مِنْ أَشْدِهَا ذِكْرُ النِّسَاءِ ، فَإِنَّ الْمَشْهُورَ أَنَّ ذَلِكَ الْجَنِّي لَمْ يَسْلُطْ عَلَى نَسَاءِ سُلَيْمَانَ ، بَلْ عَصَمَهُنَّ اللَّهُ عَنْهُ ، وَتَشَرَّفَ بِتُكْرِمَاتٍ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ رُوِيَ هَذِهِ الْقِصَّةُ مَطْوَلَةٌ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ ، كَعَمِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، وَجَمَاعَةِ آخَرِينَ ، وَكَالَهَا مُتَلَفَاتٌ مِنْ قِصَصِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

وَقَالَ عِيْنِي بْنُ أَبِي حَرَوٍ السَّيِّدِي (٢) : وَجَدَ سُلَيْمَانَ خَاتَمَهُ فِي صَفْصَفَانِ ، فَشَقَّ فِي خَرَقَةٍ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، تَوَاضَعًا لِقَدْحِ وَجَلٍ : وَوَاهِ ابْنِ أَبِي حَتَّامٍ :

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَتَّامٍ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ [فِي صِفَةِ كَرْسِيِّ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -] خَبْرًا عَجَبِيًا ، فَقَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ ، حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ كَاتِبُ الْبَيْتِ ، أَخْبَرَنِي أَبُو إِسْحَاقَ الْمَصْرِيُّ ، عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ : أَنَّهُ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ حَدِيثِ [إِرَامِ ذَاتِ الْعِمَادِ] قَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : يَا أَبَا إِسْحَاقَ ، أَخْبَرَنِي عَنْ كَرْسِيِّ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَمِنْ أَمْرِ شَيْءٍ هُوَ ؟ فَقَالَ : كَانَ كَرْسِيُّ سُلَيْمَانَ مِنْ أَيْبَابِ الْقَبِيلَةِ مُقَصَّصًا بِاللَّذْرِ وَالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ وَالْقُرْطُوبِ ، وَقَدْ جُعِلَ [لَهُ] دَرَجَةٌ مِنْهَا مُقَصَّصَةٌ (٣) بِاللَّذْرِ وَالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْكَرْسِيِّ فَحُفَّتْ مِنْ جَانِبَيْهِ بِالنَّخْلِ ، نَحْلٌ مِنْ ذَهَبٍ ، شَارِغُهَا مِنْ يَاقُوتٍ وَزَبَرْجَدٍ وَلَوْلُؤُذٌ ، وَجُعِلَ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ [الَّتِي عَنْ يَمِينِ الْكَرْسِيِّ] طَوَاوِيسُ مِنْ ذَهَبٍ ، ثُمَّ جُعِلَ

(١) أَيُ : تَحْنِي وَبَدَ . وَفِي النَّصْرِ ٣١٠/ : « إِلَّا أَنْ دَارَ مَعَهُ الرِّصَاصُ » .

(٢) فِي الْخَطِطَةِ : « ابْنُ أَبِي حَرَوِيَّةٍ الشَّيْبَانِي » . وَلَمْ يَجِدْ ، وَلَمَّا الصَّوَابِ مَا أَتَيْنَاهُ .

(٣) فِي الْخَطِطَةِ : « مُقَصَّصًا » . وَلَمَّا الصَّوَابِ مَا أَتَيْنَاهُ .

على رموس النخل التي على يسار الكرسي نسور من ذهب مقابلة الطولويس ٥ وجعل على يمين الدرجة الأولى شجرتا صنوبر من ذهب ، وعن يسارها أسد كان من ذهب ، وعلى رموس الأسدين عودان من زبرجد ، وجعل من جانبي الكرسي ١ شجرتا كرم من ذهب ، قد أظلتا الكرسي ، وجعل عنائدهما درأ وإلقوتا أحمر ٥ ثم جعل فوق درج الكرسي أسدان عظيمان من ذهب جوفان مشحوان مسكا وعنبرا ٥ فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة ، ثم يقعان فينضخان مائى أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسي سليمان - عليه السلام - ثم يوضع متبران من ذهب ، واحد خلقيته والآخر لرئيس أحيار بني إسرائيل ذلك الزمان ٥ ثم يوضع أمام كرسيه سبعون متبرا من ذهب ، يقعد عليها سبعون قاضيا من بني إسرائيل وعلمائهم ، وأهل الشرف منهم والطلول ، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون متبرا من ذهب ، ليس عليها أحد ، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى ، فاستدار الكرسي كله بما فيه وما عليه ، ويسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر ، ثم يصعد على الدرجة الثانية ، فيسط الأسد يده اليسرى ، وينشر النسر جناحه الأيمن ، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسي ، أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج [سليمان] فوضعه على رأسه ، [فإذا وضعه على رأسه] استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرسي المسرعة : فقال معاوية رضي الله عنه (١) : وما الذي يديره يا أبا إسحاق ؟ قال : تبين من ذهب ، ذلك الكرسي عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجني ، فإذا أحست بنوراه تلك النسور والأسد والطولويس التي في أسفل الكرسي دُرْنَ إلى أصله ، فإذا وقت وقفن كلهن منكسات رموسهن على رأس سليمان عليه السلام وهو جالس ، ثم ينضجن جميعا ما في أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عود من جواهر ، التوراة فتجعلها في يده ، فيقرعوها سليمان على الناس ٥

وذكر تمام الخبر ، وهو غريب جدا ٥

(قال : رب ، اغفر لي ملكا ، لا ينبغي لأحد من بعدي ، إلك آت الوهاب) ، قال بعضهم : معناه لا ينبغي لأحد من بعدي ، أي : لا يصلح لأحد أن يسلبني ، كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسب ، لا أنه يحجر على من بعده من الناس . والصحيح أنه سأل من الله ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله ، وهذا هو ظاهر السياق من الآية ، وبه وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٥

قال البخاري ، عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا روح وعمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن فريتا من الجن | تكلمت على البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع على الصلاة ، فأمكنني الله منه ، وأردت أن أربطه إلى ساوية من سوارى المسجد حتى تمسبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أنبي سليمان : (رب ، اغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) ٥

قال روح : قرده خلسا (١) :

وكلنا رواه مسلم والنسائي ، من حديث شعبة ، به (٢) :

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا محمد بن سلمة المُرَادي ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن معاوية بن صالح ، حدثني
ويمة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي الدرداء قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي (٣) ،
فسمعه يقول : «أعوذ بالله منك» . ثم قال : «أنتك بلعة الله» - ثلاثا - وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من
الصلاة قلنا : يا رسول الله ، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ؟ قال :
«إن عبد الله إبليس جاء بشهاب من نار ليحمله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك - ثلاث مرات - ثم قلت :
أنتك بلعة الله التامة : فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت لأخذَه والله لولا دعوة أخينا سليمان ، لأصبح موثقا يلعب به
صبيان أهل المدينة» (٤) :

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا ميسرة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد حليج (٥) سليمان قال :
رأيت عطاة بن يزيد اللبثي قائما يصلي ، فلبحت امر بين يديه فرغني ، ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفة ، فقرأ فاتبتست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته
قال : «لو رأيتموني وإبليس ، فأهويت بيدي ، فاذلت لأخذه حتى وجدت برده لعابه بين إصبعي هاتين - الإجماع
والتي تليها - ولولا دعوة أئني سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد ، يتلاعب به صبيان المدينة ، فن استطاع
منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليعلم» (٦) .

١ وقد روى أبو داود منه : «من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليعلم» ، عن أحمد بن أبي
سريع ، عن أبي أحمد الزبيري ، به (٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن محمد الفراري ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني ربيعة
ابن يزيد ، عن عبد الله الدبلي قال : دخلت حل عبد الله بن عمرو ، وهو في حائط له بالطائف يقال له «الوهط» ،
وهو مخصر فني من قريش يزنا بشرب (٨) الخمر ، فقلت : بلغني عنك حديث أنه «من شرب شربة خمر
لم يقبل الله - حر وجل - له نوبة أربعين صباحا» وإن الشئ من شئ في بطن أمه ، وإنه من أتى بيت المقدس لا يشهزه (٩)
إلا الصلاة فيه ، خرج من خطبته مثل يوم ولدت أمه ، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتلب يده من يده ، ثم انطلق ،

(١) البخاري ، تفسير سورة «ص» : ١٥٩/٦ .

(٢) مسلم ، كتاب المساجد ، باب «جواز لمن الشيطان في أثناء الصلاة» : ٢/٢٧٢ .

(٣) كلمة «يصلي» غير ثابتة في مسلم . وهي في رواية النسائي ، انظر كتاب السهو ، باب «لمن إبليس في الصلاة» : ١٣/٣ .

(٤) مسلم في الكتاب والباب المتضمنين : ٧٣/٧٣ - ٧٣/٧٣ .

(٥) في المتن : «صاحب» .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٨٣/٣ .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب «ما يؤثر للمسلم أن يدرك من للمع بين يديه» .

(٨) أي : يتم . يقال : زته يكلد . وقرنه : إذا أنهه بآفته فيه .

(٩) التمر : الخلع . يبريه أنه لم ينو بخروجه غير الصلاة فيه .

فقال عبد الله بن عمرو : إني لا أحل لأحد أن يقول عكسي ما لم أقبل ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من شرب من الخمر شربة ، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه . فإن عاد (١) - قال : فلا أدري في الثالثة أو الرابعة - فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من رده (٢) الخبال يوم القيامة . قال : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، ثم أتني عليهم من نوره ، فن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جنب الظلم على علم الله عز وجل . » وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا ، فأعطاه الثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سأله حكما يصادف حكمه ، فأعطاه إياه ، وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله : أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد ، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، فمن أرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياها (٣) . »

وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث الثنائي وابن ماجه من طرق ، عن عبد الله بن فروز الديلمي ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلافا ثلاثا ... وذكره (٤) . »

وقد روى من حديث رافع بن عمر - رضي الله عنه - بإسناد وسياق غريبين ، فقال الطبراني :

حدثنا محمد بن الحسن بن قتيبة السقلافي ، حدثنا محمد بن أبيوب بن سويد ، حدثني أبي ، حدثنا إبراهيم بن أبي حبة ، عن أبي الزاهرية ، عن رافع بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله عز وجل لداود عليه السلام : ابن لي بيتا في الأرض . فبنى داود بيتا لنفسه قبل البيت الذي أمر به ، فأوحى الله إليه : يا داود ، نصبت بيتك قبل بيى ؟ قال : يا رب ، هكذا قضيت ، من ملك استأثر . ثم أخذ في بناء المسجد ، فلما تم السور سقط ، ثلاثا ، فشكا ذلك إلى الله عز وجل ، فقال : يا داود ، إلك لا تصلح أن تبنى لي بيتا . قال : ولم يا رب ؟ قال : لما جرى على يديك من السماء . قال : يا رب ، أو ما كان ذلك في هواك وعجبك ؟ قال : بلى ، ولكنهم عبادى ، وأنا أرحمهم . فشق ذلك عليه ، فأوحى الله إليه : لا تحزن ، فإني سأقضى ببناءه على يدي ابنك سليمان . فلما مات داود أخذ سليمان في بنيه فلما تم قرب القرابين ، وذبح الذبائح ، وجمع بنو إسرائيل ، فأوحى الله إليه : قد أرى سرورك ببنائك بيى ، فسلني أعطك . قال : أسألك ثلاث خصال : حكما يصادف حكمك ، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما نتان فقد أعطيهما ، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة ؛

(١) ما بين القوسين عن المسند .

(٢) الرذفة : مصارة أهل النار .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٧٦/٢ .

(٤) الثنائي ، كتاب المساجد ، باب فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه : ٤٣/٢ . وعن ابن ماجه ، كتاب الإثم ، باب

« ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس » ، الحديث ١٤٠٨ : ٤١٦/١ - ٤١٧/٢ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حَمْر بن راشد اليماني ، حدثنا إياس بن سلمة بن الأكوع ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلا استغفحه : « سبحان الله ربّي الأعلى العليّ الوهاب (١) » .

وقد قال أبو حنيفة : حدثنا علي بن ثابت ، عن جعفر بن برقان ، عن صالح بن ميسرة قال : لما مات نبي الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان - عليهما السلام - : أن سئلي حاجتك : قال : أسألك أن تجعل لي قلباً غشاك ، كما كان قلبه أبي ، وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلبه أبي : فقال الله : أرسلت إلى عبدی وسألتك حاجته ، فكأنت : أن أجعل قلبه غشاك ، وأن أجعل قلبه يحبك : لأهينَ له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده : قال الله تعالى : (فسخرنا له الريح نجري بأمره رخاء حيث أصاب) ، والتي بعدها ، قال : فأعطاه ما أعطاه ، وفي الآخرة لا حساب عليه .

مكلاً أورده أبو القاسم بن عساکر في ترجمة سليمان - عليه السلام - في تاريخه :

وروى عن بعض السلف أنه قال : بلغني عن داود أنه قال : « إلهي ، كن لسليمان كما كنت لي » : فأوحى الله إليه : أن قل لسليمان : يكون لي كما كنت لي أكون له كما كنت لك .

وقوله : (فسخرنا له الريح نجري بأمره رخاء حيث أصاب) ، قال الحسن البصري رحمه الله : لما حفر سليمان الخليل فضياءه عز وجل ، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع ، الريح التي غنوها شهر ورواها شهر .

وقوله : (حيث أصاب) ، أي : حيث أراد من البلاد .

وقوله : (والشياطين كل بناء وغواص) ، أي : منهم من هو مستعمل في الأبنية للمائلة من محاريبه وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون مما فيها من اللؤلؤ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ، (وآخرين مقرنين في الأصفاد) ، أي : موثوقون في الأغلال والأكبال ، من قد تَسَرَّدَوْا وعصى وأمتنع من العمل وأبى ، أو قد نساء في صنيعة واعتدى .

وقوله (هلدا عطاؤنا ظمئن أو أمسك بقبر حساب) ، أي : هذا الذي أعطيتك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعطينا شئت واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أي : مهما فعلت فهو نجاة لك ، لحكم عما شئت فهو صواب .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خيّر بين أن يكون نبياً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به ، وإما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به - وبين أن يكون ملكاً نبياً ، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار للملّة الأولى بعد ما استشار جبريل ، فقال له : تواضع : فانظر الملّة الأولى ، لأنها أرفع قدراً عند الله وأعلى منزلة في المعاد : وإن كانت للملّة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا وفي الآخرة . ولما لا ذكر تعالى ما أعطى سليمان في الدنيا به على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً ، فقال : (وإن له عندنا نزلي وجنن مكين) ، أي : في الدار الآخرة .

وَأَذِّنْ صَرْفَ أَبِيكَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَتَىٰ مَنَى الشَّيْطَانُ يَنْصَبُ وَعَذَابُ ① أَرَكُنْ بِرَجُلِكَ هَذَا لِمَنْفَعَتِهِ
بَارِدٌ وَشَرَابٌ ② وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَكَرَىٰ لِأَوَّلِ الْآلِيبِ ③ وَخَذَ يَدَ
خُضْغَتَا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ سَارِعًا نَّعَمَ الْعَبْدُ ④ وَشَرَابٌ ⑤

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب - عليه السلام - وما كان ابتلاء تعالى به من الضر في جسده وماله وولده ،
حتى لم يبق من جسده مَقَرٌّ إلا رية سواي قلبه ، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه ،
غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه ، وتخدم نورا من ثمان
عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد ومعة طائلة من الدنيا ، فسلبت جميع ذلك ، حتى آل به الحال
إلى أن آتت على منزلة من مزايل البلدة هذه للدة بكاملها ، ورفضه القريب والبعيد ، رضى الله عنها ، فإنها
كانت لا تفارقه صباحا ومساء إلا بسبب خبطة الناس ، ثم تعود إليه قريبا ، فلما طال الحال ، واشتد الحال ، وانتهى
القدر المقدور ، وتم الأجل للقدور ، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين ، فقال : (إني منى الضر وأنت أرحم
الراحمين) ، وفي هذه الآية الكريمة قال : رَبِّ ، إني منى الشيطان ينصب وعذاب ، قيل : ينصب في بدن ، وعذاب
في ماله وولده ، فمعد ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ، فقبل
فأنجب الله عينا وأمره أن يقتل منها ، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى ، ثم أمره بضرب الأرض في مكان
آخر ، فأنجب هينا أخرى وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت ما كان في بطنه من السوء ، وتكاملت للعافية ظاهرا
وباطنا ، ولهذا قال تعالى : (أركض برجلك هذا متصل باردا وشرابا)

قال ابن جرير ، وابن أبي حاتم جميعا : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أنخرفني يونس بن يزيد ،
عن حنبل ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إني نبي الله
أيوب - عليه السلام - لبيت به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلا كان من أنصى إخوانه
به ، كانا يندبران إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم - والله - لقد أذاب أيوب ذبا ما أذبه أحد من الملائكة »
قال له صاحبه : وما ذلك ؟ قال : من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله ، فيكشفت ما به ، فلما راح إليه لم يصبر الرجل
حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول ، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتناحزان ، فيذكران
الله - عز وجل - فأرجع إلى بيتي فأكثر عنهما ، كرامة أن يذكر الله إلا في حق ، قال : وكان يخرج إلى حاجته
فإذا قضاها أسسكت امرأته يده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطلها ، وأوحى الله تعالى إلى أيوب - عليه السلام -
أن (أركض برجلك هذا متصل باردا وشرابا) ، فاستعملته ، فخلقه تنظر ، فأقبل عليها قد أذهبت الله ما به من
البلاء ، وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أرى بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا الليل ؟ فوالله على ذلك ،
ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا ، قال : فقلت أنا هو ، قال : وكان له أندران (١) ، أنذر قضيع وأنذر

للشعر ، فبعث الله سمائين ، فلما كانت إحداهما على أنذر التمع أفرغت فيه الجهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أنذر الشعر حتى فاض . هذا لقول ابن جرير رحمه الله (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا أيوب يغتسل عريانا ، خثر عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثو في ثوبه ، فتأده ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى بي عن بركتك (٢) » .

انفراد بإخراجه البخاري ، من حديث عبد الرزاق ، به (٣) .

ولهذا قال تعالى : (ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) — قال الحسن ، وقناة : أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم (٤) .

وقوله : (رحمة منا) ، أي : به على صبره وثباته وتواضعه واستكانته ، (وذكرى لأولى الألباب) ، أي : للولي العقول ، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

وقوله : (وخذ يديك ضغثا فاضرب به ولا تحث) ، وذلك أن أيوب — عليه السلام — كان قد غضب على زوجته ، ووجد عليها في أمر فعلته . قيل : باحت صغيرتها غيظاً طعمته [إياه] ، فلامها على ذلك ، وحلف إن شاء الله ليضربنها مائة جلدة . وقيل : لغر ذلك من الأسباب . فلما شاء الله وعافاه ، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب ، فأثاب الله — عر وجل — أن يأخذ ضغثاً — وهو : الشراخ — فيه مائة قضيب فيضربها به ضرباً واحدة ، وقد برت يمينه ، وخرج من حنته ووقى ينلوه ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه . ولهذا قال تعالى : (وإنا وجدناه صابراً ، نعم العبد ، إنه أواب) ، أي : نعم العبد ، إنه أواب ، (نعم العبد ، إنه أواب) ، أي : رجاء منيب . ولهذا قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب (٥)) ،

وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الإيمان وغيرها ، وأدخلوها بمقتضاها :

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿١٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿١٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿١٧﴾ وَأَذْكُرْ تَمِيمَ لَئِنْ سَأَلْتَهُ لَنَنْبِتْ لَهُ زَيْتُونَ وَالْجَبَلُ مِنْ تَحْتِهَا لَنَنْبِتْ لَهُ زَيْتُونَ ﴿١٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ

يقول تعالى خبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار) ، يعني بذلك : العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة .

(١) تفسير الطبري : ١٠٧/٢٣ - ١٠٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، من حديث طويل : ٣١٤/٢ .

(٣) البخاري : كتاب الفضل ، باب « من اعتقل عريانا في الخلوة » . ٧٨/١ .

(٤) تفسير الطبري : ١٠٨/٢٣ .

(٥) سورة الطلاق : آية ٢ ، ٣ .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (أول الأبدى والأختصار) ، ، يقول : أول القوة والمبادأة ، (والأبصار) ، يقول : الفقه في الدين^(١) .

وقال مجاهد : (أولى الأبدى) ، يعنى : القوة فى طاعة الله ، (والأبصار) ، يعنى : البصر فى الحق ، وقال قتادة والسدى : أعطوا قوة فى العبادة وبصرًا فى الدين .

(إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) ، قال مجاهد : أى جنتهم يعملون للأخرة ليس لهم هم فيها ، وكذا قال السدي : ذكرهم للأخرة وهم لهم ما

وقال مالك بن دينار : نزع الله من قلوبهم حبه الدنيا وذكرها ، وأعطاهم بحبه الآخرة وذكرها ، وكلما قال صلاه
 فخر أساني ،

وقال سعيد بن جبّير : يعني بالدار الجنة ، يقول : أعطصناها لهم بلكرم لها ، وقال في رواية أخرى : (ذكرى الدار) : ههنا الدار .

وقال فتادة : كانوا يدسّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها :

وقال ابن زيد : جعل لم خاصة أفضل شيء في النار الأخيرة .

وقوله : (ولهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) ، أى : لمن المختارين المحبوبين الأخيار ، فهم أنبياء مختارون .

وقوله : (واذكر إسماعيل ، وإلياس ، وذو النفل ، وكل من الأخيار) ، قد تضمن الكلام على نصيبهم وأخبارهم مستقصاة في (سورة الأنبياء (٤)) بما أفضى عن إعادته هاتجا :

وقوله : (هلا ذكر) ، أي : هلا فصل فيه ذكر لمن يتلوه .

وقال السدي : يعني القرآن .

وَأَنَّ السَّمْعَ لِحُسنِ عَمَلٍ ۝ جَنَّتْ عَنْهُ مُنْعَةٌ لِّمِ الْأَبْوَابِ ۝ مُنْعِينَ قِيَادَهُنَّ فِي إِيْقَاتِهِمْ ۝ كَثِيرَةٌ وَتَرَابٌ ۝ وَعَنْهُمْ قَصِيرَتِ الطَّرِيقِ أَتْرَابٌ ۝ هَذَا مَا عَدَوْنَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ۝ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ فَنَادٍ ۝

يُخبر تعالى عن عباده المؤمنين الصالحين ، أن لهم في الآخرة (جنة مآب) ، وهو : المرجع والمآب ، ثم فسره بقوله : (جنتان مبدن) ، أي : جنتان إقامة منفصلة لم الأبواب .

(١) تفسير الطبري ١: ٢٣٩.

(٢) النظر فيما تقدم : ٢٥٧٪ - ٢٦٩

والآلف واللام هنا بمعنى الإضافة ، كأنه يقول : « مفتحة لم أبوابها » ، أى : إذا جاموها فتحت لم أبوابها ،

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن [ثواب] الهيثري ، حدثنا عبد الله بن نعيم ، حدثنا عبد الله بن مسلم - بمضى ابن هرمز ، عن ابن سابط ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة قصرا يقال له : « عدن » ، حوله البروج والبروج ، له خمسة آلاف باب ، عند كل باب خمسة آلاف حيرة (١) لا يدخله - أو : لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل » ،

وقد ورد في أبواب الجنة الثانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة :

وقوله : « متكنن فيها » ، قيل : « مَرَبَّعَن فيها حل سرر تحت الحسكال (٢) » ، (يدعون فيها بفاكهة كثيرة) ، أى : مما طلبوا وجعلوا ، وحضر كما أرادوا . (وشراب) ، أى : من أى أنواعها شاعوا أنهم به الخدام (يأكوبون ولأبريق وكأس من معين (٣)) :

(وعندهم قاصرات الطرف) ، أى : من غير أزواجهن ، فلا يلتصقن إلى غير بعولتهن ، (أتراب) ، أى : متساويات في السن والعمر ، هذا معنى قول ابن عباس ، وعجاء ، وسعيد بن جبير ، وعمر بن كعب ، والسدي (٤) :

(هذا ما توصون ليوم الحساب) ، أى : هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة التي وعدنا لعباده المؤمنين ، التي يصبرون إليها بعد نشورهم وليامهم من قبورهم وسلاطهم من النار :

ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء ، فقال : « إن هذا لرضقنا ماله من نفاق » ، كقوله تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق (٥) » . وكقوله : (عطاء غير مجلود (٦)) . وكقوله : (لم أجر غير ممنون (٧)) ، أى : غير مقطوع . وكقوله : (أكلها دائم وظلها ، تلك حقي الذين اتقوا ، وعقبي الكافرين النار (٨)) . والآيات في هذا كثيرة جدا .

(١) الحيرة - بزة عنبة - سلة يمتلئ بها .

(٢) الحجاج : جمع سجلة - بفتح الحاء والجيم - وهي : بيت كائنية يستريح بالتياس . وتكون له أزرار كبار .

(٣) سورة الواقعة : آية : ١٨ .

(٤) تفسير الطبري : ١١٢/٢٣ .

(٥) سورة النحل : آية : ٩٦ .

(٦) سورة هود : آية : ١٠٨ .

(٧) سورة فصلت : آية : ٨ .

(٨) سورة الفرقان : آية : ٣٥ .

هَذَا وَإِنَّ الْعَالَمِينَ لَشَرٌّ مَقَابٍ ﴿٢٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَقْسُوا إِلَيْهَا ﴿٢٦﴾ هَذَا فَلْيَذوقُوا حَسْمٌ وَعَقَاقٌ ﴿٢٧﴾
وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٢٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَبِعٌ مَعَكُ لَا مَرْجَاءَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٢٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا
مَرْجَاءَ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا قَيْسَ الْقَرَارِ ﴿٣٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّ عَلَيْنَا خِطَابًا فِي النَّارِ ﴿٣١﴾
وَقَالُوا مَا لَنَا لَنَرِيَّ رَجُلًا كَمَا نُنَدِّعُهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ ﴿٣٢﴾ أَخَذْنَاهُمْ بَغْرِبًا أَنْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
ذَلِكَ لَخَلْقٌ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٣٤﴾

لا ذكر تعالى مآل السعداء ، انتهى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم ، فقال : (هذا
وإن الطاغين) ، وهم : الخارجون عن طاعة الله ، المخالفون لرسول الله ، (لشرب مأب) ، أى : لسوء منقلب ومرجع ،
ثم فسره بقوله : (جهنم يصلونها) ، أى : يدخلونها فتضرمهم من جميع جوانبهم ، (فيض المهاد) هذا قليل وقوه حميم
وخطاف ، أما الحميم فهو : الحار الذى قد انتهى حره ، وأما التساق فهو : ضده ، وهو البارد الذى لا يستطيع من
شدة برده الملم . ولهذا قال : (وآخر من شكله أزواج) ، أى : ولثنياء من هذا القبيل ، التى عوضه يعاقبون بها .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دُراج ، عن (أبي) الحميم ، عن أبي سعيد ،
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو أن ذكراً من عَسَاقٍ هراق في الدنيا ، لأنزل الله الدنيا (١) » .

ورواه الترمذى ، عن سويد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن رشتين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، عن
دُراج ، به . ثم قال : « لا نعرفه إلا من حديث رشتين (٢) » . كلنا قال : وقد تقدم من غير حديثه . ورواه ابن
جرير ، عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، (٣) به .

وقال كعب الأحبار : عساق : عين في جهنم ، يسيل إليها حمة كل ذات حمة (٤) من حية وعقرب وغير ذلك ،
فيستفتح ، فيوقى بالآدى فيغمس فيها غسلة واحدة ، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ، ويتعلق جلده ولحمه
في كمييه وعقيقه ، ويُسَجَّر لحمه كما يسَجَّر الرجل ثوبه . ورواه ابن أبي حاتم (٥) .

وقال الحسن البصري في قوله : (وآخر من شكله أزواج) ، ألوان من الطلابة (٦) :

وقال غيره : كازمهير ، والسعوم ، وشرب الحميم ، وأكل الزقوم ، والصدود والجوى ، إلى غير ذلك من
الأشياء المختلفة والمتضادة ، والجميع مما يطبون به ، ويماتون بسببه .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٨/٣ . وانظر أيضاً المسند : ٨٣/٣ .

(٢) تحفة الأوحى ، أبواب صفة جهنم ، باب « ما جاء في صفة شراب أهل النار » ، الحديث ٢٧١٠ : ٣٠٥/٧ : ٣٠٧ .

(٣) تفسير الطبري : ١١٤/٢٣ .

(٤) الحمة - بضم الحاء وفتح اللام غشقة ، وأجاز ابن الأعرابي تشديدا - : سم للعقرب .

(٥) ورواه الطبري ، انظر : ١١٤/٢٣ .

(٦) تفسير الطبري : ١١٥/٢٣ .

وقوله : (هـلّا فوج مقتحم معكم ، لا مرجحاً بهم ، إنهم صالوا النار) ، هـلّا إخبار عن قبل أهل النار بعضهم بعضاً كما قال تعالى : (كلما دخلت أمة لعنت أخيها (١)) ، يعنى بذلك السلام يتلاحون ويتكافون ، ويكثر بعضهم ببعض ، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى ، إذا أثبتت التى بعدها مع الخلة من الزبانية : (هـلّا فوج مقتحم) ، أى : داخل معكم ، (لا مرجحاً بهم ، إنهم صالوا النار) ، لأنهم من أهل جهنم : (قالوا : بل أنتم لا مرجحاً بكم) ، أى : فيقول لهم الداخلون : (بل أنتم لا مرجحاً بكم ، أنتم قلعتموه لنا) ، أى : أنتم دعوتونا إلى ما أنفصى بنا إلى هـلّا للصبر ، (فبئس اقرار) ، أى : فبئس للترك والمستقر والصبر : (قالوا : ربنا ، من قدم لنا هـلّا ، فزده علينا ضعفاً فى النار) ، كما قال عز وجل : (قالت أعراف لأولادهم : ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتاهم عذاباً ضعفاً من النار) ، قال : لكل ضعف ، ولكن لا تعلمون (٢)) ، أى : لكل منكم عذاب بحسبه ، (وقالوا : مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار . أم أخذناهم سخرى أم زأغت عنهم الأبصار ؟) ، هـلّا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يَتَقَدُّون رجالاً كانوا يعضنون أنهم على الضلالة ، وهم المؤمنون فى زعمهم ، قالوا : مالنا لا نراهم معنا فى النار ؟

قال مجاهد : هـلّا قول أبى جهل ، يقول : مالى لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وفلاناً وفلاناً (٣) .

وهـلّا مثل ضُرب ، وإلا فكل الكفار هـلّا حالم : يعضنون أن المؤمنين يدخلون النار ، فإِذَا دخل الكفار [النار] انقضوا فلم يجدوا ، فقالوا : (مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار . أم أخذناهم سخرى) ، أى : فى الدنيا ، (أم زأغت عنهم الأبصار ؟) ، يَسْتَكُون أنفسهم بالحال ، يقولون : أو لعلمهم معنا فى جهنم ، ولكن لم يقع بصيرنا عليهم . فعند ذلك يعرفون أنهم فى الدرجات العاليات ، وهو قوله : (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم ، فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) إلى قوله : (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون (٤)) .

وقوله : (إن ذلك لمن تحاصم أهل النار) ، أى : إن هـلّا الذى أخبرناك به يا محمد ، من تحاصم أهل النار بعضهم فى بعض ، ولعن بعضهم بعضاً ، لمن لا مرتبة فيه ولا شك .

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ وَمَنْ إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٨﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الَّذِى يُزِيلُ الْعَرْشَ عَنْكُمْ قُلْ هُوَ يَوْمَئِذٍ عَظِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَنْتُمْ عَنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٠﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤١﴾ إِنْ يُرْسَخْ لِي إِلَّا أَنَّمَا أَنَا قَدِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى آمراً ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله : إنما أنا منذر ، لست كما تزعمون ، (وما من إله إلا الله الواحد القهار) ، أى : هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه : (رب السموات

(١) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .

(٢) تفسير الطبري : ١١٦/٢٣ .

(٣) سورة الأعراف ، الآيات : ٤٤ - ٤٩ .

والأرض وما بينهما) ، أى : هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ، (العزيز الغفار) ، أى : غفار مع ذنوبه وعظمته ؛
(قل هو بأعظم) ، أى : خبر عظيم وشأن بالغ ، وهو إرسال الله إياي إليكم ، (أنتم منه معرضون) ، أى : غافلون ؛
قال مجاهد ، وشريح القاضي ، والسدي في قوله : (قل : هو بأعظم) ، يعنى : القرآن ؛

وقوله : (ما كان لى من علم بالأهل إلا ما يختصون) ، أى : لولا الوحي من أين كنت أدرى باختلاف الأهل ؟
يعنى فى شأن آدم واستناع إبليس من السجود له ، وعاجته ربه فى تفضيله عليه : فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث
قال :

حدثنا أبو سعيد مولى بن هاشم ، حدثنا جهم بن أبيهم ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن زيد بن أبي سلام ، عن أبي سلام ،
عن عبد الرحمن بن هاشم (١) ، عن مالك بن يسلم ، عن معاذ - رضى الله عنه - قال : احتسب علينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح ، حتى كدنا نرى قرْن الشمس : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [سرىماً ،
فكروب (٢)] بالصلاة فصل ، وتجاوز فى (٣) صلاته ، فلما سلم قال : « كما أنتم على مصافكم » : ثم أتى إلينا فقال :
« إني سأحدثكم ما حدثنى عنكم الغداة » ، إلى قمت من الليل فصليت ما قد روتى ، فتعمست فى صلاة حتى استيقظت ،
فلما أذا برى فى أحسن صورة ، قال : يا محمد ، أتدرى فم ينضم للأهل ؟ قلت : لا أدرى رب - أعاذنا فلا -
فرايته وضع كفه بين كتفى حتى وجدت برد أنامله بين صدرى ، فتجلى لى كل شئ ، وعرفت ، قال : يا محمد ، فم ينضم
للأهل ؟ قلت : فى الكفارات : قال : وما الكفارات ؟ قلت : تنقل الأقدام إلى الجُمُعات (٤) ، والجلوس فى المساجد
بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكرجات : قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلوة
والناس نيام : قال : سل : قلت : اللهم ، إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لى
وترحمنى ، ولإذا أردت فتنة بقوم فتوفى غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك ، وحب عمل يقربنى إلى حبك ؛
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها حق فادرسوها وتعلموها (٥) ؛

فهو حديث للناس المشهور ، ومن جملة يقطعة فقد غلط ، وهو فى السنن من طرق : وهذا الحديث يعينه قد رواه الترمذى
من حديث « جهم بن عبد الله اليمامى » به . وقال : « حسن صحيح (١) » . وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص للملكوت
[فى القرآن] ، فإن هذا قد فسّر ، وأما الاختصاص الذى فى القرآن فقد فسر بعد هنا ، وهو قوله تعالى :

(١) فى المسند : « عياش » . والاصواب ما هنا : انظر ترجمة عبد الرحمن بن هاشم فى آمد الثانية : ٤٦٥/٢ والترمذى ،
والملاحضة .

(٢) التشبيب : إقامة الصلاة .

(٣) أى : خففتها وأسرع بها .

(٤) كذا فى المخطوطة والمسنود . وفى الترمذى : « الجماعات » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٤٣/٥ ، وما بين القوسين منه .

(٦) تحفة الأعرافى ، تفسير سورة ص : « الحديث ٣٢٨٨ : ١٥٦٩ - ١٥٩٠ » .

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ إِذْأَسْوَيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ بَنِيَّ مَعَكُمْ أَتَسْجُدُ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَانْزِعْ مِنْهَا فَاثْنًا رَّجِيمًا ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّ يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَائِيَّةَ جَهَنَّمَ مَعَكَ وَبِمَن تَعْبُدُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

هذه القصة ذكرها الله - تعالى - في «سورة البقرة» ، وفي أول «الأعراف» ، وفي «سورة الحجر» ، وسبحان والكهف» . وها هنا ، وهي أن الله - سبحانه - أعلم الملائكة قبل خلق آدم - عليه السلام - بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتوسيته فليستسجدوا له إكراماً وإعظافاً واحتراماً ، واستئذناً لأمر الله عز وجل . فامتثل للملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنساً ، كان من الجن فخان طبعه وجبلته أخرج ما كان إليه ، فاستكبر عن السجود لآدم ، وخاصمه ربه عز وجل فيه ، وادعى أنه خير من آدم ، فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين ، [والثار خير من الطين] في زعمه . وقد أخطأ في ذلك ، وخالف أمر الله ، وكفر بذلك ، فأبعده الله وأرغم أنه ، وطرده عن باب رحمته وعزل أسفه ، وحضرة قلعه ، وسماه «إبليس» ، إعلاماً له بأنه قد أبليس (١) من الرحمة . وأنزله من السماء مذموماً منجوراً إلى الأرض ، فسأل [الله] الشظيرة إلى يوم البعث ، فأنظره الخليم الذي لا يتسجل على من عصاه . فلما أئمن الملاك إلى يوم القيامة تسمرد وطني ، وقال : (فيعزتك لأغوينهن أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) كما قال : (أرأيتك هذا الذي كبرت على ، لن أنخرتن إلى يوم القيامة ، لأحتكن ذريته إلا قليلاً) (٢) ، وهو لا مهم للمستثنون من الآية الأخرى ، وهي قوله تعالى : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً) (٣) .

وقوله : (قال : فالحق والحق أقول . لأملائن جهنم معك ومن تبعك منهم أجمعين) - قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الجن» الأولى ، وفسره مجاهد بأن معناه : أنا الحق ، والحق أقول . وفي رواية عنه : الحق مني ، وأقول الحق .

وقرأ آخرون ينصبرهما :

قال السدي : هو قسم أقسم الله به (٤) :

- (١) الله : يئس .
- (٢) سورة الإسراء : آية : ٦٢ .
- (٣) سورة الإسراء : آية : ٦٥ .
- (٤) تفسير الطبري : ١٢٥ : ١٢٤ .

قلت : وهذه الآية الكريمة كقولها تعالى : (ولكن حتى نقول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)(١) ، وكقولها تعالى : (قال : اذهب فن تهلك منهم ، فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً)(٢) .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٩٠﴾

يقول تعالى: قل: يا عمدة هؤلاء المشركين : ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرأ تطويعه من عرض الحياة الدنيا ، (وما أنا من المتكلفين) ، أى : وما أريد على ما أرسلني الله به ، ولا أجتى زيادة عليه ، بل ما أمرت به أدبته لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتنى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة .

قال سفيان الثوري ، عن الأعمش ومنصور ، عن أبي الضحى ، عن مسروق قال : أتينا عبد الله بن مسعود قال : يا أبا الناس ، من علم شيئاً قليلاً به ، ومن لا يعلم قليلاً : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول الرجل : لا أعلم : الله أعلم ، فإن الله قال لنبيكم صلى الله عليه وسلم : (قل : ما أسألكم عليه من أجر ، وما أنا من المتكلفين) . أخرجاه من حديث الأعمش ، به (٣) .

وقوله : (إن هو إلا ذكر للعالمين) ، يعنى : القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإxs والجن ، قاله ابن عباس ، ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل : حدثنا فيس ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : (العالمين) ، قال : الجن والإxs .

وهذه الآية كقولها تعالى : (لأنذرکم به ومن بلغ)(٤) ، (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده)(٥) ،

وقوله : (ولتعلمن نبأه) ، أى : خبره وصدقه (بعد حين) ، أى : عن قريب .

قال قتادة : بعد الموت . وقال عكرمة : يعنى يوم القيامة . ولا منافاة بين القولين ، فإن مات فقد دخل في حكم القيامة .

وقال قتادتي قوله تعالى : (ولتعلمن نبأه بعد حين) ، قال [الحسن] : يا ابن آدم ، عند الموت يأتيك الخبر اليقين (٦) ،

آخر تفسير سورة ص : صلى الله عليه وسلم

(١) سورة السجدة : آية : ١٣ .

(٢) سورة الإسراء : آية : ٦٣ .

(٣) البيهقي ، تفسير سورة ص : ١٥٦/٦ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار : ١٣١/٨ .

(٤) سورة الأنعام : آية : ١٩ .

(٥) سورة هود : آية : ١٧ .

(٦) تفسير الطبري : ١٢١/٢٣ .

تفسير سورة الزمر

وهي مكية

قال السائق : حدثنا محمد بن النضر بن مساور ، حدثنا حماد ، عن مَرْوَانَ بْنِ لُبَابَةَ ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم (١) . وكان يفطر في كل ليلة بني إسرائيل والزمر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ مُبْتَلًى هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

غير تعالى أن تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن العظيم - من عنده - تبارك وتعالى - فهو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك ، كما قال تعالى : (وإله لتزيل رب العالمين) وتول به الروح الأمين : على قلبك لتكون من المنذرين : بلسان عربي مبين (٢) ، وقال : (وإله لكتاب حيز) لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٣) ، وقال هاتما : (تنزيل الكتاب من الله العزيز) ، أي : المنيع الجنب ، (الحكيم) ، أي : في أقواله وأفعاله ، وشرحه وقدّره .

(١) إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخْلِصاً له الدين ، أي : فاعبد الله وحده لا شريك له ، وادع الخلق إلى ذلك ، وأعلمهم أنه لا مصلح العبادة إلا له ، وأنه ليس له شريك ولا وكيل ولا تكيد ، ولهذا قال : (ألا لله الدين الخالص) ، أي : لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه للعامل لله وحده ، لا شريك له ؛ وقال قتادة في قوله : (ألا لله الدين الخالص) : شهادة أن لا إله إلا الله (٤) .

-
- (١) إله هنا أخرجه التلخيص في الحديث : كتاب الصوم ، باب : صوم النبي صلى الله عليه وسلم : ١٩٩/٤ . وانظر الحديث أول سورة الإسراء ، فقد أخرجه هناك من سنن الإمام أحمد من طريق حماد : ٣/٥ .
 (٢) سورة الشورى : الآيات ١٩٢ - ١٩٥ .
 (٣) سورة فصلت : آية ٤٢ .
 (٤) تفسير الطبري : ١٢٢/٢٣ .

ثم أخبر تعالى عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون : (ما عبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ، أى : إنما يجعلهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم ، فعبدوا تلك الصور تنزيلاً للملك منزلة عبادتهم للملائكة ، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم ، وما ينوبهم من أمر الدنيا ، فأما للمعاد فكانوا جاحدين له كافرين به .

قال قتادة ، والسدي ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وابن زيد : (إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ، أى : ليشفعوا لنا ، ويقربونا عنه منزلة .

ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حَجَّجُوا في جاهليتهم : « لبيك لأشريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » ، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — يردّها والنهي عنها ، والذهوة إلى أفراد العبادة لله وحده لأشريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم ، لم يَأْذَنَ الله فيه ولا رخص به ، بل أبغضه ونهى عنه : (ولقد يفتنك في كل أمة رسولاً : أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (١)) ، (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٢)) :

وأخبر أن الملائكة التي في السموات من المقربين وغيرهم ، كلهم عبيد خاضعون لله ، لا يشفعون عنه إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسا عنه كأسمراء عند ملوكهم ، يشفعون عندهم بغير إذنه فيما أحبب للملوك وأبوه ، (فلا تضرّبوا الله الأثقال (٣)) ، تعالى الله عن ذلك .

وقوله : (إن الله يحكم بينهم) ، أى : يوم القيامة ، (فيما هم يختلفون) ، أى : سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ، ويجزى كل عامل بعمله ، (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : لهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون (٤)) .

وقوله : (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) ، أى : لا يرشد إلى الهداية من قصد الكذب والافتراء على الله ، وقلبه قَسَّارٌ يحصد بآياته وبراهينه .

ثم بين تعالى أنه لا أول له كما يزعم جهلكة المشركين في الملائكة ، وللمعاندين من اليهود والنصارى في المسيح وعيسى ، فقال : (لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لصطفى مما نخلق ما يشاء) ، أى : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون . وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوارزه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه ، كما قال : (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين (٥)) ، (قل : إن كان لرحمن ولد فأنا أول العابدين (٦)) — كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على الاستحالة لقصد التذكير .

(١) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .

(٣) سورة النحل ، آية : ٧٤ .

(٤) سورة سبأ ، آية : ٤٠ ، ٤١ .

(٥) سورة الأنبياء ، آية : ١٧ .

(٦) سورة الزمر ، آية : ٨١ .

وقوله : (سبحانه هو الله الواحد القهار) أى : تعالى وتزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى كل شئ عبد لديه ، قدير إليه ، وهو الذى هما سواء ، الذى قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت .
 خلق السموات والأرض ، بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، ويخسر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ألا هو العزيز الغفار ﴿١﴾ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقى فى ظلمات ثلاث ذلِكُم الله ربكم له الشك لا إله إلا هو فأنصرفون ﴿٢﴾

غير تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض ، وما بين ذلك من الأشياء ، وأنه مالك للكل المتصرف فيه ، يقلب له ونجواه ، يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ، أى : سخرهما يجرىان متتابعين لا يقرآن ، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، كقوله : (ينشئ الليل النهار يطلبه حثيثاً) (١) - هذا معنى ما روى عن ابن عباس ، وبجاءه وقامه ، والسدى ، وغيرهم (٢) .

وقوله : (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) ، أى : إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة : (ألا هو العزيز الغفار) ، أى : مع عزته وعظمته وكبرياه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه .

وقوله : (خلقكم من نفس واحدة) ، أى : خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألوانكم من نفس واحدة ، وهو آدم عليه السلام ، (ثم جعل منها زوجها) ، وهى حواء عليهما السلام ، كقوله : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً) (٣) .

وقوله : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) ، أى : وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج ، وهى المذكورة فى سورة الأنعام : (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) (٤) ، (ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين) (٥) .

وقوله : (يخلقكم فى بطون أمهاتكم) ، أى : أدرككم فى بطون أمهاتكم (خلقاً من بعد خلقى) ، أى : يكون أحدكم أولاً نقطة ، ثم يكون حلقة ، ثم يكون مضغ ، ثم يخلق فىكون لحماً وعظماً وعصباً وعروفاً ، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً تاماً ، (فيبارك الله أحسن الخالقين) (٦) .

-
- (١) سورة الأعراف : آية ٥٤ .
 - (٢) انظر تفسير الطبري : ١٢٣/٢٣ - ١٢٤ .
 - (٣) سورة النساء : آية ١ .
 - (٤) سورة الأنعام : آية ١٤٣ .
 - (٥) سورة الأنعام : آية ١٤٤ .
 - (٦) سورة المؤمنون : آية ١٤ .

وقوله : (في ظلمات ثلاث) ، يعني : ظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة - التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد - وظلمة البطن . كذلك ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو مالك ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد (١) :
وقوله : (ذلكم الله ربكم) ، أي : هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ؛ وخلقكم ؛ وخلق آباءكم ، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ، (لا إله إلا هو) ، أي : الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده ، (فأتى تصرفون) ، أي : كيف تعبدون معه غيره ؟ أين يذهب بقولكم ؟ !

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكُمُ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧٦﴾ * وَإِنَّمَا هِيَ إِلَهُ الْإِنْسَانِ شَرُّ دَعَا ربه مَبِئاً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْ نَّبِيٍّ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لَهُ آتِذَا تَيْضَلُّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أُمَّةٍ أَلْفَا

يقول تعالى عبداً عن نفسه تعالى : إنه الغني عما سواه من المخلوقات ، كما قال موسى : (إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد) .

وفي صحيح مسلم : وبا عبادي ، لو أن أولكم وآتكم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً (٢) : .

وقوله : (ولا يرضى لعباده الكفر) ، أي : لا يجبه ولا يأمر به ، (وإن تشكروا يرضه لكم) ، أي : يجبه منكم ويزدكم من فضله .

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، أي : لا تحمل نفس عن نفس [شيئاً] ، بل كل مطالب بأمر نفسه ، (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، إنه عليم بذات الصدور) ، أي : فلا تخفي عليه خافية .

وقوله : (وإذ أمسى الإنسان شراً دعباً ربه مَبِئاً إِلَيْهِ) ، أي : عند الحاجة يضرع ويستغث بالله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : (وإذا مسك الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أمرضتم ، وكان الإنسان كفوراً (٣)) ، ولهذا قال : (ثم إذا خوله نعمة منه نبى ما كان يدعو إليه من قبل) ، أي : في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع ، كما قال تعالى : (وإذا مس الإنسان الضر دعاء لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عن ضره مرت كان لم يدعنا إلى ضره (٤)) ،

(١) تفسير الطبري : ١٢٥/٢٢ - ١٢٦ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأربعين من سورة النمل ، وخرجناه هناك ، انظر : ٢٠٣/٦ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٦٧ .

(٤) سورة يونس ، آية : ١٢ .

(وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله) ، أى : فى حال العافية يشرك بالله ، ويجعل له أندادا . (قل : تمتع بكفرك قليلا ، إنك من أصحاب النار) ، أى : قل لمن هله حاله وطريقته ومسلكه : تمتع بكفرك قليلا . وهذا تهديد شديد ووعد أكيد ، كقوله : (قل : تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) (١) . وقوله : (نعمهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) (٢) .

أَمَّنْ هُوَ قَوِيٌّ إِنَّهُ لَأَكْبَلُ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَخْشَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَعِزُّ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ لِلْأَلْبَابِ ④

يقول تعالى : أَمَّنْ هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا ؟ لا يستترون عند الله ، كما قال تعالى : (ايسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) (٣) . وقال هاهنا : (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) ، أى : فى حال سجوده وفى حال قيامه . ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة ، ليس هو القيام وحده ، كما ذهب إليه آخرون .

قال الثوري ، عن فراس ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن ابن مسعود أنه قال : القانت : للطبع لله ولرسوله ،

وقال ابن عباس ، والحسن ، والسدى ، وابن زيد : آناء الليل : جوف الليل .

وقال الثوري ، عن منصور : يلتفت أن ذلك بين المغرب والمشاء .

وقال الحسن ، وقاتدة : آناء الليل : أوله وأوسطه وآخره .

وقوله : (يخشى الآخرة ويرجو رحمة ربه) ، أى : فى حال عبادته يخالف راج ، ولا بد فى العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب . ولهذا قال : (يخشى الآخرة ويرجو رحمة ربه) ، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب (عليه) ، كما قال الإمام هبة بن حميد فى مستدركه :

حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى الموت ، فقال له : «كيف تجدك ؟» قال : أرجو وأخاف . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يجتمعان فى قلب عبد نى مثل هذا المولى إلا أعطاه الله زوجا الذى يرجو ، وأمتة الذى يخاف» .

ورواه الترمذى والنسائى فى «اليوم واليلة» ، وابن ماجه من حديث سيار بن حاتم ، عن جعفر بن سليمان ، به ، وقال الترمذى : «غريب . وقد رواه بعضهم عن ثابت ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل» (٤) .

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٣٠ .

(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٤ .

(٣) سورة آل عمران ، آية : ١١٣ .

(٤) تحفة الأوسى ، أبواب الجنائز ، الحديث ٩٨٨ : ٧٤ - ٥٨ . وسن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب : ذكر الموت والاحتضار له . الحديث ٤٢٦١ : ٢٢٣٢ .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا عمر بن شبة ، عن عبيدة النخعي ، حدثنا أبو خلف عبد الله بن يحيى الخزاز ، حدثنا يحيى البكاء ، أنه سمع ابن عمر قرا : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) . قال ابن عمر : ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وإذا قال ابن عمر ذلك ، لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته ، حتى إنه قرأ القرآن في ركعة ، كما روى ذلك أبو حبيدة عنه رضي الله عنه ، وقال الشاهر (١) :

فَصَحَّحُوا بِأَسْمَاعِلَ عَنْكَ السُّجُودِ بِهِ يَخْتَلِعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقَرَّأَنَا (٢)

وقال الإمام أحمد : كتب إلى الربيع بن نافع : حدثنا الهيثم بن حميد ، عن زيد بن واقد ، عن سليمان بن موسى ، عن كثير بن مرة ، عن تميم الداري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن قرأ عالة آية في ليلة ، كتبت له قنوت ليلة (٣) ،

وكذا رواه السائق في « اليوم واليلة » عن إبراهيم بن يعقوب ، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع ، كلاهما عن الهيثم بن حميد ، به :

وقوله (قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ، أي : هل يستوي هذا والذي قبله من جعل لله أناداً لفضل من سيئه (٤) (إنما يذكر أول الأبواب) ، أي : إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له نُب وهو العقل ،

قُلْ يٰٓعِبَادِ اللّٰهِ اٰمِنُوْا تَقْوٰ رَبَّكُمْ لِّلَّذِيْنَ اٰحْسَنُوْا فِيْ هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَّارْضَ اللّٰهُ وَاَسْعٰ اِمَّا يُّؤَيِّدُ الصّٰلِحِيْنَ
وَيُخَوِّضُ الْغٰثِرِيْنَ ۝۱۱۱ قُلْ اِنِّيْ اَمَرْتُ اَنْ اَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّيْنَ ۝۱۱۲ وَاَمَرْتُ لِاَنْ اَكُوْنَ اَوَّلَ الْمُسْلِمِيْنَ ۝۱۱۳

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه (قل : يا عباد الذين آمنوا ، اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) ، أي : لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياه وأخراه .

وقوله (وارض الله واسعة) — قال مجاهد : فهاجروا فيها ، وجاهدوا ، واعتزلوا الأوثان (٤) :

وقال شريك ، عن منصور ، عن عطاء بن قره : (وارض الله واسعة) ، قال : إذا دعيت إلى المعصية فاهربوا ، ثم قرأ : (لم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) ؟

(١) هو حسان بن ثابت ، ديوانه ط بيروت : ٢٤٨ . وانظر أسد الغابة ٩٥٠/٣ به تحقيقنا .

(٢) الألفاظ : الأبيض . ينى : ذهبوا رجلاً أبيض كما تدعى الفسحة . عنوان السجود ، أي : في وجهه علامة الصلاة . وقرأنا

قراءة .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٠٣/٤ .

(٤) تفسير الطبري : ١٣٠/٢٢٣ .

وقوله : { إِنَّمَا يُولَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } ، قال الأوزاعي : ليس يوزن لهم ولا يكال ، إنما يعرف لهم حرقاً .

وقال ابن جريج : بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط ، ولكن يزدادون على ذلك ، وقال السدي : { إِنَّمَا يُولَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } : يعني في الجنة .
وقوله : { قُلْ : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ } ، أي : إنما أُمِرْتُ بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، { وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ } ، قال السدي : يعني من أمته صلى الله عليه وسلم .

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴿١٨﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنِّي أَخَافُ الَّذِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْفَسَادُ الْأَمِينُ ﴿١٩﴾ هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَفِي تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُمْ يَنْعَبِدُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى : قل يا محمد وأنت رسول الله : { إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } ، وهو يوم القيامة : وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأول والأخرى ، { قُلْ : اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي } : فاعبدوا ما شئتم من دونه ، وهذا أيضاً تهديد وتبشير منهم ، { قُلْ : إِنِّي أَخَافُ الَّذِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ } ، أي : تراقبوا فلا اتقوا لهم أبداً ، سواء ذهب أهلهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار ، أو أن الجميع اسكنوا النار ، ولكن لاجتماع لهم ولا سرور ، { أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْفَسَادُ الْأَمِينُ } ، أي : هذا هو الفساد البين الظاهر الواضح ، ثم وصف حلمهم في النار فقال : { هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَفِي تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ } ، كما قال : { هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مَهَادٍ ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ } ، وكذلك تجزي الظالمين (٢٠) : وقال : { يَوْمَ يَشْهَاهُمُ الْمَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ } ، ويقول : ذوقوا ما كنتم تعملون (٢١) .

وقوله : { ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ } ، أي : إنما ينقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده ، لينتجروا عن المحارم ولئلا هم .

وقوله : { يَنْعَبِدُونَ } ، أي : احتشوا بأصمى وسطوق ، وعبدوا وتسمى .

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَمِثْرَ عِبَادِ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٢﴾

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) ، نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل ، وابن خز ، وصلمان القارمي (٢٢) .

(١) تفسير الطبري : ١٣٠ / ٢٣ .

(٢) سورة الأعراف : آية : ٤١ .

(٣) سورة النكيت : آية : ٥٥ .

(٤) تفسير الطبري : ١٣٢ / ٢٣ .

والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ، من اجتناب عبادة الأوثان ، وأناب إلى عبادة الرحمن : فهؤلاء هم الذين لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة :

ثم قال : (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ، أى : يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله تعالى موسى حين أتاه التوراة : (فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوها بأحسنها) (١) .

(أولئك الذين هداهم الله) ، أى : للمتصوفين بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ، (وأولئك هم أولو الألباب) ، أى : ذوو العقول الصحيحة ، والقطر المستقيمة :

أَمَّا حَقُّ عَلَيْهِ كَيْفَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٠﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْتَقَرُوا بِهِمْ هُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّيْبُتَةٌ تَجْرَىٰ مِنْ حَتَبٍ الْآتِنِ عَذَابُ اللَّهِ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ ﴿١١﴾

يقول تعالى : أفن كتب الله أنه شئس تغادر تُنْقِذُهُ بما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أى : لا يهديه أحد من بعد الله ، لأنه من يضل الله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له ،

ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف في الجنة ، وهي القصور الشامخة ، (من فوقها غرف مبيتة) ، أى : طباق فوق طباق ، مبيتات محكمات مزخرفات عاليات ،

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا عباد بن يعقوب الأسدي ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة لفرقا يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها . فقال أعرابي : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى الله بالليل والناس نيام » (٢) »

ورواه الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، وقال : « حسن غريب ، وقد تكلم أهل العلم فيه من قبل حفظه » (٣) ،

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن ابن مسعود - أو : أبي معنق - عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة لفرقة يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أهداها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس نيام » (٤) ،

(١) سورة الأعراف : آية : ١٤٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٥٥/١ - ١٥٦ . وما بين القوسين منه .

(٣) تقدم نخرج حديث الترمذي عند تفسير الآية الثانية والسبعين من سورة يراءة : ١١٧/١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٤٢/٥ .

قوله به أحمد : مع حديث عبد الله بن مسعود الأشعري ، عن أبي مالك ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الجنة ليرامون النقرة في الجنة كما ترامون الكوكب في السماء » . قال : فحدثت بذلك النعمان بن أبي عياش ، قال : سمعت أبا سعيد الخدري يقول : « كما ترامون الكوكب النور في الأفق الشرقي أو الغربي » (١) .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث أبي حازم (٢) ، وأخرجاه أيضاً في الصحيحين من حديث مالك ، عن صفوان ابن سليم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا فزارة ، أخبرني فليح ، عن حلال بن علي ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الجنة ليرامون في الجنة أهل الغرف ، كما ترامون الكوكب النور في الأفق الطالع ، في تفاضل أهل الدرجات . فقالوا : يا رسول الله ، أولئك النبيون ؟ قال : « بلى ، ولذي نفس بيده ، وأقوم آمنوا بالله وصدقوا بالرسول » (٤) .

ورواه الترمذي عن سويد ، عن ابن المبارك ، عن فليح ، به ، وقال : « حسن صحيح » (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو الغضير وأبو كاسم (٦) ، قالوا : حدثنا زهير ، حدثنا سعد ، الطائي ، حدثنا أبو المدثر - مولى لم المؤمنين - أنه سمع أبا هريرة يقول : قلنا : يا رسول الله ، إنا إذا رأيناك وميت قلبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقتك أصبحت الدنيا وشجمت الآخرة . قال : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندى ، لصالحكم للملائكة بأقبحهم ، ولزادكم في بيوتكم . ولو لم تذهبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يضرهم » . قلنا : يا رسول الله ، حدثنا من الجنة ، ما ينهاها ؟ قال : « لينة ذهب ولينة فضة ، وملأها المسك الأذفر ، وحصلها اللؤلؤ والياقوت ، وتراب الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يتأس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه . ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصابر حتى يظفر ، ودعوة المظلوم تحملى على القمام ، وتفتح لها أبواب السموات ، ويقول الرب : وهرق لأصبرك ولو بعد حين » (٧) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٤٥/٥ .

(٢) تقدم ترجمته من هذه الطريق عند تفسير آية براءة : ١١٦/٤ .

(٣) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « ما جاء في صفة الجنة وأهلها مخلوقة » : ١٤٥/٤ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب : ترائي أهل الجنة أهل الغرف ، كما يرى الكوكب في السماء : ١٤٥/٨ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٣٩/٢ .

(٥) شعبة الأحمدية : أبواب ، صفة الجنة ، باب « ما جاء في ترائي أهل الجنة في الغرف » : الحديث ٢٦٨١ . ٢٧٢/٢ - ٢٧٢/٣ .

(٦) في المخلوقة : « وأبين عامر » ، والمثبت من المسند .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣٠٤/٢ - ٣٠٥ . وقد تقدم بعضه في ١١٧/٤ ، وشرحنا غريبه هناك .

وروى الترمذى ، وابن ماجه بعضه ، من حديث سعد بنى مجاهد الطائى - وكان ثقة - عن أبى المنكدر - وكان ثقة -
(١) .

وقوله : (تجرى من تحها الأنهار) ، أى : تسلك الأنهار بين خلال ذلك ، كما يشاهدوا وأبى أراحو ، (وعد الله) ،
أى : هذا الذى ذكرناه وعدّ وعده الله عباده المؤمنين (إن الله لا يخلف ليعاد) .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَ بِهِ نَخِيلًا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَئْتِيهِ فَغُرَابٌ مِمَّا يَنْفَجَرُ مِنْ أَشْجَارٍ فَتُحْتَاطُ بِهِ فَتُخْرَجُ بِهِ أَفْئِدَةٌ مِنْكُمْ قُتِلَتْ فِي الْأَرْضِ فَأُولَئِكَ نَسِيتُمْ لِقَاءَ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ مَاءً مِمَّا لَمْ يَكُنْ يَدْرِكُهُمْ إِنْ كُنُوا مُنْقَرِبِينَ ۚ

غير تعالى : أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) (٢) ، فإذا أنزل الماء
من السماء كسّمت فى الأرض ، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء ، ويُنْبِغُهُ صِبْغًا ما بين صغار وكبار ، بحسب
الحاجة إليها ، ولهذا قاله : (فسلكه ينابيع فى الأرض) :

قال ابن أبى حاتم رحمه الله : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عمرو بن حلى ، حدثنا أبو قتية حبة بن بقلان ، عن
حكيمه ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَ بِهِ نَخِيلًا فِي الْأَرْضِ) ، قال : ليس
فى الأرض ماء إلا أنزل من السماء ، ولكن صرف فى الأرض غيره ، فذلك قوله تعالى : (فسلكه ينابيع فى الأرض) ،
فمن مره أن يعود للنج علبا فليصعبه ،

وكلما قال سعيد بن جبير ، وعامر الشعبي : أن كل ماء فى الأرض فأصله من السماء

وقال سعيد بن جبير : أصله من الثلج . يعنى أن الثلج يترام على الجبال ، فيسكن فى قرارها ، فتنبع العيون من
أسفلها :

وقوله : (ثم يخرج به زروعا مختلفا ألوانه) ، أى : ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زروعا مختلفا
ألوانه ، أى : أشكاله وطعمه وروائحه ومناخه ، (ثم يبيح) ، أى : بعد نضارته وشبابه يسهل (فتراه مصفرا) ،
قد خالطه البَيْسُ ، (ثم يجعله حطاما) ، أى : ثم يعود يابسًا يتحطم ، (إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) ، أى :
الذين يتذكرون ههنا فيحذرون إلى أن الدنيا هكلا ، تكون خضيرة نضرة فتره حسانه ، ثم تعود عجوزا شوهاء ، والشباب
يعود شيخا هزيمًا كبيرًا ضعيفًا ، وبعد ذلك كله الموت . فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيراً ما يضرب الله

(١) ثقة الأحمدي أبواب السموات ، الحديث ٣٦٦٨ : ٥٦٢/١٠ . وابن ماجه : كتابه الصيام : باب : فى الصائم
لا ترد دعوته ، الحديث ١٧٥٢ : ٥٥٧/١ .
(٢) سورة الفرقان : آية ٤٨ .

عالم مثل الحياة الدنيا بما يترك الله من السماء من ماء، وينبت به زروعا ولما را، ثم يكون بعد ذلك حطاما، كما قال تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح شجيا نذرؤه للرياح ، وكان الله على كل شيء مقبلا) (١) ۝

وقوله : (أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) ، أى : هل يستوى هذا ومن هو قاصى القلب بعيد من الحق ؟! كقوله تعالى : (أومن كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا عشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) (٢) ۝ ولهذا قال : (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) ، أى : فلا تلب عند ذكره ، ولا تخشع ولا تهى ولا تفهم ، (أولئك فى ضلال مبين) ۝

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَدِيثُ كِتَابًا مُنْشَأً مِثْلًا تَفْشِيرُهُ جُلُودُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينَ جُلُودَهُمْ
وَقُلُوبُهُمْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ (٣)

هذا مدح من الله - عز وجل - لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم ، قال الله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا مشابها مثنى) - قال جامد : يعنى القرآن [كله] متشابه مثنى ۝

وقال قتادة : الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف ۝

وقال الضعائك : (مثنى) : توحيد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل ۝

وقال عكرمة ، والحسن : نئى الله فيه القضاء - زاد الحسن : تكون السورة فيها آية ، وفى السورة الأخرى آية تشبهها (٣) ۝

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (مثنى) : مُرَدَّد ، رُدَّد موسى فى القرآن ، وصالح وهود والأنبياء - عليهم السلام - فى أمكنة كثيرة ۝

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (مثنى) ، قال : القرآن يشبه بعضه بعضا ، ويُردُّ بعضه على بعض ۝

وقال بعض العلماء : ويروى عن صفيان بن عينة معنى قوله : (متشابه مثنى) : أن سياقات القرآن تارة تكون فى معنى واحد ، فهنا من التشابه ، وتارة تكون بذكر الشيء وعبده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا ، فهنا من المثنى ، كقوله تعالى : (إن الأبرار لى نعيم ۝ وإن الفجار لى جحيم) (٤) ، وكقوله : (كلا إن كتاب الفجار لى سجين) ، إلى أن قال : (كلا إن كتاب الأبرار لى علين) (٥) ،

(١) سورة الكهف : آية ٤٥ ۝

(٢) سورة الأنعام : آية ١٢٤ ۝

(٣) تفسير الطبرى : ١٣٥/٢٣ ۝

(٤) سورة الانشطار : آية ١٣ : ١٤ ۝

(٥) سورة المطففين : الآيات : ١٨ - ٧ ۝

(هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب) ، إلى أن قال : (هذا وإن للظالمين لشر مآب (١)) ، ونحو هذا من السباغات ، فهذا كله من المآب ، أى : فى معنيين [اثنين] ، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا ، فهو المشابه وليس هذا من المشابه المذكور فى قوله : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) ، ذلك معنى آخر .

وقوله : (تشعشع منه جلود الذين يخشون ربهم) ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ، أى : هذه صفة الأبرار ، عند سماع كلام الجبار ، (اللهمم التزير الظفار) ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تشعشع منه جلودهم من الخشية والخوف . (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ، لما يربون ويؤمنون من رحمة وولائه ، فهم عاتقون لغريم من الكفار من وجوه :

أحدها : أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نعتات الآيات ، من أصوات القئينات (٢) .

الثانى : أنهم إذا تلبت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ، بأدب وخشية ووجاه وعبادة ، ولهم وحلم ، كما قال : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) الذين يقيمون الصلاة وما ورثاهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا ، لم درجات عند ربهم ، ومنفرة وورقى كريم (٣) . وقال تعالى : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يغروا عليها صيا وعيانا (٤)) : أى : لم يكرهوا عند سماعها متشاكبا ولا حينها ، بل مصغين إليها ، فاهمين بصيرين بعمانيها ، فلهذا إنما يهملون بها ، ويسجلون عندها عن بصيرة لاهن جهل ومتابعة لغريم .

الثالث : أنهم يترمون الأدب عند سماعها ، كما كان الصحابة - رضى الله عنهم - عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تشعشع جلودهم ، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله : لم يكرهوا يصارحون ولا يتكلمون ما ليس فيهم ، بل عنهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك ، ولهذا طأزوا بالقدح المملئ فى الدنيا والآخرة .

قال عبد الرزاق : حدثنا معمر قال : تلا فتادة رحمه الله : (تشعشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ، قال : هذا نعم أولياء الله ، نعتهم الله بأن تشعشع جلودهم ، وتلين أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينههم بلعاب حقولهم والخشيان عليهم ، إنما هذا فى أهل البدع ، وهذا من الشيطان . وقال السدى : (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ، أى : إلى وعد الله .

وقوله : (ذلك هدى الله بهى به من يشاء من عباده) ، أى : هذه صفة من هداه الله ، ومن كان على خلاثة ذلك فهو من أضل الله ، (ومن يضلل الله فلا هاد (٥)) :

(١) سورة ص : الآيات ٤٩ - ٥٠ .

(٢) القئينات : المتقنيات .

(٣) سورة الأنفال : الآيات ٢ - ٤ .

(٤) سورة الفرقان : آية ٧٣ .

(٥) سورة الفرقه : آية ٣٣ .

أَفَنُتَىٰ بِوَجْهِهِ سَوَاءُ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَقَاتِلُهُمْ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْثَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى : (أفن يتى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) ، ويُترَعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين : (ذوقوا ما كنتم تكسبون) ، كمن يأتي آمنًا يوم القيامة ؟ كما قال تعالى : (أفن يمشى مكبًا على وجهه أهدى ، آمن يمشى سويًا على صراط مستقيم (١) ؟) وقال : (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر(٢)) ، وقال : (أفن يلقى في النار خسر أم من يأتي آمنًا يوم القيامة(٣)) ، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر ، كقول الشاعر(٤) :

فَمَا أَذَىٰ إِذَا يَسْمُتُ أَرْصًا أَرِيدُ الْخَيْرَ أَهَيْهَمَا يَكِينِي ؟

لا يني الخير أو الشر ؟

وقوله : (كذب الذين من قبلهم ، فإنهم طلبوا من حيث لا يشعرون) ، يعنى : القرون الماضية المكذبة للرسول ، أهلكهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من وفاق ؛

وقوله : (فذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا) ، أى : بما أنزل بهم من العذاب والنكال وثقى المؤمنين بهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك ، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل ، وخاتم الأنبياء ، واللى أهدى الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ، ولهذا قال : (وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي وَجْهِ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ فَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّرَجُلٍ فِيهِ شُرَكَاءُ فَتَرَكَاهُ فَمَتَّكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ لِّسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمُوا الْقِيَمَةَ حَتَّىٰ رَجَعُوا خَاصِمُونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) ، فإن المثل يضرب المعنى إلى الأذهان ، كما قال تعالى : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم(٥)) ، أى : تعلمونه من أنفسكم ، وقال : (وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون (٦)) .

(١) سورة الملك ، آية : ٢٢ .

(٢) سورة القمر ، آية : ٤٨ .

(٣) سورة فصلت ، آية : ٤٠ .

(٤) لقام البيت في : ٦١/٧ ، ٢٥٢/٦ ، ٥٤٩ ، وعرجناه هناك .

(٥) سورة الروم ، آية : ٢٨ .

(٦) سورة المائدة ، آية : ٤٣ .

وقوله : ﴿ قَرَأْنَا حَرِيرًا غَيْرَ ذِي هَوَاجٍ ﴾ ، أى : هو قرآن بلسان حري مبرح ، لا اهوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله كذلك ، وأنزله بلسك ، (لهم يقنون) ، أى : يحلحلون ما فيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد .

ثم قال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ ، أى : ينتازحون في ذلك العبد المشرك بينهم ، (ورجلا سالا) (١) لرجل ، أى : خالسا لرجل ، لا يملكه أحد غيره ، (حل يستريان مثلا ؟) ، أى : لا يستوى هذا وهذا . كذلك لا يستوى المشرك للذي يعبده معه الله ، وللمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له . فأي هذا من هذا ؟ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : هذه الآية شربت مثلا للمشرك والمخلص ، ولما كان هذا المثل ظاهرا بَيِّنًا جليا ، قال : (الحمد لله) ، أى : حل إقامة الحجة عليهم ، (بل أكثرهم لا يعلمون) ، أى : فلماذا يشركون بالله ؟ وقوله : (إنك ميت وإنهم ميتون) ، هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى تحق الناس موته ، مع قوله : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين (٢)) .

ومعنى هذه الآية : مقتولون من هذه الدار لا عمالة ، ويستجمعون عند الله في الدار الآخرة ، ويختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل ، فيفصل بينكم ، ويفتح بالحق وهو الفتح العظيم . فينتج المؤمن المخلصين الموحدين ، ويغلب الكافرين الجاهلين للمشركين المكلفين .

ثم إن هذه الآية — وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة — فإنها هامة لكل متنازهين في الدنيا ، فإنه تمام عليهم الخصومة في الدار الآخرة .

قال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن عمرو ، عن ابن حاطب — يعنى يحيى بن عبد الرحمن — عن [ابن الزبير ، عن (٣)] الزبير قال : لما نزلت : ﴿ لم أنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ : قال الزبير : يا رسول الله : أنكرت علينا الخصومة ؟ قال : « نعم » . قال : إن الأمر إذاً لشديد .

وكنا رواه الإمام أحمد [عن سفيان] ، وعنده زيادة : « ولا نزلت » (٤) ثم لتستن يومئذ عن النعم) ، قال الزبير : أى رسول الله ، أى نعيم نسأل عنه ؟ وإنما — يعنى : هما (٥) الأسودان ، التمر والماء — قال : « أما إن ذلك سيكون (٥) » .

(١) كلما في خطوطة الأثره ، (سالا) . وهي قراءة ثابته . انظر البحر المحيط لأبي حيان : ٢٤٤/٧ ، وتفسير الطبري : ١٣٧/٢٧ .

(٢) سورة آل عمران : آية : ١٤٤ .

(٣) ما بين القوسين من مسند الإمام أحمد ، والتملى ، وابن ماجه .

(٤) في الخطوطة : « يعنى هما » . والتمت من المستد للتملى ، وإنما الأسودان

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٦١١ / .

وقد روى هذه الزيادة الترمذي وابن ماجه ، من حديث سفيان ، به : وقال الترمذي : حسن (١) .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا ابن نمير ، حدثنا محمد - يعني ابن عمرو - عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، عن عبد الله بن الزبير ، عن ابن الزبير ، قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ، قال الزبير : أتى رسول الله ، أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : نعم ، ليكررن عليكم ، حتى يؤدنى إلى كل ذي حق حقه . قال الزبير : والله إن الأمر لشديد (٢) .

ورواه الترمذي من حديث محمد بن عمرو ، به وقال : حسن صحيح (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ابن هبة ، عن أبي عسائنة ، عن عتبة بن حامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول الخصمين يوم القيامة جاران (٤) : نرد به أحمد ،

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن هبة ، حدثنا دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إنه ليخضم ، حتى الشاتان فيا انتطحا (٥) ، نرد به أحمد ،

وفي المسند عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاتين ينتطحان ، فقال : أتدري فيم ينتطحان يا أبا ذر ؟ قلت : لا ، قال : لكن الله يدرى وسيحكم بينهما (٦) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا سهل بن عمر ، حدثنا حبان بن أغلب ، حدثنا أبي ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجاء بالإمام الخائف يوم القيامة ، فتخاصمه الرعية فيفسلجنون عليه ، فيقال له : سدد ركننا من أركان جهنم .

ثم قال : الأغلب بن تميم ليس بالحافظ .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ، يقول : يتخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدي الضال ، والضعيف المستكبر (٧) .

(١) تحفة الأحرفى ، تفسير سورة ألماعن التكاثر . الحديث ٣٤١٤ : ٢٨٩/٩ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ميفة أسعاب النبى صلى الله عليه وسلم . الحديث ٤١٥٩ : ١٣٩٢/٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٦٧/١ .

(٣) تحفة الأحرفى ، تفسير سورة الزمر ، الحديث ٣٢٨٩ : ١١٠/٩ - ١١١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٥١/٤ .

هذا وإنما كان أول الخصمين يوم القيامة جارين ، لأن ما بينهما من اقتراب كثير إلى سوء التفاهم ، واعتداء كل منهما على حقوق صاحبه . وفي الحديث لرجاء إلى ما ينهى أن تكون عليه حلائق الجوار من الحسن والنقاء .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٩/٣ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٦٢/٥ .

(٧) تفسير الطبرى ٢٤ : ٢٤٠ .

وقد روى ابن منذر في كتاب «الروح» ، عن ابن عباس أنه قال : ينضم الناس يوم القيامة ، حتى ينضم الروح مع الجسد ، فتقول الروح للجسد : أنت فعلت : ويقول الجسد للروح : أنت أمرت ، وأنت سولت . فبيعت الله ملكاً بفصل بينهما ، فيقول : إن ملككم كمثل رجل مقعد بصير وأخر ضرير ، دخلا بستانا ، فقال المقعد للضرير : إني أرى هاهنا ثماراً ، ولكن لا أصل إليها ، فقال له الضرير : اركبني فتناولها : فركبه فتناولها ، فأبهما المتحدى ؟ فيقولان : كلاماً . فيقول لهما الملك : فإنكما قد حكمتما على أنفسكما . يعني أن الجسد الروح كالمطية ، وهو راكب :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن أحمد بن عوسجة ، حدثنا ضرار ، حدثنا أبو سلمة الخزازي منصور بن سلمة ، حدثنا القاسمى - يعني يعقوب بن عبد الله - عن جعفر بن المغيرة ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عمر قال : نزلت هذه الآية ، وما نعلم في شيء نزلت : (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم مختصمون) ، قلنا : من مختصم ؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة ، فمن مختصم ؟ حتى وقمت الفتنة ، فقال ابن عمر : هذا الذي وعدنا ربنا - هو رجل - ينضم فيه .

ورواه السائي عن عبد بن حمار ، عن منصور بن سلمة ، به :

وقال أبو العالية : (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم مختصمون) ، قال : يعني أهل القبلة ،

وقال ابن زيد : يعني أهل الإسلام وأهل الكفر ،

وقد قلنا أن الصحيح المصوم ، والله أعلم ،

﴿ تَنْظُرُ أَنْظَمُ مَنْ كَتَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَتَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۖ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۖ هُمْ مَائِسَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۖ يُسَكِّرُ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ ۖ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ ﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله ، وجعلوا معه آفة أخرى ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولداً - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسول الله - صلوات الله عليهم أجمعين - ولهذا قال : (فمن أنظلم من كتب على الله وكتب بالصدق إذ جاءه) ، أى : لا أحد أنظلم من هذا ، لأنه جمع بين طرقه الباطل ، وكذب على الله ، وكذب رسول الله ، قالوا الباطل وردوا الحق ، ولهذا قال متوعداً لهم : (أليس في جهنم مثوى للكافرين) ؟ وهم الجاحقون للكافرين ،

ثم قال : (والذي جاء بالصدق وصدق به) ، قال مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وابن زيد : (الذى جاء بالصدق هو الرسول .

وقال السدي : هو جبريل عليه السلام ، (وصدق به) ، يعنى : عمداً صلى الله عليه وسلم (١) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (والذي جاء بالصدق) ، قال : من جاء بلائله إلا الله ، (وصدق به) ، يعني : رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقرأ الربيع بن أنس : (والذين (١) جاءوا بالصدق) ، يعني الأكثياء ، (وصدقوا به) ، يعني : الأكثياء .

وقال ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد : (والذي جاء بالصدق وصدق به) ، قال : أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة ، فيقولون : هذا ما أمطينا ، فعملنا فيه بما أمرتونا .

وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ، فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير ، فإنه جاء بالصدق ، وصدق المرسلين ، وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (والذي جاء بالصدق) : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (وصدق به) المسلمين .

(أولئك هم المفلحون) ، قال ابن عباس : اتقوا الشرك (٢) .

(ثم ما يشاؤون عند ربهم) ، يعني : في الجنة ، مهما طلبوا وجدوا ، ذلك جزاء الحسنيين . لكن الله عنهم أسوأ الذي هموا ، ويميز لهم أجورهم بأحسن الذي كانوا يعملون . كما قال في الآية الأخرى : (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاول من سبائهم في أصحاب الجنة) ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون (٣) .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ إِنْ دُونَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣﴾ قُلْ يَنْفَعُكُمْ أَعْمَالُكُمْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَدِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ يَأْتِجْ عَذَابَ يُخْزِيهِ وَيَحِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٥﴾

يقول تعالى : (أليس الله بكاف عبده؟) - وفرأ بعضهم : (عباده) (٤) - يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه .

(١) لم تقع لنا هذه القراءة . ولكن روى عن ابن مسعود أنه قرأ : (والذي جاء بالصدق وصدقوا به) ، انظرها في البحر المحيط : ٤٢٨/٧ ، والقرطبي : ٢٥٦/١٥ .

(٢) تفسير الطبري : ٤/٢٤ .

(٣) سورة الأحقاف ، آية : ١٦ .

(٤) تفسير الطبري : ٥/٢٤ ، والبحر المحيط : ٤٢٩/٧ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب ، حدثنا عيسى ، حدثنا أبو هانئ ، عن أبي علي بن عمرو بن مالك الجنبني ، عن فضالة بن عبيد الأنصاري [أنه] سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « أفلح من هُدي إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقَّعَ به »

[ورواه الترمذي والنسائي ، من حديث حيوة بن شريح ، عن أبي هانئ الخولاني ، به : وقال الترمذي : (١) صحيح] (ويخبرونك بالذين من دونه) ، يعني للمشركين يُخَوِّفُونَ الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وألئهم التي يصبونها من دونه ؛ جهلاً منهم وضلالاً ، ولهذا قال تعالى : (ومن يضلل الله فلا هادٍ ومن يهد الله فلا هادٍ من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام) ؟ أي : منيع الجنب لا يضام ، من استند إلى جنبه ولجأ إلى يابه ، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ، ولا أشد انتقاماً منه ، من كفر به وأشرك وعاند رسوله صلى الله عليه وسلم :

وقوله : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، يعني : للمشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره ، مما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، ولهذا قال : (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضرره ؟ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته) ؟ ، أي : لا تستطيع شئنا من الأمر

وذكر ابن أبي حاتم ما حدث قيس بن الحجاج ، عن حشاش الصنعاني ، عن ابن عباس مرفوعاً : « أحفظ الله يحفظك ، أحفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفكوك . جئت الصحف ، وزعت الأكلام ، وأعمل لله بالشكر في البقيت ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً . وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً (٢) » :

(قل : حسي الله) أي : الله كافٍ ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون . كما قال هود عليه السلام حين قال له قومه : (إن تقول : إلا اضربك بعض لكتنا بسوء ، قال : إني أشهد الله ، وأشهدوا أني بربهم ما تشركون) من دونه فكبدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله وربيكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إني على صراط مستقيم (٣))

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عسّام الأنصاري ، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي ، حدثنا محمد بن حاتم ، عن أبي القداس - مولى آل عثمان - عن محمد بن كعب القرظي ، حدثنا ابن عباس - رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليوكل على الله . ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق بما في يده . ومن أحب أن يكون أكرم الناس ، فليقتل الله » .

(١) ما بين القوسين من الطبقات السابقة . والحديث أخرجه الترمذي في أبواب الزهد ، انظر تحفة الأخرق ، باب : ما جاء في الكفاف والصبر عليه ، الحديث ٢٤٥٣ ، ١٥/٦ - ١٦ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : ٣٠٧/١ - ٣٠٨ .
(٣) سورة هود ، الآيات : ٥٤ - ٥٦ .

وقوله : (قل يا قوم اصبروا على مكاتبتكم) ، أى : على طريقتكم . وهذا تهديد ووعد ، (إني عامل) ، أى : على طريقي ومنهجي ، (فسوف تعلمون) ، أى : ستعلمون غيب ذلك ووبأله ، (من يأتيه عذاب يخزيه) ، أى : فى الدنيا ، (ويغل عليه عذاب مقيم) ، أى : دائم مستمر ، لا يحيد له عنه . وذلك يوم القيامة ؛

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَخِمْ لِنَفْسِكَ إِنَّ هِيَ لَنُفْسٍ خَالِدَةٍ فِيكَ لَتَخْتَبِفَا بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۚ فَاتَّقِ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۚ ﴾
 ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْنَا لَعِينٌ مُبِينٌ ۚ ﴾
 ﴿ وَاللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ كُنْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله عمداً - صلى الله عليه وسلم - : (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ) ، يعنى : القرآن (للناس بالحق) ، أى : لجميع الخلق من الإنس والجن لتعلمهم به ، (فن اهتدى فلنفسه) ، أى : فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ، (ومن ضل فإنما يضل عليها) ، أى : إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ، (وما أنت عليهم بوكيل) ، (١) ، أى : بموكل [أن يهتدوا] ، إنما أنت للمير والله على كل شيء وكيل (٢) ، (إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (٣) ؛

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف فى الوجود بما يشاء ، وأنه يتوقى الأنفس الوفاة الكبرى ، بما يرسل من الحفظة اللين يقبضونها من الأبدان . والوفاة الصغرى عند المنام ، كما قال تعالى : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يمدكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون (٤) . فذكر الوفاة الصغرى ثم الكبرى : وفى هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى . ولهذا قال : (الله يتوقى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) ، فيه دلالة على أنها تجتمع فى المثل الأعلى ، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذى رواه ابن مته وغيره . وفى صحيح البخارى ومسلم من حديث عبيد الله بن عمر ، عن سعيد بن أبى سعيد ، عن أبيه ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه

(١) ثبت على هامش بخطوة الأثر : عند قوله تعالى : (وما أنت عليهم بوكيل) ما يأتى : « وقيل : الوكيل يجعل إليه الشيء سبب موكله منه بنفسه » ، يقول : لسنا بما جازين من حسابهم [على] الإيمان فنكل ذلك إليك ! بل نحن قادرون على ذلك ؛ قال الله تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) . وقيل : نستخت بهذه الآية آية الأمر بالقتال ، نسئ .

(٢) سورة هود ، آية : ١٧ .

(٣) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٦٠ ، ٦١ .

فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ (١) ، فَإِنَّهُ لَا يَبْرِي مَا خَلَقَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : بِاسْمِكَ رَبِّي وَهَيْبَتِ جَنِّي ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي قَارَحَها ، وَإِنْ أَرَسَها فَأَحْضَها بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ (٢) .

وقال بعض السلف : يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ، فيمسك التي تقبض عليها الموت ، التي : قد ماتت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى :

قال السدي : إلى بقية أجلها . وقال ابن عباس : يمسك أنفس الأموات ، ويرسل أنفس الأحياء ، ولا يفلط . (إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٌ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ) .

أَمْ اعْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُعْعَاءً ۖ هَلْ أُولُوا مَا ظَنُّوا لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ قُلْ اللَّهُ الشَّامِكُ ۖ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى ذاما للمشركين في اتخاذهم شععاء من دون الله ، وهم الأصنام والأنداد ، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حذاهم على ذلك ، وهي لا تمك شيئا من الأمر ، بل وليس لها عقل تغفل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به ، بل هي جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير .

ثم قال : قل ، أي : يا محمد لولا الرابضين أن ما اتخذوه شععاء لهم عند الله ، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له ، فرجعها كلها إليه ، (من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه (٣)) .

(له ملك السموات والأرض) ، أي : هو المصروف في جميع ذلك ، (ثم إليه ترجعون) ، أي : يوم القيامة ، فيحكم بينكم بعده ، ويجزى كلا بعمله .

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضا : (وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ) ، أي : إذا قيل : لا إله إلا الله (اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) — قال مجاهد : (اشْمَأَزَّتْ) انقبضت .

وقال السدي : نفرت . وقال قتادة : كثرت واستكبرت . وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : استكبرت : كما قال تعالى : (إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، يستكبرون (١)) ، أي : من التابعة والانقياد لها . فقلوبهم لا تقبل الخبر ، ومن لم يقبل الخبر يقبل الشر . ولهذا قال : (وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) ، أي : من الأصنام والأنداد ، قاله مجاهد ، (إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ) ، أي : يفرحون ويسرون .

(١) داخله الإزار : طرعه . ومنه : يستحب مسح الفرائش قبل الدعاء فيه ، خوف أن يكون فيه مقرب أو غير ما . وينفضه ويده مستورة بإزار ، خوف أن يكون فيه ما يؤذيه .

(٢) البخاري ، كتاب الدعوات ، باب « التوسد والقراءة عند المنام » : ٨٧/٨ . ومسلم ، كتاب الذكر ، باب « ما يقول عند النوم وأخذ المصحف » : ٧٧/٨ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .

(٤) سورة الصافات ، آية : ٣٥ .

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٥﴾
وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتُلُوا يُبْسِلُ مِنْهُمُ الْوَلَدَاطَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبِذَا لَمْ
يَنْزِلْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَخْتَصِمُونَ ﴿١٦﴾ وَبِذَا لَمْ يَخْلُفْ مَعَهُمْ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانُوا بِرَيْءٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبِذَا لَمْ يَخْلُفْ

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر ، من اللذمة لهم في جهنم الشرك ، ونفرتهم عن التوحيد ، (قل : اللهم فاطر السموات والأرض [عالم الغيب والشهادة) ، أى : ادع أنت الله وحده لا شريك له ، الذى خلق السموات والأرض] وطرها ، أى : جعلها على غير مثال سبق ، [عالم الغيب والشهادة) ، أى : السر والعلانية ، (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) ، أى : فى دنياهم ، ستفضل بينهم يوم معادهم وتصورهم ، وقيامهم من قبورهم .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا حكرمة بن حمار ، حدثنا يحيى بن أبي كثير ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة : بأى شيء كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : اللهم ، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، وأخبرنا سهيل بن أبي صالح وعبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن عوف بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من قال : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك فى هذه الدنيا أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحملك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، فإنك إن تكلمت إلى نفسك تقربى من الشر وتباعدنى من الخير ، وإنى لا أتق إلا برحمتك ، فأجعل لك عندك عهداً تزقيته يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد - إلا قال الله - عز وجل - لا ملأته يوم القيامة : إن عهدي قد عهد إلى عباد فأوفوه إياه ، فيدخله الله الجنة » .

قال سهيل : فأخبرت أقاسم بن عبد الرحمن أن حوثاً أخبر بكذا وكذا ؟ فقال : ما فى أهلكا جارية إلا وهى تقول هذا فى خلوتها . انفراد به الإمام أحمد (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن أبي ليلى ، حدثني يحيى بن عبد الله : أن أبا عبد الرحمن حدثه قال : أن رجلاً لنا عبد الله بن عمرو قرطاساً وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا يقول : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت رب كل شيء ، وإله كل شيء ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، وحملك لا شريك لك ، وأن

(١) مسلم فى كتاب صلاة المسافرين ، باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيل له : ١٨٥/٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد ١/١٢١ .

عهداً بملك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أتلفك على نفسي إثمًا، أو أجرحه إلى مسلم .

قال أبو عبد الرحمن : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه عبادة بن عمرو أن يقول ذلك حين يريد أن ينام .
فرد به أحمد أيضاً (١) .

وقال أحمد أيضاً : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا ابن عباس ، عن محمد بن زياد الأحماني ، عن أبي واشد الحبشاني قال : أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له : حدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأتاني بين يدي صحيفة فقال : هذا ما كتب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنظرت فيها فإذا بأبا بكر الصديق قال : يا رسول الله، علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أسيت : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ، قل : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، لا إله إلا أنت ، رب كل شيء ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشركه ، أو أتلفك على نفسي سوءاً ، أو أجرحه إلى مسلم (٢) » .

ورواه الترمذي ، عن الحسن بن عرفة ، عن إسماعيل بن عياش ، به ، وقال : « حسن غريب من هذا الوجه (٣) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا شيبان (٤) ، عن ليث ، عن مجاهد قال : قال أبو بكر الصديق : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول إذا أصبحت وإذا أسيت ، وإذا أخلت مضجعي من الليل : اللهم فاطر السموات والأرض إلى آخره (٥) .

وقوله : « ولو أن للذين ظلموا ، وهم المشركون ، (ما في الأرض جميعاً ومثله معه) ، أي : ولو أن جميع ملك الأرض وضيق معه (لانتفوا به من سوء العذاب) ، أي : الذي أوجبه الله لهم يوم القيامة ، ومع هذا لا يُكفَّل منهم القلاء ولو كان ملء الأرض (٦) ذهباً ، كما قال في الآية الأخرى ، (وبئنا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون) ، أي : وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم ، (وبئنا لهم سيئات ما كسبوا) ، أي : وظهر لهم جزاء ما كسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ، (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) ، أي : وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا .

(١) مسند الإمام أحمد : ١٧١/٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٩٦/٢ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٩٨ : ٥١٤/٩ .

(٤) في المخطوطة : « حدثنا سيار » . والنتج من المسند ، وهو الصواب . وشيخان هذا هو ابن عبد الرحمن التميمي ، أبو معاوية البصري ، يروي عن ليث بن أبي سلمة ، ويروى عنه هاشم بن القاسم بن مسلم أبو النضر . انظر التهذيب : ٤١٥/٨ -

٤٦٦ : ٣٧٣/٤ ، ١٨/١٠ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٤/١ .

(٦) يشير إلى آية آل عمران ٩١ : « ظن يقيل من أسدحم ملء الأرض ذهباً ولو اتقى به » .

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضَرُّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢١﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيَّصِبُوهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٢﴾ أَوْ كَرِهَ اللَّهُ لَهَا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ رَزَقًا لِمَنْ يُغْلَبُ وَيَقُولُوا لَوْلَا ذَٰلِكَ لَأَبْتَلُنَا بِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾

يقوله تعالى ضرباً عن الإنسان أنه في حال الضراء يصرخ إلى الله - عز وجل - وينسب إليه ويدعوه ، وإذا حوله منه نعمة بقى وطنى ، وقال : (إنما أُوتيتُهُ على علم) ، أى : لما يعلم الله من استحقاق له ، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما حوّلنى هذا !

قال قتادة : (على علم عندى) ، على خير عندى (١) .

قال الله عز وجل : (بل هي فتنة) ، أى : ليس الأمر كما زعموا ، بل أئمتنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيها أئمتنا عليه ، أيطيع أم يعصى ؟ مع علمنا المتقدم بذلك ، فهي فتنة أى : اختبار ، (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ، فلهذا يقولون ما يقولون ، ويدعون ما يدعون .

(قد قالوا الذين هم قلوبهم) ، أى : قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى ، كثير عن سلف من الأمم ، (لما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) ، أى : فاصح قولهم ولا منعمهم ومانعهم وما كانوا يكسبون ، (فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء) ، أى : من المخاطبين (سيصيبهم سيئات ما كسبوا) ، أى : كما أصاب أولئك ، (وما هم بمُعْجِزِينَ) كما قال تعالى ضرباً عن قارون أنه قال له قومه : (لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتنى فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أُوتيتُهُ على علم عندى ، أولم يعلم أن الله قد أمك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم للجرمِون(٢) . وقال تعالى : (وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمُعْجِزِينَ(٣) ،

وقوله : (أولم يعلموا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر) ، أى : يؤسسه على قوم ويفيقه على آخرين ، (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) ، أى : ليسوا وحججنا .

(١) تفسير الطبري : ٩ / ٢٤ .

(٢) سورة القصص : الآيات ٢٦ - ٢٨ .

(٣) سورة سبأ : آية ٢٥ .

﴿ قُلْ يَبَادِيُ الَّذِينَ أُسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الكَرِيمُ ﴾ وَأَيُّسُوا لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَسْلُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُشْعُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ
لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى
مَا قُرِئْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٢٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٨﴾ بَلْ لَقَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٩﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإتابة ، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت ، وإن كثرت وكانتمثل زيد البحر . ولا يصح حمل هذه على غير توبة ، لأن الشرك لا يضر لمن لم يتبه منه .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف : أن ابن جرير أخبرهم : قال يعل : إن سعيد ابن جبير أخبره عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكفروا ، وزنوا فأكفروا ، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقلوا : إن الذى يقول وتدعو إليه تحسن لو أخبرنا أن لسا علنا كفارة . فنزل : (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس الحى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون) ، ونزل : (قل : يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله) (١) .

وهكذا رواه مسلم وأبو دلود والنسائى ، من حديث ابن جرير ، عن يعل بن مسلم الحكى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، ي(٢) .

والمراد من الآية الأولى قوله : (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا(٣)) . . . الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن ليعة ، حدثنا أبو قبيلى قال : سمعت أبا عبد الرحمن الرمى يقول : سمعت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب أن فى الدنيا وفيها جهنم الآية : (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) . . . إلى آخر الآية » فقال رجل : يا رسول الله ، فمن أشرك ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « ألا ومن أشرك » ، ثلاث مرات . تفرد به الإمام أحمد(٤) ،

(١) البخارى ، تفسير سورة الزمر : ١٥٧/٦ .

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « كون الإسلام جهنم ما قبله » : ٧٩/١ .

(٣) سورة مريم ، آية : ٦٠ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٧٥/٥ .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا نوح بن قيس ، عن أشعث بن جابر الحداني ، عن مكحول ، عن عمرو بن عيسى قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، شيخ كبير يدعى صم ، هل عساه ، فقال : يا رسول الله ، إن لي عذرتين وقصرتين ، فهل يغفر لي ؟ قال : « أأنت تشهد أن لا إله إلا الله ؟ » . قال : بلى ، وأشهد أنك رسول الله : فقال : « قد غفر لك عذرتك وفجرتك » : تفرد به أحمد (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حجاج بن سلمة ، عن ثابت ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ : (إنه عمل غير صالح) ، وسمعت يقول : يا عبادي اللذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطروا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى ، إنه الغفور الرحيم (٢) .

رواه أبو داود والترمذي ، عن حديث ثابت ، به .

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد : أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة : ولا يقنطن عبد من رحمة الله ، وإن عظمت ذنوبه وكثرت ، فإن باب التوبة والرحمة واسع ، قال الله تعالى : (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) (٣) . وقال تعالى : (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله ، نجد الله غفورا رحبا) (٤) . وقال تعالى في حق المنافقين : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن نجد لهم نصيرا) (٥) ، وقال : (لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا الله واحد ، وإن لم يتوبوا يقولون ليؤمنن الذين كفروا منهم حذاب أليم) . ثم قال : (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفروا ، والله غفور رحيم) (٦) . وقال (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا) (٧) .

قال الحسن البصري : انظر إلى هذا الكرم والجود ، فقلوا أرواياه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة !

والآيات في هذا كثيرة جدا .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - حديث الذي قتل تسعا وتسعين نفسا ، ثم نادى ومألا عابدا من عباده بنى إسرائيل : هل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله وأكمل به مائة . ثم سأله قائلا من حلائم : هل له من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يبعد الله فيها ، ففصلها فأتاه الموت في أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين ، إلى أيها كان أقرب فهو منها . فوجدوه أقرب إلى الأرض إلى هاجر إليها بشير ، فقبضته ملائكة الرحمة . وذكر أنه نأى بصدرة عند الموت ، وأن الله أمر البلدة بالخيرة أن تقرب ، وأمر تلك البلدة أن تتعاهد .

(١) مستد الإمام أحمد : ٣٨٥/٤ .

(٢) مستد الإمام أحمد : ٤٥٤/٦ . وقد تقدم في سورة هود عند تفسير الآية ٤٦ بها ، انظر : ٢٥٩/٤ .

(٣) سورة التوبة ، آية : ١٠٤ .

(٤) سورة النساء ، آية : ١١٠ .

(٥) سورة النساء ، آية : ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٦) سورة المائدة ، آية : ٧٣ ، ٧٤ .

(٧) سورة البروج ، آية : ١٥ .

هذا معنى الحديث ، وقد كتبناه في موضع آخر باللفظ (١) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قوله : (قل : يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطروا من رحمة الله ، إن الله يفرّ للذنوب جميعاً) : : إلى آخر الآية ، قال : قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله ، ومن زعم أن هزيراً ابن الله ، ومن زعم أن الله قدير ، ومن زعم أن يد الله مغفلة ، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة ، يقول الله تعالى هؤلاء : (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم) ؟ ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء ، من قال : (أنا ربكم الأعلى) ، وقال : (ما علمت لكم من إله غيرى) - قال ابن عباس : من آتيسَ عبادَ الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله ، ولكن لا يقدر البعد أن يتوب حتى يتوب الله عليه .

وروى الطبرانى من طريق الشعبي ، عن شُتَير (٢) بن شَكَل أنه قال : سمعتُ ابنَ مسعود يقول : إن أعظم آية في كتاب الله : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) ، وإن أجمع آية في القرآن غير وشى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) ، وإن أكثر آية في القرآن فرجاً في سورة الفرق (٣) : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطروا من رحمة الله) ، وإن أهد آية في كتاب الله تصريفاً : (ومن يتن الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب) . فقال له مسروق : صدقت .

وقال الأعمش ، عن أبي سعيد ، عن أبي الكنود قال : مر عبد الله - يعنى ابن مسعود - على قاص ، وهو يلكر الناس ، فقال : يا مذكر ، لم تُغفك الناس ؟ ثم قرأ : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطروا من رحمة الله) . رواه ابن أبي حاتم .

ذكر أحاديث فيها نفى القنوط

قال الإمام أحمد : حدثنا مُرَيج بن النعمان ، حدثنا أبو حنيفة عبد المؤمن بن حيد الله ، حدثني أخفش (٤) السامسى قال : دخلت على أنس بن مالك فقال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « والذى نفسى بيده ، لو أخطأتم شئاً غملاً غملاً ياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتُم الله لنفركم ، والذى نفسى بيده ، لو لم تخطئوا لجاء الله بقرم ضئلون ، ثم يستغفرون الله فيخفف لهم » . ففرد به أحمد (٥) .

(١) البخارى ، كتاب الأثيابه : ٢١١/٤ - ٢١٢ . ومسلم ، كتاب التوبة : باب « قبول توبة القاتل وإن كثرت قتلته » : ١٠٣/٨ - ١٠٤ . وانظر فيما تقدم : ٢٣٥/٢ .

(٢) في المخطوطة : « سنيه » . والمثبت مما تقدم في سورة النحل ، حده تفسير الآية التسمين منها ، انظر : ١٠٤/٤ . وانظر أيضاً تفسير الطبرى : ١١/٢٤ .

(٣) يضى سورة الزمر ، نفى نفساً أيضاً سورة الفرق : لما فيها من الحديث عن فرط أهل الجنة .

(٤) في المخطوطة : « حسن السامسى » . وفي المسند : « أخفش السامسى » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣١٦/١٢١ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٢٨/٢ .

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثني إيث، حدثني محمد بن قيس - قاص - عمر بن عبد العزيز - عن أبي صيرمة، عن أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «لولا أنكم تدنّبون، لخلق الله قوما يلنبون فيفطر لهم» (١).

هكذا رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي جميعا، عن قتبية، عن الليث بن سعد، به، ورواه معلم من وجه آخر به، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي صيرمة - وهو الأنصاري صاحب - عن أبي أيوب، به (٢). وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك الحرقاني، حدثنا يحيى بن عمرو بن مالك النكري قال: سمعت أبي يحدث عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكفارة الذنب الندامة». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو لم تدنّبوا لجاء الله بقوم يلنبون، فيفطر لهم» تفرد به أحمد (٣).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني عبد الأعلى بن حماد الترمذي، حدثنا داود بن عبد الرحمن، حدثنا أبو عبد الله مسلمة الرازي، عن أبي عمرو الجبلي، عن عبد الملك بن سفيان الثقفي، عن أبي جعفر محمد بن علي، عن محمد بن الحنفية، عن أبيه علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب العبد المكتن للثواب» (٤)، لم يخرجوه من هذا الوجه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسحاق، حدثنا حماد، أخبرنا: ثابت وحديد، عن عبد الله بن هبيل ابن عمير قال: إن إبليس - عليه لعائن الله - قال: يا رب، إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم، وإن لا أستطيعه إلا بسلاطتك. قال: فأنت مسيطر. قال: يا رب، زدني. قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك مثله. قال: يا رب، زدني. قال: لأجل صنوهم مساكن لكم، ويجرون منهم مجرى الدم. قال: يا رب، زدني. قال: أجلب عليهم بحيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدّهم وما جعلهم الشيطان إلا غرورا. فقال آدم: يا رب، قد سلطته عليّ، وإنى لأمتنع إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكنت به من يحفظه من قرناء سوء. قال: يا رب، زدني. قال: الحسنه عشر أو أزيد، والسنة واحدة أو أعوها. قال: يا رب، زدني. قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد. قال: يا رب، زدني. قال: (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم).

وقال محمد بن إسحاق: قال نافع: عن حيد الله بن عمر، عن عمر - رضى الله عنه - في حديثه قال: وكنا نقول: ما الله بقابل لمن أعتن صرّفا ولا عدلا ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر بلقاء أصحابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. قال: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، أنزل الله فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم). وأنبيؤا إلى ربكم وأسلموا، من قبل أن يأتيكم الملائكة ثم لا تنصرون، واتيها أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، من قبل أن يأتيكم العذاب.

(١) مسند الإمام أحمد: ١٤٨/٥.

(٢) مسلم، كتاب التوبة، باب: سقوط الذنوب بالاستغفار: ٩٤/٨. ونعملة الأحرى: أبواب صفة الجنة، ونعملة الأحرى: أبواب النواصير، الحديث ٣٩٠٦: ٥٢٣/٩ - ٥٢٤. وقال الترمذي: حسن قريب.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٢٨٩/١.

(٤) مسند الإمام أحمد: ٨٥٤/١ - ١٠٣.

بغته وأنتم لا تشعرون) : قال عمر رضى الله عنه : فكتبتها بيدي في صحيفة ، وبثت بها إلى هشام بن العاص قال : فقال هشام : لما أتني جعلت [أفروها] بلدى طوى أصمعد بها فيه وأصوت ولا أفهمها ، حتى قلت : اللهم أفهمنيها : قال : فأتني الله في قلبى أنها إنما أنزلت فينا ، وفيما كنا نقول في أنفسنا ، ويقال فينا : قال : فوجئت إلى يبرى فجلست عليه ، فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

ثم استحث تعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة ، فقال : (وأنبيؤا إلى ربكم وأسلموا له) ، [أى : ارجعوا إلى الله واستسلموا له ، (من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تصنعوا)] ، أى : بادعوا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول العقوبة ، (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) ، وهو القرآن العظيم ، (من قبل أن يأتيكم العذاب بغته وأنتم لا تشعرون) ، أى : من حيث لا تعلمون ولا تشعرون ،

ثم قال : (أن تقول نفس : يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله) ، أى : يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإفئاة ، ويود لو كان من المحسنين المخلصين للطغيان لله عز وجل :

وقوله : (وإن كنت لمن الساخرين) ، أى : إنما كان على الدنيا على ساخر مستهزئ به غير موقن بمصدق .

(أو تقول : لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى العذاب : لو أن لي كوة فأكون من المحسنين) ، أى : تود أن لو أهملت إلى الدار الدنيا فحسن للعمل .

قال حل بن أبى طلحة : عن ابن عباس : أخبر الله - سبحانه - ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعلمهم قبل أن يعملوه . وقال : (ولا يبتلك مثلى خبير) ، (أن تقول نفس : يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ، وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول : لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب : لو أن لي كوة فأكون من المحسنين) فأخبر الله تعالى : أن لو رُدُّوا لما قدروا على الهدى ، وقال تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وهم لكاذبون) (١) :

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا أبو بكر ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هداني ، ؟ فتكون عليه حسرة . قال : وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لو أن الله هداني ، ؟ قال : (فيكون له الشكر) (٢) ،

ورواه النسائي من حديث أبي بكر بن عياش ، به .

ولما غنى أهل الجرائم التودد إلى الدنيا ، ونعسروا على تصديق آيات الله واتباع رسوله ، قال : (بل قد جاءه نكال آياتي فكلبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) ، أى : قد جاءه نكالها البعد التادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا ، وقامت حججى عليك ، فكلبت بها واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها ، الجاحدين لها .

(١) تفسير الطبري : ١٤ / ٢٤ .

(٢) سنن الإمام أحمد : ١٢٤٢ .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوْتٌ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٠١﴾ وَيَجْزِي اللَّهُ الَّذِينَ
أَنفَرُوا بِغَفَاتِهِمْ لَا يُعْصِمُ السُّوءَ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٠٢﴾

غير تعالى عن يوم القيامة أنه تعود فيه وجوه ، وتبيض فيه وجوه ، تعود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، قال تعالى هاهنا : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله) ، أي : في دعواهم له شريكاً وولد (وجوههم مسودة) ، أي : يكلسهم والقرائهم .
وقوله : (أليس في جهنم موتى للمتكبرين ؟) أي : أليست جهنم كافية لما سجننا وموتنا ، لم فيها الخزي والهوان ، بسبب تكبرهم ونجسهم ولجسهم عن الاعتقاد للحق .

قال ابن حاتم : حدثنا أبو حبيد الله ابن أنس بن وهب ، حدثنا حمى ، حدثنا عيسى بن أبي حنيفة الخياط ، عن حمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن للمتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه اللر في صور الناس ، يعلمهم كل شيء من الصغار ، حتى يدخلوا سجننا من النار في واد يقال له پولس ، من نار الأنبار ، ويسقون عصارة أهل النار ، من طينة الخيل » .

وقوله : (ويجزى الله الذين انفروا بغيظهم) ، أي : بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ، (لا يمسهم السوء) ، أي : يوم القيامة ، (ولا هم ينصرون) ، أي : ولا ينصرونهم الفرع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فزع ، مزحزون من كل شر ، مؤمنون كل شيء .

اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٣﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٤﴾ قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَصْدَأُ أَيْبَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَ يُحَبِّطَنَّ بِعَمَلِكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٦﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَبِرَّ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴿١٠٧﴾

غير تعالى أنه خالق الأشياء كلها ، وربها ومليكها والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره وقهره وكلامته .
وقوله : (له مقاليد السموات والأرض) ، قال مجاهد : للقايد هي : المفاتيح بالفارسية (١) . وكلها قال قتادة ، وابن زيد ، وسفيان بن عيينة .

وقال السدي : (له مقاليد السموات والأرض) ، أي : خزان السموات والأرض .
والمنع على كلا القولين : أن أزممة الأمور بيده ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . ولهذا قال : (والذين كفروا بآيات الله) ، أي : حججه وبراهينه ، (أولئك هم الخاسرون) .

(١) في المرحب الجبرائيل ٣٦٢ : « التقليد [يكسر الميم] : المفتاح . فارسي . مرعب . لنة في الإتيان ، والجمع مقابلة . »

وقد روى ابن أبي حاتم هاتنا حديثا غريبا جداً - وفي صحته نظر - ولكن نذكره كما ذكره ، فإنه نال :

حدثنا يزيد بن سنان البصري بمصر ، حدثنا يحيى بن حداد ، حدثنا الأغلب بن نعيم ، عن علك بن هليل المديني ، عن عبد الرحمن اللقي ، عن عبد الله بن عمر ، عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - : « أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير : (له مقاليد السموات والأرض) ، فقال : « ما سألتني عنها أحد قبلك يا عثمان » ، قال : « تفسيرها : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، ولا قوة إلا بالله ، الأول والثاني ، والظاهر والباطن ، يده الخبير ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير » ، من قلنا يا عثمان : إذا أصبحنا عشرين مرة أصلي خصالاً ستاً : « أما أولها : فيحرس من إبليس وجنوده ، وأما الثانية : فيعطى قنطاراً من الأجر ، وأما الثالثة : ترفع له درجتان الجنة ، وأما الرابعة : فيتزوج من الخور العين ، وأما الخامسة : فيحضره اثنا عشر ملكاً ، وأما السادسة : فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والثرثرة والإنجيل والقرآن وله مع هذا يا عثمان من الأجر ، كمن حج وتقبلت حجه ، واعتبر فقبلت عمرته ، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهادة (١) » .
ورواه أبو يعلى الموصلي من حديث يحيى بن حداد ، به مثله : وهو غريب ، وفيه نكارة شديدة ، والله أعلم .

وقوله : (قل : أفنير الله ثأروني أريد أيها الجاهلون ؟) ذكرنا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره ، عن ابن عباس : أن للمشركين بهمهم فهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبادة كلتهم ، وهدوا به إله ، فزلت : (قل : أفنير الله ثأروني أريد أيها الجاهلون ؟) وقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك : أن أشركت ليجعلن همك وتكونن من الخاسرين) .

وهذه كقوله : (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) .

وقوله : (يل الله فاعبدو كن من الشاكرين) ، أي : أخلص العباد لله وحده ، لا شريك له ، أنت ومن معك ، أنت ومن أتبعك وصدقتك .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمُوتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى : وما قدر الله حق قدره ، حين جعلوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته :

قال مجاهد : نزلت في قريش : وقال السدي : ما عظمه حتى عظمته (٢) .

وقال محمد بن كعب : لو قدروه حتى قدره ما كتبوه :

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي : ٢٢٢/٥ - ٢٢٤ ، والبحر والتنزيل لابن أبي حاتم : ٢٤٩/١ - ٢٥٠ .

(٢) سورة الأنعام : آية : ٨٨ .

(٣) تفسير الطبري : ١٢٤/٢٥ .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وما قلروا الله حق قدره) ، هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، لأن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفي أمثالها ملهوب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

قال البخاري : قوله : (وما قلروا الله حق قدره) ؛ حدثنا آدم ، حدثنا شيبان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن حيد الله بن مسعود قال : جاء خبر من الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلاق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ؛ فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى بدت نواجذه ؛ تصديقا لقول للحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وما قلروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة .. الآية ١) .

ورواه البخاري أيضا في غير هذا الموضع من صحيحه ، والإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذي والنسائي في التفسير من متنيها ، كلهم من حديث سليمان بن مهران الأعشى ، عن إبراهيم ١ عن عبيدة ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - بنحوه (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعشى ، عن إبراهيم (٣) عن علقمة ، عن عبد الله - رضي الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ، فقال : يا أبا القاسم ، أبلغك أن الله يجعل الخلاق على إصبع ، والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ؟ قال : فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى بدت نواجذه . قال : وأنزل الله عز وجل : (وما قلروا الله حق قدره) إلى آخر الآية (٤) .

وهكذا رواه البخاري ، ومسلم ، والنسائي - من طريق - عن الأعشى ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن حسن الأشقر ، حدثنا أبو كدينة ، عن عطاء ، عن أبي الفتح ، عن ابن عباس قال : مر يهودي برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو جالس فقال : كيف تقول يا أبا القاسم : يوم يحسب الله السماء على

(١) البخاري ، تفسير سورة الزمر : ١٥٧/٦ - ١٥٨ .

(٢) البخاري ، كتاب التوحيد : ١٨٤/٦ . ومسنود الإمام أحمد : ٤٢٩/١ . ومسلم ، كتاب وصفة القيامة والجنة ، والثناء : ١٢٥/٨ - ١٢٦ - ولكن النفي وقع لنا فيه من طريق الأعشى ، عن إبراهيم ، عن علقمة - ونحفة الأحمدي ،

لتفسير سورة الزمر : ١١٢/٩ - ١١٤ .

(٣) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٧٨/١ .

(٥) البخاري ، كتاب التوحيد : ١٦٤/٩ - ١٦٥ . ومسلم ، في الكتاب والباب المختصين .

ذَهْ - وأشار بالنسبة - والأرض على ذَهْ ، والجيال على ذَهْ ، وسائر الخلق على ذَهْ - كل ذلك يشير بإصبعه - قال : فأزل الله عز وجل : (وما قدروا الله حق قدره) (١) . . الآية :

وكذا رواه الترمذي في التفسير عن عبد الله بن عبد الرحمن اللدري ، عن عبد بن الصلت أبي جعفر ، عن أبي كندة يه يحيى بن المهلب ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي الصمى مسلم بن صبيح ، به ، وقال : « حسن صحيح » [غريب] ، لا تعرف إلا من هذا الوجه (٢) :

ثم قال البخاري : حدثنا سعيد بن شعير ، حدثنا الليث ، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر ، عن ابن شهاب ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن : أن أبا هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعتُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يقبض الله الأرض ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض » (٣) ؟
تقدم به من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر (٤) .

وقال البخاري في موضع آخر : حدثنا مُعَدَم بن محمد ، حدثنا حمى القاسم بن يحيى ، عن عبد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع (٥) ، وتكون السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » (٦) .

تقدم به أيضاً من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر (٧) . وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى يلتقط آخر أبسط من هذا السياق وأطول ، فقال :

حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن هبید الله بن مقسم ، عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون) ، وروى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول هكذا بيده ، يحركها يقبل بها ويدبر : « يمجّد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم » ، فرجف برسول الله - صلى الله عليه وسلم - للمبرح حتى قلنا : لَيَسْخَرَنَّهُ به (٨) .

وقد رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم - زاد مسلم : ويعقوب بن عبد الرحمن ، كلاهما عن أبي حازم ، عن هبید الله بن مقسم ، عن ابن عمر ، به ، نحوه (٩) .

(١) مستد الإمام أحمد : ٣٢٤/١ .

(٢) تحفة الأحرفي ، تفسير سورة الزمر ، الحديث ٣٢٩٣ : ١١٥/٩ .

(٣) البخاري ، تفسير سورة الزمر : ١٥٨/٦ .

(٤) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار : ١٢٦/٨ .

(٥) على إصبع « غير ثابت في الصحيح .

(٦) البخاري ، كتاب التوحيد : ١٥٠/٩ .

(٧) مسلم ، في الكتاب والباب للثقةين : ١٢٦/٨ - ١٢٧ .

(٨) مستد الإمام أحمد : ٧٢/٢ . وانظر أيضاً للمستد : ٨٧/٢ - ٨٨ .

(٩) مسلم ، في الكتاب المقتضب : ١٢٦/٨ - ١٢٧ . وابن ماجه ، المقتضب : الحديث ١٩٨ : ٧١/١ - ٧٢ ، وكتاب

الترجم ، باب « ذكر البعث » ، الحديث ٤٢٧٥ : ١٤٢٩/٢ .

ولقد سلم - عن عبيد الله بن مقسم في هذا الحديث - : « أنه نظر إلى عبيد الله بن عمر كيف يحكي النبي - صلى الله عليه وسلم - ، قال : يأخذ الله سماته وأرضه بيده ويقول : أنا الملك (١) ، ويقبض أصابعه ويبسطها : أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني لأقول : أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

وقال الزبيري : حدثنا سليمان بن سيف ، حدثنا أبو علي الحنفى ، حدثنا حبيب بن الحسن ، حدثني محمد بن المنكدر قال : « حدثنا عبيد الله بن عمر ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ هذه الآية على المنبر : (وما قدرُوا الله حتى قدره) ، حتى بلغ : (سبحانه وتعالى عما يشركون) ، فقال المنبر هكلا ، [فبجاه] وذهب ثلاث مرات . »

ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث حبيب بن عيسى ، عن عبيد الله بن عمرو وقال : صحيح ، وقال الطبراني في المعجم الكبير : « حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العبدي ، حدثنا حبان بن نافع بن صخر بن جويرية ، حدثنا سعيد بن سلم القلاح ، عن معمر بن الحسن ، عن بكر بن خنيس ، عن أبي شبة ، عن عبد الملك بن عمر ، عن جويرية قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لنفر من أصحابه : « إني قارئ عليكم آيات من آخر سورة الزمر ، فمن بكى منكم وجئت له الجنة » ؟ قرأها من عند قوله : (وما قدرُوا الله حتى قدره) ، إلى آخر السورة ، فلما من بكى ، ومنا من لم يبك ، فقال الذين لم يبكوا : يا رسول الله ، لقد جهدنا أن نبكى ، فلم نبك ؟ فقال : « إني سأفروها عليكم ، فمن لم يبك فليباتك » ، هذا حديث غريب جداً . »

وأغرب منه ما رواه في المعجم الكبير أيضاً : « حدثنا هاشم بن زيد (٢) ، حدثنا محمد بن إسحاق بن عياش ، حدثني أبي ، حدثني ضمضم بن زرعة ، عن شريح بن عبيد ، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى يقول : ثلاث خلال خيرهن من عباده ، لو رآهن رجل ما عمل سوءاً أبداً : لو كشفت غطاءي فرأى حتى تستيقن ويعلم كيف أعمل خلقى إذا أتيتهم ، وقبضت السموات بيدي ، ثم قبضت الأرضين ، ثم قلت : أنا الملك ، من ذا الذي له الملك دوني ؟ ثم أريتهم الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير ، فيستيقنوها . وأرهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها ، ولكن علما غيب ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون ، وقد بينته لهم (٣) » . »

وهذا إسناد مقارب ، وهي نسخة تروى بها أحاديث جملة ، والله أعلم .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٠٠﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بَوْرٍ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالْبَيْتِ وَأَشْهَادٌ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِأَحْقِّهِمْ وَلَا يُظَلُّونَ ﴿١٠١﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى خبرا عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والالازل المائلة ، ف قوله : (ونفخ في الصور ، فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) ، هذه النفخة هي الثانية ، وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها

(١) في صحيح مسلم : « أنا الله » .

(٢) كذلك في المخطوطة . وفي المعجم الصغير : « مزيد » .

(٣) أخرجه السيوطي في التذكرة المتشور عن الطبراني : ٢٣٥/٥ .

الآحياء من أهل السموات والأرض ، إلا من شاء الله كما هو مفسرٌ به مفسرٌ في حديث الصور المشهور (١) : ثم يقضي أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد إلى القيوم الذي كان أولاً ، وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء ، ويقول : (لن الملك اليوم) ؟ ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : (الله الواحد القهار) : أي : الذي هو واحد وقد قهر كل شيء ، وحكم بالفتاء حل كل شيء : ثم يحيي أول من يحيي إسرائيل ، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى ، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث ، قال تعالى : (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) ، أي : أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا ، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : (فإذا هم جزرة واحدة . فإذا هم بالساهرة (٢)) : وقال تعالى : (يوم يدهركم فتستجيبون له) ، وتظنون إن لنبث إلا قليلا (٣)) : وقال تعالى : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون (٤)) .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الثمال بن سالم قال : سمعت يعقوب بن حاصم بن حذرة ابن مسعود قال : سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو : إنك تقول : الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ قال : لقد هممت أن لا أحدثكم شيئا ، إنما قلت : ستروا بعد قليل أمرا عظيما (٥) . ثم قال عبد الله بن عمرو : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « يخرج النجاء في أمي ، فيبكت فيهم أربعين - لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة - فيبعث الله عيسى ابن مريم ، كأنه عروة بن مسعود الثقفي ، فيظهر فيهلكه الله . ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عدواة ، ثم يرسل الله رجلا باردة من قبل الشام ، فلا يبقى أحد في قلبه مقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن (٦) أحلم كان في كبد جيل دخلت عليه . قال : سمعنا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ويبقى شرار الناس في خفة الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا . قال : فيبذل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبيون ؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدها ، وهم في ذلك دائرة أرزاقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصي له (٧) » ، وأول من يسمعه رجل يكوط حوضه ، فيصق . ثم لا يبقى أحد إلا صق . ثم يرسل الله - أو : ينزل الله - مطرا (٨) كأنه الطل - أو : الغزل ، شلت نيمان - فثبت منه أجساد الناس . ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس ، هلموا إلى ربكم : وقفوا لهم مسئولون) - قال - : ثم يقال : أخرجوا بعت النار . قال : فيقال : كم ؟ فيقال : من كل ألف تسائة وتسعة وتسعين . فيومئذ يبعث اللدان شيئا ، ويومئذ يكشف عن ساق (٩) .

اتفرد بانترجاه مسلم في صحيحه (٩) .

(١) انظر حديث الصور في ٢٧٦/٣ - ٢٨٢ . وانظر أيضا : ١٩٦/٥ ، ٢٢٥ ، ٣٠٨ .

(٢) سورة النازعات ، آية : ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .

(٤) سورة الزمر ، آية : ٢٥ .

(٥) يمدح في المستند : « كان تحريق البيت - قال شعبة : هذا لو تحرقه » .

(٦) في المختلطة : « حتى أن لو كان أحلم » . والمثلث من المستند .

(٧) ما بين لقوسين من المستند .

(٨) في المستند : « قطرا » .

(٩) مستند الإمام أحمد : ١٦٦/٢ . وقد شرحنا شريه من قبل عند مائة حديث مسلم في تفسير الآية السابعة : الزمزم

من سورة انفال : ٢٢٥/٥ - ٢٢٦ .

وقال البخاري : حدثنا عمر بن حفص بن غيث ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش قال : سمعت أبا صالح قال : سمعت أبا هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « بين الفتحين أربعون » . قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوما ؟ قال : أبليت (١) قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبليت . قالوا أربعون شهرا ؟ قال : أبليت . وييل كل شيء من الإنسان إلا حبس (٢) ذكته ، فيه يركب الخلق (٣) .

وقال أبو يعلى : حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا أبو البيان ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عمر بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « سألت جبريل - عليه السلام - عن هذه الآية : (وتفتح في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) : من الذين لم يشأ الله أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء ، مذكرون أسماهم حول عرشه ، تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب (٤) من ياقوت نكارها (٥) أبين من الحرير ، مذكرون عظامهم ، يسرون في الجنة يقولون عند طول التزعة : اطلقوا بنا إلى ربنا - عز وجل - ننظر كيف يقضى بين خلقه ، يفسحك إليهم إلى ، وإذا ضحكك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه » .

وجاله كلهم قات إلا شيخ إسماعيل بن عياش ، فإنه خير معروف ، والله أعلم .
وقوله : (وأشرق الأرض بنور ربها) ، أي : أضاءت يوم القيامة إذا تجل الحق - تبارك وتعالى - للخلاق لنصل القضاء ، (ووضع الكتاب) ، قال قتادة : كتاب الأعمال ، (وجي بالنبيين) ، قال ابن عباس يشهدون على الأمم بأهم بلغهم رسالات الله إليهم (والشهداء) ، أي : الشهداء من الملائكة الحافظة على أعمال العباد من خير وشر ، (وقضى بينهم بالحق) ، أي : بالعدل ، (ولم يظلمون) . قال الله : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا) ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين (٦) . وقال تعالى : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة بضاعفها ويؤت من لده أجر أعظمها (٧)) . ولما قال : (ووفيت كل نفس ما عملت) ، أي : من خير أو شر ، (وهو أعلم بما يفعلون) ،

وَسِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا ۚ سَٰخَتْ إِذَا جَاءَهُمْ أَصْحَابُ الْأَرْضِ وَقَالُوا لَمْ نَحْزَنْهُمْ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ مَنَافِعُ ۚ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيَنْذَرُونَكَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠١﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار ؟ ولما يساقون سوقا عنيقا بزجر وتهديد ووعيد . كما قال تعالى : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعوها (٨)) ، أي : يذفون إليها دفعا . هذا وهم عطاش ظمأ ، كما قال في الآية الأخرى :

(١) أي : أبليت أن أقول في الخبر ما لم أسمعه .

(٢) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ٤٦١/٥ .

(٣) البخاري ، تفسير سورة الزمر : ١٥٨/٦ .

(٤) النجائب : جمع نجوبة ، تأنيث النجيب من الإبل ، وهو القوي الخفيف السريع .

(٥) ياقوت : بكسر اللون - جمع نمرة - يفتح ذكسر - وهو : كل شدة عظيمة من مازر الأعراب .

(٦) سورة الأنبياء ، آية : ٤٧ .

(٧) سورة النساء ، آية : ٤٥ .

(٨) سورة الطور ، آية : ١٣ .

(يوم نحشر المقين إلى الرحمن وفدا • ولنسوق المجرمين إلى جهنم وردا (١)) : وهم في تلك الحال صُمُّ وبكم وحى ، منهم من يمشى على وجهه ، (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم حيا وبكا وصبا ، مأواه جهنم ، كذا خبت زادهم سمرا (٢)) : وقوله : (حتى إذا جاءوها ففتحت أبوابها) ، أى : بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريريا ، لتجلب لهم العقوبة ، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية - اللين هم غلاظ الأخلاق ، شداد القسوى ، على وجه التفرع والتفريق والتشكيل - : (ألم بأنكم أرسل منكم ؟) ، أى : من جنسكم تتمكنون من غشائيتهم والأخذ عنهم ، (يثلون عليكم آيات ربكم) ، أى : يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ، (وينثرونكم لقاء يومكم هذا) ، أى : ويغلزونكم من شر هذا اليوم ؟ فيقول الكفار لهم : (بلى) ، أى : قد جاءونا وأنثرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ، (ولكن حقك كلمة اللطاب حل الكافرين) ، أى : ولكن كلمتناهم وخالفناهم ، لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عددنا من الحق إلى الباطل ، كما قال تعالى خبرا عنهم في الآية الأخرى : (كلما أتى فيها فوج سلم خزنتها : ألم بأنكم نذير ؟ قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير ، فكلمنا فقلنا : ما نزل الله من شيء ، إن أنتم إلا في ضلال كبير • وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السبى (٣)) ، أى : رجعنا على أنفسهم باللامعة والندامة . (فاعترفوا بذنبهم ، فسحقا لأصحاب السبى) ، أى : بعدا لهم وعسارا . وقوله هاتنا : (قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) ، أى : كل من رآهم وعلمهم حاتم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ، ولهذا لم يستند هذا القول إلى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به . ولهذا قال جل وعلا : (قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) ، أى : ما كنتم فيها لا خروج لكم منها ، ولا زوال لكم عنها ، (فيش مثنى المتكبرين) ، أى : فيش المصير وبش المليل لكم ، بسبب تكبركم في الدنيا ، وإياكم من اتباع الحق ، فهو الذى صبركم إلى ما أنتم فيه ، فيش الحال وبش المال .

وَسَيَقُولُ الَّذِينَ أَتَوْا رِبِّيًّا بِحَبْلِ الْجَنَّةِ زُمرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَدْرِكَهُ لَوْلَا أَنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣١﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على التناجيب وفدا إلى الجنة (زُمرًا) أى : جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم اللين يلوهم ، ثم اللين يلوهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالم . والشهداء مع أصحابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضا . (حتى إذا جاءوها) ، أى : وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط ، حبسوا على فطرة بن الجنة والثائر ، فاقصم لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذبوا ونُقِّوا أخذ لهم في دخول الجنة ، وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول ، فيقصدون آدم ، ثم نوحا ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم

(١) سورة مروج ، آية : ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٩٧ .

(٣) سورة الملك ، الآيات : ٨ - ١٠ .

عيسى ، ثم محمداً - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - كما فعلوا في المرات عند استشفاعهم إلى الله - عز وجل - أن يأتي لفصل القضاء ، ليظهر شرف محمد - صلى الله عليه وسلم - على سائر البشر في المواطن كلها .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أنا أول شفيع في الجنة (١) » وفي لفظ لمسلم : « وأنا أول من يقرع باب الجنة (١) » :

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أتى باب الجنة يوم القيامة فاستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ؛ قال : يقول : بلك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك (٢) » .

ورواه مسلم عن عمرو الناقد وزهير بن حرب ، كلاهما عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، عن سليمان - وهو ابن المغيرة القتيبي - عن ثابت ، عن أنس ، به (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن منبجة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أول زمرة تلج الجنة صُورهم على صورة القمر ليلة البدر ، ولا يصقون فيها ، ولا يمتخطون فيها ، ولا يتخطون فيها . آتيتهم أمشاطهم الذهب والفضة ، وبجامرهم الآلوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى منخ ساقهما من وراء اللحم ، من الحسن . لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكثرة وعشياً (٤) » .

رواه البخاري عن محمد بن مقاتل ، عن ابن المبارك ، ورواه مسلم عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق ، كلاهما عن معمر بإسناده نحوه (٤) . وكلا رواه أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا جري ، عن حمارة بن القمقاع ، عن أبي زرة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلوهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتبولون ولا يتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، وبجامرهم الآلوة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً في السماء » .

وأخرجه أيضاً من حديث جري (٤) .

وقال الزهري ، عن سعيد ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « يدخل الجنة من أمي زمرة ، هم سبعون ألفاً ، تضئ وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » . فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول

(١) كتاب الإيمان ، باب : « في قول النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أول الناس يشفع ... » ١٣٠/١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣١٦/٢ .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : « في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : أنا أول الناس من يشفع ... » ١٣٠/١ .

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثمانية والثنتين من سورة مريم ، وخرجناه هنا لك ، وشرحناه فريه ، انظر : ٢٤٢-٢٤١/٥ .

(٥) البخاري ، كتاب الأنبياء : ١٦٠/٤ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب : « أول زمرة تدخل الجنة ... » ١٤٦/٨ .

الله : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : « اللهم اجعله منهم » . ثم قام رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « سبقك بها عيسى » .

أخرجه (١) . وقد روى هذا الحديث - في السبعين ألفا [يدخلون الجنة] بغير حساب - البخاري ومسلم ، عن ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وعمران بن حصين ، وابن مسعود ، ورفاعة بن عرابة الجهني ، وأم قيس بنت محسن .

ولما عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « يدخلون الجنة من أمي سبعون ألفا - أو : سبعة آلاف - آخذ بعضهم بيض ، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر (١) » ، وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن محمد بن زياد قال : سمعت أبا أمامة الباهلي يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وعدني ربي عز وجل أن يدخل الجنة من أمي سبعون ألفا ، مع كل أمت سبعون ألفا ، ولا حساب عليهم ولا عذاب ، وثلاث حقائق ربي عز وجل .

وكذا رواه الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن سليح (٢) بن عامر ، عن أبي الباق عامر بن عبد الله بن ثعلبة (٣) عن أبي أمامة .

ورواه الطبراني ، عن حبة بن عبد السكتي : « ثم يشفع كل ألف في سبعين ألفا » .

وروى مثله عن ثوبان ، وأبي سعيد الأنصاري . وله شواهد من وجوه كثيرة .

وقوله : (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم ، طيبم ، فادخلوها خالدين) : لم يذكر الجواب هاهنا ، وتقديره : حتى إذا جاءوها ، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لم إكراما وتعظيما ، وتلقاهم للملائكة الخزنة باليشارة والسلام والثناء ، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالشرب (٤) والتأنيب ، فتذريه ، إذا كان هذا مستلوا وطابوا ، وسرورا وفرحوا ، بتقدير كل ما يكون لهم فيه نعم . وإذا حلف الجواب هاهنا ذهب اللحن كل مله في الرجاء والأمل .

ومن زعم أن « الراو » في قوله : (وفتحت أبوابها) وأو الثانية ، واستل به على أن أبواب الجنة ثمانية (٥) ، فقد أبعد النجسة ، وأغرق في التزعزع . وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة :

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن حميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتق زوجين من ماله في سبيل الله ، دُعي من أبواب الجنة ، والجنة أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان » . فقال أبو بكر - رضي الله تعالى

(١) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب « يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب » : ١٤٠/٨ - ١٤١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « الدليل حل دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب » : ١٣٦/١ - ١٣٧ .

(٢) في المخطوطة : « حكيم بن عامر » . ولم نجده . ولعل المصواب ما أثبتناه ، انظر التلخيص ترجمة صفوان بن عمرو ، ٤٢٨/٤ .

(٣) في المخطوطة : « بن يحيى » . والمكتوب عن الخلاصة .

(٤) التثريب : التوبيخ .

(٥) ينسب هذا القول إلى الحريري ، وابن خالويه ، والتملي ، انظر معني التيب لابن هشام ، ٤١١ ، طه وودت .

هـ - : يا رسول الله ، ما حكى أحد من ضرورة دُعي ، من أيها دعي ، فهل يدعي منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال : نعم ، وليرجو أن تكون منهم (١) .

رواه البخاري ومسلم ، من حديث الثوري ، بنحوه (٢) .

وفيها من حديث أبي حازم سلمة بن دينار ، عن سهل بن سعد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمى الريان ، لا يدخله إلا الصائمون » (٣) .

وفي صحيح مسلم ، عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما منكم من أحد يتوضأ فيلغ : أو : فيسبح الوضوء - ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » (٤) .

وقال الحسن بن مرة : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حُسَيْن ، عن شهر بن حوشب ، عن معاذ - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مفتاح الجنة : لا إله إلا الله » .

ذكر سبعة أبواب الجنة - نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها

في الصحيحين من حديث أبي ذرٍّ ع ، عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل : فيقول الله : يا محمد ، أدعُبل من لا حساب عليه من أمك من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخرى ، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة - ما بين (٥) عضادتي الباب - ، لكما بين مكة وهَجْر - أو : هَجْر ومكة : « وفي رواية : مكة ويُسْعري » (٦) .

وفي صحيح مسلم ، عن حُثَيْبِ بْنِ غَزْوَانَ أَنَّهُ خَطَبَهُمْ [خطبة] فقال فيها : « ولقد ذكر لنا أن (ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ، مسيرة أربع) سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كظيط » (٧) [من : الزحام » (٨) .

وفي المسند عن حكيم بن حمادة ، عن أبيه ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، مثله (٩) .

وقال حميد بن حميد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا ابن فضال ، حدثنا جراح ، عن أبي الميثم ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن ما بين مصراعين في الجنة مسيرة أربعين سنة » (١٠) .

(١) مستد الإمام أحمد : ٣٦٨/٢ .

(٢) البخاري ، كتاب الصوم ، باب « الريان للصائمين » : ٣٢/٣ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « ومن جمع الصدقة وأعمال البر » : ٩١/٣ .

(٣) البخاري في الكتاب والباب المتضمنين : ٢٢/٢ . ومسلم ، باب الصوم ، باب « فضل الصيام » : ١٥٨/٣ - ١٥٩ .

(٤) مسلم ، كتاب الطهارة ، باب « الذكر المستحب عقب الوضوء » : ١٤٤/١ - ١٤٥ .

(٥) في مسلم : « إله عضادتي الباب » . والمصادقات : غشيتا لياي من جانبيه .

(٦) البخاري ، تفسير سورة الإسراء : ١٠٧/٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أدنى أهل الجنة منزلة » : ١٢٩/١ .

(٧) أي : معلل .

(٨) مسلم ، كتاب الزهد : ٢١٥/٨ .

(٩) مستد الإمام أحمد : ٣/٥ .

(١٠) أخرجه الإمام أحمد من طريق الحسن . المسند : ٢٩/٣ .

وقوله : (وقال لم خزنتم : سلام عليكم ، طين) ، أى : طابت أعمالكم وأقوالكم ، وطابت سمعكم فطابت جزاؤكم ، كما أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ينادى بين المسلمين في بعض الفترات : « إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة » وفي رواية : « مؤمنة » (١) .

وقوله : (فادخلوها خالدين) ، أى : ما كنتم فيها أبداً ، لا يفترون عنها حولا .

(وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده) ، أى : يقول المؤمنون إذا حابوا في الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعماء العظيم ، والنعم المقيم ، والملك الكبير ، يقولون عند ذلك : (الحمد لله الذى صدقنا وعده) ، أى : الذى كان وعدنا على ألسنة رسوله الكرام ، كما دعوا في الدنيا : (ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد) (٢) ، (وقالوا : الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رُسُل ربنا بالحق) (٣) ، (وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور ، الذى أحلتنا دار المقامة من فضله ، لا عسا فيها نصيب) ولا يستسنا فيها لعُيوب) (٤) .

وقولهم : (وأورثنا الأرض نبيراً من الجنة حيث نشاء ، فتم أجر العاملين) - قال أبو العالgie ، وأبو صالح ، وقادة ، والسدى ، وابن زيد : أى أرض الجنة (٥) .

وهذه الآية كقولهم : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر : أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) (٦) ، (ولما قالوا :) (تتبوا من الجنة حيث نشاء) ، أى : أين شئنا حللتنا ، فتم الأجر أجرنا على عملنا .

وفي الصحيحين من حديث الزهري ، عن أنس في قصة المعراج قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أدخلت الجنة فإذا فيها جنتبلة (٧) اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك (٨) » .

وقال عبد بن حميد : حدثنا روح بن عباد ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا الجري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل ابن صائد عن تربة الجنة ؟ فقال : « دَرَمَكَة يَبْضَاهُ مِسْكٌ خَالِصٌ » فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « صدق » .

وكذا رواه مسلم ، من حديث أبي سلمة (٩) ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، به (٩) .

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن أبي أسامة ، عن الجري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد أن ابن صائد سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن تربة الجنة ، فقال : « دَرَمَكَة يَبْضَاهُ مِسْكٌ خَالِصٌ » (١٠) .

(١) السائق : كتاب الحج ، باب قوله عز وجل : (علما زينتكم منه كل مسجد) : ٢٢٤/٥ .

(٢) سورة آل عمران : آية : ١٩٤ .

(٣) سورة الأعراف : آية : ٤٣ .

(٤) سورة قاطر : آية : ٣٤ ، ٣٥ .

(٥) انظر تفسير الطبري : ٢٤/٢٥ .

(٦) سورة الأنبياء : آية : ١٠٥ .

(٧) الجنبلة : جمع جنبلة - بضم الجيم والياء ، ويجهها ثوب مأكنة - هي : القبة .

(٨) تقدم الحديث منه تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ، وعرجناه هناك . انظر : ١٥/٥ - ١٧ .

(٩) في المخطوطة : « مسلمة » . والصواب : « مسلمة » . وأبو مسلمة هذا هو : سعيد بن يزيد بن مسلمة . انظر ترجمته في التلخيص : ١٠٠/٤ .

(١٠) مسلم ، كتاب الفتن ، باب : ذكر ابن صياد : ١٩١/٨ - ١٩٢ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن حاصم ابن ضمرة ، عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - في قوله تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) ، قال : سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة ، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عيان ، فعملوا إلى إحداها فظهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعم ، فلم تغبر أبشارهم بعدها أبدا ، ولم تشتت أشعارهم أبدا بعدها ، كأشعار هنها بالدخان ، ثم حملوا إلى الأخرى كأنما أمرؤا بها ، فغربوا منها ، فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى ، وتلقنهم للملكة على أبواب الجنة : (سلام عليكم طيبم ، فادخلوها خالدين) ، ويلقى كل غلمان صاحبهم يطيفون به ، فعمل الولدان بالحميم جاء من الغيبة : (أبشرو ، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا ، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا) ، قال : وينطق غلام من غلماننا إلى أزواجه من الحور العين ، فيقول : هذا فلان - باسمه في الدنيا - فيقلن : أنت رأيته ؟ فيقول : نعم ، فيستخفن الفرح حتى تخرج إلى أسكنة (١) الباب . قال : فيجىء فإذا هو ببارق مصفوفة ، وأكواب موضوعة ، وزوايا مبنية ، قال : ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه ، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ ، بين أحمر وأخضر وأصفر ، ومن كل لون ، ثم يرفع طرفه إلى سقفه ، فلو أن الله قدر له ، لأتم أن يذهب ببصره ، إنه مثل البرق ، ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين ، ثم يتكى على أركبة من أركانه ، ثم يقول : (الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) --- الآية .

ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي ، حدثنا مسلمة بن جعفر الجبلي قال : سمعت أبا معاذ البصري يقول : إن عليا - رضى الله عنه - كان ذات يوم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده ، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستبكبون - أو : يؤتون - بنوق لما أجنحة ، وعليها وحال الذهب ، شراك (٢) تعلم نور تلالأ ، كل خطوة منها مكد البصر ، فيتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عيان ، فيشربون من إحداها فيشرب ما في بطونهم من دس ، ويتساون من الأخرى فلا تشتت أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا ، ويجرى عليهم نضرة النعم ، فيتهون - أو : فيأتون - باب الجنة ، فإذا حلقة من باقوة حمراء على صفائح الذهب ، فيشربون بالحلقة على الصفيفة ، فيسمع (٣) لما طنين ياعلى ، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل ، فتبعث قيسمها فيفتح له ، فإذا رآه خسر له - قال مسلمة - أراه قال : ساجدا - فيقول : لرفع رأسك ، فإذا أنا قيسمك ، وكنت بآرك . فبينما ويقف أثره ، فتستخف الحوراء المعجلة ، فتخرج من خيام اللذ والياقوت حتى تمسكته ، ثم تقول : أنت حبى ، وأنا حبىك ، وأنا الخالدة التى لا أموت ، وأنا الناعة التى لا أبأس ، وأنا الراضية التى لا أسخط ، وأنا القيمة التى لا أظن . فيدخل بيتا من أسس إلى سقفه مائة ألف ذراع ، بناؤه على جندل اللؤلؤ ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر ، ليس فيها طريقة تشاكل صاحبها ، في البيت سبعون مريرا ، على كل سرير سبعون حشوية ، على كل حشوة سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى من تحت ساقها من باطن الحنك ، يقضى جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه ، الأنهار من تحتهم تظرد ، أنهار من

(١) الأسكنة : خشبة الباب التى يورعأ عليها .

(٢) النفر اللذ - بكسر الفين - : ممر للنبل .

(٣) في الخطوة : وهو تسبع ، والمائتين من الخطوات السابقة .

ماء غير آسن - قال : صاف ، لا كدّ فيه - وأنهار من لبن لم يتغير طعمه - قال : لم يخرج من شروق للآنية - وأنهار من خرقة للشاربين - قال : لم تصرها الرجال بأفهامهم - وأنهار من صلب معصي - قال : لم يخرج من بطون النمل • يستجنى الثمار ، فإن شاء فأثما ، وإن شاء فأعلا ، وإن شاء متكتا - ثم تلا : (ودانية عليهم ظلالا ، وزلت قطوفها تلذذلا) - فليشهى الطعام فيأتيه طير أبيض - قال : وربما قال : أنخضر - قال - فترفع أجنتها ، فيأكل من جنوبها ، أى الأكلان شاء ، ثم يطير فيذهب ، فيدخل الملك فيقول : سلام عليكم ، ولكم الجنة أوروتموها بما كنتم تعملون ، ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض ، لأضاءت الشمس معها سواها في نور •

هنا حديث غريب ، وكأنه مرسل ، والله أعلم •

وَرَبِّ الْمَلَائِكَةِ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُفِيَ بِهِمْ أَسْفَافُ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْوُجُوهِ

الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار ، وأنه نَزَلَ كُلُّهُ فِي الْمَلِئِ الَّذِي بَلِيقُ بِهِ وَيَصْلَحُ لَهُ ، وهو العادل في ذلك الذي لا يجرؤ - أخبر عن ملائكته أنهم يحذقون من حول عرشه المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ، ويمجدونه ويعظمونه ويقلّمونه ويتزّهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم العدل ؛ ولهذا قال : (وقفى بينهم) ، أى : بين الخلاق (بالحق) •

ثم قال : (وقيل : الحمد لله رب العالمين) ، أى : ونطق الكون أجمعه - ناطقه وبهيمه - لله رب العالمين ، بالحمد في حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، لئلا على أن جميع المخلوقات شَهِدَتْ لَهُ بِالْحَمْدِ .

قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد في قوله : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) ، وانتهى بالحمد في قوله : (وقفى بينهم بالحق) ، وقيل : الحمد لله رب العالمين •

آخر تفسير سورة الزمر والله الحمد

تفسير سورة غافر

وهي مكية

قد كثره بعض السلف ، منهم محمد بن سيرين أن يقال : « الحواميم » ، وإنما يقال : « آل حم » ، قال عبد الله بن مسعود : « آل حم » فيساج القرآن .

وقال ابن عباس : إن لكل شيء ثياباً ، وثياب القرآن « آل حم » - أو قال : الحواميم :

قال مسعر بن كدام : كان يقال لمن : « المرائس » :

وروى ذلك كله الإمام العسك أبو حنيفة القاسم بن سلام رحمه الله ، في كتاب « فضائل القرآن » :

وقال حميد بن زنجويه : حدثنا عبيد الله بن موسى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبيد الله قال : إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً ، فر بأثر فيث . فبينما هو يسير فيه ويتعجب ، إذ هبط على روضات دُمثات (١) فقال : عجبت من النيث الأول فهذا أعجب وأعجب ، فقيل له : إن مثل النيث الأول مثل عظم القرآن ، وإن مثل هؤلاء الروضات الدُمثات ، مثل آل حم في القرآن . أورده البهري .

وقال ابن شيبة ، عن يزيد بن أبي حبيب : أن الجراح بن أبي الجراح حدثه عن ابن عباس ، قال : لكل شيء ثياب ، وثياب القرآن الحواميم :

وقال ابن مسعود : إذا وقعت في « آل حم » فقد وقعت في روضات أثاث (٢) فيهن :

وقال أبو عبيد : حدثنا الأشجعي ، حدثنا مسعر - هو ابن كدام - عن حدثه : أن رجلاً رأى أبا الدرداء يبني مسجداً ، فقال له : ما هذا ؟ فقال : أبنيه من أجل « آل حم » .

وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء ، هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق . وقد يكون صيانتها وحفظها بركته وبركة ما وضع له ، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء ، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه في بعض الغزوات : « إن يتيتم الليلة فتولوا : « حم » لا ينصرون » . وفي رواية : « لا تنصرون (٣) » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن الحكم [بن ظبيان] بن خلف المازني ، وعبد بن الليث الحمداني قالا : حدثنا موسى بن مسعود ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي ، عن زرارة بن مصعب ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من قرأ آية الكرسي - وأول حم المزمّن ، حصّيم ذلك اليوم من كل سوء » :

(١) دُمثات جمع دُمّة - يفتح فكسر - وهي : الأرض السهلة الرخوة .

(٢) أي : أصعبهن ، وأشدّ قراطين ، وأتعب عمارتهن .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب : في الرجل يتأذى بالشمار . ومسنن الإمام أحمد من رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : ٢/٦٥ ، تحفة الأحوف ، أبواب الجهاد ، باب : « ما جاء في الشمار » ، الحديث ١٧٣٣ : ٢٢٩/٥

ثم قال : « لا تعلمه برؤى إلا بهذا الإسناد » : ورواه الترمذى من حديث المليكى ، وقال : « تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه (١) » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ لِلَّهِ الَّذِي كَتَبَ مِنْ آيَاتِهِ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿١﴾ غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ شَهِيدَ الْغَيْبِ ذِي الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ

أما الكلام على الحروف المقطعة ، فقد تقدم في أول سورة البقرة (٢) ، بما أفنى من إعادته هاهنا ، وقد قيل : إن (حم) اسم من أسماء الله عز وجل ، وأنشدوا في ذلك (٣) :

بُذِرْتُ حَكِيمٌ وَالرَّحْمَةُ شَاجِرٌ فَهَذَا تِلْكَ حَكِيمٌ قَبْلَ التَّكْوِينِ

وقد ورد في الحديث الذى رواه أبو ذنود والترمذى ، من حديث الثورى ، من أبى إسحاق ، من المهلب بن أبى صفرة قال : حدثنى من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن بيَّمت اليلة فقولوا : حم لا ينصرون » : وهذا إسناد صحيح (٤) :

واختار أبو حيد أن يروى : « قولوا : حم ، لا ينصروا » ، أى : إن قلتم ذلك لا ينصروا . جعله جزء لقوله [قولوا] .

وقوله : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) ، أى : تنزيل هذا الكتاب — وهو القرآن — من الله ذى العزة والعلم ، فلا يرام جنبه ، ولا يخفى عليه السر وإن تكاثف حجباه .

وقوله : (غافر الذنب وقابل التوب) ، أى : يغفر ماسلف من الذنب ، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخصم لنبه .

وقوله : (شديد العقاب) ، أى : لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ، وعنا عن أوامر الله ، وبغى . وهذه كقوله : تعالى : (نبى) حادى أنى أنا للظهور الرحيم . وأن حادى هو العذاب الأليم (٥) ، بقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متصلة من القرآن ، ليبقى للبد بين الرجاء والنوف .

وقوله : (ذى الطول) — قال ابن عباس : بينى السمة والنبى . وكلما قال بجاهد ، وقناة .

وقال يزيد بن الأصم : (ذى الطول) : بينى الخبير الكبير .

(١) تحفة الأحمدى ، أبواب فضائل القرآن ، الحديث ٣٠٣٩ : ١٨٢/٨ — ١٨٣ .

(٢) انظر : ٦٠-٥٩/١ .

(٣) البيت في تفسير الطبرى : ٢٦/٢٤ منسوخاً إلى شرح ابن أرق المسمى ، بكتاب لسب قريش : ٢٨١ ، والاسطوخودوس لابن حيد البر : ١٣٧٢/٣ ، وأسد الغابة ، في ترجمة عماد بن طلحة قفري : ٩٨/٥ ، بصحيفة قفري ، والسان ، مادة : حم .

(٤) تقدم تخريج الحديث في الصفحة السابقة .

(٥) سورة الحجر ، آية : ٤٩ ، ٥٠ .

وقال حكيمه : (ذى الطول) : ذى المن .

وقال كاتده : ذى التم والقواضل .

والمنى : أنه المفضل على عباده ، المفضل عليهم بما هم فيه من المن والأمان ، التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ، (وإن تعلموا نعمة الله لا تحصىها (١)) ... الآية .

وقوله : (لا إله إلا هو) ، أى : لا نظير له فى جميع صفاته ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه (إليه المصير) ، أى : إليه المرجع والمآب ، فيجازى كل عامل بعمله ، (وهو سريع الحساب (٢)) .

وقال أبو بكر بن عياش : سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى تفتك ؟ فهل من توبة ؟ قهرأ عليه : (حم) . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) ، وقال : اعمل ولا تيأس .

رواه ابن أبي حاتم - واللفظ له - وابن جرير (٣) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن مروان الرقي ، حدثنا عمر - يعنى ابن أبوب - أخبرنا : جعفر ابن برقان ، عن يزيد بن الأعم قال : كان رجل من أهل الشام ذو يأس ، وكان يند إلى عمر بن الخطاب ، ففقدته عمر فقال : ما فعل فلان بن فلان ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، يتابع فى هذا الشراب . قال : فدعا عمر كاتبه ، فقال : اكتب : « من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان ، سلام عليك ، فإني أحمده إليك الله الذى لا إله إلا هو ، غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير » . ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكيم أن يعفيل بقلبه ، وأن يتوب ! الله ! عليه : فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يفرقه ويردده ، ويقول : غافر الذنب ، وقابل التوب (شديد العقاب ، قد حلوتى حقوقيه ، ووعدتى أن يفرى لى .

ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان ، وزاد : « فلم يزل يرددّها على نفسه ، ثم بكى ، ثم نزع فأحسن النزع (٤) » . فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أحداكم زلّ زلّة فسددوه ووقفوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أحوالاً للشيطان عليه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمر بن شبّه ، حدثنا حماد بن واقد أبو عسّر الصغائر - ، حدثنا ثابت البناني ، قال : كنت مع مصعب بن الزبير فى سواد الكوفة ، فدخلت حائلاً أصلى ركعتين ، فاستح : « حم » للمؤمن ، حتى بلغت : « لا إله إلا هو إليه المصير » فإذا رجل خلفى على بئلة شهباء عليه مَقَطَّاتٌ مِنيّة ، فقال : إذا قلت : « غافر الذنب » قلت : « يا غافر الذنب ، اغفر لى ذنبي » . وإذا قلت : « قابل التوب » ، قلت : « يا قابل التوب ، اقبل توبى » . وإذا قلت : « شديد العقاب » ، قلت : « يا شديد العقاب ، لا تعافى » : قال : فالتفت فلم أر أحداً ، فخرجت إلى الباب فقلت : مرّ بكم رجل عليه مقطعات مِنيّة ؟ قالوا : ما رأينا أحداً . فكانوا يرون أنه إلياس .

ثم رواه من طريق أخرى : عن ثابت ، ينحوه . وليس فيه ذكر إلياس .

(١) سورة إبراهيم ، آية : ٣٤ .

(٢) سورة الرعد ، آية : ٤١ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٧/٢٤ .

(٤) هذا أسلوب تمثيل ، ففيه تصوير من دمج إلى التهمة ، بأعلى منها ، بين نزع اللوم من اليأس - أى : مجازياً - حينئذ .

مَا يَجِدُ فِي ذَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَرْجِعُ تَقْلِبُهُمْ فِي الْإِيمَانِ ① كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْرَابُ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ ② وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجْعَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُحْضَرُوا بِهِ آخِزًا ③ فَأَخْلَقْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ④ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِرَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ⑤

يقول تعالى : ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان ويظهر البرهان (إلا الذين كفروا) ، أى : الجاحلون لأيات الله وحججه وبراهينه ، (فلا يفرح قلبهم في البلاد) ، أى : في أموالهم ونعيمها وزهرتها ، كما قال : (لا يفرح قلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (١) ، وقال تعالى : (نعتهم قليلا ، ثم تصطرحهم إلى عذاب عظيم) (٢) .

ثم قال تعالى مسلماً لنتيحه محمد - صلى الله عليه وسلم - في تكذيبه من قومه ، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء : فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم ، وما آمن بهم منهم إلا قليل ، فقال : (كذبت قبلهم قوم نوح) ، وهو أول رسول بعثه الله بنهى عن عبادة الأوثان ، (والأحزاب من يهدم) ، أى : من كل أمة ، (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) ، أى : حرصوا على قتله بكل ممكن ، ومنهم من قتل رسوله ، (وجادلوا بالباطل لِيُحْضَرُوا بِهِ آخِزًا) ، أى : مَحْكُومًا (٣) بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي .

وقد قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا حارم أبو النعمان ، حدثنا معتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يحدث عن حنظل (٤) ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أعان باطلا ليحضر بها طرفة عين ، فقد برئت منه ذمة الله ، وذمة رسوله » .

وقوله : (فأخْلَقْنَاهُمْ) ، أى : أهلكناهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ، (فكيف كان عِقَابِ) ، أى : فكيف بلغك عذابهم ، وتكال بهم ؟ قد كان شليلاً موجباً مؤثراً .
قال قتادة : كان والله شليلاً .

وقوله : (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) ، أى : كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة ، كذلك حقت على المكلفين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك باعتماد بطريق الأولى والأخرى ، لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق خبرك .

(١) سورة آل عمران : آية ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٢) سورة لقمان : آية : ٢٤ .

(٣) أى : دانوا وحلوا ، من الخيال ، وهو : الكيد . وقيل : المكر .

(٤) حدثنا هذا هو : الحسين بن قيس الرضي ، أبو حل الراسبي ، لقبه : حنظل . يروى عن عكرمة وعطاء بن أحر ، وعنه سليمان التيمي وغيره . قال التيمي : ليس بثقة . انظر الخلاصة .

الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَ سُبْحَانَ مُحَمَّدٍ وَبِهِ اسْتَعْفَرُونَ الَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا
وَصَبَّحْ كُلُّ نَفْسٍ وَحْمَةً وَطَبَقًا فَأَعْرِضْ لِلَّذِينَ آمَنُوا ۖ وَاتَّبِعُوا أَسْبَابَكُمْ وَفَيْسُمْ هَذَابُ الْحَجْمِ ۖ رَبَّنَا
وَأَذِلَّهُمْ جَنَّتْ عَلَيْنَا أَلَيْ وَغَدَنَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ۝ وَفِيهِ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ فِي السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝

يُخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حَمَلَةِ العرش الأربعة ، ومن حوله من الكرويين (١) : بأنهم يسبحون محمد وجميعهم ،
أي : يقرئون بين الصبيح الدال على نفي القائل ، والتحميد لقتضى الإتيان صفات المدح ، (ويؤمنون به) ، أي :
خاشعون له أذلاء بن يديه ، وأنهم (يستغفرون للذين آمنوا) ، أي : من أهل الأرض من آمن بالغيب ، فقيض الله سبحانه
لملائكة المقربين أن يَدْعُوا المؤمنين بظهر الغيب [ولا كان هذا من سجايا الملائكة - عليهم الصلاة والسلام - كانوا
يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب] ، كما ثبت في صحيح مسلم : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك :
أعني ، ولك عتله (٢) » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبة - ، حدثنا حبة بن سليمان ، عن محمد بن
إسحاق ، عن يعقوب بن حبة (٣) ، عن حكرمة عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق أمية في شيء من
شعره ، فقال :

لِرَجُلٍ ۖ وَكَوَتْ وَحَصَتْ رِجْلُ يَمِينِهِ وَكَتَمَتْ لِلْأُخْرَى ، وَلَبِثْتُ مُرْصَدًا (٤)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صدق » . فقال (٥) :

وَالنَّسَمُ تَطْلُعُ كُلَّ أَخْبَرٍ لَيْلَةً حَمْرَاهُ يُصْبِحُ قَوْلُهُا [يَتَوَرَّدُ] (٦)

تَأْتِي فَمَا تَطْلُعُ لَنَا فِي رِسْلِهَا إِلَّا مُعْدَبَةً وَلَا تُجْلِكُ (٧)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق (٨) » .

(١) الكرويون : سادة الملائكة المقربين .

(٢) مسلم ، كتاب الذكر ، باب : فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب : ٨٦/٨ .

(٣) في المسند : « حبة » . و« صواب ما هنا » انظر التهذيب : ٣٩٢/١١ .

(٤) البيت في الإصابة : ١٣٤/١ ، وخزانة الأدب : ١٢١/١ . وينقل البغدادي عن محمد بن حبيب في شرحه لديوان
أمية : « يقال : إن حلة العرش ثمانية دجل ، وثور ، ونسر ، وأسد ... » ثم يقول ابن حبيب : « وبلدي لكل ملك
منهم أربعة وجوه : وجه دجل ، وجه ثور ، وجه أسد ، وجه نسر » .

(٥) في المسند : « وقال » .

(٦) في الخطوبة : « يتردد » . والمثبت من المسند .

(٧) هذا البيت في الشعر والشعراء : ٢٦٠/١ ، وروايته فيه .

ليست بالمألوفة ثم في سلبها إلا محزنة وإلا تجمله

(٨) مسند الإمام أمية : ٢٥٦/١ .

وهذا إسناد جيد : وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية ، كما قال تعالى :
(ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية (١)) :
وهنا سؤال ، وهو أن يقال : ما الجمع بين القهوم من هذه الآية ، ودلالة هذا الحديث ؟ وبين الحديث الذى رواه
أبو داود :

حدثنا محمد بن الصباح البزاز ، حدثنا الوليد بن أبي ثور ، عن مياك ، عن عبد الله بن صميرة ، عن الأحنف
ابن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، قال : كنت بالطحاه في عصابة فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فمرت بهم صباة ، فنظر إليها فقال : « ما تسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب . قال : « واللذين ؟ » قالوا : واللذين
قال : « والمثان ؟ » قالوا : والمثان - قال أبو داود : ولم أقرن الثمان جيدا - قال : « هل تدرون بعد ما بين السماء
والأرض ؟ » قالوا : لا ندرى : قال : « يعلمها بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء
فوقها كذلك ، حتى عدت سبع سموات : ثم فوق السماء السابعة بحر (٢) ، بين أسفلها وأعلىها مثل بين مياه إلى مياه ،
ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أطلالهن ورشكين مثل ما بين مياه إلى مياه ، ثم على ظهورهن العرش بين أسفلها
وأعلىها مثل ما بين مياه إلى مياه ، ثم الله - عز وجل - فوق ذلك (٣) » : ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، من
حديث مياك بن حرب ، به : وقال الترمذى : « حسن غريب (٤) » :

وهذا يقتضى أن حملة العرش ثمانية ، كما قال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية ، أربعة يقولون : « سبحانهك
الله وبمملك ، لك الحمد على حملك بعد حملك . » وأربعة يقولون : « سبحانهك اللهم وبمملك ، لك الحمد على حملك
بعد حملك » :

وهذا يقولون [إذا استغفروا للذين آمنوا : ربنا ، وسعت كل شيء رحمة وعلما] ، أى : إن رحمتك تسع ذنوبهم
وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وحركاتهم ومساكنهم ، فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) ، أى : فاصفح
عن المسيئين إذا تابوا وأتبعوا وأقفلوا عما كانوا فيه ، واتبعوا ما أمرهم به ، من قبل التغيرات وترك المنكرات ، (وقهم
عذاب الجحيم) ، أى : وزجرهم عن عذاب الجحيم ، وهو العذاب المروع الأليم . (ربنا ، وأدخلهم جنات عدن إلى
وعدهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) ، أى : اجمع بينهم وبينهم ، لتقر بملك أعينهم بالاجتماع في منازل
متجاورة ، كما قال : (والذين آمنوا وأتبعناهم وذرياتهم (٥) بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم (٥) وما أنشأنا من عملهم من
شيء (٦)) ، أى : ساوينا بين الكل في الملة ، لتقر أعينهم ، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدنى ، بل رفعا الناقص
في العمل ، [فسأواته بكتب العمل] ، ففضلا [منا] ومنة :

(١) سورة الحاقة : آية ١٧ .

(٢) في المخطوطة : « بحراء » أسفل . والحديث من مسند أبي داود .

(٣) سنن أبي داود : كتاب السنة : باب « في الجمجمة » .

(٤) نسخة الأوصاف : تفسير سورة الحاقة ، الحديث ٣٣٧٦ : ٢٣٣/٩ - ٢٣٦ .

(٥) كذا في مخطوطة الأزهري ، وهي قراءة ثابتة عن أبي عمرو . انظر البحر المحيط لأبي حيان : ١٤٩/٨ .

(٦) سورة الطور : آية ٢١ .

قال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه ، وأين هم ؟ فقال : إنهم لم يبلغوا طبقتكم في العمل ، فيقول : إنني إذا عملت لي ولم ؟ فيكفحون به في الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : (ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) .

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين للملائكة ، ثم تلا هذه الآية : (ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم) ، وأنشئ عباد الله للمؤمنين الشياطين .

وقوله : (إنك أنت العزيز الحكيم) ، أي : الذي لا يمانع ولا يقالب ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الحكيم في أحواله وأفعاله ، من شرهه وقدره .

(وفيهم السينات) ، أي : ضلها أو ضلها من وقت منه ، (ومن تق السينات يومئذ) ، أي : يوم القيامة ، (فقد رحمتهم) ، أي : لطفت به وتبته من العقوبة ، (وذلك هو الفوز العظيم) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لَمَقْتِ أَفْأَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكَ أَنْفُسَكَ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَمَتَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَأَعْرِضْنَا بِذُنُوبِنَا قُلْ إِنْ نَعْرِجْ مِنْ سَبِيلِ ﴿١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَئِنْ يَشْرَكَ مِنْهُ قَوْمٌ تَبُوءُوا قُلْ لَكُمُ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْكَبِيرُ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرْسِدُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَرْسُلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَسْتَدْرِكُ إِلَّا مَنْ يَنْبَغِ ﴿١٣﴾ فَأَدْعُوا اللَّهَ حُجْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى خبرا عن الكفار : أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران ينظرون ، وذلك عندما باشروا من حذاب الله مالا قيل لأحد به ، فقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غابة بغض ، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة ، التي كانت سبب دخولهم إلى النار : فأخبرهم الملائكة عند ذلك إخبارا حاليا ، نادوهم نداه [بأن] مقت الله لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم [الإيمان] فيكفرون - لشد من مقتكم أنها للطيبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة .

قال قتادة في قوله : (لقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) ، يقول : لقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا ، فركوه وأبوا أن يقبلوه - أكبر مما مقتوا أنفسهم حين باينوا حذاب الله يوم القيامة (١) .

وهكذا قال الحسن البصري ، ومجاهد ، والسدي ، وذُرَّ بن عبد (٢) الله الهذلي ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وابن جرير الطبري ، ومحمد الله .

وقوله : (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَمَتَيْنَا اثْنَتَيْنِ) قال الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن ابن مسعود : هذه الآية كقوله تعالى : (كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم إليه

(١) تفسير الطبري : ٢٤ / ٣١ .

(٢) في المخطوطة : وحيد الله . والصواب من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤٣٤ / ١ .

رجعون (١) : - وكذا قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقطادة ، وأبو مالك ، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية .

وقال السدي : أنبتوا في الدنيا ثم أنبتوا في قبورهم لمخروطوا ، ثم أنبتوا ثم أنبتوا يوم القيامة .

وقال ابن زيد : أنبتوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلح آدم ، ثم خلقهم في الأرحام ثم أنبتهم يوم القيامة .

وهذان القولان - من السدي ، وابن زيد - ضميان ، لأنه يلزمهما على ما قال ثلاث إحياءات وإبانات : والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما ، والمقصود من هذا كله : أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله - عز وجل - في هرصات القيامة ، كما قال : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم : ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا لعمل صالحا ، إنا موقنون (٢)) ، فلا يجابون ، ثم إذا رأوا النار وعابنوها ووقفوا عليها ، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والشكال ، سألو الرجعة أشد مما سألو أول مرة ، فلا يجابون ، قال الله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدلناهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (٣)) - فإذا دخلوا النار ذاقوا مسها وحسبها ومقامها وأغلظها ، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ، (وهم يصطخون فيها : ربنا ، أخرجنا تعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، أو لم نُعمركم ما يبتكر فيه من تدبر وجاءكم التنبيه ؟ فلو قروا لما للظالمين من نصير (٤)) ، (ربنا ، أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال : انصأوا فيها ولا تكلمون (٥)) - وفي هذه الآية الكريمة تعلقوا في السؤال ، وقدّموا بين يدي كلامهم مقدمة ، وهي قولهم : (ربنا ، أمتنا اتنين وأحييتنا اثنتين) ، أي : قد نزلت عظيمة ، فإليك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا ، ثم أمتنا ثم أحييتنا ، فأنت قادر على طئشة ، وقد اعترفنا ببلوغنا ، وإنا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ، (فويل لي من سبيل) ، أي : فويل أنت جيبنا [إلى أن نعيدنا] إلى الدار الدنيا ؟ فإنك قادر على ذلك ، لتعمل غير الذي كنا نعمل ، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون ، فأجيبوا أن لا سبيل لي هودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا ، ثم حلل المنع من ذلك بأن سببناكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تجحده وتضيه ، ولهذا قال تعالى : (ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا) ، أي : أنتم هكذا تكفرون ، وإن ردتم إلى الدنيا ، كما قال تعالى : (ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون (٦)) .

وقوله : (فالحكم لله العمل الكبير) ، أي : هو الحكم في خلقه ، المادل للذي لا يخور ، فيهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، لا إله إلا هو :

وقوله : (هو الذي يريك آياته) ، أي : يظهر قدرته خلقه بما يشاهدونه في خلقه المكنون والسفلي من الآيات العظيمة للدلالة على كمال خالقها ومبدعها ومشيئها ، (ويتزل لكم من السماء رزقا) ، وهو لطرر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس ، من اختلاف ألوانه وطعمه ، وروائح وأشكاله وألوانه ، وهو ماء واحد ، فياخذ القدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ، (وما يتذكر) ، أي : يتنبر ويضكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها (إلا من ينبي) ، أي : (من) هو بصير منيبي إلى الله عز وجل .

(١) لتفسير الطبري : ٣١/٢٤ .

(٢) سورة السجدة : آية ١٧ .

(٣) سورة الأنعام : آية ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) سورة قاطر : آية ٣٧ .

(٥) سورة المؤمنون : آية ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٦) سورة الأنعام : آية ٢٨ .

وقوله : (فادعوا الله غلصين له الدين ، ولو كره الكافرون) ، أى : فاخلصوا لله وحده العبادة والدعاء ، وخالقوا للمشركين في مسلكهم وملكهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا هشام - يعنى بن عروة بن الزبير - عن أبي الزبير محمد بن مسلم ابن مدرس المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا تعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، غلصين له الدين ولو كره الكافرون » . قال : وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يهكّل (١) بين دُبر كل صلاة (٢) .

ورواه مسلم وأبو داود والشافعي ، من طرق ، عن هشام بن عروة ، وحجاج بن أبي عثمان ، وموسى بن عقبة ، للأنس بن مالك ، عن أبي الزبير ، عن عبد الله بن الزبير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دبر الصلاة (٣) : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ... وذكر تمامه .

وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عقب الصلوات المكوبات : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله غلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الربيع (٤) ، حدثنا الخصب بن ناصح ، حدثنا صالح - يعنى المزي - عن هشام بن حسان ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » .

وَقَبِضَ الْمُرْسَلِينَ فُتِيَ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهُمْ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿٥٠﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَئِنْ أَمْلَكْتُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْفَخْرُ ﴿٥١﴾ الْيَوْمَ يُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى عن عظمت وكبريائه ، وارتفاع عرشه العظيم العلى على جميع مخلوقاته كالتصديق لها ، كما قال تعالى : (من الله نرى المارج . ترج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٥٠)) ، وسياق بيان أن هذه مسافة

(١) في المخطوطة : « جل » . والقيمت من المصنف ، ومسلم ، والشافعي .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٤٤ .

(٣) مسلم ، كتاب المساجد ، باب : استحباب الذكر بعد الصلاة وبين صفته : ٩٦/٢ . وسنن أبي داود : أبواب الوتر باب : ما يقول الرجل إذا سلم . والشافعي ، كتاب النجوى ، باب التهليل بعد التسليم : ٦٩/٣ - ٧٠ .

(٤) في المخطوطة : « حدثنا الربيع بن الخصب » ، حدثنا ناصح ، وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه . والربيع هو ابن ساجان المراءى . انظر الجرح والتعديل : ٣٩٧/٢/١ - ٤٦٤/٢/١ .

(٥) سورة المارج ، آية ٤ - ٣ .

ما بين العرش إلى الأرض السابعة ، في قوف جماعة من السلف والخلف ، وهو الأرجح إن شاء الله ، وقد ذكر خبر واحد : أن العرش من ياقوتة حمراء ، اتساع ما بين قطبيه مسيرة خمسين ألف سنة : وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة . وقد تقدم في حديث (الأحوال^(١)) ما يدل على ارتفاعه عن السموات السبع بشيء عظيم .

وقوله : (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) ، كقوله تعالى : (يترك الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده : أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاقضون^(٢)) . وكقوله : (وإنه لتتربل رب العالمين . نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين^(٣)) . ولهذا قال : (لينزل يوم التلاق) — قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يوم التلاق : اسم من أسماء يوم القيامة ، حذر منه عباده^(٤) .

وقال ابن جرير : قال ابن عباس : يلقى فيه آدم وآخر ولده

وقال ابن زيد : يلقى فيه العباد .

وقال قتادة ، والسدي ، ويلاق بن سعد ، وسفيان بن عيينة : يلقى فيه أهل السماء وأهل الأرض ،

وقال قتادة أيضا : يلقى فيه أهل السماء وأهل الأرض ، والخالق والخلق ،

وقال ميمون بن مهران : يلقى الظالم والمظلوم .

وقد يقال : إن يوم القيامة هو يشمل هذا كله ، ويشمل أن كل حامل سيقى ما عمل من خير وشر : كما قاله آخرون .

وقوله : (يوم هم يارزون) ، أى : ظاهرون بآدون كلهم ، لا شيء يكتهم ولا يظلمهم ولا يسرهم . ولهذا قال : (يوم هم يارزون لا يخفى على الله منهم شيء) ، أى : الجميع في علمه على السواء .

وقوله : (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) قد تقدم في [حديث] ابن عمر : أنه تعالى يطوى السموات والأرض بيده ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون^(٥) ؟ .

وفي حديث الصور : أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه ، فلم يبق سواه ، وحده لا شريك له ، حيث يقول : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه قائلا : (لله الواحد القهار) ، أى : الذى هو وحده قد قهر كل شيء^(٦) .

[وقد قال] ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن غالب الدقاق ، حدثنا عبيد بن عبيدة ، حدثنا مضر ، عن أبيه ، حدثنا أبو نضرة ، عن ابن عباس قال : ينادى مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس ، أتتكم الساعة . فيسمعون الأحياء والأموات ، قال : ويتروك الله إلى مياه الدنيا ويقول : (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) .

(١) انظر : ١٢١/٧ .

(٢) سورة النحل ، آية : ٢ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات : ١٩٢ - ١٩٤ .

(٤) تفسير الطبري : ٣٣/٢٤ .

(٥) انظر : ١٠٥/٧ .

(٦) تقدم حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية الثالثة والسبعين من سورة الأأنام ، وخرجناه هناك ، انظر : ٢٢٨/٧ .

وقوله : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب) ؟ خير تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه ، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها ، وبالسبئية واحدة ، ولهذا قال : (لا ظلم اليوم) : كما ثبت في صحيح مسلم ، عن أبي ذر ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يحكى عن ربه عز وجل أنه قال : يا عبأى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال - : يا عبأى ، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم [ثم أوفيتكم إياها] ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه (١) وقوله : (إن الله سريع الحساب) ، أى : بحاسب الخلاق كلهم ، كما يحاسب نفساً واحدة ، كما قال : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) (٢) وقال : (وما أمرنا إلا واحدة فكلح بالبصر) (٣) .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿١٥٨﴾ يَعْلَمُ حَافِيَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٥٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي الْخَبْرَ وَاللَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّا اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٦٠﴾

يوم الآفة هو : اسم من أسماء يوم القيامة ، سميت بذلك لاقترابها ، كما قال تعالى : (أزلفت الآفة - ليس لها من دون الله كاشفة) (١) ، وقال : (اقربت الساعة وانشق القمر) (٢) ، وقال : (اقرب للناس حسابهم) (٣) ، وقال : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) (٤) ، وقال : (فلما رآوه زلقة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل لهذا الذى كنتم به تلهجون) (٥) .
وقوله : (إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) - قال قتادة : وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها . وكذا قال عكرمة ، والسدى ، وغير واحد .

ومعنى (كاظمين) ، أى : ساكتين ، لا يتكلم أحد إلا بإذنه . (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) (٦)

وقال ابن جرير : (كاظمين) ، أى : باكين ؟

وقوله : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) ، أى : ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم يشفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل لقد قطعت بهم الأسباب من كل خير .

(١) مسلم ، كتاب البر ، باب : تحريم الظلم : ١٧/٨ . وانظر فيها تقدم تفسير الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء ١٨٧/٦٠ .
قد خرجناه هناك بأوسع من هذا .

(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٨ .

(٣) سورة القمر ، آية : ٥٠ .

(٤) سورة النجم ، آية : ٥٧ - ٥٨ .

(٥) سورة القمر ، آية : ١ .

(٦) سورة الأنبياء ، آية : ١ .

(٧) سورة النحل ، آية : ١ .

(٨) سورة الملك ، آية : ٢٧ .

(٩) سورة قنأ ، آية : ٢٨ .

وقوله : (يعلم خاتمة الأعرج وما تحتى الصدور) غير تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الاشياء ، جليلها وحقرها ، صغبرها وكبرها ، دقيقها ولطيفها ، ليطلع الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويرأوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، فإنه تعالى يعلم العين الخاتمة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه عجايب الصدور من المتضائل والسرائر . قال ابن عباس في قوله : (يعلم خاتمة الأعرج وما تحتى الصدور) : وهو الرجل يدخل على أهل البيت فيصم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا غفلوا غصّ ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا غفلوا غصّ . وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ لو اطلع على فرجها : رواه ابن أبي حاتم .

وقال الضحاك : (خاتمة الأعرج) : هو الفرج ، وقول الرجل : رأيت ، ولم يره أو لم أر ، وقد رأى .

وقال ابن عباس : يعلم تعالى من العين في نظرها ، حل تريد الحياة أم لا ؟ وكلما قال بجاهد ، وقناعة .

وقال ابن عباس في قوله : (وما تحتى الصدور) ، يعلم إذا أنت قدرت عليها حل ترى بها أم لا ؟

وقال السدي : (وما تحتى الصدور) ، أى : من الوسوسة .

وقوله : (والله يقضى بالحق) ، أى : يحكم بالعدل .

وقال الأشعث : عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : (والله يقضى بالحق) : قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة (إن الله هو السميع البصير)

وهذا الذى فسر به ابن عباس في هذه الآية كقوله تعالى : (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى (١) .

وقوله (والذين يلدعون من دونه) ، أى : من الأصنام والأوثان والأنداد ، (لا يقضون بشيء) ، أى : لا يمكنون شيئا ولا يحكمون بشيء ، (إن الله هو السميع البصير) ، أى : سميع لأقوال خلقه ، بصير بهم ، فيهلك من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدُّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَكَّرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٣٧﴾

يقول تعالى : أولم يسيروا في الأرض ، فيظنوا كيف كان عاقبة الذين كانوا ، (في الأرض ، فيظنوا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) ، أى : من الأمم الملكية بالأنبياء ، ما حل بهم من المصائب والنكال ، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ، (وآثارا في الأرض) ، أى : أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات ، مالا يقدر عليه هؤلاء ، كما قال : (ولقد

مكتاهم لما إن كنا مكناكم فيه) (١) ، وقال: (وأثروا الأرض وعروها أكثر مما عروها (٢)) ، أى : ومع هذه القوة العظيمة والباس الشديد ، أغلظ الله بلوتهم ، وهى كفرهم بربهم ، (وما كان لهم من الله من واق) ، أى : وما دفع عنهم عذاب الله أحد ، ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق :

ثم ذكر حلة أخذه إياهم وفنوتهم الى ارتكبوها واجرموها ، فقال : (ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) (أى : بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ، (فكفروا) ، أى : مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ، (فأغلظهم الله) ، أى : أهلكتهم ودمر عليهم ولكافرين أمثلها ، (إنه قوى شديد العقاب) ، أى : ذو قوة عظيمة وبطش شديد ، (وهو شديد العقاب) ، أى : عقابه أليم شديد وجيع . أمادنا الله منه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَمَنَ وَكَذَرُوا فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۝ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا مِنْ حِينِهِمْ قَالُوا أَأَعْمَلُوا الْبِنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رِبِّهِ إِنَِّّي أَظَاهِرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُثِدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ۝

يقول تعالى مسلما لنبيه - صلى الله عليه وسلم - في تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشراً له بأن العقوبة والنصرة له في الدنيا والآخرة ، كما جرى لموسى بن عمران ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات : ولهذا قال : (بآياتنا وسلطان مبين) - والسلطان هو : الحجبة والبرهان - (إلى فرعون) ، هو : ملك القبط بالبحار المصرية ، (وهامان) ، وهو : وزيره في مملكته ، (وقارون) ، وكان أكثر الناس في زمانه مالا وتجارة (فقالوا : ساحر كذاب) ، أى : كذبوه وجعلوه ساحراً مستغفراً عما هو كذاباً في أن الله أرسله . وهذه كقولهم : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون) أنوارها ٩ : بل هم قوم طاغون (٤) .

(فلما جاءهم بالحق من عندنا) ، أى : بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ، (قالوا : ائتوا أبناء الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم) . ولهذا أمر أن من فرعون يقتل ذكور بني إسرائيل . أما الأول : فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى ، أو لإزالة هذا الشعب وتخليب عددهم ، أو لمجموع الأمرين . وأما الأمر الثاني : فلعلامة الثانية ، لإهانة هذا الشعب ، ولكي يتشاموا بموسى عليه السلام . ولهذا قالوا : (أؤفينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم في الأرض فيظن كيف تعملون (٥) :

(١) سورة الأحقاف : آية ٢٦ .

(٢) سورة الأروم : آية ٩ .

(٣) المسخرون : المموء .

(٤) سورة اللاريات : آية ٥٢ ، ٥٣ .

(٥) سورة الأعراف : آية ١٢٩ .

قال قتادة : هذا أمر بعد أمر .

قال الله تعالى : (وما يكذب الكافرين إلا في ضلال) ، أي : وما مكروهم وتصلبهم الذي هو قليل عند بني إسرائيل لئلا يتصبروا عليهم ، إلا ذاهب وهالك في ضلال .

(وقال فرعون : ذروني أقتل موسى وليدع ربه) : وهذا عزيم من فرعون - لئله الله - هل يقتل موسى - عليه السلام -
أي : قال لقومه : دعوني حتى أقتل لكم هذا ، (وليدع ربه) ، أي : لا أبالي منه . وهذا في غاية الجحد والتجهم والعناد .

وقوله - قبحه الله - : (إني أخاف أن يدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) ، يعني : موسى ، يعني فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم . وهذا كما يقال في الليل : صار فرعون مذكرًا ، يعني : واعطاء يشفق على الناس من موسى عليه السلام .

وقرأ الآخرون : (أن يدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد) وقرأ آخرون : (أو أن يظهر في الأرض الفساد) وقرأ بعضهم : (يظهر في الأرض الفساد) ، بالضم (١)

وقال موسى : (إني علمت بربي وربكم ، من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) ، أي : لما بلغه قول فرعون : (ذروني أقتل موسى) ، قال موسى : استجرت بالله وعلدت به من شره وشر أمثاله : ولهذا قال : (إني علمت بربي وربكم) ، أيها المخاطبون : (من كل متكبر) ، أي : من الحق ، جرم ، (لا يؤمن بيوم الحساب) . ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا خاف قوما قال : « اللهم ، إنا نعوذ بك من شرورهم ، ونندأ بك في محورهم » (٢) .

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَلِمَتُهُ فَعَلَيْهِ كَذِبٌ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٣٨﴾ يَتَقَوْمَ كُكْرَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ لَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أُرِي وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٩﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطيًا من آل فرعون

قال السدي : كان ابن عم فرعون ، ويقال : إنه الذي نجا مع موسى (٣) . واختاره ابن جرير ، وزد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً ، لأن فرعون اتفعل لكلامه واستتمه ، وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يجلس بالحقبة ، لأنه منهم :

(١) انظر تفسير الطبري : ٣٧/٢٤ .

(٢) سنن أبي داود أبواب الوتر ، باب : ما يقول إذا خاف قوما . وصحته الإمام أحمد ، ٤١١/٤ ، ٤١٥ . ولفظه : اللهم إني أجدك في محورهم ، ونعوذ بك من شرورهم .

(٣) تفسير الطبري : ٣٨/٢٤ .

وقال ابن جرير ، عن ابن عباس : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون ، والذي قال : (ياموسى إن الملأ يأتونك بك ليقطوك) رواه ابن أبي حاتم
وقد كان هذا الرجل يكرم إيمانه من قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : (خذوني أقتل موسى) ، فأعلنت الرجل غضبه لله عز وجل ، وهأنفصل الجهاد كلمة عندك عند سلطان جائر (١) : كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون ، وهي قوله : (أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) ، اللهم إلا مارواه البخارى فى صحيحه حيث قال :

حدثنا حل بن عبد الله ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأزاهى ، حدثني يحيى بن أبي كثير ، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي ، حدثني عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني بأشد شيء مما (٢) صته المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلى بفناء الكعبة - إذ أقبل حقة بن أبي مسيط ، فأخذ بمسكيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر - رضى الله عنه - فأشعل بمسكيبه ودفع عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : (أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) (٣) .

انفرد به البخارى من حديث الأزاهى : قال : وتابعه محمد بن إسحاق ، عن أبيه : (٤) بن عروة ، عن أبيه ، به . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا هارون بن إسحاق الحميداني ، حدثنا عبيدة ، من هشام - يعني ابن عروة - عن أبيه ، عن عمرو ابن العاص أنه سئل : ما أشد ما رأيت قريشاً يفلوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : مر بهم ذات يوم فقالوا له : أنت تنهانا أن نمجد ما عبد آباؤنا ؟ فقال : أنا ذلك - فقاموا إليه ، فأشعلوا بمسكيب أبيه ، فأرأيت أبا بكر يحضنه من ورائه ، وهو يصيح بأعلى صوته ، وإن عيينه ليسيلان ، وهو يقول : يا قوم ، (أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم) ؟ حتى فرغ من الآية كلها :

وهكذا رواه النسائي من حديث عبيدة ، فجعله من مسند عمرو بن العاص ، رضى الله عنه

وقوله : (وقد جاءكم بالبينات من ربكم) ، أى : كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول : (ربي الله) ، وقد أقام لكم الرهان على صدق ما جاءكم به من الحق ؟ ثم تنزله معهم فى المخاطبة فقال : (وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصيبكم

(١) سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب : الأمر والنهى . . وثقة الأحوذى ، أبواب الفتن ، باب : وأفضل الجهاد كلمة عندك عند سلطان جائر . الحديث ٢٢٦٥ : ٣٩٥/٦ - ٣٩٦ . والنسائي ، كتاب البيعة ، باب : فضل من تكلم بالحق عند سلطان جائر . : ١٦١/٧ . وابن ماجه ، كتاب الفتن . باب : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . الحديث ٤٠١١ : ٤٠١٢ : ١٣٢٩/٢ - ١٣٣٠ . ومسنن الإمام أحمد من سعيد بن جبير : ١٩/٢ : ٦١ . وعن طارق بن شهاب : ٢١٤/٤ : ٣١٥ . وعن أبي أمامة : ٢٥١/٥ : ٢٥٦ .

(٢) كذا فى غرصة الأذهر . ونلفظ البخارى : بأشداً .

(٣) البخارى ، تفسير سورة المائز : ١٥٩/٦ . وانظر أيضاً : كتاب فضائل الصحابة : ١٢/٥ . وهاج متابع الأنصار : ٥٨/٥ .

(٤) ما بين القوسين من البخارى : ٥٨/٥ . ومكانه فى المخطوطة : « كثير » .

بعض الذى يبدكم) ، يعنى : إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل والرأى الثام والحزم أن تركوه ونفسه ، فلا تؤذوه ، فإن يك كاذبا فإن الله سيجزيه على كذبه بالقوية فى الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقا وقد آذيتوه يصيبكم بعض الذى يبدكم ، فإنه يتوعدكم إن مخالفتوه بطلاب فى الدنيا والآخرة ، فمن الجائر عندكم أن يكون صادقا ، فينبى على هذا أن لا تضرهوا له ، بل إنركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه .

وهكذا أخبر الله عن موسى - عليه السلام - أنه طلب من فرعون وقومه المراجعة فى قوله : (ولقد قتنا قبلهم قوم فرعون وجاعهم رسول كريم . أن أدوا إلى عباد الله ، إلى لكم رسول أمين . وأن لا تلوا على الله ، إلى أتاكم سلطان من بين : وإلى علمت برى وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا فى فاعتزلون) . وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لقريش] أن يتركوه يدعوا إلى الله عباد الله ، ولا عسوه بسره ، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك آذيتهم ، قال الله تعالى : (قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا للودة فى القربى) ، أى : إلا أن [لا] تؤذون بها بنى وبينكم من القرابة ، فلا تؤذون وتتركوا بنى وبين الناس . وعلى هذا وقعت المدة يوم الحنيفة وكان فتحاً ميثاً .

وقوله : (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) ، أى : لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبا كما تزعمون ، لكان أمره بينا ، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله ، كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب ، وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما ، ولو كان من للسرفين الكذابين لما هداه الله ، وأرشدته إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله . ثم قال المؤمن علماً : قومه زوال نعمة الله عنهم ، وحلول نقمة الله بهم : (يا قوم ، لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) ، أى : قد أنعم الله عليكم جعلنا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله ، وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم ، واحلروا نقمة الله إن كنتم رسوله ، (فمن نصرنا من بأس الله إن جامنا) ، أى : لا نغنى عنكم هذه الجنود وهله الساكر ، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله إن أراءنا بسره .

(قال فرعون) لقومه ، راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى [كان] أحق بالملك من فرعون : (ما أرىكم إلا ما أرى) ، أى : ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى . وقد كذب فرعون ، فإنه كان يتخفى صدق موسى فيما جاء به من الرسالة (قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر (١)) ، وقال الله تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً (٢)) .

فتوله : (ما أرىكم إلا ما أرى) : كذب فيه واغترى ، وخان الله ورسوله ورجبه ، فخذشهم وما نصحبهم . وكلا فتوله : (وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد) ، أى : وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد . وقد كذب أيضاً فى ذلك ، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه ، قال الله تعالى : (فأتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشد (٣)) . وقال تعالى :

(١) سورة الإسراء ، آية : ١٠٢ .

(٢) سورة النمل ، آية : ١٤ .

(٣) سورة هود ، آية : ٩٧ .

(وأضل فرعون قومه وما هدى (١)) : وفي الحديث : « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لربه ، إلا لم يرح رائحة الجنة (٢) » ، وإن ربحها ليجد من مسرة خياله عام : .

وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَنْقُومُ إِلَى أَخَافَ عَلَيْكُمْ مِثْلَ بَرِّ الْأَحْرَابِ (١) مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَكُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدُ ظُلُمَاتِ الْعِبَادِ (٢) وَيَنْقُومُ إِلَى أَخَافَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣) يَوْمَ تَقُولُونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمِنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٤) وَلَقَدْ جَاءَ كَرِيصُفَ مِنْ قَبْلِ الْبَيْتِ قَا زِلْتُمْ فِي شَرِّ مَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ مُرْسِلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٥) الَّذِينَ يَمْشُونَ فِي عَائِيَةِ اللَّهِ يَغْفِرُ سُلْطَانُ أَسْمُهُمْ كَرِ مَقْنَعًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ةَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكِبٍ جِبَارٍ (٦)

هذا إخبار من الله — عز وجل — عن هذا الرجل الصالح ، مؤمن آل فرعون : أنه حذر قومه بأمر الله في الدنيا والآخرة فقال : (يا قوم ، إلى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) ، أى : الذين كلبوا رسل الله في قديم الدهر ، كقوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم من الأمم للكلبة ، كيف حل بهم بأمر الله ، وما رده عنهم راد ، ولا صده عنهم صاد :

(وما الله يريد ظلما للعباد) ، أى : إنما أهلكهم الله بلعنهم ، وتكليمهم رسله ، وغالقتهم أمره . فأنفذ فيهم قدره ، ثم قال : (يا قوم ، أخاف عليكم يوم التناد) ، يعنى : يوم القيامة . وسعى بذلك ، قال بعضهم : لما جاعني حديث الصور ! إن الأرض إذا زلزلت وانفتحت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتمت ، فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ينادى بعضهم بعضا :

وقال آخرون ، منهم الضحّاك : بل ذلك إذا جئ بهمهم ، ذهب الناس هربا ، فتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر ، وهو قوله تعالى : (وللك على أرجائها (٣)) ، وقوله : (يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذوا إلا بسلطان (٤)) .

وقد روى عن ابن عباس ، والحسن ، والضحاك : أنهم قرأوا : (يوم التناد (٥)) ، فتشديد الدال ، من نداء البعير : إذا شرد وذهب .

(١) سورة طه ، آية : ٧٩ .

(٢) انظر البخاري ، كتاب الأحكام ، باب : من استرضى دمية فلم ينصح : ٨٠/٩ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب : استحقاق الثواب للفاسق لربه النار : ٨٧/١ — ٨٨ ، وكتاب الإمارة ، باب : فضيلة الإمام العادل ومقوية الجائر : ٩/٩ . وصلة الإمام أحمد عن سهل بن يسار : ٢٥/٥ .

(٣) سورة الحاقة ، آية : ١٧ .

(٤) سورة الرحمن ، آية : ٢٣ .

(٥) انظر تفسير البكري : ٤٠/٢٤ .

وقيل : لأن الميزان عنده ملكك ، وإذا وُزنَ عبدٌ فرجحَ ناسى بأهل صوته : ألا قد سعدَ فلانُ بنُ فلانِ سعادة لا يشقى بعدها أبداً . وإن خُفَّ عَمَلُهُ ناسى : ألا قد شقى فلانُ بنُ فلانِ .

وقال قتادة : يناسى كل قوم بأعمالهم : يناسى أهلُ الجنة أهلَ الجنة ، وأهلُ النار أهلَ النار (١) .

وقيل : سمي بذلك تشادة أهل الجنة أهلَ النار : (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم) (٢) . ومناداة أهل النار أهلَ الجنة : (أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا : إن الله حرمها على الكافرين) (٣) . ومناداة أصحاب الأعراف أهلَ الجنة وأهلَ النار ، كما هو مذكور في سورة الأعراف (٤) .

وباختار البغوي وغيره : أنه سمي بذلك لجميع ذلك ، وهو قول حسن جيد ، والله أعلم .

وقوله : (يوم تولون مدبرين) ، أى : ذاهبين هاربين ، (كلا ، لا وزر : إلى ربك يومئذ المستقر) (٥) : ، ولما قال : (ما لكم من الله من حاصم) ، أى : ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعلابه ، (ومن يضل الله فإله من هاد) ، أى : من أضله فلا هادى له غيره .

وقوله : (لقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) ، يعنى : أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى ، وهو يوسف — عليه السلام — كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط ، لئلا أطاعوه تلك الساعة إلا لمرجدة الوزارة والجاه الدنياوى . ولما قال : (فا زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا) ، أى : يشتم قلتم طامعين : (لن يبعث الله من بعده رسولا) ، (وذلك لكفرهم وتكذيبهم ، كلكم يضل الله من هو مسرف مرتاب) ، أى : كحالككم هذا يكون حال من يضل الله لإسرافه في أفعاله ولورثاب قلبه .

ثم قال : (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثامهم) ، أى : الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجة بغير دليل وحجة معهم من الله ، فإن الله عتق على ذلك أشد المقت . ولما قال تعالى : (كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) ، أى : والمؤمنون أيضا يهتضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه ، فلا يعرف بعد ذلك معروفا ، ولا يتكر منكرا . ولما قال : (كلكم يطبع الله على كل قلب متكبر) ، أى : على اتباع الحق (جبار) .

وروى ابن أبي حاتم ، عن حكيمه — وحكى عن الشعبي — أنها قالوا : لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسه .

وقال أبو عمران الجوني ، وقاتلة : آية الجبابة القتل بغير حق .

(١) انظر تفسير الطبري ٢٤/٤٠ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ٤٤ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ٥٠ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ٤٨ ، ٤٩ .

(٥) سورة التوبة ، آية : ١١ ، ١٢ .

وَقَالَ لِهَارُونَ ابْنِي صِرْ حَافِظًا لِي عَلَى الْكَلْبِ ۖ أَنْتَ بِلِسَانِكَ فَاطْلُقْ إِلَيْكَ مُوسَى وَإِنِّي لَأَخْشَى
كَتْلِيهَا ۖ وَكَذَلِكَ زَيْنُ لِفِرْعَوْنَ حَتَّىٰ جَاءَهُ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۖ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝

يقول تعالى غبرا عن فرعون، وعمره، واقترانه في تكليمه موسى - عليه السلام - : أنه أمر وزيره هارون أن يني له صرحا ، وهـ : القصر العالي المنيف الشاهق ، وكان انتفاذه من الآجر المضروب من الطين المشوى ، كما قال : (فأوقد في با هارون حلى الطين ، فاجعل لي صرحا (١)) ، ولعلنا قال إبراهيم الشنخري : كانوا يكرهون البناء بالآجر ، وأن يجعلوه في قوومهم ، وواه ابن أبي حاتم هـ

وقوله : (لعل أبلغ الأسباب أبواب السموات) - قال سعيد بن جبير ، وأبو صالح : أبواب السموات : وقيل : طرق السموات - (فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذبا) ، ولعلنا من كفره وعمره ، أنه كلب موسى في أن الله - عز وجل - أرسله إليه ، قال الله تعالى : (وكذلك زين فرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل) ، أي : بصنعه هذا الذي أراد أن يوم به الرحمة أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكليم موسى - عليه السلام - ، ولعلنا قال تعالى : (وما كيد فرعون إلا في تباب) - قال ابن عباس ، ومجاهد : يعني إلا في خسار هـ

وَقَالَ الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُم اتَّبَعُوا اللَّهَ رَسُولًا بَيْنَهُمْ جَاهِلٌ ۖ يَقُولُونَ كَذِيبًا ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ فَجَرٌ ۖ قَدْ كَانُوا لِلْآخِرَةِ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
لَقَدْ كَرِهَ اللَّهُ لِعِمَالِهِمْ سِيقَةَ فَلَا يَجُوزُ إِلَّا مِثْلُهَا ۖ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلْيُكَلِّمْكَ بِذَلِكُمُوعَلَّوْكَ
الْحَيَاةَ وَمَنْ لَّمْ يَلِدْ فِيهَا يَضُرَّ حَسْبُكَ ۝

يقول المؤمن قومه عن عرد وطني وآثر الحياة الدنيا ، ونسى الجبار الأعلى ، فقال لهم : (يا قوم ، اتبعون أهلكم سبيل الرشاد) ، لا كما كلب فرعون في قوله : (وما أهلككم إلا سبيل الرشاد) هـ

ثم زهدهم في الدنيا التي آثروها على الآخرة ، وصنهم عن التصديق برسول الله موسى ، فقال : (يا قوم ، إنما هذه الحياة الدنيا مطاع) ، أي : قليلة زائلة فانية عن قريب تلعب وتضلل ، (وإن الآخرة هي دار القرار) ، أي : الدار التي لا زوال لها ، ولا انتقال منها ولا ظن منها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ولعلنا قال : (من عمل سيئة فلا يجزي إلا مثله) ، أي : واحدة مثله) ، (ومن عمل صالحا من ذكر أو أنى وهو مؤمن ، فأولئك يلخטون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) هـ ، أي : لا لا يتقدر بجزاء (٢) بل يشيه الله ، ثوابا كثيرا لا انتضاء له ولا نفاذ .

(١) سورة القصص ، آية ٢٨ هـ

(٢) في خطبة الأثر هـ ، أي : يتقدر بجزاء ، ثم يشيه الله ، وللكتب من الطبقات السابقة .

« وَيَقُولُ مَا لِيَ أُدْعَوُكَ إِلَى الشَّجَرَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۚ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۚ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ فَسَتَكُونُ مَا أَقُولُ كَذِبًا ۚ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۚ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَبْعَ مِائَاتٍ مَا سَكَرُوا وَجَّاهُ وَقَالَ فِرْعَوْنُ سُوءَ الْغَلَبِ ۚ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۚ »

يقول لهم المؤمنون : ما بالي أدعوكم إلى الشجرة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وتصلبون رسوله الذي بعثه ، (وتدعونني إلى النار) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم (٢) أي : جهل بلا دليل (وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) ، أي : هو في مرتبة وكبرياله يفرغ ذنب من تاب إليه ، (لا جرم) أنما تدعونني إليه ، يقول : حقا . قال السدي ، وابن جرير : معنى قوله : (لا جرم) : حقا .

وقال الضحاك : (لا جرم) ، لا كذب .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (لا جرم) ، يقول : بلى ، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد (ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة) .

قال جاهد : الوثن ليس بشيء (١) .

وقال قتادة : يعني الوثن ، لا يضع ولا يضر

وقال السدي : لا يجيب داعيه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ،

وهذا كقوله تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم من داهين غافلون ؟) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٢) ، (إن تدعوه لا يسمعون دُعَاءَكُمْ ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم) (٣) .

وفوه (٤) (وأن مردنا إلى الله) ، أي : في الدار الآخرة ، فيجازي كلا بعمله ، ولهذا قال : (وأن المسرفين هم أصحاب النار) ، أي : خالدين فيها بإسرافهم ، وهو شركهم بالله .

(فتذكرون ما أقول لكم) ، أي : سوف تعلمون صدق ما أوتوكم به ونبيكم عنه ، ونصحتكم ووجهتكم ، وتذكروا ، (إن الله بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) ، أي : وأتوكل على الله وأستعينه ، وأفوضكم وأباعدكم ، (إن الله

(١) تفسير الطبري : ٤٥/٢٤ .

(٢) سورة الأحقاف ، آية : ٦٥ .

(٣) سورة فاطر ، آية : ١٤ .

بصير بالعباد) ، أى : هو بصير بهم ، فهى من يستحق الهداية ، وبصيرل من يستحق الإضلال ، وله الحجة البالغة ، والحكمة الثابتة ، والقدر الثالث .

وقوله : (فوفا الله شيئا ما مكروا) ، أى : فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فنجاه انقم موسى عليه السلام - ، وأما فى الآخرة فبالجنة . (وحق بال فرعون سوء العذاب) ، وهو : الفرق فى ألم ، ثم النقلة منه إلى الجحيم . فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار . ولهذا قال : (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) ، أى : أشده ألما وأعظمه نكالا . وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور ، وهى قوله : (النار يرضون عليها غلوا وعشيا) .
ولكن هاهنا سؤال ، وهو أنه لا شك أن هذه الآية مكية ، وقد استدلو بها على عذاب القبر فى البرزخ ، وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم - هو ابن القاسم أبو النضر - حدثنا إسحاق بن سعيد - هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص - حدثنا سعيد - بنى أباه - عن عائشة : أن يهودية كانت تغد مها ، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها (اليهودية) : وقالت الله عذاب القبر . قالت : فدخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على فقلت : يا رسول الله ، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال : لا ، وصم ذلك ؟ . قالت : هذه اليهودية ، لا تصنع لي شيئا من المعروف إلا قالت : وقال الله عذاب القبر . قال : وكلبت يهود . وهم على الله أكلب ، لا عذاب دون يوم القيامة . ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بوبه ، عمره عينا ، وهو يتأذى بأعلى صوته : القبر قطع الليل المظلم . أبها الناس ، لو تعلمون ما أعلم بكتم كثيرا وضحككم قليلا . أبها الناس ، استعملوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حتى (١) ، وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم ، ولم يخرجاه ،

وروى أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا سفيان ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة - قال : سألتها امرأة يهودية فأعطتها ، فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر . فأنكرت عائشة ذلك ، فلما رأت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت له ، فقال : لا . قالت عائشة : ثم قال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك : (وإنه أوصى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم) (٢) وهذا أيضا على شرطها :

فيقال : لما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية ، وفيها الدليل على عذاب البرزخ ؟ والجواب : أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غلوا وعشيا فى البرزخ ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بالجساد فى القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح ، فلما حصول ذلك للجسد وقأله بسببه ، فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية الآتى ذكرها .

وقد يقال : إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بلنب .
وعا يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد :

(١) مستند الإمام أحمد : ٨١/٦ .

(٢) مستند الإمام أحمد : ٢٣٨/٦ .

حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا يونس ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة — رضى الله عنها — : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دخل عليها وعندها امرأة من اليهود ، وهي تقول : أشعرت أنكم تُفتنون في قبوركم ؟ فارتاع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال : « إنما يُفتَنُ جوده » قالت عائشة : فلبثنا ليلتي ، ثم قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أشعرت أنه أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور ؟ » وقالت عائشة : تسمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — (١) بعدُ يستعيد من حجاب القبر (٢) .

وهكذا رواه مسلم ، عن هارون بن سعيد وحرمة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن يونس بن يزيد الأيلي ، عن الزهري ، به (٣) .

وقد يقال : إن هذه الآية دلت على حجاب الأرواح في البرزخ ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد في قبورها ، فلما أوحى إليه في ذلك بخصوصيته استأذنته ، والله — سبحانه وتعالى — أعلم .

وقد روى البخاري من حديث شعبة ، عن شعث بن أبي الشعثاء ، عن أبيه ، عن مسروق ، عن عائشة — رضى الله عنها — أن يهودية دخلت عليها فقالت : أما ذلك الله من حجاب القبر ؟ فسألت عائشة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن حجاب القبر ؟ فقال : « نعم ، حجاب القبر حق » قالت عائشة : « فما رأيته رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعدُ صلى صلاةً إلا تَحَوَّذَ من حجاب القبر (٤) » .

فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر ، وقرر عليه : وفي الأخبار المتقدمة : أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحى ، فاعلمها قسيتين ، والله أعلم ، وأحاديث حجاب القبر كثير جداً .

وقال قتادة في قوله : « غداً وعشيا » : صباحاً ومساءً ، ما بقيت الدنيا ، يقال لهم : يا آل فرعون ، هل من منزل لكم نوبيخاً ونقمةً وصحكراً لهم (٥) .

وقال ابن زيد : هم فيها اليوم ، يُخَدَّتى بهم ويُراخ إلى أن تقوم الساعة .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو سعيد ، حدثنا الهاربي ، حدثنا ليث ، عن عبد الرحمن بن ثروان ، عن هُزَيْل ، عن عبد الله ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : إن أرواح الشهداء في أجواف طير خُضْرَ تسرح بهم في الجنة حيث شاءوا . وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت ، فتأوى إلى فتاديل معلقة في العرش . وإن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تفلو على جهنم وتروح عليها ، فلذلك عرضها .

(١) ما بين القوسين الموقوفين عن المستند .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٤٨/٦ .

(٣) مسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب التحوذ من حجاب القبر » : ٩٢/٢ .

(٤) البخاري ، كتاب الجنائز ، باب « ما جاء في حجاب القبر » : ١٢٢/٢ .

(٥) تفسير الطبري : ٤٧/٢٤ .

وقد رواه الثوري، عن أبي قيس، عن المنزّل (١) بن شرحبيل، من كلامه في أرواح آل فرعون (٢) : وكذلك قال السدي .
وفي حديث الإسراء من رواية أبي هارون العبدى ، عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال فيه : « ثم أطلقني إلى خلق كثير من خلق الله ، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم ، مصفون على سابلة آل فرعون ، وكل فرعون يعضون على النار غداً وعشيا ، (ويوم تقوم الساعة : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وآل فرعون كالإبل المسومة غيطون (٣) » : الحجارة والشجر ولا يقولون .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا زيد بن أنحرم ، حدثنا عامر بن مدرك الحارثي ، حدثنا حبة - يعني ابن يقطين - عن قيس بن مسلم ، عن طارق ، عن شهاب ، عن ابن مسعود ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما أحسن عمن من مسلم أو كافر إلا أتاه الله » : قال : قلنا : يا رسول الله ، ما إثابة الكافر ؟ قال : « إن كان قد وصل رحمًا أو تصدق بصدقه أو عمل حسنة ، أتاه الله المال والولد والصحة وأشياء ذلك » . قلنا : فما إثابته في الآخرة ؟ قال : « هلدا دون العذاب » ، وقرأ : « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » .

ورواه البيهقي مسنده ، عن زيد بن أنحرم ، ثم قال : لا نعلم له إسناداً غير هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا عبد الكريم بن أبي صبر ، حدثنا حماد بن محمد القزاري البلخي قال : سمعت الأوزاعي وسأله رجل فقال : رحمك الله : رأينا طيوراً تخرج من البحر ، تأخذ ناحية الغرب بيضا ، فوجاً فوجاً ، لا يعلم عددها إلا الله - عز وجل - فإذا كان المضي رجع مثلها سوداً : قال : فقلتم إلى ذلك ؟ قال : نعم . قال : إن تلك (٤) الطير في حواصلها أرواح آل فرعون ، تعرض على النار غداً وعشيا ، فترجع إلى وكورها وقد احترقت وريشها وصارت سوداً ، فثبت عليها من الليل ريش أبيض ، وتتناثر السود ، ثم تغدو على النار غداً وعشيا ، ثم ترجع إلى وكورها . فذلك دأبهم في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » ، قال : وكانوا يقولون : إنهم سيئة ألف مقاتل (٥) .
وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق ، أخبرنا مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالقدادة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فن أهل النار : فيقال : هلدا مقعدك حتى يبعثك الله - عز وجل - إليه يوم القيامة (٦) » .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث مالك ، به (٧) .

(١) في المخطوطة : « عن أبي الهذيل » . والتمت من تفسير الطبري ، والملاصة . على أن في تفسير الطبري : « الهذيل » بالذال . والتمت من الخلاصة .

(٢) تفسير الطبري : ٤٦٠/٢٤ .

(٣) في المخطوطة : « المسومة غيطون » . والتمت من الطبقات السابقة .

(٤) في المخطوطة : « ذلك الطير » . والتمت من تفسير الطبري .

(٥) تفسير الطبري : ٤٦٠/٢٤ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١١٢/٢ .

(٧) البخاري ، كتاب الجنائز ، باب : « لميت يرض عليه مقعده بالقدادة والعشى » : ١٢٤/٢ . ومسلم ، كتاب الجنة .

..... في نسخة : « عرض مقعد الميت » . ١٦٠/٥ .

وَإِذْ يَحْجُرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا قَالُوا لَنْ نَبْقِيَ أَنْتُمْ مُنْفَرُونَ هَذَا نَقِصُّ مِنَ النَّارِ ﴿١٧٠﴾
 قَالِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَّرَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿١٧١﴾ وَقَالِ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ اذْهَبُوا
 وَبُكَرُ خَفِيفٌ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿١٧٢﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنَّا نُبَدِّعُكُمْ بِالْأَنْثَىٰ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا قَادِرُونَ وَمَا
 دَعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٧٣﴾

غير تعالى عن حاج أهل النار في النار ، ونخاصهم ، وفرعون وقومه من جعلتهم ، فيقول الضعفاء — وهم : الأكياع —
 للذين استكبروا — وهم : القادة والسادة والكبراء : (إنا كنا لكم تبعاً) ، أى : أطعناكم فيما دعوناكم إليه في الدنيا من الكفر
 والفساد ، (فهل أنتم منفون عنا نصيباً من النار) ، أى : قطعاً تتحملونه عنا . (قال الذين استكبروا : إنا كنا فيها) ، أى :
 لا نتحمل عنكم شيئاً ، كفى بنا ما عندنا ، وما حملنا من العذاب والكمال . (إن الله قد حكم بين العباد) ، أى : يتكلم بيننا
 العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ، كما قال تعالى : (قال : لكل ضعف ، ولكن لا تعلمون (١)) :

(وقال الذين في النار لخزنة جهنم : اذْهَبُوا رَيْبَكُمْ خَفِيفٌ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ) : لا علموا أن الله — سبحانه — لا يستجيب
 منهم ولا يستمع لدعائهم ، بل قد قال : (انصأوا فيها ولا تكلمون (٢)) سألوها لخزنة — وهم كالبوابين لأهل النار — أن
 يَدْهَبُوا لِمَ لَمْ يَأْتِ اللَّهُ فِي أَنْ يَخَفِ عَنِ الْكَافِرِينَ وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا مِنَ الْعَذَابِ ، فقالت لم لخزنة وادَّعَيْنَ عليهم : (لو لم تكن تأتيكم
 رسلكم بالبينات ؟) ، أى : أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل ؟ (قالوا : بلى ، قالوا : قاعدوا) ، أى :
 أنتم لأنفسكم ، فتحن لا تدعركم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم برآء ، لم نخبركم أنه سواء دعوتكم أو لم
 تدعوا ، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم ، ولهذا قالوا : (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) ، أى : إلا في ذهاب ، لا يقبل
 ولا يستجاب .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿١٧٤﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِفَتُهُمْ
 وَلَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿١٧٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى وَأَوْثَقْنَا بِئِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿١٧٦﴾
 هُدًى رَدَّ كَرِي لِدُلَى الْأَلْبَابِ ﴿١٧٧﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُصُورِ
 وَالْإِبْكَارِ ﴿١٧٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي عَابِتِ اللَّهِ بَغْيَ سُلْطَانٍ أَتْلَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبِلَافِيهِ
 فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٧٩﴾

قد أورد أبو جعفر بن جرير — رحمه الله تعالى — عند قوله تعالى : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) سؤالا
 فقال : قد حكم أن بعض الأكياع — عليهم الصلاة والسلام — قتلهم بالكلية كيحيى وزكريا وإسماعيل ، ومنهم من خرج من

(١) سورة الأعراف : آية ٣٨ .

(٢) سورة المؤمنون : آية ١٠٨ .

بين أظهرهم إمامها جبرائيل عليه السلام ، وإما إلى السماء كحيسى ، فأين النصر في الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين (١) : أحدهما : أن يكون الخبر خرج علما ، والرداد به اليأس ، قال : وهذا سابق في اللغة .

الثاني : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لم ين أذاهم ، وسواء كان ذلك بحضورهم أو في غيبتهم أو بعد موته ، كما فعل بقتله يحيى وزكريا وشعيا ، سلط عليهم من أهلهم من أمانيهم وسفك دماهم ، وقد ذكر أن التبرؤ أخذ الله أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح - عليه السلام - من اليهود ، فسلط الله عليهم الروم فأهزأهم وأذلهم ، وأظهرهم الله عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماما عادلا ، وحكما مقسطا ، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام . وهذه نصره عظيمة ، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه : أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ، ويقر أعينهم من أذاهم ، فعلى صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي وليا فقد بارسى بالحرب » (٢) . وفي الحديث الآخر : « إني لأثار لأوليائي كما يثار لليث الحرب » (٣) . ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود ، وأصحاب الرس ، وقوم لوط ، وأهل مدائن ، وأشباههم وأضرابهم ، بمن كذب الرسل وخالف الحق . وأنهى الله من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحدا ، وحارب الكافرين ، فلم يفلت منهم أحدا .

قال السدي : لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون ، فليبعث ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم ، فيطلب بنماهم من فعل ذلك بهم في الدنيا - قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا ، وهم منصورون فيها .

وهكذا نصر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه على من خالفه وتآواه ، وكلبه وعاداه ، فجعل كلمته هي العليا ، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان : وأمر بالمجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية ، وجعل له فيها أنصاراً وأهواناً ، ثم منحه أكثاف للمشركين يوم بدر ، فنصره عليهم وغلظ لهم ، وقتل صناديدهم ، وأمر سراهم ، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد . ثم من عليهم بأعنفه القندهاء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح مكة ، فقرت عينه ببلده ، وهو البلد المحرم الحرام المشرف للعظم ، فأثقله الله به بما كان فيه من الشرك والكفر ، وفتح له اليمن ، ودانت له جزيرة العرب بكاملها ، ودخل الناس في دين الله أفواجا . ثم قبضه الله - تعالى - إليه ، لما له عنده من الكرامة العظيمة ، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده ، فبلغوا عنه دين الله ، ودعوا عباد الله إلى الله . وفتحوا البلاد والرياسات (٤) والأقاليم والملائن والقرى والقلوب ، حتى انتشرت الدعوة الحميدة في مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة ، ولهذا قال تعالى : (إنا لننصر ولسنا واللين أتونا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) ، أي : يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل .

قال مجاهد : الأشهاد : للملائكة .

(١) انظر تفسير الطبري : ٤٨/٢٤ - ٤٩ .

(٢) البخاري ، كتاب الفرقاء ، باب : للتواضع . ١٣١/٨ . وللفقه : فقد آذنته بالحرب .

(٣) أي : الشديد النصب .

(٤) انظر تفسيرها في : ١٨٦/٥ - ٣٠٥ .

وقوله : (يوم لا ينفع الظالمين ما عملوا) يدل من قوله : (يوم يقوم الأشهاد)

وقرأ آخرون : (يوم ، بالرفع ، كأنه فسر به (يوم يقوم الأشهاد : يوم لا ينفع الظالمين) ، وهم المشركون (معلومهم)
أى : لا يقبل منهم عمل ولا ندية ، (ولم اللغة) ، أى : الإبعاد والطرده من الرحمة ، (ولم سوء الدار) ، وهى النار ، قاله
السدى ، بنسب المنزل والمقيل .

وقال حل بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ولم سوء الدار) ، أى : سوء العاقبة .

وقوله : (ولقد آتينا موسى الهدى) ، وهو ما بعث الله به من الهدى والنور ، (وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب) ، أى
جعلنا لهم العاقبة ، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه ، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى - عليه
السلام - وفى الكتاب الذى أورثوه - وهو التوراة - (هدى وذكرى لأولي الألباب) ، وهى : القول الصحيحة السليمة .

وقوله : (فاصبر) ، أى : يا محمد ، (إن وعد الله حق) ، أى : وعدناك أنا سنعل كلمتك ، ونجعل العاقبة لك ولن
اتبعك ، والله لا يخلف الميعاد . وهذا الذى أخبرناك به [حق] لا مرة فيه ولا شك .

وقوله : (واستغفر للنبيك) ، هذا تيسير للأمة على الاستغفار ، (وسبح بحمد ربك بالعشى) ، أى : فى أواخر النهار
وأوائل الليل ، (والإيكار) ، وهى أوائل النهار وأواخر الليل .

وقوله : (إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أثام) ، أى : ينفغون الحق بالباطل ، ويردون الصحيح
بالنشب الفاسد بلا برهان ولا حجة من الله ، (إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) ، أى : مانى صدورهم إلا كبر على
اتباع الحق ، واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يرومونه من إخال الحق وإعلاء الباطل بمأصل لهم ، بل الحق هو المرفوع ،
وقومهم وقصدهم هو الموضوح ، (فاستمع بالله) ، أى : من حال مثل هؤلاء ، (إنه هو السميع البصير) ، أى : من شر مثل
هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان . هذا تفسير ابن جرير (١) .

وقال كعب وأبو العالية : نزلت هذه الآية فى اليهود : (إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أثام) ، إن فى صدورهم
إلا كبر ما هم ببالغيه - قال أبو العالية : وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم ، وأنهم يملكون به الأرض . فقال الله لنبيه - صلى
الله عليه وسلم - أمرا له أن يستميل من فتنة الدجال ، ولهذا قال : (فاستمع بالله إنه هو السميع البصير) .
وهذا قول غريب ، وفيه نصف بعيد ، وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم فى كتابه ، والله أعلم .

نَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنَى ﴿٦١﴾ قَلِيلًا مِمَّا تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لِذِي بَهْ
وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى منها على أنه بعيد الخلائق يوم القيامة ، وأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه - بأنه خلق السموات والأرض ،
وشغلها أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأول والأخرى ، كما قال تعالى :

(أولهم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يخشَ خلقه، يقادر على أن يحيي الموتي، بل إنه على كل شيء قدير) (١) ، وقال هاتما : (خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها ، كما كان كثير من العرب يتفرون بأن الله خلق السموات والأرض ، ويتكبرون المعاد ، استبعادا وكفرا وعنادا ، وقد اختلفوا فيما هو أولى ما أنكروا .

ثم قال : (وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا للشيء) ، أي : كما لا يستوى الأعمى الذي لا يبصر شيئا ، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره ، بل بينها فرق عظيم ، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الضالين ، (قليلًا ما يتذكرون) ، أي : ما أقل ما يتذكر كثير من الناس .

ثم قال : (إن الساعة آتية) ، أي : لكائنة وواقعة ، (لا ريب فيها ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) ، أي : لا يصدقون بها ، بل يكذبون بوجودها .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا أنسب ، حدثنا مالك ، عن شيخ قديم من أهل اليمن - قدم من ثم - قال : سمعت أن الساعة إذا دلت اشتد البلاد على الناس ، واشتد حر الشمس .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ فَأُولَئِكَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ

هذا من فضله - تبارك وتعالى - وكرمه : أنه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفل لهم بالإجابة ، كما كان سمعان التوري يقول : يا مَنْ أَحَبَّ عباده إليه مَنْ سَأَلَهُ فَأَكْثَرَ سُؤَالَهِ ، وَيَا مَنْ أَبْغَضَ عباده إليه مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ ، وليس كذلك ضربك يارب . رواه ابن أبي حاتم .

وفي هذا للشيء يقول الشاعر :

اللَّهُ يَتَغَضَّبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤْلَهُ وَيُنِيْ أَدَمَ حِينَ يُسْأَلُ بِتَغَضُّبٍ !

وقال قتادة : قال كعب الأحبار : أعليت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلهم إلا نبي : كان إذا أرسل [الله نبيًا] قيل له : أنت شاهد على أمته ، وجعلكم شهداء على الناس . وكان يقال له : ليس عليك في الدين من حرج . وقال هذه الأمة : (وما جعل عليكم في الدين من حرج) : وكان يقال له : ادعني استجب لك ، وقال هذه الأمة : (ادعوني استجب لكم) : رواه ابن أبي حاتم .

وقال الإمام الحافظ أبو يعلى - أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده : حدثنا أبو إبراهيم الترمذي ، حدثنا صالح المزيقي قال : سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم ، فيما يروى عن ربه عز وجل - قال : « أربع خصال ، واحدة منهن لي ، واحدة لك ، واحدة فيما بيني وبينك ، واحدة فيما بينك وبين عبادي : فأما التي لي فتشعبي لا تشرك بي شيئا ، وأما التي لك هي فاعلمت من خير جزيتك به ، وأما التي بيني وبينك فثقت الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التي بينك وبين عبادي فإرضي لهم ما ترضي لنفسك » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن ذر ، عن يسع الكندي ، عن الثعالبي بن بشر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الدعاء هو العبادة » ، ثم قرأ : (ادعوني استجب لكم) إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيفعلون جهنم خافزين (٢) .

(١) سورة الأعراف ، آية : ٣٣ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٧١/٢٤ .

وهكذا رواه أصحابه السبع : الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، كلهم من حديث الأعمش ، به : وقال الترمذى : « حسن صحيح (١) » .
 ورواه أبو داود ، والترمذى (٢) ، والنسائى ، وابن جرير أيضا ، من حديث شعبة ، عن منصور ، عن قز ، به (٣) .
 وأخرجه الترمذى أيضا من حديث الثوري ، عن منصور والأعمش ، كلاهما عن زر ، به (٤) .
 ورواه ابن حبان والحاكم في صحيحهما ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد (٥) » :
 وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثني أبو مليح (٦) الملقب — شيخ من أهل المدينة — سمع عن أبي صالح ، وقال مرة : سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من لم يدع الله — عز وجل — غضبه الله عليه (٧) » .
 تفرد به أحمد (٨) ، وهذا إسناد لا بأس به :

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا مَرْوَانُ الْقَزَارِيُّ ، حدثنا صَيْحُ أَبُو لَلِيح : سمعتُ أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من لا يسأله فيغضب عليه (٩) » .
 قال ابن معين : أبو المليح هذا اسمه : صَيْحُ ، كذا قيده بالضم (١٠) . عبد الله بن سعيد : وأما أبو صالح هذا فهو الْغَوْزِيُّ ، سكنى شعب الْغَوْزِ : قاله الزبيري في مسنده . وكلوا وقع في رواية أبي المليح القاري ، من أبي صالح الْغَوْزِيُّ ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من لا يسأل الله فيغضب عليه » :
 وقال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرَّاسِمِيُّ (١١) : حدثنا إِبْرَاهِيمُ ، عن الحسن ، حدثنا ثَابِتُ بْنُ نَجِيحٍ ، حدثني هَالِدُ بْنُ حَبِيبٍ ، عن محمد بن سعيد قال : لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري ، وجعلنا في فؤاديه سيفه كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن لربكم في بقية دهركم لفحات » فغرضوا له ، لأجل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا ينسى بعدها أبدا » .

(١) تحفة الأحوي : تفسير سورة البقرة ، الحديث ٤٩ : ٣٠٩/٨ . وسنن ابن ماجه : كتاب الدعاء ، باب : فضل الدعاء ، الحديث ٣٨٢٨ : ١٢٥٨/٢ ، وتفسير الطبري : ٥١/٢٤ .

(٢) لم يقع لنا في الترمذى من رواية شعبة عن منصور ، انظر الإحالة للمتقدمة ، والتي تأتي بعد ، وانظر أيضا تحفة الأحوي : أبواب النعرات ، باب ما جاء في فضل الدعاء ، الحديث ٣٤٣٢ : ٣١١/٩ - ٣١٢ .

(٣) سنن أبي داود ، أبواب الزور ، باب : الدعاء ، وتفسير الطبري : ٥١/٢٤ .

(٤) تحفة الأحوي : تفسير سورة المؤمن ، الحديث ٣٢٩٩ : ١٢١/٩ - ١٢٢ .

(٥) المستدرک ، كتاب الدعاء : ٤٩٠/١ - ٤٩١ .

(٦) في المخطوطة : « أبو فليح » . والمثبت عن المسند .

(٧) سنن الإمام أحمد : ٤٧٧/٢ .

(٨) كذا ، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الدعاء ، باب : فضل الدعاء ، الحديث ٣٨٢٧ : ١٢٥٨/٢ ، عن أبي بكر

ابن أبي قتيبة وحل بن سعد ، كلاهما عن وكيع ، به .

(٩) سنن الإمام أحمد : ٤٤٢/٢ .

(١٠) أي : ضم الصاد . انظر ترجمته في المبرج والتبديل لابن أبي حاتم : ٥١٢/١٢٧ .

(١١) هو صاحب كتاب «الحدث الفاصل بين الراوي والرواية» ، وهو من أول ما أتت في كتب مصطلح «المثبت» . روى أبو

محمد بن معين ، عن عبد بن حيان المازني ، قال عنه أبو القاسم ابن منده : «ماش إلى قريب الستين وثلاثمائة» . انظر ترجمته في المبرج للشيخ

وقوله : (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) ، أى : من صغاف وتوحيدى ، (سيدخلون جهنم داخرين) ، أى : صاغرير
حقيرين ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن جبرلان ، حدثني عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « يحشر للكبرون يوم القيامة أمثال الذر (١) ، في صور الناس ، يملوهم كل شيء من الصغار ، حتى يدخلوا سجنًا في جهنم - يقال له : بولس - تعلمون نار الأتار ، يسقون من طينة الخبال : عصاره أهل النار (٢) » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خنيس : سمعت أبي يحدث عن وهيب ابن الورد : حدثني رجل قال : كنت أسير ذات يوم في أرض الروم ، فسمعت هاتفا من فوق رأس جبل وهو يقول : يا رب ، صعبت لمن عرفك كيف يرجو أحدا غيرك ! يا رب ، عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك - قال : ثم ذهبت ، ثم جاءت الطامة الكبرى - قال : ثم عاد الثانية فقال : يا رب ، عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشئ من مسخطك يرضى غيرك . قال وهيب : وهذه الطامة الكبرى : قال : فتأذبه : أجبت أنت أم إنسى ؟ قال : بل إنسى ، أشغل نفسك بما يتشيك مما لا يتشيك .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١﴾ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَاهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُؤَذِّنُ الَّذِينَ كَانُوا رُطَابًا اللَّهُ يَجْعَلُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ممثلا على خلقه ، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات تدهم في المعاش بالنهار ، وجعل النهار مبصرا ، أى : مضيئا ، ليتصرفوا فيه بالأسفار ، وقطع الأقطار ، والتمكين من الصناعات ، (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) ، أى : لا يقومون بشكر نعم الله عليهم .

ثم قال : (ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ، أى : الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد ، خالق الأشياء ، الذي لا إله غيره ، ولا رب سواه ، (فَاتَّقُوا اللَّهَ) ، أى : فكيف تعبدون غيره من الأصنام ، التي لا تخلق شيئا ، بل هي مخلوقة منحوتة .

وقوله : (كَذَلِكَ يُؤَذِّنُ الَّذِينَ كَانُوا رُطَابًا اللَّهُ يَجْعَلُونَ) ، أى : كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله ، كذلك أفك الذين من قبلهم ، فنبهوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والموى ، وجعلوا حجج الله وآياته :

وقوله : (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا) ، أى : جعلها مستقرا لكم ، بساطا مهادا تعيشون عليها ، وتصرفون فيها ، وتمشون في منابها ، وأرساما بالجبال لتلا تميمكم ، (وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) ، أى : سقفا للعالم محفوظا ، (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

(١) الذر : التل الصغير ، واحتملها : ذرة .

(٢) سمته الإمام أحمد : ١٧٩/٢ .

صورك) ، أى : فخلقكم فى أحسن الأشكال ، ومنحكم أكل الصور فى أحسن تقويم ، (ورزقكم من الطيات) ، أى : من المأكول والمشروب فى الدنيا . فذكر الله خلق النار ، والسكان ، والأرزاق -- فهو الخالق الرزاق ، كما قال فى سورة البقرة : (يا أيها الناس ، اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون (١)) : وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء : (ذلكم الله ربكم ، فبارك الله رب العالمين) ، أى : فتعالى وتعالى ربكم وتزه رب العالمين كلهم ؟

ثم قال : (هو الخلق لا إله إلا هو) ، أى : هو الخلق أزلا وأبدا ، لم يزل ولا يزال ، وهو الأول والآخِر ، والظاهر والباطن ، (لا إله إلا هو) ، أى : لا نظير له ولا حصيل له ، (فادعوه مخلصين له الدين) ، أى : موحدين له مفرين بأنه لا إله إلا هو (الحمد لله رب العالمين) :

قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال : لا إله إلا الله أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين ، عملا بهذه الآية (٢) :

ثم روى عن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق ، عن أبيه ، عن الحسن بن واقد ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : من قال : لا إله إلا الله ، فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين ، (فذلك قوله تعالى : (فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين (٣)) .

وقال أبو أسامة وغيره ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن سعيد بن جبير قال : إذا قرأت : (فادعوا الله مخلصين له الدين) ، قل : لا إله إلا الله ، وقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين ، ثم قرأ هذه الآية : (فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين (٤)) :

* قُلْ إِنِّي نُبِّئْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلْإِبْرَةِ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَمُوتُ مِنْ قَبْلٍ وَلَتَبْلُغُوا أَجْلًا مُسَمًّى وَلَمَّا تَلِفُوا لَكُمْ تَلْفُونَ ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ الْغَبَّ وَيُرْسِلُ فَأَذَا تَفْصِحُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن الله ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان : وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه ، فى قوله : (هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم

(١) سورة البقرة : آية ٢٠٥ و ٢١٠ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٤ / ٥٣ .

(٣) وقع بهذا فى الطبقات السابقة الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن جبر بإسناده إلى عبد الله بن الزبير ، وإلى سائر ابن كثير بطريقه عنه قوله تعالى فى هذه السورة : (فادعوا الله مخلصين له الدين ولوكره الكافرون) ، وقد حلت به غلطية الأثر

مطلقاً، ثم ليبلغوا أشدكم، ثم ليكونوا من السرخس)، أي: هو الذي يقبلكم في هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، ورحن أمره وتبديره وقدره يكون خلق كله، (ومنكم من يوفى من قبل)، أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يوفى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقولهم: (لثنين إكم)، ونقر في الأرحام مناشأه إلى أجل مسمى(١)، وقال هاتنا: (ولمأكم تقولون)، قال ابن جريج: تتكلمون البعث.

ثم قال : (هو الذي يحب ويعبت) ، أى : هو المفرد بملك ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، (فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) ، أى : لا يخالف ولا يمانع ، بل ما شاء كان .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يَعْزَمُوا ۖ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآلِ كِتَابٍ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِمْ رَسُولًا فَهَؤُلَاءِ يَمْسُقُونَ ۖ إِذَا الْأَعْذَلُ فِي أَصْحَابِهِمْ وَاللَّيْلُ يُسْحَبُونَ ۖ فِي الْحَيَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۖ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ ۖ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَنْ نَكُنْ نَدْعُوًا مِنْ قَبْلُ شَيْعًا كَذَّابًا ۖ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ۖ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ ۖ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقُّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ۖ أَذْخَلُوا أَبُوبَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِمَا مَنَى الْمُكَفِّرِينَ ۖ

يقول تعالى : **أَلَا تَعْجَبُ بِأَيِّهِمْ مَنْ هَوَّلَهُ الْمَلَائِكَةُ بَأْيَاتِ اللَّهِ ، وَيَجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، كَيْفَ تُصَرِّفُ عُقُولَهُمْ**
مَنْ هَوَّلَهُ إِلَى الْفُضَالِ ، (الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْكِتَابِ ، وَبِأَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا) ، أَيْ : مَنْ هَوَّلَهُ الْوَيْلَانِ ، (فَسُوفَ يَعْلَمُونَ) :
هَذَا تَهْنِئَةٌ شَدِيدَةٌ ، وَوَعِيدٌ (أَكِيدُ) ، مَنْ الرِّبِّ — جَلَّ جَلَالُهُ — هَوَّلَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَيَلْ يَوْمَئِذٍ الْمَلَائِكَةُ) (٢) :

وقوله : (إِذْ الْأَخْلَافُ فِي عَتَاظِهِمُ وَالسَّلَاسِلُ) ، أي : متصلة بالأغلال ، بأبدى الزبانية يسبونهم على وجوههم ، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم . ولهذا قال : (يسحبون . في الحميم ثم في النار يسجرون) ، كما قال تعالى : (هذه جهنم التي يكتب فيها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن (٣)) . وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم : (ثم إن مرجعهم لآلئ الجحيم (٤)) وقال : (وأصحاب الشلال ما أصحاب الشلال . في سموم وحميم . وظل من محصور . لا بارد ولا كريم) . ثم إن قال : (ثم إنكم أهبأ الضاللون للكنهين . لا تكون من شجر من زقوم . فأتوا منها البطون ، فشاويرون عليه من الحميم . فشاويرون شرب الحميم . هذا نزلهم يوم الدين (٥)) . وقال : (إن شجرة الزقوم . طعام الأليم . كالمهل يلقى في البطون . كفى الحميم . خلوه فاعتذروا إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم بتغفرون (٦)) ، أي : يقال لهم ذك ذلك وجه الصريع والتوبيخ ، والتحقير والتصغير ، والتهمك والاستهزاء بهم ،

- (١) سورة الحج ، آية : ٥٥ .
- (٢) سورة المرسلات ، آية : ١٥ .
- (٣) سورة الرحمن ، آية : ٤٣ - ٤٤ .
- (٤) سورة الصافات ، آية : ٦٨ .
- (٥) سورة الواقعة ، الآيات : ٤١ - ٤٤ ، ٥١ - ٥٦ .
- (٦) سورة النحل ، الآيات : ٤٣ - ٥٠ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا منصور بن عمار ، حدثنا بشير بن طلحة الخزاعي (١) ، عن خالد بن دريك ، عن علي بن مثنىة - رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « ينشئ الله محبة لأهل النار سوداء مظلمة ، ويقال : يا أهل النار ، أى شئ تطالبون ؟ فيلكون بها صاب الدنيا فيقولون : لساك يرد الشراب . فتمطرهم أغللا تزيد في أغلالهم ، وسلاسل تزيد في سلاسلهم ، ويحتملوا يلتهب النار (٢) عليهم . » هذا حديث غريب .

وقوله : (لم يقل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟) أى : قيل لهم : أين الأصنام التي كنتم يعبدونها من دون الله ؟ هل ينصرونكم اليوم ؟ (قالوا : ضلوا عنا) ، أى : ذهبوا فلم يتبعونا ، (بل لم تكن ندعو من قبل شيئا) ، أى : جعلوا عبادتهم كقوله تعالى : (لم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين (٣)) . ولهذا قال : (كذلك يضل الله الكافرين) وقوله : (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون) ، أى : تقول لهم الملائكة : هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ، ومرتحمكم وأشركم وبطركم ، (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فليس مفرى المتكبرين) ، أى : فليس المتزل والمقيل الذي فيه الموانع والعلاب الشديد ، لمن استكبر عن آيات الله ، واتباع دلاله وحججه .

فَأَمَّا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ فَلَمَّا نَرَيْتُكَ بَعْضَ الَّذِي تَعْلَمُ أَوْ تَتَوَقَّعُ الْإِلَهِيَّةَ بِرَجْعِهِ (١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُّسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَيُفْضِلْ بِالْحَقِّ وَخَيْرٌ هَذَاكَ الْمَقْضُولُونَ (٢)

يقول تعالى أمرا رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - بالصبر على تكذيبه من كلبه من قومه ، فإن الله سينجز لك ما وعده من النصر والظفر على قومك ، وجعل العاقبة لك ولن أتبعك في الدنيا والآخرة ، (فلما نريتكم به شئ الذي تعلم) ، أى : في الدنيا . وكذلك وقع ، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظماهم ، أيدوا في يوم بدر . ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في أيام حياته ، صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (أو تتوَقَّعُ ، فإليها يرجعون) ، أى : فتلقهم اللطاب الشديد في الآخرة .

ثم قال مسلما له : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) ، كما قال في سورة النساء (٤) : « سواء : أى : منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت الرسل العاقبة والنصرة ، (ومنهم من لم نقصص عليك) ، وهم أكثر من ذكر بأصناف أصناف ، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة (٥) النساء ، والله الحمد والمنة .

(١) كلما ، وفي الجرح والمثيل ٣٧٥/١ : « أكلشي » .

(٢) أخرجه السيوطي في لدر المنثور من ابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه . انظر : ٣٥٧/٥ .

(٣) سورة الأعداء ، آية ٢٣ .

(٤) سورة النساء ، آية : ١٦٤ .

(٥) انظر : ٤٢٧/٢ - ٤٢٦ .

وقوله : (وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله) ، أى : ولا يمكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للمعادات ، إلا أن يأذن الله له في ذلك ، فيدلّ ذلك على صدقه فيما جاءهم به ، (فإذا جاء أمر الله) ، وهو عليه وتسكاته الخيط بالكلية ، (قضى بالحق) ، فينجو المؤمنون ، ويهلك الكافرون ، ولهذا قال : (وخسر هؤلاء المبطلون) :

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ تَحْتَ كِبَاسِنَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٠﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي حَيَاتِكُمْ وَعَلَيْهَا تَمُوتُونَ ﴿١١﴾ وَبِهِ يَكُونُ حَافِظُكُمْ فَآيَاتِ اللَّهِ تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى معنا على عباده ، بما خلق لهم من الأنعام ، وهى : الإبل والبقر والغنم ، (فيها ركوبهم ومنها يأكلون (١)) ، فالإبل تركبها وتؤكل لحليبها ، ويجعل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأظفار الخاصة : والبقر تؤكل ويشرب لبنها ، وتحترق عليها الأرض : والغنم تؤكل ، ويشرب لبنها ، والجميع يجر أوصافها وأشعارها وأوبارها ، فيستخذ منه الأثاث والياب والامتعة ، كالفصل وبين فى أماكن تقدم ذكرها فى « سورة الأنعام » (٢) ، « وسورة النحل » (٣) ، وخبر ذلك ، ولهذا قال هاهنا : (لتركبوا منها ومنها تأكلون) ، وأحكم فيها منافع ، ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم ، وعليها وحل تلك تحملون)

وقوله : (وبإيكم آياته) ، أى : حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم ، (فأى آيات الله تنكرون) ؟ أى : لا تقدرن على إنكار شيء من آياته ، إلا أن تعاندن وتكابرن .

الَّذِينَ يَسْمُرُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْظُرُونَ كَيْفَ يَأْتِيهِمُ الْغَنَاءُ مِنَ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ فَتَنَةً وَأَشَدُّ قُوَّةً وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَلَقُوا بِرِيسٍ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا يَكْفُفُهُمْ إِنْشَبُوا نَارًا بَأْسًا مِمَّا سَفَّ اللَّهُ لَهُ أَتَى قَدْ خَلَّتْ فِي حَبِيدِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكعبة بالرسول فى قدم الدهر ، وماذا حل بهم من العذاب الشديد ، مع شدة قواهم ، وما أثرهم (١) فى الأرض ، وجمعهم من الأموال ، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ، ولا ردّ عنهم ذرةً من بأس الله ، وذلك لأنهم لما جاءهم الرسل بالبينات ، والهجج القاطعات ، والبراهين الدامغات ، لم يلتفتوا إليهم ، ولا أقبلوا عليهم ، واستغنوا بما عندهم من العلم فى زعمهم عما جاءهم به الرسل

(١) سورة يس ، آية : ٧٢ .

(٢) النمل : ٣٤٠ - ٣٤٤ .

(٣) النمل : ٤٧٥ - ٤٧٨ .

(٤) أى : تركبوا فيها من الآلات .

قال مجاهد : قالوا : نحن أعلم منهم ، لن نبعث ولن نعلب (١)

وقال السدي : فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم ، فأتاهم من بأس الله ملا قبيل لهم به (٢)

(وحاق بهم) ، أي : أحاط بهم (ما كانوا به يستهزون) ، أي : يكتفرون ويستعملون وقوعه

(فلما رأوا بأسنا) ، أي : عاينوا وقبح العذاب بهم ، (قالوا : آتانا الله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين) ، أي : وحلّموا الله وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لا تُفكّل العثرات ، ولا تنفع المعرفة . وهذا كما قال فرعون حين أدركه الفرق : (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين) ، قال الله تعالى : (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفلسين) (٣) ؟ : أي : فلم يقل الله منه ، لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال : (واشدّد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) (٤) . وهاهنا قال : (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، صنة الله التي قد خلقت في عباده) ، أي : هنا حكم الله في جميع من تاب عند معاناة العذاب : أنه لا يقبل . ولهذا جاء في الحديث : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يتغرّب» (٥) ، أي : فإذا غرّح وبلغت الروح للنجرة ، وعاین الملكة ، فلا توبة حيثل . ولهذا قال : (وخسر هنالك الكافرون) :

آخر تفسير «سورة غافر» . والله الحمد ولله .

• • •

(١) تفسير الطبري : ٢٤ / ٥٨ .

(٢) سورة يونس : آية ٩٠ ، ٩١ .

(٣) سورة يونس : آية ٨٨ .

(٤) تحفة الأوحى : أبواب السموات ، الحديث ٣٦٠٣ ، ٢١/٩٠٢ . وقال القرطبي : «حسن قريب» . «وسن ابن ماجه

كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة» ، الحديث ٢٥٣ : ٢/٤٤٢٠ . وسنة الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمر : ٢/١٣٢٤ ، ١٠٣٠

ومن راجل ، عن الثوري - صل الله عليه وسلم - ٤٢٥/٤٢٠

تفسير سورة فضلت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حِمْيَرٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبْتُ فَضْلَتَ هَاطِلَتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝
بَيِّنَاتٍ وَكَذِبًا فَاعْرِضْ أَكْثَرُهُمْ فَهَمٌ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا نَدْهُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا
وَمِنْ بَيْنَتِنَا مِغْطَاتٌ ۝ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْنُ الْمُحِيطُونَ ۝

يقول تعالى : (حم . تنزيل من الرحمن الرحيم) ، يعني : القرآن متروك من الرحمن الرحيم ، كقوله تعالى : (قل :
أنزل روح القدس من ربك بالحق (١)) : وقوله : (وإله لتتربل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون
من المنذرين (٢))

وقوله : (كتاب فضلت هاطلته) ، أي : بيّنت معانيه وأحكام أحكامه ، (قرآنًا عربيًّا) ، أي : في حال كونه
لفظًا عربيًّا ، بينا واضحا ، لغاياته مفصلة ، وألفاظه واضحة غير مشككة ، كقوله : (كتاب أحكام آياته ثم فصلت من لدن
حكيم خبير (٣)) ، أي : هو معجز من حيث لفظه ومعناه ، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم
حميد (٤))

وقوله : (لقوم يعلمون) ، أي : إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون ، (بشيرا ونذيرا) ، أي : تارة
يُشِيرُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وتارة ينذر الكافرين ، (فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) ، أي : أكثر قريش ، فهم لا يفهمون منه شيئا
مع بيانه ووضوحه ، (وقالوا : قلوبنا في أكنة) ، أي : في خلف مغطاة (مما ندهونا إليه ، وفي آذاننا وقر) ، أي : صمم
عما جئتنا به ، (ومن بيننا مغطيات) ، فلا يصل إلينا شيء مما نقول ، (فاعمل إننا حاملون) ، أي : اعمل أنت
على طريقك ، ونحن على طريقنا لانتباهك

قال الإمام العسكريم عبد بن حبيب في مسنده : حدثني ابن أبي شيبة ، حدثنا علي بن مسهر ، عن الأجلح ، عن الذبائيل
ابن حرملة الأسدي ، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال : اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا أحلكم
بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشقت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليتكلمه ولنتنظر

(١) سورة النحل : آية : ١٠٢ .

(٢) سورة الشعراء : الآيات : ١٩٢ - ١٩٤ .

(٣) سورة هود : آية : ١ .

(٤) سورة فصلت : آية : ٥٢ .

ماذا يَرُدُّ عليه ؟ فقالوا : ما تعلم أحدًا غير حُتَيْبِ بْنِ رَبِيعَةَ . فقالوا : أنت يا أبا الوليد . فأتاه حبة فقال : يا محمد ، أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : فإن كنت ترحم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة التي عبت ، وإن كنت ترحم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا مسخلة (١) قطُّ أشأم على قومك منك ، فرغمت جماعتنا ، وشئت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا ، وأن في قريش كاهنًا ! والله ما ننظر إلا مثل صبيحة الحبل يكون أبقوم بعضنا إلى بعض بالسيف ، حتى تنفاني ! أيها الرجل ، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغني قريش رجلا ، وإن كان إنما بك الباقة فاعثر أي نساء قريش فكنززوجك عثرًا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فرغت ؟ » قال : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم) حتى بلغ (فإن أرضعوا فقل أنلركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) . فقال حبة : حبك ! حبك ! ما عندك غير هذا ؟ قال : ولا . فرجع إلى قريش ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته : قالوا : فهل أجابك ؟ قال : لا ، والذي نصبها بنبوة (٢) ما فهمتُ شيئًا مما قال ، غير أنه أنلركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . قالوا : وبلك ! يكلمك الرجل بالحرية ما ندري ما قال ! قال : لا ، والله ما فهمتُ شيئًا مما قال غير ذكر الصاعقة .

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده ، عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده ، مظه سواه : وقد ساقه الثوري في تفسيره بسند عن محمد بن فضيل ، عن الأجلح وهو ابن عبد الله الكندي - وقد ضُغِفَ بعض الشيء من الدِّيَالِ بن حرمة ، عن جابر ، فذكر الحديث إلى قوله : (فإن أرضعوا فقل : أنلركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأسكت حبة على فيه ، وناشده بالرحيم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم . فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، والله ما نرى حبة إلا قد صبَّ إلى محمد ، وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا من حاجة أصابعه ، فانطلقوا بنا إليه . فانطلقوا إليه فقال أبو جهل : يا حبة ، ما حبَّسَكَ عنا إلا أنك صيوت إلى محمد وأعجبك طعامه ، فإن كانت لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما بينيك من طعام محمد . فغضب حبة ، وأقسم أن لا يكلم محمدًا أبدًا ، وقال : والله لقد علمتُ أني من أكثر قريش مالا ، وإنكيتي أتيته وقصصت عليه فلجأيتني بشيء . والله ما هو بشيء ولا كهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله : (فإن أرضعوا فقل : أنلركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) ، فأسكت فيهِ ، وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكلمه ، فخشيت أن يتزل بك المطلب .

وهذا السياق أثبه من سياق الزيل وأبي يعلى ، والله أعلم .

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة على خلاف هذا الخط ، فقال : حدثني [يزيد] بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثتُ أن حبة بن ربِيعَةَ - وكان سيلا - قال يوما وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أنوهم إلى محمد

(١) المسخلة : ولد لثقة من اللز والفسان ، والمسل : المولود المخبى إلى أبيه . وهو في الأصل ولد لثقة .

(٢) يني بالبيالة : الكلمة . وكانت تسمى بنية إبراهيم عليه السلام ، لأنه ينالها ، وقد كثر قسمهم بين هذه البيعة .

فَأَكْتَمَهُ وَأَعْرَضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّه يَقْبَلُ بَعْضُهَا ، فَضَلَّيْهَا أَيَّهَا شَاءَ وَيَكْفِ حَتَّى ؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حِمَزة ، وَوَأَوَّأَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ ، فَقَالُوا : بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِمَهُ . فَقَامَ إِلَيْهِ عَتِبةَ حَتَّى جُلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا ابْنَ أُخْتِي ، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السُّلْطَةِ (١) فِي الْعَتِبةِ ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ ، وَإِنَّكَ قَدْ أَثْبَتَ قَوْمُكَ بِأَمْرِ عَظِيمٍ ، فَكَرَّتَ بِهِ جَمَاعَتُهُمْ ، وَسَفَهَتْ بِهِ أَحْلَامَهُمْ ، وَعَصَبَتْ بِهِ أَلْفَتُهُمْ وَدِينَهُمْ ، وَكَفَرَتْ بِهِ مِنْ مَغْضَى مِنْ آبَائِهِمْ ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرَضَ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْتَظِرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنَّا بَعْضُهَا . قَالَ : فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ » . قَالَ : يَا ابْنَ أُخْتِي ، إِنْ كُنْتُ إِذَا تَرَيْدُ بَعْدَ جَسَتْ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا ، جَمَعْتَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ مِنْ أَكْثَرِنَا أَمْوَالًا . وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ [بِهِ] شَرَفًا مِثْلَ ذَلِكَ عَلَيْنَا ، حَتَّى لَا نَقْلَعَ أَمْرًا دُونَكَ ؟ وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ بِهِ مَلِكًا مِثْلَكَ عَلَيْنَا ؟ وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَغْبًا (٢) تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ ، طَلِبْنَا لَكَ الْعَلْبَ ، وَبَدَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نَبْرَكَ مِنْهُ ، فَهُنَا رَغْبًا غَلَبَ النَّاسُ (٣) عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوِي مِنْهُ - أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ - حَتَّى إِذَا فَرَّغَ حَتِيةَ وَرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْتَمِعُ مِنْهُ قَالَ : « أَفَرَحْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : « فَاسْتَمِعْ مِنِّي » . قَالَ : أَفْعَلُ ؟ قَالَ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - حَمْدٌ لِنَزِيلِ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابُ فَصَلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا قَوْمٌ يَعْلَمُونَ ، بِشَرِّهَا وَلَيْسَ أَفْأَعْرَضَ أَكْثَرَهُمْ لَهْمُ لَا يَسْمَعُونَ » ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا بِقُرْآنِهَا عَلَيْهِ ، فَلَمَّا سَمِعَ حَتِيةَ أَتَتْهَا ، وَأَتَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مَخْتَدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ [مِنْهَا] ، فَسَجَدَ ، ثُمَّ قَالَ : « قَدْ سَمِعْتُ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتُ ، فَأَنْتَ وَذَلِكَ » . فَقَامَ حَتِيةَ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَسْمَعْ - خِلْفَ يَالَهُ - لَقَدْ جَاءَكَ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذُخِبَ بِهِ ، فَلَمَّا جُلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا : مَا وَرَأَاكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ قَالَ : وَرَأَيْتُ أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ ، وَاللَّهِ مَا مَوَّ بِالسَّحَرِ وَلَا بِالشَّعْرِ وَلَا بِالْكِهَانَةِ ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُونِي لِي ، خُطَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَرَوْهُ ، فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ قَوْلُهُ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأًا ، فَإِنَّ نَعْبَةَ الْعَرَبِ قَدْ كَفَيْتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ ، وَإِنْ يَظْهَرُ عَلَى الْعَرَبِ فَمَلِكُهُ مَلِكُكُمْ ، وَحِزْهُ حِزْكُمْ ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، قَالُوا : صَرَحَ وَاللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ ! قَالَ : هَذَا رَأَيْتُ فِيهِ ، فَاصْنَعُوا مَا يَدَا لَكُمْ (٤) ، وَهَذَا السِّبَاقُ أَشْبَهُ مِنَ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ
الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مُتَّعٍ ﴿٦﴾

يقول تعالى (قُلْ) يا محمد [لِهَؤُلَاءِ] الْمَلَائِكِينَ بِمَشْرِكِينَ : [إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ] ، لَا كَمَا يَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَرْبابِ الْمُتَضَرِّقِينَ ، إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ) ، أَيْ : اخْلُصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ عَلَى

(١) السُّلْطَةُ - يَكْسِرُ السَّيْنُ - : الْفَرَفُ . وَكَانَ فِي الْخُطْبَةِ : « وَالتَّيْتُ مِنْ سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ .

(٢) الرُّقْ - يَنْصَحُ الرُّقْ ، وَهُوَ تِمٌّ يَكْسِرُهَا - : مَا يَتَرَأَى لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْبَيْنِ .

(٣) النَّاسُ - : مَا يَتَّبِعُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْبَيْنِ .

(٤) سِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ : ٢٩٢/١ - ٢٩٤ .

منوال ما أمركم به على السنة الرسل (واستغفروه) ، أى : لسالف الذنوب ، (وويل للمشركين) ، أى : دَمَارٌ لهم بهلاك عليهم ، (الذين لا يؤتون الزكاة) - قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعنى الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله (١) ، وكلما قال عكرمة .

وهذا كقولته تعالى : (قد أفلح من زكاهما . وقد خاب من صاهما) (٢) . وكقولته : (قد أفلح من تركى . وذكر اسم ربه فصل) (٣) . وقوله : (قل : هل لك إلى أن تركى) (٤) ؟ . والمراد بالزكاة هاهنا : طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك : وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تُطَهَّرُهُ من الحرام ، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه ، وتوفيقاً إلى استعماله فى الطاعات .

وقال السدى : (وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة) ، أى : الذين لا يَسْتَبِينُونَ بِالزَّكَاةِ (٥) ، وقال معاوية بن قره : ليس هم من [أهل] الزكاة .

وقال قتادة : يمتنون زكاة أموالهم .

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين . واختاره ابن جرير : وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة ، على ما ذكره غير واحد ، وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأموراً به فى ابتداء البعثة ، كقوله تعالى : (وآتوا حقّه يوم حصاده) ، فأما الزكاة ذات التَّضَمُّينِ والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة ، ويكون هذا جمعاً بين القولين ، كما أن أصل الصلاة كان واجباً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة ، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف ، فرض الله على رسوله الصلوات الخمس وتفصيل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك ، شيئاً قليلاً ، والله أعلم .

ثم قال بعد ذلك : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لم أجر غير ممنون) - قال مجاهد وغيره : « لا مقطوع ولا محبوب » ، كقوله : (ما كنتم فيه أبداً) (٦) ، وكقوله تعالى : (عطاء غير مجلوز) (٧) .

وقال السدى : (غير ممنون) عليهم . وقد رد عليه بعض الأئمة هذا التفسير ، فإن المنة لله على أهل الجنة ، قال الله تعالى : (بل الله يَحْسُنُ عليكم أن هذاكم للإيمان) (٨) . وقال أهل الجنة : (فن الله علينا ووفانا عذاب السموم) (٩) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ لَأَنْ يَتَسَمَّدَنَ عَلَى اللَّهِ بِرَحْمَةِ مَنَّهُ وَفَضْلِ (١٠) » ،

(١) تفسير الطبرى : ٦٠ / ٢٤ .

(٢) سورة الشمس ، آية : ١٠ / ٩ .

(٣) سورة الأهل ، آية : ١٤ : ١٥ .

(٤) سورة النازعات ، آية : ١٨ .

(٥) كذا فى خطبوة الأزهري . ومعنى : لا يؤمنون بها : لا يؤمنون بها . وأثر السدى كما فى تفسير الطبرى : ٦٠ / ٢٤ .

(٦) قال : لو زكوا وهم شركون ، لم يذهبهم .

(٧) سورة الكهف ، آية : ٣ .

(٨) سورة هود ، آية : ١٠٨ .

(٩) سورة الحجرات ، آية : ١٧ .

(١٠) سورة الطور ، آية : ٢٧ .

(١١) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « القصد والمداومة على العمل » : ١٢٣ / ٨ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « ان يدخل أحد الجنة بعمله ، بل يرحمة الله تعالى » : ١٣٩ / ٨ - ١٤٠ .

قُلْ إِنَّمَا أَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُفُسِهِ وَيُعَلِّمُهُ لِقَاءَ رَبِّهِ فَاذْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۖ وَجَعَلْ
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمِنْ بَيْنِكُمْ يَوْمُ تُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأَنْتُمْ فِيهَا كَالْعِجَافِ ۖ وَإِلَىٰ
الْحُكْمِ رُجُوعٌ ۚ فَذَلِكَ فَكَلِمَاتُ الْبَاطِلِ ۖ وَالْأَرْضُ الْبَاطِلِ ۖ أَوْ كَمَا قَالَتِ الْيَهُودُ طَارِيعِينَ ۖ فَتَقْضُونَ سَبْعَ
شُحُوفٍ فِي يَوْمٍ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ۖ وَذُنُوبُ السَّاعَةِ الْبَاطِلِ ۖ وَحُطَّتْ ذُنُوبُ الْعَالَمِينَ ۚ فَذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١٧٦﴾

حلما إنكار من الله على المشركين الذين هبلوا معه غيره ، وهو الخلق لكل شيء ، القاهر لكل شيء ، المقدّر لكل شيء ، فقال : قل : أنتم تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أندادا ، أي : نظراء وأمثالا يجعلونها معه ، (ذلك رب العالمين) ، أي : الخلق للأشياء هو رب العالمين كلهم :

وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى : (خلق السموات والأرض في ستة أيام) (١) ، ففصل هاهنا ما يخص الأرض مما يخص السماء ، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس ، والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس ، ثم بعده بالسقف ، كما قاله : (هو الذي خلق لكم من الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات (٢)) :: الآية .

فَمَا قَوْلُهُ : ﴿ أَتَمَّتْ أُنْشُدُ خَلْقًا لِمِ الْمَاءِ بَنَاتِهِ : رَفَعَ مَحْكَمًا فَمِنْ أَسْفَاةِهُ : وَأَغْطَشَ لِيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا : وَالْأَرْضُ بِمَدَدِكَ حَاطَا : أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا : وَالْبُجَايَا أُرْسَاهَا : فَمِنْ أَسْفَاةِهُ : مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٢٠) فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ دَحْيَى الْأَرْضِ كَانَ بِمَدَدِ خَلْقِ كَلِمَةٍ : قَالَهُ خَبِيرٌ أَهْوَى مَقْسَرٌ يَقُولُ : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا : ﴾ ، وَكَانَ هَذَا بِمَدَدِ خَلْقِ السَّمَاءِ : فَمَا خَلَقَ الْأَرْضَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ بِالْمَقْسَرِ : وَهَذَا الْجَانِبُ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ ذِكْرِ الْبُخَارِيِّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ صَحِيحِهِ : فَهَذَا قَوْلُ :

وقال للنبال ، عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ ، قال : (فلا أصاب بينهم يوسط ولا يضاهون) ، وأقبل بعضهم على بعض يتسألون) - (ولا يقيمون الله حدين) ، (والله ربنا ما كنا مشركين) ، فقد كنتموا في هذه الآية ؟ وقال : (أم الساء بتاها) ، إلى قوله : (دحاها) ، فلذكر خلق الساء قبل الأرض ، ثم قال : (قل : أنتم لتكفرون بالله خلق الأرض في يومين) ، إلى قوله : (طائعين) ، فلذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق الساء ؟ وقال : (وكان الله غفورا رحيما) ، (عزيزا حكيم) ، (سميعا بصيرا) ، فكانه كان ثم مضى .

قال - يعنى ابن عباس - : (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) في النسخة الأولى، ثم يتضح في الصور، (فصبحت من في السموات ومن في الأرض لإيمان شاء الله)، فلا أنساب [بينهم] عند ذلك ولا يتساءلون، (ثم) (٤) في النسخة الأخرى (أقبل بعضهم على بعض يتساءلون) ٥

(١) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٩ .

(٢) سورة النازعات ، الآيات : ٢٧ - ٣٣ .

(٤) ما بين القوسين هي الاختاري .

وأما قوله : (ما كنا مشركين) ، (ولا يكتمون الله حديثا) ، فإن الله يقتر لأهل الإخلاص قلوبهم ، فقال للمشركون : تعالوا نقول : « لم تكن مشركين » ، فيختم على أفواههم ، فتتعلق ألسنتهم ، فعند ذلك يعرف أن الله لا يكتم حديثا ، وعنده (يود الذين كفروا) الآية .

وخلق الأرض في يومين ، ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء فصورها في يومين آخرين ، ثم دحى الأرض ، ودحيتها : أن أخرج منها الماء والرمي ، وخلق الجبال والحياد (١) والآكام وما بينها في يومين آخرين ، فذلك قوله (صحاحا) ، وقوله (خلق الأرض في يومين) فتحلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام ، وعجلت (٢) السموات في يومين . (وكان الله خفوا رحيا) : سعى نفسه بذلك ، وذلك قوله ، أى : لم يزل كذلك ، فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد ، فلا يخلفن عليك القرآن ، فإن كلا من عند الله عز وجل .

قال البخارى : حدثني يوسف بن عدي ، حدثنا حبيب الله بن عمرو ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن المنهال — هو ابن عمرو — بالحدِيث (٣) .

فقوله : (خلق الأرض في يومين) — يعنى : يوم الأحد ويوم الاثنين — (وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها) أى : جعلها مباركة قابلة للخبر واليخر والغراس ، وقدر فيها أنوارها — وهو : ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزدح وتفرس — يعنى يوم الثلاثاء والأربعاء ، فها مع اليومين السابقين أربعة ، ولهذا قال تعالى : (في أربعة أيام سواء للسائلين) ، أى : لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه .

وقال مجاهد وعكرمة في قوله : (وقدر فيها أنوارها) : جبل في كل أرض مالا يصلح في غيرها ، ومنه : العصب (٤) باليمن ، والسارى يسابور ، والطيايلة بالرى (٥) .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، والسدى في قوله تعالى : (سواء للسائلين) ، أى : لمن أراد السؤال عن ذلك .

وقال ابن زيد : معناه (وقدر فيها أنوارها في أربعة أيام سواء للسائلين) ، أى : على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة ، فإن الله قدّر له ما هو محتاج إليه .

وهذا القول يشبه ما ذكره في قوله تعالى : (وآتاكم من كل ما سألتموه (٦)) ، والله أعلم .

(١) في البخارى : « الجبال والحيال والآكام » .

(٢) في الخطامة : « وخلق » . والمنبى من البخارى .

(٣) البخارى ، تفسير سورة حم . الصفحة : ١٥٩/٦ = ١٦٥ .

(٤) العصب — بفتح فسكون — « يرود عينة يصعب فزلا » ، أى : يجمع ويشد ثم يصعب وينسج ، فيأتى موشيا ، لبقاء ما صعب منه أبض لم يأخذ صعب .

وأما السارى فهو منسوب إلى سابور — بلدة قريبة من أصفهان — وكل ثوب رقيق حنم : سارى .

وأما الطيايلة فيجمع طيلسان وطيلاس . وهى كلمة فارسية معربة . وفسر بأنه : ثوب يلبس على الكتف . وقيل : ثوب يحيط بالبدن ينسج لبس ، خال عن التفصيل والخيالة . وقيل أيضا : « كساء مدور أخضر لا أمل له ، طبت أو ساء من صوف ، يلبسه الخواص من العلماء والمشايع » ، وهو من لباس النعم .

والرى — بفتح الراء — : مدينة مشهورة بفارس .

(٥) انظر تفسير الطبرى : ٦٢/٢٤ .

(٦) سورة إبراهيم ، آية : ٣٤ .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ ، وهو : بخار الماء للتصاعد منه [حين ! خلقت ! الأرض ^(١)] ، (فقال لها وللأرض : اتيا طوحا أو كرها) ، أى : استجيبا لأمرى ، وانقلعا لقلبي ، طائعتين أو مكرهتين . قال الثوري ، عن ابن جرير ، عن سليمان بن موسى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فقال لها وللأرض : اتيا طوحا أو كرها ﴾ ، قال : قال الله تعالى للسموات : أطلعي شمسي وقمرى ونجوى . وقال : للأرض : شفتي أنهارك ، وأخرجني يارك ! فقلنا : ﴿ آتينا طائفتين ^(٢) ﴾ .

واختاره ابن جرير رحمه الله .

(قلنا آتينا طائفتين) ، أى : بل نستجب لك مطيعين عما فئنا ، عما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين لك ؛ حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية ، قال : وقيل : تنزيلا لمن معاملة من يعقل بكلامها ^(٣) . وقيل : إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة ، ومن السماء ما يسامته منها ، والله أعلم ، وقال الحسن البصري : لو ألبيا عليه أمره لميلها حللها عجلان لله . رواه ابن أبي حاتم :

(ففضاض سبع سموات في يومين) ، أى : ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين ، أى : آخرين ، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة .

(وأوحى في كل سماء أمرها) ، أى : ورتب مقورا في كل سماء ما يحتاج إليه من الملائكة ، وما فيها من الأشياء التي لا يلمها إلا هو ، (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) ، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ، (وحفظا) ، أى : حرسا من الشياطين أن تستمع إلى للأهل .

(ذلك تقدير العزيز العليم) ، أى : العزيز الذي قد عز كل شئ فغلبه وقهره ، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم ؛

قال ابن جرير : حدثنا هناد بن السرى ، حدثنا أبو بكر بن حياش ، عن أبي سعيد البقال ، عن عكرمة ، عن ابن عباس - قال هناد : قرأت سائر الحديث أن اليهود أتت النبي - صلى الله عليه وسلم - فسألته عن خلق السموات والأرض ، فقال : « خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيها من منافع ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمذاتن والعمران والخراب ، فهذه أربعة ^(٤) » ، (قل : أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ،

(١) في المخطوطة : « السماء » . وللتيت عن الطبعات السابقة .

(٢) تفسير الطبري : ٦٤/٢٤ .

(٣) قال الطبري : ٦٤/٢٤ : « وقيل : قلنا آتينا طائفتين » ولم يقل : « طائفتين » ، والسماء والأرض مؤنثتان ؟ لأن النون والالف اللتين هما كناية أسماهما في قوله : (آتينا) فثيرة كناية أسماء الغيبرين من الرجال عن أنفسهم ، فأجرى قوله (طائفتين) على ما جرى به الخبر من الرجال كذلك . وقد كان بعض أهل العربية يقول : ذهب به إلى السموات والأرض ومن فيهن . وقال آخرون منهم : قيل ذلك كذلك ، لأصلا لا تكلمنا أشبهنا فذكور من بني آدم .

(٤) بماء في تفسير الطبري : « ثم قال : (أنكم) » .

ويجعلون له أنثاد ذلك رب العالمين • وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين) : لمن سأل - قال : وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه [فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الأجل ، حين عوت من مات (١)] ، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس ، وفي الثالثة آدم ، وأسكنه الجنة ، وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجته منها في آخر ساعة : ثم قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : « ثم استوى على العرش » . قالوا : قد أصبت لو أتممت ! قالوا : ثم استراح ، ففضبه النبي - صلى الله عليه وسلم - فضبا شديدا ، قتل : (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب • فاصبر على ما يقولون (٢))

هذا الحديث فيه غرابة . فاما حديث ابن جريج ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيدي فقال : « خلق الله الترياق يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيها بين العصر إلى الليل » . فقد رواه مسلم (٣) والنسائي في كتابيها ، عن حديث ابن جريج ، به . وهو من غرائب الصحيح ، وقد عكّله البخاري في التاريخ فقال : رواه بعضهم عن أبي هريرة ، عن كعب الأحبار ، وهو الأصح .

فَإِنْ أَرْضُوا فَقَبَلْ أَنْتَرْتَكُمْ صَعِقَةً مِثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ ﴿١٦﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ
وَمِنْ خَلْقِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِهِ لَكَافِرُونَ ﴿١٧﴾ فَأَمَّا عَادُ
فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ قُوَّةً مِنَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقْنَاهُمْ هُوَ أَشَدُّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَيْنِنَا لَمَّا جَعَلْنَاهُمْ قُلُوبًا فَاسْتَكْبَرُوا ﴿١٨﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْفِخَهُمْ عَذَابَ
الْجِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَهْزَى وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا نُوحُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَجَبُوا
أَلْعَمَى عَلَى الْأُصْدَى فَخَلَقْنَاهُمْ مِثْلَ مِثْلٍ لَمَّا جَعَلْنَاهُمْ قُلُوبًا فَاسْتَجَبُوا ﴿٢٠﴾ وَنَحْنُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لولا المشركين للكافرين بما جنتهم به من الحق : إن أَرْضَهُمْ عما جنتكم به من عند الله ، فإن أَرْضَكُمْ حول نعمة الله بكم ، كما حلت بالأمم الماضية من المكلفين بالرسول (ضاعقة مثل ضاعقة عاد ونوح) ، أي : ومن شاكلها بمن فعل كمثلها ، (إذ جاءتهم الرسل من بني إدريس) ، كفوله تعالى : (واذكر أخطا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاد ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه (٤)) ، أي : في القري المخاورة لبلادهم ، بئس الله إليهم الرسل يأمرون

(١) ما بين القوسين سقط من تفسير ابن كثير ، وقد أثبتناه من الطبري .

(٢) تفسير الطبري : ٦١/٢٤ .

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف : ٢٢٢/٣ ، وخرجناه هناك .

(٤) سورة الأحقاف ، آية : ٢١ .

بعبادة الله وحده لا شريك له ، ومبشرين ومنزّلين ، ورأوا ما أحلّ الله بأعدائه من القتل ، وما ألبس أوليائه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا ، بل كلبوا وجسّسوا ، وقالوا : (لو شاء ربنا لآنزل ملائكة) ، أى : لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده ، (فإنّا بما أرسلهم به) ، أى : أنبا البشر (كافرون) ، أى : لانتقمكم وأنتم بشر مثلنا . قال الله تعالى : (فأنما هاد فاستكبروا في الأرض) ، أى : بغوا وعتوا وعصّوا ، (وقالوا : من أشدّ منا قوة ؟) ، أى : منّا يشدّة تركيبيهم وقوامهم ، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ! (أو لم يروا أنّ الله الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وإن يقبله شديد ، كما قال تعالى : (والسياء يتبناها يأيد وإنا لموسون) (١)) ، فبرزوا الجبار بالدعوة ، وجعلوا بآياته وعصا رسوله ، فلهذا قال : (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا) - قال بعضهم : وهى الشيلة الملبوب . وقيل : الباردة . وقيل : هى التى لها صوت .

والحق : أنها متصفة بجميع ذلك ، فإنها كانت ريحا شديدة قوية ، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قوامهم ، وكانت باردة شديدة البرد ، جلدا كقوله تعالى : (يبيع صرصر حاية) (٢) ، أى : باردة شديدة ، وكانت ذات صوت مزعج ، ومنه سمى النهر المشهور ببلاد المشرق « صرصر » (٣) ، لقوة صوت جريه .

وقوله : (في أيام نحسات) ، أى : متتابعات ، (سبع ليال وثلثية أيام حسوما) (٤) ، كقوله : (في يوم نحس مستمر) (٥) ، أى : ابتدأوا جلدا العذاب في يوم نحس عليهم ، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثلثية أيام ، حتى أبادهم عن آخرهم ، واتصل بهم عوى الدنيا بعذاب الآخرة . ولهذا قال تعالى : (لتأتبهم عذاب الخرى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشدّ) ، أشدّ خويا لم ، (وهم لا ينصرون) ، أى : فى الآخرة كما لم ينصروا فى الدنيا ، وما كان لهم من الله من واثق يتيهم العذاب ويلوأ حتهم التكال .

وقوله : (وأما نوح فهدىناهم) - قال ابن عباس ، وأبو العالية ، وسعيد بن جبير ، وقطادة ، والسدى ، وابن زيد : يثا لم (٦) :

وقال الثوري : هدىناهم .

(فاستجروا العصى على الهدى) ، أى : تصرّواهم ، وبثناهم ، ووضعتنا لهم الحقّ على لسان نبيهم صالح - صلى الله عليه وسلم - فغالفوه وكنّبوه ، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلمة على صدق نبيهم ، (فأغلّبهم صاعقة العذاب الموت) ، أى : بثّ الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا ، (بما كانوا يكسبون) ، أى : من التكليب والجحود : (ونجينا الذين آمنوا) ، أى : من بين أظهرهم ، لم يمتسهم سوء ، ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح بإيمانهم ، وتقرّاهم الله ، عز وجل .

(١) سورة الأعراف : آية ٤٧ .

(٢) سورة الحاقة : آية ٦ .

(٣) فى مجمع البلدان لياتوت : « وصرصر قريتان من مواد بندا : صرصر الدنيا وصرصر السفلى ، وهما حل شفة نهر حيسى ود . بما قيل : نهر صرصر ، فنسب لغير إليهما .

(٤) سورة الحاقة : آية ٧ .

(٥) سورة القمر : آية ١٩ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤ / ٦٧ .

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا دَعْوَانَا اللَّهُ أَنفَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُمْ مُتَلَاقُونَ ﴿١٣﴾ وَلَئِنَّمَا لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ تَرْجِعُونَ ﴿١٤﴾ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَعْرَضُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَبَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فُلْنَارٌ مُّثَوًى ثُمَّ وَلَّىٰ بِسَمْعِهِمْ فَلَا مَسْمُوعِينَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) ، أى : اذكر هؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار ، (يوزعون) ، أى : تجمع الزبانية أولهم على آخرهم ، كما قال تعالى : (ونسوق الجحيم إلى جهنم وردا) (١) ، أى : عطاشا .

وقوله : (حتى إذا جاءوها) ، أى : وقفوا عليها ، (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) ، أى : بأعمالهم مما قدموه وأخبروه ، لا يحكم منه حرف .

(وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا) ؟ أى : لأمرا أعضائهم وجلودهم حين شهدوا عليهم ، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء : (قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) ، وهو خلقكم أول مرة) ، أى : فهو لا يخالف ولا يمانع ، وإليه ترجعون .

قال الحافظ أبو بكر الزرار : حدثنا [محمد بن] عبد الرحيم ، حدثنا علي بن قادم ، حدثنا شريك ، عن عبيد المكعب ، عن الشعبي ، عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونيسم ، فقال : « ألا تسألونى عن أى شيء ضحكتم ؟ » قالوا : يا رسول الله ، من أى شيء ضحكتم ؟ قال : « حجبته من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : أى ربى ، أليس وعدتني أن لا تظلمنى ؟ قال : بلى . فيقول : فإنى لا أقبل على شاعدا إلا من نفسى . فيقول الله تبارك وتعالى : أو ليس كفى فى شهيدا ، وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟ » قال : فردد هذا الكلام مرارا . قال : فيختم على فيه ، وتكلم أركانته بما كان يعمل ، فيقول : بُعِدْ لَكُنْ وَسُحْقَا ، عنكن كنت لأجادل .

ثم رواه هو وابن أبي حاتم (٢) ، من حديث أبي عامر الأسدي ، عن الثوري ، عن عبيد المكعب ، عن فضيل ابن عمرو ، عن الشعبي . ثم قال : « لا تعلم رواء عن أنس غير الشعبي » . وقد أخرجه مسلم (٣) والنسائي جميعا عن أبي بكر ابن أبي النضر ، [عن أبي النضر] ، عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي ، عن الثوري ، به . ثم قال النسائي : « لا أعلم أحدا رواه عن الثوري غير الأشجعي » . وليس كما قال كرايت ، والله أعلم .

(١) سورة مريم ، آية ٨٦ .

(٢) تقيمت رواية ابن أبي حاتم عنه لتفسير الآية الرابعة والعشرين من سورة النور ٢٤/٦ ، والآية الخامسة والعشرين من سورة

يس ٥٢٢/٦ .

(٣) انظر التعليق السابق ، فقد أخرجنا حديث مسلم هناك .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن إبراهيم ، حدثنا إسماعيل بن عتيبة ، عن يونس بن عبيد ، عن حميد بن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى : وبذى الكافر والمناقب للحساب ، فَيَعْرِضُ عليه ربه - عز وجل - عمله ، فيجحد ويقول : أي رب ، وعزتك لقد كسب على هذا الملك ما لم أعمل ! فيقول له الملك : أما علمت [كذا] ، في يوم كذا ، في مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزتك ، أي رب ما علمه ، فإذا قُضِيَ ذلك خُصِمَ على فيه - قال الأشمري : فإنني لأحسب أنك ما ينطق منه فقله (١) اليسى .

ولال الحافظ أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا حسن ، عن ابن قيس : قال دراج ، عن أبي الجهم ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة ، عُرِفَ الكافر بعمله ، فحبسه وخاصمه ، فيقال : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك ؟ فيقول : كذبوا ! فيقول : أهلك مشركك ؟ فيقول : كذبوا ! فيقول : احلفوا ، فيحلفون ، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم » [السنن ، ويصلحهم الآثار (٢)] .

وقال ابن أبي حاتم : وحدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن إبراهيم ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث : سمعت أبي : حدثنا علي بن زيد ، عن مسلم بن حبيب أبي الضمعي ، عن ابن عباس : أنه قال لابن الأرقم : إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين ، لا يتفقون ولا يعثرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم ، ثم يؤذن لهم فيخصمون ، فيجحد الجاحد بشركه بالله ، فيحلون له كما يحلون لكم ، فيبعث الله عليهم حين يحلون شهداء من أنفسهم ، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم ، ويتم على أممهم ، ثم يفتح لهم الأفواه فتخامم الجوارح ، فتقول : (أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) ، وهو خلقكم أول مرة (وإليه ترجعون) ، ففزع الألسنة بعد الجحود :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا حَمْدَةُ بن سليمان ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا صفوان بن عمرو ، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر الحضرمي ، عن رافع أبي الحسن - وَصَفَ رجلاً جسد - قال : فَيُشِيرُ الله إلى لسانه ، فَيُزِيرُ به فهُوَ حَتَّى يَمْلَأَهُ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ ، ثُمَّ يَقُولُ لَأَرَاهُ (٢) كلها : تَكَلَّمَى واشْهَدَى عليه . فَيُشْهَدُ عليه سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَجِلْدُهُ ، وَفَرْجُهُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ ، صَمْتُهُ ، عَلَنُهُ ، فَلَمَّا

وقد تقدم أحاديث كثيرة ، وأثار عند قوله تعالى في سورة يس : (اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، ونشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) ، مما أفضى من إعادته هاهنا ،

وقال ابن أبي حاتم - رحمه الله - حدثنا أبي، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا يحيى بن مسلم الطاطي، عن ابن خنسم، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: لما رجعت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - مهاجرة البحر قال: «ألا تحشون بأعجابه ما رأيت بأرض الحبشة؟» فقال رفته منهم على يا رسول الله، بينما نحن جلوس إذ مرت علينا حمير من

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة والستين من سورة « يس » من ذواية الطبري عن يعقوب بن إبراهيم ، عن ابن عليه ، ٤٨ . انظر : ٥٧٣/٦ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير آية والنور ، من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم ، كلهما عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن دجاج ، به نحوه ، انظر ٣٣٦/١ .

عجائز ومأيتهم ، تحمل على رأسها قلة من ماء ، فرت بقی منهم ، فجعل إحدى يديه بين كتفها ، ثم دفعها فخرت على ركبتيها ، فانكسرت قلها . فلما ارتفعت التفت إليه فقالت : سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي ، وجمع الأولين والآخرين ، وتكلمت الأبدى والأرجل بما كانوا يكسبون ، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدا ؟ قال : يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « صدقته » صلت ، كيف يكدس (١) الله قوما لا يؤخذ لضيعتهم من شديدهم ؟ »

هذا حديث غريب من هذا الوجه . ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأحوال : أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال : أخبرنا يحيى بن سليم ، به (٢) .

وقوله : (وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) ، أى : تقول لم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تتكتمون منا الذى كنتم تفلونه ، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ، ولا تبالون منه في زعمكم ، لأنكم كنتم لا تعتصمون أنه يعلم جميع أفعالكم ، ولهذا قال : (ولكن ظننم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وذلك ظنكم الذى ظننم بربكم أرداكم) ، أى : هذا الظن الفاسد - وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون - هو [الذى] ألتفكم وأرداكم عند ربكم ، (فأصبحن من الخاسرين) ، أى : في مواقف القيامة خسرت أنفسكم وأهلكم .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عبد الحمزة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله قال : كنت مسترا بأسرار الكعبة فجاء ثلاثة نفر : قرشى ، وختناه (٣) ثقيبان - أو : ثقيبان وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم . فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أثرون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رلفنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه . فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله . قال : فلذكريت ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فأقول الله عز وجل : (وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) ، إلى قوله : (من الخاسرين (٤)) .

وكذا رواه الترمذى عن حنّاد ، عن أبي معاوية ، بإسناده نحوه (٥) . وأخرجه أحمد ومسلم والترمذى أيضا ، من حديث سفیان الثوري ، عن الأعمش ، عن حمزة بن عُمير ، عن وهب بن ربيعة ، عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - بنحوه (٦) . ورواه البخارى ومسلم أيضا ، من حديث السفينان ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن أبي معمر عبد الله بن سفيان ، عن ابن مسعود ، به (٧) .

(١) أى : يظهر من اللبس والإكام .

(٢) ورواه ابن ماجة في كتاب الفتن من سننه ، باب « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الحديث ٤٠١٠ ، من سويد بن سعيد بإسناده مثله . انظر : ١٣٢٩/٢ .

(٣) الفتن - بفتح فسكون - : زوج البيت .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٨١/١ .

(٥) تحفة الأورذى ، تفسير سورة « حم ، السجدة » : الحديث ٣٣٠١ : ١٢٣/٩ ، وقال : « هذا حديث حسن » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٤٠٨/١ ، ومسلم ، كتاب صفات المنافقين : ١٢١/٨ ، و تحفة الأورذى ، الكتاب المتقدم ، الحديث ٣٣٠٢ .

١٢٤/٩ .

(٧) البخارى ، تفسير سورة « حم ، السجدة » : ١٦١/٦ - ١٦٢ . ومسلم ، كتاب صفات المنافقين : ١٢١/٨ .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في قوله : (أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) ، قال : إنكم تُدْعَوْنَ مُفَكِّدًا على أفواهكم بالقيء ، فأول شيء يبين عن أحدكم خلفه وكفه (١) .

قال معمر : وتلا الحسن : (وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم) ، ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقال الله : أنا مع عبدي عند ظنّه بي ، وأنا معه إذا دعاني ، ثم افترّ الحسن (٢) ينتظر في هذا ، فقال : ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم ، فأما المؤمن فأحسن الظنّ بربه فأحسن العمل ، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظنّ بالله فأساءا العمل : ثم قال : قال الله تعالى : (وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم) ، إلى قوله : (وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) :

وقال الإمام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل القاص - وهو أبو المغيرة - حدثنا ابن أبي ليلى ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا يحزن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ، فإن قوما لا قدّ أرداهم سوء ظنهم بالله ، فقال الله تعالى : (وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ، فأصبحتم من الخاسرين (٣)) .

وفوله : (فإن يصبروا فإننا مثنى لهم وإن يستعذبوا فما هم من المؤمنين) ، أي : سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم في النار ، لا يحيد لهم منها ، ولا يخرج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعذبوا ويبنوا أعددا فما هم أعداء ، ولا يقال لهم حشرات .

قال ابن جرير : ومعنى قوله : (وإن يستعذبوا) ، أي : يسألوا الرجعة إلى الدنيا ، فلا جواب لهم - قال : وهذه كقوله تعالى إخبارا عنهم : (قالوا : ربنا ، غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها ، فإن عدنا لئنّا ظلّمون . قال : انحسروا فيها ولا تكلمون (٤)) :

﴿ وَفَعَلْنَا لَهُمْ قُرْبَاهُ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ ٥٠ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذِهِ الْقُرْآنِ وَالنَّغْوِ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِقُونَ ٥١ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٥٢ فَذَلِكَ جَزَاءُ أَهْلِ الْآثَرِ اللَّهُ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٥٣ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الْآلِينَ أَضِلَّالًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ تَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَتْقَانِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ٥٤

يلكر تعالى أنه هو الذي أضل للمشركين ، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته ، وهو الحكيم في أفعاله ، بما قبض لهم من القُرْآن من شياطين الإنس والجن : (فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) ، أي : حسّنوا لهم أعمالهم في الماضي ، وبالنسبة

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة والستين من سورة هـ : ٥٧٢/٦ ، وانظر تعليقنا هناك على غريبه .

(٢) أي : ليس حتى يدت أمثاله من غير تهفئة .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٩٠/٣ - ٣٩١ .

(٤) تفسير الطبري : ٧٠/٢٤ - ٧١ .

إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسّنين ، كما قال تعالى : (ومن يمش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين • وإليه يصعدون من السيل ويسبون أنهم مهترون) (١) .

وقوله تعالى : (وحق عليهم القول) ، أى : كلمة المذاب كما حقّ على أمّ قد خلت من قبلهم ، ممن فعل كضلهم ، من الجن والإنس ، (إني كانوا خاسرين) ، أى : استوتوا هم وإياهم في الخسار والدمار .

وقوله تعالى : (وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن) ، أى : تراصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ، ولا يتقادوا لأوامره ، (والفرا فيه) ، أى : إذا تكبى لا تسمعوا له . كما قال بجاهد : (والفرا فيه) ، يعنى بالمكناة والصغير والتخليط في المتعلق على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا قرأ القرآن قرئش تعله (٢) ،

وقال الضحّاك : عن ابن عباس : (والفرا فيه) : حيّوه .

وقال قتادة : اجسّدوا به ، وأنكروه وعادوه .

(لعلكم تغلبون) : هذا حال هؤلاء الجبهة من الكفار ، ومن سلك مسلكتهم عند سماع القرآن : وقد أمر الله — سبحانه — عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال : (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون) (٣) :

ثم قال تعالى : متصراً للقرآن ، ومتنبهاً عن عاداه من أهل الكفران : (فغلبنا الذين كفروا عليها شديداً) ، أى : في مقابلة ما اعتصموا به في القرآن وعند سماعه ، (ولنجزينهم أسوأ التي كانوا يعملون) ، أى : بشر أعلمهم ، وسيبئهم أقبلهم (ذلك جزاء أعداء الله النار) ، لم فيها دار الخلد ، جزاء بما كانوا يأتينا بيجلون • وقال الذين كفروا : ربنا ، أرونا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلها تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) .

قال سفيان الثوري ، عن سلمة بن كهيل ، عن مالك بن الحُصَيْن التَّزَكْرِي ، عن أبيه ، عن علي رضي الله عنه في قوله : (الذين أضلانا) ، قال : إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه (٤) .

وهكذا روى حَبَّه العُرَقي (٥) عن علي ، مثل ذلك .

وقال السدي ، عن علي : إبليس يدعو به كل صاحب شرك ، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة ، إبليس — له الله — هو الداعي إلى كل شر من شرك فدا دونه وابن آدم الأول . كما ثبت في الحديث : (وما فتئت نفس ظالم إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من معها ، لأنه أول من سن القتل) (٦) .

(١) سورة الفرقان : آية ٣٦ - ٣٧ .

(٢) تفسير الطبري : ٧١/٢٤ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٢٠٤ .

هذا وقد كان لقرآن التكريم تأثير قوى على المشركين ، وكانوا يتوقفون هذا التأثير بإحداث الصبيح والصغير عند تلاوة المسلمين له ، فصاب الله تعالى — هذا الصبيح ، وهدم بالمذاب الشديد عليه .

(٤) تفسير الطبري : ٧٢/٢٤ .

(٥) في تفسير الطبري : ٧٢/٢٤ : و هو خطأ .

(٦) تقدم الحديث عند الآية التاسعة والعشرين من سورة المائدة ، وخرجناه هناك . انظر : ٨٣/٣ .

وقوله : (لِيَجْهَلَكَ اللَّهُ) ، أى : أسفل منا في العذاب ليكون أشد عذاباً منا ، ولما قالوا : (لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)^(١) : أى : في الدرك الأسفل من النار ، كما تقدم في « الأعراف » من سؤال الأنبياء من الله أن يعذب قاصدهم أضعاف عذابهم ، قال : (لكل ضعف ولكن لا تعلمون (١)) ، أى : إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال ، بحسب عمله وإفساده ، كما قال تعالى : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٢)) .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا يَخْفَوْا وَلَا يَحْزَنُوا وَأَنْبَشُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٠﴾ تَحْنُ أُولَآئِكَ فِي الْحِمَىةِ الدِّينِةِ وَفِي الْآيَةِ وَلَكْرَ فِيهَا مَا تَشْتَوِي أَنْفُسُكَ وَلَكْرَ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿١٠١﴾ تَزَلَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَفْتَوْا) ، أى : أخلصوا العمل لله ، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم .

قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا الجراح ، حدثنا سَكَمُ بْنُ قَتِيبةٍ أَبُو قَتِيبةٍ الشَّعْبِيُّ ، حدثنا سُهَيْلُ بْنُ أَبِي حَزْمٍ حدثنا ثابت ، عن أنس بن مالك قال : قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَفْتَوْا) ، فَدَفَعْنَا نَاسٌ ثُمَّ كَفَرُوا أَكْثَرَهُمْ ، فَنَافَلْنَا حَتَّى مَوْتِ فَقَدْ اسْتَقَامَ عَلَيْهَا .

وكذا رواه التَّسَنُّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَالْبَزَّازُ وَابْنُ جُرَيْرٍ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ عَلَى النَّفْلَاسِ ، عَنْ سَكَمِ بْنِ قَتِيبةٍ ، بِهِ . وَكَلَّا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَتَّامٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ النَّفْلَاسِ ، بِهِ . ثُمَّ قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن عامر بن سعد ، عن سعيد بن نضران^(١) قال : قرأت عند أبي بكر الصديق هذه الآية : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا) ، قال : هم الذين لم يشركوا بالله شيئا . ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال : قال أبو بكر - رضى الله عنه - ما تقولون في هذه الآية : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا ؟) قال : فقالوا (رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا) من ذنب . فقال : لقد حملتموها على غير الحمل ، (قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا) ، فلم يلتفتوا إلى إله غيره^(٢) .

(١) سورة الأعراف ، آية : ٣٨ .

(٢) سورة النحل ، آية : ٨٨ .

(٣) في تفسير الطبري ٧٣/٢٤ : « سالم » . وهو خطأ .

(٤) في تفسير الطبري : « سعيد بن جمران » . وهو خطأ . انظر ترجمته في امد القاموس : ٣٩٩/٢ - ٤٠٠ . بتحقيقنا .

(٥) ١١٠/٢٤ .

وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والسدي ، وغير واحد ؛

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبد الله الطبراني ، أخبرنا حفص بن عمر العدي ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال : سئل ابن عباس - رضي الله عنهما - أي آية في كتاب الله أرخص ؟ قال قوله : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) على شهادة أن لا إله إلا الله ؛

وقال الزهري : تلا عمر هذه الآية على المنبر ، ثم قال : استقاموا - والله - الله بطاعته ، ولم يروغوا ووَكَانَ التَّحَالُفُ ؛

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (قالوا : ربنا الله ثم استقاموا) على أداء فرائضه (١) ؛ وكذا قال قتادة ، قال : وكان الحسن يقول : اللهم ، أنت ربنا ، فارزقنا الاستقامة ؛

وقال أبو العالية : (ثم استقاموا) ؛ انحلصوا له العمل والدين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا يعلى بن عطاء ، عن عبد الله بن سفيان الثقي ، عن أبيه ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ، مررت بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ؛ قال : قل : آمنت بالله ، ثم استقم ؛ قلت : لا أتقى ؟ فأوماً إلى لسانه (٢) ؛

ورواه النسائي من حديث شعبة ، عن يعلى بن عطاء ، به .

ثم قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا إبراهيم بن سعد ، حدثني ابن شهاب ، عن محمد بن عبد الرحمن ابن مازع الغامدي ، عن سفيان بن عبد الله الثقي قال : قلت : يا رسول الله ، حدثني بأمر أعظم به ؛ قال : قل : ربنا الله ، ثم استقم ؛ قلت : يا رسول الله ، ما أكثر ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرف لسان نفسه ، ثم قال : وهذا (٣) ؛

وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه ، من حديث الزهري ، به ؛ وقال الترمذي : حسن صحيح (٤) ؛ وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي ، من حديث هشام بن هرو ، عن أبيه ، عن سفيان بن عبد الله الثقي قال : قلت : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ؛ قال : قل : آمنت بالله ، ثم استقم (٥) ؛ وذكر تمام الحديث ؛

وقوله : (تتزل عليهم الملائكة) - قال مجاهد (٦) ، والسدي ، وزيد بن أسلم ، وابنه : يعني عند الموت كالتلين (أن لا تخافوا) - قال مجاهد ، وعكرمة ، وزيد بن أسلم : أي عما تقدمون عليه من أمر الآخرة ، (ولا تخزنوا) ، على ما خلفتموه من أمر الدنيا ، من ولد وأهل ، ومال وأودين ، فإنما تتخلفكم فيه ، (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فيشرونهم بها ؛

الشر [وحصول الخير] ؛

(١) تفسير الطبري : ٧٣/٢٤ - ٧٤

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٨٤/٤ - ٣٨٥

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤١٣/٣

(٤) تحفة الأوسى : أبواب الزهد ، باب ما جاء في حفظ اللسان ؛ الحديث ٢٥٢٢ ؛ ٩١٤/٧ ؛ وابن ماجه : كتاب الفتن ، باب ذكر اللسان في الفتنة ؛ الحديث ٣٩٧٢ ؛ ١٣١٤/٢

(٥) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في أوصاف الإسلام ؛ ٤٧٤/١

(٦) انظر تفسير الطبري : ٧٤/٢٤

وهذا كما في حديث البراء (١) - رضى الله عنه - : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كتبت عمرته ، اخرجي إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان » :

وقيل : إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم - حكاه ابن جرير (٢) - عن ابن عباس ، والسدى .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد السلام بن مطهر ، حدثنا جعفر بن سليمان : سمعت [الابن] قرأ سورة حم . السجدة : : حتى بلغ : (إن الذين قالوا : ربنا الله - ثم استقاموا ، تنزل عليهم الملائكة) . فوقف فقال : بلغنا أن العبد المؤمن حين يمته الله من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا ، فيقولان له : لا تخف ولا تحزن ، (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) ، قال : فيؤمن الله - خوفاً ، ويُسِرُّ عينه ، فما عظيمة يتخشى الناس يوم القيامة إلا هي المؤمن فَرَّةُ عين ، لا هذا والله ، ولا مكان يعمل له في الدنيا .

وقال زيد بن أسلم : يبشرونه عند موته ، وفي قبره ، وحين يمته . ورواه ابن أبي حاتم .

وهذا القول يجمع الأقوال كلها ، وهو حسن جداً ، وهو الواقع .

وقوله : (نحن أولياكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ، أى : نقول للملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا أولياكم ، أى : قرناكم في الحياة الدنيا ، نُسَدِّدُكم ونوفِّقُكم ، ونحفظُكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة نُؤَيِّسُكُمْ منكم الرحمة في القبور ، وعند النشأة في الصور ، ونوئِّمُكم يوم البعث والنشور ، ونجاوزُكم الصراط المستقيم ، ونوصلُكم إلى جنات النعيم . (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم) ، أى : في الجنة من جميع ما يختارون مما تشتهيه النفوس ، وتقر به العيون ، (ولكم فيها ما تدعون) ، (أى : مما طلبتم وجدتم ، وحضر بين أيديكم كما اخترتم) ، (نزلاً من غفور رحيم) ، (أى : ضيفاً وعطاء وإنعاماً من غفور للنفوس ، ورحيم بهم ، رءوف ، حيث غفر ، وسر ، ورحم ولطف) .

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديث « سوق الجنة » عند قوله تعالى : (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم) ، فقال :

حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين أبي سعيد ، حدثنا الأزاعي ، حدثني حسان بن عطية ، عن سعيد بن المسيب : أنه لقي أبا هريرة ، فقال : أبو هريرة : سألت الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة . فقال سعيد : أو فيها سوق؟ قال : نعم ، أخبرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها ، نزلوا بفضل أعمالهم ، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله - عز وجل - ويبرز لهم حرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة . وترى لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجده ، ومنابر

(١) ليس هنا من حديث البراء ، وإنما هو من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم تقريره عند تفسير الآية الثانية والسبعين من سورة الأنعام ، انظر : ٢٦٢/٣ - ٢٦٣ . وأما حديث البراء بن عازب فلفظه كل خير هذا اللفظ ، وقد تقدم عند تفسير الآية الأربعين من سورة الأعراف ، وخرجناه هناك ، انظر : ٤٠٨/٣ - ٤٠٩ .

(٢) انظر تفسير الطبري ٧٤/٢٤ .

من خصب، ومنابر من فصة، ويجلس أذنهم وما فيهم ذئب^(١) على كُثبان المسك والكانفور، ما يُرَوَّن بأن أصحاب الكرامى بأفضل منهم مجلساً.

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل تترى شيئاً؟ قال: «نعم، أهل ثيرون في رؤية الشمس والشمس ليرة البدر؟» قلنا: لا. قال صلى الله عليه وسلم: «فكللك لا تبارون في رؤية ربكم تعالى» ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره^(٢) الله حاضرة، حتى إنه يقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أذكر يوم حملت كذا وكذا؟ - يذكركه بعض خدركاته في الدنيا - فيقول: أي رب؟ أظن تغفري؟ فيقول: بلى، فبمسحة مغفرتي بلغت منزلتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك، خشيتهم سحابة من نوتهم، فأمرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط. قال: ثم يقول ربنا - عز وجل - قوموا إلى ما أعددنا لكم من الكرامة، واخلوا ما اشتبهتم. قال: فتأتى سواك قد حشيت به الملاحة، فيها ما لم تتظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الأذان، ولم يخطر على القلوب. قال: فيحمل لنا ما اشتبهنا، ليس يباع فيه شيء ولا يشتري، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضاً. قال: فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة، فيلقى من هو دونه - وما فيهم ذئب فيروحه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضي [آخر] حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه، وذلك لأنه لا يبيش لأحد أن يحزن فيها.

ثم تنصرف إلى منازلنا، فيطلقنا أزواجنا فيقلن: مرحبا وأهلاً ببيتنا، لقد جئت وإن بك من البجال والطيب أفضل مما قارفتنا عليه. فيقول: إننا جالسنا اليوم ربنا الجبار - عز وجل - ونحن أن نتكلم بمثل ما انقلبنا به.

وقد رواه الترمذي في «صفة الحجة» من جماعه، عن محمد بن إسحاق، عن هشام بن عمار، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، به نحوه. ثم قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه»^(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر^(٤) جماعه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب الله لقاءه - قال: وإن القاهر - أو الكافر - إذا حضر جماعه بما هو صائر إليه من الشر - أو: ما يلقى من الشر - فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه»^(٥).

وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه^(٦).

وَمَنْ أَحْسَنَ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٦﴾ وَلَا تَسْتَوِي السُّعْيَةُ وَلَا السَّيْئَةُ أَدْفَعُ يَأْتِيهِ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّا بِبَرْعَتِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّمَا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى: (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين

(١) أي: خصب.

(٢) المراد من الحاضرة: كلفة الحجاب والمقابلة مع الله من غير حجاب ولا تزيين.

(٣) تحفة الأوسدي، أبواب صفة الجنة، باب «ما جاء في سوق الجنة»، الحديث ٢٦٧٣: ٢٥٩٪ - ٢٦٤. وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب «صفة الجنة»، الحديث ٤٣٣٦: ٢٪ - ١٤٥٠ - ١٤٥٢.

(٤) أي: حضر الموت.

(٥) مسند الإمام أحمد: ١٠٧٪ - ٣.

(٦) البخاري، كتاب الرقاق، باب «من أحب لقاء الله»، أحب الله لقاءه: ١٣٢٪ - ٨. ومسلم، كتاب الذكر، باب

«من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه»: ٦٥٪ - ٦٦.

أى : وهو في نفسه مهتد بما يقوله ، فنفخه لنفسه ولغيره لازم ومتحد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ويأثمون ، بل يأثم بالخبر ويترك الشر ، ويدعو الخلق إلى الخلق تبارك وتعالى . وهذه عامة في كل من دعا إلى خير ، وهو في نفسه مهتد ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - أولى الناس بذلك ، كما قال محمد بن سيرين ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم :

وقيل : المراد بها المؤذنون الصالحاء ، كما ثبت في صحيح مسلم : « المؤذنون أطول الناس أعتاقا يوم القيامة (١) » : وفي السنن مرفوعا : « الإمام ضامن (٢) » ، والمؤذن موثمن ، فأرشد الله الأمة ، وغفر للمؤذنين (٣) :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن عروبة (٤) للمروى ، حدثنا غسان قاضي هراة - وقال أبو زرعة : حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن مطر ، عن الحسن ، عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : « سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين ، وهو بين الأذان والإقامة كالمنشحط (٥) في سبيل الله في دمه » :

قال : وقال ابن مسعود : « لو كنت مؤذنا ما باليت أن لا أسمع ولا أسمع ولا أجاهد »

قال : وقال عمر بن الخطاب : لو كنت مؤذنا لكمل أمرى ، وما باليت أن لا أنصبه لقيام الليل ولا لعبام النهار ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اخفر للمؤذنين ثلاثا ، قال : قلت : يا رسول الله ، تركتنا ونحن نتجملد حل الأذان بالسبوف ، قال : « كلا يا عمر ، إنه يأتي على الناس زمان يتركون [الأذان] على ضمعاتهم ، وتلك لحوم حرمها الله على النار ، لحوم المؤذنين » .

قال : وقالت عائشة : ولم هذه الآية : (ومن أحسن قولاً من دعا إلى الله وعمل صالحاً ، وقال : إني من المسلمين) ، قالت : فهو المؤذن إذا قال « حى على الصلاة » فقد دعا إلى الله .

وهكذا قال ابن عمر ، وحكمة : إنها تزل في المؤذنين

وقد ذكر البغوي عن أبي أمامة الباهلي - رضى الله عنه - أنه قال في قوله : (وعمل صالحاً) ، قال : يعنى صلاة وكعتين بين الأذان والإقامة :

(١) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « فضل الأذان » و« حرب الشيطان عند سماعه » : ٢/٥ . وابن ماجه ، باب « فضل الأذان » و« أبواب المؤذنين » ، الحديث ٧٢٥ : ١/٢٤٠ . وصند الإمام أحمد عن أنس بن مالك : ١٦٩/٣ ، ٢٦٤ . وعن معاوية : ٩٨ ، ٩٥/٤ .

(٢) أى : أن صلاة المقتدين به في عهده ، وصحتها مقرونة بصحة صلاته ، فهو المتكفل لهم بصحة صلاتهم . وأما المؤذن فهو أمين على مواقيت الصلاة . وقيل : أمين على حرم كناس ، لأنه يشرف على الموانع المالية .

(٣) تحفة الأحوص ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء أن الإمام ضامن والمؤذن موثمن » ، الحديث ٢٠٧ : ١/٦١٣ - ٦١٥ .

وصند الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢/٢٣٢ ، ٢٨٤ . وعن أبي أمامة : ٢٦٠/٥ ، وعن عائشة : ٦٥/٦ .

(٤) كذا في مخطوطة الأزهر . ولم تقع لنا ترجمته .

(٥) أى : المختبر .

ثم أورد البغرى حديثه « عبد الله بن المُخْتَلِّ قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « بين كل أذانين صلاة » . ثم قال في الثالثة : « لمن شاء » - وقد أخرجه الجماعة (١) في كتبهم ، من حديث عبد الله بن بريدة ، عنه وحديث الثوري ، عن زيد العمى ، عن أبي إياس معاوية بن قرة ، عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال الثوري : لا أراه إلا وقد رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم : « اللعلاء لا يرد بين الأذان والإقامة » ؛

^١ ورواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى في « اليوم والليلة » ، كلهم من حديث الثوري ، به : وقال الترمذى : « هذا حديث حسن (٢) » . ورواه النسائى أيضا من حديث سليمان التيمي ، عن قتادة ، عن أنس ، به ؛

والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم ، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية ، لأنها مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة ، حين أريته عبد الله بن زيد بن عبد ربّه الأنصاري في منامه ، قصصه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمره أن يلقاه على بلال فإنه أُنْذِى صوتا ، كما هو مقرر في موضعه (٣) فالصحيح إذاً أنها عامة ، كما قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن البصري : أنه تلا هذه الآية : (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا ، وقال : إننى من المسلمين) ، فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا صفة الله ، هذا خير الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا للناس إلى ما أجاب الله [فيه من] دعوته ، وعمل صالحا في إجابته ، وقال : إننى من المسلمين ، هذا خليفة الله .

وقوله : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) ، أى : فرق عظيم بين هذه وهله ، (ادفع بالتي هي أحسن) ، أى : من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر : ما عاقبت من حصّى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

وقوله : (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) ، وهو الصديق ، أى : إذا أحسنت إلى من أساء إليك فادعه تلك الحسنة إليه إلى مصافحتك وعحبك ، واخفّ عليك ، حتى يصير كأنه وليّ لك حميم ، أى : قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك .

ثم قال : (وما يلقاها إلا الذين صبروا) ، أى : وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر [على] ذلك ، فإنه يشق على النفس ، (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ، أى : ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والأخرى .

(١) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « كم بين الأذان والإقامة » ، ومن ينظر الإقامة : ١٦١/١ ، وباب « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » : ١٦١/١ - ١٦٢ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب « بين كل أذانين صلاة » : ٢١٢/٢ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « الصلاة قبل المغرب » ، والنسائى ، كتاب الأذان ، باب « الصلاة بين الأذان والإقامة » : ٢٨/٢ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « ما جاء في الركعتين قبل المغرب » ، الحديث ١١٦٢ : ٣٦٨/١ . ومسنّد الإمام أحمد من عبد الله بن المنفل : ٨٦/٤ ، ٥٤/٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) تحفة الأعراف ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء أن اللعلاء لا يرد بين الأذان والإقامة » ، الحديث ٢١٢ : ٦٢٤/١ - ٦٢٥ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « في اللعلاء بين الأذان والإقامة » ، ومسنّد الإمام أحمد : ١١٩/٣ .

(٣) النظر ترجمة « عبد الله بن زيد - الأنصاري » في أسد الغابة : ٢٤٧/٣ - ٢٤٩ ، بتحقيقنا . وحديث رؤياه في تحفة الأعراف ، كتاب الصلاة ، باب « بدء الأذان » ، الحديث ١٨٩ : ٥٦٣/١ - ٥٦٦ .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والطمح عند الجهل ، والمعو عند الإساءة ، فإذا ضلوا ذلك عصمتهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم (١) .

وقوله : (وإما يترغك من الشيطان ترغ فاستبد بالله) ، أي : إن شيطان الإنس ربما يتخنع بالإحسان إليه ، فلما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستماعة بخالفه الذي سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله وليجات إليه ، كنه حنك ورد كبد . وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من هزة ونفخة ونفثه (٢) » .

وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له في القرآن إلا في « سورة الأعراف » عند قوله تعالى : (غل المعو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . وإما يترغك من الشيطان ترغ فاستبد بالله إنه سميع عليم (٣)) ، وفي سورة المؤمنين عند قوله : (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون . وقل : رب أعوذ بك من هزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون (٤)) .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ السَّمُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٩٠﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَقَالِدِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٩١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْيَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ ﴿١٩٢﴾ إِنَّ الْأَرْضَ آبَحَاءَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩٣﴾

يقول تعالى منها خلقه على قدرته العظيمة ، وأنه الذي لا نظير له ، وأنه على ما يشاء ، قادر ، (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) ، أي : إنه خلق الليل بظلامه ، والنهار بضياءه ، وهما متماثلان لا يقرآن ، والشمس ونورها وإشراقها ، والقمر وضياءه وتقدير منازل في فلكه ، واختلاف سيره في سبانه ، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار ، والجسج والنهور والأعرام ، ويتبين بذلك حلول الحقوق ، وأوقات العبادات والمعاملات .

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام للمشاهدة في العالم العلوي والسفلي ، نبه تعالى على أنها مخلوقان جسدان من عباده ، تحت قهره وتسخره ، فقال : (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) ، أي : لا تشركوا به ، فإنا تنفكم عبادتكم مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يفر أن يشرك به . ولهذا قال : (فإن استكبروا) ، أي : عن أفراد العبادة له وأبشروا إلا أن يشركوا معه غيره ، (فالذين عند ربك) ، يعني الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) . كقوله : (فإن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) .

(١) تفسير الطبري : ٧١/٢٤ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية السابعة والثميين من سورة المؤمنين ، وخرجناه هناك ، انظر : ٤٨٥/٥ .

(٣) سورة الأعراف : آية : ١٩٩ - ٢٠٠ ، وانظر نيا تقدم : ٥٣٤/٣ - ٥٣٨ .

(٤) سورة المؤمنون : آية : ٩٧ - ٩٨ ، وانظر أيضاً نيا تقدم : ٤٨٥/٥ - ٤٨٦ .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سفيان - بنى ابن وكيع - حدثنا أبي ، عن ابن أبي ليلى ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تسبوا الليل ولا النهار ، ولا الشمس ولا القمر ، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة قوم ، وعذابا قوم » .

وقوله : (ومن آياته) ، أى : على قدرته على إعادة الموتى (أنك ترى الأرض خاشعة) ، أى : هائمة لا نبات فيها ، بل هى ميتة ، (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) ، أى : أخرجت من جليل ألوان الزروع والنبات ، (إن الذى أحياها يحيى الموتى ، إنه على كل شئ قدير) .

إِنَّ الَّذِينَ يَلْمُذُنُونَ فِي عَابَتِنَا لَا يُخَفِّفُونَ عَلَيْنَا أُنْزِلُ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي هَامِسًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّمَا يَنْتَرِجُونَ يَوْمًا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِي كُرِّمًا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَكَنُورٌ مُبْغِشٌ ۝ وَذُو عَقَابٍ آلِ إِمْرٍ ۝

قوله : (إن الذين يلحدون في آياتنا) - قال ابن عباس : الإلحاد : وضع الكلام على غير مواضعه (١) ،

وقال قتادة ، وغيره : هو الكفر والتناد .

وقوله : (لا يخفون علينا) ، أى : فيه تهديد شديد ، ووعد أكيد ، أى : إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسائه وصفاته ، وسيجزيه على ذلك بالقوية والكمال . ولهذا قال : (أفن يلقى في النار خير أَمْ مَنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟) ، أى : أيسوى هذا وهذا ؟ لا يستويان .

١ ثم قال - عز وجل - تهديدا للكفرة : (اعلموا ما شئتم) ، قال مجاهد ، والضحاك ، وعطاء الخراساني : (اعلموا ما شئتم) . وعيد ، أى : من خير أو شر ، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم . ولهذا قال : (إنه بما تعملون بصير) .

ثم قال : (إن الذين كفروا بالذكر لما جئهم) - قال الضحاك ، والسدي ، وقتادة : وهو القرآن ، (وإنه لكتاب عزيز) ، أى : منيع الجنب ، لا يرآم أن يلقى أحد بمثله ، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ، أى : ليس للبطلان إليه سبيل ، لأنه منزل من رب العالمين . ولهذا قال : (تنزيل من حكيم حميد) ، أى : حكيم في أقواله وأفعاله ، حميد بمعنى محمود ، أى : في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودا حواقيه وغاياته .

ثم قال : (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) - قال قتادة ، والسدي ، وغيرهما : ما يقال لك من التكذيب إلا ما قد قيل للرسل من قبلك فكما قد كذبت فقد كذبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم (لهم) ، فاصبر أنت على أذى قومك لك ، وهذا اختيار ابن جرير (٢) ، ولم يحك هو . ولا ابن أبي حاتم غيره .

(١) تفسير الطبري : ٧٨/٢٤

(٢) تفسير الطبري : ٧٩/٢٤

وقوله : (إن ربك للمضرة) ، أى : لمن تاب إليه ، (وذو عقاب أليم) ، أى : لمن استمر على كفره ، وعظيابه ، وعناقه ، وشقاقه ، وغافقه .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، عن حنبل بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : (١) نزلت هذه الآية : (إن ربك للمضرة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لولا غفر الله ونجازه ما هتأ أحدنا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا تكمل كل أحد » :

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ - أَعْجَمِي وَعَرَبِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۝١٥

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته ، وإحكامه في لفظه ومعناه ، ومع هدام يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كثر عناد وتنت ، كما قال : (ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين (٢)) . وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم ، لقالوا على وجه التثنت والتمناد : (لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي) ، أى : لقالوا : هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب ، ولأنكروا ذلك وقالوا : أعجمي وعربي ؟ أى : كيف يتزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه .

هكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والسدي ، وغيرهم ؟

وقيل : المراد بقوله : (لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي) أى : هلاً أنزل بعضها بالأعجمي ، وبعضها بالعربي ؟

هذا قول الحسن البصري ، وكان يقرأها كذلك بلا استفهام في قوله (أعجمي (٣)) ، وهو رواية عن سعيد بن جبير : وهو في التناد أبلغ ؟

ثم قال تعالى : (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء) ، أى : قل يا محمد : هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه ، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ، (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقْر) ، أى : لا يفهمون ما فيه ، (وهو عليهم عمى) ، أى : لا يهتدون إلى ما فيه من البيان . كما قال تعالى : (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً (٤)) .

(أولئك ينادون من مكان بعيد) قال مجاهد : ينادون من قلوبهم ؟

قال ابن جرير : معناه كأن من مخاطبتهم ينادهم من مكان بعيد ، لا يفهمون ما يقول (٥) ؟

(١) ما بين القوسين زيادة أثبتناها ليستقيم السياق .

(٢) سورة الشعراء ، آية : ١٩٨ - ١٩٩ .

(٣) تفسير الطبري : ٨٠٪٢٤ ، والبرهان المحييط لأبي حيان : ٥٠٢٪٧ .

(٤) سورة الإسراء ، آية : ٨٢ .

(٥) انظر تفسير الطبري : ٨١٪٢٤ .

قلت : وهذا قوله تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعى بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، سمعهم متى فهم لا يحولون (١)) .

وقال الضحاك : ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم (٢) ،

وقال السدى : كان عمر بن الخطاب جالساً عند رجل من المسلمين يقضى ، إذ قال : يا أبا بكاء : فقال عمر : لم تُلبى ؟ هل رأيت أحداً ، أودعك أحد ؟ قال : دعاني داع من وراء البحر . فقال عمر : أولئك ينادون من مكان بعيد : وواه ابن أبي حاتم .

وقوله : (وقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) ، أى : كَذَبَ وارِدَى ، (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل (٣)) ، (ولا كسمةً سبقت من ربك إلى أجل مسمى (٤)) ، بتأخير الحساب إلى يوم الماد ، (قضى بينهم) ، أى : لعجل لم العذاب ، بل لم موعد لن يجيدوا من دونه موثلاً ، (وإنهم لفرى شك منه مرب) ، أى : وما كان تكليفهم له من بصيرة منهم لما قالوا ، بل كانوا شاكين فيما قالوا ، غير محققين لشيء كانوا فيه . هكذا وجهه ابن جرير (٥) ، وهو محتمل ، والله أعلم

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلِيمٍ لِلْعِدَمِ ﴿١٧﴾ * إِلَيْهِ يُرْجَعُ السَّاعَةُ وَمَا يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا مِنْ أَكْثَمٍ وَمَا يَكْمُلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذُنكَ مَا يَسْمَعُ ﴿١٨﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ عِجْزٍ ﴿١٩﴾

قول تعالى : (من عمل صالحاً فلنفسه) ، [أى : إنما يعود نفع ذلك على نفسه] ، (ومن أساء فعليها) ، أى : إنما يرجع بئال ذلك عليه ، (وما ربك بظلام للعبيد) ، أى : لا يعاقب أحداً إلا بالنبى ، ولا يعلب أحداً إلا بملحاح المحبة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

ثم قال : (إليه يرجع الساعه) ، أى : لا يعلم ذلك أحدٌ سواه ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة - حين سأله عن الساعه ، فقال : « ما المستور عنها بأعلم من السائل (٦) » . وكما قال تعالى : (إلى ربك مرجعها) (٧) . وقال : (لا يجليها لوقتها إلا هو) (٨) .

(١) سورة البقرة ، آية : ١٧١ .

(٢) تفسير الطبرى : ٨١/٢٤ .

(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٣٥ .

(٤) حله آية الشورى : ١٤ .

(٥) تفسير الطبرى : ٨٢/٢٤ .

(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف ، وخرجناه هناك . انظر : ٥٢٢/٢٤ - ٥٢٣ .

(٧) سورة التناورات ، آية : ٤٤ .

(٨) سورة الأعراف ، آية : ١٥٧ .

وقوله : (وما تخرج من ثمرة (١) من أكلها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) ، أى : الجميع بعلمه ، لا يوجب من علمه مقال ذرة في الأرض ولا في السماء . وقد قال تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها (٢)) ، وقال جلّت عظمته : (يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تفيض الأرحام وما ترداد ، وكل شئ عنده بمقدار (٣)) . وقال : (وما يعمر من معمر ، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير (٤)) :

وقوله : (ويوم يناديهم أين شركائى ؟) ، أى : يوم القيامة ينادى الله المشركين على رموس الخلائق : أين شركائى الذين هبطوهم معى ؟ (قالوا : أذكّاك) ، أى : أعلمتك ، (ما منا من شهيد) ، أى : ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا ، (وهمل عنهم ما كانوا يلهون من قبل) ، أى : ذهبوا فلم يشعروهم ، (وظنوا ما لهم من محيص) (أى : وظن المشركون يوم القيامة ، وهلمنا بمنى اليقين) (ما لهم من محيص) ، أى : لا يحيد لهم من عذاب الله ، كقوله تعالى : (ورأى المحرمون النار فلما ألتوا هم موالقوها ، ولم يجدوا عنها مصرا (٥)) :

لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاةِ الْخَلْقِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعْوِضْ قَنُوطًا ۖ وَلَئِنْ أَدْنَيْتَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مِّمَّهٖ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِىَ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِيْ عِندَهُرَّحْمَةً فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ وَإِذَا أُنْعَمَآ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَقَا بِيَّانِيهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاوِهِ عَرِيضٍ ۖ

يقول تعالى : لا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاةِ رَبِّهِ بِالْخَيْرِ - وهو : اللال ، وصحة الجسم ، وغير ذلك - وإن مسه الشر - وهو : البلاء أو الفقر - (فيعوض قنوط) ، أى : يقع في ذهنه أنه لا ينهيا له بعد هذا خبر .

(ولئن أدنىته رحمة منا من بعد ضراء مسته ، ليقولن : هذا لى) ، أى : إذا أصابه خير وزوق بعد ما كان في شدة ليقولن : هذا لى ، إلى كنت أستعجته عند ربى ، (وما أظن الساعة قائمة) ، أى : يكفر بقيام الساعة ، أى : لأجل أنه يحول نعمة بفخر ، ويبطر ، ويكفر ، كما قال تعالى : (كلا إن الإنسان ليطغى : أن رآه استغنى (١)) .

(ولئن رجعت إلى ربى إنى عنده للحسنى) ، أى : ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلى ربى ، كما أحسن إلى فى هذه الدار ، يمتنى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين . قال الله تعالى : (فلننبئ الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقهم من عذاب غليظ) يتهدد تعالى من كان حاله عمله واعتقاده ، بالقباب والنكال .

(١) كذا فى خطوط الأزهر « ثمرة » حل الإفراد ، وهى قراءة أهل الكوفة . انظر تفسير الطبري : ٢/٢٥ . والبحر المحيط لأبي حيان : ٥٠٤/٧ .

(٢) سورة الأنعام : آية : ٥٩ .

(٣) سورة القمعة : آية : ٨ .

(٤) سورة قاطر : آية : ١١ .

(٥) سورة الكهف : آية : ٥٣ .

(٦) سورة الملئ : آية : ٢٥ ٦٥ .

ثم قال : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) ، أى : أعرض عن الطاعة ، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل ، كقوله تعالى : (فتولى بركته (١)) :

(وإذا مسه الشر) ، أى : الشدة ، (فلو دعاه فريض) ، أى : يطيل المسألة (فى الشيء الواحد) (٢) : فالكلام العريض : ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز : عكسه ، وهو : ما قل ودل . وقد قال تعالى : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلبسنا عنه سوره . وكان لم يدعنا إلى ضره (٣)) .. الآية :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١﴾ سُبْحَانَ رَبِّنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَطِئُ أَوْ يُكْسِفَ بِرَبِّكَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَبُيُطِّدُ ﴿٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ ﴿٣﴾

يقول تعالى : (قل يا معبد هؤلاء المشركين للمكذبين بالقرآن : (أرايم إن كان) هذا القرآن (من عند الله ثم كفرتم به ؟) كيف ترون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولعلنا قال : (من أضل بمن هو فى شقاق بعيد ؟) ، أى : فى كفر وعناد ومشاقة الحق ، ومسلك بعيد من الهدى :

ثم قال : (سبرهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) ، أى : سنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن حقاً متولداً من عند الله - عز وجل - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - بدلائل خارجية (فى الآفاق) ، من الفتحوات وظهور الإسلام على الأكامل وسائر الأديان :

قال مجاهد ، والحسن ، والسدى : ودلائل فى أنفسهم ، قالوا : وقفة بدر ، وفتح مكة ، ونحو ذلك من الوقائع التى حكمت بهم ، نصر الله فيها محمدًا وصحبه ، وغلط فيها الباطل وحزبه (٤) .

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وقبه وعليه من المواد والأخلاق والميلات العجيبة ، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى . وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة ، من حسن وقبح وبين ذلك ، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله ، وقوته ، وحيله ، وحذره أن يجوزها ، ولا يتعداها ، كما أنشدته ابن أبى الدنيا فى كتابه « التفكير والاعتبار » ، عن شيخه أبى جعفر القرظى :

وَإِذَا نَظَرْتَ تَرِيدُ مُعْتَبِرًا فَانْظُرْ إِلَيْكَ فَمُعْتَبِرٌ
أَنْتَ الَّذِى يُسَمَّى وَيُصْبِحُ فِى دُنْيَا وَكُلِّ أَمُورِهِ حَبِيرٌ
أَنْتَ الْمَرْفُوعُ كَانَ فِى صِغَرٍ ثُمَّ اسْتَغْلَى بِشَخْصِكَ الْكَبِيرُ .

(١) سورة النازيات ، آية : ٣٩ .

(٢) ما بين القوسين من الطلبات السابقة ، ومكانه فى خطورة الأثر : « الذى يرواه » .

(٣) سورة يونس ، آية : ١٢ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٥٠ هـ .

أَنْتَ الَّذِي تَنْتَعَاهُ عِلْقَتَهُ يَنْتَعَاهُ مِنْهُ الشَّعْرُ وَالْبَشَرُ
أَنْتَ الَّذِي تُمَطِّئُ وَتُصَلِّبُ لَا يُنْجِيهِ مِنْ أَنْ يُصَلِّبَ الْحَدَرُ
أَنْتَ الَّذِي لَا تَنْفِي مِنْهُ لَهُ وَلَاحِقٌ مِنْهُ بِمَالِهِ الْقَدَرُ

وقوله تعالى : (حَتَّى يَبَيِّنَ لِمَنْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ؟ أى : كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأنواعهم ، وهو يشهد أن عملا صادق فيما أخبر به عنه ، كما قال : (لَكِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّائِكَةِ يَشْهَدُونَ (١))

وقوله : (أَلَا يَهْمُ قِيَامَ مِنْ مَرَّةٍ لِقَاءَ رَبِّهِمْ) ، أى : فى شك من قيام الساعة ، ولهذا لا يفتكرون فيه ، ولا يعملون له ، ولا يعملون منه ، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبأون به وهو واقع لا ريب فيه وكائن لا محالة .

قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أحمد بن إبراهيم ، حدثنا خلف بن عجم ، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصاري : أن عمر بن عبد العزيز صَاحِبَ الْمَنَبرِ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإنى لم أجمعكم لأمر أؤدبه فيكم ، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون ، فعلست أن المصدق بهذا الأمر أحق ، والمكذب به هالك لم نزل .

ومعنى قوله رضى الله عنه : (أن المصدق به أحق) ، أى : لأنه لا يعمل له عمل مثله ، ولا يحل منه ولا يخاف من حوله ، وهو مع ذلك مصدق به ، موثق بوقوعه ، وهو مع ذلك يتأدى فى ليله وفضله وشهراته وذنوبه ، فهو أحق بهذا الاعتبار ، والأحق فى الآلة : ضيف العقل ،

وقوله : والمكذب به هالك : هذا واضح ، والله أعلم .

ثم قال تعالى مقروا على أنه على كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط ، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه - تبارك وتعالى - : (أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ، أى : الخلقوات كلها تحت قهره وفى قبضته ، وتحت طي علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

تفسير سورة الشورى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّادٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : كَذَلِكَ يُرْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِعْنَ مِنْ قَوَائِمِهَا وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ أَتَى اللَّهَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَيِّطٌ بِطَائِفِهِمْ وَمَا آتَتْ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ

قد تقدم الكلام على الحروف (المقطعة ١). وقد روى ابن جرير هاهنا أثرًا غريبًا صحيحًا منكرا ، فقال : حدثنا أحمد ابن زهير ، حدثنا عبد الوهاب بن نجيدة الجبوتي ، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج ، عن أوطاة بن النضر قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له - وعنده حذيفة بن اليمان - : أخبرني عن تفسير قول الله : (حم هق) ، قال : فأطرق ثم أعرض عنه ، ثم كرر مقاله فأعرض عنه ، فلم يجبه بشيء وكره مقاله ، ثم كررها الثالثة فلم يحرك إليه شيئا . فقال حذيفة : أنا أنبتك بها ، قد عرفت لم كررها ؟ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له «عبد الإله» - أو : عبد الله - يترل على نهر من أنهار المشرق تبتى عليه مدينتان ، يشق النهر بينهما شقا ، فإذا أذن الله في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومنهم ، بعث الله على إحداهما نارا ليلًا ، فتضيق سوداء مظلمة قد احترقت ، كأنها لم تكن مكانها ، وتصبح صاحبها متعجبا : كيف أفلتت ؟ فما هو إلا يابض يومها ذلك ، حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم ، ثم يخسف الله بها وهم جميعا ، فذلك قوله : (حم هق) ، يعني : حرمة من الله تعالى وفنته وقضاء (حم ٢) : (حم) ، عين ، يعني عدلا منه ، سين : يعني سيكون ، ق : يعني واقع بهاتين المدينتين .

وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى للوصل في الجزء الثاني من مسند ابن عباس ، وعن أبي ذر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ، ولكن إسناده ضعيف جدا ومنقطع ، فإنه قال :

حدثنا أبو طالب عبد الجبار بن عاصم ، حدثنا أبو عبد الملك الحسن بن يحيى الحنفى النخعي ، عن أبي معاوية قال : صعد عمر بن الخطاب المنبر فقال : أيها الناس ، هل سمع منكم أحد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفسر (حم هق) ؟

(١) انظر ليا تقدم : ١٠٦ - ٦٠ .

(٢) ما بين القوسين من تفسير القرطبي : ٢٢١٦ .

قوب ابن عباس فقال: أنا . قال : (حم) اسم من أسماء الله تعالى (١) ، قال : فعين ؟ قال : عاين المولود (٢) عذاب يوم بدر . قال : فسين ؟ قال : سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . قال : ففاف ؟ فسكت ، فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال : فاف : فافرة من السماء تفضي الناس [.
وقوله : (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) ، أي : كما أنزل إليك هذا القرآن ، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك . وقوله : (الله العزيز) ، أي : في انتقامه ، (الحكيم) . في أقواله وأفعاله .

قال الإمام مالك - رحمه الله - عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي فيفصم عني (٣) قد وعيت ما قال . وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني ، فأعي ما يقول . قالت عائشة : فلقد رأيته يتزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليترعد هزاً » .

أخرجاه في الصحيحين ، ولفظه للبخاري (٤) :

وقد رواه الطبراني عن عبد الله ابن الإمام أحمد ، عن أبيه ، عن عامر بن صالح ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، عن الحارث بن هشام : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يتزل عليك الوحي ؟ فقال : « مثل صلصلة الجرس ، فيفصم عني وقد وعيت ما قاله - قال : وهو أشده علي - قال : وأحياناً يأتيني الملك فيتمثل لي فيكلمني ، فأعي ما يقول (٥) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن عمرو بن الوليد ، عن عبد الله ابن عمرو - رضي الله عنهما - قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يا رسول الله ، هل تُحس بالوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسمع صلاصلاً ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تُقبض » . تخروجه أحمد (٦) .

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أول شرح البخاري بما أضي عن إعادته هاهنا ، والله الحمد والمنة .

(١) ما بين القوسين من التعليقات السابقة ، ومكمله بياض مقدار ثلاثة أسطر .

(٢) كلما في التعليقات السابقة ، وفي الدر المنثور ٢/٦ : « عاين المذكور » .

(٣) أي : يتقلع ويتكشف .

(٤) البخاري : باب بدء الوحي : ٣٠٢/١ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « فرق النبي - صلى الله عليه وسلم -

في البرد وحين يأتيه الوحي » : ٨٢/٧ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/٥٨٨ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٢٢ .

وقوله تعالى : (له مائى السموات وما فى الأرض) ، أى : الجميع عيده له وملاك له ، تحت قهره وتصرفه ، (وهو العلى العظيم) ، (كقوله تعالى : (الكبير المتعال) (١)) (وهو العلى الكبير) (٢) ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله : (تكاد السموات يظفرن من فوقهن) - قال ابن عباس ، والضحك ، وقتادة ، والسدى ، وكتب الأحيار : أى فترقا من العظمة (٣) . وللملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض . كقوله : (الذين يعملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) (٤) .

وقوله : (ألا إن الله هو الظور الرحيم) ، لإعلام بملكه وتوحيده .

وقوله : (والذين اتخلوا من دونه أولياء) ، يعنى المشركين ، (الله حفيظ عليهم) ، أى : شهيد على أعمالهم ، محصيها ويمتدحها عدلا ، وسيجزئهم بها أوفر الجزاء . (وما أنت عليهم بوكيل) ، أى : إنما أنت نادر ، والله على كل شيء وكيل .

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِأَرْبَعِينَ فَرَسًا فِي الْجَنَّةِ وَفَرَقَ فِي السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ إِبْطَاءٍ فِي رَحْمَتِهِ وَالْغَافِلُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝

يقول تعالى : وكما أوحينا إليك قرآنا عربيا ، (أوحينا إليك قرآنا عربيا) ، أى : واضحا جليا بينا ، (لتلتر أم القرى) ، وهى مكة ، (ومن حولها) ، أى : من سائر البلاد شرقا وغربا . وسميت مكة « أم القرى » ، لأنها أشرف من سائر البلاد ، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها . ومن أوجب ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو البان ، حدثنا شعب ، عن الزهري ، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عبد الله بن عبد بن الحرام الزهري أخبره : أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول وهو واقف بالحزرة (٥) فى سوق مكة : « والله ، إنك خير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » (٦) .

وهكذا رواة الترمذى (٧) ، والنسائى ، وابن ماجه ، عن حديث الزهري ، به . وقال الترمذى : « حسن صحيح » (٨) .

(١) سورة الرعد ، آية : ٩ .

(٢) سورة سبأ ، آية : ٢٣ .

(٣) انظر تفسير الطبرى : ٦٧/٢٥ .

(٤) سورة طه ، آية : ٧ .

(٥) الحزرة : موضع بمكة . والحزرة فى الأصل : بمعنى التل الصغير ، سميت بذلك لأنه كان هناك تل صغير .

(٦) مستدرك الإمام أحمد : ٣٠٥/٤ .

(٧) تحفة الأحرفى ، أبواب المنقب ، باب « فى فضل مكة » ، الحديث ٤٠١٨ : ٤٢٦/١٠ - ٤٢٧ . وسن ابن ماجه .

كتاب المنك ، باب « فضل مكة » ، الحديث ٣١٠٨ : ١٠٣٧/٢ - ١٠٣٨ .

(٨) الذى فى تحفة الأحرفى ٤٢٧/١٠ : « هذا حديث حسن غريب صحيح » .

وقوله : (وتتلر يوم الجمع) ، وهو يوم القيامة ، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ،
وقوله : (لا ريب فيه) ، أى : لا شك في وقوعه ، وأنه كائن لا محالة .

وقوله : (فريق في الجنة وفريق في السعير) ، كقوله : (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم الثمانين (١)) ، أى : يتخين
أهل الجنة أهل النار (٢) . وكقوله تعالى : (ذلك يوم يجمعر له الناس وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود :
يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شق وسعيد (٣)) .

قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا ليث ، حدثني أبو قبيل المصافري ، عن شُعْبَةَ الأصبهى ، عن
عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده كتابان ، فقال : « أندرون
ما هذان الكتابان ؟ » قال : قلنا : لا ، إلا أن نخبّرنا يا رسول الله . قال الذى فى يده النسخة : هذا كتاب من رب العالمين ،
بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل - (٤) على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً - ثم قال :
الذى فى يساره . هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم
أبداً . فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلائى شيء [إذا] نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « سَدُّوا وقاروا (٥) » ، فإن صاحب الجنة يثبت له بعمل الجنة ، وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب
النار ليختم له بعمل النار ، وإن عمل أى عمل . ثم قال (٦) بيده قبضتها ، ثم قال : « فرغ ربكم - عز وجل - من البعاد .
ثم قال باليمين : فنبذ بها فقال : فريق في الجنة ، وفريق في السعير (٧) » .

وهكلا رواه الترمذى والنسائى جميعا ، عن قتيبة ، عن الليث بن سعد ويكر بن مضر ، كلاهما عن أبي قبيل ،
عن شُعْبَةَ بن مانع الأصبهى ، عن عبد الله بن عمرو ، به .
وقال الترمذى : « حسن صحيح غريب (٨) » .

وسأفه المغوى في تفسيره من طريق بشر بن بكر ، عن سعيد بن عثمان ، عن أبي الزاهرية ، عن عبد الله بن عمرو ،
عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكره بنحوه . وعنده زيادات منها : « ثم قال : « فريق في الجنة وفريق في السعير ،
حدك من الله عز وجل » .

ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن عبد الله بن صالح - كاتب الليث - عن الليث ، به .

ورواه ابن جرير عن يونس ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن أبي قبيل ، عن شُعْبَةَ ، عن رجل
من الصحابة ، فذكره (٩) .

(١) سورة الثمانين ، آية : ٩ .

(٢) أى : يستقسمون عقوبته باختيارهم الكفر على الإيمان .

(٣) سورة هود ، الآيات : ١٠٣ - ١٠٥ .

(٤) أى : جملوا ولخصوا ، فلا يزداد فيهم ولا ينقص .

(٥) أى اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، وهو المقصد فى الأمر والعدل فيه .

(٦) أى : أشار بيده . والغريب يجعل القول عبارة عن جميع الأفعال .

(٧) سنة الإمام أحمد : ١٦٧/٢ .

(٨) تحفة الأحوى ، أبواب القدر ، باب ما جاء أن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النار ، الحديث ٢٢٢٧ :

ثم روى عن يونس ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث وحيوة بن شريح ، عن يحيى بن أبي أسيد : أن أبا فراس حكاه : أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : إن الله لما خلق آدم نقضه نقض المزود (١) ، وأخرج منه كل ذرية ، فخرج أمثال الشئب (٢) قبضهم قبضتين ، ثم قال : شئ وسعيد : ثم أقامهما قتال قبضهما قتال : فريق في الجنة وفريق في السعير (٣) ، وهذا الموقوف أشبه بالصواب ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد - رحمه الله - : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد - يعني ابن سلمة - أخبرنا الجريزي ، عن ابن نضرة أن رجلاً من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يقال له : أبو عبد الله - دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يكي ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ من شاربك ثم أقره (٤) حتى تلقاني : قال : بلى ، ولكن سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن الله قبض يمينه قبضة ، وأخرى باليد الأخرى ، قال : هذه لهذه ، وهذه لهذه ولا أبالي ، فلا أدري في أي القبضتين أنا » (٥) ،

وأحدث القدر في الصحاح والسنن والسائيد كثرة جداً ، منها حديث علي ، وابن مسعود ، وحاشة ، وجماعة جمعة . وقوله : (ولو شاء الله لجلهم أمة واحدة) ، أي : إما على الهداية أو على الضلالة ، ولكنه تعالى فوات بينهم ، فهدي من يشاء إلى الحق ، وأضل من يشاء عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة : ولهذا قال : (ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير) ،

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث ، عن أبي سويد (٦) ، حدثه عن ابن حجرية : أنه بلغه أن موسى عليه السلام قال : يارب خذك الذين خلفتهم ، جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار ، لوما أدخلتهم كلهم الجنة ؟ قال : يا موسى ، ارفع ذرّك ، فرفع ، قال : ارفع ، فرفع ، فلم يترك شيئاً ، قال : يارب ، قد رفعت ، قال : ارفع ، قال : قد رفعت ، إلا ما لا خير فيه : قال : كذلك أدخل خلق كلهم الجنة ، إلا ما لا خير فيه (٧) .

أَمْ أَحْكَمُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ فَالَّذِي هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ وَعَلَيْكُمْ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٢﴾ فَأَطَرَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ جَعَلَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمَنْ الْإِنْعَمُ أَزْوَاجًا يَدْخُرُ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٣﴾ لَمْ يَخْلُقْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ رَكَّبَ شَيْءٌ وَعَلِيمٌ ﴿٤﴾

يقول تعالى منكر على المشركين في اتخاذهم كلمة من دون الله ، وبخبر أنه الولي الحق الذي لا تنبئ العبادة إلا له وحده ، فإنه القادر على إحياء المرق وهو على كل شيء قدير .

(١) المزود : وجاء يحمل فيه الزاد .

(٢) الشئب - بفتح شين - : دود يكون في أنوف الإبل والتم .

(٣) تفسير الطبري : ٧/٢٥ .

(٤) أي : أحفظه .

(٥) مستد الإمام أحمد : ١٧٦/٤ ، وانظر أيضاً : ٦٨/٥ .

(٦) كذا في المخطوطة . وفي تفسير الطبري : « أي شوية » .

(٧) تفسير الطبري : ٧/٢٥ .

ثم قال : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) ، أي : مهما اختلفتم فيه من الأمور ، وهذا عام في جميع الأشياء ، (فحكمه إلى الله) ، أي : هو الحاكم فيه بكتابه وستة نبيه صلى الله عليه وسلم . فتره : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول (١)) .

ذلكم الله ربّي ، أي : الحاكم في كل شيء ، (عليه توكلت وإليه أنيب) ، أي : أرجع في جميع الأمور .
وقوله : (قاطر السموات والأرض) ، أي : خالقهما وما بينهما ، (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) ، أي : من جنسكم وشكلكم ، منّ عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرا وأنثى . (ومن الأنعام أزواجا) ، أي : وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج :

وقوله : (يلدوكم فيه) ، أي : يخلقكم فيه ، أي : في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال (يلدوكم) فيه ذكورا وإناثا خلقا من بعد خلق ، وجيلا بعد جيل ، ونسلا بعد نسل ، من الناس والأنعام .

وقال الفيروزى رحمه الله : يلدوكم فيه ، أي في الرحم . وقيل : في البطن . وقيل : في هذا الوجه من الخلقة ،

قال مجاهد : ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام .

وقيل : في معنى الآية ، أي : يلدوكم به :

(ليس كمثله شيء) ، أي : ليس كخالق الأزواج كلها شيء ، لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ، (وهو السميع البصير) :

وقوله : (له مفاتيح السموات والأرض) تقدم تفسيره في « سورة الزمر » ، وحاصل ذلك أنه المتصرف الحاكم فيهما ، (يمسك الرزق لمن يشاء ويقدر) ، أي : يوسع على من يشاء ، ويضيّق على من يشاء ، وله الحكمة والعدل التام ، (إنه بكل شيء عليم) .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَكُلُوا مِنْ حَلَالِ مَا كَسَبْتُمْ بِهِمْ إِنَّهُ بِصَلَاتِكُمْ فَاهِقٌ ﴿١٩٠﴾ وَمَا تَقَرَّبُوا إِلَّا مِنْ وَعْدٍ مَآجَةٍ هُمْ يَعْلَمُونَ بِهَا يُبَيِّنُمْ لَكُمْ آيَاتِهِمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَّا أَجَلٌ مَسْئُومٌ يُقْضَىٰ بِهِمْ وَإِنَّ الَّذِينَ آوَدُوا إِلَيْكَ يَتَّبِعُكُمْ مِنْ مُّبِينٍ لَكُمْ مِنْهُ مُبِرٌ ﴾

يقول تعالى هذه الآية : (شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وكلوا من حلال ما كسبتم به) ، ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم : إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم عليهم السلام . وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة ، كما اشتملت آية « الأحزاب » عليهم في قوله :

(وَإِذْ أَخْلَلْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمَنْكَ ، وَمَنْ نُوحَ ، وَإِبْرَاهِيمَ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ) (١) . ۞ الآية . والنبي الذي جُمِعَ به الرسل كلهم هو : عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال : (وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِيْ) (٢) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وفي الحديث : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات دينا واحد » (٣) . أى : اتفرد للمشرك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، كقوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) (٤) ، ولما قال هاهنا : (أن أنبياء الدين ولا تنفروا فيه) ، أى : وصى الله تعالى جميع الأنبياء - عليهم السلام - بالاتلاف والجماعة ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف .

وقوله : (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) ، أى : شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد ۞ ثم قال : (الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من يَنبَغِ) ، أى : هو الذى يُعَدُّرُ الهداية لمن يستحقها ، ويكسبه الفضالة على من أكرها على طريق الرشد . ولما قال : (وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم) ، أى : إنما كان اختلفهم للحق بعد بلوغه إليهم ، وقام الحاجة عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البنى والمناذ والمشاقة . ثم قال تعالى : (ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى) ، أى : لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم اللداد ، لحمل لم العقوبة فى الدنيا سريعا .

وقوله : (وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم) ، يعنى : الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق (نرى شك منه مريب) ، أى : ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك مريب ، وشقاق بعيد ۞

فَلِذَلِكَ فَادَعِْ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْمَلِ بِبَيْتِكَ اللَّهُ رُبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٥﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها مفصلة عن التى قبلها ، حكم برأسه - قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فلذا أيضا عشرة فصول كوله .

قوله : (فلذلك فادع) ، أى : فكلدنى أوحينا إليك من الدين الذى وصيتنا به جميعا للرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم ، فادع الناس إليه .

وقوله : (واستقم كما أمرت) ، أى : واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله ، كما أمركم الله عز وجل ۞

وقوله : (ولا تتبع أهواءهم) ، يعنى : المشركين فى اختلفوه ، وكليةوه ، والبروه من عبادة الأوثان .

(١) سورة الأحزاب ، آية : ٧ .

(٢) كذا فى خطوط الأزم ، وقد تقدم التحريف بهذه القراءة فى سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ ۞ انظر ٢٢١/٥ .

(٣) تقدم الحديث فى : ٢٧٠/١ ۞ ٤٠٨/٢ ۞ ٣٦٦/٥ ۞ وشرحتا غريبه ، وخرجهنا هناك .

(٤) سورة المائدة ، آية : ٤٨ .

وقوله : (وقل : أمنت بما أنزل الله من كتاب) ، أى : صدقتُ بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم .

وقوله : (وأمرت لأهل بيتكم) ، أى : فى الحكم كما أمرنى الله .

وقوله : (الله ربنا وربكم) ، أى : هو المبود ، لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختياراً ، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً ، فله يسجد من فى العالمين طوعاً واختياراً .

وقوله : (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) ، أى : نحن برآء منكم ، كما قال تعالى : (وإن كذبكم قولكم ، وإن كذبكم قولكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون) (١) .

وقوله : (لا حاجة بيننا وبينكم) - قال مجاهد : أى لا خصومة . قال السدى : وذلك قبل نزول آية السيف . وهذا مستحب ، لأن هذه الآية مكية ، وآية السيف بعد الهجرة .

وقوله : (الله يجمع بيننا) ، أى : يوم القيامة ، كقوله : (قل : يجمع بيننا ربنا ، ثم يفتح بيننا بالحق) ، وهو الفتح العلم) ،

وقوله : (والله المصير) ، أى : المرجع والمآب يوم الحساب .

وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ عِدَا مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمُ دَاحِضَةً حِينَ رَأَوْهُمْ وَعَلَيْهِمْ غُطُوبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝
اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُبْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝ يَسْتَعِجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۝ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝

يقول تعالى متوعداً الذين يصدّدون عن سبيل الله من آمن به : (والذين يحاجون فى الله من بعدما استجيب له) ، أى : يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، ليصدّوهم عما سلّوه من طريق الهدى ، (حجبتهم داحضة عند ربهم) ، أى : بأعلة عند الله ، (وعليهم غطوب) ، أى : منه ، (ولهم عذاب شديد) ، أى : يوم القيامة .

قال ابن عباس ، ومجاهد : جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله ، ليصدّوهم عن الهدى ، وطعنوا أن تعود الجاهلية .

وقال قتادة : هم اليهود والنصارى ، قالوا لهم : ديننا خير من دينكم ، وثبتنا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم ، وأولى بالله منكم (٢) . وقد كذبوا فى ذلك .

ثم قال : (الله الذى أنزل الكتاب بالحق) ، يعنى : الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه (والميزان) ، وهو : العدل والإنصاف ، قاله مجاهد ، وقاتة .

(١) حودة يونس ، آية : ٤١ .

(٢) تفسير الطبري : ١٣٢٥ .

وهله كقولہ تعالى : (لقد أرسلنا رسلاً بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط (١)) ، وقوله : (والسياء رفعها ووضع الميزان . ألا تظفون في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان (٢)) ، وقوله : (وما يدريك لعل الساعة قريب) : فيه ترهيب فيها ، وترهيب منها ، وتزهد في الدنيا .

وقوله : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) ، أى : يقولون : (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٣)) ؟ وإنما يقولون ذلك تكتلياً واستعداداً ، وكفراً وعناداً . (والذين آمنوا مشفقون منها) ، أى : خائفون وجعلون من وقوعها (ويعلمون أنها الحق) ، أى : كاتبة لا محالة ، فهم مستعدون لما طامحون من أجلها .

وقد روى من طرق تبلغ درجة التواتر ، في الصحاح والحسان ، والسنن والمسانيد ، وفي بعض النفاذه : أن رجلاً سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بصوت جهنوى ، وهو في بعض أسفاره ، فناداه فقال : يا محمد . فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : (نعوذ من صوته) - « هاذم (٤) » . فقال : متى الساعة ؟ قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « وعيك ، إنها كاتبة ، فما أعددت لها ؟ » . فقال : « حب الله ورسوله . فقال : « وأنت مع من أحببت (٥) » .

فقوله في الحديث : « المرء مع من أحب » ، هذا متواتر لا محالة ، والنفس أنه لم يجبه عن وقت الساعة ، بل أمره بالاستعداد لها .

وقوله : (ألا إن الذين يمارون في الساعة) ، أى : محاجون في وجودها ويدفعون وقوعها ، (لئى ضلال بعيد) ، أى : في جهل بين ، لأن الذى خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى ، كما قال : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه) (٦) .

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٠﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ الْآخِرَةِ زِدْ لَهُ فِي حَرَمِهِ وَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِمْ فَلَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١١﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُتَشَفِّعِينَ بِمَا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعُونَ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ حِينَ دُعُوا ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً من لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم ، لا ينسى أحداً منهم ، سواء في رزقه الرزاق والفاجر .

قوله تعالى : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستورها ومستودعها ، كل في كتاب مبين (٧)) ، ولها نظائر كثيرة .

(١) سورة الحديد ، آية : ٢٥ .

(٢) سورة الرحمن ، آية : ٧ - ٩ .

(٣) سورة صبا ، آية : ٢٩ .

(٤) كلما ، وانظر : ٢/٥٢٣ .

(٥) تقدم الحديث تحت تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف ، وعرجناه هناك ، واستقمنا في تحريجه . انظر : ٣/٥٢٣ .

(٦) سورة الروم ، آية : ٢٧ .

(٧) ٧٠ - ٦٠ - ٦٠ - ٦٠ .

وقوله : (يرزق من يشاء) ، أى : يوسع على من يشاء ، (وهو القوى العزيز) ، أى : لا يمجزه شيء :
ثم قال : (من كان يريد حرث الآخرة) ، أى : عمل الآخرة ، (نرذ له في حرثه) ، أى : نقويه ونمئته على ما هو
بصدده ، ونكثر غنائه ، ونجزيه بالسنة عشر أمثاله إلى سبعة ضعف ، إلى ما يشاء الله . (ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ،
وماله في الآخرة من نصيب) ، أى : ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا ، وليس له إلى الآخرة حصة البيت بالكلية ،
حرمه الله الآخرة ، والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه ، وفاز هذا الساعي بهذه النية بالصفقة
الخاسرة في الدنيا والآخرة :

والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مضمّنة بالآية التي في « سبحانه » وهي قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة جعلنا له
فيها ما يشاء لمن يريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومة مذكورة) . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان
سعيهم مشكورا . كلا نعد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض
وللآخرة أكبر الدرجات وأكبر التقصيص (١) .

وقال الثوري ، عن مغيرة ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
« بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة ، والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له في الآخرة من
[نصيب (٢)] » :

وقوله : (أم لم يشركوا لهم من الدين ما يأذن به الله) ، أى : هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل
يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من البجن والإنس ، من تحريم ما حرموا عليهم ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وتحليل
للينة والدم والقنار ، إلى غير ذلك من الفلالات والجهالة الباطلة . التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم ، من التحليل والتحریم ،
والعبادات الباطلة ، والأقوال الفاسدة .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « رأيت عمرو بن لُحَيٍّ بن قَمَعةَ يَجُرُّ قَصَبَهُ
في النار (٣) » . لأنه أول من سبب السوائب . وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو
الذي حتمل قريشا على عبادة الأصنام ، لعنه الله وقبحه . ولهذا قال الرجل : (ولولا كلمة الفصل لقتلني بينهم) ، أى :
لوجلو بالقوية ، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ، (وإن الظالمين لم ينادي أبهم) ، أى : شديد موجع في جهنم
وبش المعبر .

ثم قال تعالى : (ترى الظالمين مشفقين بما كسبوا) ، أى : في عرصات القيامة ، (وهو واقع بهم) ، أى : الذي
يخافون منه واقع بهم لا محالة . هذا حالم يوم معادهم ، وهم في هذا الخوف والوجل ، (والذين آمنوا وعلوا الصالحات في

(١) سورة الإسراء ، الآيات : ١٨ - ٢١ .

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من طريق سفیان ، عن أبيوب ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، به نحوه . وأخرجه
الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن عبد العزيز بن مسلم ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ،
انظر للمستد : ١٣٤/٥ .

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة المائدة ، وعرجناه هناك ، وشرحتا غريبه . انظر : ٢٠٢/٣ .
وما بعدها .

وروضات الجنات ، لم ما يشاهون عند ربهم) ، فأين هذا من هذا : أين من هو في الصّركات في اللذ والموان والخوف المفقن عليه يظلمه ، بمن هو في روضات الجنات ، فيما يشاه من مأكيل ومشروب وملابس ومساكن ومناظر ومتكح وملاذ ، فيما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قال الحسن بن عرفة : حدثنا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَبَر ، حدثنا محمد بن سعد الأنصاري ، عن أبي طَيِّبَةَ قَالَ : إِنَّ الشَّرْبَ (١) مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَنْظِلُهُمُ السَّحَابَةُ فَتَقُولُ : مَا أَمُطِرُكُمْ . قَالَ : فَمَا يَطْعُو دَاعٍ مِنَ الْقَوْمِ بَنَى إِلَّا أَمُطَرَهُمْ ، حَتَّى إِنْ الْقَاتِلُ مِنْهُمْ يَقُولُ : أَمُطِرْنَا كَوَاعِبِ أَثَرَابَا .

رواه ابن جرير (٢) ، عن الحسن بن عرفة ، به .

ولهذا قال تعالى : (ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) ، أي : القوز العظيم ، والنعمة الثامة السابغة الشاملة العامة :

ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرِضْ حَسَنَةً تَزِدْ لَهُ فِئًا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَشِّ الْحَقَّ بِكَيْفَتِهِ ؕ إِنَّهُ عَزِيزٌ ذُو الْبُيُوتِ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات : (ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ، أي : هذا حاصل لهم ، كائن لا محالة ، بيشارة لهم به .

وقوله : (قُلْ : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ، أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش : لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تطوبونه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شرككم عنى ، وتلدوني بأبلغ رسالات ربى ، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة .

قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عبد الملك بن ميسرة قال : سمعت طاوسا عن ابن عباس : أنه سئل عن قوله تعالى : (إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ، فقال سعيد بن جبیر : قري آل محمد . فقال ابن عباس : عجبت ، إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يظن من قريش إلا كان له فيهم [قرابة] ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة ، انفرد به البخارى (٣) .

ورواه الإمام أحمد ، عن يحيى القطان ، عن شعبة به (٤) . وهكذا روى عامر الشعبي ، والفسحاك ، وعلى بن أبي طلحة ، والوفى ، ويوسف بن مهران ، وغير واحد ، عن ابن عباس ، مثله . وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدى ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

(١) أى : الجماعة الذين يجمعون على الشراب . وفى اللز المشفور ٦/٤ : « السرج » .

(٢) لم نجده فى تفسير الطبرى عند هذه الآية ، على أن السيوطى فى الدر المنثور قال إن ابن جرير أخرجه . ولعل الذى أخرجه هو ابن أبي حاتم ، فهو يروى أيضاً عن الحسن بن حرفة ، انظر المرحم والمنهل : ٣١٢/١ - ٣٢٢ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة (سم . صق) : ١٦٢/٦ .

(٤) الذى أماننا فى المستد ، عن محمد بن جعفر ، عن شعبة . انظر : ٢٨٦/١ .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني « حدثنا هاشم بن يزيد (١) الطبراني وجعفر القلاسي قالا : حدثنا آدم بن أبي إياس ، حدثنا شريك ، عن خصيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال لم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تؤدّوني في نفسي لقرايئ منكم ، ونحفظوا القرابة التي بيني وبينكم » :
وروى الإمام أحمد ، عن حسن بن موسى : حدثنا قزعة ، يعني ابن سويد - وابن أبي حاتم - عن أبيه ، عن مسلم بن إبراهيم ، عن قزعة بن سويد - عن ابن أبي تيجين ، عن مجاهد ، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا أسألكم حل ما أتيتكم من اليناث ولقد أجرأ ، إلا أن تؤادوا الله ، وأن تقرّوا إليه بطاعته (٢) » :
وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري ، مثله ،

وهذا كأنه تفسير يقول ثان ، كأنه يقول : (إلا المودة في القربى) ، أي : إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقرّبكم عند الله زلتى .

وقول ثالث - وهو ما حكاه البخاري وغيره ، رواية عن سعيد بن جبير ، ما معناه ، أنه قال : معنى ذلك أن تؤدوني في قرايئ ، أي : تحسنوا إليهم وتبرؤهم :

وقال السدي ، عن أبي النبل قال : لما جئ بعلي بن الحسين أسيرا ، فأتهم حل دَرَج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي تشكم واستأصلكم ، وقطع قرني (٣) القننة : فقال له علي بن الحسين : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت آل حم ؟ قال : أقرأت القرآن ، ولم أقرأ آل حم : قال : ما قرأت : قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا في المودة (قربي) ؟ قال : وإنكم أنتم ؟ قال : نعم (٤) :

وقال أبو إسحاق السبيعي : سألت عمرو بن شعيب عن قوله تعالى : (قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) ، فقال : قرين النبي صلى الله عليه وسلم ورواحا ابن جرير (٥) .

ثم قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا عبد السلام ، حدثني يزيد بن أبي زياد ، عن معمر ، عن ابن عباس قال : قالت الأنصار : فعلنا وفعلنا ، وكأنهم فخرُوا . فقال ابن عباس - أبو العباس ، شك عبد السلام - : لنا الفضل عليكم : فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنهم من مجالسهم فقال : « يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأحرّككم الله في ؟ » قالوا : بلى ، يا رسول الله : قالوا : « ألم تكونوا ضلّالا فهداكم الله في ؟ » قالوا : بلى ، يا رسول الله . قال : « ألم أفلح بغيري ؟ » قالوا : ما تقول يا رسول الله ؟ قال : « ألا تقولون : أنتم يفرجك قومك فأوتيناك ؟ أكرم بكلوبك فصداك ؟ أولم يخلّوك فنصرناك ؟ » قال : فما زال يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا : أمولنا وما في أيدينا لله ولرسوله : قال : فترت : (قل : لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) (٦) .

(١) كذا في المتنوعة . وفي المسح الصغير ١٢٦/٢ : « مزيه » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٢٨٨ .

(٣) أي : استأصلها .

(٤) تفسير الطبري : ١٦/٢٥ .

(٥) تفسير الطبري : ١٧/٢٥ .

(٦) تفسير الطبري : ١٦/٢٥ .

وهكلا رواه ابن أبي حاتم ، عن علي بن الحسين ، عن عبد المؤمن بن علي ، عن عبد السلام ، عن يزيد بن أبي زياد - وهو ضعيف - بإسناده مثله ، أو قريباً منه :

وفي الصحيحين في قسم غنائم حين قريب من هذا السياق (١) ، ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية : وذكر نزولها في المدينة فيه نظر ؛ لأن السورة مكية ، وليس يظهر بين هذه الآية الكريمة وبين السياق مناسبة ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا رجل سياه ، حدثنا حسين الأشقر ، عن قيس ، عن الأعشى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : (قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) ، قالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين أمر الله بحوزتهم ؟ قال : « قاطمة وولدها عليهم السلام » .

وهذا إسناده ضعيف ، فيه مبهمة لا يعرف ، عن شيخ شيعي متخرق (٢) ، وهو حسين الأشقر ، ولا يميل خبره في هذا المثل ، وذكر نزول هذه الآية في المدينة بعيد ، فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لقاطمة أولاد بالكعبة ، فإنها لم تزوج بعل إلا بعد بقر من السنة الثانية من الهجرة :

والحق تفسير الآية بما فهمها به الإمام جابر الأمة ، وترجم القرآن ، عبد الله بن عباس ، كما رواه عنه البخاري ولا تفكر الوصاف بأهل البيت ، والأمر بالإحسان إليهم ، وإكرامهم وإكرامهم ، فإنهم من ذرية طاهرة ، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض ، فخراً وحسباً ونسباً ، ولا سيما إذا كانوا متبينين للسنن النبوية الصحيحة الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم ، كالعباس وبنيه ، وعلى وأهل بيته وفريته ، رضي الله عنهم أجمعين .

وفي الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته بغدير خم : « إني تارك فيكم اثنين : كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يريدا على الحوض (٣) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت : يا رسول الله ، إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لمقرهم يبشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ؟ قال : فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً ، وقال : « واللي نفسي بيده ، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحكمكم الله ورسوله (٤) » .

ثم قال أحمد : حدثنا جرير ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد المطلب بن ربيعة قال : دخل العباس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنا لنخرج فرى قريشاً تحدث ، فإذا رأونا سكروا . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودر حرق (٥) بن عب ، ثم قال : « والله لا يدخل قلب امرئ إيمان حتى يحكمكم الله ولقراي (٦) » .

(١) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « غزوة الطائف » ، ٥/٢٠٠ ، مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « إعطاء المرتبة لقلوبهم على الإسلام » تصبر من قوى إيمانه ، ٣/١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) في المخطوطة : « متخرق » . والمتخرق : اختلق الكلبي .

(٣) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل علي رضي الله عنه » ، ٧/١٢٢ - ١٢٣ . وصنفه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري : ٣/١٤٤ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٥٩ . وعن زيد بن أرقم : ٤/٣٦٧ ، ٣٧١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١/٢٠٧ .

(٥) أي : امتداداً ، كما يعقل " لفسرح لبنا إذا دمر .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٢٠٧ ، ٢٠٨ .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا خالد ، حدثنا شعبة ، عن واقد قال : سمعتُ أبي يحدث عن ابن عمر ، عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال : اربعوا عمنّا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته (١) . وفي الصحيح : أن الصديق قال لبي - رضي الله عنهما - : والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليّ أن أصل من قرابتي (٢) :

وقال عمر بن الخطاب للعباس - رضي الله عنهما - : والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، لأن إسلامك كان أحب إليّ رسول الله من إسلام الخطاب . فقال الشيخين - رضي الله عنهما - هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين ، رضي الله عنهما ، وعن سائر الصحابة أجمعين :

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أبي حنّان التيمي ، حدثني يزيد بن حنّان قال : انطلقتُ أنا وحسّين بن ميسرة ، وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيدُ خيرا كثيرا ، وأبئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمعت حديثه ، وفزوت معه ، وصليت معه : لقد رأيت يا زيدُ خيرا كثيرا : حدثنا يا زيدُ ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : يا ابن لُحى ، والله كُتِبَتْ سُنَّتِي وقدُمُ هَدَى ، ونُسِيت بعض الذي كنت أُمي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنا حدثكم فاقبلوه ، وما لا فلا تكتفون به ثم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطيباً فبينا ، بما يدعى ضمّاً - بين مكة والمدنية - فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر وعظ ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أبا الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب . وإنّي أترك فيكم النّقلين ، أولهما : كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخلوا بكتبه واستمسكوا به » - فحث على كتاب الله ورغب فيه - وقال : « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » : فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : إن نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصلوة بعده : قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي ، وآل عقیل ، وآل جعفر ، وآل العباس قال : أكل هؤلاء حرم الصلوة ؟ قال : نعم (٣) :

وهكذا رواه مسلم ، والبيهقي من طرق عن يزيد بن حنّان به (٤) :

وقال أبو عيسى الترمذي : حدثنا علي بن النّضر الكوفي ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا الأعشى ، عن عطية ، عن أبي سعيد - والأعشى ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن زيد بن أرقم - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّي أترك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، والآخر حُرْقِي : أهل بيتي ، ولن يفترقوا حتى يردوا على الخوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما (٥) » .

-
- (١) البخاري ، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، باب « مناقب قرابة رسول الله » : ٢٦/٦ .
 (٢) البخاري ، في المكتّبات والباب المتفقين : ٣٥/٥ - ٣٦ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ولا نورث » ما تركناه فهو صدقة : ١٥٥/٥ - ١٥٦ .
 (٣) مسند الإمام أحمد : ٣٦٩/٤ - ٣٦٩/٥ .
 (٤) تكملة رواية مسلم عند تفسير الآية ٣٣ من سورة الأحزاب ، وشرحتها هناك ، انظر : ٤١١/٦ .
 (٥) تحفة الأحرف : أبواب الخلفاء ، باب « مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٣٨٧٦ : ٢٩٥ - ٢٩٦/١٥ .

نفرد بروايته الترمذى ، ثم قال : « هذا حديث حسن غريب »

وقال الترمذى أيضا : حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى ، حدثنا زيد بن الحسن ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جابر بن عبد الله قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى حجة يوم عرفة ، وهو على ناقته اقتصواء غليظ ، فسمعت يقول : « يا أيها الناس ، إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا » كتاب الله وصرت : « أهل بيتى » :

نفرد به الترمذى أيضا ، وقال : « حسن غريب ، وفى الباب عن أبي ذر ، وأبي سعيد ، وزيد بن أرقم ، وحذيفة بن أسيد (١) » :

ثم قال الترمذى : حدثنا أبو حاد سليمان بن الأشعث ، حدثنا يحيى بن مسكين ، حدثنا هشام بن يوسف ، عن عبد الله بن سليمان التوفلى ، عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحبوا الله ، يأخذكم من نعمته ، وأحبوا من يحب الله ، وأحبوا أهل بيتى يحيى » :

ثم قال : « حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه (٢) » .

وقد أوردنا أحاديث أخر عند قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهرا (٣)) ، بما أخرج من إحداهما ، والله الحمد ولله .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا مفضل بن عبد الله ، عن أبي إسحاق ، عن حشاش قال : سمعت أبا ذر وهو أخذ بحلقه الباب يقول : « يا أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ، ومن أنكرني فانا أبو ذر ، سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إنما مثل أهل بيتى فيكم مثل صغينة نوح ، من دخلها نجسا ، ومن تخلف عنها هلك » » هذا بهذا الإسناد ضعيف :

وقوله : (ومن يترقب حسنة تزد له فيها حسنة) ، أى : « ومن يعمل حسنة (تزد له فيها حسنة) ، أى : أجرها وثوابها » كقوله : (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) ، وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لده أجرها عطايا (٤) »

وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها .

وقوله : (إن الله غفور شكور) ، أى : يفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ، ويضاعف فيشكر .

وقوله : (أم يقولون : انفرى على الله كذبا فإن يشأ الله ننجم على قلبك) ، أى : لو أنفرت عليه كذبا كما يزعم هؤلاء الجاهلون (ينجم على قلبك) ، أى : لطبع على قلبك وسكبك ما كان آثاك من القرآن ، كقوله تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين (٥)) ، أى : لا نقصنا منه أحد الانقسام ، وما قدر لأحد من الناس أن يحجز عنه :

(١) تحفة الأحوص ، فى الكتاب والباب للمتقين : الحديث ٣٨٧ ، ٢٨٧/١٠ - ٢٨٨ .

(٢) تحفة الأحوص فى الكتاب والباب للمتقين ، الحديث ٣٨٧٨ ، ٢٩٢/١٠ .

(٣) سورة الأعراب : آية ٣٣ ، وانظر ٤٠٧/٦ - ٤١٢ .

(٤) سورة النساء : آية ٤٠ .

(٥) سورة الحاقة : الآيات ٤٠ - ٤٧ .

وقوله : (ويمح الله الباطل) ، ليس معطوفاً على قوله لا يحتمل أن يكون جزوماً ، بل هو مرفوع على الابتداء ، قاله ابن جرير ، قال : وحلفت من كتابه « الواو » في رسم المصحف الإمام ، كما حلفت في قوله : (سندع الزبانية) ، وقوله : (ويدع الإنسان بالشر دعاهم بالخير (١)) :

وقوله : (ويمح الحق بكلماته) معطوف على (ويمح الله الباطل ويمح الحق) ، أي : يحققه ويثبت ويوضحه بكلماته ، أي بحججه وبراهينه ، (إنه علم بذات الصدور) ، أي : بما تكنه القصار ، وتطوى عليه السرائر .

وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تعملون ﴿٢٠﴾ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والذين كفروا لهم عذاب شديد ﴿٢١﴾ * ولو بسط الله الرزق لعباده لفتنوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴿٢٢﴾ ويعبده خير بصير ﴿٢٣﴾ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ويُنشئ رحمة وهو الولي الحميد ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ممثلاً على عباده يقولونهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه : أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويعفو ، كقوله : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً (٢)) ، وقد ثبت في صحيح مسلم رحمه الله حيث قال :

حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قال : حدثنا عمر بن يونس ، حدثنا حكيم بن عمار ، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة ، حدثني أنس بن مالك - وهو عمه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحسب مكان رحلته بأرض فلاة فافتلت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، قد أيس من رحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم ، أنت عبدى وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح (٣) » .

وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود نحوه (٤) .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري في قوله : (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) : إن أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحسب يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله العطش فيه » . وقال حماد بن المنذر : سئل ابن مسعود عن الرجل يشجر بالمرأة ثم يتزوجها ؟ قال : لا بأس به ، وقرأ : (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) : الآية ورواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن إبراهيم النخعي ، عن حماد ، فذكره (٥) .

(١) تفسير الطبري : ١٨٢/٢٥ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١١٠ .

(٣) مسلم : كتاب التوبة ، باب : في الغنى عن التوبة والفرح بها : ٩٢/٨ .

(٤) مسلم : في الكتاب والباب المتقدمين : ٩٢/٨ .

(٥) تفسير الطبري : ١٨٢/٢٥ .

وقوله : (ويعفو عن السيئات) ، أى : يقبل التوبة في المستقبل ، ويعفو عن السيئات في الماضي ، (ويعلم ما تفعلون) ، أى : هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلم ، ومع هذا يتوب على من تاب إليه .

وقوله : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، قال السلى : يعنى يستجيب لهم . وكذا قال ابن جرير ؟ معناه يستجيب للدعاء لهم ولأصحابهم وإخوانهم . وحكاه عن بعض النحاة ، وأنه جعلها كقوله : (فاستجاب لهم بهم) (١) .

ثم روى هو وابن أبى حاتم ، من حديث الأعمش ، عن شقيق بن سلمة ، عن سلمة بن سرية قال : خطبنا معاذ بالشام فقال : أنتم المؤمنون ، وأنتم أهل الجنة . والله إنى أرجو أن يدخل الله من تَسْبُونَ من فارس والروم الجنة ، وذلك بأن أحذركم إذا عمل له - يعنى أحدهم عملاً - قال : أحسنت رحمك الله ، أحسنت بارك الله فبك ، ثم قرأ : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ويزيدهم من فضله) (١) .

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله (ويستجيب الذين آمنوا) كقوله (٢) ، [الذين يستمعون القول (٣)] ، أى : هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه : كقوله تبارك وتعالى : [إنما يستجيب (٤)] الذين يسمعون ، والموفى بوعدهم الله (٥) ، [والمضى الأول أظهر ، لقوله تعالى : (ويزيدهم من فضله) ، أى : يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك ، ولهذا قال ابن أبى حاتم :

حدثنا علي بن الحسن حدثنا محمد بن المصفى ، حدثنا بقة ، حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكنتى ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى قوله : (ويزيدهم من فضله) ، قال : « الشفاعة ابن وجبت له النار ، ممن صنع إليهم معروفاً فى الدنيا » .

وقال قتادة عن إبراهيم النخعى البخى (٦) فى قوله تعالى : (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، قال : يشفعون فى إخوانهم ، (ويزيدهم من فضله) ، قال : يشفعون فى إخوان إخوانهم (٧) .

وقوله : (والكافرون لهم عذاب شديد) ، لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد للموجع لولم يوم معادهم وحسابهم .

وقوله : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبخروا فى الأرض) ، أى : لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق ، لحملهم ذلك على البخى والعطيان من بعضهم على بعض ، أشراً ويطراً .

وقال قتادة : كان يقال : خير العيش مالا يملكك ولا يطفئك . وذكر قتادة حديث : « إنما أخاف عليكم ما يخرج الله من زهرة الحياة الدنيا » ، وسؤال السالى : أياكى الخير بالشر ؟ الحديث (٧) .

(١) تفسير الطبرى : ١٩/٢٥٠ .

(٢) ما بين القوسين زيادة أضفناها ليستقيم السياق . ولم ينقل ابن كثير لفظ ابن جرير ، وإنما نقل معناه .

(٣) سورة الزمر ، آية : ١٨ .

(٤) ما بين القوسين عن الطيحات السابقة ، وهو ساقط من تفسير ابن كثير .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ٣٦ .

(٦) كذا فى غنوة الأزهر ، والنسخة بطن من مخطوط ، انظر جبهة أنساب المرح : ٤٧٧ .

وقوله : (ولكن يتزل بقدر ما يشاء إله عباده خير بصير) ، أي : ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم ، وهو أعلم بذلك ، فيخفي من يستحق العفو ، ويفرق من يستحق الفقر . كما جاء في الحديث المروي : « إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الله ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » .

وقوله : (وهو الذي يتزل النيث من بعد ما قطعوا) ، أي : من بعد إرياس الناس من نزول المطر ، يتزل عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه ، كقوله : (وإن كانوا من قبل أن يتزل عليهم من قبله لمبلسون (١)) : وقوله : (وينشر رحمته) ، أي : يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية . قال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، قُحطَ (٢) المطر وقُتِطَ الناس ؟ فقال عمر رضي الله عنه : مطرتُم ، ثم قرأ : (وهو الذي يتزل النيث من بعد ما قطعوا ، وينشر رحمته (٣)) . (وهو الولي الحسيد) ، أي : هو المتصرف لخلقهم بما ينفعهم في دنياهم وأخراتهم ، وهو المأمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله .

وَمَنْ يَشَاءُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾ وَمَا أُمْسِكُكُمْ مِنْ مَّعْيَبَةٍ ۖ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿١١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى : (ومن آياته) الدالة على عظمتهم وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر (خلق السموات والأرض وما بينهما) ، أي : خدأ فيها ، أي : في السموات والأرض ، (من دابة) ، وهذا يشمل للملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات ، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم ، وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم ، وقد فرقهم في أرجاء أقطار الأرض والسموات ، (وهو) مع هذا كله (على جمعهم إذا يشاء قدير) ، أي : يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلق في صعيد واحد ، يسعهم الداعي ، ويتشكّلهم البصر ، فيحكم فيهم بحكمة العدل الحق .

وقوله : (وما أصابكم من مصيبة فبا كسبت أيديكم) ، أي : مها أصابكم بها الناس من المصائب فإنما هو عن سيئات تفعلتم لكم ، (ويعفو عن كثير) ، أي : من السيئات ، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ، (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما تركوا على ظهورها من دابة (٤)) : وفي الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده ، ما يصيب المؤمن من تمسب ولا وصب ولا هم ولا حرّ ولا برّ ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها ، حتى الشوكة يشاكها (٥) » .

(١) سورة الروم ، آية : ٤٩ .

(٢) أي : احتبس وانقطع .

(٣) تفسير الطبري : ١٩/٢٥ .

(٤) سورة فاطر ، آية : ٤٥ .

(٥) البخاري ، كتاب المرض ، باب « ما جاء في كفارة المرض » : ١٤٨/٦ - ١٤٩ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « لو أتى المؤمن نيا يصيبه من مرض » : ١٥٨ .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عسكينة ، حدثنا أيوب قال : قرأت في كتاب أبي قلابة قال :
 تزلت : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ، وأبو بكر يأكل ، فأمسك وقال : يا رسول الله إنني
 لكرام ما علمت من خير وشرا ؟ فقال : : « لأريت ما رأيت مما تكره ، فهو من مثاقيل ذرّ الشرا ، وقد تدر مثاقيل الخير حتى
 تعطاه يوم القيامة » قال : قال أبو إدريس : فإني أرى مصداقها في كتاب الله : (وما أصابكم من مصيبة فها كسبت أيديكم •
 ويعفو عن كثير (١)) .

لم يرواه من وجه آخر ، من أبي قلابة ، عن أنس ، قال : والأول أصح ،

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري ، حدثنا الأزرهر
 ابن راشد الكاهلي ، عن الحفص بن القوام البجلي ، عن أبي سحيلة ، عن علي - رضي الله عنه - قال : ألا أخبركم بأفضل
 آية في كتاب الله عز وجل ، وحدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (ما أصابكم من مصيبة فها كسبت أيديكم ويعفو
 عن كثير) . وسأفصرها لك يا علي : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا ، فها كسبت أيديكم ، والله تعالى أحلم
 من أن يثبتي عليه العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوّه • .

وكذا رواه الإمام أحمد ، عن مروان بن معاوية وعبيدة ، عن أبي سحيلة قال : قال علي : : فذكر نحوه مرفوعا (٢) •

لم يروى ابن أبي حاتم ، من وجه آخر موقوفا فقال : حدثنا أبي ، حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا أبو سعيد بن أبي
 الوضاح ، عن أبي الحسن ، عن أبي جحيفة قال : دخلت على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال : ألا أحدثكم
 بحديث ينبيئ لكل مؤمن أن يتحبه ؟ قال : فسأله ، فثلا هذه الآية : (وما أصابكم من مصيبة فها كسبت أيديكم ويعفو عن
 كثير) . قال : : ما عاقب الله به في الدنيا فله أحلم من أن يثبتي عليه العقوبة يوم القيامة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فله أكرم
 من أن يعود في عفوّه يوم القيامة • .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا طلحة - بن عيسى - عن أبي بردة ، عن معاوية - هو ابن أبي
 سفيان رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا
 كفر الله عنه به من سيئاته (٣) » •

وقال أحمد أيضا : حدثنا حسين ، عن زائدة ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : « إذا كثرت ذنوب العبد ، ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله بالذنن ليكفرها (٤) » •

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي ، حدثنا أبو أسامة ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن - هو
 البصري - قال في قوله : (وما أصابكم من مصيبة فها كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) ، قال : لما نزلت قال رسول الله

(١) تفسير الطبري : ٢٥/٢٠٦ - ٢١ •

(٢) مسند الإمام أحمد : ٨٥/١ •

(٣) مسند الإمام أحمد : ٩٨/٤ •

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٥٧/٦ •

صلى الله عليه وسلم : « والذى نفس محمد بيده ، ما من غلظ عود ، ولا اختلاج (١) عرق ، ولا حثرة قدم ، إلا بلذب ، وما يعفو الله عنه أكثر » .

وقال أيضا : حدثنا أبي ، حدثنا عمر بن علي ، حدثنا هشيم ، عن منصور ، عن الحسن ، عن عمران بن حصين — رضى الله عنه — قال : دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلى في جسده ، فقال له بعضهم إنا نشتيتس لك لما نرى فيك . قال : فلا تبتس بما ترى ، فإن ما ترى بلذب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا هذه الآية : (وما أصابكم من مصيبة فبا كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) .

وحدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني ، حدثنا جرير ، عن أبي البلاد قال : قلت لعلاء بن بلر : (وما أصابكم من مصيبة فبا كسبت أيديكم) ، وقد ذهب بصرى وأنا غلام ؟ قال : فيلذوب والليلك .

وحدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا وكيع ، عن عبد العزيز بن أبي رزاد ، عن الضحاك قال : ما تعلم أحدا (خلفا) القرآن ثم نسيه إلا بلذب ، ثم قرأ الضحاك : (وما أصابكم من مصيبة فبا كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير) ، ثم يقول الضحاك : وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن ؟

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٦٧﴾ إِنَّ يَسَاءَ يَسْكُنَ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٦٨﴾ أَوْ يُوقِنُ ۖ إِذَا يُؤْتِيهِمْ مَّا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٦٩﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجْتَنَّبُونَ فِي عَائِلَتِنَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ عَيْنٍ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى : ومن آياته الثلاثة على قوته وسلطانه ، تسخير البحر لتجرى فيه السفك بأمره ، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام ، أى : كالجبال ، قاله مجاهد ، والحسن ، والسدى ، والضحاك ، أى : هى فى البحر كالجبال فى البر ، (إن يشأ يسكن الريح) ، أى : التى تسير بالسفن ، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن ، بل تظل راكدة لا تنجى ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره ، أى : على وجه الماء ، (إن فى ذلك لآيات لكل صبار) ، أى : فى الشدائد ، (شكور) ، أى : إن فى تسخير البحر وإجراؤه المرى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم ، لآيات على نعمته تعالى على خلقه (لكل صبار) ، أى : فى الشدائد ، (شكور) فى الرخاء .

وقوله : (أَوْ يُوقِنُ ۖ إِذَا يُؤْتِيهِمْ مَّا كَسَبُوا) ، أى : ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون عليها ، (ويعف عن كثير) ، أى : من ذنوبهم : ولو أعظم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر .

وقال بعض علماء التفسير : معنى قوله (أَوْ يُوقِنُ ۖ إِذَا يُؤْتِيهِمْ مَّا كَسَبُوا) ، أى : لو شاء لأرسل الريح قوة عاتية ، فأخذت السفن وأحالتها من سيرها المستقيم ، فصرقتها ذات اليمين أو ذات الشمال ، أبقة لا تسير على طريق ، ولا إلى جهة مقصد ،

وهذا القول هو يضمن هلاكها ، وهو مناسب للأول ، وهو أنه تعالى لو شاملكن الريح فرفقت ، أو لقواه فشردت وأبقت وحلكت ؛ ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة ، كما يرسل المطر بقدر الكتابة ، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنان ، أو قليلا لا أنبت الزرع والثمار ، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سحبا من أرض أخرى غيرها ، لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ، ولو أنزل عليهم لهدم بياعهم ، وأسقط جدرانهم ،

وقوله : (ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص) ، أى : لا يجد لهم عن بأسنا وتقمنا ، فإنهم مهززون بقدرةنا .

فَلَا أُوتِيهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَلْقَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٥﴾
وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ إِثْمِ النَّارِ وَتُفَاهِتِهَا وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى مستحضرا لثان الحياة الدنيا وزينتها ، وما فيها من الزهرة والنعيم الداني ، بقوله : (فلا أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا) ، أى : معها حصلتم وجمعتم فلا تفروا به ، فلما هو متاع الحياة الدنيا ، وهى دار دنية فانية زائلة لا عالة ، (وما عند الله خير وأبقى) ، أى : وثواب الله خير من الدنيا ، وهو باق سرمدي ، فلا تغدوا الفانى على الباقى . ولهذا قال : (للذين آمنوا) ، أى : للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا ، (وعلى ربهم يتوكلون) ، أى : ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات .

ثم قال : (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) ، وقد قلنا الكلام على الإثم والفواحش فى «سورة الأعراف» (١) ، (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) ، أى : سيجتنبون تقضى الصفح والغفر عن الناس ، ليس سيجتنب الانتقام من الناس .

وقد ثبت فى الصحيح : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله (٢) » : وفى حديث آخر : « كان يقول لأحدنا عند المعية : ماله ؟ تربت جيبته (٣) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن زائدة ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : كان المؤمنون يكرهون أن يستلوا ، وكانوا إذا قتلوا عفا .

وقوله : (والذين استجابوا لربهم) ، أى : اتبعوا وسله وأطاعوا أمره ، واجتنبوا زجره ، (واقاموا الصلاة) ، وهى أعظم العبادات لله عز وجل ، (وأمرهم شورى بينهم) ، أى : لا يرمون أمرا حتى يشارروا فيه ، ليصاعدا بأمرهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها ، كما قال تعالى : (وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتكلم على الله (٤)) . ولهذا كان عليه

(١) انظر ٣/٣٥٣ - ٣٥٨ ، ٤٠٤ .

(٢) البخارى ، كتاب الأدب ، باب قول النبى - صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تسروا » : ٢٩/٨ - ٣٧ . ومسلم كتاب القضاة ، باب ومباذنه صلى الله عليه وسلم للأئمة . . . : ٨٠/٧ .

(٣) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « لم يكن النبى - صلى الله عليه وسلم - ناشئا ولا مغشئا » : ١٥/٨ . ومسلم ١٢٦/٤ ، ١٤٤ ، ١٥٨ .

وفى النهاية لابن الأثير : « تربت جيبته : قيل : أراد به معاذة بكثرة السجود » .

(٤) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .

السلام يشاورهم في الحروب ويحوا، ليلبي بذلك قلوبهم : وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب الرفاعين طعن رجل الأمر بعده شورى في ستة نفر ، وهم : حنن ، وعلى ، وطلمة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنهم أجمعين ، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم حنن عليهم رضى الله عنهم ، (وما رزقناهم ينفقون) ، وذلك بالإحسان إلى خلق الله ، الأكراب إليهم منهم فالأكراب :

وقوله : (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) ، أى : فيهم قوة الانتصار من ظلمهم واعتدى عليهم ، ليسوا بماجزين ولا أذلة ، بل يقدرون على الانتقام ممن بغي عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قلدروا عفا ، كما قال يوسف عليه السلام لإخوته : (لا ترب عليكم اليوم يفر الله لكم) (١) ، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه ، وكما عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولئك النفر الثمانين الذين فصلوه عام الحديبية ، وتركوا من جبل التميم ، فلما قلدوهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانتقام ، وكذلك ففوه عن : غزوت بن الحارث ، الذى أراد القتل به حين اختط سيفه وهو نائم ، فاستيقظ - عليه السلام - وهو في يده صكناً ، فانتهره ، فوضعه من يده ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف من يده ، ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل ، وعفا عنه (٢) ، وكذلك عفا عن لبيد بن الأصم الذى سحره - عليه السلام - ومع هذا لم يعرض له ولا حابه مع قدرته عليه ، وكذلك ففوه - عليه السلام - عن المرأة اليهودية - وهى زينب أخت مرحب اليهودى الغيرة الذى قتله محمود بن مسلمة ، الى سميت الذراع يوم خيبر - فأخبره للذراع بذلك ، فعلمها فاعترفت ، فقال : « ما حملك على ذلك ؟ » قالت : أردت إن كنت نيا لم يضرك ، وإن لم تكن نيا استرحنا منك (٣) ، فأطلقها عليه الصلاة والسلام ، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به ، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً ، والحمد لله :

وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ۚ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ اتَّبَعَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ۖ فَلَا ذَنْبَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَقَالِبَ الَّذِينَ يُنَادُونَ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَخْلِفُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ قُلُوبُ الْفَاسِقِينَ ﴿٤١﴾ وَلَمَنِ سَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلىها) ، كقوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه مثل ما اعتدى عليكم) (٤) ، وقوله : (وإن عاقبتم فاعقبوا مثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خبير للصابرين) (٥) ، فشرح الدليل وهو القصاص ، ونسب إلى الفضل وهو العفو ، كقوله : (والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له) ، ولهذا قال هاتما : (فمن عفا

(١) سورة يوسف : آية ٩٢ .

(٢) أنظر البخارى ، كتاب المغازى ، باب : غزوة ذات الرقاع ، ص ١٤٧٢ .

(٣) أنظر سنن أبى داود ، كتاب المغازى ، باب : فبينما ساقوا رجلاً من أسرى بني النضير ، ص ١٤٧٢ .

(٤) سورة لقمان : آية ١٩٤ .

(٥) سورة قسطنط : آية ١٢٦ .

وأصلح فأجره على الله) ، أى : لا يضيع ذلك عند الله كما صحح في الحديث : « وما زاد الله عبدا بغفر إلا حسرا (١) » ، وقوله : (إنه لا يحب الظالمين) ، أى : للظالمين ، وهو المبتلىء بالسوء :

ثم قال : (ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) ، أى : ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم :

قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا معاذ بن معاذ ، حدثنا ابن حوّن قال : « كنت أسأل عن الانتصار : (ولئن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) ، فحدثني علي بن زيد بن جدهان ، عن أم محمد - امرأة أبيه - قال : ابن حوّن : زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة - قالت : قالت أم المؤمنين : دخل علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعندنا زينب بنت جحش ، فجعل يصنع بيده شيئا فلم يطمئن لها ، فقلت (٢) بيده حتى قطعت لها ، فأمسك . وأقبلت زينب تحمّم (٣) لعائشة ، فنهاها ، فأبت أن تنتهي . فقال لعائشة : « سُبِّهَا » . فسبّتها فظليتها ، وانطلقت زينب فأنت عليا فقالت : إن عائشة تهم بك ، وتضل بك . فجاءت فاطمة فقال لها : « إنها حبة أريك وربّ الكعبة » . فانصرفت وقالت لعل : إني قلت له كلنا وكلنا ، فقال لي كلنا وكلنا . قال : وجاءه علي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلّمه في ذلك (٤) :

هكذا ورد هذا السياق ، وعلى بن زيد بن جدهان يأتي في رواياته بالتركبات غالبا ، وهذا فيه نكارة ، والحديث الصحيح خلاف هذا السياق ، كما رواه السائي وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة السّافه ، عن عبد الله البجليّ ، عن عروة قال : قالت عائشة - رضى الله عنها - : ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهي غضبي ، ثم قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : حسبك إذا قلت لك أيتها أبي بكر ذُرِّعَتِيهَا (٥) . . ثم أقبلت على فأعرضت عنها ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ذلك فانتصرى » . فأقبلت عليها حتى رأيته وقد يتيسر ريقها في فمها ، ما تردّ على شيئا . فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه (٦) ، وهذا لفظ السائي .

وقال البزار : حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو غسان ، حدثنا أبو الأحوص ، عن أبي حمزة ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » .

(١) مسلم ، كتاب البر ، باب « استصحاب الفو والتواضع » : ٢١/٨ . وتحتة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء في التواضع » ، الحديث ٢٠٩٨ : ١٧٧/٦ ، وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

(٢) أى : أمسكت بيده . والرب - كما تقدم مرارا - تجمل للقول عبارة عن جميع الأعمال .

(٣) أى : تعرض لشمها من غير روية ولا كتبت .

(٤) تفسير البكري : ٢٥ / ٢٤ .

(٥) الترمذى : تصدير التواضع ، وأراحت بالدرجتين : الساعدين تقول زينب : يكتيك فعل عاتقة ، حين تغلب لك ذراعيها ؟ أى : كأنك لشدة حيك لها لا تنظر لك لئلا تخر .

(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب التكاثر ، باب « حسن معاشرة النساء » ، الحديث ١٩٨١ : ١/٦٣٧ .

ورواه الترمذي من حديث أبي الأحوص ، عن أبي حمزة - واسمه ميمون - ثم قال : « لا تعرفه » إلا من حديثه ، وقد تكلم فيه من قبل حفظه (١) »

وقوله : (إنما السبيل) ، أي : إنما الحرج والمنت (على الذين يظلمون الناس ويوفون في الأرض بغير الحق) ، أي : يبدون الناس بالظلم . كما جاء في الحديث الصحيح : « المستبان ما قال ، فعل الباديء ما لم يمتد المظالم » (٢)

(أولئك لهم عذاب أليم) ، أي : شديد موجع

قال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا سعيد بن زيد - أخو حماد بن زيد - حدثنا هيثم الشحام ، حدثنا محمد بن واسع قال : قلت مكة فإذا على الخندق منقورة (٣) فأطعت فانطلق في إلى مروان بن المهلب ، وهو أمير على البصرة ، فقال : حاجتك يا أبا عبد الله . قلت : حاجتي إن استسلمت أن تكون كما قال أخو بني عدى . قال : ومن أخو بني عدى ؟ قال : العلاء بن زياد ، استعمل صديقاً له مرة على عمل ، فكذب إليه : « أما بعد فإن استسلمت أن لا يبيت إلا وظهرك خفيف ، ويطنك خصب ، وكفك نقيّة من دماء المسلمين وأموالهم ، فإنك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل ، (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويوفون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم) . فقال : صدق والله وتصح ثم قال : ما حاجتك يا أبا عبد الله ؟ قلت : حاجتي أن تلتحقني بأهلي . قال : نعم . رواه ابن أبي حاتم .

ثم إنه تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرح القصص ، قال نادياً إلى العفو والصنيع : (ولن صبر وخفر) ، أي : صبر على الأذى وسر السيرة ، (لأن ذلك لمن حزم الأمور) .

قال سعيد بن جبير : لمن حق الأمور التي أمر الله بها ، أي : لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمران بن موسى الطرسوسي ، حدثنا عبد الصمد بن يزيد - خادم الفضيل ابن عياض - قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً قتل : « يا أخى ، اعف عنه » . فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال : لا يحمل قلبى العفو ، ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل . فقل له : إن كنت تحسن أن تنتصر ولا ترجع إلى باب العفو ، فإنه باب واسع ، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينال حل فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور :

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى - بنى ابن سعيد القطان - عن ابن عجلان ، حدثنا سعيد بن أبي سعيد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رجلاً شتم أبا بكر والنبي - صلى الله عليه وسلم - جالس ، فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) تحفة الأحوص ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٦٢٢ : ٥٤٠/٩ .

(٢) مسلم ، كتاب البر ، باب « النهي عن السباب » : ٢٠/٨ - ٢١ . وسنن أبي داود ، كتاب الآداب ، باب « المستبان » وتحفة الأحوص ، أبواب البر ، باب « ما جاء في التمسك » ، الحديث ٢٠٤٧ : ١١٥/٦ ، وقال الترمذي : « حسن صحيح » . ومسنن الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢٣٥/٢ : ٥١٧ . ومن عياض بن حماد : ١٦٢/٤ : ٢٩٦ .

(٣) المنقورة : موضع الخرس ، وتكون في رأس الجبل .

يعجب ويتعجب ، فلما أكرّده عليه بعض قوله ، فنفضب النبي — صلى الله عليه وسلم — وقام ، فلفحه أبو بكر فقال : يا رسول الله ، إنه كان يشتني وأنت جالس ، فلما ردّدت عليه بعض قوله غضبت وقمست ! قال : « إنه كان معك ملكك برد منك ، فلما ردّدت عليه بعض قوله حصر الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان » ثم قال : يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حتى ، ما من عبد ظلم بمظلمة فينفي عنها الله ، إلا أعزّ الله بها نصرته ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة ، إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله بها قلة (١) »

وكلنا رواه أبو داود ، عن عبد الأعلى بن حماد ، عن سفيان بن حينة — قال : ورواه صفوان بن عيسى ، كلاهما عن محمد بن عجلان . ورواه من طريق الليث ، عن سعيد المقبري ، عن بشر بن الحمر ، عن سعيد بن المسيب مرسل (٢) . وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى ، وهو سبب سببه للصديق .

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِّن سَبِيلٍ ﴿١﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِّنَ الْأَشْجَارِ يُنْظَرُونَ مِنْ حَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّضَاعٍ ﴿٢﴾ وَمَا كَانَ لَكُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٣﴾

يقول تعالى خبراً عن نفسه الكرمة : إنه ما شاء كان ولا رادّ له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداة فلا مضلّ له ، ومن يضلّل فلا هادي له ، كما قال : (ومن يضلّل فإن نجد له وليا مرشداً (٣))

ثم قال خبراً عن الظالمين ، وهم المشركون بالله (لما رأوا العذاب) ، أي : يوم القيامة يحننون الرجعة إلى الدنيا ، (يقولون : هل لنا مرّة من سبيل) ، كما قال : (ولو ترى إذ وقفوا على النار ، فقالوا : يا ليتنا ترد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدلنا ما كانوا بخفون من قبل ، ولوردوا لعداؤنا لما نوا عنه ، وإنهم لكاذبون (٤))

وقوله : (وتراهم يعرضون عليها) ، أي : على النار (خاشعين من اللذ) ، أي : الذي قد اعتراه بما أسلفوا من عصيان الله ، (ينظرون من حرف خفي) — قال مجاهد : بين ذليل . أي ينظرون إليها مساكفة خوافاً منها ، والذي يخلعون منه واقع بهم لا عالة ، وما هو أعظم مما في نفوسهم ، أجاونا الله من ذلك .

(وقال الذين آمنوا) ، أي : يقولون يوم القيامة : (إن الخاسرين) ، أي : للخسار الأكبر (الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) ، أي : ذهب بهم إلى النار ، فعمدوا للنهم في دار الأبد ، وخسروا أنفسهم ، وفرّق بينهم وبين

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٣٦/٢ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب : في الانتصار ، الحديث ٤٨٩٦ ، ٤٨٩٧ : ٢٧٦/٤ .

(٣) سورة الكهف ، آية : ١٧ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ٤٧ — ٢٨ .

أصحابهم وأحبهم وأهلهم وقرباتهم ، فخرهم ، (إلا إن الظالمين في عذاب عقيم) ، أى : دائم مرمدى أبدي ، لا يخرج لهم منها ولا يحيد لهم عنها .

وقوله : (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله) ، أى : يتقلدونهم مما هم فيه من العذاب والهلاك ، (ومن يفضل الله فإله من سبيل) ، أى : ليس له خلاص .

أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مُلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿١٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيطًا ۚ إِنَّا نَبْلِغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا ۖ وَإِنْ نَحْنُصِبُّ سَيْفًا مِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَقُورٍ ﴿١٨﴾

لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام المائلة ، حذّر منه وأمر بالاستعداد له ، فقال : (استجبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) ، أى : إذا أمر بكونه فانه كلمح البصر يكون ، وليس له دافع ولا مانع .

وقوله : (ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير) ، أى : ليس لكم حصن تحصنون فيه ، ولا مكان يستتركم وتتكبرون فيه ، فتضيون عن بصره - تبارك وتعالى - بل هو محيط بكم يعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه ، (يقول الإنسان يومئذ : أين الممر . كلا ، لا وزر : إلى ربك يومئذ المستقر) (١) :

وقوله : (فإن أعرضوا) ، يعنى المشركين : (فأرسلناك عليهم حفيظا) ، أى : لست عليهم بمعصير : وقال تعالى : (ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء) (٢) . وقال تعالى : (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (٣) . وقال هاهنا : (إن عليك إلا البلاغ) ، أى : إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم .

ثم قال تعالى : (وإنّا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها) ، أى : إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ، (وإن نصيبهم) يعنى الناس (سبّة) ، أى : جذب ونعمة وبلاء وشدة ، (فإن الإنسان كفور) ، أى : يجحد ما تقدم من النعمة ولا يعرف إلا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشرب وطير ، وإن أصابته عنتة يشرب وقط . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا معشر النساء ، صلبن فإني رأيتكن أكثر أهل النار) . فقالت امرأة : ولم يا رسول الله ؟ قال : (لأنكن تكثرن الشكاية ، وتكفرن العشير) (٤) ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم ركت يوما قالت : ما رأيت منك خيرا قط (٥) . وهذا حال

(١) سورة القيامة : الآيات ١٥ - ١٢ .

(٢) سورة البقرة : آية : ٢٧٢ .

(٣) سورة الفرق : آية : ٤٠ .

(٤) أى : يجحدن إسمان أزواجهن .

(٥) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : كفران العشير . ١٤/١ . وكتاب الكسوف ، باب : صلاة الكسوف جماعة : ٤٦/٢ .

ومسلم ، باب : صلاة للكسوف : ٣٣/٣ - ٣٤ . ومسنّد الإمام أحمد عن ابن عباس : ٢٩٨/١ ، ٣٥٨ - ٣٥٩ .

أكرم الناس إلا من هداه الله ولمعه رشده ، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فالؤمن كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن (١) » .

لِلّٰهِ الْمُلْكُ السَّمَوٰتِ وَالْاَرْضُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ اِنۡثَا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ اُنۡثٰى ۚ وَلِلّٰهِ كُوۡرُ ۝١٥
اَوۡرُۡسُهُۥمۡ ذُرِّيَّاتُنَا وَنَحۡنُ اَعۡيُنُهُۥمۡ اِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝١٦

يُخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ، و (يهب لمن يشاء إناثا) ، أى : يرزقه البنات فقط - قال البغوى : ومنهم لوط عليه السلام - (ويهب لمن يشاء الذكور) ، أى : يرزقه البنين فقط . قال البغوى : كابراهيم الخليل - عليه السلام - لم يولد له أنثى ، (أو يزوجهم ذكورا وإناثا) ، أى : ويعطي من يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى ، أى : من هذا وهذا قال البغوى كمحمد - عليه الصلاة والسلام - (ويهب لمن يشاء عقبا) ، أى : لا يولد له . قال البغوى : كجحي وعيسى عليهما السلام . فيجعل للناس أربعة أقسام ، منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من الزوجين ذكورا وإناثا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا ، فيجعله عقبا لا نسل له ولا يولد له ، (إنه عليم) ، أى : بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ، (قدير) ، أى : على من يشاء ، من تفاوت الناس في ذلك .

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى : (ونجعل له آية للناس (٢)) ، أى : دلالة لم على قدرته - تعالى وتعالى - حيث خلق الخلق على أربعة أقسام ، قادم - عليه السلام - مخلوق من تراب ، لا من ذكر ولا أنثى ، وسواء - عليها السلام - من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى من ذكر وأنثى ، وعيسى - عليه السلام - من أنثى بلا ذكر ، فثبت الدلالة لخلق عيسى ابن مريم عليهما السلام . ولها قال : (ونجعل له آية للناس) ، فهنا المقام في الآباء ، والمقام الأول في الأبناء ، وكل منهما أربعة أقسام ، فسيحان العلم القدير .

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكِلَهُ اللّٰهُ شَيْئًا مِّنۡ أَمْرٍ اَوْ يَتَّخِذَ اٰوۡدِيًا حِجَابًا ۚ اَوْ يَرْسَلُ رَسُوۡلًاۙ فَيَقۡرِئۡ بِاٰيٰتِهٖۤ مَا يَشَآءُ ۚ اِنَّهُۥ عَلٰى حَكِيۡمٍ ۝١٧ وَكَذٰلِكَ اَوۡحٰىنَا اِلَيْكَ رُۤوۡحَنَا مِّنۡ اَمۡرِنَاۙ مَا كُنۡتَ تَدۡرِىۡ مَا الۡكِتٰبُ وَلَا الۡاٰمِنُۙ وَلٰكِنۡ جَعَلۡنَا نُوۡرًا نَّهۡدِىۡ بِهٖۤ مِّنۡ نَّشَآءٍۙ وَاِنۡكَ لَتَنۡبِذِىۡ اِلَآى صِرَاطٍ مُّبۡتَغِيۡهِ ۝١٨ صِرَاطَ اللّٰهِ الَّذِىۡ لَهٗ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الۡاَرْضِ ۚ اَلَا اِلَآى اللّٰهِ نَصِرُ الۡاُمُوۡدُ ۝١٩

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تعالى تارة يخلق في روع النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) مسلم ، كتاب الزهد ، باب « المؤمن أمره خير كله » : ٢٧٧/٨ . ومسنه الإمام أحمد من صحيح ابن سنان : ٣٣٢/٤ .

شيئا لا يتأذى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء في صحيح ابن حبان ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي : أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .

وقوله : (أو من وراء حجاب) ، كما كلم موسى عليه السلام ، فاته سأل الروية بعد التكليم ، فحُجِب عنها ،

وفي الصحيح أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال لجابر بن عبد الله : « ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كَيْفَا (١) » ... الحديث (٢) ، وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في الدار الدنيا .

وقوله : (أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) ، كما ينزل جبريل وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم السلام ، (إنه على حكيم) ، فهو على علم خبير حكيم .

وقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) ، يخبر القرآن ، (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) ، أي : على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ، (ولكن جعلناه) ، أي : القرآن (نورا نهيى به من نشاء من عبادنا) ، كقوله : (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عى أولئك يتنادون من مكان بعيد (٣)) .

وقوله : (وإنك) يا محمد (لتهدى إلى صراط مستقيم) ، وهو الخلق القويم ، ثم فسره بقوله : (صراط الله) ، أي : شرعه الذي أمر به الله ، (الذي له ما في السموات وما في الأرض) ، أي : ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما ، الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، (ألا إلى الله تصير الأمور) ، أي ترجع الأمور ، فيفصلها ويحكم فيها .

آخر تفسير سورة «الشورى» والحمد لله رب العالمين

(١) أي : مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول .

(٢) تحفة الأحسن ، تفسير سورة آل عمران ، الحديث ٤٠٩٧ : ٣٦٠/٨ . وقال القرطبي : « هذا حديث حسن قريب » . وابن ماجه ، المقدمة ، الحديث ١٩٠ : ١٣/١ . وكتاب الجهاد ، باب « فضل الشهادة في سبيل الله » . الحديث ٢٨٠٠ : ٩٣٦/٢ . هذا وانظر فيما تقدم تفسير الآية ١٦٩ من سورة آل عمران ١٤١/٢ . وأسد الغابة ، ترجمة « عبد الله بن عمرو بن حرام » : ٣٤٦/٣ - ٣٤٨ ، بتحقيقنا .

(٣) سورة فصلات ، آية : ٤٤ .

تفسير سورة الزخرف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَدِّثْ ۖ وَالْكِتَابَ الْمُنِيرِ ۚ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّا فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَشِتَاتٍ لِّعَلِّي حَكِيمٌ ۝ أَفَتَضْرِبُ عَنْكَ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ۝ وَكَرَّرْنَا أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَجَعَلْنَا مَثَلَهُ الْأَوَّلِينَ ۝

يقول تعالى : (حم والكتاب المبين) ، أى : البين الواضح الجلي للمعاني والألفاظ ، لأنه نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ) أى : أنزلناه (قرآنًا عربيًا) ، أى : بلغة العرب فصيحًا واضحًا ، (لعلكم تعقلون) ، أى : تفهمونه وتكتفرونه ، كما قال (بلسان عربي مبين (١) .

وقوله تعالى : (وإنه في أم الكتاب لدينا ليل حكيم) ، يبين شرفه في الملأ الأعلى ، ليشرفه ويعظمه ويعلّمه أهل الأرض ، فقال تعالى : (وإنه) ، أى : القرآن (في أم الكتاب) ، أى : اللوح المحفوظ ، قاله ابن عباس ، وجهاد ، (لدينا) ، أى : عندنا ، قاله قتادة وغيره ، (ليل) أى : ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ، قاله قتادة ، (حكيم) ، أى : حكم يرى من اليبس والزيغ .

وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله ، كما قال : (إنه لقرآن كريم) في كتاب مكتون : لا يمسّه إلا المطهرون : تتزىل من رب العالمين (٢) ، وقال : (كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة : مرفوعة مطهرة . بأبلى سفرة كرام بررة (٣)) ، ولهذا استنبط العلماء - رحمهم الله - من هاتين الآيتين : أن المحدث لا يمس المصحف ، كما ورد به الحديث إن صح ، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى ، فأهل الأرض بملك أوى وأخرى ، لأنه نزل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم ، والالتفات له بالقبول والتسليم ، لقوله : (وإنه في أم الكتاب لدينا ليل حكيم) .

وقوله : (أفترضب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟) ، اختلف المفسرون في معناه ، فقل : معناه أن تصفحوا عنكم فلا تملكونه ولم تقبلوا ما أمرتم به (٤) قاله ابن عباس ، وجهاد وأبو صالح ، والسبى ، واختاره ابن جرير .

(١) سورة الشعراء ، آية ١٩٥ .

(٢) سورة الواقعة ، الآيات : ٧٧ - ٨٠ .

(٣) سورة ميس ، الآيات : ١١ - ١٦ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٠ / ٢٥٥ .

وقال قتادة في قوله : (انضرب عنكم الذكر صفحا ؟) ، والله لو أن هذا القرآن رفع حين رَدَّته أوائل هذه الأمة فلكوا ، ولكن الله عاد به الله (١) ورحمته ، وكروه عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة ، أو ما شاء الله من ذلك ؛ وقوله قتادة لطيف للمنى جدا ، وحاصله أنه يقول في معناه : أنه تعالى من لطفه ورحمته خلقه لا يترك دعاهم إلى الخير والذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه ، بل أمر به ليتهدى من قدر هدايته ، ويقوم الحجة على من كتب ضلوه .

ثم قال تعالى مسلما لنيه في تكليب من كليه من قومه ، وآمرأ له بالصبر عليهم ، (وكم أرسلنا من نبي في الأولين) ، أي : في شيع الأولين ، (وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون) ، أي : يكتيونه ويسخرون به . وقوله : (فأهلكنا أشد منهم بطشا) ، [أي : فأهلكنا للكليين بالرسول ، وقد كانوا أشد بطشا] من هؤلاء الكليين لك باصمدا؟ كقوله : (أنهم يسروا في الأرض فيظنوا كيف كان حاله اللين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة (٢)) ، والآيات في ذلك كثيرة .

وقوله : (ومضى مثل الأولين) - قال مجاهد : ستهم : وقال قتادة : حقوتهم (٣) ، وقال غيره ما : عبرتهم : أي : جعلناهم عبرة لمن بعدهم من الكليين أن يصيبهم ما أصابهم ، كقوله في آخر هذه السورة : (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين (٤)) ، وكقوله : (سنة الله التي قد خلقت في عباده (٥)) ، وقال : (وان تجد لسنة الله تبديلا (٦)) .

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَكْفُرُونَ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ أَلَيْسَ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْلًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُكَ الْأَنْوَاعَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْغَبُونَ ۝ لَنَسْتَوْفِي عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ثِمْلَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَنَبِّئُهُمْ إِنَّهُمْ آخِذِينَ بِالْأَيْدِي سَفَرًا لَّيْسَ لَهُمْ شُرَكَاءُ فِيهِمْ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدَهُمْ وَلَا يَتْلُونَ ۝ وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ ۝

يقول تعالى : ولما سألتهم - يا محمد - هؤلاء الشركين بالله العاقلين معه غيره : (من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن خلقهن العزيز العليم) ، أي : ليعترفن بأن الخالق للكل هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد :

- (١) أي بفعله .
- (٢) سورة طه ، آية : ٨٢ .
- (٣) تفسير الطبري : ٢٢٢٥ .
- (٤) سورة الزمر ، آية : ٥٦ .
- (٥) سورة طه ، آية : ٨٥ .
- (٦) سورة الأحزاب ، آية : ٦٢ .

تفسير: منورة الزخرف

٢٤٧

ثم قال : (الذي جعل لكم الأرض مهاداً) (١) ، أى : فرائداً قراراً ثابتةً ، يسرون عليها ويقومون وينامون ويصرفون ، مع أنها مخلوقة على تيار لئلا ، لكنه أرسامها بالجيال لئلا تبتدحكنا ولا هكذا ، (وجعل لكم فيها سبلاً) ، أى : طرقاً بين الجبال والأودية (لكم تهتدون) ، أى : فى صبركم من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم .

(والذى نزل من السماء ماء بقدر) ، أى بحسبه الكفاية لزروعكم وتباركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم .
وقوله : (فأنشأنا به بلدة ميتا) ، أى : أرضاً ميتة ، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ،

ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم للماد بعد موتها ، فقال : (كللك تغرجون) ،

ثم قال : (والذى خلق الأزواج كلها) ، أى : مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وتبار وأنعام ، وخبر ذلك من الخيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ، (وجعل لكم من الفلك) ، أى : السفن (والأنعام ما تركبون) ، أى : دوابها لكم وسفرها ويسرها لأكلكم لحومها ، وشربكم لبنها وركوبكم ظهورها ، ولما قال : (لنستوا على ظهوره) ، أى : لنستوا متمسكين مرتفعين (٢) (على ظهوره) ، أى : على ظهور هذا الجنس ، (ثم تكبروا نسمة ربكم) ، أى : فبا سخر لكم (إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) ، أى : مقاومين . ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه .

قال ابن عباس ، وقطادة ، والسدى ، وابن زيد : (مقرنين) ، أى : مطيقين (٣) . (وإنا إلى ربنا لمقلبون) ، أى : لصابرون إليه بعد مماتنا ، وإليه سيرنا الأكبر . وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوى على الآخروى فى قوله : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) (٤) ، وبالباب الدنيوى على الآخروى فى قوله تعالى : (وربنا ولياس القوى ذلك خير) (٥) .

ذكر الأحاديث الواردة عند ركب الدابة

حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا شريك بن عبد الله ، عن أبى إسحاق ، عن على بن ربيعة قال : رأيت علياً - رضى الله عنه - أتى بداية (٦) ، فلما وضع رجله فى الركاب قال : بسم الله . فلما استوى عليها قال : الحمد لله ، (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) . وإنا إلى ربنا لمقلبون) ، ثم حمد الله ثلاثاً ، وكبر ثلاثاً ، ثم قال : سبحانك ، لا إله إلا أنت ، قد ظلمت نفسى فاعف عني . ثم ضحك فقلت له : من أى شيء (٧) ضحككت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت (له) ، ثم ضحك .

(١) كلما فى غلظة الأثر ، وهى قراءة ثالثة ، انظر تفسير القرطبي : ١٦ / ٦٤ .

(٢) ارتفع القوم ، صادروا وقادوا ، أى أنهم يركبونها مترافقين فى سفرهم .

(٣) تفسير القيرى : ٣٤٢٥ .

(٤) سورة البقرة : آية ١٩٧ .

(٥) سورة الأعراف : آية ٢٦ .

(٦) فى المصنف : «أى بداية ليركبها» .

(٧) فى المصنف : «م ضحككت» . ولفظ الترمذى يوافق ما هنا .

(٨) فى المصنف : «فلما كنا نملت» . ولفظ الترمذى أيضاً يوافق ما هنا .

قلت : ثم ضحكك يا رسول الله ؟ فقال : « يعجب الرب من عبده إذا قال : « رب ، اغفر لي » ويقول : « لم يبدى أنه لا يظفر الذنوب غيري (١) » »

وهكذا رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، من حديث أبي الأحوص - زاد النسائي - عن أبي إسحاق السبيعي ، عن علي بن ربيعة الأسدي الوالبي ، به ، وقال الترمذي : « حسن صحيح (٢) » .

وقد قال عبد الرحمن بن مهدي ، عن شعبة قلت لأبي إسحاق السبيعي : « من سمعت هذا الحديث ؟ قال : « من يونس بن حبيب » ، فقلت : « يونس بن حبيب قلت : « من سمعه ؟ فقال من رجل سمعه من علي بن ربيعة » ورواه بعضهم عن يونس ابن خباب ، عن شقيق بن عقبة الأسدي ، عن علي بن ربيعة الوالبي ، به »

حدث عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا أبو بكر بن عبد الله ، عن علي ابن أبي طلحة ، عن عبد الله بن عباس : « إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرفده على دابته ، فلما استوى عليها كبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثا ، وحمد ثلاثا ، وهكّل الله واحدة : ثم استلقى عليه فضحك ، ثم أقبل عليه فقال : « ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت ، إلا أقبل الله - عز وجل - عليه ، فضحك إليه كما ضحكك إليك » »
فرد به أحمد (٣)

حدث عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبي الزبير ، عن علي بن عبد الله البارق ، عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال : « سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين » وإنا إلى ربنا منتقلون » ثم يقول : اللهم ، إني أسألك في سفرى هذا البرّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم ، هون علينا السفر واطو لنا البعد ، أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم ، اصحبنا في سفرنا ، واخلفنا في أهلنا » وكان إذا رجع إلى أهله قال : « آيرون تابعون إن شاء الله ، عابدون ، لربنا حاملون (٤) » »

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي ، من حديث ابن جريج - والترمذي من حديث حماد بن سلمة - كلاهما عن أبي الزبير ، به (٥) »

(١) مسند الإمام أحمد : ٩٧٪١ .

(٢) سنن أبي داود : كتاب الجهاد ، باب « ما يقول إذا ركب » ، ونقطة الأحوص ، أبواب الدعوات ، باب « ما جاء ما يقول إذا ركب دابة » ، الحديث ٣٥١١ : ٤٠٨٪٩ - ٤٠٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٦٣٪١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٤٤٪٢ .

(٥) مسلم : كتاب الحج ، باب « ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وقبيرة » ، ١٠٤٪٤ . وسنن أبي داود : كتاب الجهاد ، باب « ما يقول الرجل إذا سافر » ، ونقطة الأحوص ، أبواب الدعوات ، باب « ما يقول إذا ركب دابة » ، الحديث ٣٥١٢ .

٤١٥ - ٤١٦٪٩ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن حبيب ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم ، عن عمرو بن الحكم بن نويان ، عن أبي لاس الخزاعي قال : حملنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيل من إيل الصدقة إلى الحج ، قلنا : يا رسول الله ، ما نرى أن نحملنا هذه ! فقال : « ما من يعبر إلا في ذرّوته شيطان ، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتوها كما أركم ، ثم امتهنوها لأنفسكم ، فانما عمل الله عز وجل (١) » .

أبو لاس اسمه : محمد بن الأسود بن خلف (٢) .

حديث آخر في معناه ، قال أحمد : حدثنا عتّاب ، أخبرنا عبد الله (ح) وعلى بن إسحاق ، أخبرنا عبد الله - يعني ابن المبارك - أخبرنا أسامة بن زيد أخبرني محمد بن حمزة : أنه سمع أباه يقول : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « على ظهر كل يعبر شيطان ، فإذا ركبتوها فسموا الله - عز وجل - ثم لا تقصروا عن حاجاتكم (٣) » .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ إِيمَانُكَ يَتْلَىٰ بَنَاتٍ وَأَصْفًاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِنْ يَتَشَوَّىٰ فِي الْحُلِيِّمْ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْفَالِقَةَ الْآيَةَ ۖ هُمُ حَيْدُ الرَّحْمَنِ إِنَّا شَاءَ أَنْ نَشْهَدَ أَنْ خَلَقَهُمْ مِنْ تَحْتِ شَرْبَتِ رَبِّهِمْ ۖ فَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى عبدا عن المشركين فيا افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيهم وبعضها لله ، كما ذكر الله عنهم في سورة الأنعام ، في قوله : (وجعلوا لله بما ذرأ من الحنث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء ما يحكمون (٤)) . وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أحسبها وأردأها وهو البنات ، كما قال تعالى : (ألستم الذكر وله الأنثى « تلك إذا قسمة ضيزى (٥) » . وقال هاهنا : (وجعلوا له من عباده جزءا ، إن الإنسان لكفور مبين) .

ثم قال : (أم اتخذ ما يتلى بنات وأصفاكم بالبنين ؟) ، وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار . ثم ذكر تمام الإنكار فقال : (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ، ظل وجهه مسودا وهو كظيم) ، أى : إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة ، وتلوه كآبة من سوء ما بشر به ويتوارى من القوم من خجسته من ذلك ، يقول تعالى : فكيف تأتونهن أنتم من ذلك ، وتنسونه إلى الله عز وجل ؟ .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٢١/٤ . هذا وإنما تسميوا من صلهم هل إيل الصدقة لضمها .

(٢) انظر أسد النابة : ٨٠/٥ ، ٢٦٥/٦ بتحقيقنا .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٩٤/٣ .

(٤) سورة الأنعام ، آية : ١٣٦ .

ثم قال : (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) ، أى : المرأة ناقصة بأكمل نقصها بلبس الخلل منذ تكون طفلة ، وإذا خاصمت فلا عبارة لها ، بل هى حاجزة عبيبة ، أو من يكون هكلها ينسب إلى جناب الله عز وجل ١٩ ، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن ، فى الصورة والمبنى ، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما فى معناه ، ليحجر ما فيها من نقص ، كما قال بعض شعراء العرب :

وَمَا الْحَلَى إِلَّا زِينَةٌ مِنْ تَكْبِيصٍ يَتَمَسُّ مِنْ حُسْنِ إِذَا الْحُسْنُ قَصُرَا
وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْجَمَالَ مُؤَفَّرًا كَحُسْنِكَ ، لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى أَنْ يَزُورَا

وأما نقص معناه فلأنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار ، لا عبارة لها ولا همة ، كما قال بعض العرب وقد بشرت بنت : وما هى بنعم الولد : نصرها باليكاه ، ويرها سرقة (١) :

ورق : (وجعلوا للملاكمة الذين هم عباد الرحمن إناثا) ، أى : اعتقدوا فيهم ذلك ، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك ، فقال : (أشهدوا خطيئهم) ، أى : شاملوهم وقد حكمتهم الله إناثا ، (ستكتب شهادتهم) ، أى : بذلك ، (ويسألون) عن ذلك يوم القيامة : وهلمنا بهنيد هليد ، ووعيد أكيد .

(وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم) ، أى : لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام ، التى هى على صور الملاكمة التى هى بنات الله ، فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه ، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ : أحصا : جمعهم لله ولدا ، تعالى وتقدس وتزده عن ذلك علوا كبيرا :

الثاني : دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين ، فجعلوا للملاكمة الذين هم عباد الرحمن إناثا ،

الثالث : عبادتهم لم مع ذلك كله ، بلا دليل ولا برهان ، ولا إذن من الله عز وجل ، بل بمجرد الآراء والأهواء ، والتقليد للأسلاف والكبرياء والآباء ، والتخبط فى الجاهلية الجاهلة .

الرابع : احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قدرا ، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلا كبيرا ، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار ، فإنه منذ بعث الرسول ، وأقول الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه ، قال : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فعبروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكلفين) (٢) . وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجمعنا من دون الرحمن آفة يعبدون) (٣) :

وقال فى هذه الآية بعد أن ذكر حججهم هذه : (ما لم يملك من علم) ، أى : بصحة ما قالوه واحتجوا به ، (إن هم إلا يخوضون) ، أى : يكلبون ويتقولون .

(١) انظر الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأثير ١ : ٩٩١ .

(٢) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٣) سورة الزمر ، آية : ٤٥ .

وقال جاهد في قوله : (ما لم يهلك من علم إنهم لا يخرسون) ، أى : ما يعلمون قدرة الله على ذلك (١) .

أَمْ أَتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٧﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿١٨﴾ * قُلْ أُولَؤُوحَتُّكُمْ بِأَهْلِيكُمْ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ إِنَّكُمْ عَلَى أُمَّةٍ قَالُوا إِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ فَاتَّقِ اللَّهَ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ عَلَى أُمَّةٍ قَالُوا إِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢١﴾ فَاتَّقِ اللَّهَ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ عَلَى أُمَّةٍ قَالُوا إِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين في هياتهم خبر الله بلا برهان ولا حجة : (أم أتيناكم كتابا من قبله ؟) (أى : من قبل شركهم) ، (فهم به مستمسكون) ، أى : فها هم فيه . أى : ليس الأمر كذلك ، بقوله : (أم أزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون (٢٢)) ، أى : لم يكن ذلك .

ثم قال : (بل قالوا : وجدنا آبائنا على أمة ، وإننا على آثارهم مهتدون) ، أى : ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد ، بأنهم كانوا على أمة ، والمراد بها الدين هائنا ، وقوله : (إن هذه أممتكم أمة واحدة (٢٢)) .

وقوله : (وإننا على آثارهم) ، أى : وراهم (مهتدون) ، دعوى منهم بلا دليل ،

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظائرهم من الأمم السالفة المكتبة للرسول ، تشابهت قلوبهم ، فقالوا مثل مقالتهم : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أو أوصوا به ؟ بل هم قوم طافون (١)) وهكذا قال هائنا : (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال متروفا : إننا وجدنا آبائنا على أمة ، وإننا على آثارهم مهتدون) ،

ثم قال تعالى : (قل) — أى : يا محمد هؤلاء المشركين — : (أو لو جئتكم بأهلئى ما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إننا بما أرسلتم به كافرون) ، أى : ولو علموا ويقنوا صحة ما جئتهم به لما انفادوا لذلك بسوء قصدهم وسكابرهم لحق وأهل .

قال الله تعالى : (فاتقوا الله) ، أى : من الأمم المكتبة بأنواع من الطلب ، كما فصله تعالى في قصصهم ، (فانظر كيف كان عاقبة المكذابين) ؟ أى : كيف بادوا وهلكوا ، وكيف نجى الله المؤمنين ؟ .

﴿

(١) تفسير الطبري : ٣٦/٢٥ .

(٢) سورة الروم ، آية : ٣٥ .

(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٩٢ . وانظر تفسير هذه الآية في : ٣٦٥/٥ - ٣٦٦ .

(٤) سورة الداريات ، آية : ٥٢ ، ٥٣ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٠٠﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي ﴿١٠١﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴿١٠٢﴾ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٠٣﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٤﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٠٥﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿١٠٦﴾ أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّبِعَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِخَيْرِ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٠٧﴾ وَلَوْلَا أَنْ يُكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً جَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِنَ أَنَّ هُنَا فُتْنَةٌ وَمَعْلُومٌ عَلَيْهِمْ يَظْهَرُونَ ﴿١٠٨﴾ وَلِيُجْزِيَهمُ أَتُوبًا وَسِرًّا عَلَيْهِمْ يَتَكَفَّرُونَ ﴿١٠٩﴾ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكُمْ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى خبراً عن عبده ورسوله وخليفه إمام الحنفية ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذي تنسب إليه قریش في نسبها وعليلها : أنه تراء من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان ، فقال : (انني براء مما تعبدون • إلا الذي فطرنى فإنه سيده •) وجعلها كلمة باقية في عقبه ، أى : هذه الكلمة ، وهى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وعلل ما سواه من الأوثان ، وهى : لا إله إلا الله • أى : جعلها دائمة في ذريته يقتضى به فيها من هداة الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ، (لعلمهم يرجعون) ، أى : إليها •

وقال حكيمه ، ومجاهد ، والفسحاك وقطادة ، والسدى ، وغيرهم في قوله تعالى : (وجعلها كلمة باقية في عقبه) ، بنى : لا إله إلا الله ، لا يزال في ذريته من قولها (١) : وروى نحوه عن ابن عباس . وقال ابن زيد : كلمة الإسلام ، وهو يرجع إلى ما قاله الجاهلية .

ثم قال تعالى : (بل ممتت هؤلاء) ، بنى المشركين ، (وآبائهم) ، أى : فتطاول عليهم العمر في ضلالهم ، حتى جامعهم الحق ورسول مبين) ، أى : بين الرسالة والتكليف .

(ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإننا به كافرون) ، أى : كابرهم وعاندوه ودفعوا بالصلور والراح (٢) كفراً وحسداً وبغياً ، وقالوا (كالمتضرعين على الذى أنزله تعالى وتقدس : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ، أى : مكان أنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظي ، وقطادة ، والسدى ، وابن زيد .

وقد ذكر غير واحد منهم : أنهم أرادوا بملك الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي ،

(١) تفسير الطبري : ٢٥/٢٨-٢٩ .

(٥) لى : الأكاذيب .

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والفصحاء ، والسدى : يعنون الوليد بن المغيرة ، وسعود بن عمرو الثقفي ،

وعن مجاهد : حمير بن عمرو بن مسعود الثقفي : وعنه أيضا : أنهم يعنون عتبة بن ربيعة :

وعن ابن عباس : جابر بن جبابرة قريش : وعنه : أنهم يعنون الوليد بن المغيرة ، وحبيش بن عمرو بن عبد الله الثقفي ،

وعن مجاهد : يعنون عتبة بن ربيعة بمكة ، وابن عبدالمطلب بالطائف :

وقال السدى : عن الوليد بن المغيرة ، وكثانة بن عبد (١) عمرو بن حمير الثقفي :

والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أيّ البلدين كان ،

قال الله تعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض : (أم تقسمون رحمة ربك ؟) ، أي : ليس الأمر مردوداً إليهم ، بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فانه لا يتوهم إلا هل أذكرى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً ، وأطهرهم أصلاً ،

ثم قال تعالى مبتدئاً : قد فاءت بين خلقه في أعظامهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم ، وغير ذلك من اقوى الظاهرة والباطنة ، فقال : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفقنا بعضهم ببعض فرق بعض درجات) :

وقوله : (لئلاخذ بعضهم بعضا سخريا) ، قيل : معناه لئلايسخر بعضهم بعضاً في الأعمال ، لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، قاله السدى وغيره :

وقال قتادة ، والفصحاء : لئلايملك بعضهم بعضاً : وهو راجع إلى الأول ،

ثم قال : (ورحمة ربك خير مما يجمعون) ، أي : رحمة الله بخلقه خير لهم مما يأبسون من الأموال ومتاع الحياة الدنيا :

ثم قال تعالى : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) ، أي : لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطائهم المال دليل على محبتهم لمن أعطيتهم ، فيجمعوا على الكفر لأجل المال - هذا معنى قول ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم - (لئلايملك لمن يكره بالرحمن ليوتهم سفها من فضة ومعارج) ، أي : سلام ودرجة من فضة - قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد ، وغيرهم - (عليها ينظرون) ، أي : يصمسون ، (وليوتهم أيواباً) ، أي : أغلظنا على أيوابهم (وسروراً عليها يتكئون) ، أي : جميع ذلك يكون فضة ، (وزخرفاً) ، أي : زخفاً - قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد :

ثم قال : (وإن كل ذلك لا متاع الحياة الدنيا) ، أي : إنما ذلك من الدنيا ، القانية لثرائلها الخفية عند الله ، أي : يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مأكلاً ومشرباً ، ليؤثروا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها ، كما ورد به الحديث الصحيح (٢) : « وورد في حديث آخر : « لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ، ما سقى منها كافراً شربة ماء » ، أسنده

(١) في تفسير البازي ٢٥/٤٠ : « عبيد بن عمرو » .

(٢) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب : جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة ، وتجميل حسنته الكافرة في الدنيا ، ٨/١٣٥ ، وسنده الإمام أحمد من أنس بن مالك ١٢٢٣٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٤ .

البخارى من رواية زكريا بن منظور ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلكروا : ورواه الطبراني من طريق زمة بن صالح ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لو صدكت الدنيا جناح بعوضة ، ما أمتلى كافرا منها شيئا »

ثم قال : (والآخرة عند ربك المقين) ، أي : هي لم خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم ؛ ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين صعد إليه في تلك للمشربة لما آلى من نسائه ، قرأه على رمال حصير قد أثر بجنبه ، فابتدرت صياها بالبكاء ، وقال : يا رسول الله ، هذا كسرى وقبصر فيها فيه ، وأنت صقوة الله من خلقه . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متكئا فجلس وقال : « أوفني شاك أنت يا ابن الخطاب ؟ » ثم قال : « أولئك قوم جعلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا » . وفي رواية : « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ » (١) .

وفي الصحيحين أيضا وغيرهما أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، فإنها لم في الدنيا ولنا في الآخرة (٢) » ؛ وإنما غرط الله تعالى في الدنيا لحقارتها ، كما روى الترمذي وابن ماجه ، من طريق أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تزول عند الله جناح بعوضة ، ما مقي منها كافرا شربة ماء أبدا » ، قال الترمذي : « حسن صحيح (٣) » .

وَمَنْ يَمْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا قَهْلُهُ قَرِينٌ ﴿١٠﴾ وَلَهُمْ لِيُصَدِّقَهُمْ مِنَ السَّيْلِ وَيُجَسِّدُوا أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتُ بَنِي وَيَبْنِكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ قَبِلْتُمُ الْقُرَيْنِ ﴿١٢﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكَ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتَ أَنَّكَ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿١٣﴾ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّهْمَ أَوْ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا نَذَرْنَا مِنْكَ لَظْمًا مِنْهُمْ مُنْتَفِعُونَ ﴿١٥﴾ أَوْ زَيْبِكَ الَّتِي وَعَدْنَاهُمْ فَلَمَّا عَلِيمٌ مُّقْتَدِرُونَ ﴿١٦﴾ فَاسْتَسْكِنَتْ بِاللَّيْلِ أَوْيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا لَنَرُّكَ لَكَ وَلَقَوْمَكَ وَسَوْفَ تُنْقَلُونَ ﴿١٨﴾ وَسَعَلَىٰ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَلْجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى : (ومن يمش) ، أي : يصلى ويتغافل ويعرض (عن ذكر الرحمن) ، والمشا في البين : ضعف بعرضه والمراد هاهنا مشا البصرة ، (نقض له شيطانا فهو له قرين) ، كقوله (ومن يشاقق الرسول) من بعد ما تبين له الهدى

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٣١ من سورة طه ، وخرجناه هناك ، وخرجنا غريبة . انظر : ٣٢٠/٥ .

(٢) البخارى ، كتاب الأضحية : باب « الأكل في إلهاء مغفص » : ٩٩/٧ . وسلم : كتاب لباس والزينة : باب « تحريم استعمال إلهاء اللعب والفضة » : ١٣٦/٦ .

(٣) أخرجه في الزهد . انظر تحفة الأحرار : باب « ما جاء في حوان الدنيا على الله » ، الحديث ٢٤٢٢ : ٩١١/٦ . وابن ماجه : باب « مثل الدنيا » ، الحديث ٤١١٠ : ١٣٧٦/٢ - ١٣٧٧ .

ويتبع خبر سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، وتصلة جهنم وسامت مصبرا (١) ، وكقوله : (فلما أخرجوا أرواح الله قلوبهم) (٢) ، وكقوله : (وقبضنا لهم قرانهم فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين) (٣) ، ولما قال هاهنا : (ولهم ليعذبهم عن الميل وحسبون أنهم مهتلون) حتى إذا جاءنا) ، أى : هذا الذى تخافون من الخدى نقتبس له من الشياطين من يضلّه ، ويهديه إلى صراط الحجب : فإذا واثق الله يوم القيامة يجرهم بالشيطان الذى وكل به ، (قال : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) « وقرأ بعضهم : (حتى إذا جاءنا) (٤) ، يعنى : القرين وللقارن :

قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن سعد الجعفي قال : بكفنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سكت (٥) بيده شيطان فلم يفارقه ، حتى يعصمها الله تعالى إلى النار ، فذلك حين يقول : (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) (٦) .

والمراد بالمشرقين هنا هو : ما بين المشرق والغرب : وإنما استعمل هاهنا تظليما ، كما يقال : القميران ، والمميران ، والآيون . قاله ابن جرير (٧) وغيره :

ثم قال تعالى : (ولن يضعنكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في المذاب مشركون) ، أى : لا يفنى عنكم إجهادكم في النار واشتراككم في المذاب الأكبر .

وقوله : (أفأنت تسمع الصم أو تبصى السمي ومن كان في ضلال مبين ؟) ، أى : ليس ذلك إليك ، إنما عليك البلاغ ، وليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحكم العلى في ذلك .

ثم قال : (فإذا نلهن بك ، فإنا منهم متفقون) ، أى : لا بد أن تتقم منهم ونعاقبهم ، ولو ذهب أنت ، أو زرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدون) ، أى : نحن قادرون على هذا وعلى هذا . ولم يقبض الله رسوله حتى أقره به من أعدائه ، وحكمه في نواصبيهم ، ومملكته ما تضمنته صياصبيهم (٨) . هذا معنى قول السدى ، واختاره ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر قال : تلا فتادة (فإذا نلهن بك فإنا منهم متفقون) فقال : ذهب النبي - صلى الله عليه وسلم - وبقيت النعمة ، ولم يبق الله نبيّه - صلى الله عليه وسلم - في أمه شيئا يكرهه ،

(١) سورة النساء ، آية : ١١٥ .

(٢) سورة الصف ، آية : ٥ .

(٣) سورة فصلت ، آية : ٢٥ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٥ / ٤٤ .

(٥) أى : أشدّ به .

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري ، عن ابن عبد الأعلى ، عن ابن ثور ، عن معمر ، به . انظر تفسير الطبري : ٢٥ / ٤٥ .

(٧) تفسير الطبري : ٤٤ / ٢٥ .

(٨) أى : حسونهم .

حتى مضى ولم يكن نبي قط إلا ورأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم صلى الله عليه وسلم. قال: وذكر لنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرى ما يصيب أمته من بعده، فأرعى ضاحكا متبسلا حتى قبضه الله عز وجل (١).

وذكر من رواية سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة نحوه. ثم روى ابن جرير (عن الحسن) نحو ذلك أيضا:

وفي الحديث: «النجوم أمّة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ» (٢) وأنا أمّة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يُوعَدُونَ» (٣).

ثم قال تعالى: (فاستمسك بالذي أوحى إليك، إنك على صراط مستقيم)، أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المُفْضِي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

ثم قال: (وإنه للكر لك ولقومك)، قيل: معناه لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتة، والسدي، وابن زيد. واختاره ابن جرير (٤)، ولم يحك سواه:

وأورد البيهقي هاتين حديث الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يتزعهم فيه أحد إلا آتبه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخاري (٥).

ومعناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بالمتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعلمهم بعتضه، وهكذا كان خیارهم وصفونهم من الخُلص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم.

وقيل: معناه (وإنه للكر لك ولقومك)، أي: لتكبر لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم. كقوله: (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) (٦)، وكقوله: (وأنذر عشيرتلك الأقربين) (٧).

(وسوف تسألون)، أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له.

وقوله: (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا، أجمعنا من دون الرحمن كلفه يعبدون)؟ أي: جميع الرسل دَعَوَا إلى ما دَعَوَتْ الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد. كقوله: (ولقد بعثنا في

(١) تفسير: ٤٥/٢٥.

(٢) الآية: الأن والأمان. والمعنى: أن النجوم ما دامت باقية فالسما باقية، فإذا انكسرت النجوم وتناثرت - وذلك يوم القيامة - ومنت السماء فانفطرت وانثقت وذهبت، وذلك ما توعده. وأراد عليه السلام يوعده أصحابه: ما وقع بينهم من الفتن.

(٣) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب: بيان أن بقاء النبي - صلى الله عليه وسلم - أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للامة. ١٨٣/٧. ومسنود الإمام أحمد من أبي موسى الأشعري: ٤/٣٩٨ - ٣٩٩.

(٤) تفسير الطبري: ٤٦/٢٥.

(٥) البخاري، كتاب المناقب، باب: مناقب قريش. ١/٢١٧ - ٢١٨. وكتاب الأحكام، باب: الإمراء من قريش. ٧٧/٧٨.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ١٥.

(٧) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

كل أمه رسولا : أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (١) — قال مجاهد : في قراءة عبد الله بن مسعود : (وأسأل الذين أرسلنا إليهم فليكن رسلا) (٢) . وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي ، عن ابن مسعود ، وهذا كأنه تفسير لا تلاوة ، والله أعلم ،

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وأسأل ليلة الإسراء (٣) فإن الأنبياء جمعوا له : واختار ابن جرير الأول (٤)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ قَالَ إِنِّي رَسُولٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا ۚ وَلَعَنْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُتَّهِدُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِطَاءَهُمُ لَعَنَّا إِذَا هُمْ يَنْتَحِبُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تامل خبرنا عن عبده ورسوله موسى — عليه السلام — : إنه ابتعث إلى فرعون وملائته من الأمراء والوزراء والقادة ، والأنبياء والرعايا ، من القبط وبنى إسرائيل ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظما ، كتيده وعصاه ، وما أرسل معهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع والأفئس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والاعتقاد لها ، وكتبوها وسفروا منها ، وضحكوا من جامهم بها (وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها) ، ومع هذا ما رجعوا عن ضلالتهم ، وجهلهم ونهاهم . وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يفرحون إلى موسى — عليه السلام — ويطلقون له في العبارة يقولون : (يا أيها الساحر) ، أي : العالم ، قاله ابن جرير (٤) . وكان عليهم زمانهم هم السحرة . ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مملوما ، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم ، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ففي كل مرة يعبّدون موسى إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل . وفي كل مرة يتكفون ما عاهدوا عليه ، وهذا كقولهم (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . ولا وقع عليهم الجزاء قالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لن كشف عنا الجزاء لنؤمن لك ونرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الجزاء إلى أجل هم بالفوه إذا هم يتكفون) (٥)

(١) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٥ / ٤٦ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٥ / ٤٧ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٥ / ٤٨ .

(٥) سورة الأعراف ، الآيات : ١٢٣ - ١٢٥ .

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ يَنْحَرُونَ ۖ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ ۖ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿٥١﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا أَسْفَوْا اتَّقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ بِالْعَمِيمِ ﴿٥٣﴾ جَعَلْنَاهُمْ سُلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى خبراً عن فرعون وعنه وكفره وعناده : أنه جمع قومه ، غداي فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها : (أليس لي ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟) - قال قتادة : قد كانت لهم جنان وأنهار ماء (١) ، (أفلا تبصرون) ؟ أي : أفلا ترون ما أنا فيه من المظلة والملك ، يعني : وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء ، وهذا قوله تعالى : (فحشرنا فنادى : فقال : أناريكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) (٢) :

وقوله : (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) ، قال السدي : يقول بل أنا خير من هذا (٣) الذي هو مهين : وهكذا قال بعض نحاة البصرة : إن « أم » هاهنا بمعنى « بل » . ويؤيد هذا ما حكاه القراء عن بعض القراء أنه قرأها : (أما أنا خير من هذا الذي هو مهين) : قال ابن جرير : ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحاً واضحاً ، ولكنها خلاف قراءة الأصمبار ، فليهم قرأوا : (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ؟) حل الاستفهام (٤) .

قلت : وعلى كل تقدير فإنا يعني فرعون عليه اللمة - أنه خير من موسى - عليه السلام - وقد كذب في قوله هذا كذباً بيتاً واضحاً ، فليبه لما نزل الله للتيامة إلى يوم القيامة .

ويعني بقوله (مهين) كما قال سفيان : حقير . وقال قتادة ، والسدي : يعني ضعيف . وقال ابن جرير : يعني لا ملئك له ولا سلطان ولا مال :

(ولا يكاد بين) ، يعني : لا يكاد يفصح عن كلامه ، فهو عيبى حصر :

قال السدي : (لا يكاد بين) ، أي : لا يكاد يفهم . وقال قتادة ، والسدي وابن جرير : يعني هي اللسان . وقال سفيان : يعني في لسانه شيء من الجبروت حين وضعها في فيه وهو صغير .

وهذا الذي قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى - عليه السلام - بين كافر شقي ، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والمنظمة والبهاء في صورة يبرر أبصار ذوى الأبواب . وقوله : (مهين) كذب ، بل هو للمهين الحقير خلة وخلقاً ودنيا . وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد . وقوله : (ولا يكاد بين) افتراء أيضاً ، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة ، فقد سأل

(١) تفسير الطبري : ٤٨/٢٥ .

(٢) سورة النازعات ، الآيات : ٢٣ - ٢٥ .

(٣) تفسير الطبري : ٤٥/٤٩ .

الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب الله له في قوله : (قد أوتيت سؤالك يا موسى) ، ويقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته ، كما قاله الحسن البصري ، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإلغاف والإنهام ، فالأشياء الحقيقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها ، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يبرى ههنا ، وإنما أراد الترويع على رعيته ، فإنهم كانوا جهلة أغبياء ، وهكذا قوله : (فلولا ألقى عليه أسورة (١) من ذهب) ، أي : وهي ما يجعل في الأيدي من الخلق ، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد ، (أو جاء معه لللاككة مقترنين) ، أي : يكتفونه خلفة له ويشهدون بتبديقه ، نظر إلى الشكل الظاهر ، ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر عما نظر إليه ، لو كان يعلم ، ولهذا قال تعالى : (فاستخف قومه فأطاعوه) ، أي : استخف مقولهم ، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ، (إنهم كانوا قواسقين)

قال الله تعالى : (فلا آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) - قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس : (آسفونا) : أسخطونا (٢) .

وقال الضحاك : عنه : أغضبونا . وهكذا قال ابن عباس أيضا ، (٣) ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبلة ، ومحمد ابن كعب القرظي ، وقتادة والسدي ، وغيرهم من المفسرين :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبيد الله ابن أنس بن وهب ، حدثنا عبي ، حدثنا ابن طيبة ، عن حبة بن مسلم التميمي عن حبة بن عامر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه ، وإنما ذلك استدراج منه له » ، ثم تلا : (فلا آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين)

وحدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمصاني ، حدثنا قيس بن الربيع ، عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال : كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الصحابة ، فقال : تخفيف على المؤمن ، وحسرة على الكافر ، ثم قرأ : (فلا آسفونا انتقمنا منهم) :

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : وجدت النعمة مع النحلة : يعني قوله : (فلا آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) ،

وقوله : (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) - قال أبو مجلز : (سلفا) : مثل من عمل بعملهم ،

وقال هو ، ومجاهد : (ومثلا) ، أي : حيرة لمن يعملهم .

(١) كلما في خطوطة الأزهري . وهي قراءة نسبها الطبري إلى عامة قراء المدينة والبصرة والكوفة ، وقال : « وذكر عن الحسن من الحسن البصري أنه كان يقرأه : (أسورة من ذهب) . وأول القراءتين في ذلك بالسواحي ما عليه قراءة الأمصاره وإن كانت الأخرى صحيحة المصنف » . تفسير الطبري : ٤٩/٢٥ .

(٢) تفسير الطبري : ٥٠/٢٥ .

(٣) كلما في الخطوطة وعللجات السابقة ، ومعلوم أن ما تقدم هو قول ابن عباس ، وانظر تفسير القرطبي : ١٤١/١٨١ .

وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ ﴿١٠٠﴾ وَقَالُوا الْمُنَافِقُ أَمُّهُ مَضْرُوبٌ لَهُ الْإِجْدَلُ
يَلْهُم قَوْمَ خِصْمٍ ﴿١٠١﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عِدَّةُ انْتِمَاعٍ عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ
مَلَكًا فِي الْأَرْضِ يَحْكُمُ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلْعَاةِ فَلَا تَعْرَفُونَ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٤﴾ وَلَا يَصَدِّقُكَ
الْمُتَّبِعُونَ ﴿١٠٥﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ
الَّذِي تَخْتَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٧﴾
فَاخْتَلَفَ الْأَرْبَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ عَمِ الْيَوْمُ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى يخبرنا عن تغت قريش في كفرهم وتممدم العناد والجدل : (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) - قال غير واحد ، عن ابن عباس ، وبجاهد ، وعكرمة والضحاك ، والسدي : يضحكون ، (أى) أصبحوا بذلك .

وقال قتادة : يجرعون ويضحكون أ وقال إبراهيم النخعي : يعرضون .

وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال : وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبألفى يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاءه النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعرض له النضر بن الحارث ، فكلّمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : (إنكم وما تعبّدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) ... الآيات . ثم قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأتى عبد الله بن الزبير التيمي ، حتى جلس فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعيد من آل هنتا هذه حصب جهنم ، فقال عبادة بن الزبير : أما والله لو وجدته حصب جهنم ، سلوا عمدا : أكل ما يعيد من دون الله في جهنم مع بن عبده ، فحنن نعيد الملائكة ، واليهود تعيد حزيرا ، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم ؟ . فغضب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير ، ورواوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « كل من أحب (١) أن يعبد من دون الله ، فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » ، فأنزل الله عز وجل : (إن الذين سبقتم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون) ، أي : عيسى وحزير ومن عبّد معهم من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل ، فأتعظم من يعبدون من أهل الفضلة أربابا من دون الله . وتزّل في يلكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله ، وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل عباد مكرمون ... الآيات ، وتزّل في يلكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله . وصحّب الوليد ومن حضره من حجه وخصومه : (ولا ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) ، أي : يصدون عن أمرك بملك من قوله . ثم ذكر عيسى فقال : (إن هو إلا عبد أعتنا له وجهناه مثلا لبني إسرائيل) ولو نشاء لجعلنا كنكم ملائكة في الأرض يخافون . وإنه لعلم الساعة) ، أي : ما وضعت على يديه من الآيات من لإحياء الموتى وإبراء الأسماء ، فكفى به دليلا على علم الساعة ، يقول : (فلا تخرن بها وتعيون هذا صراط مستقيم) (٢) .

(١) في المخطوطة : « من أراد » . والمثبت من المصحة ، والسياسة التي تقدمها ابن كثير في سورة الأنبياء .

(٢) تقدم الأكثر في سورة الأنبياء ، عند تفسير الآية ٩٨ . وخرجناه هناك ، وشرحناه غريبه . انظر ٢٧٥ - ٢٧٦ .

وذكر ابن جرير من رواية العوفي، عن ابن عباس قوله: (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون)، قال: يعني قريشاً، لما قيل لم: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها ولردون) إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله». فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن تتخله ريا، كما فعلت النصارى عيسى ابن مريم، وما قال الله تعالى: (ما ضره لك إلا جدلاً، بل هم قوم خصمون) (١)؛

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيان، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي رزين، عن أبي يحيى - مولى ابن عقيل الأنصاري - قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألت عنها رجل قط، فما أدري أهلها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفتنوا لها يسألوا عنها. قال ثم طمعت عذبتنا، فلما قام نكاحنا أن لا نكون سائلها عنها: قلت: أنا لما إذا راع غداً، فلما راع الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسأل عنها رجل قط، فلا تدري أهلها الناس أم لم يفتنوا لها؟ قلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها: قال: نعم، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم وما يقول في محمد - قالوا: يا محمد، أأنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنت صادقاً كان أكلهم كما يقولون (٢)؟ قال: فأزل الله: (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) قلت: ما يصعدون؟ قال: يضحكون، (وإنه لعل للساعة)، قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة (٣)؛

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقي، حدثنا آدم، حدثنا شيان، عن عاصم بن أبي النجود، عن أبي أحمد مولى الأنصار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير». فقالوا له: أأنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأقول الله عز وجل: (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون)؛

وقال مجاهد في قوله: (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون)، قالت قريش: «لما يريد محمد أن يعبده كما عبد قوم عيسى (٤)»، ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: (وقالوا آللهتنا خير أم هو) - قال قتادة: يقولون: أكلتنا خير منه، وقال قتادة: قرأ ابن مسعود (٥)؛ (وقالوا أأكلتنا خير أم هذا)، يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم (٦)؛

وقوله: (ما ضره لك إلا جدلاً)، أي: مره، وهم يعلمون أنه ليس ببولد على الآلة، لأنهم لا يقتل، وهم قومه: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم): ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يورده، فمن أن مقاتلهم إنما كانت جدلاً، منهم ليسوا يعتقدون صحتها؛

(١) تفسير الطبري: ٥٢٢/٢٥.

(٢) في المسند: «فلن كنت صادقاً»، فإنه أكلهم كما تقولون.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣١٨/١.

(٤) تفسير الطبري: ٥١٢/٢٥.

(٥) كذلك، وفي تفسير الطبري أن هذه قراءة أبي بن كعب.

(٦) تفسير الطبري: ٥٢٢/٢٥.

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا ابن نمير ، حدثنا حجاج بن دينار ، عن أبي غالب ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ، ثم تلا هذه الآية : (ما ضربه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون (١)) .

وقد رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، من حديث حجاج بن دينار ، به : ثم قال الترمذي : « حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه (٢) » ، وكذا قال ، وقد روى من وجه آخر عن أبي أمامة بزيادة ، فقال ابن أبي حاتم : حدثنا حميد بن عياش الرمي ، حدثنا مؤمل ، حدثنا عباد ، أخبرنا ابن غزوم ، عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي ، عن أبي أمامة قال حجاج : لا أدري والله أم لا ؟ قال : ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكليب بالقدر ، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل ، ثم قرأ : (ما ضربه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، عن عباد بن عباد ، عن جعفر (٣) ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن ، ففضبه غضبا شليدا حتى كأنما صب على وجهه نخل ، ثم قال : « لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل » ، ثم تلا : (ما ضربه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون (٤)) .

وقوله : (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) ، يعني عيسى عليه السلام ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوّة والرسل ، وجعلناه مثل نبيّ إسرائيل ، أي : دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء .

وقوله : (ولو نشاء لجعلنا منك) ، أي : بذلك (ملائكة في الأرض يخلفون) - قال السدي : يخلفونكم فيها (٥) . وقال ابن عباس ، وقادة : يخلف بعضهم بعضا ، كما يخلف بعضهم بعضكم [بعضا] وهذا القول يستلزم الأول ، وقال مجاهد : يصمرون الأرض بذلك .

وقوله : (وإنه لعلم الساعة) - تقدم تفسير ابن إسحاق : أن المراد من ذلك ما بحث به عيسى - عليه السلام - مع إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وغير ذلك من الأسقام : وفي هذا نظر : وأبعد منه ما حكاه قتادة ، عن الحسن البصري وسعيد بن جبير : أي الضمير في (وإنه) ، عائد على القرآن ، بل الصحيح أنه عائد على عيسى ، فإن السياق في ذكره ، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة ، كما قال تبارك وتعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته (٦)) ، أي : قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام ، ثم [(ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا (٦))] ، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى :

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٥٦/٥ . وانظر أيضا : ٢٥٢/٥ .

(٢) تحفة الأحرف : تفسير سورة الزخرف : الحديث ٢٣٠٦ - ١٣٠٩ - ١٣١ . وابن ماجه ، المقتضب ، الحديث ٤٨ : ١٩/١ . وتفسير الطبري : ٥٣/٢٥ .

(٣) في تفسير الطبري : « جعفر بن القاسم » . وهو خطأ . وجعفر هذا هو جعفر بن الزبير ، روى عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن . انظر تهذيب : ٩٠/٢ .

(٤) تفسير الطبري : ٥٣/٢٥ .

(٥) تفسير الطبري : ٥٤/٢٥ .

(٦) سورة النساء : آية : ١٥٩ .

تفسير سورة الزخرفة

٢٢٣

(وإِنَّ لَكُمْ لَلسَّاعَةِ) (١) ، أَيْ : إِمَارَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَى وَقُوعِ السَّاعَةِ (٢) ، قَالَ مُجَاهِدٌ : (وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِّلْمَآءَةِ) ، أَيْ : آيَةٌ لِّلْسَاعَةِ خُرُوجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَهَكَذَا رَوَى عَنْ ابْنِ هُرَيْرَةَ ، وَابْنِ جَبْرِ ، وَابْنِ الْعَالِيَةِ ، وَابْنِ مَالِكٍ ، وَعُكْرَمَةُ ، وَالْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَغَيْرُهُمْ .

وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ أَخْبَرَ بِتُرُوجِ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِمَامًا عَادِلًا وَحَكِيمًا مُقْسَطًا .

وَقَوْلُهُ : (فَلَا تَمُنَّ بِهَا) ، أَيْ : لَا تَشْكُرُوا فِيهَا ، إِنِّهَا وَاقِعَةٌ وَكَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ ، (وَابْتَعُونَ) ، أَيْ : فِيمَا أَخْبَرَكُمْ بِهِ (هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ (، أَيْ : عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ) إِنَّهُ لَكُمْ عِلْمٌ مِنْهُ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحَقِّ (، أَيْ : بِالْبَيِّنَاتِ) (وَلَآئِنْ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَتَحَفَّوْنَ فِيهِ) ؛

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ لَا الدُّنْيَوِيَّةِ (٣) . وَهَٰذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَنٌ جِيدٌ ، ثُمَّ رَدَّ قَوْلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ بَعْضَ مَا هَٰذَا عَمَلِيٌّ وَكُلُّهُ ، وَاسْتَهْدَى بِقَوْلِ لَبِيدِ الشَّاهِرِ (٤) ؛

تَوَلَّى أَمْكِنَةً إِذَا لَمْ تُرْضَهَا أَوْ يَتَحَفَّوْا بِبَعْضِ النَّفُوسِ حَمَلُهَا

وَأَوَّلُوهُ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ جَمِيعَ النَّفُوسِ (٥) . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَإِنَّمَا أَرَادَ نَفْسَهُ فَقَطْ ، وَجَبَّ بِالْبَعْضِ هُنَا (٦) : وَهَٰذَا الَّذِي قَالَهُ مَحْمَلٌ .

وَقَوْلُهُ : (فَاتَّقُوا اللَّهَ) ، أَيْ : أَمُرُكُمْ بِهِ ، (وَأَطِيعُوا) ، فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ، (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ) ، هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (، أَيْ : أَنَا وَأَنْتُمْ عِبِدُوهُ ، فَقَرِّبُوا إِلَيْهِ ، مَشْرُكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، (هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) ، أَيْ : هَٰذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ عِبَادَةُ الرَّبِّ - عَزَّ وَجَلَّ - وَحْدَهُ ؛

وَقَوْلُهُ : (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ) ، أَيْ : اخْتَلَفَتْ الْقُرُقُ وَصَارُوا شَيْئًا فِيهِ ، مِنْهُمْ مَنْ يَقَرُّ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ - وَهُوَ الْحَقُّ - وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعِي أَنَّهُ وَلَدُ اللَّهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ اللَّهُ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - وَلَمَّا قَالَ : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَلْإِذَا يَوْمِ الْآلَمِ) ؛

(١) تفسير الطبري : ٤٤/٢٥ - ٥٥ .

(٢) في المخطوطة : « أَيْ : آيَةُ السَّاعَةِ » . وَنَحَسِبُهُ سَجَرًا مِنَ النَّاسِخِ : أَخَذَهُ مِنْ أَمْرِ مُجَاهِدٍ الَّذِي يَأْتِي . وَاجْتَبَتْ عَنْ الطَّبِيعَاتِ السَّابِقَةِ .

(٣) تفسير الطبري : ٥٥/٢٥ .

(٤) شرح ديوان لبيد القاسمي : ٣١٣ .

(٥) لفظ الطبري : ٥٥/٢٥ . « وَلَمَّا قَوْلُ لَبِيدٍ (أَوْ يَتَحَفَّوْا بِبَعْضِ النَّفُوسِ) » ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ : أَوْ يَتَحَفَّوْا نَفْسَهُ جَاهِلِيًّا ، وَنَفْسَهُ مِنْ بَيْنِ النَّفُوسِ ، لَا شَكَّ أَنَّهَا بَعْضٌ لَا كُلُّهُ .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿١١﴾ يَتَعَبَّدُونَ لِمَا هُمْ لَا عِشْقَ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ وَهُمْ لَا يَسْحَرُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِحَقِّنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١٣﴾ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُغْبَرُونَ ﴿١٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِصَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَائِدَاتُ الْإِنْسِ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكلبون للرسول (إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ، وهم لا يشعرون) ؟ أي : لإنها كاتبة لا عمالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستدئين . فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها ، فحينئذ ينمون كل النعم ، حيث لا يتفهم ولا يذيق منهم .

وقوله : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا للمتقين) ، أي : كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة حداوة إلا ما كان لله من وجل - فإنه دائم بدوامه . وهذا كما قال إبراهيم - عليه السلام - لقومه : (إنما اتخذتم من دون الله آوئانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين) (١) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي رضي الله عنه : (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا للمتقين) ، قال : خليلان مؤمنان ، وغيللان كافران ، ففوق أحد المؤمنين وبشر بالجنة فلتكر خليله ، فقال : اللهم ، إن فلانا خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولاك ، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أني ملائكتك ، اللهم فلا تفضله بعدي حتى ترثه مثل ما أريدني ، وترضى عنه كما رضيت عني . فيقال له : اذهب فلو تعلم ماله عندى لضحككت كثيرا وبكيت قليلا . قال : ثم يموت الآخر ، فتجتمع أرواحهما ، فيقال : ليشن أحدكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ، ونعم الصاحب ، ونعم الخليل . وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول : اللهم ، إن خليلي فلانا كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولاك ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، ويضربني أني غير ملائكتك ، اللهم فلا تهذه بعدي حتى ترثه مثل ما أريدني ، وتسخط علي كما تسخطت علي . قال : فيموت الكافر الآخر ، فيجمع بين أرواحهما . فيقال : ليشن كل واحد منهما على صاحبه . فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بش الأخ ، وبش الصاحب ، وبش الخليل ، وواه ابن أبي حاتم (٢) .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقفاة : صارت كل حلة حداوة يوم القيامة إلا للمتقين ،

(١) سورة التوبة ، آية : ٢٥ .

(٢) ورواه ابن جرير من غير هذه الطريق ، انظر : ٥٦٢/٢٥ .

وروى الحافظ ابن حساكر في ترجمة هشام بن أحمد ، عن هشام بن عبد الله بن كثير : حدثنا أبو جعفر محمد بن الحنفير بالرقعة ، عن معاذ : حدثنا حكيم (١) بن نافع ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لو أن رجلين تحابا في الله ، أحدهما بالشرق والآخر بالغرب ، لجمع الله بينهما يوم القيامة » ، يقول : هذا الذي أحياه في » .

وقوله : (يا عباد ، لا تخوف عليكم اليوم ولا أنتم تخزون) ، أتم بشركم فقال : (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) ، أى : آمنت قلوبهم وبيوتهم ، واتقادت لشرع الله جوراجهم وتلوأهرهم ،

قال المحمدر بن سليمان ، عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يمشون لا يبقى أحد منهم إلا فرح ، فيأيد متاد : (يا عباد ، لا تخوف عليكم اليوم ولا أنتم تخزون) ، فيرجوها الناس كلهم ، قال : فيشبعها : (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) ، قال : فيسلى الناس منها غير المؤمنين (٢) .

(ادخلوا الجنة) ، أى : يقال لهم : ادخلوا الجنة (أنتم ولزواجكم) ، أى : نظرتكم (تحبونها) ، أى : تعمون وتسلمون وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم :

(يظاف عليهم بمصاحف من ذهب) ، أى : زياتى (٣) آتية الطعام ، (وأكواب) ، وهى : آتية الشراب ، (أى : من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ، (وفيها ما تشبهى الأنس) - وفرأ بعضهم : (تشبهى الأنس) (٤) - (وتلك الأهين) ، أى : طيب العلم والريح وحسن المنظر .

قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، أخبرني إسماعيل بن أبي سعيد ، عن عكرمة - مولى ابن عباس - أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة وأفضلهم درجة ، ليرجل لا يدخل الجنة بعده أحد ، يمشح له في بصره مسيرة مائة عام في قصور من ذهب ، وخيام من لؤلؤ ، ليس فيها موضع شبر إلا ممرور يندى عليه ويراح يسعين ألف صحيفة من ذهب ، ليس فيها صحيفة إلا فيها لون ليس في الأخرى ، مثله شهوة في آخرها كشهوه في أولها ، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم ما أعطى ، لا ينقص ذلك مما أوتى شيئا (٥) » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين بن الجندب ، حدثنا عمرو بن سواد السرخسى ، حدثنا عبد الله بن وهيب ، عن ابن لهيعة ، عن عطاء بن خالد ، عن الحسن ، عن أبي هريرة : أن أبا أمامة - رضى الله عنه - حدث أن رسول الله -

(١) في الخطوط : « عن معاذ بن حكيم » . والمثبت من الكلمات السابقة . وفي البحر والتبديل لابن أبي حاتم ٢/٢٧٧ : حكيم بن نافع الرقي ، روى عن الأعمش ، ومع معاذ بن سليمان .

(٢) تفسير الطبري : ٥٧/٢٥ .

(٣) كذلك في خطوط الأثر بالياء . وفي الطبقات السابقة « زياتى » بالياء . ولعلها كلمة شامية .

(٤) قال الطبري ٨٨/٢٥ : « واختلفت القراء في قراءة قوله : (وفيها ما تشبه الأنس) ، فقرأه عامة قراء المدينة والشام (ما تشبه) ، بزيادة هاء . وكذلك ذلك في مصاحفهم . وقرأ ذلك عامة قراء العراق (تشبه) بغير هاء . وكذلك هو في مصاحفهم والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان بمعنى واحد ، فبأيتهما قرأ القارئ فصح » .

(٥) أخرج عبد بن حميد نحوه عن عكرمة . انظر الدر المنثور ٢٢/٦ .

صلى الله عليه وسلم - حدثهم - وذكر الجنة - قال : « والذى نفس محمد بيده ، لياخذنَّ أحكم القلعة فيجعلها في فيه ثم ينظر حل باله طعام آخر ، فيتحول الطعام الذى في فيه حل الذى اشتهى » ثم قرأ : (وفيها ما تشبه الأنفس وتلك الآمين وأنتم فيها خالدون) »

وقال الإمام أحمد : حدثنا حماد - هو ابن موسى - حدثنا مسكين بن عبد العزيز ، حدثنا الأشعث القريري (١) ، عن شهر بن حوشب ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن أدنى أهل الجنة منزلة إن له سبع درجات ، وهو حل السادسة وقرقه السابعة ، وإن له ثلثائة خادم ، ويخْدَى عليه ويراح كل يوم بثلاثائة صفحة - ولا أعلمه إلا قال : من ذهب - فكل صفحة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليكنَّ أوله كما يلد آخره ، ومن الأثرية ثلاثمائة إناه ، فكل إناه لون ليس في الآخر ، وإنه يلد أوله كما يلد آخره (٢) » وإنه يقول : يا رب ، لو أدنيت لى لأطعت أهل الجنة وسقيتهم ، لم ينقص مما عندى شئ ، وإن له من الخور البين لاثنتين (٣) وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا ، وإن الواحدة منهن لياخذ مقعدا قدر ميل من الأرض (٤) »

(وأنتم فيها) ، أى : في الجنة (خالدون) ، أى : لا يخرجون منها ولا يغيثونها حولا : ثم قيل لم حل وجه التفضل والامتياز ، (وتلك الجنة التى أورشوموها بما كنتم تعملون) ، أى : أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إليكم ، فإنه لا يدخل أحدا عملُه الجنة ، ولكن بفضل من الله ورحمته . وإنما الدرجات تفاوتا بحسب عمل الصالحات :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا القليل بن شاذان القرئى ، حدثنا يوسف بن يعقوب - يعنى الصغار - حدثنا أبو بكر بن حبان ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة ، فيقول : (لو أن الله هدانى لكنت من المقربين) . وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول : (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) ، ليكون له شكرا » . قال : وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ، فالكافر يرث للمؤمن منزله من النار . والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة » وذلك قوله تعالى : (وتلك الجنة التى أورشوموها بما كنتم تعملون) .

وقوله : (لكم فيها فاكهة كثيرة) ، أى : من جميع الأنواع ، (منها تأكلون) ، أى : منها اخترتم وأردتم . ولما ذكر الطعام والشراب ، ذكر بعده الفاكهة لضم النعمة والنية ،

(١) في المغلطة : « أبو الأشعث » . والنسوان عن المسند . وهو الأشعث بن عبد الله بن جابر الحدادي . انظر ترجمته في الإيجاز والتعديل : ٢٧٣/١٤١ .

(٢) ما بين القوسين غير ثابت في خطوطة الأثر والمسنود ، ولعله سقط منها سقط نظر . وقد أبتناه من الطباعة السابقة .

(٣) كلما في المغلطة والمسنود . ونسب العربية أنه يقال : « لاثنين » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٧٢/٢٢٧ .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَسَاوِينَ ۖ لَا يُفْتَرُ عَلَيْهِمْ فِيهِمْ مُبْسَوْنَ ۖ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا فِيهِ
الْظَّالِمِينَ ۖ وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ الْقَدْحَ ۖ جَنَّتْكُمْ وَالْجَنَّةُ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْقِلُونَ
كُنْزِهِمْ ۖ ثُمَّ لَبِثُوا أَمْزًا ۖ أَفَلَا يَمُرُّونَ أَيَّامًا يُمْسَوْنَ ۖ إِنَّا لَا نَسْمِعُ مِرْهَمَ وَجْهِهِمْ يَنْوَرُّوهُ لِلنَّاسِ
وَيَكْتُمُونَ ۖ

لا ذكر حال السعداء ، نُسِيَ بذكر الأشقياء ، فقال : (إن المجرمين في عذاب متساوون . لا يُفْتَرُ عليهم) ، أى :
ساعة واحدة (وهم فيه مبسئون) ، أى : أبسون من كل خير ، (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) ، أى : بأعمال السيئة
بعد قيام الحجاج عليهم وإرسال الرسل إليهم ، فكذبوا وعصوا ، فجازوا بذلك جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد .

(ونادوا : يا مالك) ، وهو : خازن النار ؛

قال البخارى : حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن عطية ، عن صفوان بن يحيى ، عن
أبي : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ على النبر : (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) (١) .
أى : ليقتضى أرواحنا فريعتنا نحن فيه ، فإنهم كما قال تعالى : (لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يغف عنهم من عذابها) (٢) ،
وقال : (ويصحبها الأشقي) ، الذى يصل النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيا (٣) ، فلما سألو أن يموتوا أجابهم مالك ،
(قال : إنكم ما تكونون) - قال ابن عباس : مكث ألف سنة ، ثم قال : إنكم ما تكونون . رواه ابن أبي حاتم .
أى : لا خروج لكم منها ولا عيذ لكم عنها .

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم الحق ومعادنتهم له فقال : (لقد جئناكم بالحق) ، أى : بيناه لكم ووضحناه
وفسرناه ، (ولكن أكثركم للحق كارهون) ، أى : ولكن كانت مسجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما نقاد للباطل ونعظمه ،
وتصد عن الحق وتباه . وتبغض أهله . فعدوا على أنفسهم بالملامة ، وانتموا حيث لا تنفعكم التلمذة .

ثم قال تعالى : (أم أهرموا أمرا فإنا مبرمون) - قال مجاهد : أهرموا كيد شر فكناهم (٤) .
وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى : (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) ، وذلك لأن المشركين كانوا
يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكادهم الله ، ورد وبال ذلك عليهم ، ولهذا قال : (أم يحسون أنا نسمع
مرهم ونجواهم) ، أى : مرهم وعلاجتهم ، (على ورسلا لنسبهم بكتيون) ، أى : نحن نعلم ما هم عليه ، والملائكة أيضا
بكتيون أعمالهم ، صغيرا وكبيرا .

(١) البخارى ، تفسير سورة الزخرف : ١١٢٦ .

(٢) سورة فاطر ، آية : ٣٦ .

(٣) سورة الأهل ، الآيات : ١١ - ١٣ .

(٤) تفسير الطبرى : ٩٢٥ .

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾ سَبِّحْ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ زُرْهُمْ بِحُضْرٍ أَوْ بِلُغْوٍ يَوْمَهُمْ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتُ أَنْ يُلْقُوا يُوسُفَ وَأَدَّاهُ يَوْمَهُمْ الَّذِي يَصْعَدُونَ ﴿١٠٢﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وُفَى الْأَرْضِ إِلَهُهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿١٠٣﴾ وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شِئَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١٠٦﴾ وَقِيلَ لَهُ رَبِّ إِنْ هَذَا قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٧﴾ فَأَصْنَعْ بِهِمْ وَقُلْ سَلِّمْ قَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى : (قل) يا محمد (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العالمين) ، أي : لو فرض هذا لعبته على ذلك ، لآتي عبد من عبده ، مطيع لجميع ما يأمرني به ، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض كان هذا ، ولكن هذا مجتمع في حقه تعالى ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا ، كما قال تعالى : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار (١)) .

قال بعض المفسرين في قوله (فأنا أول العالمين) ، أي : الآتئين . ومنهم سفيان الثوري ، والبخاري حكاه فقال : ويقال أول العالمين : الجاحدين من عبده يعبد (٢) .

وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب : حدثني ابن أبي ذئب عن أبي قيس ، عن بعية بن زيد الجهني : أن امرأة منهم دخلت على زوجها - وهو رجل منهم أيضا - فولدت له في ستة أشهر ، فلما ذلك زوجها لثان بن حناب - رضي الله عنه - فأمر بها أن ترحم ، فدخل [عليه] على بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال : إن الله يقول في كتابه : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) ، وقال : (وفصاله في عامين) ، قال : فوالله ما عبيد حناب - رضي الله عنه - أن يبعث إليها : ترد - قال : يونس : قال ابن وهب : عبيد : استنكف (٣) .

قال الشاعر :

مَتَى مَا يَخْتَأِ ذُو الْوَدِّ يَهْرُمُ حَكِيلُهُ وَيَعْتَبِدُ حَكِيلُهُ لَا مَحَالَةَ ظُلَامًا (٤)

وهذا القول فيه نظر ، لأنه كيف يلزم مع الشرط فيكون تقديره : إن كان هذا فأنا متعنت منه ؟ هذا فيه نظر ، فليقبل . اللهم إلا أن يقال : إن وادته ليست شرطا ، وإنما هي نافية ، كما قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (قل إن كان للرحمن ولد) ، يقول : لم يكن للرحمن (ولد) فأنا أول الشامدين (٥) .

وقال قتادة : هي كلمة من كلام العرب : (إن كان للرحمن ولد فأنا أول العالمين) ، أي : إن ذلك لم يكن فلا ينبغي

(١) سورة الزمر ، آية : ٤ وانظر ٧٥/٧ .

(٢) البخاري ، تفسير سورة الزخرف ، ١٦٣/٦ .

(٣) تفسير الطبري : ٦١/٢٥ .

(٤) تفسير الطبري : ٦٠/٢٥ .

وقال أبو صخر :- قل : إن كان الرحمن ولد فانا أول العابدين) ، أى : فانا أول من عبده بأن لا ولد له ، وأول من وحده . وكلنا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال عباد : (فانا أول العابدين) ، أى : أول من عبده ووحده وكلبكم .

وقال البخارى : (فانا أول العابدين) : الآتين . وهما لفتان لرجل عابد وهيب^(١) ،

والأول أقرب حل أنه شرط وجوه ، ولكن هو مختص .

وقال السدى : قل : إن كان لرحمن ولد فانا أول العابدين) ، يقول : لو كان له ولد كنت أول من عبده ، بأن له ولدا ، لكن لا ولد له (٢) . وهو لاختيار ابن جرير ، ورد قول من زعم أن «إن» نافية .

ولمّا قال : (سبحانه رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) ، أى : تعالى وتقدس وتزهى خلق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له ، فلا ولد له .

وقوله : (فلهم فخرنا) ، أى : فى جهلهم وضلالهم (وبماؤا) فى دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) ، وهو يوم القيامة ، أى : سوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ، وما لهم ، وحالهم فى ذلك اليوم .

وقوله : (وهو الذى فى السماء وفى الأرض إله) ، أى : هو إله من فى السماء ، وإله من فى الأرض ، يعبد أهلها ، وكلهم خاضعون له ، أدلاء بين يديه ، (وهو الحكيم العليم) .

وهذه الآية كقولها تعالى : (وهو الله فى السموات وفى الأرض ، يعلم سرهم وجهريهم ، ويعلم ما تكسبون (٣)) ، أى : هو للدهو الله فى السموات والأرض .

(وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) ، أى : هو خالقها ومالكها والمتصرف فيها ، بلا مدافعة ولا مانعة ، سبحانه وتعالى من الولد ، وتبارك : أى استقر له السلامة من العيوب والنقائص ، لأنه الرب البلى العظيم ، المالك للأشياء ، الذى بيده أمانة الأمور نقضا وإبراما ، وعنده علم الساعة) ، أى : لا يجلبها لوقتها إلا هو ، (وليله ترجعون) ، أى : ليجازى كلا بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

ثم قال تعالى : (ولا يملك الذين يدعون من دونه) ، أى : من الأصنام والأوثان (الشفاعة) ، أى : لا يقدرون على الشفاعة لهم ، (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) ، هذا استثناء منقطع ، أى : لكن من شهد بالحق على بصيرة وحلم ، فإنه تنفع شفاعة عنده بإذنه له .

ثم قال : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يوَفِّكون ؟) ، أى : ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين منه غيره (من خلقهم ، ليقولن : الله) ، أى : هم يترفون أنه الخالق للأشياء جميعها ، وحده لا شريك له فى ذلك ، ومع هذا

(١) البخارى ، تفسير سورة الزمر : ١٦٣/٦

(٢) تفسير الطبرى ٦١/٢٥

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٦٤

يعبدون معه غيره من لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء ، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل ولهذا قال : (فأتى
يؤفكون) ٥

وقوله : (وقيله : يا رب ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) ، أى : وقال محمد قيله ، أى : شكاً إلى ربه شكواه من قومه
الذين كذبوه ، فقال : يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى : (وقال الرسول : يا رب ، إن
قوى اتحلوا هذا القرآن مهجوراً) (١) وهذا الذى قلناه هو قول ابن مسعود ، ومجاهد ، وقناة ، وعليه فسر ابن جرير (٢) ٥

قال البخارى : وقرأ حيد الله - يعنى ابن مسعود - (وقال الرسول : يا رب) (٣) :

وقال مجاهد فى قوله : (وقيله : يا رب ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) ، قال : قيار الله قول محمد (٤) ٥

وقال قناة : هو قول نبيكم صلى الله عليه وسلم ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل :

ثم حكى ابن جرير فى قوله : (وقيله يا رب) قراءتين ، إحداهما التصب ، ولما توجيهاً : أحدهما أنه معطوف على
قوله : (نسمع سرهم ونجواهم) . والثانى : أن يقدر فعل ، وقال : قيله . والثانية : انفض ، [وقيله] عطفاً على قوله
(وعنده علم الساعة) ، تقديره : وعلم قيله (٤) ٥

وقوله : (فاصنع منهم) ، أى : للمشركين ، (وقل : سلام) ، أى : لا تجاربهم بمثل ما يجاليتك به من الكلام
المس ، ولكن تألفهم واصنع منهم فضلاً وقولاً ، (فسوف يعلمون) ، هذا تهديد منه تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذى
لا يرد ، وأحل دينه وكنهه ، وشرح بعد ذلك الجهاد والجلاد ، حتى يدخل الناس في دين الله أفواجا ، وانشر الإسلام في
المشارك والمغرب .

[آخر تفسير سورة الزخرف]

(١) سورة الفرقان آية : ٣٥ .

(٢) تفسير الطبرى : ٦٢٢/٢٥ .

(٣) البخارى : تفسير سورة الزخرف : ١٦٣/٦١ .

(٤) تفسير الطبرى : ٦٢٢/٢٥ .

تفسير سورة الدخان

وهي مكية

قال الرملى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا زيد بن الحبيب ، عن حمزة بن أبي خثعم ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من قرأ « حم الدخان » في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » .

ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وحمزة بن أبي خثعم يضعف : قال البخارى منكر الحديث (١) .
ثم قال : حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى ، حدثنا زيد بن الحبيب ، عن هشام بن المقدام ، عن الحسن ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ « حم الدخان » في ليلة الجمعة ، غفر له » .
ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وحشام أبو المقدام يضعف ، والحسن لم يسمع من أبي هريرة كذا قال أيوب ، ويونس بن عبيد ، وعلى بن زيد (٢) .

وفى مسند الزوار من رواية أبي الطفيل عامر بن واثلة ، عن زيد بن حكرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي صباد : « إني قد عشت حبيبا فما هو ؟ » ونحبا له رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الدخان ، فقال : « هو الدخان » (٣) .
فقال : إنصبا ما شاء الله كان ، ثم انصرف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
حَكِيمٍ ۝ لَمَّا مَنِ حَدَّثَنَا إِذَا كَأَمْ مَرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝

يقول تعالى تحمداً عن القرآن العظيم : أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر ، كما قال تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) (٤) ، وكان ذلك في شهر رمضان ، كما قال تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) (٥) ، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في «سورة البقرة» (٦) بما أفضى عن إسناده .

(١) تحفة الأوصى : أبراهيم فضائل القرآن ، باب « ما جاء في حم الدخان » ، الحديث ٢٠٥٠ : ١٩٨/٨ .

(٢) تحفة الأوصى : في الباب المتقدم ، الحديث ٣٠٥١ : ١٩٨/٨ - ١٩٩ .

(٣) النسخ - يضم الدال وفتحها - الدخان .

لما أفضى مسنده - ويقال : ابن صباد - قصعت مشكلة ، وأمره مشته في أنه هل هو المسيح النجاشى أم غيره ، ولا شك في أنه رجال من النجاشة .

(٤) سورة القدر : آية ١ .

(٥) سورة البقرة : آية ١٨٥ .

(٦) النظر ١/٢٩٩ - ٣١٥ .

ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، كما روى عن عكرمة فقد أبعد الشجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان والحديث الذي رواه عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن عقيل ، عن الزهري : أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تقطع الأجال من شعبان إلى شعبان ، حتى إن الرجل لينكح ويولد له ، وقد أخرج اسمه في الموقد (١) » فهو حديث مرسل ، ومظه لا يعارض به التصوص :

وقوله : (إننا كنا منلرين) ، أى : معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعا ، لتقوم حجة الله على عباده .

وقوله : (فيها يفرق كل أمر حكيم) ، أى : في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الأجال والأرزاق ، وما يكون فيها إلى آخرها . وهكذا روى عن ابن عمر ، وأبي مالك ، ومجاهد ، والضحاك ، وغير واحد من السلف .

وقوله : (حكيم) ، أى : بحكم ، لا يبدل ولا يغير . ولهذا قال : (أمرا من عندنا) ، أى : جميع ما يكون ويقلده الله تعالى وما يوحى فيه أمره وإذنه وعلمه ، (إننا كنا مرسلين) ، أى : إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبینات ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه . ولهذا قال : (رحمة من ربك إنه هو السميع العليم . رب السموات والأرض وما بينهما) ، أى : الذى أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وما لهما وما بينهما ، (إن كنتم موفين) ، أى : إن كنتم متحققين .

ثم قال : (لا إله إلا هو يحيى ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين) ، وهذه الآية كقولها تعالى : (قل يا أيها الناس ، إننى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت (٢)) الآية .

يَلْهُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿١٠﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ أَفَنُحْمَ الذِّكْرِى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُؤُا ﴿١٥﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُرْ عَادِيُونَ ﴿١٦﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا وَاعِدُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون ، أى : قد جاءهم الحق اليقين ، وهم يشكون فيه ويعترون ، ولا يصدقون به ، ثم قال متعديا لهم ومنهجا : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) .

قال سليمان بن مهران الأعمش ، عن أبي الضحى مسلم بن صبيح ، عن مسروق قال : دخلنا المسجد - بغير مسجد الكوفة - عند أبواب كتلة ، فإذا رجل يقص على أصحابه : (يوم تأتي السماء بدخان مبين) ، تدرون ما ذلك الدخان ؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة ، فيأخذ بأبصار المظففين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام . قال : فأثبتا ابن مسعود فذكرنا ذلك له ، وكان مضطجعا ففرق قنقه ، وقال : إن الله عز وجل قال لنبيكم صلى الله عليه وسلم : (قل : ما أسألكم عليه من

(١) أخرجه الطبري من حديث عقيل . انظر : ٢٥/٦٥ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٥٨ .

أجر وما أنا من الشككين) ، إن من العلم أن يقول الرجل لا يعلم : « الله أعلم » ، سأحدثكم عن ذلك ، إن قرشنا لا أبطلنا . عن الإسلام واستعصت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، دعا عليهم بسنتين كفى يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام واللبنة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفي رواية : فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهية الدخان من الجهد - قال الله تعالى : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين : يغشى الناس هذا عذاب أليم) ، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتيلاً : يا رسول الله ، استسق الله لفرس ، فلما قد هلك ، فاستسقى فلم تستسقوا ، فأنزل الله : (إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائلون) - قال ابن مسعود : فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة ، فلما أصابهم الرقابة عافوا إلى حالهم ، فأنزل الله : (يوم تبطل البطشة الكبرى إنا منتقمون) ، قال : يعنى يوم يطر (١) .

قال ابن مسعود : فقد مضى خمسة : الدخان ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللزام . وهذا الحديث خرج في الصحيحين (٢) ورواه الإمام أحمد في مسنده (٣) ، وهو عند الترمذي (٤) والنسائي في تفسيرهما ، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة ، عن الأعمش ، به . وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضيء ، جماعة من السلف كمجاهد ، وأبي العالية ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وعطية السرق ، وهو اختيار ابن جرير .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا جعفر بن مسافر ، حدثنا يحيى بن حسان ، حدثنا ابن فيمة ، حدثنا عبد الرحمن الأخرجي في قوله : (يوم تأتي السماء بدخان مبين) ، قال : كان يوم فتح مكة . وهذا القول غريب جداً ، بل منكر .

وقال آخرون : لم يخص الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما تقدم من حديث أبي سريجة حديثه بن أسيد الغفاري - رضي الله عنه - قال : أشرف علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من فرقة ونحن نتذكر الساعة ، فقال : « لا تقوم الساعة حتى تزوا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والنبأة ، وخروج ياجوج وماجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو : تحشر الناس - : تنبت معهم حيث باتوا ، وتقتيل معهم حيث قالوا : نفرد بإخراجهم مسلم في صحيحه (٥) .

(١) أخرجه الطبري بنحوه من حديث الأعمش . انظر : ٦٦/٢٥ .

(٢) تقدم تخريجه أول سورة الروم ، وشرحنا هناك غريبه . انظر : ٣٠٥/٦ .

(٣) لم يقع لنا الحديث في المسند إلا من رواية أبي بن كعب . انظر المسند : ١٢٨/٥ .

(٤) تحفة الأحوزي ، تفسير سورة الدخان ، الحديث ٣٣٠٧ : ١٣٢/٩ - ١٣٥ . وقال الترمذي : وهذا حديث حسن صحيح .

(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثانية والثمانين من سورة النمل ، وشرحناه هناك . انظر : ٢٢٠/٩ .

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال لابن الصياد: «إني خبأت لك خبئاً»، قال: هو المسيح، فقال له: «انصأ فلن تملو قتلوك»، قال: وغياً له رسول الله صلى الله عليه وسلم - (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) (١)»

وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجبان، وهم يُقرطمون (٧) العبارة، ولعلنا قال: «هو الدخ»، يعني: الدخان. فتمتدحها حرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مادته وأنها شيطانية، فقال له: «انصأ فلن تملو قتلوك».

ثم قال ابن جرير: وحدثنى عصام بن زوكاد بن الجراح، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن سعيد الثوري، حدثنا منصور ابن الحنجر، عن ربي بن حيراش قال: سمعت حليفة بن اليان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أول الآيات النجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قبر عدنان أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تغيب معهم إذا قالوا، والدخان - قال حليفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فقلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين: ينشئ الناس هذا عذاب أليم) - بدلاً ما بين المشرق والمغرب، بمكة أربعين يوماً، وليلة، أما المؤمن فيصبيه منه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فيكون بمنزلة (٢) السكران، يخرج من منزله وأذنيه وديره» (٣).

قال ابن جرير: لو صح هذا الحديث لكان فاصلاً، وإنما لم أشهد له بالصحة، لأن محمد بن خلف السقلاني حدثني أنه سأل رواداً عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا. قال فقلت: أفرأته عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له: فمترى عليه وأنت حاضر فترى؟ فقال: لا. فقلت له: فمن أين جئت به؟ فقال: جئني به قوم فعرضوه علي، وقالوا لي اسمعه منا: فقرأوه علي ثم ذهبوا به، فحدثوا به عني، أو كما قال (٤).

وقد أجاد ابن جرير في هذا الحديث هاتين، فإنه موضوع بهذا السند، وقد أكثر ابن جرير من سياقه في أماكن من هذا التفسير، وفيه منكرات كثيرة جداً، ولا سيما في أول سورة «بني إسرائيل» في ذكر المسجد الأقصى، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زوعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خليل، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يخرج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كائز كمة، وأما الكافر فيغشقه حتى يخرج من كل مسمع منه».

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب: «إذا أسلم الصبي فأت، هل يصل عليه؟» ١١٧/١، وكتاب الجهاد، باب: «كيف يمرض الإمام على الصبي؟» ٨٥/٤ - ٨٦. وكتاب الأدب، باب: «قول الرجل لرجل: انصأ:» ٤٩/٨ - ٥٠. وكتاب القدر، باب: «ما يجوز بين المرد وقبيله؟» ١٥٧/٨. ومسلم، كتاب الفتن، باب: «ذكر ابن صياد» ١٩٩/٨ - ١٩٩.

(٢) أي: يقطعونها.

(٣) ما بين القوسين من العبارة واللمحات السابقة. ومكانه في المخطوطة: «مكتلة».

(٤) تفسير الطبري ٦٨/٢٥.

ورواه سعيد بن أبي هريرة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي سعيد الخدري موقوفاً ، ورواه حوث (١) ، عن الحسن قوله .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثني محمد بن عوف ، حدثنا محمد بن إسماعيل [بن عياض] حدثني أبي ، حدثني ضميم ابن زرعة ، عن شريح بن عبيد ، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ربكم أنذركم ثلاثاً : الدخان يأخذ المؤمن كالكوكبة ، ويأخذ الكافر فيتضخ حتى يخرج من كل مسخ منه ، والثالية النابية ، والثالثة للدجال » .

ورواه الطبراني عن هاشم بن يزيد (٢) ، عن محمد بن إسماعيل بن عياض ، به وهذا إسناد جيد .
وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي رضي الله عنه قال : لم تحض آية الدخان بعد ، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، وتتضخ الكافر حتى ينفذ .
وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع ، عن عبد الملك بن النخعي ، عن عبد الرحمن بن البيهقي ، عن ابن عمر قال : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، ويلتخل في مسامع الكافر وللنفاق حتى يكون كالرأس الخفي ، أي : المشوي على الرصيف (٣) .

ثم قال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن حبان ، عن ابن جريج ، عن عبد الله بن أبي مليكة قال : « حدثني عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ذات يوم [فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت] قلت : لم ؟ قال : قالوا : طلع للوكبة ذو الذئب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طلق ، فما نمت حتى أصبحت (٤) » وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن ابن أبي عمير ، عن صفوان ، عن عبد الله [بن أبي يزيد] ، عن عبد الله بن أبي مليكة ، عن ابن عباس فذكره . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس جبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما ، التي أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن : قال الله تعالى : (فارتقب يوم تأتي الساعة بغتة وهم لا ينصرون) ، وبين واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه : إنما هو خيال وأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهل ، وهكذا قوله (ينفخ الناس) ، أي : يتشاهم ويتهمهم ، ولو كان أمراً خيالياً لم يكن لأهل مكة المشركين لما قيل فيه (ينفخ الناس) .

(١) في المخطوطة : « ورواه سعيد بن أبي هريرة حوث ، عن الحسن » . ثم ضرب حل « بن أبي هريرة » . ولعل السواب ما أثبتناه ، وأن الناس بها فأتيت صدر الفقرة المتقدمة ، ثم استدرج فضرب حل « ابن أبي هريرة » . وكان عليه أن يضرب حل الاسم كله . فأما « حوث » - فهو حوث بن أبي جميلة المديني الهجري ، يروي عن الحسن البصري أنظر التلخيص : ١٦٦/٨ . والجرح والتعديل : ١٥/٣/٢ .

(٢) كذلك في المخطوطة : « يزيد » . دون فقط الياء ، وقد ثبتنا مراراً على أنه قول المصنف الصحيح : « مزيه » .

(٣) الرصيف : الحجارة المحملة على النار .

(٤) تفسير الطبري : ٦٨/٢٥ .

(٥) في المخطوطة : « عن أبي عمر » . ولعل السواب ما أثبتناه ، وابن أبي عمر هو محمد بن يحيى البغدادي المكي ، يروي عن صفوان بن عيينة ، ويروي عنه أبو حاتم ، أنظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١٢٤/١٤٤ .

وقوله : (هذا عذاب ألم) ، أى : يقال لم ذلك قريبا وتوبيخا ، كقوله تعالى : (يوم يُدْعَوْنَ إِلَى تَارِجِهِمْ دَعَاً هَلْهَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِآتِكُم بآتِكُمُونَ (١)) ، أو يقول بعضهم لبعض ذلك :

وقوله : (وبنا اكتشف عنا العذاب) ، أى : يقول الكافرون إذا عذبوا عذاب الله وعقابه سائلين رضى وكشفه عنهم ، كقوله : (ولو ترى إذ أقفوا على النار قالوا : يا ليتنا ترد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (٢)) ، وكذا قوله : (وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب) فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ، أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال (٣) وهكذا قال هاهنا : (أنى لم الذكري وقد جاءكم رسول مبين : أنم تولوا عنه وتولوا ما علم جنون) ،

يقول : كيف لم بالذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بمنزلة النور ، ومع هذا تولوا عنه وما وفقوه ، بل كذبوه وقالوا : معلم جنون ، وهذا كقوله تعالى : (يوم يذكر الإنسان وألقى له الذكري : يقول : يا ليتني قضيت طياتي (٤)) ، وقوله تعالى : (ولو ترى إذ أقفوا على النار وأعلموا أن مكانا قريب : وقالوا : آسفنا به وإنما لم تتأوه من مكان بعيد : وقد كفروا به من قبل ويظنون أن العذاب من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما قيل يا شياهم من قبل ، إنهم كانوا في شك مريب (٥)) .

وقوله : (إننا كشفنا العذاب قليلا إنكم جاهلون) ، يحمل معنيين :

أحدهما : أنه يقوله تعالى : ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى النار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب ، كقوله : (ولو رحمتنا وكشفنا ما بهم من ضر ، لرجوا في طغيانهم يعمهون (٦)) ، وكقوله : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون (٧)) .

والثاني : أن يكون المراد : إننا مؤثرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون (بشرهم) ، كقوله تعالى : (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في شبهة الدنيا ومتعناهم إلى حين (٨)) ، ولم يكن العذاب (بشرهم) واتصل بهم ، بل كان قد انعقد سببه عليهم ، ولا يلزم أيضا أن يكونوا قد أقبلوا عن كفرهم ثم عادوا إليه ، قال الله تعالى إنني أرى عن شعيب أنه قال قوموه حيث قالوا : (لنخرجنكم يا شعيب والذين آمنوا معك من قريبتنا أو لنعودن في ملتنا قال : أولئك كانوا كافرين) قد أشرنا على الله تعالى أن عذابا في ملتنا بعد إذ نجنا الله منها (٩) ، وشعيب لم يكن قد فعل على ملتهم وطريقتهم :

(١) سورة الطور : آية ١٧ - ١٨ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٧٧ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٨٤ .

(٤) سورة القصص : آية ٢٣ - ٢٤ .

(٥) سورة ص : الآيات ٥١ - ٥٤ .

(٦) سورة المؤمنون : آية ٧٥ .

(٧) سورة الأنعام : آية ٢٨ .

(٨) سورة يونس : آية ٩٨ .

(٩) سورة الأعراف : آية ٨٨ - ٨٩ .

وقال قتادة : (إنكم مالدون) إلى طلبة الله (١) ،

وقوله تعالى : (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) - فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر : وهذا قول جماعة من واثق ابن مسعود على تفسيره النحلان بما تقدم ، وروى أيضا عن ابن عباس من رواية العوفي ، عنه . وعن أبي بن كعب وجماعة ، وهو محتمل .

والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا ،

قاله ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علي ، حدثنا خالد الخلاء ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس : قال ابن مسعود : البطشة الكبرى يوم بدر ، وأنا أقول : هي يوم القيامة (٢) .

وهذا إسناد صحيح عنه ، وبه يقول الحسن البصري ، وعكرمة في أصح الروايتين ، عنه .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يَكْفُرُوا بِآيَاتِهِ وَأَنْ لَا تَعْمَلُوا عَلَىٰ اللَّهِ إِلَهَ آتِيكُمْ يُسْلَطْنَ فِيهِ ﴿٢﴾ وَإِلَىٰ عِلَّتِ يَدَيَّ وَرَيْكَ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٣﴾ وَإِنْ لَوْ تَفَوَّنُوا بِإِلَىٰ مُقَاتِلَتِهِ لَقَدْ رَجَبْنَا أَنْ هَذَا قَوْمٌ مَجْرُمُونَ ﴿٤﴾ فَأَمِيرُ بَعَادَى لَيْلَا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٥﴾ ﴾

وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُفْرَقُونَ ﴿٦﴾ كَذَرُّوا مِنْ جَنْثٍ وَصُوبٍ ﴿٧﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامِرٍ ضَكْرِمٍ ﴿٨﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَلَکَيْهِمْ ﴿٩﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١٠﴾ فَابْكْتَ طَيْفِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٢﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِيَّاهُ كَانَ عَلِيًّا مِنْ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ لِمَنِ ﴿١٥﴾

يقول تعالى : ولقد اخبرنا قبل هؤلاء للمشركين قوم فرعون ، وهم قببط مصر ، (وجماعهم رسول كريم) ، يعني موسى كليمه عليه السلام : (أن أدوا إلى عبد الله) ، كقوله : (فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعلمهم ، قد جئتكم بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى (١٢)) .

وقوله : (إني لكم رسول أمين) ، أي : مأمون على ما أبلغكموه .

وقوله : (وأن لا تعلموا على الله) ، أي : لا تستكبروا عن اتباع آياته ، والافتقاد لحججه والإيمان بإبراهيمه ، كقوله : (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) (١٤) .

(١) تفسير الطبري : ٦٩٢/٢٥ .

(٢) تفسير الطبري : ٧٠٢/٢٥ .

(٣) سورة طه ، آية : ٤٧ .

(٤) سورة طه ، آية : ٦٥ .

(إني آتيتكم بسلطان) ، أي : بحجة ظاهرة واضحة ، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة ،
(وإني علنت بربي وديكم أن ترجمون) - قال ابن عباس ، وأبو صالح : هو الرجم بالأسان ، وهو الشتم (١) .
وقال قتادة : الرجم بالحجارة .

أي : أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم أن تصلوا إلى يسوء من قول أو فعل .

(وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون) ، أي : فلا تعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسألة إلى أن يقضى الله بيننا -
لما طال مقامه بين أظهرهم ، وأقام حجج الله عليهم ، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً ، دعا ربه عليهم دعوة
فلتت فيهم ، كما قال تعالى : (وقال موسى : ربنا ، إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا
عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) . قال : قد أجيبت دعوتكما
فاستجبنا (٢) : وهكذا قال هاهنا : (فدعا ربه أن هولاء قوم مجرمون) ، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل
من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ، ولهذا قال : (فأمر بعبادى ليلاً إنكم مبتهجون) ، كما قال :
(ولقد أوحينا إلى موسى : أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا يخشى (٣)) .

وقوله هاهنا : (واترك البحر رها) أي : جند مفرقون ، وذلك أن موسى عليه السلام لما جاوز هو وبني إسرائيل البحر ،
أراد موسى أن يضربه بمصاه حتى يموت كما كان ، ليصير حالاً بينهم وبين فرعون ، فلا يصل إليهم . فأمره الله أن يتركه
على حاله ساكناً ، ويُسَرِّه بأنهم جند مفرقون فيه ، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى :

قال ابن عباس : (واترك البحر رها) كهيئته وامضيه (٤) . وقال مجاهد : (رها) طريقاً يبساً كهيئته ، يقول : لا تأمره
يرجع ، اتركه حتى يرجع ترحمه . وكلما قال عكرمة ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، وكعب
الأحبار ، وسماك بن حرب ، وغير واحد :

ثم قال تعالى : (كم تركوا من جنات) - وهي البساتين - (وعيون . وزروع) ، والمراد بها الأنهار والآبار ،
(ومقام كريم) ، وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة .

وقال مجاهد ، وسعيد بن جبلة : (ومقام كريم) : للثاير .

وقال ابن أبي عمير ، عن وهب بن عبد الله للمعافى ، عن عبد الله بن عمرو قال : نزل مصر سيد الأنهار ، سمى الله له
كل نهر بين المشرق والمغرب ، وذلك له ، فإذا أراد الله أن يُجْرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمتدَّ ، فأمدته الأنهار بمائها ،
وفجر الله له الأرض عيوناً ، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله ، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى منبره .

(١) تفسير الطبري : ٧٢/٢٥ .

(٢) سورة يونس : آية ٨٨ - ٨٩ .

(٣) سورة طه : آية ٧٧ .

(٤) تفسير الطبري : ٧٢/٢٥ .

وقال في قول الله تعالى : (كم تركوا) من جنات وعيون • وزروع ومقام كريم • ولعمرة كانوا فيها فاكهين) ، قال : كانت الجنان بحافي هذا التل من أوله إلى آخره في الشقين جميعاً ، ما بين أسوان إلى رشيد ، وكان له تسعة خلج (٢) : خليج الاسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج سرّدوس ، وخليج منف ، وخليج القيوم ، وخليج المنتهى ، متصلة لا يقطع منها شيء عن شيء ، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء ، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً ، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخطجها ، (ونعمة كانوا فيها فاكهين) ، أي : عيفة كانوا يشكعون فيها فيأكلون ما شاموا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية وتلك الخواصل القرونية والممالك القبطية بنو إسرائيل ، كما قال تعالى : (كذلك وأورثناها بني إسرائيل (٣)) : وقال في موضع آخر : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا بمرشون (٤)) . وقال ها هنا : (كذلك وأورثناها قوماً آخرين) ، وهم بنو إسرائيل كما تقدم :

وقوله : (فابكت عليهم السماء والأرض) ، أي : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي حل تقدم ، ولا لهم في الأرض ينقاع عبدوا الله فيها فقتلهم ، فلهمذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤمنوا لكرهم وإجرامهم ، وعوهم وحسادهم :

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى في مسنده : حدثنا أحمد بن إسماعيل البصري ، حدثنا مكى بن إبراهيم ، حدثنا موسى بن حبيب ، حدثني يزيد الرقائى ، حدثني أنس بن مالك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكى عليه » ، وتلا هذه الآية : (فابكت عليهم السماء والأرض) ، وذكر أنهم لم يكونوا حملوا حل الأرض عملاً صالحاً يبكي عليهم ، ولم يصدقهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ، ولا عمل صالح فضعفهم فتبكي عليهم ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث موسى بن حبيب وهو الرقائى .

وقال ابن جرير : حدثني يحيى بن طلحة ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن صفوان بن عمرو ، عن شريح بن حبيب الحضرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً . ألا لاخربة حل مؤمن ، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فابكت عليهم السماء والأرض) . ثم قال : « إنيما لا يبكى حل الكافر (٥) » .

(١) في المخطوطة والطبقات السابقة : « فأخرجناهم من جنات » . وتلك آية الشعراء .

(٢) كذلك في المخطوطة والطبقات السابقة ، فإذا عدناها وجدناها ستة . وق مجم البلدان لباقوت أنها صيبة • وحداها ها هنا وأصناف : • خليج هرشي • أنظر • التل • : ٣٣٥ .

(٣) سورة الشعراء ، آية : ٥٩ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٣٧ .

(٥) تفسير الطبري : ٧٥٤٢٥ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو أحمد - يعني الزهري - حدثنا العلاء بن صالح ، عن المنهال بن عمرو ، عن مباد بن عبد الله قال : سألت رجلاً علياً - رضى الله عنه - : هل تبيكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتني من شيء ما سألتني عنه أحد قبلك ، إنه ليس عبد إلا له مُصَلَّى في الأرض ، ومصعد عمله من السماء ؛ وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ، ولا عمل يصعد في السماء ، ثم قرأ على رضى الله عنه : (فابكت عليهم السماء والأرض وما كانوا متظرين) ٢

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا مطلق بن خنّام ، عن زائدة ، عن منصور ، عن منهال ، عن سعيد بن جبّير قال : أتى ابن عباس رجل فقال : يا أبا عباس ، أرايت قول الله : (فابكت عليهم السماء والأرض وما كانوا متظرين) ، فهل تبيكي السماء والأرض على أحد ؟ قال : نعم ، إنه ليس أحد من الخلق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه ، وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأُغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه بكي عليه ، وإذا قُتله مصلد من الأرض التي كان يصلّي فيها ويذكر الله فيها بكت عليه ، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة ، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير ، فلم تبك عليهم السماء والأرض (١) ؟

وروى العوفي ، عن ابن عباس ، نحو هذا :

وقال سفيان الثوري ، عن أبي يحيى التتات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كان يُقال : تبيكي الأرض على المؤمنين أربعين صباحاً (٢) . [وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبّير ، وغير واحد .

وقال مجاهد أيضاً : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً] ، قال : فقلت له : أتبيكي الأرض ؟ فقال : أتصعب ؟ وما للأرض لا تبيكي على عبد ، كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ . وما للسماء لا تبيكي على عبد كان لتكبره وتسيحه فيها دوى كنوى النحل ؟ .

وقال قتادة : كانوا أهون على الله من أن تبيكي عليهم السماء والأرض .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عبد السلام بن عاصم ، حدثنا إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا المستورد ابن سابق ، عن عبيد المكتّيب ، عن إبراهيم قال : ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على النبي . قلت لسعيد : أليس السماء والأرض تبيكي على المؤمن ؟ قال : ذلك مقدمه حيث يصعد عمله . قال : وتندري ما بكاه السماء . قلت : لا ؟ قال : تحمر وتصير وردة كالدهان ، إن يحيى بن زكريا لما قُتل احمرت السماء وقطرت دماً . وإن حسين بن علي لما قُتل احمرت السماء .

وحدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو هسان محمد بن عمرو ، - زُجّج - حدثنا جرير ، عن يزيد بن أبي زياد قال : لما قُتل حسين بن علي رضى الله عنهما احمرت آفاق السماء أربعة أشهر - قال يزيد : واحمرارها بكأوما . وهكذا قال السدي الكبير ٢

(١) تفسير الطبري : ٧٤٧/٢٥ .

(٢) تفسير الطبري : ٧٥ - ٧٤٧/٢٥ .

وقال طه الحارثي : بكاءهما : أن تحمر أطرافها ،

وذكروا أيضاً في مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عبيط ، وأنه كسفت الشمس واحمر الأفق وسقطت حجارة . وفي كل ذلك نظر ، والظاهر أنه من سُخِّفَ الشيعة وكُتِبَهم ، ليظنوا الأمر - ولا شك أنه عظيم - ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكتبوه ، وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين - رضى الله عنه - ولم يقع شيء مما ذكره ، فإنه قد قُتِلَ أبوه علي بن أبي طالب ، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع ذلك ، وعثمان بن عفان قتل محصوراً مظلوماً ، ولم يكن شيء من ذلك . وعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قتل في الحراب في صلاة الصبح ، وكان المسلمون لم يعطوهم مصيبة قبل ذلك ، ولم يكن شيء من ذلك . وهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكره . ويوم مات إبراهيم بن النبي - صلى الله عليه وسلم - خسفت الشمس فقال الناس : خسفت لموت إبراهيم ، فصل بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلاة الكسوف ، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا يتخسفان لموت أحد ولا لحياة (١) .

وقوله : (ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عالياً من المفسدين) : بمن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم ، وتسخيره إبراهيم في الأعمال المهيينة الشاقة .

وقوله : (من فرعون إنه كان عالياً) ، أى : مستكبراً جباراً عنيداً - كقوله : (إن فرعون علا في الأرض) (٢) ، وقوله : (فاستكبروا وكانوا قوماً عالين) (٣) - سرياً في أمره ، مسخيفاً للرأى على نفسه ،

وقوله : (ولقد اخترنا هم على علم على العالين) - قال مجاهد : (اخترنا هم على علم على العالين) ، على من هم بين ظهريته . وقال قتادة : (اخترنا على أهل زمانهم ذلك . وكان يقال : إن لكل زمان عالماً) (٤) . وهذه كقوله تعالى : (قال : يا موسى ، إلى اصطفتك على الناس) (٥) ، أى : أهل زمانه ، وقوله لريم : (واصطفاك على نساء العالين) ، أى : في زمانها ؛ فإن خديجة أفضل منها وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، أو مساوية لها في الفضل ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر العالم (٦) .

وقوله : (وآتيناهم من الآيات) ، أى : المخرج والبراهين وخوارق العادات (ما فيه بلاء مبین) ، أى : اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به .

(١) البخاري ، كتاب الكسوف ، باب « الدعاء في الكسوف » : ٤٨/٢ - ٤٩ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « ما مرضى على النبي - صلى الله عليه وسلم - من أمر الجنة والنار » : ٣١/٣ . وسنة الإمام أحمد من المنيرة بن شعبة : ٢٤٩/٤ ، ٢٥٣ .

(٢) سورة القصص ، آية : ٤ .

(٣) سورة المؤمنون ، آية : ٤٦ .

(٤) تفسير الطبري : ٧٦/٢٥ .

(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٤٤ .

(٦) البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « فضل عائشة رضى الله عنها » : ٢٦/٥ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ،

باب « فضل عائشة رضى الله عنها » : ١٢٥/٧ .

إِنْ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ أَمْ خَشِيتُمُ الْقَوْمَ تَتَّبِعُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى متكرراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد ، وأنه ماثمٌ إلا هذه الحياة الدنيا ، ولا حياة بعد المات ، ولا بعث ولا نشور ، ويحتجون بآياتهم للماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، فإن كان البعث حقاً (فأتوا بآياتنا إن كنتم صادقين) : وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة ، فإن للمعاد إنما هو يوم القيامة لافي هذه الدار ، بعد انقضاءها وذهابها وفراغها بعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً . ثم قال تعالى متهدداً لهم ، ومتوعداً لمن لا يؤمن بالله الذي لا يبرء ، كحال بأشياهم ونظرانهم المشركين والمنكرين للبعث وقوم تبع - وهم سيأتي - أهلكهم الله وخرَّب بلادهم ، وشرَّدهم في البلاد ، وفرَّقهم شذَّراً مذكراً ، كما تقدم ذلك في سورة سبأ ، وهي مُصدِّرة بإنكار المشركين للمعاد . وكذلك هاتنا شبهتهم بأولئك ، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من حدنان ، وقد كانت حمير - وهم سبأ - كلها ملكك فيهم رجل سموه ثبَّاء ، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس ، ويعيس لمن ملك الروم ، وفروخ لمن ملك مصر كافرا ، والتجاشي لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من أعلام الأجناس . ولكن اتفق أنه بعض تباهيه خرج من ابنين وصار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند ، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه ، وامتدت مملكته وولاده ، وكثرت رعاياه وهو الذي مَسَّرَ الحيرة فاتفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فأنهوه وقاتلوه بالهراة ، وجعلوا يَحْرُوه (١) بالليل ، فاستنحيا منهم وكَفَّ عنهم ، واستصحب معه حَبْرَيْن من أحبار يهود كانوا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة ، فلما مهاجرت نَبِيَّ يكون في آخر الزمان ، فرجع عنها وأخذها معه إلى بلاد النين ، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فيها أيضاً ، وأخبراه بعظمة هذا البيت ، وأنه من بنىة إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على بنى ذلك النبي الميعوث في آخر الزمان ، فغظموه وطاف بها ، وكساها الصَّلاة (٢) والوصائل والحبير ، ثم كرَّ راجعاً إلى النين ودعا أهلها إلى اليهود معه ، وكان إذ ذلك دين موسى - عليه السلام - فيه من يكون على البداية قبل بعث المسيح - عليه السلام - فتهود معه عامة أهل النين . وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة (٣) : وقد ترجمه الحافظ ابن حساكر (٤) في تاريخه ترجمة حافظة ، أورد فيها أشياء كثيرة بما ذكرنا وما لم نذكر ، وذكر أنه ملك دمشق ، وأنه كان إذا استعرض الخليل صُفِّت له من دمشق إلى النين . ثم ساق من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن المقبري ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما أدرى الخدود طهارة لأهلها أم لا ؟ ولا أدرى تبعٌ لعميتا كان أم لا ؟ ولا أدرى ذوات القرنين نبيّا كان أم ملكاً ؟ » (٥) وقال غيره : « أعزيراً كان نبيّا أم لا ؟ » . وكلنا رواه ابن أبي حاتم ، عن محمد بن حماد الظاهراني ، عن عبد الرزاق .

(١) أي : يضيّقونه .

(٢) اللادة - بضم اللام - واحدة ملادة ، وهي : المصلحة . والوصائل : ثياب عينية ، يوصل بعضها ببعض . والحبير من الثياب : ما كان موشياً مخطئاً .

(٣) سيرة ابن هشام : ١٩٠/١ - ٢٨٠ .

(٤) ما بين القوسين من الطبقات السابقة . وفي هامش المخطوطة : « لعله ابن حساكر » .

(٥) أخرجه أبو داود من حديث عبد الرزاق بن حنبل ، إنظر كتاب السنة ، باب : « في التخيير بين الأنبياء عليهم السلام » .

قال الدارقطني : يتردد به عبد الرزاق ، ثم روى ابن حساكر من طريق محمد بن كريب ، عن أبيه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : « عُرِيْرُ لَا أُدْرِي أَتَيْتَا كَانُ أَمْ لَا ؟ وَلَا أُدْرِي أَلَمِنَ تَبِعَ أَمْ لَا ؟ » .

ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته كما سيأتي . وكأنه - والله أعلم - كان كافرا ثم أسلم ، وتابع دين الكليم على يدئ من كان من أجداد اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعة المسيح عليه السلام ، وحج البيت في زمن الجُرهميين ، وكساء الللاء والوصائل من الحرير والجبرج ونحو غيره ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه . ثم عاد إلى (١) البين . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن حساكر من طرق متعددة مطولة مبسطة عن أبي بن كعب ، وعبد الله بن سلام ، وعبد الله بن عباس وكعب الأحبار . وإليه المرجع في ذلك كله ، وإلى عبد الله بن سلام أيضا ، وهو أثبت وأكبر وأعلم ، وكذا روى قصته وهب بن منبته ، وعبد بن إصاف في السيرة كما هو مشهور فيها . وقد اخطأ على الحافظ ابن حساكر في بعض السياقات ترجمة تباع [هذا] بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل ، فإن تباع هذا المشار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه ، ثم لما مات عادوا بملته إلى عبادة الأصنام والبران ، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ ، وقد بسطنا قصتهم هناك ، وفي الحمد والملة .

وقال سعيد بن جبير : كما تبع الكعبة ، وكان سعيد بن أبي سبه (٢) .

وتبع هذا هو تباع الأوسط ، واسمه سعيد بن كريب بن ملكيكرب (٣) الباني ، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستة عشر سنة ، ولم يكن في حمير أطول مدة منه ، وتوفي قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو من سبعمائة عام . وذكروا أنه لما ذكر له الجبران من جهود المدينة أن هذه المدينة هي التي أمر في الزمان ، اسمه أحمد ، قال في ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة . وكانوا يتوارثونه ويروونه لحفا عن سلف ، وكان ممن يحفظه أبو أيوب نخلة بن زيد الذي نزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في داره ، وهو :

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَأْتِي النَّاسَ
فَكَتَمْتُ حُمَيْرِي إِلَى حُمَيْرِهِ لَكُنْتُ قَرِيبًا لَهُ وَابْنُ حَمٍ
وَجَاءَهُدْتُ بِالسَّيْفِ أَهْدَاهُ وَقَرِجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ حَمٍ

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حفر قبر بصفته في الإسلام ، فوجدوا فيه امرأتين صبيحتين ، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب : « هذا قبر حبي وليس - روى : حبي وقاهر - ابني تبع ، ماتتا وما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئا ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما .

وقد ذكرنا في سورة سبأ (٤) شعرا في ذلك أيضا .

(١) ما بين القوسين عن تعليقات السابقة .

(٢) تفسير الطبري : ٧٧/٢٥ .

(٣) كذا في مخطوطة الأثر ، ومثله في جبهة أنساب العرب لابن حزم : ٤٢٨ . وفي نسخة ابن هشام ١٩٨/١ .

كامل كريب .

(٤) انظر : ١٩٧/٦ .

قال قتادة : ذكر لنا أن نحيماً كان يقول في نبي : نُحِبُّكَ تَحْتَ الرجل الصالح ، ذم الله تعالى قومه ولم يلهمه ، قال : وكانت عائشة تقول : لا تسبوا نبياً فإنه قد كان رجلاً صالحاً (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الله بن لهيعة ، عن أبي زرعة - يعني عمرو بن جابر الحضرمي - قال : سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تسبوا نبياً فإنه قد كان أسلم »

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، به (٢) .

وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكرة ، حدثنا مؤمل بن إسماعيل ، حدثنا مغيان ، عن مياك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا نبياً فإنه قد أسلم » .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن المقبري ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أدرى تبع نبياً كان أم غير نبي ؟ » .

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساكر : « لا أدرى تبع كان لعينا أم لا ؟ » . فله أعلم ؛

ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى البدي (٣) عن عكرمة ، عن ابن عباس موقوفاً .

وقال حيد الرزاق : أخبرنا عمران أبو المليل ، أخبرني عيم بن عبد الرحمن قال : قال عطاء بن أبي رباح : « لا تسبوا نبياً ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي من نبيه » .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَتَعْلَمُنَّ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْقَهُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣١﴾

إِلَّا مَنْ دَرَجَ اللَّهُ لَهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى خبراً عن حدِّه ونزجه [نَحْسَهُ] من اللعب والعبث والباطل ، بقوله : (وما خلقت السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار (٤)) . وقال : (أصبحتم أنما خلقتكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ فقال الله للملك الحق ، لا إله إلا هو ، رب العرش الكريم (٥)) ثم قال : (إن يوم الفصل) وهو يوم القيامة ، يفصل الله فيه بين الخلاق ، فيطرد الكافرين ويثبت المؤمنين ،

(١) تفسير الطبري : ٧٧/٢٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٤٠/٥ .

(٣) في المخطوطة « اللغ » والمكتب من ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٦٠٢/٢٦١ . والباب لابن الأثير :

١٠٤/١ .

(٤) سورة « عن » ، آية : ٢٧ .

(٥) سورة « المؤمنون » ، آية : ١١٥ - ١١٦ .

وقوله (مقتبهم أجمعين) ، أى : يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم ، (يوم لا ينقى مولى عن مولى شيئا) أى : لا ينفع قريب قريباً . كقوله : (فإنما نفع في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون^(١)) ، وكقوله : (ولا يسأل حميم حميماً^(٢)) ، أى : لا يسأل أخاه له من حاله وهو يراه عياناً .

وقوله : (ولا هم ينصرون) ، أى : لا ينصر القريب قريبه ، ولا يأتيه نصره من خارج .

ثم قال : (إلا من رحم الله) ، أى : لا ينفع يومئذ إلا من رحمته الله — عز وجل — لحلقه (إله هو العزيز الرحيم) ، أى : هو عزيز ذو رحمة واسعة .

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ﴿١٠﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿١١﴾ كَاللَّهُلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿١٢﴾ كَقَلْبِ الْحَمِيمِ ﴿١٣﴾ خُلْدُهُ فَاعْطَوْهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ ثُمَّ صَبُّوا فِيهِ زُكُومًا ﴿١٥﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ مُشْكِرِينَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى عبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين لقائه : (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) ، والأثيم : أى فى قوله وفعله ، وهو الكافر — وذكر غير واحد أنه أبو جهل ، ولا شك فى دخوله فى هذه الآية ، ولكن ليست خاصة به قال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعشى ، عن إبراهيم ، عن هشام ابن الحارث : أن أبا الدرداء كان يقرى بوجلا : (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) ، قال : طعام اليم . فقال أبو الدرداء قل : إن شجرة الزقوم طعام [الفاجر] (٢) الفاجر .

أى : ليس له طعام من غيرها .

قال مجاهد : ولو وقعت منها قطرة فى الأرض لأضلت كل أعمل الأرض معاشهم : وقد تقدم نحوه مرفوعاً

وقوله : (كاللهل) ، قالوا : ككثر الزيت (تغلي^(٤)) فى البطن . كقل الحميم) ، أى : من حرارتها ووداعها . وقوله (خلوه) ، أى : الكافر ، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزيانية : (خلوه) ابتلوه صهيون ألفاً منهم .

(فاعطوه) ، أى : اسقوه صبها ودفعاً فى ظهره

قال مجاهد : (خلوه فاعطوه) ، أى : خلوه فادفوه (٥)

وقال القرطبي :

لَيْسَ الْكِرَامُ يَتَحَلَّلُونَ أَبَاهُمْ حَتَّى تُرَدَّ إِلَى عَقِيهِ تَحَلُّلٌ ٢٤٥

(١) سورة المؤمنون : آية : ١٠١ .

(٢) سورة المعارج : آية : ١٠ - ١١ .

(٣) ما بين القوسين من تفسير الطبري : ٧٨/٢٥ .

(٤) كلمة فى غطوطة الأثر بآلناه ، ونهى قراءة ثابتة فى السبعة . انظر البحر المحيط : ٤٥/٢٨ .

(٥) تفسير الطبري : ٨٠/٢٥ .

(٦) ديوانه : ط بيروت : ١٦٠/٢٢ ، وتفسير الطبري : ٨٠/٢٥ . وقال الطبري : «لئى تساق ضلماً ومحباً» .

(إلى سواء الجحيم) ، أى : وسطها ، (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) ، كقوله : (يصب من فوق رؤوسهم الحميم : يصهر به مائى يطوئهم والجلود (١))

وقد تقدم أن الملك يضربه بحمئة من حديد ، تفتح صاعقه ثم يصب الحميم على رأسه فيترل في بدنه ، فيسلت مائى يطنه من أمعائه ، حتى تمرق من كفيه - أعاننا الله تعالى من ذلك .

وقوله : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) ، أى : قولوا له ذلك على وجهه التهكم والتوبيخ :

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : أى لست يعزى ولا كريم

وقد قال الأموى فى مغاليله : حدثنا أسباط ، حدثنا أبو بكر الهذلى ، عن حكرمة قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أباه جمل - لعنه الله - فقال : « إن الله تعالى أمرنى أن أقول لك : (أولى لك فأولى - ثم أولى لك فأولى (٢)) » قال : فزع ثوبه من يده وقال : ما تستطيع لى أنت ولا صلحك من شئ . « . ولقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء ، وأنا العزيز الكريم » قال : فقطع الله تعالى يوم بدر وأذله وصبره بكملة ، وأنزل : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) .

وقوله : (إن هلا ما كنتم به تمترون) ، كقوله : (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا : هذه النار التى كنتم بها تكلبون . أفسر هلا أم أنتم لتبصرون (٣)) ، ولهذا قال هاشم : (إن هلا ما كنتم به تمترون) .

إِنَّ الْمُتَعَبِّينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿١٩﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٠﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَنِينَ ﴿٢١﴾
كَمَالِكٍ وَزَوْجَتُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى الْأَشْجَارِ ﴿٢٢﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ غَايِبِينَ ﴿٢٣﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا
الْحَيَاةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٤﴾ فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٥﴾ فَأَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلِيُدْخِلَهُمْ فِي جَنَّاتٍ أُولَىٰ ﴿٢٦﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٢٧﴾

لا ذكر تعالى حال الأضياف عطف بذكر السعداء - ولهذا سُمى القرآن مثاقب - فقال : (إن المتقين) ، أى : الله فى الدنيا (فى مقام أمين) . أى : فى الآخرة وهو الجنة ، قد آمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ، ومن الشيطان وكيدته ، وسائر الآفات والمصائب (فى جنات وحيون) : وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم ، وشرب الحميم :

وقوله تعالى : (يلبسون من سندس) ، وهو : رفيع الحرير ، كالقطنان ونحوها ، (واستبرق) ، وهو : ما يبرق ولمعان وذلك كالرياش ، وما يلبس على أعلى الثياب ، (متقنين) ، أى : على السرر ، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره :

(١) سورة الحج : آية : ١٩ - ٢٠ .

(٢) سورة التوبة : آية : ٢٤ - ٢٥ .

(٣) سورة الطور : الآيات : ١٤ - ١٥ .

وقوله : (كللك وزوجناهم بحور عين) ، أى : هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسنات الثلاث (لم يطمئنوا لئس قبلهم ولا جان) ، (كأنهن الياقوت والمرجان) ، (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) (١) ؟

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي : حدثنا نوح بن حبيب ، حدثنا نصر بن مزاحم الطنطاري ، حدثنا عمر بن سعد ، عن رجل ، عن أنس - رفته نوح - قال : لو أن حوراء برقت في بحر لجي ، لعذب ذلك الماء لعنوبة ريقها :

وقوله : (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) ، أى : مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ، بل يحضر إليهم كلما أرادوا .

وقوله : (لا يلقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) ، هذا الاستثناء يؤكد النفي ، فإنه استثناء منقطع ، ومعناه : أنهم لا يلقون فيها الموت أبدا . كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ثم ينبس ، ثم يقال يا أهل الجنة : خلود فلا موت ، ويا أهل النار : خلود فلا موت » وقد تقدم الحديث في سورة مريم (٢) ،

وقال عبد الرزاق : حدثنا سفيان الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن أبي مسلم الأخر ، عن أبي سعيد ولقي هريرة - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تصموا فلا تبأسوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا » رواه مسلم ، عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد ، كلاهما عن عبد الرزاق (٣) .

هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق « أبو مسلم الأخر » ، وأهل المدينة يقولون : « أبو عبد الله الأخر »

وقال أبو بكر بن أبي داود السجستاني : حدثنا أحمد بن حفص ، عن أبيه ، عن إبراهيم بن طهمان ، عن الحجاج - هو ابن ججاج - عن عبادة ، عن عبد الله بن عمرو ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من أتى الله دخل الجنة ، ينعم فيها ولا يئس ، ويحبب فيها فلا يموت ، لا تلب ثيابه ولا يفت شيابه » (٤) ، وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا عمرو بن محمد التائيد ، حدثنا سليمان بن عبد الله اللقي ، حدثنا مصعب بن إبراهيم ، حدثنا عمران بن الربيع الكوفي ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر - رضى الله عنه - قال : سئل نبي الله - صلى الله عليه وسلم - : أينام أهل الجنة ؟ قال : « النوم أعز الموت ، وأهل الجنة لا ينامون »

(١) سورة الرحمن ، الآيات ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٥ .

(٢) تقدم الحديث عند الآية التاسعة والثلاثين من سورة مريم ، وهرجناه هناك . انظر ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٣) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب « في دوام نعيم أهل الجنة » : ١٤٨/٨ .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد : ٣٠٥/٢ ، ٣٧٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٤٥ ، ٤٦٢ .

وهكذا رواه أبو بكر بن مَرْثُويه في تفسيره : حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصري ، حدثنا للتقدم بن داود ، حدثنا عبد الله بن المغيرة ، حدثنا سفيان الثوري ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « التَّوَمُ أَخُو الْمَوْتِ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَتَمَوَّنُونَ » .

وقال أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا الفضل بن يعقوب ، حدثنا محمد بن يوسف القُرْبَاني ، عن سفيان ، عن محمد ابن المنكدر ، عن جابر قال : قيل : يا رسول الله ، هل يتام أهل الجنة ؟ قال : « لا ، التَّوَمُ أَخُو الْمَوْتِ » . ثم قال : « لا تعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر ، عن جابر إلا الثوري ، ولا عن الثوري ، إلا القُرْبَاني » . هكنا قال ، وقد تقدم خلافاً ذلك ، والله أعلم .

وقوله : (ووقاهم عذاب الجحيم) ، أي : مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم ، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم في ذرّات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ، ونجاهم من المرهوب . ولهذا قال : (فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم) ، أي : إنما كان هذا بفضلهم وإحسانه إليهم ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً لن يُدخلَه عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتخمدنني الله برحمته منه وفصل (١) » .

وقوله : (فلما يسرناه بلسانك لهمم يتذكرون) ، أي : إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلها وأعلها (لهمم يتذكرون) ، أي : يتفهمن ويعملون . ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من التماس من كثرة مخالفات وعائده ، قال الله تعالى لرسوله (مسلياً له) وواعداً له بالنصر ، ومتوعداً لمن كذب بالعظيم والملاك : (فارتهب) ، أي : انتظر (لهمم موقنون) ، أي : فسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وحلّو للكلمة في الدنيا والآخرة ، فلما لك يا محمد ولأخواتك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين ، كما قال تعالى : (كتب الله لأحلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز (٢)) ، وقال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » يوم لا ينفع الظالمين عملهم ولم اللغة ولم سوء الدار (٣) » .

آخر تفسير سورة المدحان ، والله الحمد والمئة ، وبه التوفيق والعصمة

(١) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب « التنبه والمداومة على العمل » : ١٢٢/٨ . وصلى « كتاب صفات القيامة واجتهاد الناس »

« ان يدخل أحد الجنة بعمله » بل برحمته الله تعالى : ١٤٠/٨ .

(٢) سورة المائدة آية ٢١ .

(٣) سورة فاتر آية ٥١-٥٢ .

تفسير سورة الجاثية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَعْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝
وَفِي خَلْقِكَ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاتَّخَذَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ مَآئِدَةً ۝ وَاللَّهُ مِنَ السَّمَاوَاتِ
رَازِقٌ فَاحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفُ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝

يرشدُ تعالى خلقه إلى الفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيها من
المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسيارات والمخبرات،
وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، في تعاقبها دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضائه،
وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقا لأن به يحصل الرزق، (أحيا به الأرض بعد
موتها)، أي: بعد ما كانت هامدة لا تثبت فيها ولا شيء.

وقوله (وتصريف الرياح)، أي: جنوبا وشاماً، ودُبوراً وصباحاً (١)، بحرية وبرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو
المطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم.

وقال أولاً (آيات للمؤمنين)، ثم (يوقنون)، ثم (يعقلون)، وهو ترقى مع حال شريك إلى ما هو أشر من
وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة، وهي قوله: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والخلق
التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة،
وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، آيات لقوم يعقلون (٢))، وقد أورد ابن أبي حاتم أمثلة عن
وهي من صنعه أثر أطولاً غريباً في خلق الإنسان من الأخطاء الأربعة.

(١) أي: قائمة من الشام والجنوب والرياح التي تقابل السبا. وكانوا يقولون: (إنها تأتي من دبر الكعبة) وإن السبا
تستقبلها.

(٢) سورة البقرة، آية ١٦٤.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ تَتْلُوهُمَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُمْنُونَ ﴿١٩﴾ وَيَلْ لَّكُلِّ أَفَّاكَ أَيُّمٍ
 ﴿٢٠﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُكَلِّى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصْرِ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ وَإِذَا عَلِمَ
 مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٢٢﴾ مَن رَّأَى يَوْمَ جَهَنَّمَ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا
 شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
 هَؤُلَاءَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجِزٍ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى : هذه آيات الله - يعنى القرآن بما فيه من الحجج والبيئات - (تتلوها عليك بالحق) ، أى : متضمنة الحق من الحق ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا يتقاضون لها ، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ قال : ثم قال : (ويل لكل أفَّاك أيُّم) ، أى : أفَّاك فى قوله كذاب ، خلاف مهين أئيم فى فعله وقبيله كافر بآيات الله ، ولهذا قال : (يسمع آيات الله تتلى عليه) ، أى : تقرأ عليه (ثم يصير) ، أى : حل كفره وجُحوده استكباراً وعناداً (كأن لم يسمعها) ، أى : كأنه ما سمعها ، (فبشره بها أب أيُّم) ، أى : فبشره أن له عند الله يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً .

(وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هُزُوًا) ، أى : إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتَّخذه سخرية وهُزُوًا ، (أولئك لهم عذاب مهين) ، أى : فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستزأ به : ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستكبر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو (١) .

ثم فسر المطلب الحاصل له يوم معاده فقال : (من ورأهم جهنم) ، أى : كل من انصف بذلك سيصبرون إلى جهنم يوم القيامة ، (ولا يبنى عنهم ما كسبوا شيئاً) ، أى : لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ، (ولا ما اتخذوا من دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ) ، أى : ولا تبنى عنهم الآلة التى عبدوها من دُونِ اللَّهِ شيئاً ، (ولهم عذاب عظيم) .

ثم قال تعالى : (هذا هُدًى) ، يعنى القرآن ، (والذين كفروا بآياتِ ربهم لهم عذاب من رَجِزٍ أليم) ، وهو المزمع الموعود .

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ تَتْلُوهُمَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُمْنُونَ ﴿١٩﴾ وَيَلْ لَّكُلِّ أَفَّاكَ أَيُّمٍ ﴿٢٠﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُكَلِّى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصْرِ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٢٢﴾ مَن رَّأَى يَوْمَ جَهَنَّمَ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هَؤُلَاءَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجِزٍ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

يلتزم تعالى نعمته على عبده فيما سخر لهم من البحر (لتجرى الفلك) ، وهى السفن فيه بأمره تعالى ، فإنه هو الذى أمر البحر أن يعملها (ولتتقوا من فضله) ، أى : فى التاجر والمكاسب ، (ولعلكم تشكرون) ، أى : على حصول المنافع الموطورة إليكم من الآفاق النائية والأفاق القاصية .

(١) مسلم : كتاب الإمارة ، باب : « أنه أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار إذا خيف وقوعه فى أيديهم » ٣٠/٦ .
 وقد أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد ، باب : « السفر بالمصحف إلى أرض العدو » ٦٨٤٤ .

ثم قال تعالى: (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض)، أى: من الكواكب والجيال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنضجون به، أى: الجميع من فضله وإحسانه وإماتانه. ولذا قال: (جميعاً منه)، أى: من عنده وسدّه لا شريك له في ذلك، كما قال: تعالى: (وما بكم من نعمة فى الله، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (١)).

وروى ابن جرير من طريق العنوف، عن ابن عباس في قوله: (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه): كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أمياته، فذلك جميعاً منه، ولا يمتاز فيه المنازعون، ولستيفين (٢) أنه كذلك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن خلف الصقلاني، حدثنا القرياني، عن سفيان، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبى أركاة قال: سألت رجلاً عبد الله بن عمرو قال: «مِمَّ خُلِقَ الْخَلْقُ؟» قال: «من النور والنار، والظلمة والنرى». قال: وأنت ابن عباس فأسأله. فأجاب فقال له مثل ذلك، فقال: أرجع إليه فسله: «مِمَّ خُلِقَ ذَلِكَ كله؟» فرجع إليه فأسأله، فقال: (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه). هذا أثر غريب، وفيه نكارة (٣) (إن في ذلك لآيات لقوم يفكرون).

وقوله: (قل للذين آمنوا: ينفروا للدين لا يرجون أيام الله)، أى: يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم؛ وهذا كان في ابتداء الإسلام؛ أمروا أن يصبروا على أذى للمشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أسروا على المنادى شرع الله للمؤمنين الجهاد والجهاد. هكذا روى عن ابن عباس، وقناة (٤) وقال مجاهد: (لا يرجون أيام الله): لا يبالون (٥) نعم الله.

وقوله: (ليجزى قوما بما كانوا يكسبون)، أى: إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله يجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة. ولذا قال: (من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم إلى ربكم ترجعون)، أى: تعودون إليه يوم القيامة فترصون بأعمالكم، فيجزىكم بأعمالكم خيرها وشرها.

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَآتَيْنَاهُمُ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ قَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَى ﴿٢﴾ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِئًا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ قَانِعِيهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٥﴾ هَذَا بَصَرِي لِلنَّاسِ وَهَذِي رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٦﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل من إزلال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم، ولهذا قال: (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة، ورزقناهم من الطيبات)، أى: من للأكل والمتأرب، (وفضّلناهم على العالمين)، أى: في زمانهم، (وآتيناهم بينات من الأمر)، أى: حُجَجًا وبراهين وأدلة قاطعات، قامت عليهم الحُجَجُ،

(١) سورة النحل: آية ٥٣.

(٢) في المخطوطة: «وأساتين». وللمثبت من تفسير الطبري: ٨٦٧/٢٥.

(٣) في المخطوطة: «ينالون». والنون. وللمثبت من تفسير الطبري: .

ثم احتفلوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة ، وإذ كان ذلك بنياً منهم على بعضهم بعضاً ، (إن ربك) يا محمد (يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ، أى : سيفصل بينهم بحكمه العدل . وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم . ولهذا قال : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) ، أى : اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين . وقال هاهنا : (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) . إنهم لن يفتنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) ، أى : وماذا تخفى عنهم ولا يشعرون لبعضهم بعضاً ، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً ، (والله ولي المؤمنين) ، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وللمؤمنين كفراً أوليائهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات .

ثم قال : (هدا بصائر للناس) ، يعنى القرآن ، (وهدى ورحمة لقوم يوقنون) ؛

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحَلَّتْ لَهُمْ وَنَمَاتُهَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٢﴾ لَقَدْ رَفَعْنَا مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَيْنِهِ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَجَعَلَ عَلَىٰ بُصُرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى : لا يستوى المؤمنون والكافرون ، كما قال : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) (١) ، وقال هاهنا : (أم حسب الذين اجتروحوا السيئات) ، أى : علوها وكسبوها (أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محابهم ومماتهم ؟) ، أى : تساويهم بهم في الدنيا والآخرة ! (ساء ما يحكمون) ، أى : ساء ما ظنوا بنا وبمعدنا أن نسأوي بين الأبرار والفجار في النار الآخرة ، وفي هذه النار .

قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا مؤمن بن إهاب ، حدثنا بكير بن عثمان التتويحي ، حدثنا الوضيع بن عطاء ، عن يزيد ابن مرثد اليابى (٢) ، عن أبي ذر رضى الله عنه قال ؟ إن الله ينى دينه على أربعة أركان ، فمن صبر (٣) عليهن ولم يعمل من لى الله من الفاسقين . قيل : وما هن يا أبا ذر ؟ قال : يسلم حلال الله لله ، وحرام الله لله ، وأمر الله لله ، ونهى الله لله ، لا يؤتمن عليهن إلا الله . قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : « كما أنه لا ينجى من الشوك العنب ، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه . وقد ذكر محمد بن إصحاق في كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجراً بحكة في أسن الكعبة مكتوب عليه : تعملون السيئات وترجون الحسنات ؟ أجل كما يجنى من الشوك العنب (٤) !

(١) سورة الحشر ، آية : ٢٠ .

(٢) كلما في الخطوطة . وفي المرح والمعدل ٢٨٨/٢٤٤ = يزيد بن مرثد الحمداي .

(٣) كذا ، ولعل في النص سقطاً .

(٤) تقدم الأمر في سورة التمثل ، عند تفسير الآية الثانية والستين ، وخرجناه هناك . انظر : ٤٩٨/٤ .

وقد روى الطبراني من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي النضر ، عن مبرق : أن نميا الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعلوا الصالحات) . ولهذا قال تعالى : [ساء ما يحكمون] ، وقال : (وخلق الله السموات والأرض بالحق) ، أي : بالملك ، (ولتجرى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) .

ثم قال : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) ، أي : إنما يأتمر بهواه ، فهما رآه حسنا فعله ، ومهما رآه قبيحا تركه . وهذا قد يستدل به حل للخرقة في قولهم بالتخمين والتبيين العقليين .

وعن مالك فيما روى عنه من التفسير : لا يهوى شيئا إلا عبثه ،

وقوله : (وأضل الله على علم) ، يجعل قولين :

أحدهما : وأضل الله لعله أنه يستحق ذلك : (والآخر : وأضل الله بعد بلوغ العلم إليه ، وتقام الحجة عليه : والثاني يستلزم الأول ، ولا ينكس .

(وختم على سمعه وقليه ، وجعل على بصره غشاوة) ، أي : فلا يسمع ما ينفعه ، ولا يرى شيئا يهتدى به ، ولا يرى حجة يستضيء بها . ولهذا قال : (فمن يهتد من بعد الله ألا تلذذوه) ، كقوله : (من يضل الله فلا هدى له ، ويلزم في طغيانهم يعمهون (١)) .

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ثُلُثَ عَلَيْهِمْ ذَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ جَحْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَشْيَا هَاجَبَاتٍ إِنَّكُمْ مُدْعَوْنَ صِدْقٍ ﴿١٠١﴾ قُلِ اللَّهُ يُجِيبُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

ينبغي تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار للمعاد : (وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) ، أي : ما هم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما هم بمعاد ولا قيامة . وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، ويقولوه الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البدأة والرجعة ، ويقولوه الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المخلوقون أن في كل سنة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه : وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكاروا والمقول وكذبوا المقول ، ولهذا قالوا : (وما يهلكنا إلا الدهر) ، قال تعالى : (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) ، أي : يوهمون ويتخيلون :

فأما الحديث الذي أخرجه صاحبنا التصحيح ، وأبو داود ، والنسائي ، من رواية سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يقول الله

تعالى : يُوَفِّيهِ ابن آدم ؛ يسبب الدهر وأنا الدهر ، يئس الأمر ، ألقب له ونهاره (١) - وفي رواية : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر (٢) .

وقد أورد ابن جرير بسياق غريب جلدًا فقال : حدثنا أبو كريب ، حدثنا سفيان بن حيينة ، عن الزهري ، عن سعيد ابن المسيب ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان أهل الجاهلية يقولون : إغما جيلكنا الليل والنهار ، وهو الذي جيلكنا ، عيتنا وعيتنا ، فقال الله في كتابه : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما جيلكنا إلا الدهر) ، قال (٣) » ويسبون الدهر فقال الله عز وجل : يُوَفِّيهِ ابن آدم ، يسبب الدهر وأنا الدهر ، يئس الأمر ألقب الليل والنهار (٤) » .

وكذا رواه ابن أبي حاتم ، عن أحمد بن منصور ، عن شريح بن النعمان ، عن ابن حيينة ، مثله : ثم روى عن يونس ، عن ابن وهب ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : يسبب ابن آدم للدهر وأنا الدهر ، يئس الليل والنهار »

وأخرجه صاحبها الصحيح والنسائي ، من حديث يونس بن زيد ، به .

وقال محمد بن إسحاق ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله (٥) » : استقرضت جدي فلم يعطني ، وسئني جدي ، يقول : وادهره : وأنا الدهر (٤) . قال الشافعي وأبو حنيفة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله - عليه الصلاة والسلام - : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة ، قالوا : يائسية الدهر ؛ فيستنون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإغما فاعلها هو الله ، فكأنهم إغما سبوا الله عز وجل ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ؛ فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاختيار ، لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويستنون إليه تلك الأفعال .

هذا أحسن ما قيل في تفسيره ، وهو المراد ، والله أعلم ؛ وقد حكى ابن حزم ومن نحوه من الظاهرية في حذم الدهر من الأسماء الحسنى ، أملاً من هذا الحديث !

وقوله تعالى : (وإذا تولى عليهم آياتنا عليهم ينات) ، أي : إذا استدل عليهم وبُيِّن لهم الحق ، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فناءها وفقرها ، (ما كان حجتهم إلا أن قالوا : اتوا بآياتنا إن كنتم صادقين) ، أي : أحبرهم إن كان ما تقولونه حقاً ؛ قال الله تعالى : (قل الله يحكمكم) ، أي : كما تشاهدون ذلك ، يخرجكم من العدم إلى الوجود ، (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فلنحييكم ثم يميتكم ثم يحْيِيكم) (٥) ، أي : الذي قدر على الإعادة بطريق الأولي والأخرى (وهو

(١) البخاري ، تفسير سورة الباقية : ١٦٦/٦ . وكتاب التوسيد : ١٧٥/٩ . ومسلم ، كتاب الألفاظ من الأدب : باب « أتى من سب الدهر » : ٤٥/٧ . وسنن أبي حاتم ، كتاب الأدب : باب « في الرجل يسب الدهر » : ٢٧٤/٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد عن أبي قتادة : ٢٩٩/٥ و ٣١١ .

(٣) ما بين القوسين عن تفسير الطبري .

(٤) تفسير الطبري : ٩٢/٢٥ .

(٥) سورة البقرة : آية ٢٨ .

الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو آمن عليه (١) ، (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) ، أى : إنما يجمعكم يوم القيامة لا يبعدكم في الدنيا حتى تقولوا : (اتوا بأبائنا إن كنتم صادقين) (يوم يجمعكم ليوم الجمع) (٢) ، (لأى يوم أجمع لكم اليوم الفصل (٣)) ، (وما نزعهم إلا لأجل معدود (٤)) . وقال هاهنا : (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) ، أى : لا شك فيه ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ، أى : فلهذا ينكرون للمعاد ، ويستبعدون قيام الأجساد . قال الله تعالى : (إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريباً (٥)) ، أى : يرون وقعره بعيدا ، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُحْسِرُ ٱلْمَبْطُلُونَ ﴿٦﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَآئِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَآكُتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا عَلَيْكُمْ فَٱلْحَقُّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، الحاكم فيها في الدنيا والآخرة . ولهذا قال : (ويوم تقوم الساعة) ، أى : يوم القيامة (يحسر المبطلون) ، وهم الكافرون بالله الجاحلون ما أنزله على رسله من الآيات والبيانات والدلائل الواضحات .

وقال ابن أبي حاتم : قدم سفيان الثوري للبيضة ، فسمع المصنف يرى يتكلم ببعض ما يضحك به الناس فقال له : يا شيخ ، أما علمت أن شيوماً يحسر فيه المبطلون ؟ قال : فما زالت تعرف في المصنف حتى خلق بالله عز وجل . ذكره ابن أبي حاتم .

ثم قال : (وترى كل أمة جاثية) ، أى : على ركبها من الشدة والعظمة ، ويقال : إن هذا إذا جىء بهجم فلما تفر فرقة لا يبقى أحد إلا جاثاً لركبته ، حتى لإبراهيم الخليل ، ويقول : نفس ، نفس ، نفس ، لأسالك اليوم إلا نفسى . وحتى إن همى ليقول : لأسالك اليوم إلا نفسى ، لأسالك مريم التى ولدتنى .

قال مجاهد ، وكعب الأحبار ، والحسن البصرى : (كل أمة جاثية) ، أى : على الركب (٦) .

وقال صكرمة : جاثية متميزة على ناحيتها ، وليس على الركب . والأول أولى .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو ، عن عبد الله بن باباه : أن رسول الله قال : (كفى أراكم جاثين بالكؤم (٧) دون جهنم) .

وقال إسحاق بن رافع المني ، عن محمد بن كعب (٨) ، عن أبي هريرة — رضى الله عنه — مرفوعاً في حديث الصورة : فيتميز الناس ، ويحشو الأمم ، وهى التى يقول الله : (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها)

(١) سورة الروم : آية ٢٧ .

(٢) سورة التين : آية ٩ .

(٣) سورة المرات : آية ١٢ - ١٣ .

(٤) سورة هود : آية ١٠٤ .

(٥) سورة الماعج : آية ٦ - ٧ .

(٦) تفسير الطبرى : ٢٥ / ٩٣ .

(٧) أى : للرواح القاتلة .

(٨) كلما في المخطوطة . وقد تقدم في سورة الأنعام ٢٧٦ / ٢ : « من إسحاق بن رافع » من هذه بن زيادة . من هذه بن كعب . وفى أول سورة الحج ٢٨٤ / ١ رواه الطبرى من حديث إسحاق بن رافع . من يزيد بن أبي زياد . من ربيع بن الأنصاء . من محمد بن كعب .

وهذا فيه جمع بين القولين ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقوله : (كل أمة تدعى إلى كتابها) ، ينسب كتاب أعمالها . كقوله : (ووضع الكتاب وجهه بالتيبين والشهاده (١)) ، ولهذا قال : (اليوم تجزون ما كنتم تعملون) أى : تجازون بأعمالكم خيرها وشرها ، كقوله تعالى : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره (٢) .

ثم قال : (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) ، أى : يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص ، كقوله تعالى : (ووضع الكتاب ، فرى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ، يا ويلتنا . ما هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا (٣))

وقوله : (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ، أى : إنا كنا نأمر المحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم :

قال ابن عباس وغيره : تكتب الملائكة أعمال العباد ، ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقالون للملائكة الذين في ديوان الأعمال هل ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر ، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم ، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا : ثم قرأ : (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) .

هَٰذَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قَدْ خَلَّيْنَاهُمْ رِجْلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٦٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ أَفَلَمْ تَكُنْ لَهُتِيبًا يُنْزِلُ عَلَيْهِمْ قُلُوبًا مَّحْمُومِينَ ﴿٧٠﴾ وَكَذَّبُوا مَا نُوحِيهِمْ وَكَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذَا حُجِرَ بِكَ وَالْعَسَاةُ أَلَّا يَبَينَ ۖ قُلْ مَن ذَرَأَهُنَّ إِنِّي لَمَ أَعْلَمُ بِمَا لَهَا ۖ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الْأَوْثَانَ ۖ فَتُفَظَّنُّ ۖ لَآ أَعْلَمُ ۖ وَمَا تُغْنِ عَنْهُمْ سِفَاتُ مَا يَعْمَلُونَ ۖ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧٢﴾ وَفِیَ الْیَوْمِ نَنسِفُ كَمَا نَسِیمُ لِقَاءَ یَوْمِكُمْ هَٰذَا ۖ وَمَا وَكَّرُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ تَلْعِینٍ ﴿٧٣﴾ ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ أَبَیْنَتْ إِلَٰهُهُنَّ هَٰذَا ۖ وَغَرَّتْكُمُ الْحَیْوةُ الدُّنْیَا ۖ فَالْیَوْمَ لَا یُخْرِجُونَ مِنْهَا وَهُمْ لَا یَسْتَعِیْبُونَ ﴿٧٤﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَهُ الْكِبَرِیَاءُ فِی السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِیزُ الْحَكِيمُ ﴿٧٦﴾

غير تعالى من حكمه في خلقه يوم القيامة ، فقال : (هَٰذَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ، أى : آمنت قلوبهم وعلت جوارحهم الأعمال الصالحات ، وهى الخالصة للرافقة للشرح . (يدخلهم بهم في رحمة) ، وهى الجنة . كما ثبت في الصحيح أن الله قال للجنة : ه أنت وحنى ، أرحم بك من أمي (٤)

(١) سورة الزمر : آية : ٦٩ .

(٢) سورة التوبة : الآيات : ١٣ - ١٥ .

(٣) سورة الكهف : آية : ٤٩ .

(٤) البهائى ، تفسير سورة ه : ١٧٣/٦ .

(ذلك هو الفوز المبين) ، أى : البين الواضح .

ثم قال : (وأما الذين كفروا : أفلم تكن آياتي التي عليكم فاستكبرتم ؟) ، أى : يقال لهم ذلك تزيها وتوبيخا : أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها ، وأعرضتم عند سماعها ، (وكنتم قوما مجرمين) ، أى : فى أفعالكم ، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب ؟

(وإذا قيل : إن وعد الله والنفس الساعاة لأريب فيها) ، أى : إذا قال لكم المؤمنون ذلك ، (قائم : ما ندري ما الساعاة ؟) : أى : لا نعرفها ، (إن نفلن إلا ظنا) ، أى : إن توهم وقوعها إلا توهمنا ، أى مرجوحا : ولهذا قال : (وما نحن بمستقيين) ، أى : بمحققين ، قال الله تعالى : (وبما لهم سينات ما عملوا) أى : وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ، (وحاق بهم) ، أى : أسخط بهم (ما كانوا به يستهزئون) ، أى : من العذاب والهلاك ، (وقيل : اليوم تناسكم) ، أى : تعاملكم معاملة الناس لكم فى نار جهنم ، (كما نسيتم لقاء يومكم هذا) ، أى : فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ، (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) .

وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : « ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأزورك ترأس وترتب » ؟ يقول : بلى ، يارب : فيقول : أفظننت أنك سلاحي ؟ فيقول : لا : فيقول الله تعالى : فاليرم أسالك كما تسبى » (٢) .

قال الله تعالى : (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) ، أى : إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجاج الله عليكم سخرى ، تسخرون وتستهزئون بها ، (وغر تكلم الحياة الدنيا) ، أى : خدعتكم فاطمأنتم إليها ، فأصبحت من الخاسرين . ولهذا قال : (فاليرم لأخرجون منها) ، أى : من النار (ولاهم يستحيون) ، أى : لا يطلب منهم العشى ، بل يطلبون بغير حساب ولا عتاب ، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عتاب ولا حساب .

لم لا ذكر حكمه فى المؤمنين والكافرين قال : (فله الحمد رب السموات ورب الأرض) ، أى : المالك لها وما فيها ، ولهذا قال : (رب العالمين) .

لم قال : (وله الكبرياء فى السموات والأرض) — قال مجاهد : بنى السلطان : أى : هو العظيم للمجد ، الذى كل شيء خاضع لغيره إليه . وقد ورد فى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : العظمة إزارى ، والكبرياء دثارى ، فمن نازعنى واحدا منها أسكتته نارى » . ورواه مسلم (٣) من حديث الأعمش ، عن ابن إسحاق ، عن الأغر أن مسلما ، عن ابن هريرة وثبى سعيد — رضى الله عنهما — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بنحوه .

وقوله (وهو العزيز) ، أى : الذى لا يخالف ولا يتابع ، (الحكيم) فى أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس ، لأنه لا هو .

آخر تفسير سورة الجاثية

- (١) ترأس : تكون رئيسا . وتربع : تأخذ ربع القيمة ، أى : ألم أجعلك رئيسا عظيما ؟
- (٢) تقدم الحديث فى سورة الأعراف ، عند تفسير الآية ٥١ منها ، وخرجناه هناك . انظر ٤٢٠/٢ .
- (٣) مسلم ، كتاب البير ، باب « نحر الكبر » : ٣٥/٨ - ٣٦ . وانظر مستند الإمام أحمد : ٢٤٨/٢ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ ، ١٩/٦ . وسنن أبي داود : كتاب البير ، باب « ما جاء فى الكبر » ، الحديث ٤٠٩٥ ، ٤٠٩٦ ، ٤٠٩٧ ، ٤٠٩٨ ، ٤٠٩٩ ، ٤١٠٠ ، ٤١٠١ ، ٤١٠٢ ، ٤١٠٣ ، ٤١٠٤ ، ٤١٠٥ ، ٤١٠٦ ، ٤١٠٧ ، ٤١٠٨ ، ٤١٠٩ ، ٤١١٠ ، ٤١١١ ، ٤١١٢ ، ٤١١٣ ، ٤١١٤ ، ٤١١٥ ، ٤١١٦ ، ٤١١٧ ، ٤١١٨ ، ٤١١٩ ، ٤١٢٠ ، ٤١٢١ ، ٤١٢٢ ، ٤١٢٣ ، ٤١٢٤ ، ٤١٢٥ ، ٤١٢٦ ، ٤١٢٧ ، ٤١٢٨ ، ٤١٢٩ ، ٤١٣٠ ، ٤١٣١ ، ٤١٣٢ ، ٤١٣٣ ، ٤١٣٤ ، ٤١٣٥ ، ٤١٣٦ ، ٤١٣٧ ، ٤١٣٨ ، ٤١٣٩ ، ٤١٤٠ ، ٤١٤١ ، ٤١٤٢ ، ٤١٤٣ ، ٤١٤٤ ، ٤١٤٥ ، ٤١٤٦ ، ٤١٤٧ ، ٤١٤٨ ، ٤١٤٩ ، ٤١٥٠ ، ٤١٥١ ، ٤١٥٢ ، ٤١٥٣ ، ٤١٥٤ ، ٤١٥٥ ، ٤١٥٦ ، ٤١٥٧ ، ٤١٥٨ ، ٤١٥٩ ، ٤١٦٠ ، ٤١٦١ ، ٤١٦٢ ، ٤١٦٣ ، ٤١٦٤ ، ٤١٦٥ ، ٤١٦٦ ، ٤١٦٧ ، ٤١٦٨ ، ٤١٦٩ ، ٤١٧٠ ، ٤١٧١ ، ٤١٧٢ ، ٤١٧٣ ، ٤١٧٤ ، ٤١٧٥ ، ٤١٧٦ ، ٤١٧٧ ، ٤١٧٨ ، ٤١٧٩ ، ٤١٨٠ ، ٤١٨١ ، ٤١٨٢ ، ٤١٨٣ ، ٤١٨٤ ، ٤١٨٥ ، ٤١٨٦ ، ٤١٨٧ ، ٤١٨٨ ، ٤١٨٩ ، ٤١٩٠ ، ٤١٩١ ، ٤١٩٢ ، ٤١٩٣ ، ٤١٩٤ ، ٤١٩٥ ، ٤١٩٦ ، ٤١٩٧ ، ٤١٩٨ ، ٤١٩٩ ، ٤٢٠٠ ، ٤٢٠١ ، ٤٢٠٢ ، ٤٢٠٣ ، ٤٢٠٤ ، ٤٢٠٥ ، ٤٢٠٦ ، ٤٢٠٧ ، ٤٢٠٨ ، ٤٢٠٩ ، ٤٢١٠ ، ٤٢١١ ، ٤٢١٢ ، ٤٢١٣ ، ٤٢١٤ ، ٤٢١٥ ، ٤٢١٦ ، ٤٢١٧ ، ٤٢١٨ ، ٤٢١٩ ، ٤٢٢٠ ، ٤٢٢١ ، ٤٢٢٢ ، ٤٢٢٣ ، ٤٢٢٤ ، ٤٢٢٥ ، ٤٢٢٦ ، ٤٢٢٧ ، ٤٢٢٨ ، ٤٢٢٩ ، ٤٢٣٠ ، ٤٢٣١ ، ٤٢٣٢ ، ٤٢٣٣ ، ٤٢٣٤ ، ٤٢٣٥ ، ٤٢٣٦ ، ٤٢٣٧ ، ٤٢٣٨ ، ٤٢٣٩ ، ٤٢٤٠ ، ٤٢٤١ ، ٤٢٤٢ ، ٤٢٤٣ ، ٤٢٤٤ ، ٤٢٤٥ ، ٤٢٤٦ ، ٤٢٤٧ ، ٤٢٤٨ ، ٤٢٤٩ ، ٤٢٥٠ ، ٤٢٥١ ، ٤٢٥٢ ، ٤٢٥٣ ، ٤٢٥٤ ، ٤٢٥٥ ، ٤٢٥٦ ، ٤٢٥٧ ، ٤٢٥٨ ، ٤٢٥٩ ، ٤٢٦٠ ، ٤٢٦١ ، ٤٢٦٢ ، ٤٢٦٣ ، ٤٢٦٤ ، ٤٢٦٥ ، ٤٢٦٦ ، ٤٢٦٧ ، ٤٢٦٨ ، ٤٢٦٩ ، ٤٢٧٠ ، ٤٢٧١ ، ٤٢٧٢ ، ٤٢٧٣ ، ٤٢٧٤ ، ٤٢٧٥ ، ٤٢٧٦ ، ٤٢٧٧ ، ٤٢٧٨ ، ٤٢٧٩ ، ٤٢٨٠ ، ٤٢٨١ ، ٤٢٨٢ ، ٤٢٨٣ ، ٤٢٨٤ ، ٤٢٨٥ ، ٤٢٨٦ ، ٤٢٨٧ ، ٤٢٨٨ ، ٤٢٨٩ ، ٤٢٩٠ ، ٤٢٩١ ، ٤٢٩٢ ، ٤٢٩٣ ، ٤٢٩٤ ، ٤٢٩٥ ، ٤٢٩٦ ، ٤٢٩٧ ، ٤٢٩٨ ، ٤٢٩٩ ، ٤٣٠٠ ، ٤٣٠١ ، ٤٣٠٢ ، ٤٣٠٣ ، ٤٣٠٤ ، ٤٣٠٥ ، ٤٣٠٦ ، ٤٣٠٧ ، ٤٣٠٨ ، ٤٣٠٩ ، ٤٣١٠ ، ٤٣١١ ، ٤٣١٢ ، ٤٣١٣ ، ٤٣١٤ ، ٤٣١٥ ، ٤٣١٦ ، ٤٣١٧ ، ٤٣١٨ ، ٤٣١٩ ، ٤٣٢٠ ، ٤٣٢١ ، ٤٣٢٢ ، ٤٣٢٣ ، ٤٣٢٤ ، ٤٣٢٥ ، ٤٣٢٦ ، ٤٣٢٧ ، ٤٣٢٨ ، ٤٣٢٩ ، ٤٣٣٠ ، ٤٣٣١ ، ٤٣٣٢ ، ٤٣٣٣ ، ٤٣٣٤ ، ٤٣٣٥ ، ٤٣٣٦ ، ٤٣٣٧ ، ٤٣٣٨ ، ٤٣٣٩ ، ٤٣٤٠ ، ٤٣٤١ ، ٤٣٤٢ ، ٤٣٤٣ ، ٤٣٤٤ ، ٤٣٤٥ ، ٤٣٤٦ ، ٤٣٤٧ ، ٤٣٤٨ ، ٤٣٤٩ ، ٤٣٥٠ ، ٤٣٥١ ، ٤٣٥٢ ، ٤٣٥٣ ، ٤٣٥٤ ، ٤٣٥٥ ، ٤٣٥٦ ، ٤٣٥٧ ، ٤٣٥٨ ، ٤٣٥٩ ، ٤٣٦٠ ، ٤٣٦١ ، ٤٣٦٢ ، ٤٣٦٣ ، ٤٣٦٤ ، ٤٣٦٥ ، ٤٣٦٦ ، ٤٣٦٧ ، ٤٣٦٨ ، ٤٣٦٩ ، ٤٣٧٠ ، ٤٣٧١ ، ٤٣٧٢ ، ٤٣٧٣ ، ٤٣٧٤ ، ٤٣٧٥ ، ٤٣٧٦ ، ٤٣٧٧ ، ٤٣٧٨ ، ٤٣٧٩ ، ٤٣٨٠ ، ٤٣٨١ ، ٤٣٨٢ ، ٤٣٨٣ ، ٤٣٨٤ ، ٤٣٨٥ ، ٤٣٨٦ ، ٤٣٨٧ ، ٤٣٨٨ ، ٤٣٨٩ ، ٤٣٩٠ ، ٤٣٩١ ، ٤٣٩٢ ، ٤٣٩٣ ، ٤٣٩٤ ، ٤٣٩٥ ، ٤٣٩٦ ، ٤٣٩٧ ، ٤٣٩٨ ، ٤٣٩٩ ، ٤٤٠٠ ، ٤٤٠١ ، ٤٤٠٢ ، ٤٤٠٣ ، ٤٤٠٤ ، ٤٤٠٥ ، ٤٤٠٦ ، ٤٤٠٧ ، ٤٤٠٨ ، ٤٤٠٩ ، ٤٤١٠ ، ٤٤١١ ، ٤٤١٢ ، ٤٤١٣ ، ٤٤١٤ ، ٤٤١٥ ، ٤٤١٦ ، ٤٤١٧ ، ٤٤١٨ ، ٤٤١٩ ، ٤٤٢٠ ، ٤٤٢١ ، ٤٤٢٢ ، ٤٤٢٣ ، ٤٤٢٤ ، ٤٤٢٥ ، ٤٤٢٦ ، ٤٤٢٧ ، ٤٤٢٨ ، ٤٤٢٩ ، ٤٤٣٠ ، ٤٤٣١ ، ٤٤٣٢ ، ٤٤٣٣ ، ٤٤٣٤ ، ٤٤٣٥ ، ٤٤٣٦ ، ٤٤٣٧ ، ٤٤٣٨ ، ٤٤٣٩ ، ٤٤٤٠ ، ٤٤٤١ ، ٤٤٤٢ ، ٤٤٤٣ ، ٤٤٤٤ ، ٤٤٤٥ ، ٤٤٤٦ ، ٤٤٤٧ ، ٤٤٤٨ ، ٤٤٤٩ ، ٤٤٥٠ ، ٤٤٥١ ، ٤٤٥٢ ، ٤٤٥٣ ، ٤٤٥٤ ، ٤٤٥٥ ، ٤٤٥٦ ، ٤٤٥٧ ، ٤٤٥٨ ، ٤٤٥٩ ، ٤٤٦٠ ، ٤٤٦١ ، ٤٤٦٢ ، ٤٤٦٣ ، ٤٤٦٤ ، ٤٤٦٥ ، ٤٤٦٦ ، ٤٤٦٧ ، ٤٤٦٨ ، ٤٤٦٩ ، ٤٤٧٠ ، ٤٤٧١ ، ٤٤٧٢ ، ٤٤٧٣ ، ٤٤٧٤ ، ٤٤٧٥ ، ٤٤٧٦ ، ٤٤٧٧ ، ٤٤٧٨ ، ٤٤٧٩ ، ٤٤٨٠ ، ٤٤٨١ ، ٤٤٨٢ ، ٤٤٨٣ ، ٤٤٨٤ ، ٤٤٨٥ ، ٤٤٨٦ ، ٤٤٨٧ ، ٤٤٨٨ ، ٤٤٨٩ ، ٤٤٩٠ ، ٤٤٩١ ، ٤٤٩٢ ، ٤٤٩٣ ، ٤٤٩٤ ، ٤٤٩٥ ، ٤٤٩٦ ، ٤٤٩٧ ، ٤٤٩٨ ، ٤٤٩٩ ، ٤٥٠٠ ، ٤٥٠١ ، ٤٥٠٢ ، ٤٥٠٣ ، ٤٥٠٤ ، ٤٥٠٥ ، ٤٥٠٦ ، ٤٥٠٧ ، ٤٥٠٨ ، ٤٥٠٩ ، ٤٥١٠ ، ٤٥١١ ، ٤٥١٢ ، ٤٥١٣ ، ٤٥١٤ ، ٤٥١٥ ، ٤٥١٦ ، ٤٥١٧ ، ٤٥١٨ ، ٤٥١٩ ، ٤٥٢٠ ، ٤٥٢١ ، ٤٥٢٢ ، ٤٥٢٣ ، ٤٥٢٤ ، ٤٥٢٥ ، ٤٥٢٦ ، ٤٥٢٧ ، ٤٥٢٨ ، ٤٥٢٩ ، ٤٥٣٠ ، ٤٥٣١ ، ٤٥٣٢ ، ٤٥٣٣ ، ٤٥٣٤ ، ٤٥٣٥ ، ٤٥٣٦ ، ٤٥٣٧ ، ٤٥٣٨ ، ٤٥٣٩ ، ٤٥٤٠ ، ٤٥٤١ ، ٤٥٤٢ ، ٤٥٤٣ ، ٤٥٤٤ ، ٤٥٤٥ ، ٤٥٤٦ ، ٤٥٤٧ ، ٤٥٤٨ ، ٤٥٤٩ ، ٤٥٥٠ ، ٤٥٥١ ، ٤٥٥٢ ، ٤٥٥٣ ، ٤٥٥٤ ، ٤٥٥٥ ، ٤٥٥٦ ، ٤٥٥٧ ، ٤٥٥٨ ، ٤٥٥٩ ، ٤٥٦٠ ، ٤٥٦١ ، ٤٥٦٢ ، ٤٥٦٣ ، ٤٥٦٤ ، ٤٥٦٥ ، ٤٥٦٦ ، ٤٥٦٧ ، ٤٥٦٨ ، ٤٥٦٩ ، ٤٥٧٠ ، ٤٥٧١ ، ٤٥٧٢ ، ٤٥٧٣ ، ٤٥٧٤ ، ٤٥٧٥ ، ٤٥٧٦ ، ٤٥٧٧ ، ٤٥٧٨ ، ٤٥٧٩ ، ٤٥٨٠ ، ٤٥٨١ ، ٤٥٨٢ ، ٤٥٨٣ ، ٤٥٨٤ ، ٤٥٨٥ ، ٤٥٨٦ ، ٤٥٨٧ ، ٤٥٨٨ ، ٤٥٨٩ ، ٤٥٩٠ ، ٤٥٩١ ، ٤٥٩٢ ، ٤٥٩٣ ، ٤٥٩٤ ، ٤٥٩٥ ، ٤٥٩٦ ، ٤٥٩٧ ، ٤٥٩٨ ، ٤٥٩٩ ، ٤٦٠٠ ، ٤٦٠١ ، ٤٦٠٢ ، ٤٦٠٣ ، ٤٦٠٤ ، ٤٦٠٥ ، ٤٦٠٦ ، ٤٦٠٧ ، ٤٦٠٨ ، ٤٦٠٩ ، ٤٦١٠ ، ٤٦١١ ، ٤٦١٢ ، ٤٦١٣ ، ٤٦١٤ ، ٤٦١٥ ، ٤٦١٦ ، ٤٦١٧ ، ٤٦١٨ ، ٤٦١٩ ، ٤٦٢٠ ، ٤٦٢١ ، ٤٦٢٢ ، ٤٦٢٣ ، ٤٦٢٤ ، ٤٦٢٥ ، ٤٦٢٦ ، ٤٦٢٧ ، ٤٦٢٨ ، ٤٦٢٩ ، ٤٦٣٠ ، ٤٦٣١ ، ٤٦٣٢ ، ٤٦٣٣ ، ٤٦٣٤ ، ٤٦٣٥ ، ٤٦٣٦ ، ٤٦٣٧ ، ٤٦٣٨ ، ٤٦٣٩ ، ٤٦٤٠ ، ٤٦٤١ ، ٤٦٤٢ ، ٤٦٤٣ ، ٤٦٤٤ ، ٤٦٤٥ ، ٤٦٤٦ ، ٤٦٤٧ ، ٤٦٤٨ ، ٤٦٤٩ ، ٤٦٥٠ ، ٤٦٥١ ، ٤٦٥٢ ، ٤٦٥٣ ، ٤٦٥٤ ، ٤٦٥٥ ، ٤٦٥٦ ، ٤٦٥٧ ، ٤٦٥٨ ، ٤٦٥٩ ، ٤٦٦٠ ، ٤٦٦١ ، ٤٦٦٢ ، ٤٦٦٣ ، ٤٦٦٤ ، ٤٦٦٥ ، ٤٦٦٦ ، ٤٦٦٧ ، ٤٦٦٨ ، ٤٦٦٩ ، ٤٦٧٠ ، ٤٦٧١ ، ٤٦٧٢ ، ٤٦٧٣ ، ٤٦٧٤ ، ٤٦٧٥ ، ٤٦٧٦ ، ٤٦٧٧ ، ٤٦٧٨ ، ٤٦٧٩ ، ٤٦٨٠ ، ٤٦٨١ ، ٤٦٨٢ ، ٤٦٨٣ ، ٤٦٨٤ ، ٤٦٨٥ ، ٤٦٨٦ ، ٤٦٨٧ ، ٤٦٨٨ ، ٤٦٨٩ ، ٤٦٩٠ ، ٤٦٩١ ، ٤٦٩٢ ، ٤٦٩٣ ، ٤٦٩٤ ، ٤٦٩٥ ، ٤٦٩٦ ، ٤٦٩٧ ، ٤٦٩٨ ، ٤٦٩٩ ، ٤٧٠٠ ، ٤٧٠١ ، ٤٧٠٢ ، ٤٧٠٣ ، ٤٧٠٤ ، ٤٧٠٥ ، ٤٧٠٦ ، ٤٧٠٧ ، ٤٧٠٨ ، ٤٧٠٩ ، ٤٧١٠ ، ٤٧١١ ، ٤٧١٢ ، ٤٧١٣ ، ٤٧١٤ ، ٤٧١٥ ، ٤٧١٦ ، ٤٧١٧ ، ٤٧١٨ ، ٤٧١٩ ، ٤٧٢٠ ، ٤٧٢١ ، ٤٧٢٢ ، ٤٧٢٣ ، ٤٧٢٤ ، ٤٧٢٥ ، ٤٧٢٦ ، ٤٧٢٧ ، ٤٧٢٨ ، ٤٧٢٩ ، ٤٧٣٠ ، ٤٧٣١ ، ٤٧٣٢ ، ٤٧٣٣ ، ٤٧٣٤ ، ٤٧٣٥ ، ٤٧٣٦ ، ٤٧٣٧ ، ٤٧٣٨ ، ٤٧٣٩ ، ٤٧٤٠ ، ٤٧٤١ ، ٤٧٤٢ ، ٤٧٤٣ ، ٤٧٤٤ ، ٤٧٤٥ ، ٤٧٤٦ ، ٤٧٤٧ ، ٤٧٤٨ ، ٤٧٤٩ ، ٤٧٥٠ ، ٤٧٥١ ، ٤٧٥٢ ، ٤٧٥٣ ، ٤٧٥٤ ، ٤٧٥٥ ، ٤٧٥٦ ، ٤٧٥٧ ، ٤٧٥٨ ، ٤٧٥٩ ، ٤٧٦٠ ، ٤٧٦١ ، ٤٧٦٢ ، ٤٧٦٣ ، ٤٧٦٤ ، ٤٧٦٥ ، ٤٧٦٦ ، ٤٧٦٧ ، ٤٧٦٨ ، ٤٧٦٩ ، ٤٧٧٠ ، ٤٧٧١ ، ٤٧٧٢ ، ٤٧٧٣ ، ٤٧٧٤ ، ٤٧٧٥ ، ٤٧٧٦ ، ٤٧٧٧ ، ٤٧٧٨ ، ٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠ ، ٤٧٨١ ، ٤٧٨٢ ، ٤٧٨٣ ، ٤٧٨٤ ، ٤٧٨٥ ، ٤٧٨٦ ، ٤٧٨٧ ، ٤٧٨٨ ، ٤٧٨٩ ، ٤٧٩٠ ، ٤٧٩١ ، ٤٧٩٢ ، ٤٧٩٣ ، ٤٧٩٤ ، ٤٧٩٥ ، ٤٧٩٦ ، ٤٧٩٧ ، ٤٧٩٨ ، ٤٧٩٩ ، ٤٨٠٠ ، ٤٨٠١ ، ٤٨٠٢ ، ٤٨٠٣ ، ٤٨٠٤ ، ٤٨٠٥ ، ٤٨٠٦ ، ٤٨٠٧ ، ٤٨٠٨ ، ٤٨٠٩ ، ٤٨١٠ ، ٤٨١١ ، ٤٨١٢ ، ٤٨١٣ ، ٤٨١٤ ، ٤٨١٥ ، ٤٨١٦ ، ٤٨١٧ ، ٤٨١٨ ، ٤٨١٩ ، ٤٨٢٠ ، ٤٨٢١ ، ٤٨٢٢ ، ٤٨٢٣ ، ٤٨٢٤ ، ٤٨٢٥ ، ٤٨٢٦ ، ٤٨٢٧ ، ٤٨٢٨ ، ٤٨٢٩ ، ٤٨٣٠ ، ٤٨٣١ ، ٤٨٣٢ ، ٤٨٣٣ ، ٤٨٣٤ ، ٤٨٣٥ ، ٤٨٣٦ ، ٤٨٣٧ ، ٤٨٣٨ ، ٤٨٣٩ ، ٤٨٤٠ ، ٤٨٤١ ، ٤٨٤٢ ، ٤٨٤٣ ، ٤٨٤٤ ، ٤٨٤٥ ، ٤٨٤٦ ، ٤٨٤٧ ، ٤٨٤٨ ، ٤٨٤٩ ، ٤٨٥٠ ، ٤٨٥١ ، ٤٨٥٢ ، ٤٨٥٣ ، ٤٨٥٤ ، ٤٨٥٥ ، ٤٨٥٦ ، ٤٨٥٧ ، ٤٨٥٨ ، ٤٨٥٩ ، ٤٨٦٠ ، ٤٨٦١ ، ٤٨٦٢ ، ٤٨٦٣ ، ٤٨٦٤ ، ٤٨٦٥ ، ٤٨٦٦ ، ٤٨٦٧ ، ٤٨٦٨ ، ٤٨٦٩ ، ٤٨٧٠ ، ٤٨٧١ ، ٤٨٧٢ ، ٤٨٧٣ ، ٤٨٧٤ ، ٤٨٧٥ ، ٤٨٧٦ ، ٤٨٧٧ ، ٤٨٧٨ ، ٤٨٧٩ ، ٤٨٨٠ ، ٤٨٨١ ، ٤٨٨٢ ، ٤٨٨٣ ، ٤٨٨٤ ، ٤٨٨٥ ، ٤٨٨٦ ، ٤٨٨٧ ، ٤٨٨٨ ، ٤٨٨٩ ، ٤٨٩٠ ، ٤٨٩١ ، ٤٨٩٢ ، ٤٨٩٣ ، ٤٨٩٤ ، ٤٨٩٥ ، ٤٨٩٦ ، ٤٨٩٧ ، ٤٨٩٨ ، ٤٨٩٩ ، ٤٩٠٠ ، ٤٩٠١ ، ٤٩٠٢ ، ٤٩٠٣ ، ٤٩٠٤ ، ٤٩٠٥ ، ٤٩٠٦ ، ٤٩٠٧ ، ٤٩٠٨ ، ٤٩٠٩ ، ٤٩١٠ ، ٤٩١١ ، ٤٩١٢ ، ٤٩١٣ ، ٤٩١٤ ، ٤٩١٥ ، ٤٩١٦ ، ٤٩١٧ ، ٤٩١٨ ، ٤٩١٩ ، ٤٩٢٠ ، ٤٩٢١ ، ٤٩٢٢ ، ٤٩٢٣ ، ٤٩٢٤ ، ٤٩٢٥ ، ٤٩٢٦ ، ٤٩٢٧ ، ٤٩٢٨ ، ٤٩٢٩ ، ٤٩٣٠ ، ٤٩٣١ ، ٤٩٣٢ ، ٤٩٣٣ ، ٤٩٣٤ ، ٤٩٣٥ ، ٤٩٣٦ ، ٤٩٣٧ ، ٤٩٣٨ ، ٤٩٣٩ ، ٤٩٤٠ ، ٤٩٤١ ، ٤٩٤٢ ، ٤٩٤٣ ، ٤٩٤٤ ، ٤٩٤٥ ، ٤٩٤٦ ، ٤٩٤٧ ، ٤٩٤٨ ، ٤٩٤٩ ، ٤٩٥٠ ، ٤٩٥١ ، ٤٩٥٢ ، ٤٩٥٣ ، ٤٩٥٤ ، ٤٩٥٥ ، ٤٩٥٦ ، ٤٩٥٧ ، ٤٩٥٨ ، ٤٩٥٩ ، ٤٩٦٠ ، ٤٩٦١ ، ٤٩٦٢ ، ٤٩٦٣ ، ٤٩٦٤ ، ٤٩٦٥ ، ٤٩٦٦ ، ٤٩٦٧ ، ٤٩٦٨ ، ٤٩٦٩ ، ٤٩٧٠ ، ٤٩٧١ ، ٤٩٧٢ ، ٤٩٧٣ ، ٤٩٧٤ ، ٤٩٧٥ ، ٤٩٧٦ ، ٤٩٧٧ ، ٤٩٧٨ ، ٤٩٧٩ ، ٤٩٨٠ ، ٤٩٨١ ، ٤٩٨٢ ، ٤٩٨٣ ، ٤٩٨٤ ، ٤٩٨٥ ، ٤٩٨٦ ، ٤٩٨٧ ، ٤٩٨٨ ، ٤٩٨٩ ، ٤٩٩٠ ، ٤٩٩١ ، ٤٩٩٢ ، ٤٩٩٣ ، ٤٩٩٤ ، ٤٩٩٥ ، ٤٩٩٦ ، ٤٩٩٧ ، ٤٩٩٨ ، ٤٩٩٩ ، ٥٠٠٠ ، ٥٠٠١ ، ٥٠٠٢ ، ٥٠٠٣ ، ٥٠٠٤ ، ٥٠٠٥ ، ٥٠٠٦ ، ٥٠٠٧ ، ٥٠٠٨ ، ٥٠٠٩ ، ٥٠١٠ ، ٥٠١١ ، ٥٠١٢ ، ٥٠١٣ ، ٥٠١٤ ، ٥٠١٥ ، ٥٠١٦ ، ٥٠١٧ ، ٥٠١٨ ، ٥٠١٩ ، ٥٠٢٠ ، ٥٠٢١ ، ٥٠٢٢ ، ٥٠٢٣ ، ٥٠٢٤ ، ٥٠٢٥ ، ٥٠٢٦ ، ٥٠٢٧ ، ٥٠٢٨ ، ٥٠٢٩ ، ٥٠٣٠ ، ٥٠٣١ ، ٥٠٣٢ ، ٥٠٣٣ ، ٥٠٣٤ ، ٥٠٣٥ ، ٥٠٣٦ ، ٥٠٣٧ ، ٥٠٣٨ ، ٥٠٣٩ ، ٥٠٤٠ ، ٥٠٤١ ، ٥٠٤٢ ، ٥٠٤٣ ، ٥٠٤٤ ، ٥٠٤٥ ، ٥٠٤٦ ، ٥٠٤٧ ، ٥٠٤٨ ، ٥٠٤٩ ، ٥٠٥٠ ، ٥٠٥١ ، ٥٠٥٢ ، ٥٠٥٣ ، ٥٠٥٤ ، ٥٠٥٥ ، ٥٠٥٦ ، ٥٠٥٧ ، ٥٠٥٨ ، ٥٠٥٩ ، ٥٠٦٠ ، ٥٠٦١ ، ٥٠٦٢ ، ٥٠٦٣ ، ٥٠٦٤ ، ٥٠٦٥ ، ٥٠٦٦ ، ٥٠٦٧ ، ٥٠٦٨ ، ٥٠٦٩ ، ٥٠٧٠ ، ٥٠٧١ ، ٥٠٧٢ ، ٥٠٧٣ ، ٥٠٧٤ ، ٥٠٧٥ ، ٥٠٧٦ ، ٥٠٧٧ ، ٥٠٧٨ ، ٥٠٧٩ ، ٥٠٨٠ ، ٥٠٨١ ، ٥٠٨٢ ، ٥٠٨٣ ، ٥٠٨٤ ، ٥٠٨٥ ، ٥٠٨٦ ، ٥٠٨٧ ، ٥٠٨٨ ، ٥٠٨٩ ، ٥٠٩٠ ، ٥٠٩١ ، ٥٠٩٢ ، ٥٠٩٣ ، ٥٠٩٤ ، ٥٠٩٥ ، ٥٠٩٦ ، ٥٠٩٧ ، ٥٠٩٨ ، ٥٠٩٩ ، ٥١٠٠ ، ٥١٠١ ، ٥١٠٢ ، ٥١٠٣ ، ٥١٠٤ ، ٥١٠٥ ، ٥١٠٦ ، ٥١٠٧ ، ٥١٠٨ ، ٥١٠٩ ، ٥١١٠ ، ٥١١١ ، ٥١١٢ ، ٥١١٣ ، ٥١١٤ ، ٥١١٥ ، ٥١١٦ ، ٥١١٧ ، ٥١١٨ ، ٥١١٩ ، ٥١٢٠ ، ٥١٢١ ، ٥١٢٢ ، ٥١٢٣ ، ٥١٢٤ ، ٥١٢٥ ، ٥١٢٦ ، ٥١٢٧ ، ٥١٢٨ ، ٥١٢٩ ، ٥١٣٠ ، ٥١٣١ ، ٥١٣٢ ، ٥١٣٣ ، ٥١٣٤ ، ٥١٣٥ ، ٥١٣٦ ، ٥١٣٧ ، ٥١٣٨ ، ٥١٣٩ ، ٥١٤٠ ، ٥١٤١ ، ٥١٤٢ ، ٥١٤٣ ، ٥١٤٤ ، ٥١٤٥ ، ٥١٤٦ ، ٥١٤٧ ، ٥١٤٨ ، ٥١٤٩ ، ٥١٥٠ ، ٥١٥١ ، ٥١٥٢ ، ٥١٥٣ ، ٥١٥٤ ، ٥١٥٥ ، ٥١٥٦ ، ٥١٥٧ ، ٥١٥٨ ، ٥١٥٩ ، ٥١٦٠ ، ٥١٦١ ، ٥١٦٢ ، ٥١٦٣ ، ٥١٦٤ ، ٥١٦٥ ، ٥١٦٦ ، ٥١٦٧ ، ٥١٦٨ ، ٥١٦٩ ، ٥١٧٠ ، ٥١٧١ ، ٥١٧٢ ، ٥١٧٣ ، ٥١٧٤ ، ٥١٧٥ ، ٥١٧٦ ، ٥١٧٧ ، ٥١٧٨ ، ٥١٧٩ ، ٥١٨٠ ، ٥١٨١ ، ٥١٨٢ ، ٥١٨٣ ، ٥١٨٤ ، ٥١٨٥ ، ٥١٨٦ ، ٥١٨٧ ، ٥١٨٨ ، ٥١٨٩ ، ٥١٩٠ ،

تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللَّهِ الْخَبِيرُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَمْرٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ تَضَعُوا أَعْيُنَهُمْ عَنِ ذِكْرِنَا مَمْرُودُونَ ﴿٢﴾ قُلْ لَّوِ يَتَّبِعُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ لَدُنْهُمْ فَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكُنُوتِ اللَّهِ تُفَكِّفُ بِهِمْ نَبْذِيلُ مَنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ يَوْمَ الْحَقِيقَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَنُفَرٍ ﴿٤﴾

يُخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين - ووصف نفسه بالقرآن الذي لا ترام ، والحكمة في الأقوال والأفعال ، ثم قال : (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) ، أي : لا على وجه البهتان والباطل ، (وأمر مسمى) ، أي : وإلى مدة معينة مضرورة لا تريد ولا تنقص .
وقوله : (والذين كفروا عما أنزلوا معرضون) ، أي : لا هوون عما يراهم ، وقد أنزل إليهم كتاب وأرسل إليهم رسول ، وهم معرضون عن ذلك كله ، أي : وسيعلمون غيب ذلك .

ثم قال : (قل) ، أي : هؤلاء المشركين المابدين مع الله غيره : (أرايت ما تدعون من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟) أي : أروني ماذا خلقوا من السموات ؟ (أم لم يشرك في السموات ؟) ، أي : ولاشرك لهم في السموات ولا في الأرض ، وما يكون من قطعهم ، إن للملك والتصرف كله إلا لله - عز وجل - فكيف تعبدون معه غيره ، وتشركون به ؟ من أروشدكم إلى هذا ؟ من دعاكم إليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شيء اقترحموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال : (اتقوا بكتاب من قبل هذا) ، أي : هااتوا كتاباً من كتب الله للآلة على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يأمركم بعبادة هذه الأصنام ، (أو آثاره من علم) ، أي : دليل يبين على هذا المسلك الذي سلكتموه (إن كنتم صادقين) ، أي : لا دليل لكم قليلاً ولا حقيقياً على ذلك ، ولهذا قرأ آخرون : (أو آثاره من علم (١)) ، أي : أو علم صحيح يأنثرونه عن أحد من قبلم ، كما قال مجاهد في قوله : (أو آثاره من علم) ، أو أحد يأنثر علماً (٢) .

وقال الخواري ، عن ابن عباس : أو بيعة من الأمر .

(١) البحر المحيط لأبي حيان : ٥٥٨ .

(٢) تفسير الطبري : ٣٤٢٦ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثنا صفوان بن سليم ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن ابن عباس قال : سفيان : لا أعلم إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم - (أو أثره من علم) ، قال : الخط (١) .
وقال أبو بكر بن عياش : أو بقية من علم ، وقال الحسن البصري : أو أثره شيء يستخرجه غيره .
وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو بكر بن عياش أيضا : (أو أثره من علم) ، يعني : الخط .
وقال قتادة : (أو أثره من علم) : خاصة من علم .

وكل هذه الأقوال متقاربة ، وهي راجعة إلى ما قلناه ، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وأكرمه ، وأحسن مثواه .
وقوله : (ومن أعمل عن يدع من دوث الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن حديثهم غافلون ؟) أي : لا أعمل من يدع أصناما ، ويطلب منها مالا تستطيعه إلى يوم القيامة ، وهي خافلة عما يقول ، لا تسمع ولا تبصر ولا تطنطن ، لأنها جماد حكيمة ، صم :

وقوله ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ ، قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قَلَّةً لِيَكُونَ لَهُمْ عَزَا كَلَّا سَيَكُونُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِغَالًا ﴾ (٢) ، أي ﴿ سَيَكُونُونَ أَحْرَجَ مَا يَكُونُونَ لَهُمْ ﴾ . وقال الخليل ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ فَبَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٣) .

[illegible]

يقول تعالى خبرنا من المشرقين في كثرهم وعنادهم ، أنهم إذا تلى عليهم آيات الله بينات ، أي في حال حياتها ووجودها وجلاها ، يقولون : (هذا صر مبین) ، أي صر واضح ، وقد كذبوا وانفروا وفسدوا وكفروا ، (أم يقولون : انفروا) ، يقولون حمدا لله عليه وسلم ، قال الله : (قل : إن الله به فلا تمكون من الله شيئا) ، أي لو كلفه عليه وزعت أنه أرسلني - وليس كذلك - لعاقبي أشد العقوبة ، ولم يفتكر أحد من أهل الأرض ، لأنهم ولا غيرهم ، أن يجرفه منه ، كقولهم : (قل : إني أنبئكم من الله أشد ولو أن أحدكم من لدن الله أحد ولو أن أحدكم من لدن الله أحد ولو أن أحدكم من لدن الله أحد) ، (ولو تقول علينا بعض الأقاويل : أولئك منا الذين) ثم قطعنا من الذين ، فأنكر من أحد من جليلهم (ع)

(۱) مستند الإمام أحمد : ۲۲۶/۱ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٨١ - ٨٢ ،

(۲) سورة المنكوت ، آية ۲۵ .

(٤) سورة الحن: آية ٢٢-٢٣.

(٥) سورة: الشاة : الآيات : ٤٤ - ٤٧ .

ولهذا قال حامتا : (قل : إن اقربهم فلا تملكون من الله شيئا ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيدا بيني وبينكم) :
هنا تهديد لهم ، ووعيد أكيد ، وقرينة شديدة .

وقوله : (وهو الغفور الرحيم) : ترغيبهم لهم إلى التوبة والإنابة ، أي : ومع هذا كله إن رجعت وتبتم ، تاب عليكم وعفا عنكم ، وغفر ورحم . وهذه الآية كقوله في سورة الفرقان : (وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا : قل : أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما (١)) .

وقوله : (قل : ما كنت بدعا من الرسل) ، أي : لست بأول رسول طرقت العالم ، بل قد جاءت الرسل من قبل ، فأنا بالامر الذي لا نظير له حتى تستكفروني وتستبدلوا بعتى إليكم ، فإنه قد أرسل الله قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم .

قال ابن عباس ، وعجماد ، وقنادة : (قل : ما كنت بدعا من الرسل) : ما أنا بأول رسول . ولم يهلك ابن جرير (٢)
ولا ابن أبي حاتم غير ذلك :

وقوله : (وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم) - قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في هذه الآية : نزل بعدها
(ليفسر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) : وهكذا قال عكرمة ، والحسن ، وقنادة : إنها منسوخة بقوله : (ليفسر لك
الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ، قالوا : ولا نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين : هذا قد بين الله ما هو فاعل بك
يا رسول الله ، فما هو فاعل بنا ؟ فأُتِزل الله : (ليلخل المؤمنين والمؤمنات جنات) .

هكذا قال ، وأللى هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا : حيثما لك يا رسول الله ، فأتنا ؟ فأُتِزل الله هذه الآية :

وقال الفساحي : (وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم) : ما أدرى بماذا أؤمر ، وبماذا أنهى بعد هذا ؟

وقال أبو بكر للعلل ، عن الحسن البصري في قوله : (وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم) ، قال : أما في الآخرة فعماذا ؟
قد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدرى ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت
الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدرى أنصف بكم أو تُرْمَوْنَ بالحجارة (٣) ؟

وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير ، وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به - صلوات الله وسلامه
عليه فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم بأنه يصير إلى الجنة ومن آتبه ، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يقول إليه أمره وأمر مشركي
قرين : أي ماذا ؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعلمون فيستأصلون بكفرهم ؟ فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد :

حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن ، عن ابن شهاب ، عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أم العلاء - وهي امرأة من نساءهم -
أخبرته (٤) - وكانت بايت رسول الله صلى الله عليه وسلم - قالت : طار (٥) لهم في السكبي حين أفرغت الأنصار

(١) سورة الفرقان ، آية ٥ - ٦ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٦٦ هـ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٦٦ هـ .

(٤) انظر المسند : قال يعقوب : أخبرته أمها بايت .

(٥) أي : حصل نسيبنا من المهاجرين حينئذ .

على سكتي المهاجرين هذان بن مقعون فاشككي عثان عندنا فسر ضنا ، حتى إذا توفى أدرجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتي عليك ، لقد أكرمك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك أن الله أكرمه ؟ » . فقلت : لأخبري بأني أنت وأبي ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وبني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي » ! قالت : فقلت : والله لأزكي أحدا بعده أبدا . وأحزني ذلك ، فتمت فرأيت لحيان عينا تجرى ، فبحثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك عمله (١) »

فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم (٢) ، وفي لفظ له : « ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به » (٣) . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بليل قولها : « فأحزني ذلك » . وفي هنا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم ، كالشجرة ، وابن سلام ، والغصيبة (٤) ، وبلال ، وسراقة ، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، والقراء السبعين الذين قتلوا بيتر موعة ، وزيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء . وقوله : (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) ، أى : إنما أتبع ما يتر له الله على من الوحي ، (وما أنا إلا نذير مبين) ، أى : بين التذكارة ، وأمرى ظاهر لكل ذى لب وعقل .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِبَادِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى نَفْسِهِ فَقَالُمْ وَاسْتَكَرَّمُوا^١ إِنَّ اللَّهَ لَا يُبْدِي الْقَوْلَ الظَّالِمِينَ^٢ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَبِيتُوا بِهِ^٣ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ^٤ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ لِأَمَامِهِ وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ^٥ صَرِيحٍ لِّبَشَرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ^٦ إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا^٧ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^٨ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^٩

يقول تعالى : (قل) يا محمد هؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن : (أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به) أى : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله على لآلهنكموه وقد كفرتم به وكنتموه ، (وشهد شاهد من بنى إسرائيل على نفسه) أى : وقد شهد بصدقه وصحته الكتب المظلمة المنزلة على الأنبياء قبل ، بشرت به وأخبرت بجل ما أخبر هذا القرآن به .
وقوله : (قلتم) ، أى : هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيقته (واستكبرتم) : عن اتباعه ،

(١) مسلم الإمام أحمد ٤٣٦/٦ .

(٢) البخاري ، كتاب منابغ الأتصار ، باب « مقدم القبي وأصحابه المنيعة » : ٨٥/٤ - ٨٦ . وكتاب الصغير ، باب « رؤيا النساء » : ٤٤/٩ . وباب « الدين الجارية في المنام » : ٤٨/٩ . وكتاب الجنائز ، باب « للخلع » على الميت بعد الموت إذا أدرج في كتفه » : ٩١/٧ .

(٣) يقال أيضا فيها « الرميصة » ، وهى أم أنس بن مالك . روى أبو يعلى عن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أريت أنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصة امرأة أبي لطفة » . انظر أسد الغابة ، ط الوبيية : ٤٦٠/٥ .

وقال مسروق : فأمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه ، وكفرتم أنتم بنبيكم (إن الله لا يهدي القوم الظالين (١)) ، وهذا الشاهد اسم جنس يم عبد الله بن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام . وهذه كقولهم : (وإذا بئى عليهم قالوا : آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين (٢)) . وقال : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا بئى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون : سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا (٣)) . قال مسروق ، والشعبي : ليس بعبد الله بن سلام ، هذه الآية مكية ، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة . رواه عنهما ابن جرير (١) وابن أبي حاتم ، واختاره ابن جرير .

وقال مالك ، عن أبي النضر ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لأحد يمشي على وجه الأرض : « إنه من أهل الجنة » ، إلا لعبد الله بن سلام ، قال : وفيه نزلت : (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله) .

رواه البخاري ومسلم والنسائي (٤) ، من حديث مالك ، به . وكذا قال ابن عباس ، وعجاض ، والضحاك ، وقادة ، وعكرمة ، ويوسف بن عبد الله بن سلام ، وهلال بن يساف ، والسدي ، والثوري ، ومالك بن أنس وابن زيد أنهم كلهم قالوا : إنه عبد الله بن سلام .

وقوله تعالى : (وقادة الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيرا ما سبقونا إليه) ، أى : قالوا عن المؤمنين بالقرآن : لو كان القرآن خيرا ما سبقونا هؤلاء إليه : يعنون بلالا وعمارا وصهيبا وخيايا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعيبد والإماء ، وماذا إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لم عند الله وجاعة وله بهم عناية . وقد غلطوا في ذلك غلطا فاحشا ، وأخطأوا خطأ بئى ، كما قال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ، ليقولوا : هؤلاء من الله عليهم من بيننا (٥)) أى : يصعبون : كيف اهتدى هؤلاء دوننا : ولعلنا قالوا : (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) ، وأما أهل السنة والجماعة فيقولون : في كل فعل وقول لم يثبت من الصحابة : هو بدعة ، لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها .

وقوله : (وإذا لم يهتدوا به) ، أى : بالقرآن (فسيقولون هذا إفك) ، أى : كذب (قديم) ، أى : مأثور عن الأقدمين ، فيضنون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبير الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بطل الحق » ، وغمط الناس (٦) .

(١) تفسير الطبري : ٧/٢٦ .

(٢) سورة القصص : آية : ٥٣ .

(٣) سورة الإسراء : آية : ١٠٧ - ١٠٨ .

(٤) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب : مناقب عبد الله بن سلام : ٤٦/٥ . ومسلم : كتاب فضائل الصحابة ،

باب : من فضائل عبد الله بن سلام : ١٦٠/٧ .

(٥) سورة الأنعام : آية : ٥٣ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الآباء ، باب : ما جاء في الكبير ، الحديث ٤٠٩٢ : ٥٩/٤ . ونقطة الأسرونى ، أبواب

البر ، باب : ما جاء في الكبير ، الحديث ٢٠٦٧ : ١٣٧/٦ - ١٣٨ ، وصند الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود : ٤٢٧ و ٣٨٥/١ .

ثم قال : (ومن قبله كتاب موسى) ، وهو التوراة (إماما ورحمة وهذا كتاب) ، يعنى القرآن (مصلق) ، أى : لا قبله من الكتب (لسانا عربيا) ، أى : فصيحيا بينا واضحا ، (لينزل الذين ظلموا وبشرى للمحسين) ، أى : مشتغل على التذكارة للكافرين والبشارة للمؤمنين :

وقوله : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) ، تقدم تفسيرها فى سورة حم السجدة (١) :

وقوله : (فلا خوف عليهم) ، أى : فإيا يستقبلون ، (ولا هم يحزنون) ، على ما خلفوا ، (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) ، أى : الأعمال سبب لنيل الرحمة لم يسبقوها عليهم .

ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصله ثلثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴿١﴾ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن قبل ما عملوا ونجاؤهم من سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصديق الذي كانوا يوعدون ﴿٢﴾

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين ، كما هو مقرون فى غير ماية من القرآن ، كقوله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه والوالدين إحسانا) (٢) وقال : (أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير) (٣) ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وقال هاهنا : (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) (٤) ، أى : أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة ، أخبرنى مهالك بن حارب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ، فلا أكل طعاما ، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله . فامتنعت من الطعام والشراب ، حتى جعلوا يفتحون (٥) فإها بالعصا ، ونزلت هذه الآية : (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) الآية (٦) .

ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه ، من حديث شعبة بإسناده ، نحوه وأطول منه (٧) .

(حملته أمه كرها) ، أى : قاست بسببه فى حال حملها مشقة وتعبا ، من وحام وغشيان وقلل وكره ، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ، (ووضعته كرها) ، أى : بمشقة أيضا من الطلق وشدته ، (وحمله وفصله ثلاثون شهرا) .

(١) سورة فصلت ، آية ٣٠ ، انظر : ١٦٤/٧ - ١٦٥ .

(٢) سورة الإسراء ، آية ٢٣ .

(٣) سورة لقاح ، آية ١٤ .

(٤) كلما فى مخطوطة الأزهر « حسنا » ، وهى قراءة الجمهور ، انظر البحر المحيط : ٦٠ : ٨ .

(٥) فى نسخة المبرود : « يشعرون فلها » ، أى : يفتشونه .

(٦) منة المبرود : تفسير سورة الأنفال : ١٨٦/٢ .

(٧) تقدم تخرىج الحديث فى سورة المتكويرت ، ههنا تفسير الآية الثلاثة منها ، انظر : ٢٧٥/٦ .

وقد استدل على وضئ الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان : (وفصّاله في عامين (١)) ، وقوله : (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة (٢)) ، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة وضئ الله عنهم .

قال محمد بن إسحاق بن يسار ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن يحيى بن عبد الله الجعفي قال : تزوج رجل من امرأة من جهينة ، فولدت له ثلثمائة أشهر ، فالتفت زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له ، فبعث إليها ، فلما قامت لتلبس ثيابا بكى أختها ، وقالت : ما يبكيك ؟ فوالله ما التيس في أحد من خلق الله غيره قط ، فيقتض الله في ما شاء : فلما أتى بها عثمان أمر بجمعها ، فبلغ ذلك عليا فأناه ، فقال له : ما تصنع ؟ قال : ولدت ثلثمائة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ فقال له : أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى قال : أما سمعت الله يقول : (وحمله وفضله ثلاثون شهرا) : وقال : (حولين كاملين) ؟ فلم يجبه بى إلا ستة أشهر ، قال : فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا ، على بالمرأة : فوجسوها قد فُرخ منها ، قال : فقال يحيى : فوالله ما التراب الغراب ، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه . فلما رآه أبوه قال : ابني ، والله لا أشك فيه . قال : وأبلاه الله بهذه القرحة قرحة (٣) الأكلة ، فما زالت تأكله حتى مات .

رواه ابن أبي حاتم ، وقد أورده من وجه آخر عند قوله : (فأنا أول العابدين) ؟ وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن أبي المغراء ، حدثنا علي بن مسهر ، عن داود بن أبي هند ، عن حكيم ، عن ابن عباس قال : إذا وضعت للمرأة تسعة أشهر ، كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرا ، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا وضعت ستة أشهر فحولين كاملين ، لأن الله تعالى يقول : (وحمله وفضله ثلاثون شهرا) ؟

(حتى إذا بلغ أشده) ، أى : قوى وشبه بالرجل (وبلغ أربعين سنة) ، أى : تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه . ويقال : إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين .

قال أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن القاسم بن عبد الرحمن قال : قلت لسروق : متى يؤخذ الرجل يأنويه ؟ قال : إذا بكعت الأربعين ، فتحدّ حيلوك .

وقال الحافظ أبو يعلى اللؤلؤى : حدثنا حبيب الله القزويني ، حدثنا حروة بن قيس الأزدي - وكان قد بلغ مائة سنة - حدثنا أبو الحسن السلولي (١) عنه وزادني قال : قال محمد بن عمرو بن عثمان ، عن عثمان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « للبدن لسان إذا بلغ أربعين سنة ، خضع لله حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسنته ومعا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة خفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشكّبه الله في أهل بيته ، وكسبه في الساء ، أسير الله في أرضه » .

(١) سورة لقمان آية ١٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٣٣ .

(٣) أخرجه البيهقي في اللد المنثور عن ابن المنذر وابن أبي حاتم ، انظر ١٠٧/٦ ، وفي اللد : « فرأيت الرجل بعد يتسلط مضوا مضوا حل قرائه » .

(٤) كلّا في الخطوطة ، وفي النسخات السابقة : « حدثنا أبو الحسن الكوفي عن ابن أبي عمير قال : « ولم ينجأ لنا ضيق هذا السند » .

وقد روى هذا من غير هذا الوجه ، وهو في مسند الإمام أحمد (١)

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكيمي (٢) أحد أمراء بني أمية يلمش : تركت للمعاصي والثوب أربعين سنة حياه من الناس ، ثم تركتها حياه من الله عز وجل .
وما أحسن قول الشاعر :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَكَرَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ ظَلَمًا عَكَرَهُ قَالَ لِبَابِلَ : ابْطِلْ

(قال : رب ، أوزعني) ، أي : ألهمني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحا ترضاه) ، أي : في المستقبل ، (وأصلح لي في ذريتي) ، أي : نسل وعقب ، (إني تبت إليك ، وإني من المسلمين) . وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجد التوبة والإجابة إلى الله - عز وجل - ويعزم عليها .

وقد روى أبو حنود في سننه ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد : « اللهم ، ألفت بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبيل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، وجنّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعتنا وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا وزياراتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها قابليها ، وأتممها علينا (٣) » .

قال الله تعالى : (أولئك الذين يتقبل (٤) عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز (٥) عن سيئاتهم) [أي : هؤلاء المصفون بما ذكروا ، الثابتون إلى الله للثبوت إليه ، المستزكون ما لالت التوبة والاستغفار ، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ويجاوز عن سيئاتهم] فيفر لهم الكبير من الزلل ، ويقبل منهم اليسر من العمل ، (في أصحاب الجنة) ، أي : هم في جملة أصحاب الجنة ، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله : من تاب إليه وآتاب ، ولهذا قال : (وعد الصديق الذي كانوا يوعدون) .

قال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا للحمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن القطر ، عن جابر ابن زيد ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الروح الأمين - عليه السلام - قال : « يؤتى بصينات العبد وسيئاته ، فيقتص بعضها ببعض ، فإن بقيت حسنة وسع الله له في الجنة » . قال : فدخلت على يزداد فحدثت مثل هذا [الحديث (٥)] قال : قلت : فإن ذهبت الحسنه ؟ قال : (أولئك الذين يتقبل (٤) عنهم أحسن ما عملوا ، ويتجاوز (٥)) عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصديق الذي كانوا يوعدون (٦) » .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم [عن أبيه (٧)] ، عن محمد بن عبد الأهل الصنعاني ، عن للحمر بن سليمان ، بإسناده

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أنس ، انظر المسند : ٢١٨/٣ .

(٢) في المخطوطة : « الحديث » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « التشهد » : الحديث ٩٦٩ : ٢٥٤/١ .

(٤) كلما في مخطوطة الأزهر ، وهي قراءة الجمهور . انظر البحر المحيط : ٦١/٨ .

(٥) ما بين القوسين من تفسير الطبري .

(٦) تفسير الطبري : ١٢/٢٦ - ١٣ .

(٧) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . وفي المخطوطة مكانه : « عن عبد الله » .

منه - وزاد : عن الروح الأمين : قال : قال الرب جل جلاله : يوتي بحسنات العبد وميثاقه : فذكره ، وهو حديث غريب ، وإسناده جيد لا بأس به :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سليمان بن معبد ، حدثنا عمرو بن حاصم الكلبي ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية ، عن يوسف بن سعد ، عن محمد بن حاطب قال : ونزل في دارى حيث ظهر على أهل البصرة ، فقال لى يوما : لقد شهدت أمير المؤمنين عليا وعنده عمار وصمصمة والأشتر ومحمد بن أبي بكر ، فذكروا عثمان فثألوا منه ، وكان على رضى الله عنه على السرير ، ومعه حود في يده ، فقال قائل منهم : إن عندكم من يفصل بينكم . فسألوه ، فقال على : كان عثمان من الذين قال الله : (أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويستجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة) وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) : قال : والله عثمان وأصحاب عثمان - قالوا ثلاثا - قال يوسف : فقلت لحمد ابن حاطب : آله لسمعت هذا من على ؟ قال : آله لسمعت هذا من على رضى الله عنه .

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْنُ لَكُمَا أَعْمَدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيدَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُوا مَا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ يَمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ يَمَّا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَنِيرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ .

ذكر تعالى حال الداهين للوالدين البارزين بهما ومالهم عنده من القور والنجاة ، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال : (والذى قال لوالديه : أف لكما) - وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقله ضعيف ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه . وروى الصوفي ، عن ابن عباس : أنها نزلت في ابن لآبي بكر الصديق . وفي صحة هذا نظر ، والله أعلم . وقال ابن جريج ، عن مجاهد : نزلت في عبد الله بن أبي بكر : وهذا أيضا قاله ابن جريج (١) . وقال آخرون : عبد الرحمن بن أبي بكر : وقاله السدي . وإنما هذا عام في كل من حق والديه وكتب بالحق ، فقال لوالديه : أف لكما ، عطفهما :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا يحيى بن أبي زائدة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، أخبرني عبد الله (٢) بن [اللخمي قال : إني لقي للمسجد حين خطب مروان ، فقال : إن الله أرى أمير المؤمنين في زيده وأبا حسنا ، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر : فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : أهرقلى ؟ ! إن أبا بكر

(١) في المخطوطة : « نزلت في عبد الله بن أبي بكر » ، قاله ابن جريج . ولا يستقيم عليه السياق . وقد قلنا : « وهذا أيضا » ما بهد ، فقد كان النص : « وقال آخرون : عبد الرحمن بن أبي بكر » ، وهذا أيضا ، وقال السدي : فنقلنا من هذا السياق إلى هنا ، واستدلنا : « وقال السدي » ، وقاله السدي . وانظر البحر المحمود : ٢٦٦ .

(٢) ما بين القوسين من تعليمات السابقة ، ومكانه يهاض في المخطوطة .

والله ما جعلها في أحد من ولده ، ولا أحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده : فقال مروان : أئمت الذي قال لوالديه : أف لكما ؟ فقال عبد الرحمن : أئست ابن العيين الذي لمن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبائك . قال : وسعتهما عائشة فقالت : يا مروان ، أنت القاتل لعبد الرحمن كذا وكذا ؟ كلبت ، ما فيه نزلت ، ولكن نزلت في فلان بن فلان . ثم انتحب مروان ، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها ، فجعل يكلمها حتى انصرف .

وقد رواه البخاري بإسناد آخر^(١) ولفظ آخر ، فقال : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو حوالة ، عن أبي بشر ، عن يوسف بن ماهر^(٢) قال : كان مروان^(٣) على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبي سفيان ، فخطبه وجعل يذكر يزيد ابن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئا ، فقال : خلوه : فدخل بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدروا عليه (١) ، فقال مروان : إن هذا الذي أنزل فيه : (والذي قال لوالديه : أف لكما أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي) . فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن ، إلا أن الله أنزل حذري (٢) .

طريق أخرى ، قال التستائي : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أمية بن خالد ، حدثنا شعبة ، عن محمد بن زياد قال : لما يبايع معاوية لابنه ، قال مروان : سنة أبي بكر وعمر . فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : سنة هرقل وقيصر : فقال مروان : هذا الذي أنزل الله فيه : (والذي قال لوالديه : أف لكما) ... الآية ، فبلغ ذلك عائشة فقالت : كلب مروان والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمي الذي أنزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أباه مروان ومروان في صلبه ، فمروان فتنصت (٣) من لعنة الله .

وقوله : (أتعداني أن أخرج ؟) ، أي : أئمت (وقد خلت القرون من قبلي) ، أن : قد مضى الناس فلم يرجع منهم خبر ، (وهما يستغيثان الله) ، أي : يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما : (وبذلك آمن) وإن وعد الله حق ، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين . قال الله : (أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، أنهم كانوا خاسرين) ، أي : دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة .

وقوله : (أولئك) بعد قوله : (والذي قال) دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك ، وقال الحسن ، وثقافة : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه ، فلذلك باليت (٤) .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة سهل بن خالد ، من طريق هشام بن عمار : حدثنا حاد بن عبد الرحمن ، حدثنا خالد بن الزبير قال الحلي (٥) ، عن سليمان بن حبيب الحاربي ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) كلمة « عليه » غير ثابتة في الصحيح .

(٢) البخاري ، تفسير سورة الأحقاف : ١٦٦/٦ - ١٦٧ .

(٣) أي : قطعة منها .

(٤) تفسير الطبري : ١٣/٢٦ .

(٥) في المتطورة : « المدين » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٢٢٢/٢٦٦ .

قال : « أربعة لعنهم الله من فوق عرشه ، وأمنت عليهم الملائكة : مضى المساكين - قال خالده : الذي جرى بيده إلى المسكين فيقول : هلم أعطيك ، فإذا جاءه قال : ليس معي شيء - » والذي يقول للمكفوف : اتق الدابة (١) ، وليس بين يديه شيء ، والرجل يسأل عن دار القوم فيلونه على غيرها ، والذي يضرب الرأوليين حتى يستنثوا « غريب جدا .
وقوله : (ولكل درجات مما عملوا) ، أى : لكل عذاب بحسب عمله ، (وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) ، أى : لا يظلمهم هناك ذرة قفا دونها :

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات النار تلحبه سفالا ، ودرجات الجنة تذهب علوا (٢) .
وقوله : (ويوم يمرض الذين كفروا على النار : أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) ، أى : يقال لم ذلك تقريبا وتوبيخا ، وقد تورع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - عن كثير من طيات المأكلى والمشارب ، ونزه عنها ، ويقول : أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لم وقرهم : (أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) .
وقال أبو ميجلز : ليضفدن أقوام حسسات كانت لهم في الدنيا ، فيقال لهم : (أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا) ؟
وقوله : (فالويل للذين هلك آلامهم عما كنتم تكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون) ، فجوزوا من جنس عملهم ، فكانوا نغموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق ، وتعاطوا الفسق والمعاصي ، جازاهم الله بملاب الهون ، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجبة ، والحسرات المتتامة ، والنزال في الدرجات المظلمة ، أجازنا الله من ذلك كله .

وَأَذْكُرُ أَمَّا عَادَ إِذْ أَنْزَلْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّصْنَا لِنُؤُودٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُلَاقِمُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاجِدَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

يقول تعالى مسلما لتبيح في تكليم من كلبه من قومه : (وأذكر أمة عاد) - وهو هود عليه السلام - بهتة الله إلى عاد الأولى ، وكانوا يسكنون الأحقاف - جمع حقف وهو : الجبل من الرمل - قاله ابن زيد ، وقال حكيم : الأحقاف : الجبل والغار . وقال علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - : الأحقاف : واد مجزومت ، يدعى برهوت ، تلقى فيه أرواح الكفار . وقال قتادة : ذكر لنا أن عادا كانوا حيا باليمن أهل ومل مشرفين على البحر بأرض يقال لها : الشحر (٢٥) .

قال ابن ماجه : « باب إذا دعا قليلاً بنفسه » : حدثنا الحسين بن علي [الشافعي (٤)] ، حدثنا زيد بن الحباب ،

(١) في المخطوطة : « للمكفوف : ابن » وبعد كلمة « ابن » بياض . والمثبت من تاريخ دمشق لابن صاكر ، مصورة في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، وفي المصورة : « المكفوف : أبو » ثم بياض بعده : « ابن الدابة » بالهاء ، ولعل السوابق ما أخطأه .

(٢) تفسير الطبري : ١٤/٢٦٦ .

(٣) تفسير الطبري : ١٦/٢٦٦ .

(٤) ما بين القوسين من الطباعة للباقة .

حدثنا سفيان ، عن أبي إسحاق (١) ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
يرحمنا الله ، وأما عاد (٢) .

وقوله : (وقد خلت النمر من بين يديه ومن خلفه) : يعنى وقد أرسل الله إلى من حول بلادهم من القرى مرسلين
ومندرين ، كقوله : (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها (٣)) ، وكقوله : (فإن أعرضوا قتل : أنزلناكم صاعقة
مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ، إلى أخاف عليكم عذاب يوم
عظيم (٤)) ، أى : قال لهم هود ذلك ، فأجابه قومه قائلين : (أجبنا لتأذنا) ، أى : لتصدنا (عن ألفتنا فأتنا بما تعدنا
إن كنت من الصادقين) ، استجلبوا عذاب الله وعقوبته ، استمداً منهم وقوه ، كقوله : (يستجلب بها الذين لا يؤمنون بها (٥)
(قال : إنما العلم عند الله) ، أى : الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتجيب العذاب فيعدل ذلك بكم ، وأما أنا فن شاك
أنى أبلفكم ما أرسلت به ، ولكنى أراكم قوماً تجهلون) ، أى : لا تعلمون ولا تفهمون ،

قال الله تعالى : (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم) ، أى : لما رأوا العذاب مستقبلاً ، اعتقدوا أنه عارضهم ،
ففرحوا واستبشروا ، وقد كانوا يمحجلين محتاجين إلى المطر ، قال الله تعالى : (بل هو ما يستجلب به ، ربيع فيها عذاب أليم) ،
أى : هو العذاب الذى قلم : (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)

(يُدَمِّر) ، أى : تخرب (كل شيء) من بلادهم بما [من شأنه التراب] (٦) (بأمر ربه) ، أى : بإذن الله لما
في ذلك ، كقوله : (ماثلوا من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم) ، أى : كالشيء البالى . ولما قال : (فأصبحوا لآفئدة (٧)
إلا مساكينهم) ، أى : قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية ، (كذلك نجزى القوم للجرمين) ، أى : هذا حكمنا
لهم كلب وسلنا ، وخالف أمرنا

وقد ورد حديث في قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده ، قال الإمام أحمد :

حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى قال : حدثنا حاصم بن أبي السجود ، عن أبيه وأبيه ،
عن الحارث البكرى قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فررت بالبركة ، فلما
صعد من بين نعيم منقطع بها ، فقالت لى : يا عبد الله ، إن لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة ، فهل أنت مهلى لى ؟

(١) في المخطوطة : « حدثنا سفيان ، حدثنا حل بن إسحاق » . والمثبت من سنن ابن ماجه .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الدعاء ، الحديث ٣٨٥٢ : ١٢٦٦٢٢ .

(٣) سورة البقرة : آية : ٦٦ .

(٤) سورة فصلت : آية : ١٣ - ١٤ .

(٥) سورة الشعراء : آية : ١٨ .

(٦) في المخطوطة : « ما مرت به الجواب » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٧) كذا في المخطوطة الأزهر « نرى » بالفاء ، وحى قراءة الجمهور . انظر البحر المحيط لأبي حيان : ٦٥٨ .

قال : فحملتها فأثبت بها للدينة ، فإذا المسجد غاصر بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا ليل مُتَشَكِّكُ السيف بن يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا . قال : فجلست ، فدخل منزله - أو قال : رحله - فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، [فدخلت فسلمت ، فقال : « هل كان بينكم وبين نعيم شيء ؟ »^(١) قلت : نعم ، وكانت لنا الدَّيْرَةُ عليهم ، ومروث بمجوز من بني نعيم مقطوع بها ، فسألني أن أحملها إليك ، وهاهي بالباب . فأذن لها [فدخلت ، فقلت : يا رسول الله ، إن رأيت أن نجعل بيننا وبين نعيم حاجزًا فلجعل اللهناه . فحميت المجوز واستوفزت ، وقالت : يا رسول الله ، فإلى أين يضطرُّ مُضْرَكُ ؟ قال : قلت : إن مثل مقال الأول : « معزَّى حَمَكْتَ حَتَمَهَا » ، حَمَكْتُ هله ولا أشمر أنها كانت لي خصي ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوالد عاد . قال : « هيه ، وما وادد عاد ؟ » - وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستعلمه - قلت : إن عادًا قُطِعُوا فبُعثوا واددًا لم يقال له : قتل ، فرب معاوية ابن بكر ، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان - يقال لهما « الجرادتان » - فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرَةَ فقال : اللهم ، إنك تعلم أني لم أجدى إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم استر عادًا ما كنت تسقيه . فمرت به صحابة سود ، فتودى منها : « اختر » ، فأومأ إلى صحابة منها سوداء ، فتودى منها : « خذها رماذًا رَمْدًا »^(٢) ، لا تبقى من عاد أحدًا^(٣) . قال : فما بالني أنه أرسل عليهم من الريح إلا اقتدر مايجري في خانمي هذا ، حتى هلكوا - قال أبو وائل : وصدي - وكانت المرأة والرجل إذا بُعثوا واددًا لم يقالوا : « لا تكن كوالد عاد » .

رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، كما تقدم في « سورة الأعراف (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو : أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار ، عن عائشة أنها قالت : مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهوًا^(١) ، إنما كان يتيم . قالت : وكان إذا رأى غيا - أو ريحًا - هُرف ذلك في وجهه ، قالت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا القيم فرحوا وجاء - أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته هُرِفْت في وجهك الكراهية ؟ فقال : « يا عائشة ، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا^(٢) » . وأخرجه من حديث ابن وهب^(٣)

طريق أخرى ، قال أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن المقدام بن شريح ، عن أبيه ، عن عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا رأى ناشئًا في أفق من أفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته ، ثم يقول : « اللهم ، إني أعوذ بك من شر ما فيه . فإن كشفه الله حمد الله ، وإن أمطرت قال : « اللهم ، صَيِّبًا نافعًا^(٤) »

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثانية والستين من سورة الأعراف ، وخرجناه هناك ، وشرحناه غريبه . انظر : ٤٧٤/٤ .

(٢) الهزات : جمع لَهْة وهي : اللسنة في سقف أقصى أديم .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٦٦٤/٦ .

(٤) البيهقي ، تفسير سورة الأحقاف : ١٦٧/٦ . ومسلم ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب « التمدد عند رؤية الريح والقيم والفرح بالمطر » : ٢٦/٣ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٩٠/٦ .

طريق أخرى ، قال مسلم في صحيحه : حدثنا أبو الطاهر ، أخبرنا ابن وهب ، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء ابن أبي رباح ، عن عائشة قالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا عصفت الريح قال : « اللهم ، إني أسألك خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أرميت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرميت به » : قالت : وإذا تغيثت (١) المياه تغتبر لونه ، ويخرج ودخل ، وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرتى عنه ، ففرت ذلك عائشة (٢) فسأته فقال : « لعله يا عائشة كما قال قوم عاد : (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض (٣) ممطرتا) »

وقد ذكرنا قصة هلاك عاد في سورتي « الأعراف » و « هود » (٤) بما أغنى عن إعادته هاهنا ، والله الحمد والمنة .

وقال الطبراني : حدثنا عبدان بن أحمد ، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي ، حدثنا أبو مالك بن مسلم اللخمي ، عن مجاهد وسعيد بن جبر ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مانع على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت (٥) عليهم البندوب إلى الحضرة فلما رأها أهل الحضرة قالوا : هذا عارض ممطرا مستقبل أوديتنا : وكان أهل البراءة فيها ، فأتى أهل البادية على أهل الحضرة حتى هلكوا . قال : عت على غزاتها حتى خرجت من خلال الأبواب :

وَلَقَدْ كَسَنَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَتُكَ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَافْعِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْعَلُونَ رِيعَاتٍ لِلَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قَرِيبًا مُّذِئِبَةً يَلِ صَلَواتُهُمْ ذَٰلِكَ إِنْ كُنْتُمْ وَمَا كَانُوا يَقْتِرُونَ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى : ولقد مكنا الأمم السافرة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها ما لم تعطكم مثله ولا قريبا منه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ، إذ كانوا يجعلون آيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون (٦٦) ، وأحاط بهم المذاب والمكالك التي كانوا يكتفون به ويستعجلون وقوعه ، أي : فاحلروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم ، فيصيبكم مثل ما أصابهم من المذاب في الدنيا والآخرة ؛ وقوله : (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) ، يعني أهل مكة ، قد أهلك الله الأسم المكعبة بالرسول بما حولها كمعاد ، وكانوا بالاحقاف محض موت عند ابن ، [وثمود وكانت منازل بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن] ، ومدن وكانت في طريقهم وعمرهم إلى غرة ، وكذلك بحيرة قوم لوط ، كانوا يجرؤون بها أيضا ؛

(١) أي : تليت وتبأت المطر .

(٢) لفظ مسلم : « ففرت ذلك وجهه قالت عائشة : فسأته » .

(٣) مسلم ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب « فتدبر عند رؤية الريح والشم والترح بالمطر » : ٢٦٩/٣ .

(٤) انظر : ٤٢١/٣ - ٤٢٤ - ٢٦٢/٤ - ٢٦٣ .

(٥) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن الطبراني ، وابن الشيخ ، وابن مردويه . ولفظه : « وضرت بأهل البادية ، فصاحهم وأمرهم ، فجعلتهم بين السماء والأرض ، فلما ... » .

وقوله : (وصرفنا الآيات) ، أى : بيناها ووضحناها (لهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين ابتلوا من دون الله لكانت
آية) ، أى : فلما نصرهم عند احتياجهم إليهم ، (بل ضلوا عنهم) ، أى : بل ذهبوا عنهم - أوح ما كانوا إليهم ،
(وذلك لأنهم) ، أى : كلهم ، (وما كانوا يفكرون) ، أى : وانفrazهم في اتخاذهم إياهم آية ، وقد خابوا وخسروا
في عبادتهم لها ، واتخذهم هليها .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ
مُنذِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى
طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾
وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعِجِّزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا صفيان ، حدثنا عمرو : سمعت عكرمة ، عن الزبير : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن
يستمعون القرآن) ، قال : بنخلة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى المشاء الآخرة ، (كادوا يكونون عليه لبدا) ، قال
صفيان : التَّبَدُّ : بعضهم على بعض ، كاللبد بعضهم على بعض (١) .

فرد به أحمد ، وسأى من رواية ابن جرير ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أنهم سبعة من جن نصيبين :

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عروبة (ح) - وقال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة : أخبرنا
أبو الحسن علي بن أحمد بن عبيدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصنفار ، حدثنا إسماعيل القاضي ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عروبة
عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا أجمع ، انطلق
رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه حامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ،
وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا
الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها | وانظروا ما هذا الذي
| حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا بشريون مشارق الأرض ومغاربها | يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء ،
فانصرف أولئك نفر اللذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بنخلة حامدا إلى سوق عكاظ ،
وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا - والله - الذي حال بينكم وبين خبر السماء .
فهناك جن رجسوا إلى قومهم (قالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا قرآنا عجيبا . يهدي إلى الرشدا فأتنا به ، ولن نشارك ربنا أحدا) .
والقول الله على نبيه : (قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن) . وإما أوحى إليه قوله الجن (٢) .

(١) مسند الإمام أحمد : ١٦٧/١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٥٢/١ . ودلائل النبوة للبيهقي : مشروط بدار الكتب ، برقم ٧٠١ حديث : الجزء الثاني : ورقة :

رواه البخارى عن مسكّد بنحوه ، وأخرجه مسلم عن شيان بن قُروخ ، عن أبي عوانة ، به : ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير ، من حديث أبي حنيفة (١) .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « كان الجن يستمعون الرقى ، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرة ، فيكون ماسموا حقا وما زادوا باطلا ، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك ، فلما بحث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان أحلهم لأبائى مقعده إلا رُمى يشهاب بحرق ما أصاب ، فشكروا ذلك إلى إبليس فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدثت . فبث جنوده ، فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يصل بين جبل ثلثة ، فأقره فأعبروه ، فقال : هذا للحدث الذى حدث فى الأرض (٢) :

رواه الترمذى والنسائى فى كتابي التفسير من مستنيها ، من حديث إسرائيل ، به . وقال الترمذى : « حسن (٣) صحيح »
وهكذا رواه أبو يرب عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس . وكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس أيضا بثل هذا السياق بولوه
وهكذا قال الحسن البصرى : إته - عليه السلام - ماضع بأمرهم حتى أنزل الله عليهم خبرهم (٤) :

وذكر محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان (٥) ، عن محمد بن كعب القرظى : قصة خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف ودعاه إياهم إلى الله عز وجل ، وإياتهم عليه . فذكر القصة بطولها ، وأورد ذلك الدعاء الحسن : « اللهم ، إليك أشكر ضعف قوى وقلة حيلى » ، إلى آخره . قال : فلما انصرف عنهم بات بيثلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعهم الجن من أهل نعيمين (٦) .

وهذا صحيح ، ولكن « قوله إن الجن كان استمعهم تلك الليلة » فيه نظر ، لأن الجن كان استمعهم فى ابتداء الإجماع ، كما دل عليه حديث ابن عباس للمذكور ، وخروجه - عليه السلام - إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين ، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا أبو أحمد الزبيري ، حدثنا سفيان ، عن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله بن مسعود قال : هبطوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ القرآن يعلن ثلثة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا . قال : صه ، وكانوا تسعة أحلهم زومة ، فأقر الله عز وجل : (وإن صرنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم مثليين) إلى : (ضلال مين)

(١) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « الجهر بقرأة صلاة الفجر » . ١٩٥/١ - ١٩٦ ، وسلم . كتاب الصلاة - باب الجهر بالقرأة فى الصحيح والقرأة على الجن ، ٣٥/٢ - ٣٦ . وثقة الأحرش : تفسير سورة البقرة ، الحديث ٣٢٧٩ . ٢٣٩ - ٢٤٣ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) صند الإمام أحمد : ٢٧٤/١ .

(٣) ثلثة الأحرش : تفسير سورة الجن ، الحديث ٣٣٨٠ - ٢٤٣/٩ - ٢٤٤ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٦/٢٠ .

(٥) كذا فى المخطوطة : « يزيد بن رومان » . وفى سيرة ابن هشام : « يزيد بن زياد » ، وكذا فى يروى عنه ابن إسحاق ، ولعل انصباب « بن زياد » ، انظر التلخيص : ١١/٢٤٥ - ٢٤٨ .

(٦) سيرة ابن هشام : ١٩/٤١٩ - ٤٢٢ .

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسلوا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج، كما سيأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار، مما استودعها هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة:

فأما ما رواه البخارى ومسلم جميعا، عن أبي قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسى، عن أبي أسامة حماد بن أسامة، عن مسعر بن كدام، عن مسن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: سألت مسروقا: من أذن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعنى ابن مسعود - أنه أذنت بهم شجرة (١) - فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتا مقدما على نبي ابن عباس ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى أذنتهم بهم [الشجرة]، أى: أعلمته باستماعهم، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقي: وهذا الذى حكاه ابن عباس - رضى الله عنهما - إنما هو [في] (٢) أول ما سمعت الجنب قراءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلمت حاله، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرم، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجنب فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله عز وجل، كما رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (٣).

[ذكر الرواية عنه بذلك]

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داود، عن الشعبي - وابن أبي زائدة، أخبرنا داود، عن الشعبي - عن حفصة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنب منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكننا قد نداء ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استعطير (٤)؟ ما فعل؟ قال: قلنا: فبينما بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح - أو قال: في السحر - إذا نحن به يحيى من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله - فذكروا له الذى كانوا إليه - فقال: إنه أتاني داعى [الجن] فأتيتهم فقرأت عليهم. قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم - قال: وقال الشعبي: سأله الزاد - قال عامر (٥) سأله بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما كان [عليه] لحما، وكل بكرة أو روة حلف لدوابكم - قال: فلا تستنجوا بهما، فإنهما زادوا إخوانكم من الجن (٦).

(١) البخارى، كتاب مناقب الأنصار، باب « ذكر الجن » : ٥٨٧. ومسلم، كتاب الصلاة، باب « الجهر بالقراءة في الصبح والقرآن على الجن » : ٣٧٧.

(٢) ما بين القوسين من دلائل كثيرة.

(٣) دلائل اقوية البيهقي، مخطوط يدار الكتب رقم ٧٠٩ حديث « الجزء الثالث » وروية « ٤٦ ».

(٤) أى: ذهب به بسرعة، كان الطير حلقه، أو اختاله أحد.

(٥) من السنة : قال ابن أبي زائدة : قال عامر : سأله ليلة الزاد وكانوا من جن الجزيرة.

(٦) مسند الإمام أحمد : ١ / ٤٣٦.

وهكذا رواه مسلم في صحيحه ، عن علي بن حجر ، عن إسماعيل ابن عتيبة ، به نحوه (١) :

وقال مسلم أيضا : حدثنا محمد بن الفضل ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود - وهو ابن أبي هند - عن عامر قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود رضي الله عنه شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود ؛ فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، ففقدناه فالتفتنا في الأودية والشعاب ، فقلنا استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبينما يمشي ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء قال : قلنا : يا رسول الله ، قدناك فطليتك فلم نجدك ، فبينما يمشي ليلة بات بها قوم . فقال : « أتأني داعي الجن ، فذهب معهم ، فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسأله إذا قال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما ، وكل بعررة أو روة حلفت للموايكة » . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فلا تستنجوا بهما ، فإنهما طعام إخوانكم » (١) :

طريق أخرى عن ابن مسعود ، قال أبو جعفر بن جرير : حدثني أحمد بن عبد الرحمن ، حدثني عبيد الله بن يونس عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله أن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يت الليلة أقرأ على الجن ريباً » (٢) بالحيون .

طريق أخرى فيها أنه كان معه ليلة الجن ، قال ابن جرير رحمه الله : حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ، حدثنا حماد بن عبد الله بن وهب ، أخبرني يونس ، عن ابن شهاب ، عن أبي عثمان بن سنة (٣) الخراسي - وكان من أهل الشام - أن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه وهو بمكة : « من أحب منكم أن يحضر أمر الجن ليلة الفيل » . فلم يحضر منهم أحد غيري ، قال : فانطلقنا حتى إذا كنا بأهل مكة خط لي برجله خطأ ، ثم أمرني أن أجلس فيه ، ثم انطلق حتى قام ، فاقتنع القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه ، حتى ما أسمع صوته ، ثم طفقوا يتفعلون مثل قطع السحاب ذاهبين ، حتى بنى منهم رهط ، ففرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الفجر ، فانطلق فنبرز ، ثم أتاني فقال : « ما فعل الرهط ؟ » فقلت : هم أولئك يا رسول الله ، فأعطاهم عظاما وروثا زائدا ، ثم نهي أن يستطيب أحد يروث أو عظم » (٤) .

ورواه ابن جرير عن [محمد بن] عبد الله بن عبد الحكم ، عن أبي زرعة وهب الله بن راشد ، عن يونس بن يزيد الأيلي ، به (٤) .

ورواه البيهقي في الدلائل ، من حديث عبد الله بن صالح - كاتب الليث ، عن الليث ، عن يونس ، به (٥) :

(١) مسلم ، كتاب الصلاة : باب « الجهر بالقراءة في الصبح » والقراءة على الجن : ٢ / ٣٦ .

(٢) في المخطوطة : « وها » . وملتب من تفسير الطبري : ٢٦ / ٢١ .

(٣) في المخطوطة : « وبة » . ومثله في تفسير الطبري . والنسواب عن دلائل النبوة البيهقي ، والمشتبه للذهبي : ٣٨٩ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٦ / ٢١ .

(٥) دلائل النبوة : مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ - حديث : الجزء الثاني ، ورقة : ٤٧ . وهذا سند الحديث كما في الدلائل :

« عبد الله بن صالح كاتب الليث » عن يونس ، « دون ذكر » الليث .

وقد روى إصحاق بن راهويه، عن جرير، عن قابوس بن أبي عليان، عن أبيه، عن ابن مسعود، فذكر نحوه ما تقدم؛
ورواه الحافظ أبو نعيم، عن طريق موسى بن عبيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبي المثل، عن ابن مسعود،
فذكر نحوه أيضا؛

[طريق (١) أخرى، قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي قال: حدثنا
عفان وصكرمة قالا: حدثنا معتمر قال: قال أبي: حدثني أبو نعيمة، عن عمرو - ولعله قد يكون قال: البكالي - بحديثه
عمرو، عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: استبجني رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتقلنا حتى أتينا مكان
كلا وكلنا، فخط لي خطا فقال: «كن بين ظهر هذه لا تخرج منها» فإني إن خرجت منها هلكت... فذكر الحديث
يطوله وفيه خرافة شديدة (١)]

طريق أخرى، قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبد الأعلى، وحدثنا ابن ثور، عن معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن
عبد الله بن عمرو بن غيلان التقي: أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة
وفد الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم خط خطه خطا،
وقال: «لا تبرح منها»... فذكر مثل المسحاة (٢) السوءاء غشيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر ثلاث مرات،
حتى إذا كان قريبا من الصبح، أتى النبي صلى الله عليه وسلم [قال: «أنت؟»] فقلت: لا والله، ولقد همت مرارا
أن أستغيث بالناس حتى سمعتهم يرمضون بصياحهم، فقال: «اجلسوا» قال: «لو خرجت لآمن أن يغفلك بعضهم». ثم
قال: «هل رأيت شيئا؟» فقلت: نعم، رأيت رجلا سودا مستعيرين (٣) ثيابا بياضا. قال: «أولئك جن نصيبين،
سألون الناس - والمناج - الزاد - ففتنهم بكل عظم حائل، أو بعثرة، أو روية (٤)» - فقلت: يا رسول الله، وما يأتي ذلك
عنهم؟ فقال: إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روتا إلا وجدوا فيها جها يوم أكلت، فلا يستقين (٥)
أحد منكم إذا خرج من الخلاه بعظم ولا بعرة ولا روية (٦).

طريق أخرى، قال الحافظ أبو بكر البهي: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي وأبو نصر بن قتادة قالا: أخبرنا أبو محمد (٧)
يحيى بن منصور القاضي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجي، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن هبة
ابن رباح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: استبجني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إن نقرأ من الجن
- خمسة عشر بنى إخوة وبني عم - يأتونني الليلة، فأقرأ عليهم القرآن، فانتقلت معه إلى المكان الذي أراد، فخط لي خطا
وأجلسني فيه، وقال لي: «لا تخرج من هنا». فبقيت فيه حتى أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم مع السحر في يده عظم

(١) أثر أبي نعيم بتمامه غير ثابت في المخطوطة، ولعله سقط منها سقط نظر، ولم تجده في دلائل أبي نعيم.

(٢) المسحاج: القبار، واحدة مسحاجة.

(٣) في المخطوطة: «مستعيرين». والمثبت عن تفسير الطبري، ولفظه «مستعير ثياب بياض». واستمر الثوب: لبسه.

(٤) العظم الحائل: المتغير، قد شبهه البلي والبصرة: طيرة الناس والبحر.

(٥) أي: لا ينطقن.

(٦) تفسير الطبري: ٢١/٢٦.

(٧) في الدلائل: «أبو عبد بن يحيى». والصواب: «أبو عبد الله». انظر البحر المحيي: ٢٩/٣٢.

حائل وروته [حسنة] (١) قال لي: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنج بتي» من هؤلاء. قال: فلما أصبحت قلت لأعلمن [علمي] حيث كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «فلنبت فرأيت موضع مبارك مستين بغيرا» (٢).

طريق أخرى، قال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا عثمان بن عمر، عن المستمر بن الريان، عن أبي الجوزاء، عن عبد الله بن مسعود قال: انطلقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن، حتى أتى الحجون، فخطب لي خطباً، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيّد لهم، يقال له «وَزَادَن» : «أَنَا لَرَحَلَهُمْ عَنْكَ. فقال: إني لن يجرني من الله أحد» (٣).

طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن أبي فرادة العبدي، حدثنا أبو زيد - مولى عمرو بن حريث - عن ابن مسعود قال: لما كان ليلة الجن (٤) قال لي النبي - صلى الله عليه وسلم - : «أعملك ماء؟» : «قلت: ليس معي ماء، ولكن معي إداوة فيها نيد». فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «نمرة طيبة، وماء طهور [فوضاً]» (٥) ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، من حديث أبي زيد، به (٥).

طريق أخرى، قال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حنّس الصنعاني، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود أنه كان مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الجن، فقال رسول الله : «يا عبد الله، أعملك ماء؟» قال: «معني نيد في إداوة فقال: «أصعب علي». فوضاً، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «يا عبد الله، شراب وطهور» (٦).

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أوردته الدارقطني من طريق آخر، عن ابن مسعود (٧).

طريق أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني أبي عن ميناء، عن عبد الله قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفس، فقلت: ما مثالك؟ قال: «تُعَيّن إلى نفسي يا ابن مسعود (٨)» : «هكذا رأيته في المستند [مختصراً]» وقد رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه «دلائل النبوة» (٩) فقال: حدثنا سليمان بن أحمد

(١) في المخطوطة: «وحمة» وفي الدلائل: «وحمة». وقد حللنا الواو. والمضي: وروته سوداء.

(٢) الدلائل البيهقي، مخطوط بدار الكتب، رقم ٧٠١ - حديث، الجزء الثاني، ورقة: ٤٨.

(٣) في المستند بدمه: «تخلف منهم رجلان وقال: تشبه الفير ملك يارسول الله» فقال لي النبي: . . .

(٤) ما بين القوسين عن المستند: ٤٤٩/١.

(٥) أخرجه في كتاب الطهارة: انظر سنن أبي داود، باب «الوضوء بالنبيذ»، الحديث ٨٤: ٢١/٨١. ونقطة الأحرى باب «ما جاء في الوضوء» الحديث ٨٨: ٣٩٢/١ - ٣٩٥ وقال الترمذي: «وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث، لا تصرف له رواية غير هذا الحديث. وقد روى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ، منهم سفيان الثوري وغيره. . . وقول من يقول «لا يوضأ بالنبيذ» أقرب إلى الكتاب وأشبه، لأن الله تعالى قال: (فلم يجدوا ماء فوضؤا فمضوا) لا يوضأ بالنبيذ» الحديث ٣٨٤: ١٣٥٪

(٦) مسند الإمام أحمد: ٣٩٨/١.

(٧) سنن الدارقطني، كتاب الطهارة، باب «الوضوء بالنبيذ»، الحديث ١٠: ٧٦/١.

(٨) مسند الإمام أحمد: ٤٤٩/١.

(٩) لم نجد هذا الأمر في الدلائل، وقد تبينا في مناسبات سابقة على مثل هذا، ووجدنا أن في طيبة سيوف أبداً مستقلاً.

ابن أيوب ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم - حدثنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أبي قال : حدثنا عبد الرزاق ، عن أبيه ، عن ميناء عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وفد الجن ، فتفتس ، فقلت : مالك يا رسول الله ؟ قال : نُعيت إلى نفسي يا ابن مسعود . قلت : استخلف . قال : « من ؟ » قلت : أبو بكر ، فسكت ثم مضى ساعة فتفتس ، فقلت : ماشأناك بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟ قال : « نُعيت إلى نفسي يا ابن مسعود » قلت : استخلف . قال : « من ؟ » قلت : عمر ، فسكت ثم مضى ساعة ، ثم تفتس فقلت : ماشأناك ؟ قال : « نُعيت إلى نفسي » قلت : فاستخلف . قال صلى الله عليه وسلم : من ؟ قلت : علي بن أبي طالب قال صلى الله عليه وسلم : « أما والذي نفسي بيده ، لئن أطاعوه ليخطن الجنة أجمعين أكتعين »

وهو حديث غريب جدا وأخرجه أن لا يكون محفوظا ، ويتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما منورده ، فإن في ذلك الوقت في آخر الأمر لما فحمت مكة ، ودخل الناس والجان أيضا في دين الله أفواجا ، نزلت سورة (إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) ، وهي السورة التي نُعيت نفسه الكريمة فيها إليه كما قد نص على ذلك ابن عباس ، ووافقه عمر بن الخطاب عليه ، وقد ورد في ذلك حديث منورده عند تفسيرها ، والله أعلم . وقد رواه أبو نعيم أيضا [عن الطبراني] عن محمد بن عبد الله الحضرمي ، عن علي ابن الحسين بن أبي بردة ، عن يحيى بن سعيد (١) [الألسلي] ، عن حرب بن صبيح ، عن سعيد بن مسلمة ، عن أبي مروة الصنعاني ، عن أبي عبد الله الجدي ، عن ابن مسعود ، فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف ، وهذا إسناد غريب ، وسياق عجيب ،

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أبي رافع ، عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط حوله ، فكان أحدهم مثل سواد النخل ، وقال لي : « لا تبرح مكانك فأقرأهم كتاب الله » فلما رأى الزملا (٢) قال : كأنهم هزلاء . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمعلك ماء ؟ » قلت : لا . قال : « أمعلك نيل ؟ » قلت : نعم . فتوضأ به (٣) .

طريق أخرى مرسلة ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهري ، أخبرنا حفص بن عمر السدي ، حدثنا الحكم ابن أبان ، عن عكرمة في قوله تعالى : (وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن) ، قال : هم اثنا عشر ألفا جاءوا من جزيرة الموصل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن مسعود : « أنظرنى حتى أتيتك » ، وخط عليه خطا ، وقال : « لا تبرح حتى أتيتك » . فلما شئهم ابن مسعود كاد أن يذهب ، فذكر قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يبرح ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « لو ذهبت ما التقيت في يوم القيامة » .

(١) ما بين القوسين من البيانات السابقة ، ومكانه يباين في المخطوطة .

(٢) في المخطوطة : « رأى المزما » . والمكتب من المصنف . والزبط : جنس من المودان والمخترود .

(٣) منه الإمام أحمد : ٤٥٥/١ .

طريق أخرى مرسلة أيضا ، قال سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة في قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) ، قال : ذكر لنا أنهم صنفوا إليه من نينوى ، وأن نبي الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إني أمرت أن أقرأ على الجن ، فأبكم ينبيي ؟ » فأطرقوا ، ثم استبهم فأطرقوا ، ثم استبهم الثالثة فقال رجل : يا رسول الله ، إن ذلك للو لدية (١) فأبهم ابن مسعود آخر هليلج ، قال : فدخل النبي صلى الله عليه وسلم شعبا يقال له « شعب الحجون » ، وخط عليه ، وخط على ابن مسعود ليحبه بذلك ، قال : فجعلت (٢) أهال وأرى أمثال النور نغشي في دُفولها (٣) ، وسمعت لفظا شديدا حتى خفت على نبي الله - صلى الله عليه وسلم - ثم تلا القرآن ، فلما رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلت : يا رسول الله ، ما اللفظ الذي سمعت ؟ قال : « اختصموا في قتل ، قضى بينهم بالحق » : رواه ابن جرير (٤) ، وابن أبي حاتم .

فهذه الطرق كلها تدل على أنه - صلى الله عليه وسلم - ذهب إلى الجن قصدا ، خلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله - عز وجل - وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت . وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم ، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما . ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود ، وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيدا منه ولم يخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال مخاطبته للجن ، هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد ، وهي عند مسلم . ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم ، كما روى ابن أبي حاتم في تفسير (قل أوحى) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عسار : أما الجن الذين لقوه بختلة فجبن نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجبن نصيبين ، وتأوله البيهقي على أنه يقول : « فبتنا بشر ليلة بات بها قوم » ، على غير ابن مسعود ممن لم يعلم بخروجه صلى الله عليه وسلم إلى الجن ، وهو محتمل على بعد ، والله أعلم .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله الأديب ، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلي ، أخبرنا الحسن بن سفيان ، حدثني سويد بن سعيد ، حدثنا عمرو بن يحيى ، عن جده سعيد بن عمرو قال : كان أبو هريرة يبتغي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإدابة لوضوئه وحاجته ، فأدركه يوما فقال : « من هذا ؟ » قال : أنا أبو هريرة . قال : « اتنى بأحجار أستنج بها ، ولا تأتني بهظم ولا روثة » . فأتته بأحجار في ثوبي ، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ فقام اتبعته ، فقلت : يا رسول الله ، ما بال العظم والروث ؟ قال : « أتاني وفدُ جن نصيبين ، فسألوني الزاد ، فدعوت الله لم أن لا يمروا بهظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاما » (٥) .

(١) في المطبوعة : « بدء » . وللتب من تفسير الطبري . والبداء : قبل الشيء أول الأمر .

(٢) في تفسير الطبري : « فجعلت نوى ي » . ومعنى « أهال » : يعمل على الخوف .

(٣) دف التسر : دنا من الأرض في طيراته .

(٤) تفسير الطبري : ٢٠٧/٢٦ - ٢١ .

(٥) دلائل النبوة البيهقي ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث : الجزء الثاني ، ورقة : ٤٩ .

أخرجه البخاري في صحيحه ، عن موسى بن إسماعيل ، عن عمرو بن يحيى ، بإسناده قريبا (١) منه . فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك . وستذكر ما يدل على تكرار ذلك .

وقد روى عن ابن عباس غير ما ذكره أولا من وجه جيد ، قال ابن جرير :

حدثنا أبو كرب ، حدثنا عبد الحميد الحماني ، حدثنا النضر بن عري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن : الآية) ، كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رسلا إلى قومهم (٢) .
فهذا يدل على أنه قد روى القصتين :

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا سويد بن عبد العزيز ، حدثنا رجل ميا ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) ... الآية ، قال : كانوا سبعة نفر ، ثلاثة من أهل حران ، وأربعة من أهل نصيبين وكانت أسماؤهم يحيى وحسى ومسى ، وشاعر وناصر ، والأرد وإيوان (٣) والأحقم (٤) .

وذكر أبو حمزة الثعالبي أن هذا الخي من الجن كان يقال لهم : بنو الشيبان ، وكانوا أكثر الجن عددا وأشرفهم نسبا ، وهم كانوا عامة جنود إبليس .

وقال سفیان الثوري ، عن حاصم ، عن ذر ، عن ابن مسعود : كانوا تسعة ، أحدهم زوبعة ، أتوه من أصل نخلة ، وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر ، وفي رواية : أنهم كانوا على ستين راحلة . وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان ، وقيل : كانوا ثلاثمائة ، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفا ، فاعلم هذا الاختلاف دليل على تكرار وفادتهم عليه صلوات الله وسلامه عليه ، وما يدل على ذلك ما قاله البخاري في صحيحه :

حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثني ابن وهب ، حدثني عمر - هو ابن محمد - أن سألنا حدثه ، عن عبد الله بن عمر قال : ما سمعت عمر يقول لشيء قط : (إنى لأظنه كذا) إلا كان كما يظن ، بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مرَّ به رجل جميل ، فقال : لقد أخطأ ظني - أو : إن هذا على دينه في الجاهلية - أو : لقد كان كاهنهم - عكبي بالرجل ، فدعاه له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليرم استقبل به رجل مسلم . قال : فاني أعزم عليك إلا ما أخبرني . قال : كنت كاهنهم في الجاهلية : قال : فما أعجب ما جأته بك به جئتيتك . قال : بينما أنا يوما في السوق جاءني أعرف فيها الفزع ، فقالت :

للهر الجين^(٥) وأبلاسها^(٦) وتأسها من^(٧) يهد إنكسها

وكحوقها بالقلاص^(٨) وأحلأسها

(١) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب « ذكر الجن » ٥٨/٥ - ٥٩ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٢٢/٢٩ .

(٣) في اللز : « والأردو أنبياء »

(٤) يمد في اللز : « وورقة » .

(٥) أي : تغيرها ودمشتها .

(٦) القلاص : جمع تلوص ، وهي الناقة الشابة . والأحلاس : جمع أحلس - بكسر فسكون - وهو الكساء الذي يلبس للهر ،

قال عمر : صدق ، بينما أنا نائم عندكم ، إذ جاء رجل يعجل قلبه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : يا جليج (١) ، أمر نجيج ، رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله ، فوب القوم قلت : لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا ؟ ثم نادى يا جليج ، أمر نجيج ، رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله ، فممت ، فما تشبنا أن (٢) قيل : هلأ نبي (٣) .

هذا سياق البخارى ، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب ، نحوه ، ثم قال : « وظاهر هذه الرواية يؤهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذُيِّع ، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر [في إسلامه] (٤) ، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بملك عن رؤيته وسامعه (٥) ، والله أعلم » .

وهذا الذى قاله البيهقي هو النجبة ، وهذا الرجل هو سواد بن قارب ، وقد ذكرت هذا مستقصى في سيرة عمر رضي الله عنه ، فمن أراد أن يطلع عليه من قديم ، والله الحمد .

قال البيهقي : « حديث سواد بن قارب ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح » .

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب للمفسر من أصل سماعه ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصغار الأصمعي قراءة عليه ، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفي (بالكوفة) ، حدثنا زياد بن يزيد بن بادوية (٦) أبو بكر القصري ، حدثنا محمد بن النواس (٧) الكوفي ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبي إسحاق ، عن البراء قال : بينما عمر ابن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ قال : أيها الناس ، أفبكم سر واد بن قارب ؟ قال : فلم يجبه أحد تلك السنة ، فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس ، أفبكم سواد بن قارب ؟ قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، وما سواد بن قارب ؟ قال : فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بئس إسلامه شيئاً عجبياً (٨) ، قال : فبينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب ؟ قال : فقال له عمر : يا سواد ، حدثنا ببئس إسلامك ، كيف كان ؟ قال سواد : فإني كنت نازلاً بالهند ، وكان لي ربي من الجن ، قال : فبينما أنا ذات ليلة نائم ، إذ جازني منامى ذلك قال : قم فافهم واحقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسول من لؤي بن غالب ، ثم أنشأ يقول :

عَجِبْتُ لِلْجَنِّ وَأَنْجَسِيهَا (٩) وَشَدَّهَا الْعَيْسُ (١٠) بِأَحْلَاسِهَا

(١) الجليج : اسم رجل ناداه .

(٢) أي : ما لبثنا .

(٣) البخارى ، باب « إسلام عمر بن الخطاب » : ٦١٧/٥ .

(٤) ما بين القوسين من الدلائل .

(٥) دلائل النبوة ، خطوط بدار الكتب برقم ٧٥١ حديث : الجزء الثاني ، ورقة : ٥٤ .

(٦) كلما في الخطوطة . وفي الدلائل : « بادوية » .

(٧) في الدلائل : « عمة بن تراس » .

(٨) في الدلائل : « صعبا » .

(٩) في الخطوطة : « وأنجسها » . والمختب من عن الدلائل : « وأشد القابة » : ٨٥٧/٢ .

(١٠) العيس : الإبل البيضاء مع فقرة بيضاء ، الواحد : عيس ، جمع : عيساء .

تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى مَا مَوْنُو الْجِنَّ كَأَرْجَاسِهَا (١)
فَانْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِيْنِكَ إِلَى رَاسِهَا

قال : لم أنبئ فافهمي ، قال : يا سواد بن قارب ، إن الله بعث نبياً فانضى إليه تهنئت وترشد . فلما كان من الليلة الثانية أتاني فأنبئني ، ثم أنشأ يقول كذلك :

صَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطَلَّيْهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَفْتَابِهَا (٢)
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى لَيْسَ قَدْ أَمَّاها كَأَذْنَابِهَا
فَانْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ وَاسْمُ بَعِيْنِكَ إِلَى نَابِهَا

فلما كان في الليلة الثالثة أتاني فأنبئني ، ثم قال :

صَجِبْتُ الْجِنِّ وَتَحْبِكُهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَكْوَرِهَا (٣)
تَهْوَى إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى لَيْسَ ذَوُو الشَّرِّ كَأَيْبَارِهَا
فَانْهَضَ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ مَا مَوْنُو الْجِنِّ كَكُفَّارِهَا

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة ، وقع في قلبي حب الإسلام من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله ، قال : فانطلقت إلى رحلي فشدته على رحلي ، فاحللت نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو بالمدينة - يعني مكة - والناس ضيه كمرقب الثرس ، فلما رآني اتبني صلى الله عليه وسلم قال : « مرحبا بك يا سواد ابن قارب ، قد حلما ما جاء بك » قال : قلت : يا رسول الله ، قد قلت شعرا ، فاسمعه مني . قال سواد : فقلت :

أَتَأْتِي رَبِّي بِدَلِيلٍ وَهَجْمَةٍ وَلَمْ يَكُ فَيَا قَدْ بَلَوْتُ بِكَأَذِبِ
ثَلَاثَ لَيَالٍ قَوْلُهُ كُلُّ لَيْلَةٍ : أَتَاكَ رَسُولٌ مِنْ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبِ
فَتَشَمَّرْتُ عَنْ سَبَاقِ الْإِزْكَارِ وَوَسَطْتُ فِي الدُّعْلِبِ الْوَجْنَاءُ عِنْدَ السَّبَاسِبِ (٤)
فَتَأَنَّهُدُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَيْءَ خَيْرُهُ وَأَنْتَكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ هَالِبِ
وَأَنْتَ أَهْلِي الْمُرْسَلِينَ شَفَاعَةً إِلَى اللَّهِ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ الْأَطَابِيبِ
فَتَمَرُّنَا بِمَا يَأْتِيكَ بِاخْتِيارٍ مُرْسِلِ (٥) وَكَانَ كَانَ فَيَا جَاءَ شَيْبُ الدَّوَابِ
وَكَنْتُ فِي شَفَعِيائِهِمْ لِأَذْوِ شَفَاعَةٍ سَوَاكَ بَعْضُ مِنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

(١) في الدلائل : « ما مَوْنُوها مثل أرجاسها » .

(٢) الأَصَابِ : جمع قَب - بَضْحِيذ - ، وهو الجمل كالبقرة لغيره .

(٣) الْأَكْوَارُ : جمع كَوْر ، وهو رجل الناقة .

(٤) الدُّعْلِبُ : الناقة الفتية للشابة . وَالْوَجْنَاءُ : العظيمة الوجنتين . وَالسَّبَاسِبُ : القفار . وَكَانَ فِي الْخَطُوطِ : « غير السباب » .

والخبيث من الدلائل .

(٥) في الدلائل : « ياخير من متى » .

قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال لي : « أفلحت يا صواد » فقال له عمر : هل يأتيك رقيقك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتي ، ونعم العرض كتاب الله من الجن (١) .

ثم أسنده اليه من وجهين آخرين (٢) . وما يدل على وفادتهم إليه عليه السلام بعد ما هاجر إلى المدينة الحديث الذي رواه الحافظ أبو نعيم في كتاب « دلائل النبوة » :

حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا محمد بن عبد المصيصي ، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن زيد بن أسلم : أنه سمع أبا سلام يقول : حدثني من حديثه عمرو بن فيلان الثقفي قال : أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له : حدثت أنك كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وفد الجن ؟ قال : أجل . قلت : حدثني كيف كان شأنه ؟ فقال : إن أهل الصفّة أخذ كل رجلٍ منهم رجلٌ يُعْتَشِبُهُ ، وتركت فلم يأخذني أحد منهم ، ففر برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من هنا قلت : أنا ابن مسعود . قال : ما أخذك أحد يعشيك ؟ قلت : لا قال : فانطلق لعلّ أجد لك شيئاً . قال : فانطلقنا حتى أتى حجرة أم سلمة فركبني ودخل إلى أهله ، ثم خرجت الجارية فقالت : يا ابن مسعود ، إن رسول الله لم يجد لك شئاً ، فارجع إلى مضجعتك . قال : فرجعت إلى المسجد ، فجمعت حصباء المسجد فترسدت ، وانتفتت بثرني ، فلم ألبث إلا قليلاً حتى جاءت الجارية ، فقالت : أجب رسول الله . فاتبعها وأنا أرجو العشاء ، حتى لاذت بالبيت ، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي يده عسيب (٣) من نخل ففرض (٤) به على صدري فقال : انطلق أنت معي حيث انطلقت ؟ قلت : ما شاء الله . فأعادها على ثلاث مرات ، كل ذلك أقول : ما شاء الله . فانطلق وانطلقت معه ، حتى أتينا بقمع الفرقد ، فخط حصاء خطأ ، ثم قال : « اجلس فيها ، ولا ترح حتى أتيك » . ثم انطلق بمشي وأنا أنظر إليه خلال النخل ، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت المصاحبة (٥) السوداء ، ففترقتُ قلت : ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإني أظن أن هوازن مكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، فأسمى إلى البيوت ، فاستنبت الناس . فذكرت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أوصاني : أن لا أبرح مكان الذي أنا فيه ، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرعهم بعصاه ويقول : « اجلسوا » . فجلسوا حتى كاد ينشق عמוד الصبح ، ثم ثاروا وذهبوا ، فأتاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أتيت بعدى ؟ قلت : لا ، ولقد فرحت الفرقة الأولى ، حتى رأيت أن آتي البيوت فاستنبت الناس حتى سمعتكم تقرعهم بعصاك ، وكنت أظنها هوازن ، مكثروا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليقتلوه . فقال : لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما أنتهم عليك أن يختطفك بعضهم ، فهل رأيت من شئ منهم ؟ قلت : رأيت رجالاً سوداً مستعربين (٦)

(١) دلائل النبوة للبيهقي ، غلطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثاني ، ورقة : ٥٦ - ٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ورقة : ٥٧ - ٥٨ .

(٣) السبيب : جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها .

(٤) في الغلظة : « فقيض » . والمكبت عن الطبعات السابقة .

(٥) مخي من قريش تفسير المصاحبة .

(٦) الله لا يسبها .

بشباب بيض . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولئك وفد جن نصيبى ، اتوا فأسألو الزاد والمناخ ، فتمتهم بكل عظم حائل أو بركة أو بركة ؟ قلت : وما يبنى عنهم ذلك ؟ قال : « إنهم لا يجدون عظام إلا وجدوا عليه لحمه الذى كان عليه يوم أكل ، ولأروثة إلا وجدوا فيها جبهه الذى كان فيها يوم أكلت ، فلا يستثنى أحد منكم وعظم ولا بركة » .

وهذا إسناد غريب جداً ، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد ، حدثني لعمري ابن زيد القنبر ، حدثنا أبي ، حدثنا قحافة بن ربيعة ، حدثني أ الزبير بن العوام قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح في مسجد المدينة فلما انصرف ، قال : « أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة ؟ » فأسكت القوم ثلاثاً ، فربى فأخذ يبدى ، فجعلت أمشى معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها ، وأفضيتنا إلى أرض براز فإذا برجال طوال كأنهم الرماح ، مستشعرين بياهم من بين أرجلهم ، فلما رأيتهم غشيتى رعدة شديدة ، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم ، وهذا حديث غريب ، والله أعلم .

ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم : حدثنا أبو محمد بن حيان ، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح ، حدثنا يعقوب الدورى ، حدثنا الوليد بن بكر التميمي ، حدثنا حصين بن عمر ، أخبرني عبيد الملك ، عن إبراهيم قال : خرج نفر من أصحاب عبد الله يريدون الحج ، حتى إذا كانوا في بعض الطريق إذا هم بحية تنتنى على الطريق أبيض ، ينفخ منه ريح المسك ، فقلت لأصحابي : امضوا ، فليست يابح حتى أنظر إلى ما يصبر إليه أمر هذه الحية . قال : فإليبت أن ماتت ، فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها ثم نحييتها عن الطريق فدفتها ، وأدركت أصحابي في المتعشى . قال : فو إنا لقد نعقد إذ أقبل أربع قسوة من قبل المغرب ، فقالت واحدة منهن : أيكم دفن عمراً ؟ قلنا : ومن عمرو ، قالت : أيكم دفن الحية ؟ قال : قلت : أنا . قالت : أما والله لقد دفنت صتماً قوماً ، يأمر بما أنزل الله ، ولقد آمن بنبينا ، وسمع صفته من السماء قبل أن يبعث بأربعائة عام . قال الرجل فحمدنا الله ثم قضينا حجتنا ثم مروت بمر بن الخطاب في المدينة فأبانه بأمر الحية ، فقال : صدقت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لقد آمن في قبل أن أبعث بأربعائة سنة » .

وهذا حديث غريب جداً ، والله أعلم .

قال أبو نعيم : وقد روى الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن الشعبي ، عن رجل من ثقف ، نحوه . وروى عبد الله بن أحمد والظهيراني ، عن صفوان بن المعطل — هو الذى نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة — وأتهم قالوا : أما إنه آخر النعسة موتاً للذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمعون القرآن .

وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد ، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ، عن عمه ، عن معاذ بن عبيد (١) الله ابن معمر قال : كنت جالساً عند عثمان بن عفان فجاء رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إني كنت بفلاة من الأرض ، فذكر أنه رأى نبتين اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر ، قال : فذهبت إلى الممر ، فوجدت حيات كثيرة مقتولة ، وإذا ينفع من بعضها ريح للسك ، فجعلت أشمها واحدة واحدة ، حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة ، فلففتها في عمامتي ودفنتها . فبينما أنا أمشى إذ ناداني مناد : يا عبد الله ، لقد هديت ! هذان حيان من الجن يتوآشعيان ويؤاقيش القوا ، فكان من القتل

(١) في المخطوطة : « عبد الله » والخطيب عن البرج والتمثيل لابن أبي حاتم ٢٤٧/١ .

ما رأيت، واستشهد الذي دفتته ، وكان من الذين سمعوا الوحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : فقال مثنى لثلاث الرجل : إن كنت صادقاً فقد رأيت عجبا ، وإن كنت كاذبا فعليك كليلك .

ف قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) ، أى : طائفة من الجن (يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : تصدعوا) ، أى : استمعوا وهذا أدب منهم .

وقد قال الحافظ البيهقي : حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان ، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق ، حدثنا محمد بن إبراهيم البُوشَنجِي ، حدثنا هشام بن عمار التميمي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن زهير بن محمد ، عن محمد ابن المنكسر ، عن جابر بن عبد الله قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «سورة الرحمن» حتى ختمها ، ثم قال : « مالى أراكم سكروا لتسجن كنتموا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة : (فبأى آلاء ربكما تكلبان) ، إلا قالوا : ولا يمشى من آلائك (١) أو لا نعمتك ربنا تكلم ، فلك الحمد » (٢) .

ورواه الترمذي في التفسير ، عن أبي مسلم عبد الرحمن بن واقد ، عن الوليد ابن مسلم ، به : قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن ... » فذكره ، ثم قال : الترمذي : « غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد ، عن زهير (٣) » . كلنا قال . وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطاطري ، عن زهير بن محمد ، به مثله (٤) .

وقوله : (فلما قضى) ، أى : فرغ . كقوله : (فلما قضيت الصلاة) (٥) ، (فقضاهن سبع سموات في يومين) (٦) ، (فلما قضيت مناسككم) (٧) .

(ولوا إلى قومهم منلرين) ، أى : رجعوا إلى قومهم فأنزلوهم ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقوله : (ليتفقروا في الدين ، ولينزلوا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (٨) .

وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نكدٌ ، وليس فيهم رسل . ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا ، لقوله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يُوحى إليهم من أهل القرى) (٩) . وقال : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) (١٠) . وقال عن إبراهيم الخليل : (وجعلنا في ذرية النوبة والكتاب) (١١) .

(١) ما بين القوسين غير ثابت في الدلائل .

(٢) دلائل النبوة البيهقي ، مخطوط بدار الكتب ؛ برقم ٧٠٩ حديث « الجزء الثاني » ورقة ٤٩ .

(٣) نسخة الأسدي ، تفسير سورة الرحمن ، الحديث ٣٣٤٥ : ١٧٧/٩ - ١٧٩ .

(٤) دلائل النبوة ، الجزء الثاني ، ورقة ٤٨ .

(٥) سورة الجمعة ، آية : ١٥ .

(٦) سورة فصلت ، آية : ١٣ .

(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٠٠ .

(٨) سورة التوبة ، آية : ١٢٢ .

(٩) سورة يوسف ، آية : ١٠٩ . وفي المخطوطة : « يوحى » بالبناء للمجهول . وهي قراءة الجمهور .

(١٠) سورة الفرقان ، آية : ٢٥ .

(١١) سورة المتكوت ، آية : ٢٧ .

فكل نبى بعث الله بهد إبراہیم فن حوته وسلاته ، فأما قوله تعالى فى الأنعام : (يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم (١)) ، فالراد من مجموع الجنسين ، فيصدق على أحدهما وهو الإنس ، كقوله : (يخرج منها اللؤلؤ والمرجان (٢)) ، لى : أحدهما : ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال خبراً عنهم : (قالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) ، ولم يذكروا عيسى لأن عيسى عليه السلام - أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترفقات وقليل من التحليل والتجريم ، وهونى الحقيقة كالنظم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا : أنزل من بعد موسى . وهكذا قال ورقة بن نوفل ، حين أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بقصة نزول جبريل عليه أول مرة ، فقال : **يَخْ بَخ (٣)** ، هذا التاموس الذى كان يأتى موسى ، يا لئنى أكون فيها جلدعاً (٤) .

(مصداقاً لما بين يديه) ، أى : من الكتب المثلثة قبله على الأنبياء . وقولهم : (يهذى إلى الحق) ، أى : فى الاعتقاد والإنخبار ، (وإلى طريق مستقيم) ، فى الأعمال ، فإن القرآن يشتمل على شيئين ، خبر وطلب ، فخيرهُ صدق ، وطلبه عدل ، كما قال : (وتمت كلمات ريك صدقاً وعدلاً) (٥) وقال : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) (٦) . فالهدى هو : العلم النافع ، ودين الحق : هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن : (يهذى إلى الحق) فى الاعتقادات ، (وإلى طريق مستقيم) ، أى : فى العمليات .

(يا قومنا ، أجيروا داعى الله) ، فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً - صلوات الله وسلامه عليه إلى التلئين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب التفرقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهى سورة الرحمن ، ولهذا قال : (أجيروا داعى الله وأمنوا به) .

وقوله : (يغفر لكم من ذنوبكم) ، قيل : إن « من » هاهنا زائدة ، وفيه نظر ، لأن زيادتها فى الإثبات قليل . وقيل : لأنها على بابها التخص ، (ويحرمكم من عذاب أليم) ، أى : ويقبكم من عذابه الأليم .

وقد استدل به الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة ، ولهذا قالوا هذا فى هذا المقام ، وهو مقام تبيح ومبالغة ، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى قال : حدثت عن جرير ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : لا يدخل مؤمنو الجن الجنة ، لأنهم من ذرية إبليس ، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة .

والحق أن مؤمنهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة ، كما هو مذهب جماعة من السلف ، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله : (لم يعلمن إنس قبلهن ولا (٧) جان) . وفى هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله تعالى : (ومن خاف مقام ربه جنتان) .

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢٠ .

(٢) سورة الرحمن ، آية : ٢٢ .

(٣) يخ بَخ : كلمة يقال للاحتسان .

(٤) لى : شاباً عند ظهورها .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١١٥ . وفى المخطوطة « كلمات » وهى قراءة ثالثة ، انظر للقرطبي : ٧١/٧ .

(٦) سورة التوبة ، آية : ٣٣ .

(٧) سورة الرحمن ، آية : ٧٤ .

فبأى آلام وبكى (١) تكلمنا) ، قد آمنتم تعالى على الضالين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، وقد قابلت الجبن هذه الآية بالشكر والقرى ! أبلغ من الإيس ، فقالوا : لا يشتيء من الآثك ربنا نكذب ، فلك الحمد ، فلم يكن تعالى لعن عليهم جزاء لا يحصل لهم ، وأيضا فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار - وهو مقام علك - فكأن يجازى مؤمنهم بالجنة - وهو مقام فضل - بطريق الأولى والأخرى . وما يدل أيضا على ذلك عموم قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس (٢) نزلا) ، وما أشبه ذلك من الآيات . وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة ، والله الحمد والمئة : وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا ، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا ؟ . وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير اللنوب والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار ، فمن أجبر من النار دخل الجنة لا محالة . ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أجبروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم . وهذا نوح - عليه السلام - يقول لقومه : (ينفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى (٣)) ، ولا خلاف أن مؤمنى قومه في الجنة ، فكللك هؤلاء : وقد حكى فيهم أقوال غريبة فمن عسر ين عهد العزيز : أنهم لا يدخلون بمحبوكة (٤) الجنة ، وإنما يكونون في رتبها وحولها وفي أرجائها (٥) . ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يرونهم بنى آدم عكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا : ومن الناس من قال : لا يكونون في الجنة ولا يشيرون ، وإنما يلهون السبيح والتحميد والتقديس ، حوضا عن الطعام والشراب كالملائكة ، لأنهم من جنسهم : وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها

ثم قال خيرا منهم : (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض) ، أى : بل قدرة الله شاملة له ومجبة به ، وليس لهم من دونه أولياء) أى لا يجبرهم منه أحد (أولئك في ضلال مبين) وهذا مقام تهديد وترهيب ، فقد عوا قومهم بالترهيب والترهيب ، ولهذا نجح في كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفودا وفودا ، كما تقدم بيانه .
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِمْنِ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يُخْشِيَ الْمَوْتِ بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا الَّذِي قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قُلْ فَعُوذُوا بِعَذَابِ رَبِّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ (٧) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا الْأَوَّلَ الْعَزِمِ مِنَ الرَّسُولِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ بَلَّغَ قَهْلُ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٨)

يقول تعالى : (أولم يروا) أى : هؤلاء المنكرون بالبعث يوم القيامة ، المستعجلون لقيام الأجساد يوم الماد (أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعبى خلقهم) ، أى : ولم يكثره (٦) خلقهم ، بل قال لها : كوني ، فكانت ، بلا مماناة ولا عقاله .

(١) سورة الرحمن ، آية : ٤٦ - ٤٧ .

(٢) سورة الكهف ، آية : ١٠٧ .

(٣) سورة نوح ، آية : ٤ .

(٤) مجبوسة النار : وسطها .

(٥) في المشطورة : وفى رحابها . وللميت عن الطيمات السابقة . والأرجاء : جوع دجا ، وهو : ناحية الموضع .

(٦) كرامة الأمر : اشتد عليه وبلغ منه المشقة .

تفسير سورة القتال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ① وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَسْطَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ③

يقول تعالى : (الذين كفروا) ، أى : آيات الله ، (وصدوا عن سبيل الله ، أضل أعمالهم) ، أى : أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا ، كقوله تعالى : (وقد علمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) (١).

ثم قال : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، أى : آمنت قلوبهم وسرائرهم ، واتقادت جوارحهم لربوهم وطاعتهم وظواهرهم ، (وآمنوا بما نزل على محمد) ، عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته — صلوات الله وسلامه عليه — .

وقوله : (وهو الحق من ربهم) جملة معترضة حسنة ، ولهذا قال : (كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) — قال ابن عباس : أى أسامهم (٢) . وقال مجاهد : شأهم . وقال قتادة وابن زيد : حالم . والكلم مقارب وقد جاء في حديث ثعلبية العاطس : « يهلك الله ، ويصلح بالكم » (٣) .

ثم قال تعالى : (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل) ، أى : إنما أبطلنا أعمال الكفار . وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شئونهم ، لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، أى : اختاروا الباطل على الحق ، (وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، كذلك يضرب الله للناس أَمْثَلَهُمْ) ، أى : بين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه في معادهم .

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَلَمَّا مَتَّ بَعْدَ وَإِنَّمَا فَدَاةٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْتُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ بَعْضَ الَّذِينَ فَتَلَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ④ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ⑥ يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ انتصروا والله يَنْصُرُهُمْ وَيُنْصِرُهُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَهُمْ ⑦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ أَعْمَلُهُمْ ⑧ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ ⑨

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتملونه في حروبهم مع للمشركين ، (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) ، أى : إذا واجهتهم فاحصوهم فاحصوهم حصدا بالسيف ، (حتى إذا أتمتموهم) ، أى : اهلكوهم قتلا (فشلوا) الأسارى الذين

(١) سورة الفرقان : آية : ٢٣ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٦ / ٢٥ .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه في كتاب الأدب ، أنظر سنن أبي داود ، باب : ما جاء في ثعلبية العاطس .

المحدث : ٥٠٣٣ : ٣٠٧٤/٤ - ٣٠٨ - وثقة الأخوفى ، باب : كيف يشمت العاطس ، الحديث ٢٨٨٣ : ١١٤٨ - ١٢٠٠ . وابن ماجه ، باب : تشميت العاطس ، الحديث ٣٧١٥ : ١٢٢٢/٢ .

فأمرهم ، ثم أتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة غيرهم في أمرهم ، إن شئتم متتبع عليهم فأطلقتم أسرارهم مجاناً ، وإن شئتم فادبتموهم بحال تأخلوته منهم وتناطلوهم عليه . والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله سبحانه هائب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء ، والقتال من القتل يومئذ فقال : (ما كان لني أن يكون له أمرى حتى يشن في الأرض ، ترون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (١) .

ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفادة الأسير والمن عليه - متسوخة بقوله تعالى : (فإذا أسلخناهم من الحرب فلو تاملنا لمرهم فالتوا المشركون حيث وجدتموهم) (٢) ... الآية ، رواه العوفي عن ابن عباس (٣) . وقاله قتادة ، والضحاك ، والسدي ، وابن جرير ،

وقال الآخرون - وهم الأكثرون - : ليست متسوخة .

ثم قال بعضهم : إنما الإمام مُخَيَّر بين المن على الأسير ومفادته فقط ، ولا يجوز له قتله .

وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء ، لحديث قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر . وقال ثمامة بن أثال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قال له : « ما عندك يا ثمامة ؟ » فقال : « إن تَشْكُلُ تَشْكُلُ خادماً ، وإن تَمُنْ تَمُنْ على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل نفسك منه ما شئت » (٤) .

وزاد الشافعي رحمه الله فقال : الإمام غير بين قتله أو المن عليه ، أو مفادته أو استرقاقه أيضاً . وهذه المسألة مُحَرَّرَةٌ في علم الفروع ، وقد دللنا على ذلك في كتابنا « الأحكام » ، والله الحمد والمنة .

وقوله : (حتى تضع الحرب أوزارها) - قال مجاهد - حتى يتزل عيسى ابن مريم (٥) . وكأنه أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال » (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن إبراهيم بن سليمان ، عن الوليد بن عبد الرحمن الجعفي ، عن جبير بن نفير أن سلمة بن نَعْلان أخبرهم : أنه أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « إني سَيِّئٌ » (٧) الخليل ، وأقيمت السلاح ، ووضعت الحرب أوزارها ، وقلت : « لا قتال » . فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم : « الآن

(١) سورة الأنفال ، آية : ٦٧ - ٦٨ .

(٢) سورة التوبة ، آية : ٥ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٦٦/٢٦٧ .

(٤) ميرة ابن هشام : ٦٣٨/٢ . وأمد القابة : ٢٩٤/١ . جسيقنا .

(٥) تفسير الطبري : ٢٧٦/٢٧٧ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « في دوام الجهاد » الحديث ٢٤٨٤ : ٣/٤ .

(٧) كذا في الخطوط . وفي المسند : « سئت » . وسنن سبت الخليل : تركها تسرح ، تلعب وتجي كما تشاء . وفي النساى :

(٨) أقال الناس الخليل . والإفالة : الإمالة والاستخفاف بالناس .

جاء القتال (١) ، لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الناس يُزَيِّغُ (٢) الله قلوب أقيّوسهم ، ويرزقهم الله منهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . ألا إن عَصْرَ دار المؤمنين (٣) الشام ، والخيْلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٤) ، وهكذا رواه الترمذي من طريقين ، عن جابر بن نفير ، عن سلمة بن كهيل السكوني ، به (٥) :

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا داود بن رشيد ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن (٦) محمد بن مهابر عن الوليد بن عبد الرحمن الجعفي ، عن جابر بن نفير ، عن النّوّاس بن سميان قال : لما فتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح ، فقالوا يا رسول الله : سيبت الخيل ، ووضعت السلاح ، ووضعت الحرب أوزارها ، قالوا : لا قتال ، قال : « كذبوا الآن ، جاء القتال ، لا يزال الله يَرْفَعُ (٧) قلوب قوم يقاتلونهم ، فيرزقهم منهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك وعَصْرُ دار المسلمين بالشام » .

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن داود بن رشيد ، به . والمخفوط أنه من رواية سلمة بن كهيل كما تقدم . وهذا يقوى القول بعدم التنسخ ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب .

وقال قتادة : (حتى تضع الحرب أوزارها) ، حتى لا يبقى شرك . وهذا كقوله تعالى : (وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) . ثم قال بعضهم : (حتى تضع الحرب أوزارها) ، أي : أوزار المخاربين ، وهم المشركون ، بأن يعزوا إلى الله عز وجل . وقيل : أوزار أهلها بأن يذلوا الواسع في طاعة الله عز وجل .

وقوله : (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) ، أي : هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بقوة وتكامل من منته ، (ولكن ليبلى بعضهم بعض) ، أي : ولكن شرع لكم الجهاد وقال الأعداء ليختبركم ، ويبلو أختباركم . كما ذكر حكيمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة في قوله : (أم حسين أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (٨)) .

وقال في سورة براءة : (قاتلهم يطعمهم الله بأيديكم ويغفر وينصرهم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين) . ويذهب غيظ قلوبهم ويحب الله على من يشاء والله عليم حكيم (٩) .

(١) لفظ التناهي : « كذبوا ، الآن » .

(٢) لفظ المنع : « يرفع الله » . وسألت في رواية البغوي : « يرفع قلوبهم » . حل أن في التناهي « يزيع » .

(٣) أي : أصل دارهم .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٩٠٤/٤ .

(٥) الترمذي ، كتاب الخيل : ٢١٤٦٩ - ٢١٥٠ .

(٦) سائين القوسين عن سنن ورد في مسند الإمام أحمد ، انظر : ١٨٣/٤ . وكان في المخطوطة : « حدثنا الوليد بن محمد ابن مهابر » . وهو خطأ ، وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ، ترجمة محمد بن مهابر الشامي : . ٩١/١٤ .

(٧) كلما في المخطوطة ، وقد بينها أنه ورد في رواية الإمام أحمد : « يرفع » . ولعل المتن : « يقدم قلوب هؤلاء القوم ويغفرهم إلى قتالهم » .

(٨) سورة آل عمران ، آية : ١٤٢ .

(٩) سورة لقوة ، آية : ١٤ - ١٥ .

ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين ، قال : (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) ، أي : لن يلحقها بل يكرها وينميا ويضاعفها . ومنهم من يجرى عليه عمله في طول برزخه ، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده ، حيث قال :

حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي ، حدثنا ابن ثوبان ، عن أبيه ، عن مكحول ، عن كثير بن مرة ، عن قيس الجلباني - رجل كانت له حبة - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه يكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويؤمن من الفرع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحل حكمة الإيمان (١) » . فرده أحمد رحمه الله .

حديث آخر ، قال أحمد أيضا : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن يحيى (٢) بن سعيد ، عن خالد بن معدان ، عن المقدام بن معد يكرب الكندي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفعة (٣) من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحل حكمة الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجاز من عذاب القبر ، ويؤمن من الفرع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، والياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج الثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويؤمن في سبعين إنسانا من ألقابه (٤) » . وقد أخرجه الترمذي ، وصححه ابن ماجه (٥) .

وفي صحيح مسلم من عبد الله بن عمرو ، عن أبي قتادة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُغفر للشهيد كل شيء إلا الذنير (٦) » وروى من حديث جماعة من الصحابة ، وقال أبو الدرداء : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته (٧) » . ورواه أبو داود . والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جدا . وقوله (سيهلبهم) ، أي : إلى الجنة ، كقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم) (٨) .

وقوله (ويصلح بهم) ، أي : أمرهم وحالهم ، (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) ، أي : عرفهم بها وهداهم إليها . قال مجاهد : يبتلى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستلون عليها أحدا (٩) . وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٠٠/٤ . وانظر أسد الغابة : ترجمة قيس الجلباني : ١٥٠/٤ ، بتحقيقنا .

(٢) في المخطوطة « يحيى بن سعيد » . وهو خطأ ، والسواب من المسند وكتب الرجال .

(٣) في المخطوطة : « غفلة » . والمثبت من المسند والترمذي .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٣١/٤ .

(٥) تحفة الأوسى : أبواب فضائل الجهاد ، الحديث ١٧١٢ : ٣٠٢/٥ - ٣٠٤ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح غريب » . وسنن ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب « فضل الشهادة في سبيل الله » ، الحديث ٢٧٩٩ : ٩٣٥/٢ - ٩٣٦ .

(٦) مسلم : كتاب الإمارة ، باب « من قتل في سبيل الله ، كفرت خطاياهم إلا الدين » ، ٣٨/٦ .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « في الشهيد يشفع » ، الحديث ٢٥٢٢ : ١٥٠/٣ .

(٨) سورة يونس : آية : ٩ .

(٩) تفسير الجلالين : ٢٩/٢٦ .

وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة ، كما يعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وكيلَ عِظَمَ عمله في الدنيا يمشي بين بابيه في الجنة ، ويتبعه ابنُ آدم حتى يأتي أقصى منزل هو له ، فيعرفه كل شيء أعطاه الله في الجنة ، فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل منزله وأزواجه ، وانصرف للملك عنه ، ذكرهن ابن أبي حاتم رحمه الله .

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا ، رَوَاهُ البخاري من حديث قتادة ، عن أبي التوكل الناجي ، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتفحصون عظام كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هتدوا وتقوا أخذ لهم في دخول الجنة ، والذي نفسى بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله كان في الدنيا (١) » .

ثم قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، كقوله : (ولينصرن الله من ينصره) (٢) ، فلما الجزء من جنس العمل ، ولهذا قال : (ويثبت أقدامكم) ، كما جاء في الحديث : « من يبلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع لإيلافها ، ثبت الله قدمه على الصراط يوم القيامة » .

ثم قال تعالى : (والذين كفروا فتعسا لهم) ، عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت في الحديث عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « تمس عبد البتار ، تمس عبد درهم ، تمس عبد القطيفة ، تمس وانتكس ، وإذا شيك (٣) فلا انتكش (٤) » ، أي : خلا شفاة الله .
وقوله : (وأضل أعمامهم) ، أي : ألبطها وأبطلها . ولهذا قال : (ذلك بأنهم كرهوا ما أئزل الله) ، أي : لا يريدونه ولا يحبونه ، (فأجهل أعمالهم) .

« أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَآثَمُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَحَّوْنَ وَيَكُونُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (٦) وَكَانَ مِنْ قَرَابَةِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الْإِنِّي أَخْرِجُكَ أَهْلَكَ عَنْهُمْ فَلَا يَنْصُرُكُمْ (٧) »

يقول تعالى : (أقلم يسيروا) — يعني المشركين بالله المكلفين لرسوله — (في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من أهلكهم الله عليهم) ، أي : عاقبتهم بتكذيبهم وكفرهم ، أي : ونجى المؤمنين من بين أظهرهم . ولهذا قال : (وللكافرين

(١) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب « القصص يوم القيامة » : ١٣٨/٨ - ١٣٩ .

(٢) سورة الحج ، آية : ٤٠ .

(٣) أي : إذا دخل في جسمه فوكه ، فلا انتكش ، فلا أخرجهما من موضعها .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الزمعة ، باب « في المكثرين » ، الحديث ١٣٦٦ : ٤/٢ - ١٣٨٦ .

أعطاه : ثم قال : (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) ولهذا قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأله عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أبي بكر وعمر فلم يجب ، وقال : أما هؤلاء فقد هلكوا . وأجابه عمر بن الخطاب فقال : كلبت يا عدو الله ، بل أبقي الله لك ما يسؤوك ، وإن الذين عَدَدْتَ لأحياء . فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مُخَلَّةً (١) لم آمر بها ولم تسؤني ، ثم ذهب يرميز ويقول : « أهل هُبَيْل ، أهل هُبَيْل » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : يا رسول الله ، وما نقول ؟ قال قولوا : « الله أهل وأجل » . ثم قال أبو سفيان : لنا المزي ، ولا عَزَى لكم . فقال : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم (٢) » .

ثم قال : (إن الله يدخل الذين آمنوا وعلوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) ، أى : يوم القيامة ، (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) ، أى : فى دنياهم ، يتمتعون بها ويأكلون منها كما تأكل الأنعام ، خَصَفًا وقضيا ، ليس لهم حمة إلا فى ذلك . ولهذا ثبت فى الصحيح : « المؤمن يأكل فى مِيعَةٍ واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء (٣) » .

ثم قال : (والثقل مولى لهم) ، أى : يوم جزائهم .

وقوله : (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك) ، يعنى مكة ، (أهلكتهم إلا ناصر لهم) ، وهذا شديد شديد ، ووحيد أكيد لأهل مكة ، فى تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله -- هو وجل -- قد أهلك الأمم -- الذين كتبوا الرسل قبله ، بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فإذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى ؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة ، فإن العذاب يورث على الكافرين به فى معادهم ، (يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون (٤)) .

وقوله : (من قريتك التى أخرجتك) ، أى : الذين أخرجوك من بين أظهرهم .

وقال ابن أبي حاتم : ذكر أبى ، عن محمد بن عبد الأهل ، عن المختبرين سليمان ، عن أبيه ، عن حنّس ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن النبي -- صلى الله عليه وسلم -- لما خرج من مكة إلى الفار -- [أراه قال : التقت آ(٥) إلى مكة -- وقال : « أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلىَّ » ، ولو أن للمشركين لم يخرجوني لم أخرج منك] . فأعدى الأعداء من عداً على الله فى حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذُحُول (٦) الجاهلية ، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم : (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكتهم ، فلا ناصر لهم) .

(١) يقال : « مُخَلَّتْ -- بفتح الخاء -- بالقتيل » : إذا جعلت الله ، أو أذنته ، أو ملاكبره ، أو شيئاً من أمثاله .

(٢) تقدم الحديث فى سورة آل عمران عند تفسير الآية ١٥٢ منها ، وأخرجناه هناك . انظر ١١٥/٢ .

(٣) البخارى ، كتاب الأطعمة ، باب « المؤمن يأكل فى مِيعَةٍ واحد » . ٩٢/٧ . ومسلم ، كتاب الأضحية ، باب « المؤمن يأكل فى مِيعَةٍ واحد » . ١٣٤/٦ - ١٣٣ .

(٤) سورة هود ، آية ٢٠ .

(٥) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى : ٣١/٢٦ . فقد أخرجه ابن جرير ، عن محمد بن عبد الأهل بإسناده . وكان فى المخطوطة مكانه : « وحاراه فالتفت » .

(٦) السلول : الأسقاد والمداوات ، جميع دخل ، يفتح فسكون .

أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِّن رَّبِّهِ كُنْ زَيْنَ لَّهُ سَوْءَ عَمَلٍ ۖ وَاتَّبِعُوا هَوَاءَهُمْ ﴿١١﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي أُوعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّا يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۚ كُنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٢﴾

يقول : (أفن كان على بينه من ربه) ، أى : حلى بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه ، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم ، وبعما حَبَّله الله عليه من القطرة المستقيمة ، (كن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم ؟) ، أى : ليس هذا كهذا ؟ كقولہ : (أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟) (١) ، وكقولہ : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) (٢) .

ثم قال : (مثل الجنة التى وعد المتقون) — قال عكرمة : (مثل الجنة) ، أى : نعتها ؛ (فيها أنهار من ماء غير آسن) — قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : بئى غير متغير (٣) . وقال قتادة ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى : غير متين . والعرب تقول : أسبن الماء إذا تغير وجهه .

وفى حديث مرفوع أورده ابن أبى حاتم : (غير آسن) : بئى الصافى الذى لا يكتدر فيه ؛

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق قال : قال عبد الله : أنهار الجنة تُتَجَرَّر من جبل من مائك .

(وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) ، أى : بل فى غاية البياض والحلاوة واللمسومة . وفى حديث مرفوع : « لم يخرج من ضروب الماشية » .

(وأنهار من خمر لذة للشاربين) ، أى : ليست كخربة العلم والرائحة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفنل ، (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) ، (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) ، (بيشاء لذة للشاربين) ، وفى حديث مرفوع : « لم تمصرها الرجال بأفئدها » .

(وأنهار من عسل مصفى) ، أى : وهو فى غاية الصفاء ، وحسن اللون والطعم والريح ، وفى حديث مرفوع : « لم يخرج من بطون النحل » .

(١) سورة الفرق : آية : ١٦٩ .

(٢) سورة الحشر : آية : ٢٠ .

(٣) تفسير الطبرى : ٣١٢٦ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا الجوزي ، عن حكيم [بن معاوية] ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر اللؤلؤ ، وبحر النضر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد (١) » .

ورواه الترمذي في « صفة الجنة » ، عن محمد بن بشار ، عن يزيد بن هارون ، عن سعيد بن لباس الجوزي ، به ، وقال : « حسن صحيح (٢) » .

وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا أحمد بن محمد بن حاتم ، حدثنا عبد الله بن محمد [بن النعمان] ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادي ، حدثنا أبو حمران الجوني ، عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذه الأنهار تشخب (٣) من جنة عدن في جنة (٤) ، ثم تصدع بعد أنهارا (٥) » . وفي الصحيح : « إذا سألت الله فأسأله الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأهل الجنة ، ومنه تشبّع أنهار الجنة ، وفرقة عرش الرحمن (٦) » .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيري ، وعبد الله بن الصقر السكري قالا : حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ، حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة ، حدثني عبد الرحمن بن حياش ، عن صف بن الأسود [بن عبد الله بن حجاب] بن هارم بن المتفق الطيلي ، عن أبيه ، عن عمه لقيط بن حامر (٧) . قال صف : وحديثه أيضا أبي الأسود ، عن حاتم بن لقيط أن لقيط بن حامر : خرج وافدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : يا رسول الله ، فعلم نطلع من الجنة ؟ قال : « على أنهار صلل مصفى ، وأنهار من خر ما بها صلب ولا نداعة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه » ، وما غير آسن ، وفاكهة لم يهر لعلك ما لم يمتلئ وخير من مثله ، وأنوار مطهرة » . قلت : يا رسول الله ، أو لنا فيها أزواج مصلمات ؟ قال : « الصالحات المصالحين ، تلبنون . مثل لبناتكم في الدنيا ولبنونكم ، خير أن لا تولد (٨) » .

وقال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا : حدثنا يعقوب بن حبيدة ، عن يزيد بن هارون ، أخبرني الجوزي ، عن معاوية بن قرة ، عن أبيه ، عن أنس بن مالك قال : لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخلود في الأرض ، والله إنما تجري سائجة على وجه الأرض ، حافلتها قباب اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر (٩) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٥ .

(٢) تحفة الأحرفي . أبواب صفة الجنة ، باب : ما جاء في صفة أنهار الجنة ، الحديث ٢٩٩٠ : ٢٨٧/٧ - ٢٨٨ .

(٣) أي : تسيل .

(٤) الجنة : المغفرة المستبشرة الواصلة .

(٥) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي قدامة ، انظر المسند : ٤/١٦٦ . وأخرجه الدارقطني في كتابه الرقائق ، باب : في جنات الفردوس ، الحديث ٢٨٢٥ : ٢٨٠/٢ ، عن أبي نعيم ، عن أبيه قدامة بإسناده .

(٦) البخاري ، كتاب الجهاد ، باب : درجات المجاهدين في سبيل الله : ١٩/٤ - ٢٠ . وتحفة الأحرفي ، أبواب صفة الجنة ، باب : ما جاء في صفة درجات الجنة ، الحديث ٢٦٥٩ : ٢٦٥٩/٧ - ٢٢٧ - ٢٢٧ . ومسند الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢٣٥/٢ .

(٧) ما بين القومين عن مسند الإمام أحمد : ١٢/٤ .

(٨) مسند الإمام أحمد من حديث طويل : ١٤٤/٤ .

(٩) أي : النبي إلى الغاية .

وقد رواه أبو بكر ابن مَرْثُومَة ، من حديث مهدي بن حكيم ، عن يزيد بن هارون ، به مرفوعاً :

وقوله : (ولم فيها من كل الثمرات) ، كقوله : (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين (١١)) . وقوله : (فيهما من كل فاكهة زوجان (١٢)) .

وقوله : (ومغفرة من ربهم) ، أى : مع ذلك كله .

وقوله : (كن هو خالد في النار) ، لا أى : أمولاء الذين ذكرنا متركهم من الجنة كن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء أى : ليس من هو في الدرجات كن هو في الدرجات ، (وسقوا ماءً حمياً) ، أى : حاراً شديداً الحار ، لا يستطاع (قطع أعمالهم) ، أى : قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء ، عذاباً بالله من ذلك

وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا تَرَجُّوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طُغِيَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَتْبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۚ تَقُولُ لَهُمْ ۖ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِنَفْسِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ۖ

يقول تعالى غيبراً عن المنافقين في بلادهم فوقع فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئاً ، فإذا خرجوا من عنده قالوا للذين أوتوا العلم : (ماذا قال أنفا) ، أى : الساعة ، لا يظنون ما يقال ، ولا يكرثون له .

قال الله تعالى : (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتموا أهواءهم) ، أى : فلا فهم صحيح ، ولا قصد صحيح .

ثم قال : (والذين اهتدوا زادهم هدى) ، أى : والذين قصدوا الهداية وقهم الله لما هُتداهم إليها ، ونجهم إليها وزادهم منها ، (وآتاهم تقواهم) ، أى : أَلهمهم رُشدَهم .

وقوله : (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) ، أى : يوم غافلون عنها ، (فقد جاء أشراطها) ، أى : أمارات اقترابها ، كقوله تعالى : (هذا نذير من النذر الأولى . أُرُفِتِ الْآزِفَةُ (٢)) ، وكقوله : (اقتربت الساعة واشتت القمر (٤)) ، وقوله : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه (٥)) ، وقوله : (اقرب للناس حسابهم وهم في خفلة معرضون (٦)) ، فبعض

(١) سورة البهتان : آية : ٥٥ .

(٢) سورة الرحمن : آية : ٥٢ .

(٣) سورة النجم : آية : ٥٦ - ٥٧ .

(٤) سورة القمر : آية : ١ .

(٥) سورة النحل : آية : ١٠ .

(٦) سورة الأنبياء : آية : ١ .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أشراف الساعة ، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر - صلوات الله وسلامه عليه - بأمارات الساعة وأشرافها ، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله ، كما هو مبسوط في موضعه :

وقال الحسن البصري : بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - من أشراف الساعة . وهو كما قال ، ولهذا جاء في أميائه عليه السلام - أنه نبي التوبة ، ونبي للملحمة ، والخاشع الذي يحشّر الناس على قديمه ، والعاقب الذي ليس بعده نبي (١) ، وقال البخاري : حدثنا أحمد بن المقدام ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا أبو حازم (٢) ، حدثنا سهل بن سعد قال : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال بأصبعيه هكذا ، بالوسطى والي تليها : « بعثت أنا والساعة كهاتين (٣) » ثم قال تعالى : (فأني لم إذا جاءهم ذكراهم) ، أي : فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة ، حيث لا يفهمون ذلك ، كقوله تعالى : (يومئذ يتذكر الإنسان وأني له الذكرى) (٤) ، (وقالوا : آمنا به ، وأني لم نتناوش من مكان بعيد) (٥) ، وقوله : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) : هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ، ولا يتأتى كونه أمرا يعلم ذلك ، ولهذا عطف عليه بقوله : (واستغفر للذينك والمؤمنين والمؤمنات) . وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلتي وجهدي ، وخطيئتي وجهمتي ، وكل ذلك عندي » (٦) . وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أضيت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت إلى لا إله إلا أنت (٧) » . وفي الصحيح أنه قال : « يا أيها الناس ، توبوا إلى ربكم فإني استغفر الله وأنوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة (٨) » ،

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبه ، عن عاصم الأحول قال : سمعت عبد الله بن مسرج قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكلت معه من طعامه فقلت : غفر الله لك يا رسول الله (٩) فقلت : استغفر لك (١٠) .

-
- (١) أخرجه الإمام أحمد من أبي موسى ، المسند : ٣٩٥/٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ . وعن حذيفة : ٤٠٥/٥ . وانظر البخاري ، تفسير سورة الصف : ١٨٨/٦ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب : « في أميائه صلى الله عليه وسلم » : ٨٩/٧ - ٩٠ .
- (٢) في المخطوطة : « أبو رجاء » . والمثبت عن الصحيح ، وهو أبو حازم الأخرج مليحة بن دينار ، يروي عن سهل بن سعد ، انظر التلخيص : ١٤٣/٤ .
- (٣) البخاري ، تفسير سورة «التنازع» : ٢٠٦/٦ .
- (٤) سورة التبر ، آية : ٢٣ .
- (٥) سورة صبا ، آية : ٥٢ .
- (٦) البخاري ، كتاب الدعوات ، باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت » : ١٠٥/٨ .
- (٧) البخاري ، كتاب الترمذي : ١٧٦/٩ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب : « الدعاء في صلاة الليل وتيابه » : ١٨٤/٢ ، ١٨٥ .
- (٨) البخاري ، كتاب الدعوات ، باب : « استغفار النبي - صلى الله عليه وسلم - في اليوم واليلة » : ٨٣/٨ .
- (٩) في المخطوطة يمسح : « فقال صلى الله عليه وسلم : ولك » ، وهو غير ثابت في المسند .
- (١٠) في مسلم : « استغفر لك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ » .

قَالَ (١) : « نعم ، ولكم » ، وقرأ : (واستغفر للنبيك والمؤمنين والمؤمنات) ثم نظرت إلى نُعْصَن (٢) كُتِفَهُ الْأَيْمَنِ — أو : كُتِفَهُ الْأَيْسَرُ ، شعبة التي شك — فإذا هو كهية الجُصَم (٣) عليه التَّأْكِيلُ .

رواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، من طرق ، عن عاصم الأحول . به .
وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو يعلى : حدثنا محمد بن حوف ، حدثنا عثمان بن مطر ، حدثنا عبد الغفور ، عن أبي بصير ، عن أبي رباح ، عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثرُوا منهما ، فإن إبليس قال : أهلكْتُ الناس بالنُوب ، وأهلكونى ، « لا إله إلا الله » ، والاستغفار . فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتلون » .

وفى الأثر المروى : « قال إبليس : وعزتك (وجلالك) لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الله عز وجل : وعزى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفروا (٤) » .
والأحاديث فى فضل الاستغفار كثيرة جدا .

وقوله : (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) ، أى : يعلم تصرفكم فى هياكلكم ومستقركم فى ليالكم ، كقولهم : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) (٥) . وكقولهم : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستورها ومستودعها كل فى كتاب مبين) (٦) . وهذا القول ذهب إليه ابن جرير ، وهو اختيار ابن جرير (٧) . ومن ابن عباس :

متقلبكم فى الدنيا ، ومثواكم فى الآخرة .

وقال السدى : متقلبكم فى الدنيا ، ومثواكم فى قبوركم ،

والأول أولى وأظهر ، والله أعلم .

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَلَمَّا نَزَّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِّرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ نَفْسٌ ۖ طَائِعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَلَمَّا عَزَمَ الْأَمْرُ
قَلَّ صِدْقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ

يقول تعالى غيرا عن المؤمنين أنهم غنوا شرعية الجهاد ، فلما فرضه الله — عز وجل — وأمر به تكلل عنه كثير من الناس ، كقولهم تعالى : (ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا

(١) فى المخطوطة : « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم » . والمثبت عن السند .

(٢) النفى — بضم النون ونضها — وسكون النين — : أمل الكتف . وقيل : السطح الرقيق الذى على طرفه .

(٣) يريد مثل جميع الكتف — بضم فسكون — وهو : أن يجمع الأصابع ويضها .

(٤) مستند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري : ٢٩٩/٣ ، ٤١ ، ٧٦ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ٦٠ .

(٦) سورة هود ، آية : ٦ .

(٧) تفسير الطبري : ٢٤٢/٢٦ .

فريق منهم يَحْتُونُ النَّاسَ كَشْفَةِ إِفْكٍ أَوْ أَشَدَّ عَشِيَّةً ، وَقَالُوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ، لَوْلَا أَعْرَضْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟ قَالَ : مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ آتَى ، وَلَا تظَلُمُونَ قِتِيلًا (١) .

وقال هاجنا : (ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة) ، أى : مشتملة على حكم القتال ، ولهذا قال : (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المنشى عليه من الموت) ، أى : من فرغهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . ثم قال مشجعاً لهم : (فأولى لهم طاعة وقول معروف) ، أى : وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا ، أى : فى الحالة الراهنة ، (فإذا حزم الأمر) ، أى : جد الحال ، وحضر القتال ، (فلو صدقوا الله) ، أى : أنصتوا له أئباً ، (لكان خيراً لهم) .

وقوله : (فهل حسيت إن توليتم) ، أى : من الجهاد وتكلمتم عنه ، (أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) ؟ ، أى : تمردوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهاد ، تسفكون الدماء ، وتقطعون الأرحام . ولهذا قال : (أولئك الذين لمنهم الله فاصمهم وأبصارهم) ، ولهذا نهي عن الإفساد فى الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل قد أمر تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأكابر فى المقاتل والتعامل وبذلك الأموال . وقد وردت الأحاديث الصريحة والحسان بذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من طرق عديدة ، ووجوه كثيرة .

قال البخارى : حدثنا خالد بن سنان ، حدثنا سليمان ، حدثني معاوية بن أبى مَرْزُود ، عن سعيد بن يسار ، عن أبى هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأطاعت (بحسب) (٢) الرحمن عز وجل ، فقال : مه ! فقاتل : هلم مقام المائد بك من القطيعة . فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذلك . قال أبو هريرة : أقرعوا إن شئتم : (فهل حسيت إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) » .

ثم رواه البخارى من طريقين آخرين ، عن معاوية بن أبى مَرْزُود ، به قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقرعوا إن شئتم : (فهل حسيت إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) (٣) » . ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبى مَرْزُود ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، [أعبرنا] هيثبة بن عبد الرحمن بن جوشن ، عن أبيه ، عن أبى بكر بن قائل : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن ذنب آخرى أن يجعل الله عقوبة فى الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة » من البنى وقطيعة الرحم (٥) .

(١) سورة النساء ، آية ٧٧ .

(٢) ما بين القوسين عن البخارى . والمحقق - يفتح فسكون - : بمقد الإزاء . والهرب تقول : « عفت بفتح لالان » : إذا استجرت به واحتصت .

(٣) البخارى : تفسير سورة عبده صلى الله عليه وسلم : ١٦٧/٦ - ١٦٨ .

(٤) مسلم ، كتاب البر ، باب « صلة الرحم وتحريم قطيعتها » : ٧/٨ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٨٤٥ .

رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، من حديث إسماعيل - هو ابن حَكْبَة - به ، وقال الترمذي : هذا حديث صحيح (١) ؛

وقال الإمام أحمد : حديثنا محمد بن بكر ، حديثنا ميمون أبو محمد المُرِّي (٢) ، حديثنا محمد بن هُبَّاد القُرَوِيُّ ، عن ثوبان ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من سره النساء (٣) في الأجل ، والزيادة في الرزق ، فليصل رحمه (٤) » . فترد به أحمد ، وله شاهد في الصحيح :

وقال أحمد أيضا : حديثنا يزيد بن هارون ، حديثنا حجاج بن أوطاة ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إن لي ذوى أرحام ، أهل ويقطون ، وأحفو ويظلمون ، وأحسن وسيئون ، أأكلانهم ؟ قال : « لا ، إنك تتركون جميعا ، ولكن جُدْ (٥) بالفضل وصلهم ؛ فإنه إن يزال ملك ظهير من الله - عز وجل - ما كنت على ذلك (٦) » .

تفرد به من هذا الوجه ، وله شاهد من وجه آخر :

وقال الإمام أحمد : حديثنا يعلى ، حديثنا فطر ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الرمح معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالكافي ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها (٧) » ، رواه البخاري (٨) ؛

وقال أحمد : حديثنا جَزْ ، حديثنا حمَّاد بن سلمة ، أخبرنا قتادة ، عن أبي ثَمَامَةَ الثَّقَفِي ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تُوضَعُ الرَّحِمُ يوم القيامة لها حُجُوتَانِ كحُجُوتِ (٩) الميزان ، تتكلم بلسان (١٠) طَلْقٍ ذَلْقٍ ، فصل من وصلها وقطع من قطعها (١١) » .

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في منى عن أبيه » ، الحديث ٤٩٠٢ / ٤ ، ٢٧٦ / ٤ ، ولغة الأحرار ، أبواب صفة القليلة ، الحديث ٢٦٢٩ ، ٢١٢/٧ - ٢١٤ ، وقال الترمذي : « هذا حديث صحيح » . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « البلى » ، الحديث ٤٢١١ ، ١٤٠٨/٢ .

(٢) كذا في المخطوطة . وفي المسند : « المرف » . وأما ميمون بن موسى المرف ، المرحوم في البحر لابن أبي سنان .

(٣) ٣٢٢٪١٠ ، واليهيب : ١٠٠٪٣٢٢ .

(٤) أي : التآخير .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٧٩٪٥ .

(٦) في المسند : « غل بالفضل » .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١٨١/٢ .

(٨) مسند الإمام أحمد : ١٦٣/٢ .

(٩) البخاري ، كتاب الأدب ، باب « ليس لأصل بالكاف » ، ٩٪٨ .

(١٠) حجة الميزان - بفتح فسكون - : صلاته ، وهي الموجهة التي في رأسه .

(١١) أي : فصيح بليغ . يقول ابن الأثير في النهاية : « هكذا جاء في الحديث لعلي بن أبي طالب [يعني يتم قسطن] ؟ »

ويقال : طلق ذلق [يعني يفتح فكسر] ، وطلق ذلق [يعني يسمتين] ، وطابق ذلق ، ويراد باليسع الضياء والظلال .

(١٢) مسند الإمام أحمد : ١٨٩/٢ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، عن أبي قابوس ، عن عبد الله بن عمرو - يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم - قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، لرحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شُجْنَةٌ » (١) من الرحمن ، من وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته (٢) .

وقد رواه أبو داود والترمذي ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، به : وهذا هو الذي يروى بسلسل الأولى (٣) ، وقال الترمذي : « حسن صحيح » (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا هشام الدستواي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن إبراهيم بن عبد الله ابن قارظ : « أن أباه حدثه : أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف وهو مريض ، فقال له [عبد الرحمن] : وصلتك رحيم ، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « قال الله عز وجل : أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصله ، ومن قطعها قطعته فأبته - أو قال : من يعبأ أبته » (٥) .

نقد به من هذا الوجه : ورواه أحمد أيضا من حديث الزهري ، عن أبي سلمة ، عن الرضا - أو أبي الرضا (٦) - عن عبد الرحمن بن عوف (٧) ، به : ورواه أبو داود والترمذي ، من رواية أبي سلمة ، عن أبيه : والأحاديث في هذا كثيرة (٨) .

وقال الطبراني (٩) : حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا محمد بن عمار الموصلي ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الحجاج بن يونس ، عن أبي الحجاج بن الصرافية ، عن أبي عمر البصري ، عن سليمان قال : قال رسول الله صلى الله

(١) أي : قرابة مشابكة كاشتراك المروق . وأصل الشجنة : شبة في خصن من خصون الشجرة .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٦٠/٢ .

(٣) المسلسل من الحديث : ما تتابع رجال إسناده على حالة واحدة ، وهو أنواع ، منها سلسل الأولى ، وهو ما تتابع فيه الرواية على الكيفية الثانية ، وهي أن يقول كل رار لتلميذه : حدثني فلان ، وهو أول حديث سمعته منه . ولا يشترط أن يستمر التسلسل في وسط السند ، كحديث الرحمة الذي معنا ، فقد انتهى التسلسل فيه إلى عمرو بن دينار ، وانقطعت الأولى في سماع عمرو بن دينار من أبي قابوس ، وكذلك في سماع أبي قابوس من عبد الله بن عمرو ، وسماع عبد الله بن عمرو من النبي صلى الله عليه وسلم . وحل هذا فيكون هذا الحديث أول حديث سمع سفيان بن عيينة من عمرو بن دينار . انظر تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي : ٣٨١ . وقواعد التحديث للقمي : ١٢٦ - ١٢٧ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في الرحمة » ، الحديث ٤٩٤١ : ٢٨٥/٤ . وتحفة الأحوي ، أبواب البر ، باب « ما جاء في رحمة الناس » ، الحديث ١٩٨٩ : ٥١/٦ - ٥٢ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٩١/١ .

(٦) لم يرد في السند غير « أبي الرضا » . وانظر المسند ، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، الحديث ١٦٨٠ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١٩٤/١ .

(٨) سنن أبي داود ، كتاب الزكاة ، باب « في صلة الرحم » ، الحديث ١٦٩٤ : ١٣٧/٢ . وتحفة الأحوي ، أبواب البر ، باب « ما جاء في طيبة الرسم » ، الحديث ١٩٧٢ : ٣٣/٦ - ٣٤ . وقال الترمذي : « حديث سفيان عن الزهري حديث صحيح . وروى معمر عن الزهري هذا الحديث من أبي سلمة ، عن رداد المني ، عن عبد الرحمن بن عوف - قال محمد [يعني البخاري] : « وحديث معمر خطأ » .

(٩) في الخطوط : « وقال الطبراني » ، والروايات ما ألتناه ، انظر المحم الصغير : ١٩٢/٢ .

عليه وسلم : « الأرواح جنود مجنونة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » (١) .

وبه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا ظهر القول ، وخزن العمل ، واختلف الألسنة ، وباهضت القلوب ، وقطع كل ذي رحم رحمه ، فتد ذلك لمنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالٌ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آتَدُوا عَلَىٰ أَذْبَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكَ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢١﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَانَهُمْ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ إِنْتَهَبُوا مَا سَمِعُوا وَاللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى أمرًا بتدبر القرآن وتفهمه ، ونهايا عن الإعراض عنه ، فقال : (أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها) ؟ ، أى : هل على قلوب أقفالها ، فهى مُطَبَّقَةٌ (٢) لا يخلص إليها شيء من معانيه .

قال ابن جرير : حدثنا بشر ، قال : حدثنا يزيد قال : حدثنا سعيد قال (٣) : حدثنا حادين بن زيد ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ؟ قال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى لا يكون لله عز وجل (٤) . ففتحها أو يفرجها . فإزال الشاب في نفس عمر رضى الله عنه حتى ولى ، فاستعان به (٥) .

ثم قال تعالى : (إن الذين ارتدوا على أديبارهم) ، أى : فارتدوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ، (من بعد ما بين لهم الهدى الشيطان سول لهم) ، أى : زين لهم ذلك وحسنه ، (وأمل لهم) ، أى : خترهم وندبهم ، (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم في بعض الأمر) ، أى : ما لوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل ، ولهذا شأن المتأقتين يظهران خلاف ما يظنون ، ولهذا قال الله عز وجل : (والله يعلم إسرارهم) ، أى : ما يسرون وما يخفون ، الله مطلع عليه وعالم به ، كقوله : (والله يكتب ما يبيتون) (٥) .

ثم قال : (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأذبارهم) ، أى : كيف حاسم إذا جاءتهم الملائكة لقيض أرواحهم وتخصت الأرواح في أجسادهم ، واستخرجتها للملائكة بالنفث والقهقير والضرب ، كما قال : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأذبارهم) (٦) .. الآية ، وقال : (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة

(١) لغيره الإمام أحمد عن أبي هريرة . للسنن : ٢٩٥/٢ ، ٥٢٧ .

(٢) أى : مطبقة .

(٣) ما بين القوسين من تفسير الطبري .

(٤) تفسير الطبري : ٣٧/٢٦ .

(٥) سورة النساء ، آية : ٨١ .

(٦) سورة الأنفال ، آية : ٥٠ .

باسلو أيهم) ، أى : بالضرب (أخرجوا أنفسكم ، اليوم يجزون عذاب اللون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم من آياته تستكبرون (١) . ولها قال هاهنا : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم) .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ ﴿٣١﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ
بِسِمَتِهِمْ ۖ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٢﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ
وَالصَّابِرِينَ ۖ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى : (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغاثهم ؟) ، أى : اعتكف المناقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ؟ ! بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل تعالى في ذلك سورة « براءة » ، فبين فيها قضائهم وما يهتمونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة . والأضغان : جمع ضغن ، وهو ما ن الفؤوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقاتنين بتصره .

وقوله : (ولو نشاء لأريناكم فلعرفتمهم بسيماهم) يقول تعالى : ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم ، فعرفتمهم حياتا ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المناقنين سراً منه على خلقه ، وحملنا للأمور على ظاهر السلامة ، ورد السرائر إلى عالمها ، (ولتعرفتمهم في لحن القول) ، أى : فيما يبلو من كلامهم الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أى الحزبين هو يعانى كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول ، كما قال أمير المؤمنين عثان بن عفان رضى الله عنه : « ما أسر أحد سريرة إلا أبدىها الله على صفحات وجهه ، وقللت لسانه » . وفى الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها » ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل ، وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد في أول « شرح البخارى » ، بما أثنى من إعادته هاهنا . (وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المناقنين) . قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن سلمة ، عن عياض بن عياض ، عن أبيه ، عن أبي مسعود عقبة بن عمرو - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان ، حتى سمي ستة وثلاثين رجلاً - ثم قال : إن فيكم - أو منكم - فاتفقوا الله » . قال : فرعرع رجل عن سمي مفتح قد كان يعرفه ، فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هذا لك سائر اليوم (٢) .

وقوله : (ولنبلونكم) ، أى : ولنتخبرنكم بالأوامر والنواهي ، (حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) ، وليس في تعدد علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب ، فالمراد : حتى تعلم وقوعه ، ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا : إلا لتعلم ، أى : لترى .

(١) سورة الأنعام : آية ٩٣ .

(٢) ستة الإمام أحمد : ٢٧٣/٥ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ
أَعْمَلُهُمْ ﴿٦٦﴾ * يَتَّيَبُوا الَّذِينَ آمَنُوا أُطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَلَا تَطْلُوا أَعْمَلَكُمْ ﴿٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٦٨﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ
الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَزِيْرَ أَعْمَلَكُمْ ﴿٦٩﴾

يُحَرِّمُ تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله ، وخالف الرسول وشاقه ، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى : أنه
لن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه ويضرها يوم معادها ، وسيحيط الله عمله فلا يثيبه على سالت ما تقدم من عمله الذي
حسبه يردته مقال بوضحة من خبر ، بل يحيطه ويحيطه بالكلية ، كما أن الحسنات يذهبن السيئات .

وقد قال الإمام محمد بن نصر المروزي (١) في كتاب الصلاة : حدثنا أبو قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا أبو جعفر
الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يظنون أنه لا يضر مع
ولا إله إلا الله ذنب ، كما لا يضر مع الشرك عمل ، فتركت : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تطلوا أعمالكم) ، فذاقوا
أن يطل الذنب العمل .

ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك : أخبرني بكثير بن معروف ، عن مقاتل بن حيان ، عن نافع ، عن ابن عمر
قال : كنا معشر أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت : (أطيعوا
الله وأطيعوا الرسول ، ولا تطلوا أعمالكم) . فقلنا : ما هذا الذي يطل أعمالنا ؟ قلنا : الكبائر الموجبات والقواض ، حتى
نزلت : (إن الله لا يضر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ، فلما نزلت كففتنا عن القول في ذلك ، فكانت نخافه على
من أصاب الكبائر والقواض ، ونرجو أن لم يصيبها (٢) .

ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ، ونهاهم عن الارتداد الذي هو
مطل للأعمال ، ولهذا قال : (ولا تطلوا أعمالكم) ، أي : بالردة . ولهذا قال بعدها : (إن الذين كفروا وصلوا عن سبيل
الله ثم ماتوا وهم كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) ، كقولهم : (إن الله لا يضر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٣) . . .
الآية .

ثم قال لعباده المؤمنين : (فلا تهنوا) ، أي : لا تضعفوا عن الأعداء ، (وتدعوا إلى السلم) ، أي : للمهادنة والسلمة
ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم ، ولهذا قال : (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون) ،

(١) هو أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي ، كان راعياً في الحديث والفتنة والعبادة . قيل : لم يكن الشافعية في وقته مثله ،
صحيح بن يحيى بن يحيى ، وحيث بن مريخ وطبقتهما . توفي في المحرم سنة ٢٩٤ وهو في عمر التسعين ، انظر البحر للمصنف : ٩٩/٢ .

(٢) انظر الآثار الواردة في الآية الثامنة والأربعين من سورة النساء : ٢٩٠/٢ .

(٣) سورة النساء : آية ٤٨ .

أى : فى حال علوكم على عدوكم ، فلما إذا كان الكفار فيهم قوة و أكثره بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام فى المعامدة والمهادنة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صدّه كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم إلى ذلك .

وقوله : (والله ممكن) : فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ، (ولن يترك أعمالكم) ، أى : ولن يجعلها ويضلها ويسلبكم إياها ، بل يوفيكم ثوابها ولا يتقصصكم منها شيئاً .

إِنَّمَا حَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ۖ إِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٢٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمْ فِيمَا هُمْ بِهِ فَخُفِّفْ لَهُمْ وَيُخْرِجْ أَصْغَرَكُمْ ﴿٢٧﴾ هَٰذَا نَمُوتُ هَٰذَا لَا تَدْعُونَ لِنُفْسِنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْغِ ۚ وَمَنْ يَبْغِ فَإِنَّمَا يَبْغِلْ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۖ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَلِفًا مِّمَّنْكُمْ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى نغفر لأمر الدنيا وتوينا لشأنها : (إنما للحياة الدنيا لعب ولهو) ، أى : حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل ، ولهذا قال : (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) ، أى : هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئاً ، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ، ويرجع ثوابه إليكم ، ثم قال : (إن يسألكمها فيخففكم تبخلوا) ، أى : يخرجكم (١) تبخلوا : (ويخرج أصغائكم) .

قال قتادة : « قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأصغار » . وصدق قتادة فإن المال محبوب ، ولا يصرفه إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه .

وقوله : (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فنكم من يبخل) ، أى : لا يجيب إلى ذلك ، (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) ، أى : إنما نقص نفسه من الأجر ، وإنما يعود وبالك ذلك عليه ، (والله الغنى) ، أى : من كل ما سواه ، وكل شئ فقير إليه دائماً ، ولهذا قال : (وأنتم الفقراء) ، أى : بالذات إليه . فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم هم ، لا يتفككون عنه .

وقوله : (وإن تتولوا) ، أى : من طاعته واتباع شرعه (يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ، أى : ولكن ليكونون سامعين مطيعين له ولأوامره .

وقال ابن أبي حاتم ، وابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني مسلم بن خالد ، عن العلاء ابن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية : (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ، قالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : « ففرض بيده على كتف سلمان الفارسي ثم قال : « هؤلاء قومهم ، ولو كان الذين عند الثريا لتناوله رجال من القوم » .

فرد به مسلم بن خالد التميمي ، ورواه عنه غير واحد ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة (٢) ، والله أعلم ،

آخر تفسير سورة القتال

(١) فى المخطوطة : « ويخففكم » . والمثبت من الطبقات السابقة . ولعل الصواب : « ويخففكم » . انظر اللسان ، مادة : حفا .
(٢) قال عنه ابن ميمون : « ليس به بأس » وقال مرة : ثقة . وقال مرة : « ضيف » . وقال الساجي : « كثير الغلط » . وقال البخاري : « منكر الحديث » . وقال أبو حاتم : « لا ينجح به » . انظر ميزان الاعتدال ١٠٢/٤ .

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا شعبة ، عن معاوية بن قرّة قال : سمعت عبد الله بن مغفل يقول : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع (١) فيها - قال معاوية : لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته (٢) ، أخرجه من حديث شعبة به (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَمُتَّعْ بِكَ بِرَحْمَتِهِ وَيُؤْتِيَكَ مِنْ فَضْلِهِ كَمَا نَبَأَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ وَيَسِّرْكَ اللَّهُ تَصْرًا عَازِمًا ﴿٣﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لا رجوع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليضي عمرته فيه ، وحاولوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع حاميه هدا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله : فلما نحر عليه حيث أحصر ورجع ، أنزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما روى عن ابن مسعود - رضي الله عنه - وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن تعد الفتح صلح الحديبية . وقال الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية (٤) .

وقال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن أبي إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كما مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر ، فتحناها فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأثابها فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ، ثم غصص دعدا ، ثم صبّه فيها ، فركناها غير بعيد ، ثم إنّا أصدرت لنا (٥) ما شئنا نحن ووكائبنا (٦) .

(١) الترجيع و ترفيد القرامة .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٤/٥ . وقد أخرجه الإمام أحمد من وجه آخر عن عبد الله بن مغفل ، وفيه : « حكيت لكم ما قال عبد الله ، يعني أين مغفل كيف قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، المست : ٨٥/٤ - ٨٦ .

(٣) البخاري ، تفسير سورة الفتح : ١٦٩/٦ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « ذكر قراءة النبي صلى الله عليه وسلم سورة الفتح يوم فتح مكة » : ١٩٣/٢ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٦/٢٤٤ .

(٥) أي : صرفتنا وقد روي .

(٦) البخاري ، كتاب الخزائن ، باب « غزوة الحديبية » : ١٥٦/٥ .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو (١) نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن هرير بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفر، قال: فسألته عن شيء - ثلاث مرات - فلم يرد علي، قال: قلت انصبي لي من ماء، قال: يا ابن الخطاب، تترزق (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحتي فضلمت عفاة أن يكون نزل، قال: شيء، قال: فإذا أنا بماء (٣) ينادي (٤): يا عمر، يا عمر، قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «نزلت» علي الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: (٥) «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» (٦).

ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق، عن مالك رحمه الله (٥)، وقال علي بن المنيئ: هذا إسناد مدين، لم نجده إلا عندهم:

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: نزلت علي النبي صلى الله عليه وسلم: (٧) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر (مترجمة) (٦) من الحديث، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: «هيتا» فريثاً ياتي الله (٨) لقد أبى الله - عز وجل - ما لا نأفعل بك، فإذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه (٧): (٩) ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات (حتى يبلغ: (١٠) فوزاً عظيماً) (٨). أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به (٩).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا جهم بن يعقوب قال: سمعت أبي يحدث عن عبد الرحمن بن يزيد الأنصاري، عن حميد بن جابر الأنصاري - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن - قال: شهدنا الحديبية فلما صرفنا عنها إذا الناس يتشرون (١١) الأباقر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوسى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحته عند كراع النسيم، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم: (١٢) «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي رسول الله، وفتح هو؟ قال: أي والذي نفس محمد بيده، إنه لفتح، فقسمت خيبر على أهل الحديبية

-
- (١) ما بين القوسين من المسند. روي في المسند في سنة حديث آخر: «أبو نوح قرأ».
- (٢) أي: ألحمت عليه في المسألة لطلبك يسكوته من جوابك؛ يقال: فلان لا يعطى حتى يئز، أي: حتى يلج عليه.
- (٣) ما بين القوسين من المسند.
- (٤) مسند الإمام أحمد: ٣٩١/١.
- (٥) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل سورة الفتح: ٣٣٢/٦. وتحفة الأوحى: تفسير سورة الفتح، الحديث ٣٣١٥، ١٤٧/٩ - ١٤٨. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب صحيح».
- (٦) في المسند: «مرجعنا».
- (٧) في المسند: «عليهم».
- (٨) مسند الإمام أحمد: ١٩٧/٣.
- (٩) البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية: ١٦٠/٥، ومسلم، كتاب إلهاد، باب: صلح الحديبية: ١٧٦/٥.
- (١٠) أي: يفرجون لإلهم ويغفونها.

لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية ، قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم [على] ثمانية عشر سهما ، وكان الجيش ألفا وخمسة قارس ، فأعطى القارس سهمين ، وأعطى الرجل سهما . (١) .

رواه أبو داود [في الجهاد] عن محمد بن عيسى ، عن سُبْحَن بن يعقوب ، به (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا أبو [بحر] حدثنا [شعبة] ، حدثنا جامع بن شداد ، عن عبد الرحمن بن أبي علفمة قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : لما أقبلنا من الحديبية أعرضنا فنمنا ، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت ، فاستيقظنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نائم — قال : قلنا : «امضوا» (٣) . فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك من» (٤) أنام أو نسي . قال : وقد كنا ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلبناها فوجدناها قد تعلق خصلها (٥) بشجرة ، فأثبته بها فركبها ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الرحي ، قال : وكان إذا أتاه اشتد عليه ، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه : (إنا فعلنا لك نصحا ميبأ) (٦) .

وقد رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، من غير وجه ، عن جامع بن شداد (٧) ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن زياد بن حلافة قال : سمعت المغيرة بن شعبه يقول : كان النبي صلى الله عليه وسلم — يصل حتى ترم قدامه ، فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : «أفلا أكون حبيبا شكورا ؟» (٨) .

أخرجه «وقية» الجاهلية إلا أبا داود ، من حديث زياد ، به (٩) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٢٠/٣ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب «وقين أنهم له سبعا» .

(٣) كذا في خطوطة الأثر : وفي تفسير الطبري : «أينظرو» . وفي الطبقات السابقة من تفسير ابن كثير مثله ، ويبدو أنه أخطأ منه . وفي مسند الإمام أحمد : «أهضوا» ، يـ : «تكلوا» . ويقول ابن الأثير في النهاية : «أهضوا لكن يثبته رسول الله ، أي : تكلوا وامضوا ، يقال : هضب في الحديث ، وأهضب . إذا انفض فيه كرهوا أن يوقفوه ، فأرادوا أن يستيقظ بكلهم» .

(٤) في الخطوطة : «وكذلك يدخل من نائم» . والمثبت من تفسير الطبري . ولفظ المسند : «وقال : افعلوا كما كنتم تفعلون» . قال : قلنا . قال وقال : «وكذلك فافعلوا لمن نائم أو نسي» .

(٥) الخطام : الأزماع .

(٦) تفسير الطبري : ٤٣/٢٦ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٤٦٤/١ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب «وقين لهم من الصلاة أو لسيما» .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٣٥٥/٤ .

(٩) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب «الصبر على محارم الله» : ١٢٤/٨ . وتفسير سورة الفتح : ١٦٩/٦ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب «إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة» : ١٤١/٨ . وحققة الأوحاف ، أبواب الصلاة ، باب «ما جاء في الاجتهاد في الصلاة» ، الحديث ٤١٠ : ٤٦٠/٢ — ٤٦١ ، وقال الترمذي : «وحدث المغيرة بن شعبه حديث حسن صحيح» . والسنن ، كتاب قيام الليل : ٢١٩/٣ ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب «وما جاء في طول القيام في الصلوات» ، الحديث ١٤١٩ : ٤٥٦/١ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا ابن وهب ، حدثني أبو صخر ، عن ابن قُيسٍ ؟ (١) ، عن هروث بن الزبير ، عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام حتى تتفطر (٢) رجلاه . فقالت له عائشة : يا رسول الله ، أتصنع هذا وقد خضر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « يا عائشة ، أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » (٣) ؛

أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب ، به (٤) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا عبد الله بن عون الخزاز - وكان ثقة بمكة - حدثنا محمد بن بشر حدثنا مسعر ، عن قتادة ، عن أنس ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه - أو قال : ساقاه - فتبيل له : « ليس قد خضر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ » قال : « أفلا أكون عبدا شكورا » . غريب من هذا الوجه ، قوله : « إذا خضرت لك نعماً مينا » ، أى : بينتاً ظاهراً ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان .

وقوله : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) : هذا من خصائصه - صلوات الله وسلامه عليه - التي لا يشاركه فيها غيره . وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو - صلوات الله وسلامه عليه - في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم يزلها بخسر سواء ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة . ولما كان أطوع خلق الله ، وأكثرهم تعظيلاً لأمره ونواهيهِ قال حين بركت به الناقة : « حبسها حابس الفيل » ، ثم قال : « والذي نفسى بيده ، لا يسألونى اليوم شيئاً يعظون به حرمات الله إلا أجبتهم (٥) إليها » . فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح ، قال الله تعالى : « إذا فضا لك مينا : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ، ويتم نعمته عليك (أى في الدنيا والآخرة) ويهديك صراطاً مستقيماً) ، أى : بما يشرحه لك من الشرع العظيم والدين القويم ، (وينصرك الله نصراً جزيئاً) ، أى : بسبب خضوعك لأمر الله برفئك الله وينصرك على أعدائك ، كما جاء في الحديث الصحيح : « وما زاد الله عبداً بقولا إلا حزا وما تواضع أحد لله إلا رفاه الله (٦) » . وعن عمر بن الخطاب أنه قال : « ما عاقبت - أى في الدنيا والآخرة - أحداً عصى الله تعالى فليكن مثلي أن تطيع الله فيه .

(١) في المتن : « أبي قيس » . والصواب ما هنا ، وهو يزيد بن عبد الله بن قيس . انظر المرحم والتدليل لابن أبي حاتم ؛ ٢٧٢/٢ - ٢٧٤ .

(٢) أى : تتشقق .

(٣) مسند الإمام أحمد ؛ ١١٥/٦ .

(٤) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « كثرة الأعمال والاجتهاد في العبادة » ؛ ١٤١/٨ - ١٤٢ .

(٥) البخاري ، كتاب الشروط ، باب « الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب » ، وكتابة الشروط ؛ ٢٥٢/٣ . وسنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « في صالح العدو » . ومسند الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ؛ ٣٢٣/٤ ، ٣٢٩ . هذا والفيل هو غيل أبرهة الحبشي الذي جاء يقصد غراب الكعبة ، فحسب الله القليل ظم يذبل الحرم ، ورد رأسه واجماً من حيث جاء . بين أن الله حبس ناقة النبي - صلى الله عليه وسلم - لما وصل إلى الحديبية ، فلم تتقدم ولم تدلج الحرم ، لأنه أراد أن يذبل مكة بالمسلمين .

(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأرمينية من سورة الشورى ، وغرجه هناك ، انظر ؛ ١٩٩/٧ .

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَهُوَ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبُكَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٢﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۖ بِاللَّهِ ظُلْمُ السَّوَاءِ عَلَيْهِمْ ذَاةُ السَّوَاءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٣﴾ وَبَلَّغَ جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

يقول تعالى : (هو الذى أنزل السكينة) ، أى : جعل الطمأنينة . قاله ابن عباس ، وعنه : الرحمة (١) ۝

وقال قتادة : الوقار في قلوب المؤمنين . وهم الصحابة يوم الحديبية ، الذين استجابوا لله ولرسوله ، وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما أطمأنت قلوبهم بذلك ، واستقرت ، زادهم إيماناً مع إيمانهم ۝

وقد استدلل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب ۝

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لاتنصر من الكافرين فقال : (والله جنود السموات والأرض) ، أى : ولو أرسل عليهم مكنك واحداً لأباد خسرانهم ، ولكنه تعالى شرع لمبادء المؤمنين الجهاد والقتال ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحاجة القاطعة ، والبراهين الدامغة ، ولهذا قال : (وكان الله عليهما حكيماً) ثم قال تعالى : (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) ، قد تقدم حديث أنس : قالوا : هنذا لك يا رسول الله ، هذا لكنا ؟ فأزل الله : (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) ، أى : ما كتبت فيها أبداً ، (ويكفر عنهم سيئاتهم) أى : خطاياهم وذنوبهم ، فلا يعاقبهم عليها ، بل يعفو ويصفح ويغفر ، ويسر ويرحم ويشكر ، (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) . كقوله : فن زحزحنا من النار ، وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع فلزور (٢) ۝

وقوله : (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظالمين بالله ظن السوء) ، أى : يهتمون الله في حكمه ، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال : (عليهم ذاة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم) ، أى : أبغضهم من رحمته ، (وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) ۝

ثم قال مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين : (والله جنود السموات والأرض ۝ وكان الله عزيزاً حكيماً) .

(١) تفسير الطبري : ٤٥ / ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران : آية : ١٨٥ .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتُقِرُّوهُ فَمِنْ بَعْدِهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدَ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّا بِنُكْثِهِ عَلَيْنَا نَفْسُهُ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ بَعْدِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾

يقول تعالى لنبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - : (إنا أرسلناك شاهداً ، أي : على الخلق ، ومبشراً ، أي : للمؤمنين ، ونذيراً ، أي : للكافرين . وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب (١) ، (ليؤمنوا (٢) بالله ورسوله ويزروه) قال ابن عباس وغير واحد : يعظموه (٣) - (ويوقروه) من التقدير وهو الاحترام والإجلال والإعظام (ويسبحوه) ، أي يسبحون الله (بكراً وأصيلاً) ، أي : أول النهار وآخره .

ثم قال تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم - تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) ، كقوله : (من يطع الرسول فقد أطاع الله (٤)) ، (يد الله فوق أيديهم) ، أي : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ، ويعلم ضمايرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المايح بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كقوله : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بمعهده من الله ، فاستشروا بيعكم الذي يابى به ، وذلك هو الفوز العظيم (٥)) .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا الفضل (٦) بن يحيى الأنباري ، حدثنا علي بن بكار ، عن محمد ابن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سل سيفه في سبيل الله ، فقد بايع الله » .

وحدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن العلاء ، أخبرنا جرير ، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحنجر : « والله ليبعث الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد علي من استلمه بالحق ، فمن استلمه فقد بايع الله » ، ثم قرأ : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) ، ولهذا قال هاتين : (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) ، أي : إنما يعود وبئال ذلك على الناكث ، والله خفي عنه ، (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فمِنْ بَعْدِهِ أَجْرًا عَظِيمًا) ، أي : ثواباً جزيلاً . وهذه البيعة هي بمقتضى ضوان ، وكانت تحت شجرة سمرة (٧)

(١) انظر تفسير الآية الخامسة والأربعين من سورة الأحزاب : ١٢٩/٦ - ٤٣٠ .

(٢) كذا في المخطوطة : الأثر : (ليؤمنوا) ، بالياء ، وما عطف عليه من الأفعال . ويقول أبو حيان في البحر المحیط ٩١/٨ : « وقرأ الجمهور (ليؤمنوا) » وما عطف عليه تمام الخطاب . وأبو جعفر ، وأبو حيوة ، وابن كثير ، وأبو عمرو بياء النية .

(٣) تفسير الطبري : ٤٧/٢٦ .

(٤) سورة النساء ، آية : ٨٠ .

(٥) سورة التوبة ، آية : ١١١ .

(٦) كذا في المخطوطة : « الفضل » . ولم نجده في البحر لابن أبي حاتم ، ولعله التفسير بن يحيى ، انظر المخرج : ٧٦/٢/٣ .

(٧) البسر : شجر الطلع ، وهو شجر طوال عظام ، والواحدة سمرة - يفتح نسم - ولذلك كان يقال المبايعين تحت الشجرة : أسماط السمرة .

بالحديبية ، وكان الصحابة الذين يابعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ قبل ألف وثلاثة . وقيل : أربعمائة . وقيل : وخمسمائة . والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

قال البخارى : حدثنا قتيبة ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة (١) ؛ ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة ، به (٢) . وأخرجاه أيضاً من حديث الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن جابر قال : كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك للماء فنبع الماء من بين أصابعه ، حتى رَوَّرَا كلهم .

وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أعطاهم سهماً من كنانته فوضعه في بئر الحديبية ، فجاثت (٣) بالماء ، حتى كفتهم ، فقيل لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفاً وأربعمائة ، ولو كنا مائة ألف لكفنا (٤) . وفي رواية الصحيحين عن جابر أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٥) .

وروى البخارى من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة ، قلت : فإن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كانوا أربع عشرة مائة . قال رحمه الله : وهم ، هو وحديثي أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٥) .

قال البيهقي : هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول : خمس عشرة مائة ، ثم ذكر الوهم فقال : أربع عشرة مائة ؛ وروى [المقرئ] عن ابن عباس : أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين . والمظهر الذى رواه غير واحد عنه أربع عشرة مائة ، وهذا هو الذى رواه البيهقي ، عن الحاكم ، عن الأصم ، عن عباس النورى ، عن يحيى بن معين ، عن شبابة ابن سوار ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة . وكذلك هو رواية سلمة بن الأكوع ومفضل بن يسار ، والبراء بن عازب . وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير . وقد أخرج صاحبها الصحيح من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة قال : سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول : كان أصحاب الشجرة ألفاً وأربعمائة ، وكانت أسمائهم يومئذ تُسَنُّ للمهاجرين (٥) .

وروى محمد بن إسحاق في السيرة ، عن الزهري ، عن عروة بن الزبير ، عن المسور [بن مخزوم] ومروان بن الحكم أنهما حدثاه قالاً : خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عام الحديبية يريد زيارة البيت ، لا يريد قتالاً ، وساق معه الهدى

(١) البخارى ، تفسير سورة الفتح : ١٧٠/٦ .

(٢) مسلم ، كتاب الإمامة ، باب : استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ، وبين بيعة الرضوان تحت الشجرة : ٢٥-٢٦ .

(٣) أنه : فاثوت .

(٤) البخارى ، كتاب المغازى ، باب : غزوة الحديبية : ١٥٦/٥ - ١٥٧ . ومسلم في الكتاب والباب المتضمنين : ٢٦/٦ .

(٥) البخارى ، كتاب المغازى ، باب : غزوة الحديبية : ١٥٧/٥ . ومسلم في الكتاب والباب المتضمنين : ٢٦/٦ .

سبعين بدنة ، وكان الناس سبعمائة رجل ، كل بدنة من عشرة نفر ، وكان جابر بن عبد الله قياً بلغني عنه يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة (١) .

كما قال ابن إسحاق وهو مخلود من أوهامه ، فإن المخطوط في الصحيحين أنهم كانوا بصبع عشرة مائة ،

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسماعيل بن يسار في السيرة : ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمر بن الخطاب لبيعه إلى مكة ، ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال : يا رسول الله ، إني أشاف قريشا على نفسي ، وليس بمكة من بني عكر بن كعب من بمعنى ، وقد عرفت قريش عدواني إياها ، وغلظي (٢) عليها ، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان ، فبعه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ، ومعتظاً لحرمته .

فخرج عثمان إلى مكة ، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاروه حتى بلغ رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانطلق عثمان حتى أتى أبي سفيان وعظيماً قريش ، فبلغهم من رسول الله ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطُف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم . واحتجسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قُتِل

قال ابن إسحاق : فحدثني حيد الله بن أبي بكر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : « لا تبرح حتى تأنجر القوم » : ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : يا بعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبايعهم على الموت ، ولكن يبايعنا على أن لا نفر .

فبايع الناس ولم يختلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجند بن قيس أنموذج سلمة ، فكان جابر يقول : والله لكان أنظر إليه لاصفاً يابط نافته ، قد ضباً (٣) إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذي كان من أمر عثمان باطل (٤) .

وذكر ابن لهيعة ، عن الأسود ، عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق ، وزاد في سياقه : أن قريشا بعثوا وعندهم عثمان سهيل بن عمرو ، وحويط به بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح القرينان كلاهما ، ولرتين كل من الفريقين من عند من الرسل ، ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر بالبيعة ، فاجتمعوا على اسم الله فبايعوا . فسار المسلمون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا أبداً ، فأرعب ذلك المشركين ، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ، ودعوا إلى المودة والصلح

(١) سيرة ابن هشام : ٢/٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) في السيرة : « وغلظي » .

(٣) أي : لوق بالارض يستتر بها .

(٤) سيرة ابن هشام : ٢/٢١٥ - ٢١٦ .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن حيد الصغار، حدثنا تمام^(١)، حدثنا الحسن بن بشر، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله». ففُضِرَ بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم.

قال ابن هشام: وحديثي من أثبت به عن حديثه بإسناد له، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عمر قال: «بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان، ففُضِرَ بإحدى يديه على الأخرى» وقال عبد الملك بن هشام النحوي: فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي: أن أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم - بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي^(٢).

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبي خالد، عن الشعبي قال: «لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان، فقال: أبسط يدك لأبيك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «علام تباينى؟» فقال أبو سنان: حل مائق فضك، هلم أبو سنان وهب الأسدي.

وقال البخاري: حدثنا شجاع بن الوليد سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر^(٣)، عن نافع قال: «إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل حمزة، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي^(٤) به ليقتل عليه، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلم^(٥) للقتال، فأخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر^(٦)».

ثم قال البخاري: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا حمزة بن محمد السمرى، أخبرني نافع، عن ابن عمر: أن الناس كانوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم^(٧) الحديبية قد تفرقوا في ظلال الشجر، فاذا الناس متحدثون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال - يعني عمر - ياعبد الله، انظر ماشان الناس قد أحلقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدتهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع^(٨).

وقد أسنده البيهقي عن أبي عمرو^(٨) الأديب، عن أبي بكر الإسماعيلي، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم، عن حنظلي الوليد بن مسلم، فذكره.

(١) في المخطوطة: «تمام». وتتمام هو أبو حنيفة محمد بن غالب القسبي البصري. وانظر تذكرة الحافظ: ٦١٥/٢.

٨٧٦/٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣١٦/٢.

(٣) في المخطوطة: «صخر بن الربيع». و «بن الربيع» غير ثابت في الصحيح. ولم نجد في الرجال من يدعى «صخر

ابن الربيع».

(٤) كلمة «أن» غير ثابتة في الصحيح.

(٥) أي: يلبس ما عنده من عدة الحرب.

(٦) البخاري، كتاب المغازي، باب «فروة الحديبية»: ١٦٣/٥.

(٧) ما بين القوسين عن البخاري.

(٨) في المخطوطة: «عن ابن عمرو». وفي الطبقات السابقة: «عن أبي عمرو». وقد ورد هذا اللفظ في دلائل النبوة:

تحقيق الأستاذ صفير ١٩٠/١، وفيه: «أبو عمر عبد بن عبد الله الأديب».

وقال الليث ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه ، وعمر أخذ بيده تحت الشجرة وهي مسمرة ، وقال : يا بئنا على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت . رواه مسلم ، عن قتيبة ، عنه (١) :

وروى مسلم عن يحيى بن يحيى ، عن يزيد بن زريع ، عن خالد ، عن الحكم بن عبد الله بن الأكرج ، عن معقل ابن يسار قال : لقد رأيت يوم الشجرة والنبي - صلى الله عليه وسلم - يبايع الناس ، وأنا رافع خضتا من أغصانها عن رأسه ، ونحن أربع عشرة مائة ، قال : ولم نبايعه على الموت ، ولكن بايعناه على أن لا نفر (٢) .

وقال البخاري : حدثنا للمكي بن إبراهيم ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سلمة بن الأكوع قال : بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة - قال يزيد : قلت : يا أبا مسلم ، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت (٣) .

وقال البخاري أيضا : حدثنا أبو حاتم ، حدثنا يزيد بن أبي حبيب ، عن سلمة قال : بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية ثم تسحيت ، فقال : يا سلمة ألا تبايع ؟ قلت : قد بايعت . قال : « أبل تبايع » . فدانوت فبايعته ، قلت : حلام بايعته يا سلمة ؟ قال : على الموت (٤) .

وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد بن أبي حبيب (٥) . وكلنا روى البخاري عن جابر بن عبد الله ، عن أبيه سلمة ، حدثنا إصحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو حاتم المكي عبد الملك بن عمرو ، حدثنا حكرمة بن عمار الجاهلي ، عن ليث بن سلمة ، عن أبيه سلمة ابن الأكوع قال : قمنا بالحديبية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لأثريها ، فقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على جنيحها - يعني الركن - (٦) فلما دعا وإما يصرق فيها ، فجاثت فطينا واستقينا ، قال : ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا إلى البيعة في أصل الشجرة ، فبايعته أول الناس ، ثم بايع وبايع ، حتى إذا كان في وسط الناس قال صلى الله عليه وسلم : « يا بني يا سلمة » . قال : قلت : يا رسول الله ، قد بايعت في أول الناس . قال : « وأيضا » . قال : ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عزرا (٧) فأعطاني حجة (٧) - أو ذكوة - ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال صلى الله عليه وسلم : « ألا تبايع يا سلمة ؟ » . قال : قلت : يا رسول الله ، قد بايعت في أول الناس وأوسطهم . قال : « وأيضا » . فبايعته الثالثة ، فقال : « يا سلمة ، أين حجة كنتك أو ذكوة التي أعطيتك ؟ » . قال : قلت : يا رسول الله ، لقيت حاتم عزرا فأعطيتها إياه ، فبصحت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « استصحاب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ... » : ٢٥/١ .

(٢) مسلم ، في الكتاب والباب للقتالين : ٢٦/١ .

(٣) البخاري ، كتاب الجهاد ، باب « البيعة في الحرب أن لا يفروا » : ٦١/٤ .

(٤) انظر البخاري ، كتاب الاستقام ، باب « من بايع مرتين » : ٩٨/٩ .

(٥) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « استصحاب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ... » : ٢٧/٩ .

(٦) الركن : الحجر ، وسجلها : ما حولها .

(٧) أي : ليس معه سلاح .

(٨) الحجة : الركن الصغير يطابق بين جليلين . وللدقة : فوج من التروس .

وقال الحميدي أيضاً: حدثنا سفيان، عن عمرو سمع جابراً قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختفوا في موضعها. أخرجاه من حديث سفيان (١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «لا يدخل النار أحد من يبيع تحت الشجرة» (٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون القلاس الطبري، حدثنا سعيد بن عمرو الأشمى، حدثنا محمد بن ثابت العبدي، عن خدش بن عياش، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: «يدخل من يبيع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فأنطلقنا نبتدعه فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيري أحب إلي من أن أبايع.

وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا حبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا قُرة، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال: «من يصدل الثانية ثنية المزار (٣) فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل». فكان أول من صدل خيل بني الخزرج، ثم تبادر الناس بعد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله. فقال: والله لأن أجعد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم. فإذا هو رجل يشتك ضالاً. رواه مسلم عن عبيد الله، به (٤).

وقال ابن جرير: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابراً يقول: أخبرني أم مبشر أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة: «لا يدخل النار — إن شاء الله — من أصحاب الشجرة الذين يبايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها فقالت لحفصة: (وإن منكم إلا واردها)، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد قال الله: (ثم تنجي الذين اتقوا وتلزم الظالمين فيها جثياً). رواه مسلم (٥).

وفيه أيضاً عن ثنية، عن الليث، عن أبي الزبير، عن جابر: أن عبد الحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله، ليخطن حاطب النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كليت: لا يدخلها، فإنه قد شهد بدراً والحديبية (٦)». ولهذا قال تعالى في التناء عليهم: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوقي أيهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)، كما قال تعالى في الآية الأخرى: (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً) (٧).

(١) مسلم والبخاري في الكتاب والباب المتضمنين، انظر مسلم ٢٦/٦. والبخاري ١٥٧/٥.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/٣٥٠.

(٣) ثنية المزار: موضع بين مكة والمدينة.

(٤) مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ١٢٣/٨.

(٥) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة: ١٦٩/٧.

(٦) مسلم، في الكتاب السابق، باب من فضائل أهل بدر — رضى الله عنهم — وقصة حاطب بن أبي بلتعة: ١٦٩/٧.

(٧) آية: ١٨ من هذه السورة.

سَيَبْرُوكَ لَكَ الْمُحْلَتُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَعَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَمْوَالُكُمْ فَاسْتَقْرَرْنَا يَقُولُونَ إِنَّهُمْ مَالِيَسٌ فِي قُلُوبِهِمْ
قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ هَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يَتَعَمَلُونَ خَيْرًا ﴿١١١﴾ بَلْ
ظَنَنْتُمْ أَنَّ النَّاسَ يَنْقَلِبُ الرُّسُلَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَبَدًا وَذُرِّيَّ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوَاءً وَكُنْتُمْ
قَوْمًا بُورًا ﴿١١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١١٣﴾ وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٤﴾

يقول تعالى خبراً رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - ما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المكأ في أهلهم وشغلهم ، وتركوا المسير مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاعتطروا بشغلهم بذلك ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وذلك قول منهم لا عل سبيل الاحتقاد ، بل على وجه التقية والمصانعة ، ولها قال تعالى : ﴿ يقولون يا أئلهنا ما ليس في قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ﴾ ، أى : لا يقدر أحد أن يرد ما أراد فيكم تعالى وتقدس ، وهو العظيم بسر أركم وحضائر كرم ، وإن صانعتونا وثابتعتونا ، ولها قال : (بل كان الله عما تعلمون خبيراً) .

ثم قال : (بل ظننم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً) ، أى : لم يكن تخلفهم تخلف معذور ولا هاس ، بل تخلف نفاق ، (بل ظننم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً) ، أى : اعتقدتم أنهم يقاتلون وتستأصل شأفتهم ، وتستأد خصرأؤهم ، ولا يرجع منهم خبر ، (وظننم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا) ، أى : هلكن . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد ، وقال قتادة : ظالمين (١) . وقيل : هى بلفة حمان .

ثم قال : (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) ، أى : من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعليه في السعي ، وإن أظهر للناس ما يعتصون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر .

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض : (يضر لمن يشاء ويعلمب من يشاء ، وكان الله فقودا رجا) ، أى : لمن تاب إليه وأتاب ، ونخضع لديه .

سَيَقُولُ الْمُطَلَقُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَاتِمٍ لِتَأْخُذُوا ذُرًّا تُبَيعُكُمْ بِرِيدُونَ أَلَيْسَ كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تُبَيعُوا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْدَوُونَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى عبرا عن الأعراب الذين علموا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - على غزوة الحديبية ، إذ ذهب النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه إلى خيبر فيفتحونها : أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى اللخم ، وقد تحلفوا من وقت هجرتهم الأعداء ويجالسونهم ومصائبهم ، فأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن لا يأذن لهم في ذلك ، معاقبة لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله

تعالى وعد أهل الحببية عقابهم وخبر وحدهم لا يشركهم فيها ، غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع خبر ذلك شرعا وقتلا ، ولهذا قال : (يريدون أن يبدلوا كلام الله) - قال مجاهد ، وقتادة ، وجبرير : وهو الوعد الذي وعد به أهل الحببية . واختاره ابن جرير (١) .

وقال ابن زيد : هو قوله : (فإن رجلك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك بالخروج ، فقل : لن نخرجوا معي أبدا ولن نقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقبلوا مع المتخلفين (٢)) .

وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر ، لأن هذه الآية التي في « برائة » نزلت في غزوة تبوك ، وهي متأخرة عن غزوة الحببية .

وقال ابن جرير : (يريدون أن يبدلوا كلام الله) ، يعني بشيئهم المسلمين عن الجهاد .

(قل : لن تبينوا كللكم قال الله من قبل) ، أي : وعد الله أهل الحببية قبل سؤالكم الخروج معهم ، (فسيقولون : بل نصلوا) ، أي : أن نشارككم في الغنائم ، (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) ، أي : ليس الأمر كما زعموا ، ولكن لا فهم لم .

قَالَ الْمُصَلِّينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَيَّ قَوْمَ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ تَقْنَلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّوْنَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَزْوَاجًا حَسَنًا مِّمَّنْ تَشَاءُونَ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَنُوعِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ جَنَّةِ بُرْدٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتُوبْ إِلَى اللَّهِ يَعْذِبْهُ اللَّهُ بِالْأَلِيمِ ﴿٧٦﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم ، الذين هم أولو بأس شديد ، على أقوال :
أحدها : أنهم هوازن . رواه شعبه عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبر - أو عكرمة ، أو جميعا - ورواه هشيم عن أبي بشر ، عنهما : وبه يقول قتادة في رواية عنه .

الثاني : ثقيف ، قاله الضحاك .

الثالث : بنو حنيفة ، قاله جرير . ورواه محمد بن إسحاق ، عن الزهري . ورؤي مثله عن سعيد وعكرمة .

الرابع : هم أهل فارس . رواه علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، وبه يقول عطاء ، ومجاهد ، وعكرمة - في إحدى الروايات عنه .

وقال كعب الأحبار : هم الروم . وعن ابن أبي ليلى ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة : هم فارس الروم . وعن مجاهد : هم أهل الأوثان . وعنه أيضا : هم رجال أولو بأس شديد ، ولم يكن فرقة . وبه يقول ابن جرير ، وهو اختيار ابن جرير . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الأشج ، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريري ، عن معمر ، عن الزهري في قوله : (ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد) ، قال : لم يأت أولئك بعد .

(١) تفسير الطبري : ٥٠/٢٦ - ٥١ .

(٢) تفسير الطبري : ٥٢/٢٦ .

وحدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبي خالد ، عن أبيه ، عن أبي هريرة في قوله :
(ستدهون إلى قوم أولى بأس شديد) ، قال : هم البارزون .

قال : وحدثنا سفيان ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ولا تقوم الساعة حتى تقاضوا قوما صغار الأعين ذُئِلَتْ الْأَنْفُ » (١) ، كان وجوههم المجان المطرقة (٢) . قال سفيان : هم الترك .

قال ابن أبي عمر : وجدت في مكان آخر : ابن أبي خالد عن أبيه قال : نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاتلون قوماً تعلم الشر » ، قال : هم البارزون ، يعني : الأكراد .

وقوله : « قاتلوهم أو يسلّمون » ، يعني يشرع لكم جهادهم وقايم ، فلا يزال ذلك مستمرا عليهم ، ولكم النصر عليهم ، أو يسلّمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل بختيار .

ثم قال : « فإن طيعوا » ، أي : تستجيبوا وتتفروا في الجهاد وتؤمنوا الذي عليكم فيه ، « يؤمنكم الله أجرنا حسنا » وإن تولوا كما توليت من قبل ، يعني زمن الحديبية حيث دعيت فخطبتم ، « يعذبكم عذابا أليفا » .

ثم ذكر تعالى الأعداء في ترك الجهاد ، فهذا لازم كالعلمي والعرَج المستمر ، وعارض كالرض الذي يطرأ أيا ما في ذلك ، فهو في حال مرضه مَحْكُوقٌ بلوى الأعداء اللازمة حتى يبرأ .

ثم قال تعالى مرغا في الجهاد وطاعة الله ورسوله : (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار) ومن يذول ، أي : ينكلُ عن الجهاد ، ويعمل على المماش (يعذب عذابا أليفا) ، في الدنيا بالمللة ، وفي الآخرة بالنار .

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَهُ السَّكِينَةَ ۖ هَٰؤُلَاءِ رُضِيَ عَنْهُمْ وَأَتَّيِبَتْ لَهُمْ قُرْبَىٰ ۖ وَمَعَٰذٌ كَثِيرَةٌ يُأْخِذُونَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٥ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت الشجرة ، وقد تقدم ذكر عدتهم وأتهم كانوا ألفا وأربعمائة ، وأن الشجرة كانت سَمْرَةَ بأرض الحديبية .

قال البخاري : حدثنا عمود ، حدثنا عبيد الله ، عن إسرائيل ، عن طارق بن (٢) عبد الرحمن قال : انطلقت حاجا فمرت بقوم يصلون ، فقلت : ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة ، حيث بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيعة الرضوان . فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته ، فقال سعيد : حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت الشجرة . قال : فلما خرجنا من العام المقبل تسبناها فلم نقدر عليها ، فقال سعيد : إن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يعلموها وصَلَّوْهُمُوهَا أَمَّ ، فأتهم أعلم (٤) .

(١) الذئف - بفتحين - : نسر الأنف وانبطحه ، وقيل : ارتفاع طرفه مع صغر أرنبتة . والذئف - بضم فسكون - : جميع الذئف ، كاسمر وحمر . والذئف : جمع ذلة للذئف ، وضع موضع جمع الكثرة .

(٢) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ٣٧٠/٥ .

(٣) في المخطوطة : « طارق أبو عبد الرحمن » . والمثبت من البخاري .

(٤) البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية : ١٥٨/٦ - ١٥٩ .

وقوله : (وأخرى لم تقدموا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا) ، أي : وغنيمة أخرى وفتحنا آخر مبينا لم تكونوا تقدمونها عليها ، قد بسرها الله عليكم ، وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يوزق عباده للمؤمنين له من حيث لا يحصيرون :

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ، ما المراد بها ؟ فقال العوفي عن ابن عباس : هي خيبر : وهذا على قوله في قوله تعالى : (فمجهل لكم هذه) : إنها صلح الحديبية . وقاله للفسحاك : وابن إسحاق : وعهد الفرح من زيد بن أسلم :

وقال قتادة : هي مكة : واعتاره ابن جرير (١) .

وقال ابن أبي ليلى ، والحسن البصري : هي فارس والروم :

وقال مجاهد : هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، عن صالح التميمي ، عن ابن عباس : (وأخرى لم تقدموا عليها قد أحاط الله بها) ، قال : هذه الفتح التي تفتح لك اليوم .

وقوله : (ولولا فائقكم الذين كفروا لولوا الأديار ، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا) يقول تعالى : مبشرا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولا تزعج جيش الكفار فإرا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا ، لأنهم محاربون لله ورسوله ولجوب المؤمنين .

ثم قال : (ستة الله التي قد خلت من قبل ولن يجد لسنة الله تبديلا) ، أي : هذه ستة الله وعادته في خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر ، فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين ، مع قلة عدد المسلمين وعددهم ، وكثرة للمشركين وعددهم :

وقوله : (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا) : هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلا من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحا فيه خيرة للمؤمنين ، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة . وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع حين جاءوا بأولئك السبعين الأسارى فألقوهم بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنظر إليهم وقال : « أرسلوهم يكن لهم بده القصور وثنا » (٢) . قال : وفي ذلك أنزل الله : (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) ... الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حجاج ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ثاتون رجلا من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غربة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا عليهم فأتعلاوا - قال عفان : فضا عنهم - ونزلت هذه الآية : (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) (٣) ،

(١) تفسير الطبري ٥٨/٢٦ .

(٢) انظر ٣١٧/٧ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ١٢٢/٣ - ١٢٤ - ١٢٥ - ٢٩٠ .

ورواه مسلم وأبو داود في مسنده ، والترمذي والنسائي في تفسيري من سنيهما ، من طرق ، عن حجاج بن سلمة ، به (١) .
وقال أحمد أيضا : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا الحسين بن واقد ، حدثنا ثابت البناني ، عن عبد الله بن معمر المزني قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن ، وكان يقف من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى بن أبي طالب ، وسهيل بن عمرو بن يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » . فأخذ سهيل بيده وقال : ما تعرف الرحمن الرحيم (٢) . اكتب في قضيتنا ما تعرف . قال : « اكتب باسمك اللهم » . وكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة » . فأمسك سهيل ابن عمرو بيده وقال : لقد ظلمتك إن كنت رسوله ، اكتب في قضيتنا ما تعرف . فقال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله » . فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ الله بأيامهم (٣) ، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل جئتم في عهد أحد ؟ أو : هل جعل لكم أحد أمانا ؟ » . فقالوا : لا . فخل سيليهم ، فأنزله الله : (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم يومئذ مكة من بعد أن ظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا (٤)) . رواه النسائي من حديث حسين بن واقد ، به .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب التميمي ، حدثنا جعفر ، عن ابن أبي رزق قال : لما خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - بالهدى وانتهى إلى خي الخليفة قال له عمر : يا نبي الله ، تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع (٥) ؟ قال : فيمت إلى اللينة ، فلم يدع فيها كراعا ولا سلاحا إلا حملة ، فلما دنا من مكة منعه أن يدخل ، فسار حتى أتى منى ، فقول بني : فأثابه عينة (٦) ، أن حكومة بن أبي جهل قد خرج عليك في خميسة ، فقال لخالد بن الوليد : « يا خالد ، هذا ابن ابن عمك أتاك في خيل » . فقال خالد : أنا سيف الله ، وسيف رسوله - فيؤمئذ سعى سيف الله - يا رسول الله ، أرم في أين شئت . فيمت على خيل ، فلقى حكمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، فأنزله الله : (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم يومئذ مكة) [إلى] (هذايا ألياً) . قال : فكف الله النبي عنهم من بعد أن أظفروا عليهم [لبقايا] من المسلمين كانوا [بقوا] فيها كراهية أن تعالهم [خيل (٧)] .

ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبي رزق بنحوه . وهذا السياق فيه نظر ، فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية ، لأن خالدا لم يكن أسلم ، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ ، كما ثبت في الصحيح . ولا يجوز أن يكون [في عمرة القضاء] لأنهم قاضوه على أن

(١) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب قول الله تعالى : (وهو الذي كف أيديهم عنكم) : ١٩٥/٥ - ١٩٦ . وسنن أبي داود ، كتاب الجهاد ، باب « في إلن عن الأمير بنير فداء » . ونخبة الأسوي ، تفسير سورة الفتح ، الحديث ٣٣١٧ - ١٤٩٠ - ١٥٠٠ . وقال الترمذي : « حسن صحيح » .

(٢) في المسند : « ما تعرف بسم الله الرحمن الرحيم » .

(٣) في المسند : « بأبصارهم » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٨٦/٤ - ٨٧ .

(٥) الكراع : الخيل .

(٦) المين هنا : من جهة ف أصابع اليد .

(٧) تفسير الطبري : ٥٩/٢٦ - ٦٠ .

بأنى من العام المقبل فيحتمر ويقم بمكة ثلاثة أيام ، فلما قدم لم ياتوه ولا حاربوه ولا قاتلوه : فإن قيل : فيكون يوم الفتح ؟ فالجواب : ولا يجوز أن يكون يوم الفتح ، لأنه لم يسبق عام الفتح هدياً وإنما جاء عارياً مقاتلاً في جيش عَزَمَرم ، فهذا السياق فيه خلل ، وقد وقع فيه شيء فليتأمل ، والله أعلم .

وقال ابن إسحاق : حدثني من لا أنهم ، عن حكمة مولى ابن عباس : أن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أبو حسين وأمرهم أن يطبقوا بحسك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليصيبوا من أصحابه أحداً ، فأخذوا أخداً ، فأتى بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فغفا عنهم وخطبهم ، وقد كانوا رمَوْا إلى عسكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : وفي ذلك أنزل الله : (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ... الآية (١) .

وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً يقال له : « ابن زُئيم » أطلع على النية من الحديبية ، فرماه المشركون بهمهم فقتلوه ، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيلاً فاتوه بأثني عشر فارساً من الكفار ، فقال لهم : « هل لكم على عهد ؟ هل لكم على ذمة ؟ » قالوا : لا . فأرسلهم ، وأنزل الله في ذلك : (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) ... الآية (١) .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّعُوهُمْ فَتَصِيْبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَبِيَّةَ حَبِيَّةً الْإِنْسَانِيَّةَ فَإِنَّ اللَّهَ سَكَبَتْهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢﴾

يقول تعالى خبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالههم على نصرتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هم الذين كفروا) ، أى : هم الكفار دون غيرهم ، (وصدوكم عن المسجد الحرام) ، أى : وأنتم أحق به ، وأنتم أهله في نفس الأمر ، (والهدى معكوفاً أن يبلغ محله) ، أى : وصدوا الهدى أن يصل إلى محله ، وهذا من إنبهم وأصاذهم ، وكان الهدى سجيناً بانه كما سياتى بيانه .

وقوله : (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) ، أى : بين أظهرهم ممن يكتم إيمانهم وبخفيهم منهم خيفة على أنفسهم من قومهم ، لكننا سكتناكم عليهم فقتلهم وأبدنهم خضعتهم ، ولكن بين أفاضهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال : (لم تعلموهم أن تطاوعهم فتصيبكم منهم معرة) ، أى : إثم وغرامة (بغير علم ، ليُدخل الله في رحمته من يشاء) ، أى : يذبح عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام .

ثم قال : (لو تزيَّلوا) ، أى : لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم (لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً) ، أى : لسلكناكم عليهم فقتلهم قتلًا ذريعاً .

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أبو الزنباغ - روح بن الفرج ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد المكي ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله أبو سعيد (١) - مولى بني هاشم - حدثنا حجر بن خلف : سمعت عبد الله بن عوف (٢) يقول : سمعت جُنَيْدَ بن مَبْعُثٍ يقول : قالت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أول النهار كافرا وقالت معه آخر النهار مسلما ، وفيها قول : (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) . قال : كنا تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتين .

ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكي به ، وقال فيه : عن أبي جمعة جُنَيْد بن مبيع ... فذكره ، والصواب أبو جعفر : حبيب بن سباع (٣) : ورواه ابن أبي حاتم من حديث حجر بن خلف ، به . وقال : كنا ثلاثة رجال ونسوة ، وفيها ثلث : (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات)

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة ، عن أبي حمزة ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (لو تزيلوا لطبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) ، يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين ، لطبهم الله عذابا أليما يقتلهم إياهم .

وقوله : (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) ، وذلك حين أبوا أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وأبوا أن يكتبوا « هذا ما قضى عليه محمد رسول الله » ، (فأتى الله سبحانه على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى) ، وهي قول « لا إله إلا الله » ، كما قال ابن جرير ، وعبد الله بن الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن قزعة أبو علي البصري ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا شعبة ، عن ثُوَيْر (٤) ، عن أبيه ، عن الطفيل - يعني ابن أبي بن كعب - عن أبيه : سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (وألزمهم كلمة التقوى) ، قال : « لا إله إلا الله » (٥) .

وكنا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة ، وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وسألت أبا زرعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه » (٦) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث ، حدثني عبد الرحمن ابن خالد ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب : أن أبا هريرة أخبره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (وأمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا « لا إله إلا الله » ، فمن قال « لا إله إلا الله » فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحدقه ، وحسابه على الله » ، وأتزل الله في كتابه ، وذكر قرما فقال : (إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، يستكبرون) . وقال الله جل ثناؤه : (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) ، وهي : « لا إله إلا الله » ، محمد رسول الله ، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية ، وكانهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قضية للذة .

- (١) في المخطوطة : « بن سعيد » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣٥٤/٢/٢ ، وأسد الغابة : ٣٥٧/١ .
- (٢) في المخطوطة : « عبد الله بن عمر » . والمثبت من الجرح والتعديل ، ترجمة حبيب بن سباع : ١٠٢/٢/١ ، وأسد الغابة لابن الأثير : ٣٥٧/١ ، بصحيفتنا ، ومسند الإمام أحمد : ١٠٦/٤ .
- (٣) أنظر أسد الغابة : ٣٥٦/١ - ٣٥٧ ، ٣٦٥ ، ٤٤٤ .
- (٤) في تفسير الطبري : « عن ثور » . وهو خطأ ، والصواب ما هنا : أنظر الخلاصة .
- (٥) تفسير الطبري : ٦٦/٢٦ . ومسند الإمام أحمد : ١٦٨/٥ .
- (٦) نسخة الأحرشي : « تفسير سورة التفتح » الحديث ٣٣١٨ : ١٥٠/٩ - ١٥١ .

وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير (١) من حديث الثوري. والظاهر أنها مُدرّجة من كلام الثوري، والله أعلم. وقال عجاج: (كلمة التقوى) : الإخلاص. وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الثوري، عن عروة، عن المسور: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) ، قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن عبيدة بن ربيع، عن علي: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) ، قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال: [ابن عمر رضى الله عنهما].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) ، قال: يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوى.

وقال سعيد بن جبير: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) ، قال: لا إله إلا الله، والجهاد في سبيله.

وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

وقال عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن الثوري: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) ، قال: يسم الله الرحمن الرحيم.

وقال قتادة: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) ، قال: لا إله إلا الله.

(وَكَانُوا أَتَقِيهَا وَأَلْهَمَهَا) ، كان المسلمون أتقوا بها [وكانوا] أهلها.

[وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] ، أى: هو عليم بمن يستحق العذر عن يستحق الشر! (٢)

وقد قال النسائي: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شبابة بن سوار، عن أبي رزّين، عن عبد الله بن العلام بن زُهر، عن يسر بن عبيدة الله، عن أبي إدريس، عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)، ولوحيت كما حموا لتسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيعلمني بما علمه الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فأقرأ ما علمك الله ورسوله.

(وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحبشية ونفسية الصلح)

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار، عن الثوري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة وسروان بن الحكم قال: أخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحام الحبشية (٣) يريد زيارة البيت لا يريد قتلا، وساق معه المحدث سبعين بدة، وكان الناس سبيحة رجل، وكانت كل بدة عن عشرة، وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن مفيان الكبي. فقال: يا رسول الله، هذه قریش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل (٤)، قد ليست جلود النور، يهاهون الله أن لا تلخطها عليهم حتوة (٥)، أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم

(١) تفسير الطبري: ٦٦/٢٦.

(٢) ما بين القوسين وقع في مخطوطة الأزهر بعد حديث النسائي الآتي.

(٣) ما بين القوسين عن المست.

(٤) أى: الإبل معها أولادها. والوذ في الأصل: جمع عاذة، وهي الناقة إذا وعست، وبه ما تنفع حتى يقوى أولادها. والمطلق: الناقة القريبة العهد بالنتاج معها طلقها، يريد أنهم جاءوا بأجسمهم، كبارهم وصغارهم.

(٥) أى: قهراً وغلبة.

لقد قدموه إلى كُراع النعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياويح قريش ! قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو هلكوا بيني وبين سائر الناس ؟ فإن أسأليني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وهم وافرون ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وجههم قوة ، فإذا تنظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله به حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه الساقة » ثم أمر الناس فسلخوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق نخرجه على ثنية للرار والحديبية من أسفل مكة - قال : فسلك بالجيش تلك الطريق ، فلما رأته خيل قريش قُتِرَة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ، ركضوا راجعين إلى قريش فمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم - حتى إذا سلك ثنية للرار ، بركت ناقته ، فقال الناس : خلأت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما خلأت ، وما ذلك (١) لما خلأت ، ولكن حبسها حابس القيط من مكة ، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم ، إلا أعطيتهم إياها » قال للناس : « انزلوا » قالوا : يا رسول الله ، ما بالوادي من ماء يتزل عليه الناس ؟ فأخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه ، فترل في قلبه من تلك القُتْب ، ففرزه فيه فجاش بالماء (٢) حتى ضرب الناس عنه بعتلى ، فلما اطمأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا بكَيْل بن ورقاء في رجال من خزاعة ، فقال لم يقله لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش ، إنكم تحبسون على محمد ، وإن محمداً لم يأت لتقاتل ، إنما جاء زائر آل هذا البيت معظماً لحقه ، فاتهمهم ،

قال محمد بن إسحاق : قال الزهري : كانت خزاعة في حبيبة في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مشركها ومسلمها ، لا يحقن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً كان بمكة ، فقالوا : وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها (٣) أبداً هليناً حقوة ، ولا يتحدث بذلك العرب . ثم بعثوا إليه مكْرَزَيْنِ حفص (٤) أحد بني حارم بن لؤي ، فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « هذا رجل غادر » . فلما انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنحو مما حكّم به أصحابه ، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قاله رسول الله ، فبعثوا إليه الحليس بن علفمة الكناني ، وهو يرمئ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « هذا من قوم يتألمون » (٥) ، فابعثوا المفْدْيَ في وجهه ، فبعثوا المفْدْيَ (٦) فلما رأى المفْدْيَ يسيل عليه من حُرْض الوادي في قلاته قد أكل أوتاره (٧) من طول الحبس من عمله ، رجع ولم يصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إعظاماً لما رأى ، فقال : يا معشر قريش ، قد رأيت ما لا يصل حسده ، المفْدْيَ في قلاته قد أكل أوتاره من طول الحبس من عمله . قالوا : اجلس ، إنما أنت أعرج لا علم لك ، فبعثوا إليه أعرورة بن مسعود الثقفي ، فقال : يا معشر قريش ، إني قد رأيت ما يأتي منكم من تبغوث إلى محمد إذا جاءكم ، من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد ، وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من قومي ، ثم جئت حتى

(١) في المصنف : « وما هو لها » .

(٢) في المصنف : « فبجاش الماء بالرواء » . وبجاش : قار .

(٣) في المصنف : « فلا واقع لا يدخلها » .

(٤) في المصنف : « حفص بن الأعيف » .

(٥) في المخطوطة : « قوم يباعلون » . والمبغوث من المصنف .

(٦) ما بين القوسين من المصنف .

(٧) الأوتار : جمع وتر - يفتحين - وهو وتر القوس .

استجيبكم بنفسي . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس بين يديه ، فقال : يا محمد ، جمعت أرباش الناس ، ثم جئت بهم ليضربنك لتخضعها (١) ، إنها قريش قد خرجت معها المؤدة للماخيل ، قد لبسوا جلود النور ، ياهدون الله أن لا تدخلها عليهم حنوة أبدا ، وأيم الله لكأنهم هؤلاء قد انكشفوا عنك غدا . قال : وأبو بكر قاعد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : امض بقتل اللات (٢) ! أنحن لتكشفت عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة . قال : أما والله لولا يدك أنت لك حنوة لكافأناك بها ، ولكن هذه بها . ثم تناول حية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللغيرة بين شعبة وألف على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الخليلد (٣) ، قال : فترجعه يده (٤) . ثم قال : أمسك يدك عن حية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل - والله - لاتصل إليك (٥) . قال : ويحك ! ما أفظلك وأغفلتك ! فنبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من هذا يا محمد ؟ قال صلى الله عليه وسلم : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . قال : أغدر ، وهل ضللت سوائك إلا بالأمس ؟ قال : فكلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ما كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا ، قال : فقام من عند رسول الله وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يترقبوا وضربا إلا ابتدوه ، ولا يصق بصاقا إلا ابتدوه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إلى جئت كسرى في ملكه ، وجئت قيسر والنجاشي في ملكها ، والله ما رأيت مسلكا قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ، فقرأوا رأيكم ، قال : وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قد بعث غرashed بن أمية الخزاعي إلى مكة ، وحمله على جمل له يقال له « الثعلبي » ، فلما دخل مكة عقرت به قريش ، وأرادوا قتل غرashed ، فنبههم الأحابيش حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا عمر ليعينه إلى مكة ، فقال : يا رسول الله ، إلى أخلف قريشا على نفسي ، وليس بها من يبي عنك أحد يمتني ، وقد عرفت قريش عدواني وإياها وغلفني عليها ، ولكن أدلك على رجل هو أحرمني ، عثمان بن عفان . قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقبه أبان بن سعيد بن العاص ، فترك عن دابته وحمله بين يديه وودف خلفه ، وأجاره حتى بكع رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أرسله به ، فقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحبسته قريش عندها ، قال : وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل .

قال محمد : فحدثني الزهري أن قريشا بعثوا سهيل بن عمرو (٧) وقالوا : أنت عمو فاصله ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا حنوة أبدا . فأناه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أي : تكبرها . والمراد بالهيف هنا : الأهل والشيرة ، والكلام على سهيل التيتل .

(٢) البئر : ما تقطعه للقبيلة من فرج المرأة عند اللذان .

(٣) في المخطوطة : « بالخدبة » . والمثبت من المصنف .

(٤) في المصنف : « يترجعه يده » . وقرع يده : ضربها .

(٥) في المخطوطة : « إليه » . والمثبت من المصنف .

(٦) كلمة « أسد » غير ثابتة في المصنف .

(٧) يده في المصنف : « أسد بن عمرو بن لؤي » .

قال : « قد أراد القوم الصلح جميعاً بهذا الرجل » . فلما انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكلموا وأطالوا الكلام ، ورجعوا حتى جرى بينهما الصلح ، فلما أتمم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأقْبَلَ بِكَر فَقال : يا أبا بكر ، أُولَئِكَ يَرِسونَ الله ؟ أُولَئِكَ بِالْمُسْلِمِينَ ؟ أُولَئِكَ بِالْمُشْرِكِينَ ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى اللثة في ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر ! (١) ، أَلَمْ تَرَ هَؤُلاءِ (٢) حَيْثُ كَانَ فُلَانٌ أَشْهَدَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ . قال عمر : وأنا أشهد . ثم أتى رسول الله فقال : يا رسول الله ، أُولَئِكَ بِالْمُسْلِمِينَ أُولَئِكَ بِالْمُشْرِكِينَ ؟ قال : « بلى » . قال : فعلام نعطى اللثة في ديننا ؟ فقال : « وأنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيئني » : ثم قال عمر : ما زلت أصوم وأصل وأصدق وأعتق من اللّٰثي صنعت عاقبة كلالتي الذي تكلمت به يومئذ حتى وجرت أن يكون غيراً : قال : ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حلّ بن أبي طالب فقال : اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سهيل بن عمرو : « ولا أعرف هذا » ، ولكن اكتب : « باسمك اللهم » . فقال رسول الله : « اكتب باسمك اللهم » ، هذا ما صلح عليه محمد رسول الله - سهيل بن عمرو : « ، فقال سهيل بن عمرو : ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب هذا ما اصلح (٣) عليه محمد بن عبد الله ، وسهيل بن عمرو ، على وضع الحرب عشر سنين ، بأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، حلّ أنه من أتى رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه ، رده عليهم ، ومن أتى قريشاً بمن مع رسول الله لم يردوه عليه ، وأن يبيتا حية مكتوفة (٤) ، وأنه لا أسلح ولا أغلال ، وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب : أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده ، دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم ، دخل فيه . فترأيت خراعة فقالوا : نحن في عقد رسول الله وعهده : وترايت بني بكر يقولون : نحن في عقد قريش وعهدهم ! وأنت ترجع عنا ما هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا منك فدخلها بأصحابك ، وأقيمت بها (٥) ثلاثاً معك سلاح الرأكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب ، فبيتا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكتب الكتاب ، إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد أقبلت إلى رسول الله ، قال : وقد كان أصحاب رسول الله يخرجوا وهم لا يشكون في القتيح ، لرؤيا رأها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل رسول الله على نفسه ، دخل الناس من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا أن يهلكوا . فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال : يا عميد ، قد لجئت (٦) القضية بيني وبينك قبل أن أتيك هذا . قال : « صلبت » . فقام إليه فأخذ بتلابيبه - قال : وصرخ أبو جندل بأعلى صوته : يا معاشر المسلمين ، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني ؟ قال : فزاد الناس شراً إلى ما هم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « يا أبا جندل ! اصبر » . واحسب فإن الله جاعل لك ولبن مكرم من المستضعفين فرجاً وخرجاً ؛ إنا قد عقدنا بيتنا وبين القوم صلحاً فأعطيتهم على ذلك وأعطونا عليه أهدأ ، وإنا لن نغفر

(١) ما بين القوسين عن المسند .

(٢) الفرز - يفتح فـ كوز - ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو غشب . والمضى : احتلق به وأمسكه ، والنج قول وفعله ، ولا تخالفه ، فاستصار له الفرز ، كالأذي يسلك بركاب الرأكب . ويسير يسير .

(٣) في المخطوطة : « صالح » . والمثبت عن المسند .

(٤) العيبة في الأصل : مستودع الثياب . والمكتوفة : المشدودة على ما فيها . أي : بينهم صدر تن من الثل والخلع ، مطوى على الوفة بالصلح .

(٥) في المسند : « وأقيمت قيم » .

(٦) في المخطوطة : « تمت القضية » . والمثبت عن المسند ، وفي النهاية لابن الأثير : « لحي » . وجيت .

بهم . قال : فوثب إليه عمر بن الخطاب فحصل عني مع جنلك إلى جنبه و « هو » يقول : اصبر أبا جندك ، فانما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . قال : ويدنى قام السيف منه ، قال : يقول : رجوت أن يأخذ السيف فيقرب به أياه قال : ففضن الرجل بأبيه . قال : وتغلبت القضية ، فلما فرخا من الكتاب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في الحرم ، وهو مضطرب في الخلق ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس ، انمرو واحلقوا » قال : فما قام أحد . قال : ثم عاد بثلاثها ، فما قام رجل إلا حتى عاد صلى الله عليه وسلم بثلاثها ، فما قام رجل .

فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على أم سلمة فقال : « يا أم سلمة ، ماذا لثلاثي ؟ » قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما رأيت ، فلا تكلمهم من منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانمرو وحلقوا ، فلو قد فعلت ذلك لعل الناس ذلك فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فصره ، ثم جلس لحلق ، قال : فقام الناس ينمرون ويحلقون . قال : حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح .

هكذا ساقه أحمد (١) من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بكير وزياد البكائي عن ابن إسحاق بنحوه (٢) وفي إخراج وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، به نحوه (٣) وخالفه في أشياء وقد رواه البخاري رحمه الله في صحيحه ، فهاهنا سيالة حسنة مطولة بزيادات جيلة ، فقال في كتاب الشروط من صحيحه :

حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر : أخبرني الزهري : أخبرني عروة بن الزبير ، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه ، قال : خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المدينة إلى بضع (٤) عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتى ذا الحليفة قتل الحديدي وأشعره (٥) ، وأحرم منها بضمرة وبعت عينا له من خزاعة ، وسار حتى إذا كان بفندير الأشطاط (٦) أتاه فيه فقال : إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحباش وهم مقاتلون وصادقون ومانعوك . فقال : « أشيروا أيها الناس على » ، أنزف أن تميل على عاهلهم . وذواري هؤلاء الذين يريدون أن يصلحوا من البيت ؟ - وفي لفظ : « أنزف أن تميل على خرازي هؤلاء الذين أعانهم . » فإن باتوا كان الله قد قطع عنك من المشركين ولا تركامهم عرويين : - وفي لفظ [(٧)] « فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين عرويين (٨) » وإن [تحيروا] (٧) يكن عنك قطعاً لله ، أم تزفون أن تزف البيت فمن صدقنا عنه فائتاه ؟ . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، خرجت حاملاً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً ، فترجعه له ، فمن

(١) مستد الإمام أحمد : ٣٢٣/٤ - ٣٢٦ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام : ٣١٦/٢ - ٣١٩ .

(٣) مستد الإمام أحمد : ٣٢٨/٤ - ٣٣١ .

(٤) من هنا غير ثابت في صحيح البخاري ، وهو في مستد الإمام أحمد : ٣٢٨/٤ . مع خلاف غير بعيد .

(٥) أشعر الحديدي : أن يثق أحد جازي ستام البينة حتى يسبل دميها ، ويجعل ذلك ما حلة يفر بها أيها مدعي . وتقليه الحديدي : أن يجعل في صفها ما يعلم به أيها مدعي .

(٦) فندير الأشطاط : موضع قريب من صفان . وصفان على مرحلتين من مكة .

(٧) ما بين القوسين من الطبقات السابقة .

(٨) أي : مسلوبين مهوين .

صد عنه قائلناه - وفي لفظ فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين ، ولم نجئ لقتال أحد ، ولكن من حال بيتنا وبين البيت قائلناه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فروحوا إذن » - وفي لفظ : « فاصبروا على اسم الله (١) » .

حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة ، فخلوا ذات اليمين » . فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة (٢) الجيش ، فانطلق يركض نليراً لقريش ، وسار النبي صلى الله عليه وسلم - حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها ، بركت به راحلته ، فقال الناس : « حنّ حنّ » (٣) ، « قاتلحت ، فقالوا : « واخالت (٤) القصواء ، خلأت القصواء » فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخل ، ولكن حبسها حابس الفيل » . ثم قال : « واللى نفسي بيده ، لا يسألوني خطئة يعظمون فيها حرمت الله ، إلا أعطيتهم إياها » . ثم زجرها فوثبت ، فعمل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد (٥) قليل الماء يتبرّضه (٦) الناس تبرّضاً ، فلم يلبث الناس حتى نزحوا ، وشكى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العطش ، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجملوه فيه ، فوالله ما زال يجيش . لم بالرى حتى صبروا عنه . فبينما هم كذلك إذ جاء دُبَيْلُ بْنُ رِقَاءٍ الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عبيّة نصبح رسول الله من أهل تهامة ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ، نزّلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قرشنا قلدنهم كسكتهم » لخرّب فافترت بهم ، فإن شاءوا ما ددتهم مدّة ويحسّلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جئت (٧) ، « ومن هم أبوا فواللى نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي ، ولينفذ الله أمره » . قال دُبَيْلُ : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قرشنا فقال : إنا قد جئنا من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولاً ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . فقال سنهاؤهم : لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشئ . وقال : ذور الرأى منهم : هات ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فحدثهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ، فقام عروة بن مسعود فقال : أيّ قوم ، ألسنم بالوالد ؟ قالوا : بلى . قال : أولست بالولد ؟ قالوا : بلى . قال : فهل تنهموني ؟ قالوا : لا . قال : ألسنم تعلمون أنى استنقرت أهل حكاظ ، فلما بكّوها (٨) على جنتكم بأهل وولدى ومن أطاعني ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد عرّض عليكم خطئة رشّد فاقبلوها ودعوني آته . قالوا : آته . فأتاه فجعل يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم - ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - له : نحواً من قوله لبديل بن رقاء . فقال عروة عند ذلك : أيّ عمد ، أرايت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك ؟ وإن تلك الأخرى فإني والله لأرى وجوها ، وإني لأرى أشواها (٩) من

(١) إلى هنا ينتهي ما أثبت من مسند الإمام أحمد .

(٢) القتر - بركت - : خيرة الجيش .

(٣) حنّ حنّ : زجر للإبل .

(٤) واخالت : مثل الخراف للدواب ، واللى أنها امتنعت على صاحبها .

(٥) الثمد - يتحسّن - : الماء القليل .

(٦) تبرّض : يأخذونه قليلاً قليلاً . والتبرّض - بفتح فسكون - : الشيء القليل .

(٧) أي : استأصرا من جهد الحرب .

(٨) أي : صبروا .

(٩) أي : أغلاطاً وأنواها .

التاس خليفاً أن يقرأ ويذكر عوك . فقال له أبو بكر رضي الله عنه : امصص بقطر اللات ! أفنقن نهر وندعه ! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لولا بذكر لكنت لك عندى لم أجزك بها ، لأجبتك . قال : وجعل يكلم النبي - صلى الله عليه وسلم - فكلمه أخذ بلسه ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعه السيف وعليه المغفر (١) فكلم أهوى عروة بيده إلى حية النبي - صلى الله عليه وسلم - ضرب يده بنعل السيف ، وقال له : أتحب أن يلدك من حية النبي صلى الله عليه وسلم . فرجع عروة وأمه وقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . قال : أى غدر ؟ أكنت أسعى في غدرتك ؟ ! وكان المغيرة بن شعبة صاحب قوما في الجاهلية قطعهم وأعد أولهم ، ثم جاء قاسم . فقال : النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلتستعنه على شيء » . ثم إن عروة جعل يرشق أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - بعينه ، قال : فوالله ما تنضم رسول الله سبحانه إلا وقت في كف رجل منهم ، فذلك ما وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضعوا كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم (٢) خضعوا أصواتهم عنده ، وما يحذون النظر إليه ، تعظيلاً له صلى الله عليه وسلم . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، وولدت على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله إن رأيت (٣) ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد عمداً ، والله إن تنضم نخامة إلا وقت في كف رجل منهم ، فذلك ما وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضعوا كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خضعوا أصواتهم عنده ، وما يحذون النظر إليه تعظيلاً له . وإنه قد عرض عليكم خطبة رشداً فاقبلوها . فقال رجل منهم من بنى كنانة : دعوني آتة . فقالوا : آتة . فلما أشراف على النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البُدن ، فاجتئوها له » . فبُعثت له ، واستقبله الناس يسكبون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما يبني هؤلاء أن يبدوا عن البيت . فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البُدن قد كُلبت وأشعرت (٤) ، فأرى أن يصعدوا عن البيت . فقال رجل منهم يقال له : مكرز بن حنص - فقال : دعوني آتة . فقالوا : آتة . فلما أشراف عليهم قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « هذا مكرز ، وهو رجل فاجر » . فجعل يكلم النبي - صلى الله عليه وسلم - فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو . فقال معمر : أخبرني أيوب ، عن عكرمة أنه قال : لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : وقد سهلك لکم من أمرکم .

قال معمر : قال اثره روى فى حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : حات اكب بيتنا وينك كتابا . قدما النبي صلى الله عليه وسلم - الكاتب ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : اما والرحمن - فوافاه ما ادرى ما هو ، ولكن اكب : يا باسمك اللهم ، كما كنت تكب . فقال المسلمون : وافاه لا نكبهوا إلا : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : اكب : يا باسمك اللهم . ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدقناك عن البيت ولا غفلناك ، ولكن اكب : يا محمد بن عبد الله . فقال النبي - صلى

(١) المخفر : ما يلبسه الدارع على رأسه من الزود .

(٢) في إحيائهم المسيح : « تكلموا » .

(۳) ای : ما رأیت .

(٤) ماضي تفسیر هذه الكلمة من قريبه .

الله عليه وسلم - : « والله إني لرسول الله وإن كذبتموني : كتب عمد بن عبد الله . قال الزهري : وذلك لقوله : « والله لا يسألني خطه يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها . فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : على أن نخلوا بيننا وبين البيت فتطوف به » فقال : سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغطة (١) ، ولكن ذلك من العام المغفل . فكذب ، فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا ردّته إلينا . فقال للمسلمون : سبحان الله ! كيف يرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً ! فبينما هم كذلك إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف (٢) في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة حتى رعى نفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا عمد أول من أفاضلك عليه أن ترُدّه إلى . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : لا إله الا لكفسير الكتاب بعد : قال : فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبدا . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « كُليز (٣) » : قال : ما أنا بمجيز ذلك لك : قال : « بلى فافعل » . قال : ما أنا بفعل . قال مكرز : بلى قد أجروا لك : قال أبو جندل : أي معشر المسلمين ، أردت إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما قد فعلت ؟ ! وكان قد هدب عداها هديدا في الله عز وجل : قال هر رضي الله عنه : فأتيت نبي - الله صلى الله عليه وسلم - فقلت : أأنت نبي الله حقا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « بلى » : قلت : أأنا على الحق وعلونا على الباطل ؟ قال : « بلى » . قلت : فلم تعطى الدنيا في ديننا إذا ؟ قال : إني رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصري . قلت : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى » ، فأخبرك أنك تأتيه العام ؟ : قلت : لا . قال : فإني آتيه ومطوف به . قال : فأتيت أبا بكر فقلت : يا أبا بكر ، أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال : بلى . قلت : أأنا على الحق وعلونا على الباطل ؟ قال : بلى . قلت : فلم تعطى الدنيا في ديننا إذا ؟ قال : أبا الرجل ، إنه رسول الله ، وليس يصحى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بخرّره ، فوالله إنه على الحق . قلت : أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى . قال : فأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإني آتيه ونطوف به .

قال الزهري : قال هر : فعملت لذلك أمالا . قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » . قال : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات ! فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة ، فذكر لها ما فتنى الناس ، قالت له أم سلمة : يا نبي الله ، أتحب ذلك ؟ فخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بثديك وتدعو حائلك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حائله فحلقه ، فلما وأوا ذلك قاموا فتنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، ثم جاءه نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا ، إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، حتى يبلغ (بعضهن الكوافر) . فطلق هر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية . ثم رجع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم ، فأرسلوا في طلبه وجلبن ، فقالوا : العهد الذي جعلت لنا فهدم إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الخليفة ، فترلوا يأكلون من تمر لم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى

(١) أي : قهرأ .

(٢) أي : يمشي مشى الخفيف .

(٣) أي : أصله ل .

ميفك هذا يا فلان جيداً، فاستلّه الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جرت. فقال أبو بصير: أرى أنظر إليه. فأمكنه فصر يحمي بَرْدًا (١). وقتر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعلو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه: «لقد رأى هذا دُخْرًا». فلما انتهى إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: قُتِلَ والله صاحبي، وإنّي لقتول. فجاه أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد - والله - أوفى الله ذمتك، قد رددي إليهم ثم نجاني الله منهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ويل أمته سَعَرَ حَرْبَ (٢) ! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك حُرف أنه سيره إليهم، فخرج حتى أتى سيف (٣) البحر، قال: وقتلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلقني بأبي بصير، فبجّل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت قريش إلى الشام إلا اضترضوا لها قتلهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - تاتشهده الله والرحيم - لَأَأرسل إليهم (٤): «فن أتاه منهم فهو آمن»، فأرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - إليهم وأنزل الله عز وجل: (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة) حتى بلغ: (حماية الجاهلية)، وكانت حينئذ منهم لم يكرهوا أنه رسول الله، ولم يقرؤا باسم الله الرحمن الرحيم، وحاولوا بينهم وبين البيت.

هكذا ساقه البخاري ها هنا (٥)، وقد أخرجه في التفسير، وفي صُفرة الحلبية، وفي الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهري، به. ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن هرو، عن مروان والمسر، عن رجال من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك. وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين في مواضع، وهناك قولان ينفخ إضاقتها إلى ما هنا، ولذلك سقتا تلك الرواية وهذه، والله لستمان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وقال البخاري في التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السكّسي، حدثنا يعلى، حدثنا عبد العزيز بن سبياء، عن حبيب بن أبي ثابت قال: أنبت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال على ابن أبي طالب: نعم. فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحلبية - يعني الصلح الذي كان بين النبي - صلى الله عليه وسلم - والمشركين، ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاه عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلاتنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: بلى. قال: فقيم نحمل الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: يا ابن الخطأب، إني رسول الله، ولن يصيحن الله أبداً. فرجع متحفظاً فلم يصبر حتى جاءه أب بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطأب، إنه رسول الله، ولن يصيحه الله أبداً، فترلت سورة الفتح (٦).

(١) أي: مات.

(٢) يقال: سيرت النار والحرب: إذا أوقعتها. والمسر - بكسر الميم - ما تحرك به النار من آلة الحديدة. يصفه بالهافة في الحرب والنجدة.

(٣) سيف البحر: شاطئه.

(٤) كلمة «إليهم» غير ثابتة في الصحيح.

(٥) البخاري، كتاب الشروط، باب «الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط»: ٢٥٨/٢ - ٢٥٨.

(٦) البخاري، تفسير سورة الفتح: ١٧٠/٦ - ١٧١.

وقد رواه البخاري أيضا في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طرق أخر عن أبي واثل مقيان بن سلمة، عن سهيل بن حنيف،
 هـ وفي بعض ألفاظه : « يا أيها الناس ، اتبعوا الرأي ، فلقد رأيته يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم - أمره لرددته » وفي رواية : « فتركت سورة الفتح ، فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمر بن
 الخطاب فقرأها عليه (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حفان ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس أن قريشا صالحوا النبي - صلى الله عليه وسلم -
 فيهم سهيل بن عمرو ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لعل : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : لا تدرى
 ما بسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب ما نعرف : « يا سمكت اللهم » . فقال : « اكتب من محمد رسول الله » . قال : لو
 علم أنك رسول الله لاتبعتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اكتب من محمد بن عبد الله » ،
 واقتطعوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن من جاءه منكم لا تردده عليكم ، ومن جاءكم منا ردّدوه علينا . فقال : يا رسول الله
 أنكبت هذا ؟ قال : « نعم ، لأنه من ذهب منا إليهم فأبده الله (٢) » . رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة ، به (٣) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا حكرمة بن حمار قال : حدثني سمك ، عن عبد الله بن عباس
 قال : لما خرجت للحروية اعتزلوا ، فقلت لم : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية صالح المشركين ، فقال لعل :
 « اكتب يا حل ، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » : قالوا : لو تعلم أنك رسول الله ما قاتلتك . فقال رسول الله : « اصبر
 يا حل ، اللهم إنك تعلم أني رسولك ، اصبر يا حل واكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » . والله لرسول الله خير من
 حل ، وقد عاى نفسه ، ولم يكن يحوه ذلك يحاه من النبوة ، أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم (٤) .

ورواه أبو داود من حديث حكرمة بن حمار الباهي ، نحوه .

وروى الإمام أحمد ، عن يحيى بن آدم : حدثنا زهير ، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن الحكم ، عن مفسم ، عن
 ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : نحر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية سبعين ليلة فيها جمل لأبي جهل ،
 فلما صبحت عن البيت حشمت كما تحسن إلى أولادها (٥) .

(١) أنظر البخاري ، كتاب الجزية : ١٢٥ - ١٢٦ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب : « صلح الحديبية » : ١٧٥/٥ - ١٧٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٦٨/٣ .

(٣) مسلم ، كتاب الجهاد ، باب : « صلح الحديبية » : ١٧٤/٥ - ١٧٥ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٤٢/١ .

هذا وإنما كان هذا النقاش بين هذا الراوى وبين الحروية لأن وقد الشام قد اضرحت عند كتابة وثيقة التسليم على وصف
 على بأنه « أمير المؤمنين » . فأنر حل بمحوها وقال : هذا ما اتفق عليه على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣١٤/١ - ٣١٥ .

لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوَيْلَ بِالْحَقِّ لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ؕ آمَنِينَ مَحَلِّينَ رُءُوسَكَ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا لِيَجْعَلَ مِنْ ذُنُوبِكُمْ دَلًّا فَتَعْلَمُوا قَرِيبًا ﴿٧٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
يَاهُ مَدْيَنَ وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٨﴾

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أرى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأنبأ أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فلما ساروا عام الحديبية لم يملك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنفس هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يودعوا من قابل ، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في ذلك ، فقال له فيها قال : أفلن تكن نخبرنا أننا سنأتي البيت ونعطف به ؟ قال : بلى ، أنأخبرك أنك تأتبه عامك هذا ؟ قال : لا ، قال : فإنك أتبه ومطوّفة به . وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضا حدّو القصة بالقصة (١) . ولهذا قال تعالى : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) ، هذا لتحقيق الخبر وتوكيده ، وليس هذا من الاستثناء في شيء ، (آمنين) ، أي : في حال دخولكم . وقوله : (محلقين رموسكم ومقصرين) ، حال مقدرة ، لأنهم في حال حرمهم لم يكونوا محلقين ومقصرين ، وإنما كان هذا في ثاني الحال ، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره . وثبت في الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « رحم الله المحلقين » : قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « رحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « رحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « والمقصرين » في الثالثة أو الرابعة (٢) .

وقوله : (لا تخافون) : حال مؤكدة في المعنى ، فأثبت لهم الأمن حال الدخول ، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد . وهذا كان في حرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - أجمع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والحرم ، وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه ببضها عبوة وبعضها صلحا ، وهي إقليم عظيم كثير التخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدوا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة ، جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه ، ولم ينسب منهم أحد ، قال ابن زيد : إلا أبا جنانة سمالك بن خرفة ، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة . فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خرج إلى مكة متمرا هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة ، وساق معه الهدى ، قيل : كان ستين بئنة . فلبى وسار وأصحابه يلبون . فلما كان قريبا من مَرِّ الظَّهْرَانِ بعث محمد بن مسلمة بالخيال والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا وظنوا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يترجم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين ، وذهبوا فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله صلى الله

(١) القصة : واحدة القصة - بضم ففتح - وهي : ريش السهم ، وكل واحدة من ريش السهم تقدر على قتل صاحبه .

(٢) أخرجه في كتاب الحج ، انظر البخاري ، باب « الحلق والتقصير » : ٢١٣/٢ . وسلم : باب « تقصير الحلق

على التقصير ، وجزاء التقصير » : ٨٠/٤ - ٨١ .

عليه وسلم - فقتل عمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب (١) الحرم بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يابج (٢)، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها ، كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق بعث قريش مركز بن حفص فقال : يا محمد ، ما عرفناك تقض العهد . قال : وما ذلك ؟ قال : دخلت : علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال : لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى يابج . فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء . وخرجت رموس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى أصحابه غيظا وحنقا . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يكتبون ، ولطفي قد بعث إلى ذي طوى (٣) وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن ربيعة الأنصاري أخذ بزمام ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقودها ، وهو يقول :

بِاسْمِ اللَّهِ لَا دِينَ إِلَّا دِينُهُ بِاسْمِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُهُ
خَلَعُوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ الْيَوْمَ تَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ
كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ (٤) ضَرِبُوا زَيْلُ الْمَاءِ عَنْ مَكِيلِهِ (٥)
وَيَذْهَبُ الْخَلِيلُ عَنْ عَالِيهِ قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ
فِي صُحُفٍ تَتْلَى عَلَى رَسُولِهِ بَأْنَ خَيْرِ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

فهذا مجموع من روايات متفرقة :

قال يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : لما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة في عمرة القضاء ، دخلها وعبد الله بن ربيعة أخذ بخنطام ناقته صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

خَلَعُوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ إِنِّي شَهِيدٌ أَنَّهُ رَسُولُهُ
خَلَعُوا فَكُلَّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرِبُوا زَيْلُ الْمَاءِ عَنْ مَكِيلِهِ وَيَذْهَبُ الْخَلِيلُ عَنْ عَالِيهِ (٦)

وقال عبد الزواق : أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن أنس بن مالك قال : لما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة في عمرة القضاء ، مشى عبد الله بن ربيعة بين يديه ، وفي رواية . وابن ربيعة أخذ بخرؤه ، وهو يقول :

خَلَعُوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ قَدْ أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ

(١) أنصاب الحرم و علاماته التي تحده وتبويه من الحبل .

(٢) يابج : حل ثمانية أميال من مكة .

(٣) ذي طوى : موضع عند مكة .

(٤) كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ ، كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ .

(٥) الملم : لمل الرأس . وقيل : موضعه .

(٦) انظر سيرة ابن هشام : ٣٧١/٢ .

بِأَنّْ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ يَكْرِهَ إِلَى مُؤْمِنٍ بِقِيْلِهِ
نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنَزُّلِهِ
ضَرِبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقْبِلِهِ وَيَذْهَبُ الْخَطِيلُ عَنْ شَكْلِهِ

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا إسماعيل - يعني ابن زكريا - عن عبد الله - يعني ابن عثمان - عن أبي الطفيل ، عن ابن عباس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مَرَّ الظهران في عمره ، بلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشا ما يتابعون من السجف (١) . فقال أصحابه : لو انتصرتنا (٢) من ظهورنا فأكلنا من لحمه ، وحسبونا من متركه ، أصحبنا غدا حين ندخل على القوم وبناتجساسة (٣) . قال : لا تفعلوا ولكن اجمعوا إلى من أرواكم ، فجمعوا له ووسطوا الأظفار (٤) ، فأكلوا حتى تركوا (٥) وحاكل واحد منهم في جرابه : ثم أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى دخل المسجد وقدمت قريش نحو الحجر ، فاضطجع برحائه ، ثم قال : لا يرى القوم فيكم غير (٦) ، فاستلم الركن ثم رمل (٧) حتى إذا غيب بالركن اليماني مضي إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : ما ترضون بللهي أما إنكم لتتقزون (٨) تقتر الغنم ، ففعل ذلك ثلاثة أشواط (٩) ، فكانت سنة : قال أبو الطفيل : فأخبرني ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعل ذلك في حجة الوداع (١٠) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا يونس ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يرب ، ولقوا منها سوما ، فقال المشركون : إنه بقدم عليكم قوم قد وهنتهم حتى يرب ولقوا منها شرا . وجلس المشركون من الناحية التي نزل الحجر ، فأطلع الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - على ما قالوا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرمكوا (١١) الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جسدكم ، قال : فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يرام للمشركون ، ولم يمنع النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم ، فقال المشركون : أهولاء الذين زعم أن الحى قد وهنتهم ؟ هولاء أجهد من كذا وكذا (١٢) .

(١) أى : لا يستطيعون التصرف من المزال .

(٢) أى : خيبتنا . والظهر : الإبل .

(٣) أى : راحة وضيق وري .

(٤) الأظفار : الخلود .

(٥) في المسند : « حتى تولوا » .

(٦) أى : هيبا .

(٧) في المسند : « ثم دخل » .

(٨) في المسند : « ما يرضون بللهي » [هم لينقزون ...] وينقزون : يثبون ويقبلون .

(٩) في المسند : « أطواف » .

(١٠) مسند الإمام أحمد : ١/٣٠٥ .

(١١) الرمل - يقتضين - : الإسراع في المضي مع هز المتكئين .

(١٢) مسند الإمام أحمد : ١/٢٩٥ .

أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد ، به (١) . وفي لفظ : قدم النبي صلى الله عليه وسلم - وأصحابه صبيحة رابعة ، أي من ذى القعدة ، فقال للمشركون : إنه يقدم عليكم وقد قد وهنتهم حمى يثرب . فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم - أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ولم يمنهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

قال البخاري (١) : وزاد ابن سلمة - يعني حماد بن سلمة - عن أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم - لعامة الذي استأمن قال : ارملوا . ليُرَى للمشركين قوتهم ، والمشركون من قبل قُتَيْبِمان (٢) . وحدثنا محمد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : إنما سعى النبي صلى الله عليه وسلم بالبيت وبالصفاء والمروة ، ليرى للمشركون قوته (٣) .

ورواه في مواضع آخر (٤) ، ومسلم والنسائي ، من طرق ، عن سفيان بن عيينة ، به .

وقال أيضا : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد سمع ابن أبي أوفى يقول : لما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم - سترناه من غلمان للمشركين . ومنهم ، أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم - انفرد به البخاري (١) دون مسلم ،

وقال البخاري أيضا : حدثنا محمد بن رافع ، حدثنا سُريج بن النعمان ، حدثنا فُكَيْح - (ح) - وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم ، حدثنا أبي ، حدثنا فُكَيْح بن سليمان - عن نافع ، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج معتمرا ، فحال كفار قريش بينه وبين البيت ، فحضر عليه وحاق رأسه بالحدبية ، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل ، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوا ، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا . فاحتضر من العام المقبل ، فدخلها كما كان صابحهم ، فلما أن أقام بها ثلاثا أمره أن يخرج ، فخرج (٤) .

وهو في صحيح مسلم أيضا .

وقال البخاري أيضا : حدثنا هيب بن عبد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء قال : احتضر النبي صلى الله عليه وسلم - في ذى القعدة ، فأتى أهل مكة أن يذبحوه بخلل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام ، فلما كتبوا الكتاب كتبوا : « هذا ما قاضاه عليه محمد رسول الله » . قالوا : لا نقر بها ، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعتك شيئا ، ولكن أنت محمد بن عبد الله . قال : « أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله » . ثم قال لعلي بن أبي طالب : « امح رسول الله » . قال :

(١) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « حرة القضاة » : ١٨١/٥ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « أصحاب الرمل في الطواف » : ٦٥/٤ .

(٢) قتيبة ، حبل بمكة .

(٣) البخاري ، كتاب الحج ، باب « ما جاء في السعي بين الصفا والمروة » : ١٩٥/٢ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « أصحاب الرمل في الطواف » : ٦٥/٤ . والنسائي ، كتاب المناسك ، باب « السعي بين الصفا والمروة » : ٢٤٢/٥ .

(٤) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « حرة القضاة » : ١٨٠/٥ .

لا والله لا أعورك أبداً . فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الكتاب ، وليس يحسن يكتب ، فكتب : « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله : لا يُدْخِلُ مكة السلاح إلا السيف في القرب ، وأن لا يخرج من أهلها لأحد أراد أن يبعه ، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها » . فلما دخلها ومضى الأجل ، أتوا عليها فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنا فقد مضى الأجل . فخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - فبعته ابنة حمزة تنادى : يا عم يا عم . فتناولوا على فأخذ بيدها ، وقال لفاطمة : دونك ابنة عك . فحملتها (١) ، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر ، فقال علي : أنا أخذتها وهي ابنة عمي . وقال جعفر : ابنة عمي وخالتي تحتي . وقال زيد : ابنة أخي . فقتلها علي . فقتلها علي . وقال : « الحالة بمنزلة الأم » . وقال علي : « أنت ممي وأنا منك » . وقال لجعفر : « أشبهت خنك وخنك » . وقال لزيد : « أنت أخوها ومولانا » . قال علي : ألا تتزوج ابنة حمزة ؟ قال : « إنها ابنة أخي من الرضاة » . انفرد به من هذا الوجه (٢) .

وقوله : (فاعلم ما لم تعلموا ، ففعل من دون ذلك فتحاً قريباً) ، أي فاعلم الله تعالى من الغيرة والمصلحة في صرتكم من مكة ودخولكم إليها حاكمكم ذلك ما لم تعلموه أنتم ، (ففعل من دون ذلك) ، أي : قبل دخولكم التي وعدتم به في رؤيا النبي - صلى الله عليه وسلم - فتحاً قريباً ، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين .

ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول - صلوات الله عليه - على عدوه وعلى سائر أهل الأرض : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) ، أي : بالهدى النافع والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فأعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فأخبارها حق وإنشائها عدل ، (فيظهره على الدين كله) ، أي : على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض ، من عرب وصحيم ، ومليين ومشركين ، (وكفى بالله شهيداً) ، أي : أنه رسوله ، وهو ناصره :

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فُضِّلَ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْجٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ أَزْوَاجُ لَيْخَظَ يَوْمَ الْكُفَّارِ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾

يُخبر تعالى عن محمد - صلوات الله عليه - أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب ، فقال : (محمد رسول الله) ، وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل . ثم نفي بالثناء على أصحابه فقال : « والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » ، كما قال تعالى : (سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، آخلة على المؤمنين اعزهم على الآخرين) (٣) . وهذه صفة المؤمنين أن

(١) كلما في الخطوطة : « فحملتها » وفي الصحيح : « حملها » فلما مضى : « وحملها » بتشديد الميم لم يقرأ ، وفي أخرى : « حملها » قبل أمر كذلك .

(٢) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « حجرة القضاة » : ١٧٩/٥ - ١٨٠ .

(٣) سورة المائدة : آية : ٥٤ .

يكون أحدهم شديداً حينئذ على الكفار ، وحياً يراً بالأخبار ، غضوباً صوباً في وجه الكافر ، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ (١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسلم والهرم » (٢) وقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » (٣) . وشيك بين أصحابه . « كلا الخديذين في الصحيح »

وقوله : « تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » ، وصفهم بكثر العمل وكررة الصلاة ، وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله - عز وجل - والاحتساب عند الله جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ، وهو سعة الرزق عليهم ، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول ، كما قال : (ورضوان من الله أكبر) (٤) .

وقوله : « يساهم في وجوههم من أثر السجود » - قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يساهم في وجوههم ، يعني : سمت الحسن (٥) ؛

وقال مجاهد وغير واحد : يعني الخشوع والتواضع .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطائفي ، حدثنا حسين الجعفي ، عن زائدة ، عن منصور ، عن مجاهد : « يساهم في وجوههم من أثر السجود » ، قال : الخشوع . قلت : « كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه » فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون ، وقال السدي : الصلاة تحسن وجوههم .

وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار .

وقد أسنده ابن ماجه في سننه ، عن إسماعيل بن محمد الطائفي ، عن ثابت بن موسى ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » (٦) ، والصحيح أنه موقوف .

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢٣ .

(٢) البخاري ، كتاب الأدب ، باب « راحة الناس واليهام » : ١١/٨ - ١٢ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تراحم المؤمنين وتماثلهم وتماثلهم » : ٢٠/٨ .

(٣) البيهقي ، كتاب الظالم ، باب « نصر المظلوم » : ١٦٩/٢ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تراحم المؤمنين وتماثلهم وتماثلهم » : ٢٠/٨ .

(٤) سورة التوبة ، آية : ٧٧ .

(٥) تفسير الطبري : ٧٠/٢٦ .

(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « ما جاء في قيام الليل » ، الحديث ١٣٣٣ : ٢٢٢/١ .

وقال بعضهم : إن الجنة نوراً في القلب ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، وعجة في قلوب الناس .

وقال أمير المؤمنين عثمان : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه .

والفرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس ، كما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : من أصلح سريره أصلح الله علاقته .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمود بن محمد الروزي ، حدثنا حامد بن آدم الروزي ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن محمد بن عبيد الله الحرّزي ، عن سلمة بن كهيل ، عن جندب بن سفيان البجلي قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أسر أحد سريرة إلا أبسه الله رداً ، وإن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » . العريضي متروك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن طيبة ، حدثنا حجاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ولو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة ، يخرج عمل الناس كالناثا ما كان (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، حدثنا قابوس بن أبي ظبيان : أن أباه حدثه عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الهدى الصالح ، والسمت الصالح ، والاقتصاد جزم من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة (٢) » ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد الثفلي ، عن زهير ، به (٣) .

فالمصحابة خلصت نيّاتهم وحسنت أعمالهم ، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهدبهم .

وقال مالك رحمه الله : بلغني أن التصاري كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون : « والله هؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا » . وصدقوا في ذلك ، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتضمنة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المتزلة والأخبار المتداولة ، ولهذا قال هاتنا : (ذلك مثلهم في التوراة) ، ثم قال : (ومثلهم في الإنجيل كزراع أخرج شطاه) ، أي : فرائضه (٤) ، (قآزره) ، أي : شله (فاستنظف) ، أي : شب وطال (فاستوى على سوقه يصحب الزراع) ، أي : فكنكك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم - آزره وأبدوه ونصروه فهم معه كالشطه مع الزرع ، (ليبيظ بهم الكفار) .

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمه الله في رواية عنه - بتكثير الروافض الذين ينفضون الصحابة ، قال : لأنهم يغيظونهم ، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية . وواقفه طائفة من العلماء على ذلك . والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساعة كثيرة ، ويكتفيهم ثناء الله عليهم ، ورضاه عنهم .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٨/٣ . وانظر فيما تقدم عند سورة تفسير الآية السابعة عشرة من سورة لقمان : ٣٤١/٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٩٦/١ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في الرفق » .

(٤) في لسان العرب : الشط : فرخ الزرع والنخل . وقيل : هو ورق الزرع . وفي التنزيل : (كزراع أخرج شطاه) ،

أي : طرية . وقال الفراء : شطوه : السليل

هذا وفي اللسان أيضاً : الفرخ : الزرع إذا نبأ للاشفاق . وقيل : هو إذا صارت له أضان . وعن الليث : « الزرع ما دام في البئر فهو الحب ، فإذا انشق الحب من البرقة فهو الفرخ ، فإذا طلع رأسه فهو الخمل » .

ثم قال : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم) ، من هذه لبيان الجنس (منفرة) ، أى : للوحيهم ، (وأجرا عظيما) ، أى : ثوابا جزيلا وورقا كريما ، ووعدهم الله حق وصدق ، لا يُخْلَف ولا يبدل ، وكل من اتقى أثر الصلابة فهو في حكمهم (١) ، ولم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة ، رضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم ، وقد فعل .

قال مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ، ما أدرك مدّ (٢) أحدهم ولا تصيغه (٣) » .

[آخر تفسير سورة الفتح ، والله الحمد والمئة]

(١) في المخطوطة : « في حديثهم » . والمثبت من النسخات السابقة .
 (٢) المد - يضم الميم - : ربع الصاع . والتصنيف : النصف . والمراد بالمد : المد المذكور في الصلوة ، وهذا لأن نفقتهم كانت في وقت الحاجة وإقامة الدين : ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجأته ، وذلك معذور بهمه .
 (٣) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « تحريم سب الصحابة رضى الله عنهم » : ١٨٨/٧ .

تفسير سورة الحجرات

وهي منبئة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ كُلِّكُمْ ۖ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ ۚ يَجْهَرُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۚ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَفْضَحُونَ أَسْوَأَ مَا فِي الْأَلْبَانِ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ لَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَمْ يَحْشُرُوا ۖ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

هذه آدابُ أدبِ الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول — صلى الله عليه وسلم — من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) ، أي : لا تسرعوا في الأشياء بين يديه ، أي قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور حتى يدخل في محرم هذا الأدب الشرعي حديثٌ مماذ ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله ، قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : ب سنة رسول الله . قال : « فإن لم تجد ؟ » قال : أجتهد رأيي . فضرب في صدره وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ، ما يرضى رسول الله » .

وقد رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه . فالغرض منه أنه أشر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) ، لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وقال العوفي عنه : نهى أن يتكلموا بين يدي كلامه .

وقال مجاهد : لا تفتنوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بشيء حتى يقضى الله على لسانه ، وقال الضمخش : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم .

وقال سفيان الثوري : (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) بقول ولا فعل .

وقال الحسن البصري : (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) ، قال : لا تلحدوا قبل الإمام .

وقال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كلنا . وكلنا لو صنع كلنا . فذكره الله فذكركم فيه . (واتقوا الله) ، أي : فيما أمركم به ، (إن الله سميع) ، أي : لأحوالكم ، (عليم) بنياتكم .

وقوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) : هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي — صلى الله عليه وسلم — وقد روى أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر — رضي الله عنهما —

وقال البخاري: حدثنا بَشْرَةُ بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة قال: كاد الحَيَّرَان يَهْلِكَا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما - رَفَعَا أصواتهما عند النبي - صلى الله عليه وسلم - حين قدم عليه ركب بنى نعيم، فأشار أحدهما بالآخر بن حابس أخى بنى جماح، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع: لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلاقي. قال: ما أردت إلا خلافتك. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: (يا أيها الذين آمنوا، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض)، الآية قال ابن الزبير: فما كان عمر يَسْمَعُ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - بعد هذه الآية [حتى يستفهمه]، ولم يذكر ذلك عن أبيه بنى أبا بكر رضي الله عنه. انفرد به دون مسلم (١).

ثم قال البخاري: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيْج، حدثني ابن أبي مليكة: أن عبد الله بن الزبير أخبره: أنه قدم ركب من بنى نعيم على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال أبو بكر: أمر القصاص بين عبد الله بن عمر وبين أسير الأعرابي بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلى - أو: إلا - خلاقي. فقال عمر: ما أردت خلافتك - فبارأ حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: (يا أيها الذين آمنوا، لا تقدموا بين يدي الله ورسوله)، حتى انقضت الآية، (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم) (٢) الآية.

وهكذا رواه هاتنا منفردا به أيضا.

وقال الحافظ أبو بكر الزبيري في مسنده: حدثنا القفيل بن سهل، حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حصين بن حمر، عن مَخْرَاق، عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصديق قال: لما نزلت هذه الآية: (يا أيها الذين آمنوا، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي)، قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخى السرور (٣).

حصين بن عمر هذا - وإن كان ضعيفاً - لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف، وأبي هريرة، ينحى ذلك، والله أعلم.

وقال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا أزهر بن سعد، أخبرنا ابن عوف، أنبأني موسى بن أنس، عن أنس ابن مالك - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فأنابه فوجد له بيته مُسَكَّساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يَرَفَعُ صوته فوق صوت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فألقى الرجل النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره أنه قال كذا وكذا - قال موسى: فرجع إليه للمرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال: «أذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» (٤)، تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: (يا أيها الذين آمنوا، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إلى: (وأنتم لا تشعرون) - وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحبط على أنا من أهل النار، وجلس في أهله

(١) البخاري، تفسير سورة المجرات: ١٧١/٦.

(٢) البخاري، تفسير سورة المجرات: ١٧٢/٦.

(٣) السرار - بكسر السين - : المسورة، أي: كصاحب السرار، أو: كمثل المسورة تلفظ صوته.

(٤) البخاري، تفسير سورة المجرات: ١٧١/٦ - ١٧٢.

حزينا ، ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانتقل بعض القوم إليه فقالوا له : فقدك رسول الله صلى الله عليه وسلم . مالك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم وأجهر له بالقول ، حيث علمي ، أنا من أهل النار . فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فخبروه بما قال . فقال : لا ، بل هو من أهل الجنة . قال أنس : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفننه ، فقال : بينما نعدون أقرانكم . فقاتلهم حتى قُتل (١) .

وقال مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثلث البغلة ، عن أنس ابن مالك قال : لما نزلت هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) ، إلى آخر الآية جلس ثابت بن بيته ، قال : أنا من أهل النار . واحتسب عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لسمد بن معاذ : يا أبا عمرو ، ما شأن ثابت ؟ أشتكى ؟ قال سمع : إنه لجارى ، وما علمت له بشكوى . قال : فأتاه لسمع ذلك له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ثابت : أنزلت هذه الآية ، ولقد علمت أني من أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأتا من أهل النار . فذكر ذلك سعد للنبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل هو [هو] من أهل الجنة (٢) .

ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدارمي ، عن حنبل بن هلال ، عن سليمان بن المغيرة ، به قال : ولم يذكر سعد بن معاذ . وعن قطن بن نسيب عن جعفر بن سليمان ، عن ثابت ، عن أنس ، بنحوه . وقال : ليس فيه ذكر سعد بن معاذ .

حدثنا هُرم بن عبد الأهل الأسدي ، حدثنا المضر بن سليمان ، سمعت أبي يكثر لعن ثابت (٣) عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية ... واقتصر الحديث ، ولم يذكر سعد بن معاذ وزاد : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا رجلا من أهل الجنة (٤) .

فهذه الطرق الثلاث مُسَكَّلة لرواية حماد بن سلمة فيما تقدم به من ذكر سعد بن معاذ : والصحيح أن حالة نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجودا ، لأنه كان قدامات بعد بني قريظة بأيام فلال لسنة خمس ، وهذه الآية نزلت في ولد بني نعيم ، والوفود إنما كانوا في سنة تسع من الهجرة ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس ، حدثني عبيد الله بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس ، عن أبيه قال : لما نزلت هذه الآية : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول) ، قال : فقد ثابت بن قيس في الطريق يركي ، قال : فر به حاصم بن عدي من بني السجلائين قال : ما يبيحك يا ثابت ؟ قال : هذه الآية تخوف أن تكون نزلت في وأنا صبيته : ورفع الصوت . قال : ففنى حاصم ابن عدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وغلبه البكاء ، فأدب امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها :

(١) مسند الإمام أحمد : ١٣٧/٣ .

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : وثاقة المؤمن أن يحيط عمله : ٧٧/١ .

(٣) ما بين القوسين عن مسلم .

(٤) مسلم ، في الكتاب باب المتن .

إذا دخلت بيت قريتي فقلتي عكسي الضبة بمسار ، ضربته بمسار حتى إذا خرج عطشه ، وقال : لا أخرج حتى يتوفاني الله عز وجل - أو يرضي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وأتى عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره ، فقال : « اذهب فادعني » . فجاء عاصم إلى المكان فلم يجده ، فجاء إلى أهله فوجده في بيت القريش ، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك . فقال : أكرس الضبة . قال : فخرجوا فأتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك يا ثابت ؟ » فقال : أنا صييت وأتخوف [أن] تكون هذه الآية نزلت في : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول) . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أما ترضى أن تعبش حبيداً ، وتقتل شهيدا وتدخل الجنة ؟ » . فقال رضيته يبشرني الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : وأنزل الله : (إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) الآية (١) . وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك ، فقد نبى الله عز وجل عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رويها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع صوت رجلين في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فارتفعت أصواتها ، فجاء فقال : أتدريان أين أنيا ؟ ثم قال : من أين أنيا ؟ قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كننا من أهل المدينة لأوججتكما ضرباً .

وقال الملاء بكروه رفع الصوت عنده قبره ، كما كان بكروه في حياته ، لأنه محترم حيا وفي قبره - صلوات الله وسلامه عليه - دائماً . ثم نبى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه عن عده ، بل لمخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ، ولهذا قال : (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) ، كما قال : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) (٢) . وقوله : (أن تجهر أحوالكم وأنتم لا تعلمون) ، أي : إنما نبيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله لغضبه ، فيحيط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري ، كما جاء في الصحيح : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها في النار أبعد ما بين السماوات والأرض » (٣) .

ثم نذبت الله عز وجل إلى خفض الصوت عنده ، وحث على ذلك وأرشد إليه ورغب فيه ، فقال : (إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) ، أي : أخضعها لها وجعلها أهلاً ومحللاً ، لم مفرقة وأجر عظيم .

وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد قال : كتبت إلى عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) لم مفرقة وأجر عظيم .

(١) تفسير الطبري : ٧٥٢/٢٩ .

(٢) سورة النور ، آية : ٢٣ .

(٣) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب : حفظ السان : ١٢٥٧٨ . ونسخة الأسماع ، كتاب الزهد ، باب : ما جاء في قلة الكلام ، الحديث ٢٤٢١ : ٦٠٩/٦ - ٦١٠ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » . وابن ماجه ، كتاب القتن ، باب : كف السان ، « أظहित ٣٩٦٦ : ١٣١٢/٢ - ١٣١٣ » . ومسنن الإمام أحمد من يدلل بن الحارث المزني : ٤٦٩/٣ .

إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ① وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ②

ثم إنه تعالى ذمّ الذين ينادونه من وراء الحجرات ، وهى بيوت نسائه ، كما يصنع أجلاف الأعراب ، قال : (أكثرهم لا يعقلون) .

ثم أرشد إلى الأدب فى ذلك فقال : (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) ، أى : لكان لهم فى ذلك الخيرة والمصلحة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال داعيا لهم إلى التوبة والإثابة : (والله غفور رحيم) .

وقد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمي فبأورده غير واحد ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا موسى بن حبة ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس : أنه لادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من وراء الحجرات (١) قال : يا محمد ، يا محمد - وفى رواية : يا رسول الله - فلم يجبه : فقال : يا رسول الله إن حمدي ثرين ، وإن ذى لثين قال : ذلك الله عز وجل .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث المروزي ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن الحسين بن واقد ، عن أبي إسحاق ، عن البراء بن قولة : (إن اللذين ينادونك من وراء الحجرات) قال : جاء وجعل إلى رسول الله فقال : يا محمد ، إن حمدي زين وذى شين : قال : ذاك (٢) الله عز وجل (٣) .
وهكذا ذكره الحسن البصري ، وقفاة مرسل .

وقال سفيان الثوري ، عن حبيب بن أبي حمزة قال : كان بشر بن غالب بن وقيد بن عطار - أو بشر بن عطار وليه ابن غالب - وهما عند الحجاج جالسان - فقال بشر بن غالب لبني عطار : نزلت فى قومك بنى نعيم : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) ، قال : ففكرت ذلك لسعيد بن جبيرة قال : أما إن ملو علم تأخر الآية أجابه : (يئنون عليك أن أسلموا) ، قالوا : أسلمنا ، ولم يقاتلك بنو أسد . (٤) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا حمزة بن علي الباهلي ، حدثنا المحتمر بن سليمان ، سمعت داود الطفاوى يحدث عن أبي مسلم البجلي ، عن زيد بن أرقم قال : اجتمع أناس من العرب فقالوا : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نحش بهناحه . قال : فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته عما قالوا ، فجاؤا إلى حجرته فجلسوا ينادونه وهو فى حجرته : يا محمد ، يا محمد . فأنزل الله : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) . قال : فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأذني فمدّها فجعل يقول : (لقد صدق الله قولك يا زيد ، لقد صدق الله قولك يا زيد) .

ورواه ابن جرير ، عن الحسن بن عرفة ، عن المحتمر بن سليمان ، به (٤) .

(١) ما بين أقوسين عن المسند .

(٢) فى المسند : « فأكم » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٨٨/٣ ، ٣٩٤/٩ .

(٤) تفسير الطبري : ٧٧/٢٦ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِ فَنُصْحُوا عَلَى مَا أَعْلَمْتُمْ نَلْعِبِينَ ﴿١٠﴾
وَالْعَمَلُ أَنَّا فَبَعَثْنَا لَوْلِيَّكُمْ رَسُولًا اللَّهُ لَوْ بَطَّلِعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنْ أَلْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَى الْبَكْرِ الْإِيمَنُ وَزِينَةُ
فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ الْبَكْرُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّسُلُونَ ﴿١١﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢﴾

بأنه تعالى بالتبني في خبر الفاسق ليُحاطَ له ، لتلاصقكم بقوله فيكون - في نفس الأمر - كاذبا أو غلطاً ، فيكون الحاكم
يقوله قد اتفق ورواه ، وقد نبى الله عن اتباع سبيل للقسدين ، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال
لاحتيال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالتبني عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق النقص لأنه مجهول
الحال : وقد قرونا هذه المسألة في كتاب العلم من شرح البخاري ، وفي الحمد والمثنة .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - على صدقات بني المصطلق : وقد روى ذلك من طرق ، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بن
المصطلق ، وهو الحارث بن ضيركار ، والله جَوْبُورِيَّة بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها ، قال الإمام أحمد :

حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزازي يقول : قدمت على
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فحدثني إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به : ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت :
يا رسول الله ، أرجع إليهم فأدوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فن استجاب لي جمعت زكاته : ويُرسل إلى رسول الله رسولاً
لإبائنا كلها وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة : فلما جمع الحارث الزكاة عني استجاب له ، وبلغ الإبان الذي أراد رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول فلم يأت ، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سَخَطَةٌ من الله
ويرسوله ، فذهب يَسْرُكُوت فومعه (١) فقال لم : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان وكَّنت لي وقتاً يرسل إلى رسول
ليقبض ما كان عندى من الزكاة ، وليس من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخلف ، ولا أرى حبس رسول الله إلا من
سَخَطَةٌ كالتاء فانطلقوا فتأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوليد بن عقبة إلى
الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فبرق في أعي : خاف - فرجع
فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إن الحارث منعتي الزكاة وأراد قتل . ففسَّرَ (٢) رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - البيهت إلى الحارث ، وأقبل الحارث بأصحابه حتى (٣) إذا استقبل البيهت وقبض عن المدينة لقيهم
الحارث ، فقالوا : هذا الحارث . فلما عشمهم قال لم : إلى من يُعْتَم ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - (كان) بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله . قال : لا ، والذي بعث محمداً
بالحق ما رأيته بَشَّةً ولا أثنى . فلما دخل الحارث على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : و منعت الزكاة وأردت قتل

(١) أي : أكرههم .

(٢) أي : أرسل بعثاً إليه .

(٣) في المسند : « فأقبل الحارث بأصحابه إذ استقبل البيهت وقبض من أئمة لقيهم » .

وصلى ٩ : قال : لا ، والذي بظنك بالحق ما رأيته ولا ألقى ، وما أقبلت إلا حين احبس على رسول الله صلى الله عليه وسلم - ، خشيت أن يكون كانت مسخطة من الله ورسوله . قال : فتركت الحجرات ، (يا أيها الذين آمنوا ، إن جاءكم فاسق بنبأ) إلى قوله : (حكيم) (١) .

ورواه ابن أبي حاتم عن المنذر بن شاذان التمار ، عن محمد بن سابق ، به : ورواه الطبراني من حديث محمد بن سابق ، به ، غير أنه مائة الحارث بن سرار ، والصواب : الحارث بن ضرار ، كما تقدم .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا جعفر بن عون ، عن موسى بن عبيدة ، عن ثابت مولى أم سلمة ، عن أم سلمة قالت : بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً في صلوات بني المصطلق بعد الوقعة (٢) فسمع بذلك القوم ، فتقوه يعظمون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله ، قالت : فرجع إلى رسول الله فقال : إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم . فتعصب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للمسلمين ، قالت : فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصغروا له حين صلى للظهر ، فقالوا : نموذ بالله من مسخط الله وسخط رسول الله ، يحث علينا رجالاً مصدقاً (٣) فسرونا بذلك ، وقرت به أعيننا . ثم إنه رجع من بعض الطريق ، فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله ومن رسوله ، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر ، قالت : ونزلت : (يا أيها الذين آمنوا ، إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبوا على ما فعلتم نادمين) (٤) .

وروى ابن جرير أيضاً من طريق العوفي ، عن ابن عباس في هذه الآية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن حبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الصدقات ، وإنهم لما أتاها الخبر فرحوا وخرجوا يبتلون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنه لما حدث (٥) الوليد أنهم خرجوا يبتلونه ، رجع الوليد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة : فغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ذلك غضباً شديداً ، فبينما هو يحدث نفسه أن يزورهم إذ أتاه الوغد فقالوا : يا رسول الله ، إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، وإننا خشينا أن رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا ، وإننا نموذ بالله من غضبه وغضبه رسول الله وإن النبي صلى الله عليه وسلم - استغفهم وهم (٦) بهم ، فأنزل الله عليهم في الكتاب ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا ، إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) إلى آخر الآية (٧) :

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٧٩ / ٤ .

(٢) في تفسير الطبري : « الوقعة » . يعني : بما أنزله غاله بين المصطلق عندما بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإسلام ، انظر خبر هذه الزروة في سيرة ابن هشام : ٢٨٩ / ٢ وما بعدها .

(٣) المصطلق : جلع الزكاة .

(٤) تفسير الطبري : ٧٨ / ٢٦ .

(٥) كلما في الخطوطة وتفسير الطبري . حل أن الحدث في الفتنة هو المصادقة للفن . ولعل الصواب : « حس » ، بالسين أي :

فن .

(٦) هذه الفتحة وهي : « وإن النبي » . وهم بهم - غير ثابتة في الطبري .

(٧) تفسير الطبري : ٧٨ / ٢٦ .

وقال مجاهد وقناة : أرسل رسول الله الوليد بن عقية إلى بني المصطلق ليصعد بهم (١) ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك ثقتاك - زاد قناة : وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام - فبعث رسول الله خالد بن الوليد إليهم ، وأمره أن يثبت ولا يهيج . فانتقل حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عيونهم ، فلما جاءوا أخبروا خالد أنهم مستسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى الذي يعجبهم ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فأقول الله هذه الآية . قال قناة : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الذين من الله ، والنجلة من الشيطان » (٢) .

وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم : ابن أبي ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم في هذه الآية : أنها نزلت في الوليد بن عقية ، والله أعلم .

وقوله : (واعلموا أن فيكم رسول الله) ، أي : اعلموا أن بين أظهركم رسول الله لظهوره ووقوعه ، وتأديبوا معه ، وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، كما قال تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) (٣) .

ثم بيّن أن رأيهم سخيّف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال : (لو يطيعكم في كثير من الأمر لئنم) ، أي : لو أطاعكم في جميع ما غتارونه لأدّى ذلك إلى عتكم وحرّجكم ، كما قال تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل أتيناكم بآياتهم بآياتهم ، فهم من ذكرهم معرضون) (٤) .

وقوله : (ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم) ، أي : حبه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم .

قال الإمام أحمد : حدثنا جر ، حدثنا علي بن مسعدة ، حدثنا قناة ، عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الإسلام علانية ، والإيمان في القلب » قال : ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ، ثم يقول - : التقوى هاهنا التقوى هاهنا (٥) .

(وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) ، أي : ويقتض إليكم الكفر والفسوق - وهي الذنوب الكبار والمعصيان وهي جميع المعاصي . وهذا تدريج لكلام النعمة .

وقوله : (أولئك هم الراشدون) ، أي : المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد أتاهم الله رشدهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا مروان بن معاوية القناري ، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي ، عن ابن رفاعة (٦) الزرق ، عن أبيه قال : لما كان يوم أحد وانكسار المشركون ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « استروا حتى أتى عني ربي عز

(١) أي : ليجمع الكفّة .

(٢) تفسير البكري : ٢٦ / ٧٨ - ٧٩ .

(٣) سورة الأحزاب ، آية ٦ .

(٤) سورة المؤمنون ، آية ٧٩ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٣٤ / ٣ - ١٣٥ .

(٦) في الخطوط : « أبي رفاعة » . والمثبت من المسند ، وانظر أسد الغابة : ترجمة عبد الله بن رفاعة : ٢٣٤ / ٣ ، بصحيفة .

وجعل : قصاروا خلفه صفوفاً ، قال : اللهم ، لك الحمد آكله . اللهم ، لا قابض إلا بسطت ، ولا باسط إلا قبضت ، ولا هادئ إلا أضللت ، ولا مضل إلا هديت . ولا معطي إلا منعت ، ولا مانع إلا أعطيت . ولا مقرب إلا بعدت ، ولا مباعد إلا قربت . اللهم ، أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك . اللهم ، إني أسألك التيمم الحق الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم ، إني أسألك التيمم يوم النجاة (١) ، والأمن يوم الخوف . اللهم ، إني أعاذك من شر ما أضلجتنا ، ومن شر ما منعتنا . اللهم ، حبيب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم ، توفنا مسلحين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين . اللهم ، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سيالك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم ، قاتل الكفرة الذين أتوا الكتاب ، إله الحق (٢) .

ورواه الشافعي في اليوم والليلة من زياد بن أيوب ، عن مروان ، بن معاوية ، عن عبد الواحد بن أيمن ، عن عبيد بن رفاع ، عن أبيه ، به .

وفي الحديث للرفوع : « من مرته حسنه وسامته سيئه ، فهو مؤمن » (٣)

ثم قال : (فضلا من الله ونعمة) ، أي : هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ولعمرة من لده ، (والله عالم حكيم) ، أي : عالم بمن يستحق المدابة بمن يستحق العقوبة ، حكيم في أموره وأفعاله ، وشرعه وقدره .

وَأِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَسِلِّ لَكُمَا طَرِيقًا خَرَجَ نَفْيَ إِلَهٍ أَمْرُ اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَاَصْلَحُوا بِهِمَا بِالْعَدْلِ وَأَقِسطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠﴾
بِالْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةً فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخْيَرَكُمُ الْأَخْيَرُ ﴿١١﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ لِكُلِّ مَكْرُمٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى أمرا بالإصلاح بين المسلمين الباغيين بعضهم على بعض : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) ، فسيام مؤمنين مع الاقتتال . وهذا استعمل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمصبة وإن عظمت ، لا كما يقوله القولونج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم . وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن ، عن أبي بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن علي ، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول : « إن ابن هذا سيد ولعل الله أن يصلح بين فتنتين عظمتين من المسلمين (٤) » فكان كما قال صلوات الله وسلامه عليه ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات الموهلة .

(١) البقرة : الافتقار .

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٢٤١٣ .

(٣) تحفة الأحرف ، أبواب التيمم ، باب « في يوم النجاة » ، الحديث ٢٢٥٤ : ٣٨٢/٦ - ٣٨٥ . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح غريب » .

مسند الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب : ١٨/١ ، ٢٦ . وعن حابر بن ربيعة : ٤٤٧/٣ .

(٤) البخاري ، كتاب الصلح ، باب « قول النبي - صلى الله عليه وسلم - الحسن - ع . » ٢٤٦/٣ - ٢٤٤ .

وقوله : « فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلَا فِي سَبِيلِنَا وَلِتُنَفِّسَ عَنْهُمَا إِلَى اللَّهِ فَيُقْضَىٰ إِلَيْهِ أَمْرُهُ » أي : حتى ترجع إلى أمر الله وتسمع للحق وتطيعه ، كما ثبت في الصحيح عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوما » . قلت : يا رسول الله ، هلما نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالماً ؟ قال : « نعمة من الظلم ، فذلك نصرتك إياه (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عازم ، حدثنا معتمر قال : سمعت أبي يحدث أن أنساً قال : قيل لئن صلى الله عليه وسلم لو أتيت عبد الله بن أبي ؟ فأنطلق إليه نبي الله - صلى الله عليه وسلم - وركب حماراً ، وأنطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض صبيحة ، فلما انطلق إليه النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إيلك عني ، فوالله لقد آذاني ريع حمارك » . فقال رجل من الأنصار : والله ليار رسول الله أطيب ريحا منك . قال : فضرب لعبد الله رجلاً من قومه ، فضرب لكل واحد منها أصحابه ، قال : فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) (٢) .

ورواه البخاري في « الصلح » من مسنده ، ومسلم في المغازي عن محمد بن عبد الأعلى ، كلاهما عن المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، به نحوه (٣) .

وذكر سعيد بن جبير : أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسيف والنعال ، فأنزل الله هذه الآية ، فأمر بالصلح بينهما .

وقال السدي : كان رجل من الأنصار يقال له « عمران » ، كانت له امرأة تدعى أم زيد ، وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في حليته (٤) ، لا يدخل عليها أحد من أهلها . وإن للمرأة بحث إلى أهلها ، فجاء قومها ، وأنزلوها ليتناولوها ، فلما كان الرجل قد كان خرج ، فاستعان أهل الرجل ، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها ، فقتلوا وأجتلدوا بالنعال ، فقتل فيهم هذه الآية : فيمض إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصلح بينهم ، وقاموا إلى أمر الله . وقوله : « فَإِنْ قَامَتْ فَاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب للمتقنين » ، أي : اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض ، بأقصى ، وهو العدل ، (إن الله يحب للمتقنين) .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا محمد بن أبي بكر القدي ، حدثنا عبد الأعلى ، عن معمر ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن للمتقين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن ، بما أقسطوا في الدنيا » .

ورواه الترمذي عن محمد بن لثني ، عن عبد الأعلى ، به . وهذا إسناد جيد قوي ، رجاله على شرط الصحيح .

(١) البخاري ، كتاب المظالم ، باب « أمن أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، ١٦٨/٢ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً » : ١٩/٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٥٧/٣ ، ٢١٩ .

(٣) البخاري ، كتاب الصلح : ٢٣٩/٣ - ٢٤٠ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « في دماء النبي - صلى الله عليه وسلم - إلّا » ، وصبره على أي المقاتلين » : ١٨٣/٥ .

(٤) المالية : للفرقة .

(٥) في المخطوطة : « وأهلها يتطلبوا » . وللتثبت عن التعليقات السابقة .

وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عمرو بن أوس ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المقسوطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولّوا » .

ورواه مسلم والنسائي ، من حديث سفيان بن عيينة ، به (١) :

وقوله : « إنا المؤمنون إخوة » ، أي : الجميع إخوة في الدين ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (٢) . وفي الصحيح : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » (٣) . وفي الصحيح أيضا : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ، ولا يخطئه » (٤) . والأحاديث في هذا كثيرة ، وفي الصحيح : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كتل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والدموع » (٥) وفي الصحيح أيضا : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وشبك بين أصابعه » (٦) .

وقال أحمد : حدثنا أحمد بن الحجاج ، حدثنا عبد الله ، أخبرنا مصعب بن ثابت ، حدثني أبو حازم قال : سمعت سهل ابن سعد الساعدي يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس » (٧) . فورد به ولا يألم بإسناده .

وقوله : « فاصلحوا بين أخويكم » ، يعني المقتنين للمقتلتين ، (وانقوا الله) ، أي : في جميع أموركم (لعليكم رحمون) ، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

(١) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب « فضيلة الإمام المأدب » . ٧/٦ . والنسائي ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب « فضل الحاكم العادل في حكمه » . ٣٢١/٨ - ٣٢٢ .

(٢) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه » : ١٦٨/٣ ، ومسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظلم » : ١٨/٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في السر والعلانية » . ونخبة الأخرى ، أبواب الحدود ، باب « ما جاء في السر على المسلم » ، الحديث ١٤٤٨ : ٦٩١/٤ - ٦٩٢ . ومسنن الإمام أحمد عن ابن عمر : ٩١/٢ .

(٣) مسلم ، كتاب الذكر ، باب « فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر » : ٧١/٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في الدعوة إلى الإسلام » . ونخبة الأخرى ، أبواب الحدود ، باب « ما جاء في السر على المسلم » ، الحديث ١٤٤٦ : ٦٩٠/٤ - ٦٩١ . وابن ماجه ، المقدمة ، باب « فضل العلماء والحث على طلب العلم » ، الحديث ٢٢٥ : ٨٢/١ . ومسنن الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٧٥٢/٢ : ٢٧٤ ، ٢٩٦ ، ٥١٤٤ .

(٤) مسلم ، كتاب البر ، باب « فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب » : ٨٦/٨ . وسنن أبي داود ، كتاب البر ، باب « الدعاء بظهر الغيب » . هذا وفي مسلم وسنن أبي داود : « ولا يخطئ » ، « ولا يخطئ » ، « ولا يخطئ » .

(٥) البخاري ، كتاب الأدب ، باب « راحة الناس وأهلهم » : ١١/٨ - ١٢ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تراحم المؤمنين وتعاونهم وتواضعهم » : ٢٠/٨ ، ومسنن الإمام أحمد عن الحسن بن بشر : ٢٦٨/٤ : ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٥ . والمؤننين وتعاونهم وتواضعهم » : ٢٠/٨ . ونخبة الأخرى ، أبواب البر ، باب « ما جاء في شفقة المسلم على المسلم » ، الحديث ١٩٩٤ : ٥٥/٦ . وقال الأرمزي : « حسن صحيح » . والنسائي ، كتاب الزكاة ، باب « أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه » : ٧٩٦/٥ . ومسنن الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري : ٤٠٤/٤ - ٤٠٥ : ٤٠٩ .

(٦) مسنن الإمام أحمد : ٣٤٠/٥ .

يَتَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُونَ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَئِمَّةُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّرَبَّيْنَا فَأُولَٰئِكَ هُمِ الْفَاسِقُونَ ﴿١١﴾

ينهى تعالى عن السخرية بالناس ، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكبر يظفر الخنوخم والناس - ويرى : وغبط الناس (١) » . ولما راد من ذلك احتقارهم واستخفافهم ، وهذا حرام ، فإنه قد يكون المحقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحقر له ، ولهذا قال : (يا أيها الذين آمنوا) لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) ، فنص على نهي الرجال وعطف بنهى النساء .

وقوله : (ولا تلمزوا أنفسكم) ، أى : لا تلمزوا الناس . والمجاز اللز من الرجال ملموم ملعون ، كما قال : (ويل لكل همزة) (٢) ، فلمزم بالتمل ، واللمز بالقول ، كما قال : (هماز مشاء بنميم) (٣) ، أى : يحقر الناس ويهزم طاعتهم عليهم ، ويعشى بينهم بالثيمة وهى : اللمز بالقال ، ولهذا قال هاهنا : (ولا تلمزوا أنفسكم) ، كما قال : (ولا تقتلوا أنفسكم) (٤) ، أى : لا يقتل بعضكم بعضا .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبيرة ، وقاعدة ، ومقاتل بن حيان : (ولا تلمزوا أنفسكم) ، أى : لا يلعن بعضكم على بعض (٥) .

وقوله : (ولا تنازروا بالألقاب) ، أى : لا تتداعوا بالألقاب ، وهى التى يسود الشخص مباحها ،

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن الشعبي قال : حدثني أبو جبريرة بن الضحاك قال : (لنا نزلت في بني سكرمة : (ولا تنازروا بالألقاب) ، قال : قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة وليس بيننا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعى أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله ، إنه يغضب من هذا . فنزلت : (ولا تنازروا بالألقاب) (٦) .

ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل ، عن وهيب ، عن داود ، به (٧) .

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الحادية عشرة من سورة الأحقاف ، وخرجناه هناك . انظر : ٢٦٢/٧ .

(٢) سورة الحمزة ، آية : ١ .

(٣) سورة القلم ، آية : ١١ .

(٤) سورة النساء ، آية : ٢٩ .

(٥) تفسير الطبري : ٨٣/٢٦ .

(٦) سنن الإمام أحمد : ٢٦٠/٤ .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب : « في الألقاب » .

وقوله : (بنس الاسم التسوي بعد الإيمان) ، أى : بنس الصفة والإسم التسوي وهو : التناوب باللقاب ، كما كان أهل الجاهلية يتناوبون - بعد ما دخلوا في الإسلام وعقبتهم - (ومن لم يصبه) ، أى : من هذا (فأولئك هم الظالمون) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم مِّمَّا يَمَسُّ
الْأُخْرَىٰ أَحَدُكُمْ إِن يَأْكُلْ لِّحْمَ أَخِيهِ مِمَّا فُكِّرْتُم بِهِ سَوَاءٌ لَّيْسَ بِهِ تَوَابٌ إِلَّا لِمَن تَوَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إما غضا ، فليجنب كثير منه احتياطا ، وروينا عن أمر المؤمنين حر من الخطاب - رضى الله عنه - أنه قال : ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرا ، وأنت تجد لها في الخير محملا .

وقال أبو عبد الله بن ماجه : حدثنا أبو القاسم بن أبي صميرة نصر بن محمد بن سليمان الحمصي ، حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي قيس التميمي ، حدثنا عبد الله بن عمر قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ! ما أعظمك وأعظم حرمتك . والذي نفس محمد بيده حرمة للمؤمن أعظم عند الله حرمة منك ، ماله وجمه ، وأن يظن به إلا خيرا » (١) . فترد به ابن ماجه من هذا الوجه .

وقال مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والظن » فإن الظن أكليب للحبيل ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ، ولا تنابشوا ولا تحاسبوا ولا تغاضبوا ، ولا تنابروا ، وتكونوا عباد الله إخوانا .

رواه البخاري (٢) من عبد الله بن يوسف ، ومسلم من يحيى بن يحيى ، وأبو داود عن العتي ، من مالك ، به .

وقال سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقاطعوا ولا تنابروا ولا تغاضبوا ولا تحاسبوا ، وتكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » .

رواه مسلم والترمذي - وصححه - من حديث سفيان بن عيينة ، به (٣) .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله القرمطي العلوي ، حدثنا بكر بن عبد الوهاب الملقب ، حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصاري حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرجال ، عن أبيه ، عن جده حارة بن النعمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة ، والحسد ، وسوء الظن » فقال رجل : ما يلعبهن يا رسول الله من هن ؟ فيه ؟ قال : « إذا حسدت فاستغفر لله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيقت فامض » .

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « حرمة دم المؤمن وماله » ، الحديث ٣٩١٢ : ٢/٢٩٧ .

(٢) البخاري ، كتاب الأدب ، باب (يأبى الذين كثروا اجتنبوا كثيرا من الظن) : ٢٣/٨ . ومسلم ، كتاب البر ، باب « تحرم الظن والتجسس » : ١٠/٨ .

(٣) مسلم في الكتاب والباب المتضمنين : ٩/٨ . ونسخة الأحرشي ، أبواب البر ، باب « ما جاء في الحسد » ، الحديث ٢٥٠٠ : ٦٤/٦ - ٦٥ .

وقال أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش ، عن زيد قال : أتى ابن مسعود - رضي الله عنه - برجل ، فقتل له : هذا فلان تظطر لحيته خرا . فقال عبد الله : إنا قد نهيننا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء لأخذ به (١) .

سماه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا ليث ، عن إبراهيم بن نسيط الحنظلي ، عن كعب بن علقمة ، عن أبي الميثم ، عن دحّين كاتب عقبة قال : قلت لعقبة : إن لنا جيرانا يشيرون الخمر ، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم . قال : لا تفعل ، ولكن عظمهم وتهدّدهم . قال : فقلت فلم يتهوا . قال : فجامعه دحّين فقال : إني قد نهيتهم فلم يتهوا ، وإني داع لهم الشرط فتأخّلهم . فقال له عقبة : وحك لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سر عورة مؤمن فكأنما استحمها مومعة من قهرها (٢) » .

ورواه أبو داود والترمذي من حديث الليث بن سعد ، به نحوه (٣) .

وقال عفبان الثوري ، عن ثور ، عن راشد بن سعد ، عن معاوية قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم يقول : « إنك إن أتيت حورات الناس أفسدتهن ، أو : كدت أن تضدمن » . فقال أبو الدرداء : كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعنه الله . رواه أبو داود متفردا به من حديث الثوري ، به (٤) .

وقال أبو داود أيضا : حدثنا سعيد بن عمرو الحضرمي ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا ضمضم بن زوعة ، عن شريح ابن عبيد ، عن جابر بن نفيذ ، وكثير بن مرة ، وعمر بن الأسود ، والمقدام بن معد يكرب ، وأبي أمامة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الأمير إذا باغى الرعية في الناس ، أفسدهم (٥) » .

(ولا تجسوا) ، أي : على بعضكم بعضا . والتجسس غالبا يطلق في الشر ، ومنه الجاسوس . وأما التجسس فيكون غالبا في الخير ، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب أنه قال : (يا بني ، اذهبوا فتجسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله) (٦) ، وقد يستعمل كل منهما في الشر ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباضوا ولا تدلبوا ، وكونوا عباد الله إخوانا (٧) » .

وقال الأوزاعي : التجسس : البحث عن الشيء . والتجسس : الاسماع إلى حديث القوم وهم لكارهون ، أو يتسمع على أبوابهم . والتجاسر : الصبر (٨) . رواه ابن أبي حاتم .

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في النهي عن التجسس » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٥٣/٤ . وانظر أيضا : ١٥٨/٤ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في السر على المسلم » .

(٤) سنن أبي داود في الكتاب السابق ، باب « في النهي عن التجسس » .

هذا وفي هذه الأحاديث والأقوال المأثورة عن السلف ، دليل على أن الإسلام كان يقدر الحرية الشخصية على شرطه لا أن يتعدى الحياة العام ، أو تحس حرية الآخرين ، بل أن الإسلام - مع ذلك - لم ينف هذه المسك الخاف من المستولية ، بل رتب عليه الجزاء .

(٥) سورة يوسف ، آية ٨٧ .

(٦) فتح تحقيقه من قريب .

(٨) أي : أن حجر كل واحد صليقه أو أخاه .

وقوله : « ولا ينضب بعضكم بعضاً » فيه نبي من النبية ، وقد فسرها الشارح كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود : حدثنا القعنبي ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن الملا ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، ما النبية ؟ قال : « ذكرك أخذك بما يكره » . قيل : أفأريت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اختبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته » (١) .

ورواه الترمذي عن قتبية ، عن الدراودي ، به ، وقال : « حسن صحيح » (٢) : ورواه ابن جرير عن بندار ، عن خنسر ، عن شعبة ، عن الملا (٣) : وهكذا قال ابن عمر ، ومبرق ، وقثاعة ، وأبو إسحاق ، ومعاوية بن قرة .

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثني علي بن الأتمر ، عن أبي حليفة ، عن عائشة قالت : « قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : حسيك من صفة كذا وكذا ! - قال غير مسدد : نهي قصيرة - فقال : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » (٤) » قالت : وحكيته له (٥) ! إنساناً فقال صلى الله عليه وسلم : « ما أحب أني حكيت إنساناً وإن كان لي كذا وكذا » (٦) .

ورواه الترمذي من حديث يحيى القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وكيع ، ثلاثهم عن سفيان الثوري ، عن علي بن الأتمر ، عن أبي حليفة سلمة بن صهيب الأرحبي ، عن عائشة ، به ، وقال : « حسن صحيح » (٧) . وقال ابن جرير : حدثني ابن أبي الشوارب : حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا سليمان الشيباني ، حدثنا حسان بن المخارق أن امرأة دخلت على عائشة فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أي : إنها قصيرة - فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اخفيها » (٨) .

والنبية غمرة بالإحراج ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته ، كما في الجرح والتعليل والتبصيرة ، كقوله صلى الله عليه وسلم لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر : « ألتوا له ، بشئ آخر المشية » (٩) . وكقوله لقاطعة بنت قيس وقد خطبها معاوية وأبو الهيثم : « أما معاوية فصعلوك (١٠) ، وأما أبو الهيثم فلا يضع عصاه (١١) عن عاتقه (١٢) » . وكذا

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب : « في النبية » .

(٢) تحفة الأسماء ، أبواب البر ، باب : « ما جاء في النبية » ، الحديث ١٩٩٩ : ٦٣/٦ - ٦٤ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٩ // ٨٦ .

(٤) أي غيرته من حاله .

(٥) أي حملت مثل فعله .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب : « في النبية » .

(٧) تحفة الأسماء ، أبواب صفة القيلة ، الحديث ٢٩٢٣ : ٢٩٢٤ : ٢٠٨/٧ - ٢٠٩ .

(٨) تفسير الطبري : ٢٩ // ٨٧ .

(٩) البخاري ، كتاب الأدب ، باب : « لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة ولا تنصيح » : ١٥/٨ - ١٦ . وسنن أبي داود ،

كتاب الأدب ، باب : « في حسن المشية » .

(١٠) أي : فقير .

(١١) أي : إنه كثير القرب .

(١٢) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب : « المطلقة لا تطلق إلا بثقة لها » : ١٩٥/٤ . وسنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب : « في ثقة

المدينة » . وتحفة الأسماء ، أبواب النكاح ، باب : « ما جاء أن لا ينضب الرجل حل غطية أخيه » ، الحديث ١١٤٣ : ٢٨٤/٤ -

٢٨٥ . والساني ، كتاب النكاح ، باب : « إذا استشارت المرأة رجلاً فبين ضلالتها ، حل خبرها بما يعلم ؟ » : ٧٥/٦ - ٧٧ .

ما جرى مجرى ذلك : ثم بقيتها على التحريم الشديد ، وقد ورد فيها التجرؤ الأكيد ، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت ، كما قال تعالى : (أَيْحَ أَهْلِكَ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) (١) ؟ أى : كما تكرهون هذا طبعاً ، فأكروهوا ذلك شريعاً ، فإن عقوبته أشد من هذا . وهذا من التنفير عنها والتحذير منها ، كما قال - عليه السلام - في العائد في هبته : « كالكلب بقي » ثم يرجع في قبته ، « وقد قال : « ليس لنا مثلُ السوداء » (٢) . وثبت في الصحيح واللسان والمسانيد من غير وجه أنه - عليه السلام - قال في خطبة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام حكمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » (٣) .

وقال أبو داود : حدثنا واصل بن عبد الأعلى ، حدثنا أسباط بن محمد ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل المسلم على المسلم حرام : ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » (٤) .

ورواه الترمذي عن عبيد بن أسباط بن محمد ، عن أبيه ، به . وقال : « حسن غريب » (٥) .
وحدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا الأسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن الأعمش ، عن سعيد بن عبد الله بن جريح ، عن أبي بصير الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تنفروا المسلمين ولا تتبعوا عورتهم ، فإنه من يتبع عورتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته » (٦) .
نفرد به أبو داود (٦) ، وقد روى من حديث البراء بن عازب ، فقال الحافظ أبو بعل في مسنده : حدثنا إبراهيم بن دينار ، حدثنا مصعب بن سلام ، عن حمزة بن حبيب الزيات ، عن أبي إسحاق السبيعي ، عن البراء بن عازب قال : خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أسمع العواقق في بيوتها - أو قال : في خندورها - فقال : « يا معشر من آمن بلسانه ، لا تنفروا المسلمين ولا تتبعوا عورتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته » .

(١) سورة الحجرات ، آية : ١٢ .

(٢) البخاري ، كتاب الجبة ، باب « لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصلته » : ٢١٥/٣ . ونسخته الأخواني أبواب البيوع ، باب « ما جاء في كراهية الرجوع في الهبة » ، الحديث ١٣١٦ : ١٢٢/٤ - ٥٢٣ .

(٣) البخاري ، كتاب العلم ، باب « ليبلغ العلم الشاهد الثابت » : ٣٧/١ - ٣٨ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « سجة النبي صلى الله عليه وسلم » : ٤١/٤ . ونسخته الأخواني ، تفسير سورة التوبة ، الحديث ٥٠٨٢ : ٤٨١/٨ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « حرمة دم المؤمن وماله » ، الحديث ٣٩٣١ : ١٢٩٧/٤ . ومسنده الإمام أحمد عن ابن عباس : ٢٣٠/١ . وعن جابر ابن عبد الله : ٣٧١ ، ٣١٣/٣ ، ٣٧١ ، وعن الحارث بن عمرو : ٤٨٥/٣ . وعن أبي النضيد : ٧٦/٤ ، ٩٨/٥ . وعن أبيه : ٣٠٥/٤ - ٣٠٦ ، وعن يونس بن عمرو السلمي : ٣٣٧/٤ ، وعن المدائني عن خالد بن خالد : ٣٠/٥ ، وعن أبي بكر : ٣٧/٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، وعن أبي مرة الرقاشي ، عن عمه : ٧٢/٥ ، وعن رجل من أصحاب النبي : ٤١١/٥ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في النبية » .

(٥) نسخة الأخواني ، أبواب اللبر ، باب « ما جاء في شفقة المسلم على المسلم » ، الحديث ١٩٩٢ : ٥٤/٦ - ٥٥ .

(٦) أخرجه الترمذي في أبواب اللبر ، باب « ما جاء في تطهير المؤمن » عن ابن عمر ، وقال : « هذا حديث حسن غريب ثم قال : « وقد روى عن أبي هريرة الأسلمي ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - نحو هذا » . انظر نسخة الأخواني ، الحديث ٢١٠١ .

١٨٠/٦ - ١٨٢ .

طريق أخرى عن ابن عمر، قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يحيى بن أكرم، حدثنا الفضل بن موسى الشيباني، عن الحسين بن واقد، عن أوفى بن دلف، عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يُغْنِص الإيمانُ إلى قلبه، لا تتأبوا للمسلمين ولا تتبجروا عورائهم، فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله». قال: ونظر ابن عمر يوما إلى الكعبة فقال: ما أعظمكم وأعظم حرمتكم، وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك (١).

قال أبو داود: وحدثنا حيوة بن شريح، حدثنا بقية، عن ابن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن وقاص بن زيمة، عن المستورد أنه حدثه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أكل يرجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن كسبى نوبا يرجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم. ومن قام يرجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة». تفرد به أبو داود (٢).

وحدثنا ابن مغيث، حدثنا بقية وأبو لليرة (قالا): حدثنا صفوان، حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما خرج في مررت يقوم ثم أنشأ من نحاس يمشون وجوههم وصودروهم، قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين ياكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» (٣).

تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي لليرة عبد القيس بن الحجاج الشامي، به (٤).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عتبة، حدثنا أبو عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد العمي، حدثنا أبو هارون العباسي، عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يا رسول الله، حدثتنا ما رأيت ليلة أمري بك؟ قال: ثم انطلق في إلى خلق من خلق الله كثير، رجال ونساء موكّل بهم رجال يعملون إلى عرض حبس أحبهم فيتحدّون منه الحدوة (٥) من مثل النعل ثم يضعونه في أبي أحدهم، فيقال له: «كل كما أكلت»، وهو يجيد من أكله الموت - يا محمد - لو يجيد (٥) الموت وهو يكرهه عليه. فقلت: يا جبرائيل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء للمهازون اللبازون أصحاب النيمة، فيقال: (أحب أحدهم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) وهو يكرهه على أكل لحمه...

هكذا أورد هذا الحديث، وقد سقناه بطوله في أول تفسير «سورة ميثان» وفي الحمد (٦).

وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا الربيع، عن يزيد، عن أنس: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر الناس أن يصوموا يوما ولا يخطرون أحد حتى أذن له. فصام الناس فلما أمسوا جعل الرجل يجي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول: انحطت منذ اليوم صائما، فإذن لي فأنظر. فيأذن له، ويجي خارجا يقول ذلك، فيأذن له، حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن فئتين من أملاك ظلت منذ اليوم صائمتين، فإذن لهما فتفيطرا. فأعرض عنه، ثم أعاد، فقال رسول

(١) أخرجه الترمذي من حديث الفضل بن موسى بإسناده. وهو الحديث الذي عرجناه في التلخيص السابق.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب «في النية».

(٣) مسند الإمام أحمد: ٢٢٤/٣.

(٤) الخليل: التلخيص والتقدير، أي: يطعمون منه القنينة.

(٥) في المخطوطة: «وهو يجيد». ولكتبت عن التلخيص السابقة.

(٦) انظر: ٢٠٤ - ٢٣.

الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما صامت ، وكيف صام من ظل يأكل لحوم الناس ؟ اذهب فمرها إن كانتا صائمتين أن يستقيتا . ففعلتا ، فقامت كل واحدة منها حكمة [حكمة (١)] فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لو ماتا وهما فيها لأكلتهما النار » (٢) .

إستاد ضعيف ، ومن غريب . وقد رواه الحافظ البيهقي من حديث يزيد بن هارون : حدثنا سليمان التيمي قال : سمعت رجلاً يحدث في مجلس أبي عثمان النهدي عن عبيد - مولى رسول الله - أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن رجلاً أتى رسول الله فقال : يا رسول الله ، إن هاتين امرأتين صامتا - وإنهما أذا تآخرتان من امطش - أراه قال : بالمجازة - فأعرض عنه - أو : سكت عنه - فقال : يا بني الله ، إنها - والله - قد ماتتا أو كادت تآخرتان . فقال : ادعها فجاءتا ، قال : فجئني بشدح - أو حصن - فقال لإحداهما : قئني . فقامت من قيح ودم وصيد ، حتى قامت نصف القدح . ثم قال للأخرى : قئني . فقامت قيحا ودمًا وصيدًا ولحمًا ودما حبيطًا (٣) وغيره حتى ملأت القدح . فقال : إن هاتين صامتا مما أحل الله لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس .

وهكذا قد رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي ، كلاهما عن سليمان بن طرخان التيمي ، به مثله أو نحوه (٤) . ثم رواه أيضًا من حديث مسدد ، عن يحيى القطان ، عن عثمان بن غياث ، عن حذني وجعل أخته في حلقه أبي عثمان ، عن سعد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهم أمروا بصيام ، فجاء رجل في نصف النهار فقال يارسول الله : فلاة وفلاة قد بلغت الجهد . فأعرض عنه مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : وادعها . فجاء بنفس - أو قدح - فقال لإحداهما : وقئني . فقامت لحماً ودمًا وصيدًا وقيحاً ، وقال للأخرى مثل ذلك ، فقال : إن هاتين صامتا مما أحل الله لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، أنت إحداهما للأخرى فلم تترالا تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافها قيحا . قال البيهقي : كذا قال ومن سنده ، والأول - وهو جيد - أصبح (٥) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا عمرو بن الفضل بن غنم ، حدثنا أبي أبو حاتم ، حدثنا ابن جريج ، أخبرني أبو الزبير عن ابن عمر (٦) لآخي هريرة أنا ما حزرنا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إني قد زينت . فأعرض عنه - قالها أربعا - فلما كان في الخامسة قال : زينت ؟ قال : نعم . قال : وتندري ما الزنا ؟ قال : نعم ، أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً . قال : ما تريد إلى هذا القول ؟ قال : أريد أن تطهرني . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الليل (٦) في الكحلة والرشاء في البئر ؟ قال : نعم ، يارسول الله . قال : فأمر برجمه فبرجم ، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلين يقول أحدهما [لصاحبه] : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه

(١) الملقبة : قطعة من اللحم .

(٢) منحة المبرود ، كتاب الصيام ، باب في التغلظ في الثبوة من الصائم ، وما يفضل إذا سبه إنسان أو شبهه : ١٨٨/١ .

(٣) البسيط : العلم الطري غير التشبيح .

(٤) مستد الإمام أحمد : ٤٣١٥ .

(٥) انظر أسد الغابة - الترجمة ١٩٩٥ : ٣٤٩/٢ - ٣٥٠ - والترجمة ٣٤٨٩ : ٥٣٨/٢ - ٥٣٩ ، يتحققنا .

(٦) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الجفود ، باب في الفرج ، عن طريق ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن عبد الرحمن ابن الصامت ابن م أبي هريرة ، بنحوه .

(٧) المولى : ما يتكلم به .

لنفسه حتى رُجمَ رجم الكلب (١) . ثم سار النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى مرَّ بجيفة حمار فقال : أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلما من جيفة هكذا الحمار . قال : غفر الله لك يا رسول الله ، وهل يؤكل هذا ؟ قال : غا نلتما من أعينكما أنفا أشد أكلا منه . واللى نفسى بيده إنه الآن لقي أنهار الجنة ينغمس فيها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثني أبي ، حدثنا واصل - مولى ابن عيينة - حدثني خالد بن عرفطة ، عن طلحة بن نافع ، عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فارتفعت ريح جيفة متنة ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أتأكلون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يتأبون للمؤمنين » (٢) .

طريق أخرى ، قال عبد بن حميد في مسنده : حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، حدثنا القُصَيْبِيُّ بن عياض ، عن سليمان بن أبي سفيان - وهو طلحة بن نافع - عن جابر قال : كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في سفر فهاجت ريح متنة ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إن قرأ من اللطائف اختابوا ناسا من المسلمين ، فلذلك بحت هذه الريح » . وربما قال : « ولذلك هاجت هذه الريح » .

وقال السدي في قوله : « أليص أحذركم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ » : زعم أن سليمان القارصى كان مع رجلين من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - في سفر فغلبهما ويخف لهما ، ويئان من طعامهما ، وأن سليمان لا سار الناس ذات يوم وبقي سليمان نائما ، لم يسر معهم ، فجعل أصحابه يكلمونه فلم يجبه ، فغضبوا عليه فقالوا : ما يريد سليمان - أرى هذا العبد - شيئا غير هذا ! أن يجيء إلى طعام مقدور (٣) ، ونجاء مضروب ! فلما جاء سليمان أرسلاه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يطلب لهما إداما ، فاطلقا فأتى رسول الله وجه قدح له ، فقال : يا رسول الله ، بعني أصحابي لتؤدبهم (٤) . إن كان عندك ؟ قال : « ما يصنع أصحابك بالأدم ؟ قد اتكسوا » . فخرج سليمان فبقر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : لا ، واللى يهلك بلفن ما أصبنا طعاما منذ نزلنا . قال : « إنكما قد اتكسما بسليان بقولكما » ، قال : « ولولت » ، « لئيب أحذركم أن يأكل لحم أخيه ميتا » ، « إنه كان نائما » (٥) .

وروى الحافظ القسما القسما في كتابه المختار (٦) من طريق حبان بن هلال ، عن لحاد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : كانت العرب تحرم بعضها بعضا في الأسفار ، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمها ، فثما فاستيقظا ولم يهبي لهما طعاما ، فقالا : إن هذا لتزوم (٧) فأيقظاه فقالا له : أئت رسول الله فقل له : إن أبا بكر وعمر بقرتك السلام ، ويستأدناك ، فقال : « إنها قد اتكسما » . فجاءا فقالا : يا رسول الله ، بأي شيء اتكسما ؟ فقال : « بلحم أخيكما ، واللى نفسى بيده إنى لأرى لحمه بين ثناياكما » . فقالا : استغفر لنا يا رسول الله . فقال : « مكره فليستغفركما » (٨) .

(١) بيده في سنن أبي داود : « فسكت حينما » ثم سار

(٢) مسند الإمام أحمد ٣٥١٢٣ .

(٣) أي : مطبوخ .

(٤) الأدم - بلحم فسكون : ما يؤكل به مع التزوم أي شريكه . وتؤدبهم : تعطيهم الأدم .

(٥) أخرجه السيوطي في التذكرة للشعراني عن أبي حاتم . انظر : ٩٤٦٦ .

(٦) انظر : ١٨٧/٥ .

(٧) في الخطوط : « وإن هذا ليؤام يوم يختم » ، فأيقظاه . والمكتوب عن الطبقات السابقة : « والدر المختار » .

(٨) أخرجه السيوطي في التذكرة عن القسما . انظر : ٩٥٤٦٦ .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا الحكم بن موسى ، حدثنا محمد بن مسلم ، عن محمد بن إسحاق عن عه مومى بن يسار ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل من لحم أخيه في الدنيا ، قُرب له لحمه في الآخرة ، فيقال له : كَلِمَةً مِثْلَ مَا أَكَلْتَهُ حَيًّا » قَالَ : « فَيَأْكُلُهُ وَيَكْتَلِحُ (١) » وَيَصْبِحُ « غَرِيبًا جَدًّا .
وقوله : (وَاذْكُرُوا اللَّهَ) ، أى : فَمَا أَمْرَكُمْ بِهِ وَهَذَا كَمِ عَنْهُ ، فَرَأَيْتُمْ فِي ذَلِكَ وَانْشَوَا مِنْهُ ، (إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) ، أى : تَوَّابٌ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ ، رَحِيمٌ مِمَّنْ رَجَعَ إِلَيْهِ ، وَاعْتَصَدَ عَلَيْهِ .

قال الجمهور من العلماء : طريق الانتخاب للناس في توبته أن يَكْتَلِحَ عَنْ ذَلِكَ ، وَيَعِزُّ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ . وَهَلْ يَشْتَرُطُ التَّائِبُ عَلَى مَا لَفَتْ ؟ فِيهِ نِزَاعٌ ، وَأَنْ يَحْتَطِلَ مِنَ الذَّنْبِ اخْتِيَابُهُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَا يَشْتَرُطُ أَنْ يَحْتَطِلَ فَإِنَّهُ إِذَا أَعْلَمَهُ بِذَلِكَ رَجَعَا تَأْذَى أَشَدَّ مِمَّا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ جَمَاعَانِ مِنْهُ ، فَطَرِيقُهُ إِذَا أَنْ يَنْبَغِي عَلَيْهِ جَمَاعًا فِي الْخِطَابِ الَّتِي كَانَ يَلْمُهُ فِيهَا ، وَأَنْ يَرُدَّ عَنْهُ التَّائِبُ حَسْبَهُ وَمَلَاقَتُهُ ، فَتَكُونُ تِلْكَ بِذَلِكَ ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ :

حدثنا أحمد بن الحجاج ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يحيى بن أيوب ، عن عبد الله بن سليمان ، أن إسحاق بن عيسى الماعفرى أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجهني أخبره ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ حَسَى مَوْئِنًا مِنْ مَنَافِقٍ يَعْصِيهِ بِمَثَلِ اللَّهِ إِلَيْهِ مُلْكًا يَجْعَلِي لِحِمْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارَ جَهَنَّمَ ، وَمَنْ رَمَى مَوْئِنًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْئَهُ حَسْبَهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يُخْرَجَ بِمَا قَالَ (٢) » : وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ - وَهُوَ ابْنُ الْبَارِكِ - بِهِنْوَةٍ (٣) .

وقال أبو داود أيضًا : حدثنا إسحاق بن الصباح ، حدثنا ابن أبي مريم ، أخبرنا الليث ، حدثني يحيى بن سليم أنه سمع إسحاق بن بشير يقول : سمعت جابر بن عبد الله ، وأبا طلحة بن سهل الأنصاري يقولان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ أَمْرَيْنِ يُغْلِي عَيْنًا مَرْمَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تَحْتَهُ لَيْسَ فِيهِ حُرْمَةٌ وَيُسْتَقْبَلُ فِيهِ مِنْ عَرَضِهِ ، إِلَّا خَلَعَهُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنٍ يَحِبُّ فِيهَا لِعَصْرِهِ ، وَمِنْ أَمْرَيْنِ يَنْصَرِمُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُسْتَقْبَلُ فِيهِ مِنْ عَرَضِهِ ، لَا وَيُسْتَهْلِكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ ، إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنٍ يَحِبُّ فِيهَا لِعَصْرِهِ » : فَهَرَدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ (٤) .

يَعْلَمُهَا النَّاسُ إِذَا خَلَقْتُمْ مِنْ ذِكْرِ وَائْتِي وَجَعَلْتُمْ شُعُوبًا وَفِيهَا لِيَعَارَفُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَتَّقُونَ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٥)

يقول تعالى خبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجوها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوبًا وهي أحم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر كالقبائل والمناشير والمنازل والأصقاف وغير ذلك .

وقيل : المراد بالشعوب بطون الحجج ، وبالقبائل بطون العرب ، كما أن الأصباغ بطون بني إسرائيل . وقد نصبت هذا في مقدمة مفردة جمعتهما من كتاب « الإنباء » (٤) ، لأبي حمزة بن عبد البر ، ومن كتاب « التفسير » والألم ، في معرفة أنساب العرب

(١) الكلبي والكلابح - يسم الكائن - وهو الاستنساخ عند النحويين .

(٢) سنة الإمام أحمد ٤٤١/٣ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « من رد من مسلم شهية » .

(٤) في الخطوط : « الأنساب » ، ولكتبت من فهرسة ابن خلدون ٢١٤ ، وهو كتاب « الإنباء على القبائل الرواء » ، عن النبي

صل الله عليه وسلم .

والعجم». فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطيبة إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولهذا قال تعالى بعد النهي عن التبيّة واحتقار بعض الناس بعضاً، منها على تساويهم في البشرية: (يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا). أي: ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته.

وقال مجاهد في قوله: (لتعارفوا)، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا (١). أي: من قبيلة كذا وكذا؛

وقال سفيان الثوري: كانت حمير يتسبون إلى منخالفها (٢)، وكانت عرب الحجاز يتسبون إلى قبائلها.

وقد قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عبد الملك بن عيسى الثقفي، عن يزيد - مولى للثعبث - عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة (٣) في الأثر. ثم قال: «غرب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه» (٤).

وقوله: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن سلام، حدثنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس من هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف بنی الله، ابن خلیل الله». قالوا: ليس من هذا نسألك. قال: «فمن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم! قال: «فخيركم في الجاهلية خيركم في الإسلام إذا فكهوا» (٥).

وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان. ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد الله - وهو ابن حمص المصمري - به:

حديث آخر، قال مسلم رحمه الله: حدثنا حمز بن القاعد، حدثنا كثير بن هشام، حدثنا جعفر بن برقان، عن يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٦).

ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان، عن كثير بن هشام، به (٧).

حديث آخر، وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن أبي هلال، عن بكر، عن أبي ذر قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضل به تقوى». فردد به أحمد (٨).

(١) تفسير الطبري: ٨٩/٢٦.

(٢) الخليلي: القري.

(٣) أي: سبب كثرة المال، وعلامة في الأثر: يعني به الزيادة في العمر.

(٤) تحفة الأحقسي، أبواب البر، باب: «ما جاء في تعاليم القسب»، الحديث ٢٠٤٥ / ١١٣/٦ - ١١٤.

(٥) البخاري، كتاب الأنبياء، باب: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين»، ١٨٢/٤، وتفسير سورة يوسف: ٦/١٠٥.

(٦) مسلم، كتاب البر، باب: «تخرج ظلم المسلم وخلقه...»، ١١/٨.

(٧) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب: «القناعة»، الحديث ١٤٤٢ / ١٣٨٨/٢.

(٨) سنن الإمام أحمد: ١٥٨٢/٥.

حديث آخر ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم السكري ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة ، حدثنا عبيد بن حنين الطائي ، سمعت محمد بن حبيب بن خراش العنبري يحدث عن أبيه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، « لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى » (١) :

حديث آخر ، قال أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي ، حدثنا الحسن بن الحسن ، حدثنا قيس ، يعني ابن الربيع - عن شبيب بن غرقدة ، عن المستظل بن حصين ، عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، وليستهيبن قوم يفخرون بأبائهم أو ليكونن أهن على الله من الجملان » (٢) . ثم قال : لا تفرقه عن حذيفة إلا من هذا الوجه .

حديث آخر ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا يحيى بن زكريا القنطاري ، حدثنا موسى بن عبيدة ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : طاف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان يمسحهن (٣) في يده ، فما وجد هامئاً في المسجحتي نزل صلى الله عليه وسلم على أيدي الرجال ، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنشبت : ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطبهم على راحلته ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : « يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عبئكم (٤) الباهلية وتغلبها بأبائكم ، فالتاس رجلان : رجل برئ تقى كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، إن الله يقول : (يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم :

هكذا رواه عبد بن حميد ، عن أبي عاصم الضحاك بن عمار ، عن موسى بن عبيدة ، به .

حدث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن أبي عمير ، عن الحارث بن يزيد ، عن علي بن رباح ، عن عتبة بن حارث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن أنسابكم هذه ليست بحسبة على أحد ، كلكم بنو آدم . طئف الصاع (٥) لم يعلوه ، ليس لأحد فضل إلا بدين وتقوى ، وكفى بالرجل أن يكون يتديأ (٦) بخيلاً فاحشاً » (٧) .

وقد رواه ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عن ابن أبي عمير ، عن عتبة بن رباح ، عن عتبة الصاع لم يعلوه ، إن الله لا يسألكم عن أنسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٨) :

(١) انظر أسد الغابة ، الترجمة ١٥٤ : ٤٤٧/٢ - ٤٤٨ ، بصحيفتنا .

(٢) الجملان : جمع جبل - بضم فتح - وهي هوية .

(٣) الخمين : صاع مقفلة الرأس .

(٤) أي : كبرها .

(٥) أي : قريب بضمك من بعض ، يقال : هذا طئف الكيال ومطافه - بكسر الطاء وتضمها - : أي قريب من ملته . وقيل : هو ما فوق فرق رأسه . والمعنى : كلكم في الانقسام إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النفس والافتقار من غاية التام ، وشبههم في نقصانهم بالكيل الذي لم يبلغ أن يملأ الكيل ، ثم أعلمهم أن التفاضل ليس بالنسب ، ولكن بالتقوى .

(٦) الخيلاء : للفتن في القول .

(٧) مسند الإمام أسد : ١٥٨/٤ .

(٨) تفسير الطبري : ٢٦/٨٩ .

وليس هو في شيء من الكذب الستة من هذا الوجه .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا شريك ، عن ميناك ، عن عبد الله بن عمرو زوج دُرَّة ابنة أبي لُب ، عن درة بنت أبي لُب قالت : قام رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو على المنبر فقال : يا رسول الله ، أتى الناس خبير ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : « خير الناس أقرؤهم ، وأتقاهم لله عز وجل ، وأمرهم بالمعروف ، ونهأهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم(١) » .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لمية ، حدثنا أبو الأسود ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة قالت : ما أعجب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيء من الدنيا ، ولا أحبه أحد قط ، إلا ذوقتي(٢) ، فترد به أحمد رحمه الله .

وقوله : (إن الله علم خير) أي : علم بكم ، خير بأموركم ، فبهذه من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويحب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من يشاء ، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله : وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة ، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاية في النكاح لا تشترط ، ولا يشترط سوى الدين ، لقوله : (إن أكرمكم عند الله أتقاهم) . وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مكتوبة في كتب الفقه وقد ذكرنا أطرافها في ذلك في « كتاب الأحكام » ، والله السميع العليم . وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بني هاشم يقول : أنا أول الناس برسول الله ، فقال : خيرك أولى به منك ، ولك منه [نفسه] .

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٥١ ﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ١٥٢ قُلْ أَنْعَلُوا لِلَّهِ يَدَيُنْكِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٥٣ يٰمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَبُوا قُلْ لَا تَعْمَلُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلَى اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ هَدَيْتُمُ لِلْإِيمَانِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٥٤ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٥٥

يقول تعالى متكرراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادّعوا لأنفسهم مقامَ الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد : (قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ولكن قولوا : أسلمنا ، ولا يدخل الإيمان في قلوبكم) : وقد استفد من هذه الآية الكريمة : أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو ملتبس أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل - عليه السلام - حين سأل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ففرق من الأخص إلى الأخص ، ثم للأخص منه .

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٣٢/٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦٩/٦ .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه قال : أعطى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً ولم يُعْط رجلاً منهم شيئاً ، فقال سعد : يا رسول الله ، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تُعْط فلاناً شيئاً ، وهو مؤمن ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أؤسلم - حتى أعادها سعد ثلاثاً ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : أؤسلم - ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لئن لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إليّ منهم فلا أعطيه شيئاً غنة أن يَكْبُتُوا في النار على وجوههم (١) »

فخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري ، به (٢) .

فقد فرق النبي - صلى الله عليه وسلم - بين المسلم والمؤمن فذكر " على أن الإيمان أخص من الإسلام : وقد قررنا ذلك بأدلة في أول شرح كتاب الإيمان من " صحيح البخاري " والله الحمد والمنة . وذكّر ذلك على أن ذلك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً ، لأنه تركه من الملة وكله إلى ما هو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه ، فادعوا في ذلك ، وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم التيمي ، وقائمة ، واختاره ابن جرير (٣) . وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرهم الإيمان وليسوا كذلك . وقد روي عن سعيد بن جبّير ، وعجّاد ، وابن زيد أنهم قالوا في قوله : « ولكن قولوا أسلمنا » ، أي : استسلمنا خوف القتل والسبياء . قال عجّاد : تزلت في بني أسد بن خزيمية . وقال قائمة : تزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله (ص) صلى الله عليه وسلم .

والصحيح الأول : أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فادعوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعمىوا ونقضوا ، كما ذكر المناقون في سورة براءة . وإنما قيل هؤلاء تأديباً (قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولا يدخل الإيمان في قلوبكم) ، أي : لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد .

ثم قال : « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يفتنكم من أعمالكم » ، أي : لا ينقصكم من أجوركم (شيئاً) ، كقوله : « وما ألتئام من عملهم من شيء » (٤) .

وقوله : « إن الله خفور رحيم » ، أي : لمن تاب إليه وأنا بـ .

وقوله : « إنما للمؤمنون الكسب » (الذين آمنوا بالله ورسوله لم يرتابوا) ، أي : لم يشكروا ولا تزلزلوا بل ثبوا على حال واحدة ، وهي التصديق الخالص ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) ، أي : وبدلوا ما هم بهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورسولائه ، (أولئك هم الصادقون) ، أي : في قولهم إذا قالوا : « إنهم مؤمنون » ، لا لبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة .

(١) مسند الإمام أحمد : ١٧٦/١ .

(٢) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب « إذا لم يكن الإسلام ركناً من الاستسلام أو الخوف من القتل ... » ، ١٣/١ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « تأتلف قلب من يضاف على إيمانه لنفسه » ، ١ : ٩١ - ٩٢ .

(٣) تفسير البكري : ٢٦٩/٩٠ .

(٤) سورة الطور ، آية : ٢١ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رश्مين ، حدثني عمرو بن الحارث ، عن أبي السَّمْع ، عن أبي الهيثم . س . أبي سعيد قال : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . والذين يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم . ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل » (١) .

وقوله : (قل أتعلمون الله يدِينكم) ، أي اتَّعَبُونَهُ بما في ضيائركم ، (والله يعلم ما في السموات وما في الأرض) ، أي : لا يخفى عليه من مقال خوة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، (والله بكل شيء عليم) .

ثم قال : (عتُون عليكم أن أسلموا) ، يعني الأعراب عتُونُ بِأَسْلَامِهِمْ ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ، يقول الله ردا عليهم : (قل : لا تمنوا على إسلامكم) ، فإن نفع ذلك إننا يعود عليكم ، وقد لنته عليكم فيه ، (بل الله عن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) ، أي : في دعواكم ذلك ، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - للأَنْصار يوم حنين : « يا معشر الأنصار ، ألم أجدنكم ضالًّا فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فأنصركم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي ؟ » . كلما قال شيئًا قالوا : الله ورسوله أمين » (٢) .

وقال المحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدثنا يحيى بن سعيد الأموي ، عن محمد بن قيس ، عن أبي حنن ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا رسول الله ، أسلمنا وقاتلناك العرب ، ولم تقاهاك ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن قههم قليل ، وإن الشيطان يطلق على الستم . ونزلت هذه الآية : (عتُون عليكم أن أسلموا) ، قل : لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله عن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) .

ثم قال : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه ، ولا نعلم روى أبو حنن محمد بن حديد الله ، عن سعيد بن جبير ، غير هذا الحديث .

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال الخلق فقال : (إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون) .

آخر تفسير الحجرات ، وله الحمد والمئة .

(١) مسند الإمام أحمد : ٨/٣ .

(٢) البخاري ، كتاب المغازی ، باب غزوة الطائف : ٢٠٠/٥ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب : إسطه الزكاة تلويح على الإسلام وتبصير من تورى إيمانه : ١٠٨٢/٣ - ١٠٩ . ومسند الإمام أحمد عن عبد الله بن زيد بن حاصم : ٤٢٤ .

تفسير سورة قى

وهى مكية

وهذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل : من الحزبات . وأما ما يقوله العامة : إنه من (صم) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء المتأخرين فيما نعلم . والدليل على أن هذه السورة هى أول لفصل ما رواه أبو داود فى سننه ، باب « تحزيب القرآن » ثم قال .

حدثنا مسدد ، حدثنا قُرَآنُ (١) بن تمام (ح) — وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد سليمان بن حبان — وهما قطفه — عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى ، عن عثمان بن عبد الله بن أوس ، عن جده — قال عبد الله بن سعيد : فى حديثه (٢) أوس بن حنيفة — ثم اتفقا قال : قلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد ثقيف ، قال : فترلت الأحلاف على للغيرة بن شعبة ، وأنزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بنى مالك فى ثُبَّة له — قال مسدد : وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقيف ، قال : كان رسول الله كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا — قال أبو سعيد : قائما على رجله حتى يروى (٣) بين رجله من طول القيام ، فأكرما يحدثنا مالقى من قومه فريش ، ثم يقول : « لا سواء » (٤) ، وكنا مستضعفين مستلبين — قال مسدد : بمكة — فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال (٥) الحرب بيننا وبينهم ، نكد عليهم ويدالون علينا . فلما كانت ليلة أبطلنا عن الوقت الذى كان يأتينا فيه ، قلنا : لقد أبطلت عنا الليلة ! قال : « إنه طرأ على حزبي من القرآن ، فكرهت أن أبجى حتى أتته » . قال أوس : سألت أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كيف تحزبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة وحزب المفصل وحده (٦) .

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن أبي خالد الأحمر ، به . ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي ، عن عبد الله بن عبد الرحمن ، هو ابن يعلى الطائفي به (٧) .

إذا علم هذا فلماذا حدثت ثانيا وأربعين سورة فالتى بعدلن سورة « ق » : بيانه ثلاث : البقرة ، وآل عمران ، والنساء وخمس : المائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، وبراءة . وسبع : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ،

(١) فى المخطوطة : « فرات » . والصواب من سنن أبي داود ، والمختار .

(٢) ما بين القوسين من سنن أبي داود ، ومكاته فى المخطوطة : « حديثه » .

(٣) أى : يمتد على إحدى الرجلين مرة ، وعلى الأخرى مرة ، ليوصل القراءة إلى كل منهما .

(٤) فى المخطوطة : « لا أساء » . وفى سنن أبي داود : « الأسوأ » . والمثبت من سنن ابن ماجه ومسنده الإمام أحمد .

(٥) يقال : « الحرب بيننا وبهم » أى : مرة لنا ومرة علينا . وأصله أن المستبين بالسجل — يفتح فسكون ، وهو : الدلو — يكون لكل واحد منهم سجل .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « تحزيب القرآن » .

(٧) سنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « فى كم يصحب يتم القرآن » ، الحديث ١٣٤٥ : ٤٢٧/٦ — ٤٢٨ .

ومسنده الإمام أحمد : ٩٢٤ .

والبحر ، والنحل : ونحس ! سبحان ! والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، والحج ، والمؤمنون ، والنور ، والفرقان ،
وإحدى عشرة : الشعراء ، والنمل ، والقصص ، والمنكوت ، والروم ، ولقان ، والجمعة ، والأحزاب ، وسبا ،
وقاطر ، ويس . وثلاث عشرة : الصافات ، وص ، والزمر ، وغافر ، وحج السجدة ، وحج عسق ، والزخرف ، والدخان ،
والجاثية ، والأحقاف ، والقتال ، والفتح ، والحجرات : ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة رضي الله عنهم
ضمن أن أوله سورة ق ، وهو الذي قلناه ، والله الحمد ولله .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا مالك ، عن شمرة بن سعيد ، عن عبيد الله بن عبد الله ،
أن عمر بن الخطاب سأله أبا وإدريس : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقرأ في العبد ؟ قال : بقرآن ، وأقرئت (١) ،
ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة ، من حديث مالك ، به وفي رواية لمسلم عن قتبيح (٢) ، عن شمرة ، عن عبيد الله ، عن أبيه
واقول : سألت عمر ، فذكره (٣) .

حديث آخر ، وقال أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم ،
عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، عن أم هشام بنت حارثة قالت : لقد كان تشاورنا (٤) وتشاور النبي -
صلى الله عليه وسلم - واحدا مستين ، أو سنة وبعض سنة ، وما أخلت (ق والقرآن المجيد) إلا على لسان رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، كان يقرأ وما كل يوم جمعة على المنبر إذا خطبه الناس (٥) .

ورواه مسلم من حديث ابن إسحاق ، به (٦) .
وقال أبو داود : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن يعقوب ، حدثنا شعبة ، عن عبيد الله بن محمد ،
ابن محسن ، عن ابنة الحارث بن العنمان قالت : ما حفظت ق ، إلا من في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب بها
كل جمعة . قالت : وكان تشاورنا وتشاور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واحدا .
وكذا رواه مسلم ، والسنائي ، وابن ماجه ، عن حديث شعبة ، به .

واقصد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ بهذه السورة في الطامع الكبير ، كالعيد والجمع ، لأشغالها على ابتداء
الخلق واليوت والنشور ، والمعاد والقيام ، والحساب ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والترغيب والترهيب .

- (١) مسند الإمام أحمد : ٢١٧ - ٢١٨ .
- (٢) في المخطوطة : « لمسلم عن مالك » . والمثبت عن مسلم .
- (٣) مسلم ، كتاب صلاة العيدين ، باب « ما يقرأ به في صلاة العيدين » : ٢١٣/٢ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ،
باب « ما يقرأ في الأقصى والقطر » . ونجدة الأحمدي ، أبواب العيدين ، باب « القراءة في العيدين » ، الحديث ٥٣٢ : ٧٩٣/٣ .
وقال الترمذي : حسن صحيح . والسنائي ، كتاب العيدين ، باب « القراءة في العيدين بقاف وأقرئت » : الحديث ١٨٢ - ١٨٤ .
وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب « ما جاء في القراءة في صلاة العيدين » ، الحديث ١٢٨٢ : ٤٠٨١ .
- (٤) التنوير : المروءة . وهي كثيرة بلانك إلى خلفها ومروءتها بأحوال التي - صلى الله عليه وسلم - وتقرها من منزله .
- (٥) مسند الإمام أحمد : ٤٣٥ - ٤٣٦ .
- (٦) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « تخفيف الصلاة والمطوية » : ١٣/٣ .
- (٧) في المخطوطة : « عن حبيب بن عبد الله » . والمثبت سنن أبي داود . وشيخ هو ابن عبد الرحمن ، يروي عن عبد الله
ابن محمد بن من . انظر التلخيص : ١٣٦/٣ .
- (٨) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « الرجل يخطب على قوم » .
- (٩) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « تخفيف الصلاة والمطوية » : ١٣/٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجَّبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَوَدَّ بَيْنَنَا وَكَثْرًا بَلْ كَذَّبُوا ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْبٌ حَصِيطٌ ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِآلِ الْفِتْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ فَيُحَرِّقُ أَعْيُنُ مَرِيحٍ ۝

(ق) : حرف من حروف المجاهد للتكرار في أوائل السور ، كقوله : (ص - ن - الم - حم - طس) ونحو ذلك ، قاله مجاهد وغيره . وقد أسلفنا الكلام عليها ، في أول «سورة البقرة» بما أفضى عن إعادته (١) .

وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا (ق) : جبل عيط بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف . وكان هذا - والله أعلم - من هراقات بني إسرائيل التي أدخلها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيها لا يصدق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقهم ، يكسبون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وما بالمهد من قدم ، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طولها للذي ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشرهم للفسور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته وإثنا أبحاث الشارع الرواية عنهم في قوله : «وحششوا عن بنى إسرائيل» ، ولا حرج (٢) ، فيها قد يجوزه العقل ، فأما فيها تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان ، ويقلب على الظنون كلبه ، فليس من هذا القبيل ، والله أعلم .

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، وكلما طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، والله الحمد ولئلا ، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي - رحمه الله - أورد هاهنا أثرًا غريبًا لا يصح سنده عن ابن عباس فقال :

حدثنا أبي قال : حدثت عن محمد بن إسماعيل الخزازي (٣) : حدثنا ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : خلق الله من وراء هذه الأرض بحرًا عظيمًا ، ثم خلق من وراء ذلك جبلًا يقال له «ق» ، السياه الدنيا مرفوعة عليه (٤) . ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضًا مثل تلك الأرض سبع مرات . ثم خلق من وراء ذلك بحرًا عظيمًا بها ، ثم خلق من وراء ذلك جبلًا يقال له «ق» السياه الثانية مرفوعة عليه (٥) ، حتى عد سبع أرضين ، (وسبعة أبحر) ، وسبعة أجبال ، وسبع سموات . قال : وذلك قوله : «والبحر يملأ من بعده سبعة أبحر» .

(١) انظر : ١/٥٩ - ٩٥ .

(٢) البيهقي ، كتاب الأنياب ، باب «ما ذكر عن بنى إسرائيل» : ٢٠٧/٤ . ونسبة الأعرابي ، أبواب العلم ، باب «ما جاء من الحديث عن بنى إسرائيل» ، الحديث ٢٨٠٦ : ٤٣١/٧ - ٤٣٢ ، وقال الترمذي «حسن صحيح» . ومسنده الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري : ٤٦٣ .

(٣) كذا ، ولله الزبيدي . انظر البحر والتمديد لابن أبي حاتم : ١٨٨/٢ - ١٨٩/٢ . والتهذيب : ٥٧/٩ .

(٤) أي : مسنوعة عليه .

فاستاد هذا الأثر فيه انقطاع ، والذي رواه ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (ق) قال : هو اسم من أسماء الله ، عز وجل (١) ،
والذي ثبت من مجاهد ، أنه حرف من حروف الجهاد ، كقوله : (ص - ن - ح - طس - لم) ونحو ذلك . فهذه
ليعد ما تقدم من ابن عباس . .

وقيل : المراد « قضى الأمر والله » ، وأن قوله (ق) دلت على المخلوف من بقية الكلام كقول الشاعر : قلتُ ذا :
فنى قتالت قال (٢) .

ونى هذا التفسير نظر ، لأن الخلف في الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف ؟
وقوله : (والقرآن المنجد) ، أى : الكريم العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .
واختلفوا في جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا
كتاب حفيظ) .

ونى هذا نظر ، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو إثبات التبرة ، وإثبات المعاد ، وتقريره وتحقيقه وإن
لم يكن القسم مختلفي قطعاً ، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله : (ص والقرآن ذى الكرسي) بل الذين كفروا في حزة وشقاق (٣)
وهكذا قال همام : (ق) والقرآن المنجد . بل عجيباً أن جامع مثل منهم فقال الكافرون هذا شئ « عجيب » أى : تعجبوا
من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى : (أكان للناس عجباً أن لوحيين إلى رجلين منهم أن أنزل الناس) (٤) ، أى : وليس
هذا بعجيب ، فإن الله يعطى من الملائكة رسلاً ومن الناس .

ثم قال : عجباً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه : (أئلهنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) ؟ أى يقولون :
أئلهنا متنا وبقينا ، وتعلمنا الأوصال متنا ، وصرفنا تراباً كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ (ذلك رجع
بعيد) أى : بعد الوقوع ومعنى هذا أنهم يفضلون استحالة وعدم إمكانه ، قال الله تعالى راداً عليهم : (قد علمنا ما تنقص
الأرض منهم) ، أى : ما تأكل من أجسادهم في الليل ، تعلم ذلك ولا يبقى علينا أين تفرقت الأبدان ، وأين ذهبت ، وإلى أين
صارت ؟ (وعندنا كتاب حفيظ) ، أى : حافظ للكل ، فالعلم شامل ، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة .

قال الجوزي ، عن ابن عباس في قوله : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) ، أى : ما تأكل من أجسادهم وأبدانهم
وعظامهم وأشجارهم (٥) . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم ،

ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس يبيد فقال : (بل كذبوا بالحق لا يعلم فهم في أمر مريج) ،
أى : وهذا حال كل من خرج عن الحق ، مهما قال بعد ذلك فهو باطل - والمريج : انحطط للصطرط للناس المنكر
عقله ، كقوله (إنكم لفي قول مختلف يؤذك عنه من أفك) (٦) :

(١) تفسير الطبري : ٩٣/٢٦ .

(٢) تفسير الطبري : ٩٣/٢٦ ، وانظر أيضاً في سورة البقرة : ٥٨/٩ .

(٣) انظر : ٤٤/٧ .

(٤) سورة يونس : آية ٢٠ .

(٥) تفسير الطبري : ٩٤/٢٦ .

(٦) سورة القامحات : آية ٥ ، ٨ .

أَفْمِنْظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوَهِمَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ قُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَالْقِيَمَةَ
فِيهَا رَوَّيْصِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبَصُّرَةً وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عَمْدٍ نَبِيٍّ ۝ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا
بِهِ بِلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ أَنْخْرِجُوكَ ۝

يقول تعالى منها للعباد هل قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستعبدين لوقوعه : (أفمِنْظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوَهِمَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا) ؟ أي : بالمصباح ، (وما لها من قُرُوجٍ) - قال مجاهد : يعني من شقوق . وقال غيره : فوق . وقال غيره : من صلبوع . والمعنى متقارب - بقوله تعالى : (الذي خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور) ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حاسر (١) ، أي : كليل ، أي : من أن يرى شيئاً أو نقصاً .

وقوله : (والأرض مددناها) ، أي : وسعناها وفرشناها ، (وألقينا فيها رايصي) ، وهي : الجبال ، لتلاقيها بأهلها وتضطرب ، لأنها ممتدة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ، (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) أي : من جميع الزروع والشمار والنبات والأشواخ ، (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تتذكرون (٢)) - وقوله (بهيج) أي : حسن نقير (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) ، أي : ومشاهدة خلق السموات وما جعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب ، أي : خاضع خائف وجليل رجائع إلى الله عز وجل .

وقوله تعالى : (وزللنا من السماء ماء مباركاً) ، أي : نافعاً (فأنبثنا به جنات) ، أي : حدائق من بساتين ونحوها (وحبب الحصيد) ، وهو : الخروع الذي يركد لحبه وأخضاره .

(والنخل باسقات) ، أي : طوالاً شاهقات . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقاعدة ، والسدي ، وغيرهم : الباسقات الطوال (٣) . (لها طلع نضيد) أي : منضود (رزقا للعباد) ، أي : للخلق ، (وأحيينا به بلدة ميتاً) ، وهي الأرض التي كانت هامدة ، فلما نزل ، عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، من أزهار وغير ذلك ، مما يحار الطرف في حسنها ، وذلك بعد ما كانت لا نبات لها [فأصبحت تهتز أخضرها ، فهذا مثال للبيت بعد الموت والملاك ، كذلك يحيي الله الموتى . وهذا المشاهد من عظم قدرته بالسي اعظم مما أنكره الجاحلون للبيت] ، بقوله تعالى (نخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (٤)) . - وقوله : (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض لم يخلقهن)

(١) سورة الملك : آية ٣ ، ٤ .

(٢) سورة الداريل : آية ٤٩ .

(٣) تفسير البكري ٩٦/٢٩٦ .

(٤) سورة فاطر : آية ٥٧ .

فأمر كل أن يحيى الموتى ؟ بل ، إنه على كل شيء قدير (١) . وقال تعالى : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وإن للذي أحيانا يحيى الموتى ، إنه على كل شيء قدير) (٢) .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٦﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطَ ﴿١٧﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴿١٨﴾ وَقَوْمُ تَيْجٍ ﴿١٩﴾ كُلَّ كَذَّابٍ أَثَبَّتْ وَعِيدُ ﴿٢٠﴾ أَفَمِنَّا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴿٢١﴾ بَلْ هُمْ فِي كَيْدٍ جَدِيدٍ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى متهددا لكفار قریش بما أحله بأشباحهم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قباہم ، من النفات والعلاب الأليم في الدنيا ، فقوم نوح وما عليهم الله [به] من الفرق العام لجميع أهل الأرض ، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم في «سورة الفرقان» (٢) و «ثمود» وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وهم أمته الذين يث إليهم من أهل سدوم ومماثلها من الغور ، وكيف خسف الله بهم الأرض ، وأحال أرضهم بحيرة ممتدة خضراء بكفرهم وطغيانهم وعافيتهم الحق ، (وأصحاب الأيكة) ، وهم قوم شبيب عليه السلام ، (وقوم تيج) ، وهو البنيان . وقد ذكرنا من شأنه في «سورة البخان» (٤) ، ما أغنى عن إعادته هاهنا وقه الحمد .

(كل كلب الرسل) ، أى : كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كلب رسوله ، ومن كلب رسولا فكأنما كلب جميع الرسل ، كقوله (كلبت قوم نوح المرسلين) ، وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كلبيهم ، (فحق وعيد) ، أى : فحق عليهم ما أوعدهم الله ، على التكذيب من العذاب والنكال . فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم لإلهم قد كذبوا وسوفهم كما كلب أولئك ، هـ

وقوله : (أفمينا بالخلق الأول) ، أى : أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة ، (بل هم في لبس من خلق جديد) : وللمنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه ، كما قال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أعون عليه) (٥) وقال الله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال : من يحيى العظام وهى رميم . قل يحيىها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٦)) . وقد تقدم في الصحيح : « يقول الله تعالى : يؤخى ابن آدم ، يقول : لن يبدى كما بدلتى ، وليس أول الخلق بأفون حل من إعادته » (٧) .

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .

(٢) سورة فصلت ، آية : ٣٩ .

(٣) انظر : ١١٩/٦ - ١٢١ .

(٤) انظر : ٧٤٧/٧ - ٧٤٨ .

(٥) سورة الروم ، آية : ٢٧ .

(٦) سورة يس ، آية : ٧٨ ، ٧٩ .

(٧) انظر : ٣١٨/٦ .

وقد انتبه العلماء : هل يكتب للملك كل شيء من الكلام ؟ وهو قول المجلس وقادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثوب وعقاب كما هو قول ابن عباس ، علي فولس . وظاهر الآية الأول ، لحوم قوله (ما يلقظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .
وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة القتي ، عن أبيه ، عن جده علقمة ، عن بلال بن الحارث المزني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يعض أن تبلغ ما بلغت . يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت . يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه) . قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث (١)
ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه : من حديث محمد بن عمرو ، به : وقال الترمذي : حسن صحيح (٢) .
شاهد في الصحيح (٣) .

وقال الأخفش بن قيس : صاحب الميم يكتب الخبر ، وهو ثمر علي صاحب الثيال ، فإن أصاب المبد حياض قال له : أسك فإن استغفر الله تعالى أنه أن يكتبها وإن لم يكتبها . رواه ابن أبي حاتم .
وقال الحسن البصري ونا هذه الآية : (عن أبيه وعن الثيال فعيد) : يا ابن آدم ، بسطت لك صحيفة ، ووكلت بك ملكان كي يأن أحدهما عن عيبك ، والآخر عن شياك ، فأما الذي عن عيبك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شياك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت . أقل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفة ، وجعلت في عقلك ملكان فترك ، حتى تخرج يوم القيامة فندد ذلك يقول : (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك بفسئت اليوم عليك حسياً) . ثم يقول : عذرك - والله - فإني من جنتك حبيب نفسك (٤) .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (ما يلقظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ، قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر ، حتى إنه ليكتب قوله « أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت » ، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله ، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر ، وألقى سائر ، وذلك قوله : (يحسب الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) (٥) وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه ، فبلغه عن طلوس أنه قال : يكتب للملك كل شيء حتى الأبن . فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله .

وقوله (وجاءت سكرة الموت بالحق) ذلك ما كتبت منه محمد ، يقول تعالى وجاءت - أيها الإنسان - سكرة الموت بالحق ، أي : كتبت لك من اليقين الذي كتبت تخزي فيه (خذك ما كتبت منه محمد) ، أي : هذا هو الذي كتبت عنك منه ما جاءك ، فلا تحيد ولا تمنص ، ولا تفكك ولا خلاص .

(١) نسخة الإمام أحمد : ٤٦٩/٢ .

(٢) نسخة الأوسدي : أبواب القصد ، أبواب قوله من قوله الكلام ، الحديث ٧٤٢١ ٧٤٢٢ ٧٤٢٣ - ٦١٠ . وابن أبي عمير ، كتاب القدر ، باب « كتب اللسان في القصد » ، الحديث ٣٩٧٠ = ١٣١٣/١ .

(٣) البيهقي : كتاب القصد ، باب « حفظ اللسان » : ١٢٥/٨ .

(٤) تقدم الأثر مع تفسير الآية الثالثة عشرة من سورة الاسراء ، وخرجناه هناك . انظر : ٤٩/٥ . وانظر أيضا

تفسير الطبري : ١٠٠/٢٦ .

(٥) سورة القدر : آية ٤٩ .

وقد اختلف المفسرون في الخطاب بقوله : (وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه متخيد) ، قال الصحيح أن الخطاب بذلك الإنسان من حيث هو : وقيل : الكافر ، وقيل غير ذلك .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا إبراهيم بن زياد - مكي - أخبرنا عباد بن عباد عن محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبيه ، عن جده علقمة بن وقاص أن عائشة - رضى الله عنها - قالت : حضرت أبي وهو يموت ، وأنا جالسة عند رأسه ، فأخذته خفية فتمثلت بييت من الشعر :

مَنْ لَا يَزَالُ دُمُّهُ مَحْنَعًا (١) فَإِنَّهُ لَا يَبْدُ مَرَّةً مَدْفُوقًا (٢)

قالت : فرغ رأسه قال : يا بنية ، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه متخيد) ،

وحدثنا عكف بن هشام ، حدثنا أبو شهاب ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن البهي قال : لما أن قتل أبو بكر - رضى الله عنه - جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت : (٣) .

تَسْمُرُكُمَا يَغْنِي الشَّرَاءُ مِنَ الْفَتَى إِذَا حَشَرْتِجَتَ (٤) يَوْمًا وَغَابَقَ بِهَا الصَّبْرُ

فكثف عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن كقول : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه متخيد) . وقد أوردت لهذا الأثر طرقا في سيرة الصديق عند ذكر وفاته ، رضى الله عنه .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم لما تشاء الموت جعل يسبح المرقع عن وجهه ويقول : « سبحان الله ! إن الموت لسكرات (٥) » . وفي قوله : (ذلك ما كنت منه متخيد) قولان :

أحدهما : أن « ما » هاهنا موصولة أى : الذى كنت منه متخيد - بمعنى : تبعد وتأتى وتفر - قد حُكِّمَ بك ونزل بساحتك ، والقول الثانى : أن « ما » نافية بمعنى : ذلك ما كنت تقدر على القبول منه ولا الحيد عنه .

وقد كثر الطرائق في المعجم الكبير : حدثنا محمد بن عبد الصائم المكي ، حدثنا حفص (٦) بن غفران الحلبي ، حدثنا معاذ بن محمد القليل ، عن يونس بن عبيد عن الحسن ، عن سعدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يفر من الموت مثل

(١) أى : موصافى جوده .

(٢) كلما هنا . وفي البداية لابن الأثير :

« لا يدوماً أنه حراق » .

وقال : « وهو من القرب الثاني من بحر الرجز » ورواه بعضهم :

ومن لا يزال القمع فيه مقما فلا يدوم أنه حراق

وهو من القرب الثالث من الطويل .

(٣) البيت طام الطائي ، ديوانه ط بيروت : ٥٠ . وانظر في البداية لابن الأثير ، واللسان ، مادة : حشرج .

(٤) الحشرة : قفرفة عند الموت وتردد النفس .

(٥) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب : سكرات الموت : ١٢٣/٨ . وانظر ابن ماجه ، كتاب الجنائز ، أبواب : ما جاء في ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحديث ١٦٢٣ : ١٨/١ - ١٩ . ونسفة الأسوسى ، باب الجنائز ،

باب : ما جاء في التشييد عند الموت ، الحديث ٩٨٥ : ٥٥/٤ - ٥٦ . وسند الإمام أحمد عن عائشة : ٦٤/٦ ، ٧٠ ، ١٥١ ، ٢٧٨ .

(٦) في المخطوطة : « حفص عن ابن عمر » . والمكتبة عن المرح والتمثيل لابن أبي حاتم : ١٨٣/٢٦١ .

العلب ، تطلب الأرض بعين ، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وأسهر دخل جحره ، فقالت له الأرض : يا علب ، ديني : فخرج وله حصان (١) ، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات ؛

ومضمون هذا الملل : كما لا انفكاك له ولا عيذ عن الأرض كذلك الإنسان لا عيذ له من الموت ؛

وقوله : (ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد) . قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور والنفخ والصق والبعث ؛ وذلك يوم القيامة . وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنتم وصاحب القترن قد التئم القرن وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له » . قالوا : يا رسول الله ؛ كيف تقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل (٢) ؛

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ، أى : ملك يسوقه إلى المشرق ، وملك يشهد عليه بأعماله : هذا هو الظاهر من الآية الكريمة . وهو اختيار ابن جرير (٣) لم يروى من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يحيى بن رافع — مولى لتقيف — قال : « سمعت عثمان بن عفان يخطب ، فقرأ هذه الآية (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ، فقال : سائق يسوقها إلى الله وشاهد يشهد عليها بما عملت (٤) : وكلما قال بجاهد ، وقادة ، وابن زيد .

وقال مُصَرِّفٌ ، عن أبي جعفر — مولى أشجع — عن أبي هريرة : السائق للملك ، والشهيد المصل ؛ وكلما قال الضحاك والسدى ؛

وقال العوفي عن ابن عباس : السائق من الملائكة ، والشهيد الإنسان نفسه ، يشهد على نفسه (٥) ؛ وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضاً .

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله : (لقد كنت في غفلة من هذا ، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد) ، أحدها أن المراد بذلك الكافر . رواه علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس . وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان .

والثاني : [أن] المراد بذلك كل أحد من برٍّ وقاجر ، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالبقعة والدنيا كالنمام ؛ وهذا اختيار ابن جرير ، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس .

والثالث : أن الخطاب بذلك اتى صلى الله عليه وسلم . وبه يقول زيد بن أسلم ، وابنه ؛ ولحقى على قولهما لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإتزاله إليك ، فبصرك اليوم حديد ؛

والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو ، والمراد بقوله : (لقد كنت في غفلة من هذا) ، يعنى من هذا اليوم ، (فكشفنا عنك ، غطاءك ، فبصرك اليوم حديد) ، أى : قرى ، لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصراً ، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة ، لكن لا ينضمهم ذلك . قال الله تعالى : (لسمع بهم وأبصر

(١) الحصان — بفتح الحاء — : سرعة العدو .

(٢) انظر : ٢٧٦/٣ — ٢٨٢ — ١٩٦/٥ ، ٢٠٨ — ٢٠٩ — ٢٢٥/٦ .

(٣) تفسير الطبري : ١٥١/٢٦ .

يوم يأتوننا (١). وقال تعالى : ولو ترى إذ أقروا ناكسو رموسهم عند ربهم : ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا لعمل صالحنا ، إنا موقنون (٢) .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ۖ أَتَلْقَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۖ سَالِكٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَّهِيبٍ ۖ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخِرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۖ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۖ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ۖ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ ۖ
الْعَنِيدُ

يقول تعالى مخبراً : عن الملك الموكل بعمل ابن آدم : أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ، ويقول : (هنا ما لدى عنيده) ، أي : محدّد محض بلا زيادة ولا نقصان .

وقال مجاهد . هنا كلام الملك السابق يقول . هذا ابن آدم الذي وكلني به ، قد أحضرته .
وقد اختار ابن جرير أنه يتم السابق والشهيد ، وله آتيه وقرة .
فتد ذلك يحكم الله - سبحانه وتعالى - في الخليقة بالعدل فيقول : (ألقيا في جهنم كل كفار عنيده)
وقد اختلف النحاة في قوله : (ألقيا) ، فقال بعضهم : هي لغة لبعض العرب غاطبون المفرد بالثنية ، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول : يا حرمي ، اضربا حقه وما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر :
لَإِنْ تَرَجَّجْتُني - يَا ابْنَ عَمَّانَ - أَنْتَ جَرُّ * وَإِنْ قَتَرْتُكَاني أَحْمَرُ عُرْضًا مُسْتَعْمَرًا (٣)
وقيل : بل هي نون التوكيد ، سهلت إلى الألف . وهذا بعيد ، لأن هذا إنما يكون في الوقف والظاهر أنها غاطبة مع السابق والشهيد ، فالسابق أحضره إلى حصة الحساب ، فلما أدى الشهيد عليه ، أمرها الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير .
(ألقيا في جهنم كل كفار عنيده) ، أي : كثير الكفر والتكليب بالحق ، (عنيده) : معانده للحق ، معارض له بالباطل مع علمه بذلك . (مناع الخير) ، أي : لا يؤدي ما عليه من الحقوق ، ولا يرفقه بالإحسان ولا صدقة ، (معتد) ، أي : فيا يتفقه ويصره ، يتجاوز فيه الحد .
وقال قتادة : معتد في منطقته وسيرته وأمره (٤) .

(مريب) ، أي : شاك في أمره ، مريب لمن نظر في أمره : (الذي جعل مع الله إلها آخر) ، أي : أشرك بالله فقد معه خبره ، (فألقياه في العذاب الشديد) . وقد قلتم في الحديث أن عَصْفًا (٥) من النار يبرز للخلائق فينادي بصوت يسمح للخلائق : إلى وكلت بثلاثة ، بكل جبار عنيده ! ومن جعل مع الله إلها آخر ، وبالمصورين (٦) . ثم تلوّى عليهم .
قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية - هو ابن هشام - حدثنا شيبان ، عن فراس ، عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري عن

(١) سورة صرح : آية : ٢٨ .

(٢) سورة السجدة : آية : ١٢ .

(٣) تفسير الطبري : ١٠٣/٢٦ .

(٤) تفسير الطبري : ١٠٤/٢٦ .

(٥) أي : طائفة وجانب من النار .

(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة عشرة من سورة إبراهيم ، وغرجهنا هناك . انظر : ١٠٤/٢٦ .

نبي الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « يخرج عُنُقُ من النار يتكلم ، يقول : وكلت اليوم بلالة : بكل جبار ، ومن جل مع الله إلها آخر ، ومن قتل نفسا بغير نفس . فتنتوى عليهم . فتضلهم في عَصَمَاتِ جهنم (١) » :

(قال قريته) - قال ابن عباس ، وعاصم ، وقادة ، وغيرهم ، هو الشيطان الذي وكل به - (رينا ما أظفنه) ، أى : يقول عن الإنسان الذي قد رافق القيامة كافراً ، يترامته شيطانه ، فيقول : (رينا ما أظفنه) ، أى : ما أضلته ، (ولكن كان في ضلال بعيد) ، أى : بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق : كما أنكر تعالى في الآية الأخرى في قوله : (وقال الشيطان لما نضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبني لي ، فلا تلمزوني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرعكم وما أنتم بمصرعي ، إني كذبت بما أنكرتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم (٢)) .

وقوله : (قال : لا تخصصوا لى) ، يقول الرب عز وجل للإنسي وقريته من الجن ، وذلك أنها تخصصان بين يدي الحق فيقول الإنسي : يا رب ، هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاني . ويقوم الشيطان : (رينا ما أظفنه) ولكن كان في ضلال بعيد) ، أى : عن منهج الحق . فيقول الرب عز وجل لها : (لا تخصصوا لى) ، أى : حدى (وقد قسمت إليكم بالوعيد) ، أى : قد أعلبرت إليكم على السنة الرسل ، وأتزلت الكتب ، وقامت عليكم الحجة والبراهين :

(ما يهلك القول لى) - قال مجاهد : يعنى قد قضيت ما أنا قاض ، (وما أنا بظلام للعبد) ، أى : لست أظلم أحداً يلذب أحد ، ولكن لا أظلم أحداً إلا بلبنه ، بعد قيام الحجة عليه :

يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۝ وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَفِينِ غَيْرِ مُبْعِدٍ ۝ هَذَا مَا توعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ۝ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۝ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۝ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ ۝ لَكُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝

غير تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأت ؟ وذلك أنه وعدها أن يملؤها من الجنة والثالث أجمعين ، فهو سبحانه بأمر بن بأمر به إليها ، ويلقى وهى تقول : (هل من مزيد) ، أى : هل بقى شئ تريدونى ؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تلك الأحاديث :

قال البخارى عند التفسير هذه الآية : حدثنا عبد الله بن أبي الأسود ، حدثنا حمرى بن عمار حدثنا شعبه ، عن قتادة عن أنس بن مالك ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « يكفى في النار وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع قدمه فيها ، فتقول : قطعاً قطعاً (٣) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرهاب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فيترى بعضها إلى بعض ، وتقول : قطعاً قطعاً ، وعزتك وكرمك . ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله ما خلق آخر (٤) فيسكنهم في فضل الجنة (٥) » .

(١) مستد الإمام أحمد : ٤٠/٣ .

(٢) سورة إبراهيم : آية ٢٢ .

(٣) البخارى : تفسير سورة ق : ١٧٣/٦ .

(٤) كلمة وكثره غير ثلثة في المستد .

(٥) مستد الإمام أحمد : ٢٣٤/٢٢ .

ثم رواه مسلم من حديث كنانة ، بنحوه (١) . ورواه أبان الطرار وسليمان التيمي ، عن قتادة ، بنحوه (٢) :
 حديث آخر ، قال البخاري : حدثنا محمد بن موسى السطليان ، حدثنا أبو سفيان الحميري سعيد بن جعي بن مهدي ،
 حدثنا عوف ، عن محمد ، عن أبي هريرة - رفعه ، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان - : « يقال لجهنم : هل امتلأت ،
 وتقول : هل من مزيد ، فيضع الرب - عز وجل - قلبه عليها ، فتقول : قط قط » (٣) .
 رواه أبو أيوب وهشام (٤) بن حسان . عن محمد بن سيرين ، به .
 طريق أخرى ، قال البخاري : وحدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا ميمر عن هشام ، عن أبي هريرة
 قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمكبرين والمتجبرين . وقالت
 الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضغفاء الناس وسفلة لهم . قال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء من عبادي .
 وقال للنار : إنما أنت عدائي ، أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع
 رجله ، فتقول : قط قط ، فهناك تمتلئ ويتروى بعضها إلى بعض » ولا يظلم الله من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله ينشئ
 لها خلقا آخر (٥) .

حديث آخر ، قال مسلم في صحيحه : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي
 سعيد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « احتجبت الجنة والنار ، فقالت النار : في الجبارون والمكبرون .
 وقالت الجنة : في ضغفاء الناس ومسكينهم . قضى بينهما ، فقال للجنة : إنما : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء من عبادي ،
 وقال للنار : إنما أنت عدائي ، أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها » انفرد به مسلم دون البخاري (٦) ،
 من طريق أخرى . والله سبحانه وتعالى أعلم . وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى ، عن أبي سعيد بأبسط من هذا السياق فقال :
 حدثنا حسن وروح قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن عطاء بن السائب ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن أبي سعيد
 أنشدني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « التخرت الجنة والنار ، فقالت النار : يا رب ، يدخلني الجبابرة والمكبرون
 والبلوك والأشراف . وقالت الجنة : أي رب ، يدخلني الضغفاء والفقراء والمساكين . فيقول الله عز وجل للنار : أنت عدائي ،
 أعذب بك من أشاء . وقال للجنة : أنت رحمتي ، وسعت كل شيء ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فيلقى في النار أهلها فتقول : هل
 من مزيد ؟ قال : وبقي فيها وتقول : هل من مزيد ؟ ويلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يأتيها عز وجل ، فيضع
 قدمه عليها ، فتزوى وتقول : قد قُتِي ، قُتِي (٦) . وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقی ، فينشئ الله لها خلقا ما يشاء (٧) .
 حديث آخر ، وقال الحافظ أبو يعلى في مستدركه : حدثنا عتبة بن مكرم ، حدثنا يونس ، حدثنا عبد الغفار بن القاسم ،
 عن علي بن ثابت ، عن زبدي بن حبيش ، عن أبي بن كعب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « يمرر الله - عز وجل -

(١) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضغفاء » : ١٥٢/٨ .

(٢) تفسير الطبري : ١٠٦/٢٦ - ١٠٧ .

(٣) البخاري ، تفسير سورة « ق » : ١٧٣/٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥٠٧/٢ . وتفسير الطبري : ١٠٧/٢٦ .

(٥) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « النار يدخلها الجبارون ... » : ١٥٢/٨ - ١٥٢ .

(٦) له : ح ، ح ، ح .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١٣/٢ .

وجل - نفسه يوم القيامة ، فأسجد سجدة يرضى بها حتى ، ثم أمده مدحة يرضى بها حتى ، ثم يؤذن في الكلام ، ثم أمر أني على الصراط - مضروب بين ظهري جهنم - فيرون أسرع من الطرف والسهم ، وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها جبر ، وهي الأعمال . وجههم تسأل المزيد ، حتى يضع فيها قدمه ، فيتروى بعضها إلى بعض ويقول : قطعاً قطعاً ! وأنا على الخوض . قيل : وما الخوض يا رسول الله ؟ قال : « واللى نفسى بيده ، إن شرباه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك . وآتيته أكثر من عدد النجوم ، لا يشرب منه إنسان قطلاً أبداً ، ولا يصرف فيبروى أبداً (١) » . وهذا القول هو اختيار ابن جرير :

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نبيي الحماني عن نضر الخزاعي ، عن حكيم ، عن مع ابن عباس (يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ ونقول : هل من مزيد ؟) ، قال ما امتلأت ، قال تقول : وهل في من مكان يزاد في ؟

وكذا روى الحكم بن أبان عن حكيم : (ونقول : هل من مزيد ؟) وهل في مدخل واحد ، قد امتلأت ؟ قال الوليد بن مسلم ، عن يزيد بن أبي مريم أنه سمع جابراً يقول : لا يزال يُغلف فيها حتى تقول : قد امتلأت فتقول هل من مزيد ؟ (٢) وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا . فعند هؤلاء أن قوله تعالى : (هل امتلأت) إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه ، فتتروى وتقول حيتل : هل بقي في مزيد ؟ (٣) يسح شيئاً ؟

قال العوفي ، عن ابن عباس : وذلك حين لا يبقى فيها موضع إبرة : فإله أعلم . وقوله : (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) ، قال قتادة ، وأبو مالك ، والسدي : (أزلفت) أدبست وقربت من المتقين (غير بعيد) ، وذلك يوم القيامة ، وليس بعيد لأنه واقع لا محالة ، وكل ما هو آت . (هذا ما توقعون لكل أبواب) ، أي : رجاء تأب مقلع ، (حفيظ) ، أي : يحفظ العهد فلا يقضه ويكفئه . وقال عبيد بن عمير : الأبواب الحفيظ التي لا يجلس جلساً حتى يستغفر الله عز وجل . (من خشى الرحمن بالعيب) ، أي : من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله ، وقوله : (ورجل ذكر الله خالياً) ففاضت عيناه (٤) .

(وجاء بقلب منيب) ، أي : ولي الله يوم القيامة بقلبه سليم منيب إليه خاضع لديه . (أدخلوها) ، أي : الجنة (بسلام) - قال قتادة : سلموا من عذاب الله ، وسلم عليهم ملائكة الله . وقوله : (ذلك يوم الخلود) ، أي : تخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً ، ولا يظنون أبداً ، ولا يكون منها حولا . وقوله : (لهم ما يشاؤون فيها) ، أي : مهما اختاروا وجدوا ، من أي أصناف الملأ طلبة أحضرت لهم .

-
- (١) لخرجه السيوطي في الدر المنثور عن أبي يعلى وابن مردويه مختصراً . انظر ١٠٧/٦ .
 (٢) أثر مجاهد كما في الدر المنثور ١٠٧/٦ - ١٠٨ : « حتى تقول : فهل من مزيد ؟ » .
 (٣) ما بين القوسين من الطلبات السابقة ، ومكانة في المخطوطة : « من ولى » .
 (٤) البخاري ، كتاب الآذان ، باب : من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ، وفصل المساجد ، ١٦٨/١ ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب : فضل إخفاء الصدقة ، ٩٣/٢ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا بقية . عن سحبر بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن كثير بن مرة قال : من المزيد أن عمر السجاية بأل الجنة فتقول : ماذا تريدون فأعطره لكم ؟ فلا يدعون بشئ ، إلا أمطرهم . قال كثير : لئن أشهدني الله ذلك لأقولن : أمطرينا جوارى مزيئات .

وفي الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « إنك لتشتهي الطير في الجنة . فيخبر بين يديك مشوياً » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي ، عن عامر الأحول ، عن أبي الصديق ، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة ، كان حمله ووصعه وصته (١) في ساحة واحدة (٢) » .

ورواه الترمذي وابن ماجه عن يندلر ، عن معاذ بن هشام ، به : وقال الترمذي : « حسن غريب » ، وزاد « كما يشتهي (٣) » .

وقوله : (ولدينا مزيد) كقول تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) (٤) . وقد تقدم في صحيح مسلم عن صهيب ابن سنان الروي : أنها للنظر إلى وجه الله الكريم (٥) . وقد روى البيهقي وابن أبي حاتم ، من حديث شريك القاضي ، عن عثمان بن حمير أني القيظان ، عن أنس بن مالك في قوله عز وجل : (ولدينا مزيد) ، قال : يظهر لم الرب عز وجل في كل جمعة .

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعي مرفوعاً فقال في مسنده : أخبرنا إبراهيم بن محمد ، حدثني موسى بن عبيدة ، حدثني أبو الأثرم معاوية بن إسحاق بن طلحة ، عن عبد الله (عبيد بن) (٦) أخبر أنه سمع أنس بن مالك يقول : أتني جبرائيل بمرآة يضاء فيها نكته (٧) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم : « ما هذه ؟ » . فقال : هذه ، الجمعة ، فضلت بها أنت وأمتك ، فالناس لكم فيها تبع ، اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدهو الله غير إلا استجب له ، وهو عندنا يوم المزيد . قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : باجبريل . وما يوم المزيد ؟ قال إن ربك اتخذ في القردوس واديا أبيض (٨) فيه كُتِبَ المسك ، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من ملائكته ، وحوله

(١) أي : كمال سه ، وهو ثلاثون سنة .

(٢) مسند الإمام أحمد ٩/٣ .

(٣) تحفة الأوصفاء ، أبواب الجنة ، باب « ما جاء لأهل الجنة من الكرامة » ، الحديث ٢٦٨٨ / ٧ - ٢٨٥ - ٢٨٦ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « صفات الجنة » ، الحديث ٤٣٣٨ - ١٤٥٢ / ٢ .

(٤) سورة يونس ، آية : ٢٦ .

(٥) انظر ١٩٩/٤ .

(٦) في المخطوطة : « من حبيب الله بن حبيب » . ولكتبت عن الأم : كتاب الجمعة . وفي المسند : « من حبيب بن حبيب » .

(٧) في مسند الشافعي : « وكنت » ، وكلاهما محض ، وهي : الأكثر في الشيء كالقطعة من غير لونه .

(٨) أي : واسماً .

منار من نور : عليها مقاعد النبيين ، وحُفَّتْ تلك للتأبير بمناير من ذهب ، مكللة بالياقوت والزمرد ، عليها الشهداء والصديقون مجسوراً من ورائهم على تلك الكتب . فيقول الله عز وجل : أَنَا وَبِكُمْ ، قد صَدَقْتُكُمْ وَعْدِي ، فطوبى لأصطكم . فيقولون : ربنا - مالك رسالتك ، فيقول : قد وَصَّيْتُ عَنْكُمْ ، ولكم عِلْمِي مَا تَنْتَهُم ، ولدي مزيد . فهم يَجْتَوُونَ يوم الجمعة لا بعضهم فيه أربع من الخير ، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش ، وفيه خلق آدم ، وفيه تقوم الساعة (١) ؛ هكذا أورد الإمام الشافعي في كتاب « الجمعة » (٢) « من الأم . وله طرق على أنس بن مالك رضى الله عنه . وقد أورد ابن جرير هذا من رواية عثمان بن عمر » عن أنس بأبسط من هذا ، وذكر هاهنا أثرًا مطولاً عن أنس بن مالك موقوفاً ، وفيه غرائب كثيرة (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لحيمة - حدثنا دُرَّاج عن أبي الميثم ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل في الجنة ليكنى » في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ، ثم تأتيه امرأة فتنضرب على منكبيه ، فينظر وجهه في تحسبها أصغر من المرأة ، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب . تسلم عليه ، فيرد السلام ، فيسألها : أنت ؟ فتقول : أنا من المريد . وإنه ليكون عليها سبعون حلة ، أدهاها مثل الثمان من طوبى ، فيستغفها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وإن عليها من التيجان إن أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب (٤) .

وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث ، عن دُرَّاج ، به (٥) .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَامِينِ لُغُوبٍ ﴿٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿١٠﴾

يقول تعالى : وكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ من قرون هم أشد منهم بَطْشًا ، أى : كانوا أكثر منهم وأشد قوة ، وأثاروا الأرض وتحرروها أكثر مما عمروها . ولهذا قال هاهنا : (فتنبأوا في البلاد) - قال ابن عباس : أتروا فيها . وقال مجاهد : (فتنبأوا في البلاد) : ضربوا في الأرض : وقال قتادة : فساروا في البلاد : أى ساروا فيها يتنبئون الأزواق والمتاجر والمكسب أكثر مما طعموا فيها ويقال لمن طوف في البلاد : نحب فيها . قال امرؤ القيس : (٦) .

لَقَدْ تَغَيَّبْتُ فِي الْأَقْصَى حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْفَتَنِمَةِ بِالْإِيَابِ

(١) مسند الشافعي حل الأم : ١٠٤/٦ - ١٠٥ .

(٢) الأم : كتاب الجمعة ، باب « ما جاء في فضل الجمعة » : ١٨٥/١ .

(٣) تفسير الطبري : ١٠٩/٢٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٧٥/٣ . وانظر تفة الآخوذي ، أبواب الجنة ، باب « ما جاء لأهل الجنة » من التكرارة .

الحديث ٢٨٨٧ : ٢٨٤/٧ - ٢٨٥ .

(٥) تفسير الطبري : ١١٠/٢٦ .

(٦) ديوانه ، ط بيروت : ٧٣ . والرواية فيه : « وقد طوفت » . وتفسير الطبري : ١١٠/٢٦ .

وقوله : (هل من عيسى) أى : هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره ؟ وهل تفهم ما جمعه ورد عنهم عذاب الله إذ جامع لأكثيرا الرسل ؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا عيذ ولا مناص ولا عيسى :

وقوله : (إن في ذلك للذكرى) ، أى : لعلمة (لمن كان له قلب) ، أى : لب ينى به . وقال مجاهد : عقل : (أو ألقى السم وهو شهيد) ، أى استمع الكلام فوعاه ، وتقلبه بقلبه وتفهمه بآليه :

وقال مجاهد : (أو ألقى السم) ، يعنى : لا يحدث نفسه بغيره ، (وهو شهيد) ، وقال شاهد بالقلب (١) :

وقال الضحاك : العرب تقول : ألقى فلان سمعه : إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب (٢) . وهكذا قال الثوري

وشير واحد : ٥٥٥

وقوله : (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) : فيه تقرير المعاد : لأن من قدر على خلق السموات والأرض وما بين يميني خلقهن ، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأخرى .

وقال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استراح في اليوم السابع ، وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله تكليمهم فيما قالوه وتأولوه : (وما مسنا من لغوب (٣)) : أى : من اعياء ولا نصب ولا تعب ، كما قال في الآية الأخرى : (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يبي خلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى ، إنه على كل شيء قدير) (٤) ، وكما قال : (خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) (٥) ، وقال : (أنتم لئيد خلقا أم الساء ينهاها ؟) (٦) :

وقوله : (فاصبر على ما يقولون) يعنى للكثيرين ، اصبر عليهم واحجزهم هجراً جميلاً ، (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) (وقبل الغروب) ، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ، نشأت قبل طلوع الشمس ، في وقت الفجر ، وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجباً على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى أمته ، حولاً ، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه . ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك ليلة الإسراء بخمس صلوات ، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر ، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن فيس بن أبي حازم ، عن جرير بن عبد الله قال : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال : أما إنكم ستعرضون على ربكم فترهون كما ترون

(١) في المصنوعة : لا يحدث نفسه في هذا بقلب . والمثبت عن الدر المنثور ، فقد أخرجه السيوطي عن الفريابي وابن جرير . انظر ١١٠/٦ .

(٢) تفسير الطبري ١١١/٢٦٦ .

(٣) تفسير الطبري ١١٢/٢٦٦ .

(٤) سورة الأحقاف ، آية : ٣٣ .

(٥) سورة طه ، آية : ٥٧ .

(٦) سورة النازعات ، آية : ٢٧ .

هنا الحمد ، لا : ص ٢٩١ قه ، فإن استعمل أن لا تنلوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، فافعلوا . ثم قرأ :
(وسبح (٢) عند ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) (٣) .

ورواه البخارى ومسلم وبقية الجماعة ، من حديث إسحاق ، به (٤) .

وقوله : (وس الليل مسحه) ، أى : فضل له ، كقوله : (ومن الليل فتعبد به فانلة لك عسى أن يملك ربك مائلاً محموداً (٥)) .

(وأدبار السجود) قال ابن كثير ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : هو التيسيع بعد الصلاة

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . فقال : « وما ذلك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا تصدق ، ويعتقون ولا نعتق ! قال : « أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ » تسبحون وتحمدون وتكبرون دير كل صلاة ثلاثاً وثلاثين . قال : فقالوا : يا رسول الله ، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ، فضلوا عليه . قال : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (٦) » .

والقول الثانى : أن المراد بقوله : (وأدبار السجود) ، هما الركعتان بعد المغرب ، روى ذلك عن عمر وعلى ، وابنه الحسن وابن عباس ، وابن هريرة ، وأبو أمامة ، ويه يقول مجاهد ، وعكرمة ، والشعبي ، والتخفى والحسن وقادة ، وغيرهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وعبد الرحمن ، عن سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن عاصم بن ضمرة ، عن علي قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصل على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا القنجر والعصر . وقال عبد الرحمن : دبر كل صلاة (٧) .

ورواه أبو داود (٨) ، والسنانى ، من حديث سفيان الثورى ، به زاد السنانى : ومطوف ، عن أبي إسحاق ، به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا هارون بن إسحاق الحمصانى ، حدثنا ابن فضال ، عن رشدين بن كريب ، عن أبيه عن ابن عباس قال : بت ليلة عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففعل ركعتين خفيفتين ، اللتين قبل القنجر . ثم خرج إلى الصلاة فقال : يا ابن عباس ، ركعتين قبل صلاة القنجر إديار التجم ، وركعتين بعد المغرب إديار السجود .

(١) أى : لا يملككم ضم ولا مشقة .

(٢) فى المسند والموطوءة : « وسبح » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٦٥/٤ - ٣٦٦ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة « ق » : ١٧٣/٦ ، ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « فضل صلوة الصبح والبصر والمحافظة عليها » : ١١٣/٢ - ١١٤ . ونسفة الأوصاف : أبواب حفة الجنة ، باب « ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى » ، الحديث ٢٦٧٥ : ٢٦٥/٧ - ٢٦٦ ، وقال القرطبى : « هذا حديث صحيح » . وسنن أبي داود ، كتاب السنن ، باب « فى الرؤية » . وابن ماجه ، المقدمة ، باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ١٧٧ : ٦٣/١ .

(٥) سورة الإسراء ، آية : ٧٩ .

(٦) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « الذكر بعد الصلاة » : ٢١٣/١ - ٢١٤ . وكتاب الدعوات ، باب « التحلة بعد الصلاة » : ٨٩٨ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب الذكر بعد الصلاة وبين سنة » : ١٧/٢ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١٢٤/١ .

(٨) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « من رخص فيها (أى : الركعتين) إذا كانت الشمس مرقمة » .

ورواه الترمذي عن أبي أراهم هشام الرافعي ، عن عماد بن فضال ، به . وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وحديث ابن عباس وأنه بات في بيت خاتله ميمونة وصلى تلك الليلة مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ثلاث عشرة ركعة ، ثابت في الصحيحين (٢) ، وغيرها . فلما هذة الزيادة فترية لا تعرف إلا من هذا الوجه ، ورشد بن كريب ضعيف ، ولامه من كلام ابن عباس موقوفا عليه ، والله أعلم .

وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿١١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿١٢﴾ إِنَّا نَحْنُ مُخْرِجُوهُمُ وَيَوْمَ نُخَيِّدُ لَهُمْ أَلْمَصِيرَ ﴿١٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاجًا ذَلِكَ حُضْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿١٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى : (واستمع) يا صمد (يوم يناد المناد من مكان قريب) قال قتادة : قال كعب الأحبار : يأمر الله ملكاً أن ينادى على صخرة بيت المقدس : أيها العظام البالية ، والأوصال المنقطعة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء (٢) .

(يوم يسمعون الصيحة بالحق) ، يعني الضخمة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه غمرون . (ذلك يوم الخروج) أي : من الأجلات ، (إِنَّا نَحْنُ مُخْرِجُوهُمُ وَإِنَّا نَحْنُ مُخَيِّدُهُمْ لِلْمَصِيرِ) ، أي : هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أعلم به ، وإليه مصير الخلائق كلها ، فيجازي كلا بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقوله : (يوم تشقق الأرض عنهم سراجاً) ، وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبرها ، كما ينبت الحب في الترى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله لإسرائيل فيضخ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في قصب في الصور ، فإذا نفخ إسرائيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض ، فيقول الله عز وجل : وهزني وجلال ، فترجحن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمه ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم في الدبغ (١) . وتشقق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراجاً مبادرين إلى أمر الله عز وجل ، (مهطعين إلى النعاع) يقول الكافرون : هذا يوم حسر (٥) ، وقال الله تعالى (يوم يدعوك فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً (٦)) . وفي صحيح مسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول من تشقق عنه الأرض (٧) » .

(١) في المنطوق : « من هشام » . وصوابه : « من أبي هشام » . انظر التلخيص ، ترجمة محمد بن يزيد بن محمد بن كثير بن وفاة بن ساعة السجلى ، أبي هشام الرافعي : ٥٢٦/٩ . حل أنه لم يقع لنا حديث الترمذي ، ولعلنا لم نعدرك فيها بعد .

(٢) البخاري ، كتاب الأذان ، باب « إذا قام الرجل من يسار الإمام فحوله الإيمان إلى يمينه » ، لم تقدم صلاتهما : ١٧٩/١ . مسلم ، كتاب المساجد ، باب « الدعاء في صلاة الليل وقيامه » ، باب « ٧٨٨/٢ - ١٧٩ » .

(٣) تفسير الطبري : ١١٤/٢٦ .

(٤) انظر : ٢٧٨/٢ - ٢٢٦/٦ .

(٥) سورة القمر ، آية ٨ .

(٦) سورة الإسراء ، آية ٥٢ .

(٧) الذي وقع لنا في مسلم بن رواية أبي هريرة : انظر كتاب الفضائل ، باب « تفصيل لينا - صلى الله عليه وسلم - حل جميع الخلائق » : ٥٩/٧ .

وقوله : (ذلك حشر علينا بسير) ، أى : تلك إعادة سهلة علينا ، بسيرة لدينا ، كما قال تعالى : (وما أمروا إلا ل واحدة كلمح بالبصر (١)) . وقال تعالى : (ما خلقكم ولا ينكمح إليكم الا كفوف واحدة) ، إن الله سمع بصبر (٢) ، وقوله : (لنن أعلم بما يقولون) ، أى : نحن علمنا عيظ بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك (٣) ذلك ، كقوله (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) فسيح محمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (٤) ، وقوله : (وما أنت عليهم بجبار) ، أى : ولست بالذى نجبر هؤلاء على الهدى ، وليس ذلك مما كانت به . وقال مجاهد ، وقادة ، والضحك : (وما أنت عليهم بجبار) ، أى : لا تشجى عليهم (٥) . والقول الأول ، ولو أراد ما قالوه فقال : ولا تكن جباراً عليهم ، وإنما قال : (وما أنت عليهم بجبار) ، بمعنى : وما أنت مجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ . قال القراء : سمعت العرب تقول : جبر فلان فلانا على كذا ، بمعنى أجبره (٦) . ثم قال تعالى (فلنكر بالقرآن من يخاف وعيد) ، أى : بلغ أنت رسالة ربك ، فإنما يتلكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده ، كقوله : (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (٦) ، وقوله : (فلنكر إنما أنت مذكر) . لست عليهم بمسيطر (٧) ، (ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء) (٨) ، (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) (٩) ولما قال هاهنا (وما أنت عليهم بجبار) ، فلنكر بالقرآن من يخاف وعيد) . كان قتادة يقول : اللهم ، اجعلنا من يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا بار يارب رحيم ،

آخر تفسير سورة (ق) ، والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

(١) سورة القمر ، آية ٢٠٠ .

(٢) سورة لقمان ، الآية ٢٨ .

(٣) انظر تفسير هذه الكلمة في : ١٥٤/٢ .

(٤) سورة الحجر ، الآيات : ٩٧ - ٩٩ .

(٥) تفسير الطبري : ١١٥/٢٦ .

(٦) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .

(٧) سورة الفاشية ، آية : ٢١ - ٢٢ .

(٨) سورة البقرة ، آية : ٢٧٢ .

(٩) سورة القصص ، آية : ٥٦ .

تفسير سورة الذاريات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ ذُرُّوا ۖ فَلَا تَحْمِلُتْ وُقْرًا ۖ فَلَا تَحْمِلُتْ بُسْرًا ۖ فَلَا تَقْسِمُتْ أَمْرًا ۖ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٍ ۖ وَإِنَّ الَّذِينَ كُوفِرُوا ۖ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ ۖ إِنَّا كُنَّا بِقَوْلِ غَثَلِيفٍ ۖ يُؤْفِكُ عَنْهُ
مَنْ أَمَّاكَ ۖ قُلْ الْغَرَضُونَ ۖ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ ۖ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ ۖ يَوْمَ هُمْ عَلَى
النَّارِ يُقْتَلُونَ ۖ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۖ

قال شعبه بن الحجاج ، عن سمالك ، عن خالد بن عرعرة أنه سمع عليا وشعبة أيضا ، عن القاسم بن أبي بزة ، عن أبي
الغليل ، سمع عليا . وثبت أيضا من غير وجه ، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني
عن آية في كتاب الله ، ولا من سنة من رسول الله ، إلا أنبأكم بذلك . فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى
قوله تعالى ۖ (واللذاريات ذروا) ؟ قال ؟ الرياح . (فالحاملات وقرا) ؟ قال : السحاب . (فالدجاريات يسرا) ، قال : السفن
(فالقسمات أمرا) ؟ قال : للالكة (۱) ؛

وقد روى في ذلك حديث مرفوع ، فقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إبراهيم بن هانيه ، حدثنا سعيد بن سلام
الطعطر ، حدثنا أبو بكر بن أبي سبرة ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : جاء صبيغ النخعي إلى عمر
ابن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن الذاريات ذروا ؟ فقال : هي الرياح ، ولولا أني سمعت رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — يقوله ما قلته . قال : فأخبرني عن القسمات أمرا . قال : هي للالكة ، ولولا أني سمعت
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقوله ما قلته . قال : فأخبرني عن الدجاريات يسرا . قال : هي السفن ، ولولا أني سمعت
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقوله ما قلته . ثم أمر به فضرب مائة وجعل في بيت ، فلما برأ ضربه مائة أخرى ،
وحمله على قنط (۲) وكسب إلى أبي موسى الأشعري : امنع الناس من مجالسته . فام يزل كذلك حتى أتى أبا موسى
فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد في نفسه ما كان يجد شيئا . فكذب في ذلك إلى عمر ، فكذب عمر : ما إنشأه إلا صدق .
فدخل بيته وبين مجالسة الناس (۳) .

(۱) تفسير الطبري ، ۱۱۵/۲۶ - ۱۱۶ .

(۲) القتب : البرذعة .

(۳) انظر الإصافة ، ترجمة صبيغ بن صعل : ۱۹۱/۲ .

قال أبو بكر البزار : فأبو بكر بن أبي صبرة ابن ، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث ، قلت : فهذا الحديث ضعيف رضعه ، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر ، فإن قصة صبيغ بن عمل مشهورة مع عمر ، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيها يسأل تحتها وحادثا ، والله أعلم .
وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة ، وهكذا فسرها ابن عباس ، وابن عمر ، وعجاءة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقائدة ، والسدي ، وغير واحد . ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك ؛
وقد قيل : إن المراد بالداريات : الريح كما تقدم ، وبالطاملات وقرأ : السحاب كما تقدم ، لأنها تحمل الماء ، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل (١) :

وَأَسْتَمْتُ نَفْسِي لَمَنْ أَسْتَمْتُ لَهُ لِلزُّنُ تَحْمِلُ عَذَابًا زَلَالًا

فأما الجاريات يسرا [فلشهور عن الجمهور - كما تقدم - أنها السفن تجرى ميسرة في لواء جريا سهلا . وقال بعضهم : هي النجوم تجرى يسرا] في أفلاكها ، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى ، إلى ما هو أعلى منه ، فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوق ذلك ، وللمسبات أمرا الملاكمة فوق ذلك ، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية . وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد ، ولهذا قال : (وإنما توعدون لصادق) ، أي : لنبي صادق ، (وإن الدين) ، وهو : الحساب (لواقع) ، أي : لكائن لا محالة .

ثم قال : (والسياء ذات الحبيك) - قال ابن عباس ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء ؛ وكلها قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو مالك ، وأبو صالح ، والسدي ، وقائدة ، وعصية النوق ، والريح بن أنس ، وغيرهم ،

وقال الضحاك ، والمتهال بن عمرو ، وغيرهما : مثل تجعد للماء والرمل والزروع إذا ضربه الريح ، فينحس بعضه بعضا طرائق ، فلذلك الحبيك .

قال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، [حدثنا ابن حلية] ، حدثنا أيوب ، عن أبي قلابة ، عن رجل من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن من ذرائع الكلاب المفضل ، وإن رأسه من ذرائع حبيك حبيك » . يعني بالحبيك : الجعوة (٢) .

وعن أبي صالح (ذات الحبيك) : الشدة . وقال خصيف : (ذات الحبيك) : ذات الصفاقة . وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : (ذات الحبيك) : حيكك بالنجوم .

وقال قتادة : عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن عمرو اليكالي ، عن عبد الله بن عمرو : (والسياء ذات الحبيك) ، يعني : السياء السابعة (٣) .

(١) البيت في سيرة ابن هشام : ٢٣١/١ .

(٢) تفسير الطبري : ١١٨/٢٦ .

وتأناه ... والله أعلم ... أراد بذلك السهام التي فيها الكواكب الثابتة ، وهي عند كثير من علماء الطبيعة في تلك الأيام التي فوق السحاب ، والله أعلم . وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد . وهو الحسن واليه . كما قال ابن عباس : - رضى الله عنهما - فلما من حبهنا مرقة شذاعة صفيقة ، شذيلة البناء ، مسحة الأرجاء ، أبقية البهائم ، مكلة النجوم الثابت والسيارات ، موشحة بالنخمس والقمر والكواكب الزاهرات .

وقوله : (إنكم لنى قول عطف) ، أى : إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لنى قول عطف مضطرب ، لا يأنس ولا يجتمع :

وقال قتادة : (إنكم لنى قول عطف ، ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به) :

(يذكرك عنه من أنك) ، أى : إنما يروج على من هو ضال في نفسه ، لأنه قول باطل إنما يتقاد له ويضل بسببه ويؤكف عنه من هو مأفوك ضال غمر ، لأنهم له ، كما قال تعالى : (فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفائنين . إلا من هو صالح الجحيم) (١) .

قال ابن عباس ، والسدى : (يذكرك عنه من أنك) : يضل عنه من ضل . وقال مجاهد : (يذكرك عنه من أنك) : يؤكف عنه من أين (٢) . وقال الحسن البصري : يعترف عن هذا القرآن من كلبه به (٣) .
وقوله : (قتل الغراصون) - قال مجاهد : الكتائبون . قال : وهي مثل التي في حبس : (قتل الإنسان ما أكفره) (٤) ، والغراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون (٥) .

وقال هل بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (قتل الغراصون) : أى : لمن المرتايون ، وهكذا كان ساد رضى الله عنه يقول في خطبته : هلاك للمرتايون . وقال قتادة : الغراصون أهل [الفرأ] (٦) والظنون .

وقوله : (الذين هم في شجرة ساهون) - قال ابن عباس وغير واحد : في الكثر والشك خافلون لاهون : (يسألون أيان يوم الدين) : وإنما يقولون هنا تكديبا وعنادا وشكا واستعجادا . قال الله تعالى : (يوم هم على النار يفتنون) :

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد (يفتنون) : يطعون كما يفتن الذهب على النار . وقال جسانة آخرون كمجاهد أيضا ، وعكرمة ، وإبراهيم النخعي ، وزيد بن أسلم ، وسفيان الثوري : يفتنون بحر فون :

(١) سورة الصافات والآيات ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) في السان : ردفه تمال : (يذكرك عنه من أنك) ، قال مجاهد : يوقن من أين . ولين الرجل : حيف رأيه . والله الله ، وأذك الرجل : حيف عقله ورأيه . قال : ولم يستعمل « أفكك الله » حتى أصبف عقله ، وإنما أتى « أفكك » بمعنى « سرك » ، فيكون المعنى في الآية : بحرف من الحق من سره الله .

(٣) تفسير البكري ١١٩/٢٦ .

(٤) سورة حبس : الآية ١٧ .

(٥) ما بين القوسين من القدر المتعذر ١١٢/٦ : والبهائم السابقة : ومكانه يضاف في المخطوطة .

(ذوقوا نتيجكم) ، قال مجاهد : حريقكم ، وقال غيره : عذابكم ، (هنا الذي كنتم به تمشطون) ، أي : يقال لهم ذلك قريبا وتوبيخا وتحفرا وتصفرا ،

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاتِيهِمْ مَّا أَرَادُوا أَنَّهُمْ بِهِمْ هَاهُنَا قُلُوبًا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا مَّا يَجْعَلُونَ ﴿١٧﴾ وَيَأْتِيهِمْ يَسْتَفْغِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ قُرُوبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَهُ الْوَلْحُ حَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنْكَرَ تَنْظِقُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مجرا من المقين لله عز وجل : إنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون ، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال ، والحريق والأغلال .

وقوله : (أتعطين ما آتاهم بهم) - قال ابن جرير : أي عاملين بما آتاهم الله من القرائض : (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) ، أي : قبل أن يفرض عليهم القرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضا (١) : لم يروى عن ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن أبي عمر ، عن مسلم البطين ، عن ابن عباس في قوله : (أتعطين ما آتاهم بهم) ، قال : مع القرائض ، (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) : قبل القرائض يعملون (١) . وهذا الإسناد ضعيف ، ولا يصح عن ابن عباس ، وقد رواه هشام بن أبي شبة ، عن معاوية بن هشام ، عن سفيان ، عن أبي عمر الزوار ، عن مسلم البطين ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، فذكره . والذي فسر به ابن جرير فيه نظر ، لأن قوله : (أتعطين) حال من قوله : (في جنات وعيون) ، فالضئون في حال كونهم في الجنات والعيون آتاهون ما آتاهم بهم ، أي : من النعم والسرور والنبطة .

وقوله : (إنهم كانوا قبل ذلك) ، أي : في الدار الدنيا (محسنين) ، كقوله : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) . لم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ، اختلف المفسرون في ذلك على قولين :

أحدهما : أن ما « نافية ، تقديره : كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه . قال ابن عباس : لم تكن تغشى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شئنا (٢) . وقال قتادة ، عن مطرف بن عبد الله : قلّ ليلة تلقى عليهم لا يصلون فيها لله عز وجل ، إما من أولها وإما من أوسطها . وقال مجاهد : قلّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يهجعون ، وكلما قال قتادة . وقال أنس ابن مالك ، وأبو العالية : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وقال أبو جعفر الباقر : كانوا لا ينامون حتى يصلوا للعتمة .

(١) تفسير الطبري : ١٢١/٢٣ .

(٢) تفسير الطبري : ١٢٢/٢٦ .

واقول الثاني : أن هـ ما مصادرة ، تقديره : كانوا قليلا من الليل هجومهم وقومهم ، واختاره ابن جرير ، وقال الحسن البصري : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ، كابدا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا الله ، وشطوا قدسوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر . وقال قتادة : قال الأحنف بن قيس : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ، كانوا لا ينامون إلا قليلا ، ثم يقول : لست من أهل هذه الآية . وقال الحسن البصري : كان الأحنف بن قيس يقول : عرضت على علي بن عبد الله الجنة ، [فأتا قوم] قد باينونا بؤنا بعيدا ، إذا قوم لا تبلغ أعلم ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وعرضت على علي بن عبد الله النار فإذا قوم لا خبر فيهم يكلبون بكتاب الله ويرسل الله ، يكلبون بالبعث بعد الموت ، فوجدت من خبرنا منزلة قوماً خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة ، صفة لا أجدها فينا ، ذكر الله قوما فقال : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم . فقال له أبي : طوبى لمن رقد إذا نَحَس ، واتى الله إذا استيقظ (١) .

وقال عبد الله بن مسكلم : لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، أئتمل (٢) الناس إليه ، فكنث فيمن أئتمل . فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل . كتاب ، فكان أول ما سمعته يقول : يا أيها الناس أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن طيبة ، حدثني حبيب بن عبد الله ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن في الجنة غرضا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » . فقال أبو موسى الأشعري : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : « لمن آلان الكلام ، وأطمع الطعام ، وبات لله قائما ، والناس نيام » (٤) .

وقال معمر بن قزعة : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) : كان الزهري والحسن يقولان : كانوا كثيرا من الليل ما يصلون .

وقال ابن عباس ، وإبراهيم التيمي : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) : ما ينامون .

وقال الضحاك : (لهم كانوا قبل ذلك بحسين . كانوا قليلا) . ثم ابتدأ فقال : (من الليل ما يهجعون وبالأخبار هم يستفرون (٥)) .

(١) تفسير الطبري : ١٢٣/٢٦ .

(٢) أي : أسرعوا إليه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد ، انظر المسند : ٥٠١/٥ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٧٣/٢ .

(٥) تفسير الطبري : ١٢٣/٢٦ ، ولفظ الطبري : « يقول : المحسنون كانوا قليلا ، هذه لمصولة ، ثم استأنف فقال :

(من الليل ما يهجعون) » .

١ وقوله عز وجل : (وبالْأَنْجَارِ هم يستغفرون) ، قال مجاهد ، وغير واحد : يعملون ؛ وقال آخرون : قاموا التيل ؛ وأخروا الاستغفار إلى الأنجار . كما قال تعالى : (وللمستغفرين الأنجار) ، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن . وقد ثبت في الصحيح وغيره عن جماعة من الصحابة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله يتزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين ينثى ثلث الليل الأخير ، فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فاغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر (١) » .

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إنجارا عن يعقوب : أنه قال لبيته : (سوف أستغفر لكم ربى) ، قالوا : أخرهم إلى وقت السحر (٢) .

وفوه : (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) : لما وصفهم بالصلاة ثنتي بوصفهم بالزكاة والبر والصلة ، فقال : (وفى أموالهم حق) ، أى : جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم ، أما السائل فعروف ، وهو الذى ينتدئ بالسؤال ، وله حق ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيعٌ وعبد الرحمن قالا : حدثنا سفيان ، عن مصعب بن محمد ، عن يعلى بن أبي يحيى ، عن فاطمة بنت الحسين ، عن أبيها الحسين بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للسائل حق وإن جاء على فرس (٣) » .
رواه أبو داود من حديث سفيان الثوري ، به : ثم أسنده من وجه آخر عن علي بن أبي طالب (٤) ، وروى من حديث الهرماس بن زياد مرفوعا .

وأما المحروم فقال ابن عباس ، ومجاهد : هو المحارب الذى ليس له فى الإسلام سهم . يعنى لاسهم له فى بيت المال ، ولا كسبه له ، ولا خرفة يثقت منها .

وقالت أم المؤمنين عائشة : هو المحارب (٥) الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه .

وقال الضحاك : هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب ، قضى الله له ذلك .

وقال أبو قلابة : جاء سبل باليمة فلذهب بمال رجل ، فقال رجل من الصحابة : هذا المحروم .

وقال ابن عباس أيضاً ، وسعيد بن المسيب ، وإبراهيم النخعي ، ونافع — عن ابن عمر وعطاء بن أبي رباح : المحروم المحارب .

وقال قتادة ، والزهرى ، المحروم الذى لا يسأل الناس شيئاً ، قال الزهرى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس للمسكين بالطواف الذى ترده القمعة والقمطان ، والتمرّة والعزترتان ، ولكن للمسكين الذى لا يجد غنى يفتيه ، ولا يعطى من له فيصمدق عليه (٦) .

(١) مسند الإمام أحمد من ابن سعد : ٣٨٨/١ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب : « الرغب في العمل والذكر في آخر الليل والإجابة فيه » : ١٧٥/٢ - ١٧٦ .

(٢) انظر تفسير الآية ٩٨ من سورة يوسف : ٣٢٤/٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٠١/١ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الزكاة ، باب : « حق السائل » .

(٥) المحارب — يفتح الراء — : المحروم .

(٦) تفسير الطبري : ١٢٥/٢٦ .

وعلا الحديث قد أئتمه الشيخان في صحيحهما من وجه آخر (١) :

وقال سعيد بن جبير : هو الذي يحيى ، وقد قسم اللحم ، فريضته له (٢) :

وقال محمد بن إسحاق : حدثني بعض أصحابنا قال : كنا مع عمر بن عبد العزيز في طريق مكة [فجاه كلب]
فالتزع عمر كفت شاة فرى بها إليه ، وقال : يقولون : إنه لغرور ..

وقال الشعبي : أحياني أن أعلم ما أغرور ؟

واختار ابن جرير أن الغرور الذي لا مال له يأى سبب كان ، قد ذهب ماله ، سواء كان لا يقدو على الكسب ،
أو قد هلك ماله أو نحوه بأفة أو نحوها (٣) :

وقال الثوري ، عن قيس بن مسلم ، عن الحسن بن محمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية فغنموا ،
فجاه قوم لم يشهدوا الغنمة فنزلت هذه الآية : (وفي أموالهم حق السائل والمغرم) (٤) .

وهذا يقتضي أن هذه مدنية ، وليس كذلك ، بل هي مكة شاملة لما بعدها .

وتوهم : (وفي الأرض آيات للموقنين) ، أى : فيها من الآيات المالة على عظمتها عائلتها وقدرته الباهرة ، مما قد ذرأ فيها
من صنوف النبات والحيوانات ، والمهاد والجبال ، والقفار والأنهار والبحار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما جبلوا
عليه من الإزادات والقوى ، وما بينهم من الفوارق في القول والفهم والحركات ، والسعادة والشقاوة ، وما في تركيهم
من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحتل الذي هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) - قال
قناة : من تفكر في خلق نفسه عرّف أنه إنما خلق وليت مفاصله للعبادة .

ثم قال : (وفي السماء رزقكم) ، يعنى لظفر ، (وما توعدون) ، يعنى الجنة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد .

وقال سفيان الثوري : قرأ واصل الأحمد هذه الآية : (وفي السماء رزقكم وما توعدون) ، فقال : ألا [إلى] أرى رزق
في السماء وأنا أطلبه في الأرض ؟ فدخل غربة فكث ثلاثا لا يصيب شيئا ، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بد وعكته (٥)
من وطب - وكان له أخ أحسن نية منه ، فدخل معه مصاراة ودخلت ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت
بينهما (٦) .

(١) أخرجه في كتاب الزكاة ، انظر البخاري ، باب قوله تعالى : (لا يسألون الناس شيئا) ١٥٤/٢ . ومسلم ،
باب : للمساكين التي لا يجد في ولا يفتن له فيصنف عليه : ٩٥/٣ - ٩٦ . وانظر أيضا : ١٠٧/٤ .

(٢) أى : فبسط عليه قليلا ، ولفرض - يفتح سكوت - العلية القليلة .

(٣) انظر تفسير الطبري : ١٢٦/٢٦ .

(٤) تفسير الطبري : ١٢٥/٢٦ .

(٥) البدوخل : للنتيجة من غرض .

(٦) تفسير الطبري : ١٢٧/٢٦ .

هذا ، وإن ما حدث لوائل الأحمد وأخيه من الله أمين التي يبرؤها الله - سبحانه وتعالى - بمجلس عباده ، لما تطلعت به
قلوبهم ، وليست قاعدة مطردة ، ولا هي مسلك يرضى الإسلام به ، فإن القرآن والسنة يحضنان على العمل والسعي من أجل الموت .

وقوله : (قرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ، يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء ، كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في تنطقكم حين تنطقون ، وكان معاذ رضى الله عنه - إذا حدث بالشئ يقول لصاحبه : إن هذا لحق كما أنك هاهنا .

قال مسدد ، عن ابن أبي عدى ، عن عوف ، عن الحسن البصرى قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قاتل الله أقواماً أقسم لهم أنهم لم يصدقوا » .

ورواه ابن جرير ، عن بندار ، عن ابن أبي عدى ، عن عوف ، عن الحسن ، فذكره مرسل (١) .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١٥﴾ فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿١٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَمْنُنْ بِهِمْ وَأَبْرأُهمْ إِلَهُكُمْ عَالِمٌ ﴿١٨﴾ فَاذْكُرُوا أَزْوَاجَهُمْ فِي صَراةٍ فَصَحَّتْ وُجُوهُهُمْ وَكُنَّ صَاقِلَاتٍ يَخَوِّذُنَّ فِىهِمْ قَالُوا كَذَّبَ إِلَهُكُمُ الَّذِي قَالُوكُمُ لَهُ إِنَّهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٩﴾

هذه القصة قد تقدمت في سورة هود ، « والحجر » (٢) أيضا . وقوله : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين) ، أى : الذين أُرصد لهم الكرامة . وقد ذهب الإمام أحمد وظافة من العلماء إلى وجوب الضيافة للزئيل ، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التزئيل .

وقوله : (قالوا : سلاما ، قال : سلام) ، الرفع أقوى وأثبت من النصب ، فَرَدَّهُ أفضل من التسليم ، ولهذا قال تعالى : (وإذا جئهم بحبوة فتحيرا بأحسن منها أو ردوها) (٣) ، ، فالتخيل اختار الأفضل .

وقوله : (قوم منكرون) ، وذلك أن الملائكة وهم : جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة ، ولهذا قال : (قوم منكرون) .

وقوله : (فراغ إلى أهله) ، أى : انسل خفية في سرعة ، (فجاء بعجل سمين) ، أى : من خيار ماله . وفى الآية الأخرى (فما لبث أن جاء بعجل حنيد) (٤) ، أى : مشوى على الرصف ، (فقربه إليهم) ، أى : أذناه منهم ، (قال : ألا تأكلون ؟) : تَلَطَّفَ في العبارة وعرض حسن .

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمن عليهم أولا فقال : « تأيكم بطعام ؟ » بل جاء به بسرعة وحفاة ، ثم لقي بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل فنى سمين مشوى ، فقربه إليهم ، لم يضعه ،

(١) تفسير الطبري ١ / ١٢٧ .

(٢) انظر : ٤ / ٢٦٤ - ٢٦٧ / ٤٥٨ .

(٣) سورة النعام - آية : ٨٦ .

(٤) سورة هود - آية : ٦٩ .

وقال : اقربوا ، بل وضعه ابن أبيسهم ، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم ، بل قال : (ألا تأكلون ؟) ، على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تفضل وتحسن وتصدق ، فافعل .

وقوله : (فأوجس منهم خيفة) ، هذا عمل على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى ، وهو قوله : (فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ، تكبرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا : لا تخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحك) (١) ، أى : استشرت بهلاكهم ، لتبردهم وعوهم على الله . فعند ذلك بشرتها الملائكة بإصاف ومن وراء إصاف يعقوب . قالت : ياويلنا ، أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب . قالوا : أنعمين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد (٢) . ولما قال هاهنا : (وبشره بغلام عليم) ، فالبشارة له هي بشارته لها ؛ لأن الولد منها ، فكل منهما بُشِّر به :

وقوله : (فأقبلت امرأته في صرة) ، أى : في صرحة عظيمة ورتة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو صالح ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، والثوري ، والسدي ، وهي قولها : (ياويلنا) . (فصكت وجهها) ، أى : خربت يدها على جبينها ، قاله مجاهد وابن سابط (٣) :

وقال ابن عباس : لطمت ، أى تسجعا كما تصعب النساء من الأمر الفريب ، (وقالت : عجوز حق) ، أى : كيف ألد وأنا عجوز ، وقد كنت في حال الصبا حقيا لأجل ؟ (قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم) ، أى : علم بما يستحقون من الكرامة ، حكيم في أقواله وأفعاله :

﴿ قَالَ قَدْ خَطَبْتُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا قَوْمَ مَجْرِمِينَ ﴿٢﴾ لِيُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَمَازَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٤﴾ فَانْتَرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا ذِئْبَانِ يَلْبَسُونَ الْحِذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٧﴾ ﴾

قال الله عز وجل عن إبراهيم - عليه السلام - : (فلما ذهب عن إبراهيم الروح ، وجاءته البشري فباد لنا في قوم لوط . إن إبراهيم خليل أولاد منيب ، يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود) (٤) . وقال هاهنا : (قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟) ، أى : ما شأنكم وفيهم جنم ؟ (قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) ، يعنون قوم لوط ، (لترسل عليهم حمارة من طين . مسومة) ، أى : مملوئة (عند ربك للمسرفين) ، أى : مكنته عنده بأفعالهم ، كل حجر عليه اسم صاحبه ، فقال في سورة النكوب : (قال : إن فيها لوطا ، قالوا : نحن أعلم بمن

(١) سورة هود : آية ٧٠ - ٧١ .

(٢) سورة هود : آية ٧٢ - ٧٣ .

(٣) تفسير الطبري : ١٢٩ / ٢٦ .

(٤) سورة هود : الآيات ٧٤ - ٧٦ .

فيها ، لتنجيته وأهله إلا أمرته كانت من الغابرين (١) . وقال هاهنا : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) ، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ، (لما وجدنا فيها عبر بيت من المسلمين) . احتج بهذه من ذهب إلى رأى المعتزلة ، بمن لا يفرق بين معنى الإيمان والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين . وهذا الاستدلال ضعيف ، لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الإيمان هاهنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك في كل حال .

وقوله : (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) ، أى : جعلناها عبرة ، لا أنزلنا بهم من العذاب والتكال وحجارة السجبل ، وجعلنا محلهم خيرة متنتة خيئة ، ففى ذلك عبرة للمؤمنين ، (الذين يخافون العذاب الأليم)

وَفِي مَوْجٍ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَحَرُ أَوْ يُجْنُونَ ﴿١٦﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٧﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿١٨﴾ مَا تَدْرُونَ فِيَّ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْسِ ﴿١٩﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٠﴾ فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَمْظُرُونَ ﴿٢١﴾ لَّا أَسْأَلُكُمْ مِنْ قِبَالِهِمْ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَوْمٌ نَّوْجٌ مِنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى : (وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) ، أى : بدليل باهر وحجة قاطعة ، (فتولى بركنه) ، أى : فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكبارا وعتادا .

وقال مجاهد : تنزز بأصحابه . وقال قتادة : غلب عدو الله على قومه . وقال ابن زيد : (فتولى بركنه) ، أى : يجمعه إلى معه ، ثم قرأ : (لو أنى بك قوة أو أوى إلى ركن شديد) (٢) .

والمعنى الأول قوى كقوله : (ثاقى عطفه ليضل عن سبيل) الله (٢) ، أى : مرضى عن الحق مستكبر . (وقال ماحر

أو مجنون) ، أى : لا تخلو أمرك فيما جئنى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا ، قال الله تعالى : (فأخذناه وجنودنا فنبذناهم) ، أى : ألقيناهم فى اليم ، وهو البحر ، (وهو ملِيم) ، أى : وهو ملوم كافر لجاحداً ظهير معاند .

ثم قال : (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) ، أى : المفسدة التى لا تنتج شيئا . قاله الصحاك ، وقطادة ، وضربا ؛ ولهذا قال : (ما تدرى فى) أنت عليه) ، أى : بما تسدده الريح (إلا جعلته كالرسم) ، أى : كالشيء المالك البالى ؛ وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبيد الله (ابن أنس) ابن وهب ، حدثنا عيسى عبد الله بن وهب ، حدثنى عبد الله بن يعقوب ابن عياش القشيبانى ، حدثنى عبد الله بن سليمان ، عن ذرّاج ، عن عيسى بن هلال الصديقى ، عن عبد الله بن عمرو

(١) سورة المائدة : آية : ٢٧ .

(٢) تفسير الطبري : ٢/٢٨ .

(٣) سورة الحج : آية : ٩ .

قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الريح مسخرة من الثانية - يعنى من الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً هلك عاداً ، قال : أى ربّ ، أرسل عليهم الريح فدمر منثور الثور ٢ قال له الجبار : لا ، إذا تكفأ الأرض ومن عليها ، ولكن أرسل بقدر خاتم . هى التى يقول الله فى كتابه : (ماتلو من شئ أنت عليه إلا جعلته كالرّم) . »

هذا الحديث رفعه منكر ، والأقرب أن يكون موقوفاً على عبد الله بن عمرو ، من زاملته (١) اللتين أصبحا يوم البرموك . والله أعلم .

قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله : (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) ، قالوا : هى الجنب (٢) . وقد ثبت فى الصحيح من رواية شعبة ، عن الحكم ، عن حماد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « نصرت بالعصا ، وأهلكت عاد بالديور (٣) » .

(وفى لجه إذ قيل لهم : تمسوا حتى حين) ، قال ابن جزير : يعنى إلى وقت فناء آجالكم (٤) .

والظاهر أن هذه كقولهم : (وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الموت) (٥) . وهكنا قال هاجتا : (وفى ثمود إذ قيل لهم : تمسوا حتى حين . فتمتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) . وذلك أنهم ينتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم فى صبيحة اليوم الرابع بكثرة النهار ، (فما استطاعوا من قيام) ، أى : من هرب ولا نجوى ، (وما كانوا مستترين) ، أى : ولا يفلحون على أن يتتبرروا بما هم فيه .

وقوله : (فقوم نوح من قبل) ، أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ، (لأنهم كانوا قومًا فاسقين) . وكل هذه القصص قد تقدمت مبسطة فى أماكن كثيرة ، من سور متعددة .

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿١٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ ﴿١٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ زَوْجَيْنِ لِكُلِّ ذَكَرٍ ﴿١٩﴾ فَفَرَوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ لَنذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ لَمُنْذِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾

يقول تعالى منها على خلق العالم العلوى والسفلى : (والسما بيناها) : أى : جعلناها سقفا رفيعا (بأيم) : أى : بقوة ، قاله ابن عباس ، وجماد ، وقادة ، والثورى ، وغير واحد . (وإنا لموسعون) : أى : قد وسعنا أرجاءها ورفعتها بغير عسك ، حتى استقلت كما هى ، (والأرض فرشناها) : أى : جعلناها فراشا للمخلوقات ، (فنعلم للماهدون) ، أى :

(١) الزاملة : الحجر الذى يحمل عليه الطعام والشراب . وانظر : ١٨٨/٥ .

(٢) تفسير الطبرى : ٤/٢٨ .

(٣) تقدم الحديث منه تفسير الآية التاسعة من سورة الأعراف ، وخرجناه هناك ، انظر : ٣٨٥/٦ .

(٤) لم يجد هذا القول فى تفسير الطبرى ، ويبدو أنه قد وقع فيه سقط .

(٥) سورة فصلت ، آية : ١٧ .

وحملناها مهذا لأهلها ، (ومن كل شيء خلقنا زوجين) ، أى : جميع مخلوقات أزواج : مياه وأرض ، وليل ونهار ، ونحس ونفس ، وبر وبشر ، وصباح وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات والنباتات . ولهذا قال : (لعلمكم تذكرون) ، أى : تعلموا أن الملائكة واحد لا شريك له ، (ففروا إلى الله) ، أى : الجأوا إليه ، واعتمدوا فى أموركم عليه ، (إني لكم منه نذير مبين) ، (ولا تجعلوا مع الله نداً) ، أى : لا تشرکوا به شيئاً ، (إني لكم منه نذير مبين) .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿١﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَافُونَ ﴿٢﴾ فَتَوَلَّوْهُمْ قُلُوبُ مَا أَتَى اللَّهُ مِنَ الْبَاطِلِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَذَكَرَ فَإِنْ يَكْفُرْ تَتَّعِجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴿٥﴾ مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُعْبُدُونِ ﴿٦﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٧﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنْ ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى مسلينا نبيه - صلى الله عليه وسلم - : وكما قال لك هؤلاء للشركون ، قال المكلبون الأولون لرسلهم : كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون ! . قال الله تعالى : (أتواصوا به ؟) ، أى : أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ؟ بل هم قوم طافون) ، أى : لكن هم قوم طغاة ، تشابه قلوبهم ، فقال بلغهم كما قال متقدمهم . قال الله تعالى : (فتول عنهم) ، أى : فأعرض عنهم يا محمد ، (فما أنت بملوم) ، أى : فما نلوك على ذلك ، (وذَكَرَ فَإِنْ يَكْفُرْ تَتَّعِجُ الْمُؤْمِنِينَ) ، أى : إنما تتعجب بها القلوب المؤمنة .

ثم قال : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، أى : إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي ، لا لأحياهم إليهم ؟ وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (إلا ليعبدون) ، أى : إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرها . وهذا اختيار ابن جرير (١) .

وقال ابن جرير : إلا ليعرفون . وقال الربيع بن أنس : (إلا ليعبدون) ، أى : إلا لعبادة . وقال السدي : من العبادة ما ينفع زمنها ما ينفع ، لا ولن سألتهم : من خلق السموات والأرض ؟ يقولون : الله) ، هذا منهم عبادة ، وليس يتبعهم مع الشرك . وقال الضحاك : المراد بذلك المؤمنون .

وقوله : (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) - قال الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد نالا : حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود قال : أقرأت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إني لأنا الرزاق ذو القوة المتين) (٢) .

(١) تفسير الطبري : ٨/٢٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤١٤١ : ٤٣ .

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث إسرائيل، وقال الترمذي: «حسن صحيح» (١).

ومعنى الآية أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب. وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم. فهو خالقهم ورازقهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد الله، حدثنا عمران - يعني ابن زائدة بن نسيب - عن أبيه، عن أبي خالد - هو الوالي - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قال الله: «يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي مملأاً مني، وأسد فرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فرك» (٢).

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، وقال الترمذي: «حسن غريب» (٣).

وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبي معاوية، عن الأعمش، عن سلام أبي شرحبيل، سمعت حبة وسواه ابني خالد يقولان: أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعمل عملاً - أو يبنى بناءً - وقال أبو معاوية: يصلح شيئاً - فأعناه عليه، فلما فرغ دعا لنا وقال: «لا تأسأ من الرزق ما تهزرت وموسكا، فإن الإنسان قلده أنه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يعطيه الله ويرزقه» (٤). وفي بعض الكتب الإلهية (٥): يقول الله تعالى: «ابن آدم، خلقتك لعبادتي فلا تلعب. وتكفلت برزقك فلا تلعب. فاطلبني تجلني، فإن جئتني وجدت كل شيء، وإن فُتكت فأتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء» (٦).

وقوله: «فإن للذين ظلموا دنيا» أي: نصيباً من العذاب، (مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون)، أي: فلا يستعجلوا ذلك، فإنه واقع لامحالة (فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون)، يعني يوم القيامة.

آخر تفسير سورة النازعات

-
- (١) تحفة الأحقاف، أبواب القراءات، الحديث ٤٠١٠ : ٣٦١/٨ .
 - (٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٥٨ .
 - (٣) تحفة الأحقاف، أبواب صفة القيامة، الحديث ٢٠٨٤ : ١٦٦/٧ - ١٦٧ . وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ما به
 - الم بالدين، الحديث ٤١٠٤ : ١٣٧٦/٢ .
 - (٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأربعين من سورة الروم، وعرجناه هناك، ودرسنا غريبه، انظر: ٣٢٥/٦ .
 - (٥) ما بين قوسين من الطبقات السابقة، ومكانه يوافق في المخطوطة .

تفسير سورة الطور

وهي مكية

قال مالك عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في المغرب بالطور ، فلما سمعت أحدا أحسن صوتا - أو : قراءة - متعرا (١) .

آخر جاء من طريق مالك . وقال البخاري :

حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك ، عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ، عن عروة ، عن زينب بنت أبي سلمة ، عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أني أشتكي ، فقال : « طوي من وراء الناس وأنت راجية » . فلفقت ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصل إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالطُّورُ ۝ وَكِتَابٌ مَّسْطُورٌ ۝ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝ وَاللَّيْلِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالنَّجْمِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالْبَحْرِ الْمَرْفُوعِ ۝ وَالنَّجْمِ الْمَعْمُورِ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝ يَوْمَ تَحْمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝ وَنَسِيرُ الْجِبَالِ صِيرًا ۝ قَوْلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي غَوْضٍ يَعْلَمُونَ ۝ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى تَارِجِهِمْ ذُنَا ۝ هُنَالِكَ نُنَارُ أَلْبَانٍ كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۝ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة : أن علابه واقع بأعدائه ، وأنه لا دافع له عنهم . قال الطور هو : الجبل الذي يكون فيه أشجار ، مثل الذي كلم الله عليه موسى ، وأرسل منه عيسى . وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً ، إنما يقال له : جبل (وكتاب مسطور) ، قيل : « هو اللوح المحفوظ . وقيل : الكتاب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً ، ولهذا قال : (في رَقٍّ مَنْشُورٍ - والليالي المعمر -) ثبت في الصحيحين (٣) أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال في حديث الإسراء بعد عاوزه إلى السماء السابعة : « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفاً لا يهودون إليه آخر ما عليهم » . يعني يتعبدون فيه ويظفرون به ، كما يظفرون أهل الأرض بكميتهم . كذلك ذلك البيت ، هو كعبة أهل السماء السابعة . ولهذا وجد إبراهيم الخليل - عليه السلام - مستنداً ظهره إلى البيت المعمور ، لأنه رأى الكعبة الأرضية ، والجزء

(١) البخاري ، كتاب الأذان ، باب « الجهر في المغرب » : ١٩٤/١ ، وتفسير سورة الطور : ١٧٥/٦ . ومسلم :

كتاب الصلاة ، باب « القراءة في الصبح » : ٤١/٢ .

(٢) البخاري ، تفسير سورة الطور : ١٧٤/٦ - ١٧٥ .

(٣) تقدمت أحاديث الإسراء أول سورة الإسراء ، وغير ذلك من أنظر : ٤٣ - ٤٥ .

من جنس العمل ، وهو عيال الكعبة ، وفي كل ساء بيت يتعد فيه أهلها ، ويصلون إليه ، والى في الساء الدنيا يقال له : بيت العزة . والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد بن مسلم ^(١) ، حدثنا روح بن جتنح ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « في الساء [السابعة] بيت يقال له : للعمور ، عيال الكعبة ، وفي الساء الرابعة نهر يقال له : الحيران ، يدخله جبريل كل يوم ، فينمى فيه انفاضة ، ثم يخرج فينفض انفاضة نحر ^(٢) » عنه سبعون ألف قطرة ، خلق الله من كل قطرة ملكا يؤمرون أن يأثروا البيت المعمور ، فيصلوا فيه فيعلمون ، ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبدا ، ويؤتى عليهم أحدهم ، يؤمر أن يقف بهم من الساء موقفا يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة .

هذا حديث غريب جدا ، تفرد به روح بن جتنح هذا ، وهو القرشي الأموي مولاهم أبو سعد ^(٣) الدمشقي ، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم : الجوزجاني ، والمثبلي ، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري ، وغيرهم - قال الحاكم : لا أصل له من حديث أبي هريرة ، ولا سعيد ، ولا الزهري .

وقال ابن جرير : حدثنا هناد بن السري ، حدثنا أبو الأحوص ، عن سيبك بن حرب ، عن خالد بن حرفة : أن رجلا قال لعل : ما البيت المعمور ؟ قال : بيت في الساء يقال له : الضراح ، وهو عيال الكعبة من فوقها ، حرمة في الساء كحرمة البيت في الأرض ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ، لا يعودون فيه أبدا ^(٤) .

وكذا رواه شعبة وسفيان الثوري ، عن مياك . وعندهما أن بن الكوا هو السائل عن ذلك : ثم رواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن علقم بن خنم ، عن زائدة ، عن حاصم ، عن علي بن ربيعة قال : سأل ابن الكوا عليا عن البيت المعمور ، قال : مسجد في الساء يقال له : الضراح ، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ، ثم لا يعودون فيه أبدا ، ورواه من حديث أبي الطفيل ، عن علي بن عتبة .

وقال المعنى ، عن ابن عباس : هو بيت حذاء العرش ، تعمره الملائكة ، يصلى فيه كل يوم ^(٥) سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه . وكذا قال عكرمة ، وبجاهد والربيع بن أنس ، والسدي ، وغير واحد من السلف .

وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يوما لأصحابه : « هل تدرون ما البيت للعمور ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه مسجد في الساء عيال [الكعبة] ^(٦) » ، لو خرج نحر عليها ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم .

(١) كذا ، وفي ميزان الاعتدال ٧/٢ : « يخرج منها سبعون ... »

(٢) في المخطوطة : « أبو سعيد » . والمثبت عن ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١٩١/٢/١ .

(٣) تفسير الطبري ١٠/٢٨ .

(٤) في المخطوطة : « كل ليلة » . والمثبت عن تفسير الطبري ، والطبقات السابقة .

(٥) في المخطوطة : « عيال البيت » . وفي تفسير الطبري : « تحت الكعبة » .

وَوُضِعَ الْقَصْحَاكُ أَنَّهُ يَمْعَرُهُ مَلَائِكَةٌ يُقَالُ لِمِ الْخَنْ (١) ، مِنْ قَبِيلَةِ إِبِلَاسَ (٢) ، قَالَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ ؛ وَقَوْلُهُ : (وَالسَّقْفُ الْمَرْفُوعُ) — قَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ ، وَشَجْعَةٌ ، وَأَبُو الْأَحْوَصِ ، عَنْ سَيْبٍ . عَنْ خَالِدِ بْنِ مَرْحُورَةَ ، عَنْ عَلِيٍّ : (وَالسَّقْفُ الْمَرْفُوعُ) ، بَنِي . السَّيَاء . قَالَ سَفِيَانُ : ثُمَّ تَلَا : (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَرْفُوعًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ) ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ ، وَكَثَادَةُ ، وَالسُّدِّيُّ ، وَابْنُ جُرَيْجٍ ، وَابْنُ زَيْدٍ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ .

وَقَالَ الرَّيِّعُ بْنُ أَنَسٍ : هُوَ الْعَرْشُ . يَعْنِي أَنَّهُ سَقْفٌ لِجَمِيعِ الْخَلْقَاتِ ، وَلَهُ أَتْيَادٌ ، وَهُوَ يُرَادُّ مَعَ غَيْرِهِ كَمَا قَالَ الْجَمْهُورُ وَقَوْلُهُ : (وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ) — قَالَ الرَّيِّعُ بْنُ أَنَسٍ : هُوَ الْمَاءُ الَّتِي تَحْتَ الْعَرْشِ ، الَّتِي يَتَزَلُّ مِنْهُ الْمَطَرُ الَّتِي يَحْيِي بِهَا الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا يَوْمَ مَعَادِهَا . وَقَالَ الْجَمْهُورُ : هُوَ هَذَا الْبَحْرُ . وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ الْمَسْجُورُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْمُرَادُ أَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَارَا كَقَوْلِهِ : (وَلِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ) (٣) ، أَيْ : أُضْرِمَتْ غَضَبٌ تَارَا تَأْجُجٌ ، غَيْطَةٌ بِأَهْلِ الْمَوْقِفِ . رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ ، عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَبِهِ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبِيدٍ ابْنُ عَصَمٍ ، وَغَيْرُهُمْ .

وَقَالَ الْعَلَاءُ بْنُ يَدْرِ : لِأَنَّمَا سُمِّيَ الْبَحْرُ الْمَسْجُورُ لِأَنَّهُ لَا يُشْرَبُ مِنْهُ مَاءٌ ، وَلَا يَسْقَى بِهِ زَرْعٌ ، وَكَذَلِكَ الْبَحَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّهَا رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : (وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ) ، يَعْنِي : الْمُرْسَلُ . وَقَالَ كَثَادَةُ : الْمَسْجُورُ : الْمَلُوءُ . وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ (٤) . وَوَجَّهَهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ مَوْقِلًا الْيَوْمَ فَهُوَ عَلَوُهُ .

وَقِيلَ : لِلرَّادِّ بِهِ الْقَارِغُ ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ ، عَنْ أَبِي حُرَيْرَةَ بْنِ الْعَلَاءِ ، عَنْ خُذِلَةَ الرُّمَةِ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ) ، قَالَ : الْقَارِغُ ، خَرَجَتْ أُمَّةٌ تَسْتَقْفِي فَرَجِعَتْ فَقَالَتْ : «إِنَّ الْحَوْضَ مَسْجُورٌ» ، تَعْنِي : فَارِطًا . رَوَاهُ ابْنُ مَرْثُودٍ فِي مِصْنَدِهِ الشَّعْرَاءِ :

وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْمَسْجُورِ الْمُنْعَوِ الْمَكْفُوفِ عَنِ الْأَرْضِ لِتَلَا يَنْعَمُهَا فَبُغِرَ قِيَامُهَا : قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِحَةَ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَبِهِ يَقُولُ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ ، وَهَلِيبُ يَدُلُّ الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ أَنَّهُ قَالَ :

حَدَّثَنَا يَزِيدُ ، حَدَّثَنَا الْحَوَامُ ، حَدَّثَنِي شَيْخٌ كَانَ مَرَابِطًا بِالسَّاحِلِ قَالَ : لَقِيتُ أَبَا صَالِحٍ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ : حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — قَالَ : «لَيْسَ مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا وَالْبَحْرُ يُشْرِفُ فِيهَا ثَلَاثَ مَرَاتٍ» ، يَسْتَأْذِنُ اللَّهُ أَنْ يَنْفَضِحَ (٥) عَلَيْهِمْ ، فَيَكْفَهُهُ اللَّهُ حَزْوَ وَجَلٍ (٦) ،

وَقَالَ الْخَلِيفَةُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَفِيَانَ ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوِيَةَ ، عَنْ يَزِيدَ — وَهُوَ ابْنُ هَارُونَ — عَنْ الْعَوَامِ ابْنِ حَرْشَبٍ ، حَدَّثَنِي شَيْخٌ مَرَابِطٌ قَالَ : خَرَجْتُ لَيْلَةَ الْحَرَسِ لَمْ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنَ الْحَرَسِ غَيْرِي ، فَأَتَيْتُ الْبَيْتَ فَصَعِدْتُ ، فَجَعَلَ

(١) فِي الْخَطِّ الْمَوْقِفِ : «الْخَنْ» ، بِالْجَمْعِ . وَقَدْ أَوْضَحْنَا أَنَّهَا بِالْخَاءِ . انظر : ١٠٧/١ . وتعليقنا هناك .

(٢) تَقْسِيرُ الطَّبَرِيِّ : ١١/٢٧ .

(٣) سُورَةُ التَّكْوِيْنِ : آيَةٌ : ٦ .

(٤) تَقْسِيرُ الطَّبَرِيِّ : ١٢/٢٧ .

(٥) أَيْ : يَتَذَقُّ عَلَيْهِمْ وَيَسْلُبُ .

(٦) حَسَنَةُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ : ٢٤/١ .

يُخِلُّ إِلَى أَنْ الْبَحْرَ بِشَرْفٍ مَعَادَى رَعُوسِ الْجِبَالِ ، فَعَلَّ ذَلِكَ مَرَارًا وَأَنَا مُسْتَقِظٌ ، فَلَقِيتُ أَبَا صَالِحٍ فَقَالَ : حَدَّثَنَا هَرَبُ بْنُ
الْغَطَابِ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « مَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا وَالْبَحْرُ بِشَرْفٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَسْتَاذِنُ اللَّهُ أَنْ يَنْعَصِبَ
عَلَيْهِمْ ، فَيَكْفِهَهُ اللَّهُ هَرَجًا وَجَلًّا » . فِيهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ لَمْ يَسْمَعْ .

وقوله : (إِنْ عَذَابُ رِيكٍ لَوَاقِعٌ) ، هَذَا هُوَ الْقِسْمُ عَلَيْهِ ، أَيْ : الْوَاقِعُ بِالْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : (مَا لَهُ
مِنْ دَافِعٍ) ، أَيْ : لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ ذَلِكَ .

فَالْخَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا : حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ دَاوُدَ ، عَنْ صَالِحٍ اللَّزُّزِيِّ ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدٍ الْعَبْدِيِّ
قَالَ : خَرَجَ هَرَبُ بِعَسَى الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَمَرَّ بِدَارِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَوَاقَهُ فَأَتَمَّا يَصِلُ ، فَوَقَّفَ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ فَقَرَأَ :
(وَالطُّورُ) حَتَّى بَلَغَ : (إِنْ عَذَابُ رِيكٍ لَوَاقِعٌ) ، قَالَ : قَسَمْتُ - وَبِالْكَتْمَةِ - حَقِّي . فَتَزَلَّ عَنْ حِجَارِهِ
وَأَسَدَ إِلَى حَائِطٍ ، فَكَيْتَ مَلِيًّا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَنَزَلِهِ ، فَكَيْتَ شَهْرًا يَبُودُهُ النَّاسُ لَا يَدْرُونَ مَا مَرَّضَهُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وقال الإمام أبو حنيفة في « فُتُوحِ الْقُرْآنِ » : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ حَسَنٍ ، عَنْ الْحَسَنِ : أَنَّ هَرَبَ
قَرَأَ : (إِنْ عَذَابُ رِيكٍ لَوَاقِعٌ) ، فَرَأَتْهَا رُتُوبَةُ (١) ، حَبِطَتْ مِنْهَا عَشْرِينَ يَوْمًا (٢) ،

وقوله : (يَوْمَ تَمُوتُ السَّمَاءُ مَوْرًا) - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَتَعَادَتْ : تَتَحَرَّكُ تَحْرِيكًا . وَهَرَبُ بْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ شَقِيقُهَا ، وَقَالَ جَاهِدٌ :
تَلَوَّرَ دُورًا . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : اسْتَدْرَجَهَا وَتَحَرَّكَهَا لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَوَجَّعَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ . وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّهُ اتَّحَرَّكَ فِي
الْإِسْتِدْرَاجِ . قَالَ وَأَشْدُّ أَبُو حَبِيبَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى بَيْتَ الْأَعْمَشِيِّ :

كَانَ مَحِيطَتِهَا مِنْ بَيْتِ جِبَارِكُهَا مَوْرًا سَحَابِيَّةً ، لَا رَيْتَ وَلَا عَجَلَ (٣)

(وَتُسَبَّرُ الْجِبَالُ سَبْرًا) ، أَيْ : تَذْهَبُ قَصِيرَ هَبَاءٍ مُنْبَظٍ ، وَتَتَسَفَّ نَفْسًا ، (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) ، أَيْ : وَبِئْسَ
لَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَكَالِهِ بِهِمْ ، وَعَقَابُهُ لَهُمْ ، (الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْصٍ يَلْعَبُونَ) ، أَيْ : هُمْ فِي الدُّنْيَا يَخُوضُونَ فِي
الْبَاطِلِ ، وَيَتَخَلَّوْنَ دِينَهُمْ هُزْوَا وَلَعِبًا ، (يَوْمَ يَكْدُحُونَ) ، أَيْ : يَدْفَعُونَ وَيَسَاقُونَ (إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَهًّا) . وَقَالَ جَاهِدٌ ،
وَالشَّعْبِيُّ ، وَحَمْدُ بْنُ كَعْبٍ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَالسُّدِّيُّ ، وَالثَّوْرِيُّ : يَدْفَعُونَ فِيهَا دَفْعًا : (هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْلِفُونَ) ،
أَيْ : تَقُولُ لَمْ يَزَلْنَا بِذَلِكَ قَرِيبًا وَتَرِييْخًا ، (أَفَسْخَرُوا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ) ، أَيْ : ادْخُلُوهَا فَادْخُلُوا مِنْ تَفْعَرَةٍ
مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، (فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَاكُمْ) ، أَيْ : سَوَاءٌ صَبَرْتُمْ عَلَى عَذَابِهَا وَنَكَالِهَا أَمْ لَمْ تَصْبِرُوا ، لَا يَحِيدُ لَكُمْ
عَنْهَا وَلَا خَلَّاصٌ لَكُمْ مِنْهَا ، (إِنَّمَا تَجَزُّونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) ، أَيْ : وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ أَحَدًا ، بَلْ يَجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : دِهَانًا رِيوِيَّةً ، بِالْهَاءِ ، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا ذَكَرْتَهُ ، وَدَعَا : أَيْ خَطًا ، وَقَفَّزَ .

(٢) أَخْرَجَهُ السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرَرِ الْمَشْهُورَةِ عَنْ أَبِي حَبِيبَةَ : ١١٨/٦ ..

(٣) تَفْسِيرُ الْبُخَارِيِّ : ١٣/٢٧ ، وَجَازَ الْقُرْآنُ لِأَبِي حَبِيبَةَ : ٢٣١/٢ ، وَدِيوَانُ الْأَعْمَشِيِّ : ط بَيْرُوت : ١٤٤ ، عَلَى

نِ الْبُخَارِيِّ ، « مَرَّ السَّحَابُ » . وَمَعْنَاهُ فِي عَطْلَةِ الْأَمْرِ ، وَلَا يَقْرَأُ بِمَعْنَى الْإِسْتِجَابَةِ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٧﴾ فَيَرْكَبُونَ عَلَى الْأَشْجَارِ وَأَنْهَارٍ رَّيِّحٌ مِنْهُمُ ذَرْبُ عَذَابٍ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مَسْكُونٌ عَلَى سُرٍّ مَصْفُوفَةٍ ﴿٢٠﴾ وَزَوْجُهُمْ يُحَورِيهِمْ ﴿٢١﴾

يُحَرِّى تَعَالَى عَنْ حَالِ السَّعَادَةِ فَقَالَ : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) ، وَذَلِكَ بِضَدِّ مَا أَوْلَتْكَ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْكَالِ ، (فَارْكَبُونَ عَلَى الْأَشْجَارِ) ، أَيْ : يَشْكُرُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النِّعَمِ ، مِنْ أَصْنَافِ الْمَلَأَ ، مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَسَاكِينٍ وَمَرَاقِبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، (وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) ، أَيْ : وَقَدْ نَجَّاهُمْ مِنَ عَذَابِ النَّارِ ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بِلَدَائِهِمْ عَلَى جِدَّتِهِمْ مَا أَضْيَفَ إِلَيْهَا مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ ، الَّتِي فِيهَا مِنَ السُّرُورِ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ ،

وَقَوْلُهُ : (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ، كَقَوْلِهِ : (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) ، أَيْ : هَلَا بِذَلِكَ ، تَفَضُّلاً مِنْهُ وَإِحْسَانًا .

وَقَوْلُهُ : (مَسْكُونٌ عَلَى سُرٍّ مَصْفُوفَةٍ) ، قَالَ الثَّوْرِيُّ ، عَنْ حَصْبَنٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : السُّرُّ فِي الْحِجَابِ ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو : أَنَّهُ سَمِعَ الْعَلَاءِيَّ يَقُولُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَبَّرُ الْمُسْكَاةَ مَقْدَارَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا يَدْخُلُ مِنْهُ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ ، يَأْتِيهِ مَا ابْتِغَتْهُ نَفْسُهُ وَلَمَّا تَبَيَّنَتْ) .

وَحَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا هُدَيْبُ بْنُ خَالِدٍ ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، عَنْ ثَابِتٍ قَالَ : بَلَغْنَا أَنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَبَّرُ فِي الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً ، عَنْهُ مِنْ أَزْوَاجِهِ وَخَدَمِهِ وَمَا أُعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالنِّعَمِ ، فَإِذَا حَانَتْ مِنْهُ نَفَرَةٌ فَإِذَا أَزْوَاجُ لَهُ لَمْ يَكُنْ وَهْمٌ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَيَقُولُ : قَدْ كَانَ لَكَ أَنْ تَجِبَلَ لَنَا نَعْسِيَا .

وَمَعْنَى (مَصْفُوفَةٍ) ، أَيْ : وَجْهَهُمْ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، كَقَوْلِهِ : (عَلَى سُرٍّ مُتَابِلِينَ) (١) : (وَزَوْجُهُمْ يُحَورِيهِمْ) ، أَيْ : وَجِبَالُهُمْ قَرِينَاتٌ صَالِحَاتٌ ، وَزَوْجَاتٌ حَسَنَاتٌ مِنَ الْخُورِ الْبَيْنِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : (وَزَوْجُهُمْ) : أَنْكَحْتَهُمْ يُحَورِيهِمْ ، وَقَدْ تَبَدَّلَتْ وَصَفُهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ بِمَا أَفْنَى مِنْ إِهَادَتِهِ .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢٢﴾ وَأَمْدَدْنَاهُمْ نَهْرًا مَسْكُونًا ﴿٢٣﴾ يَنْتَزِعُونَ مِنْهُ لَبَنٌ كَأَنَّكَ كَاسٌ تَذُوقُهَا وَلَا تُغَيَّرُ ﴿٢٤﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلْفًا لَهُمْ مَا أَشَاءُوا ﴿٢٥﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيهِ أَهْلًا مُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ قُلْ اللَّهُ عَلِيمٌ وَوَقَدْ عَلِمْنَا عَذَابَ الْعَذَابِ ﴿٢٨﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴿٢٩﴾

يُحَرِّى تَعَالَى عَنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ ، وَأَمَاتَانَهُ وَلَقَدْ حَقَّقَهُ وَإِحْسَانَهُ : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اتَّبَعَهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ يَكْتَفِيهِمْ بِأَبَائِهِمْ فِي الْمُنْتَرَةِ وَإِنْ لَمْ يَلْفُوا عَمَلَهُمْ ، لَنَقَرَّ أَعْيُنُ الْأَبَاءِ بِالْأَبْنَاءِ عَنْهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ ، فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الرُّجُوعِ ، يَأْنِ يَرْجِعُ

التقصي العمل بكامل العمل ، ولا يتقصي ذلك من عمله ومثله ، لتساوى بينه وبين حاك ، ولهذا قال : (ألقنناهم ذرياتهم (١) وما ألقنناهم من عملهم من شيء) ٤ .

قال الثوري ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجاته ، وإن كانوا دونه في العمل ، لتقريبهم عنه ثم قرأ : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم (١) بإيمان ، ألقنناهم ذرياتهم (١) وما ألقنناهم من عملهم من شيء) .

رواه ابن جرير (٢) وابن أبي حاتم من حديث سفیان الثوري ، به . وكلنا رواه ابن جرير من حديث شعبة عن عمرو ابن مرة به . ورواه الزار ، عن سهل بن بحر ، عن الحسن بن حماد الوراق ، عن نيس بن الربيع ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد ، عن ابن عباس مرفوعاً ، فذكره ، ثم قال : وقد رواه الثوري ، عن عمرو بن مرة ، عن سعيد ، عن ابن عباس موقوفاً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا العباس بن الوليد بن مزيريد (٣) البرقي ، أخبرني محمد بن شبيب (٤) أخبرني شيان ، أخبرني ليث ، عن حبيب بن أبي ثابت الأسدي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قول الله عز وجل : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان ألقنناهم ذرياتهم) ، قال : هم ذرية المؤمن ، يعنون على الإيمان : فإن كانت منازل آباؤهم أرفع من منازلهم ألقنوا آباؤهم ، ولم يتقصوا من أعمالهم التي عملوا شيئا .

وقال الحافظ الطبراني : حدثنا الحسين بن إسحاق التستري ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن فروان ، حدثنا شريك ، عن سالم الأندلسي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - أظنه عن النبي صلى الله عليه وسلم - قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يبلغوا درجاتك . فيقول : يا رب ، قد حملتني ولم . فيومر بالحفاهم به ، وقرأ ابن عباس : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان) ... الآية .

وقال اللقي ، عن ابن عباس في هذه الآية : يقول : والذين أدرك ذرياتهم الإيمان فعملوا بطلاعني ، ألقنهم بإيمانهم إلى الجنة ، وأولادهم الصغار تلحق بهم (٥) .

وهنا راجع إلى التفسير الأول ، فإن ذلك مفسر أصح من هذا . وهكذا يقول الشعبي ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وتادة ، وأبو صالح ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، وابن زيد . وهو اختيار ابن جرير . وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد :

(١) كلما في مخطوطة الأزهر ، وهي قراءة أبي عمرو ، انظر البحر المحيط ١٤٩/٨ .

(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٧ .

(٣) في المخطوطة : عن ترجمة العباس في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢١٤/١/٣ - ٢١٥ ، و ترجمة أبيه الوليد في ١٨٢/٢/٤ .

(٤) في المخطوطة : محمد بن شعبة . والمكتبة عن ترجمة العباس بن الوليد في الجرح والتعديل ٢١٥/١/٣ ، و ترجمة شيان بن عبد الرحمن التستري ٣٥٠/١/٢ - ٣٥٦ . وهو محمد بن شبيب بن شاذبور ، انظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢٨٦/٢/٣ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/٢٧ .

حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن محمد بن عثمان ، عن زاذان ، عن جلي قال : سألت بريدة النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ولدتين ماتتا في الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هما في النار » . فلما رأى الكوفة في وجهها قال : « لو رأيت مكانها لأبغضتها » . قالت : يا رسول الله ، فقلدي منك . قال : « في الجنة » . قال : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن وأولاده في الجنة ، وإن المشرك وأولاده في النار » . ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (والذين آمنوا وأتبعناهم فويل لهم عما آلفتناهم فويلهم) (١) .

هذا فضله تعالى على الأبناء بركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء بركة دعاء الأبناء ، فقد قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله ليرفع الدرجة للمبد الصالح في الجنة فيقول : يا رب ، أنى لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » (٢) .

إسناده صحيح ، ولم يخرجوه (٣) . من هذا الوجه ، ولكن له شاهد في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٤) .

وقوله : (كل امرئ بما كسب رهين) ، لا أخبر عن مقام الفضل ، وهو رفع درجة النبية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك ، أخبر عن مقام العدل ، وهو أنه لا يؤخذ أحدا بذنب أحد ، بل (كل امرئ بما كسب رهين) ، أى : مرتين بعمله ، لا بعمل غيره . ذنب غيره من الناس ، سواء كان أباً أو ابناً ، كما قال : (كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون عن المجرمين) (٥) .

وقوله : (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) ، أى : وألحقتهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى ، بما يستطاب ويشتهى .

وقوله : (ينتازحون فيها كأساً) ، أى : يتعاطون فيها كأساً ، أى : من الخمر . قاله الضحاك ،

(لا لغو فيها ولا تأنيب) ، أى : لا يتكلمون فيها بكلام لاغ . أى : هذيان و إنما أى فحش ، كما يتكلم به الشرية من أهل الدنيا .

وقال ابن عباس : اللغو : الباطل . والتأنيب : الكلب .

وقال مجاهد : لا يستنبئون ولا يؤثنون .

(١) تقدم الحديث عنه تفسير الآية الخامسة عشرة من سورة الإسراء ، وعرجته هناك . انظر : ٥٦٧ .

(٢) سنن الإمام أحمد : ٥٠٩/٢ .

(٣) أخرجه ابن ماجة في كتاب الأدب من طريق حماد . انظر كتاب الأدب ، باب « ير الوالدان » ، الحديث ٣٦٦٠ . ١٢٠٧/٢ .

(٤) مسلم : كتاب الوصية ، باب « ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته » ، ٧٢/٥ .

(٥) سورة المائدة ، الآيات ٤٨ - ٥٠ .

وقال فتادة : كان ذلك في الدنيا مع الشيطان (١) .

فتم الله حر الأخرى عن قادوت حر الدنيا وأذاها ، ففنى عنها - كما تقدم - صداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة الثقل ، لكليته . وأخبر أنها لا تصلهم على الكلام السبيء القارح عن القائلة المختصم هكذا ، فحشا ، وأخبر بحس منظرها ، وطيب طعمها ونحيرها . قال : (يشاء الله للشاربين لا فيها غول . هم عنها يتزفون) (٢) ، وقال : (لا يصعدون عنها ولا يتزفون) (٣) ، وقال هاتنا : (يتزفون فيها كالألأغر فيها ولا تأثم) .

وقوله : (ويظوف عليهم غلبان فلم كأنهم لو كثر مكنون) : إخبار عن خد منهم وحس منهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في حسنهم وبهاجم ونظافتهم (٤) وحسن ملايهم . كما قال : (يظوف عليهم ولدان علدون ، يأكواب وأباريق وكللى من معين) (٥) .

وقوله : (وأقبل بعضهم على بعض يتساعلون) ، أى : أقبلوا يتحداثون ويتساعلون عن أخبارهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يحدث أهل الشراب على شرايهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ، (قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) ، أى : قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ريتنا مشفقين من علبه وعقابه ، (فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم) ، أى : فصدق علينا وأجارتنا بما نخاف ، (إنا كنا من قبل ندعوه) ، أى : نتضرع إليه ، فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا ، (إنه هو البر الرحيم) .

وقد ورد في هذا المقام حديث ، رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده فقال : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا سعيد بن دينار . حدثنا الربيع بن صبيح ، عن الحسن ، عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان ، فيبى سرير هذا حتى يجاذى سرير هذا ، فيحدثان ، فيبكى هذا ويتكى هذا ، فيحدثان عما كان في الدنيا ، فيقول أحدهما لصاحبه : يا فلان ، تدرى أى يوم غفر الله لنا ؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعونا الله - عز وجل - فغفر لنا » .

ثم قال الزمزمي : لا تعرفه يروى إلا بهذا الإسناد :

قلت : وسعيد بن دينار الدمشقي قال أبو حاتم : هو مجهول (٦) ، وشيخه الربيع بن صبيح قد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه ، وهو رجل صالح ثقة في نفسه (٧) .

(١) تفسير الطبري : ١٧/٢٧ .

(٢) سورة الصافات ، آية : ٤٦ - ٤٧ .

(٣) سورة الواقعة ، آية : ١٩ .

(٤) في المضربة : « ويهاجم وتتساعلون » . والمتت من التبعات المتابعة .

(٥) سورة الواقعة ، آية : ١٧ - ١٨ .

(٦) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١٨/١٧٣ .

(٧) النظر الجرح والتعديل أيضاً : ٤٦٤/٢٤٦ - ٤٦٥ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن أبي الصبحي ، عن سروق ، عن عائشة : أنها قرأت هذه الآية (فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم) إنا كنا من قبل ندعوه إليه هو إلى الرحيم) ، فقالت : اللهم منّ علينا ووقنا عذاب السموم ، إنك أنت الله الرحيم . قيل للأعمش : في الصلاة ؟ قال : نعم .

فَذَكِّرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا يَجْنُونَ ﴿١٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا أَلَمْ نَقُلْ لَهُمْ أَمْ يَقُولُونَ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿١٦﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَاهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿١٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ قَوْلُهُمْ بَلَى لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ فَلْيَاْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلَهُ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى آمراً برسوله - صلوات الله وسلامه عليه - بأن يبلغ رسالته إلى عباده ، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه : ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والقبور فقال : (فذكر فأنتم بنعمة ربك بكاهن ولا يجنون) : أى : لست بحمد الله بكاهن كما تقولوه الجيلة من كفار قريش ، والكاهن : الذى يأتيه الرثي من الجان بالكلمة يطلقها من خيم السياه (ولا يجنون) : وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس .

ثم قال تعالى منكراً عليهم فى قولهم فى الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - : (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا) : أى : قوارع الدهر . والمنون : الموت : يقولون : ننظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنسريح منه ومن شأنه ، قال الله تعالى : (قل : ترهبوا فإنى معكم من التريبين) : أى : انتظروا فإنى منتظر معكم ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

قال محمد بن إسحاق ، عن عبد الله بن أبي نجيع ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : إن قريشا لما اجتمعوا فى دار الندوة فى أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - قال قاتل منهم : احتبسوه فى وثاق ، لئلا ترهبوا به رب المنون حتى يهلك ، كما هلك من هلك قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، إنما هو كأحدهم . فأنزل الله فى ذلك من قولهم : (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا) : (المنون ؟) (١) .

ثم قال تعالى : (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَاهُمْ بِهِذَا) : أى : قولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها كذب وزور ؟ (أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) : أى : ولكن هم قوم صلال معاندون ، فهذا هو الذى يعملهم على ما قالوه فيك .

وقوله : (أَمْ يَقُولُونَ قَوْلُهُ ؟) : أى : اختلقه واقرأه من عند نفسه ، يعنون القرآن . قال الله : (بل لا يؤمنون) ، أى : كفروهم هو الذى يعملهم على هذه المقالة . (فليأتوا بحديث مثله إنا كانوا صادقين) : أى : إن كانوا صادقين فى قولهم

« تَفْخَرُ لَهُ وَاتَّخَذَهُ قَلْبًا مِثْلَ مَا جَاءَ بِهِ عَمْدُ مَنْ هَذَا الْقُرْآنُ ، نَاهِيَهُمْ لَوْ اجْتَمَعُوا هُمْ وَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، مَا جَاءُوا مِثْلَهُ ، وَلَا يَهْتَرُ سِوَهُ مِثْلَهُ ، وَلَا سُورَةٌ مِنْ مِثْلِهِ .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَنْخَلِقُونَ ﴿٦٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٦﴾
 أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمَصْيطِرُونَ ﴿٦٧﴾ أَمْ هُمْ سَلَمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ قَلْبَاتٌ مُسْتَمِعَةٌ يُسْمِعُنَ
 مُبِينٍ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكِنَّ الْبَنُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ نَعْلَمُ أجْرَ فَعْمٍ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٧٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
 يَكْتُمُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ ﴿٧٢﴾ أَمْ هُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية ، فقال تعالى : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ؟ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ؟) ، أى : أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ أى : لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً .

فقال البخارى : حدثنا السَّيِّدِيّ ، حدثنا سفيان قال : حدثني عن الزهري ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ؟) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ بل لا يوقنون . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ؟ أَمْ هُمْ الْمَصْيطِرُونَ (١)) كاد قلبي أن يطير (٢) .

وهذا الحديث يخرج في الصحيحين (٣) من طرق ، عن الزهري ، به . وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد وقعة بدر في فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركاً ، وكان يسأله هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على البهول في الإسلام بعد ذلك .

ثم قال تعالى : (أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ بَلْ لَا يُوقِنُونَ) . أى : أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ . وهذا إظهار عليهم في شركهم بالله ، وهم يعلمون أنه الخالق وحده ، لا شريك له . ولكن عدم إيمانهم هو الذى أعملهم على ذلك ، (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمَصْيطِرُونَ ؟) (١) ، أى : أَمْ هُمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمَالِكِ وَيَبْدِعُونَ مَفَاتِيحَ الْخَزَائِنِ ، (أَمْ هُمْ الْمَصْيطِرُونَ ؟) ، أى : المحاسبون للخالق ، ليس الأمر كذلك ، بل الله - عز وجل - هو المالك المتصرف الفعال لما يريد . وقوله : (أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ) ، أى : مراقبة إلى الملأ الأعلى ، (قَلْبَاتٌ مُسْتَمِعَةٌ يُسْمِعُنَ) ، أى : قَلْبَاتٌ التى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحتها من قبيل التعال واللقاء ، أى : وليس لهم سبيل إلى ذلك ، فلبسوا على شيء ، ولا لهم دليل .

(١) كذا في غزوة الأحرار ، ومثله في البخارى . وفي قراءة نسبت في البحر المحيط إلى هشام وقتيل وسفص - بخلاف عنه - وقرأ الجوهري : (المصيطرون) ، بالصاد . وقال أبو حيان : إن قراءة السين هي الأصل ، ومن أهلها صاداً للأجل حرف الاستعلاء ، وهو الطاء . انظر البحر المحيط ١٥٢/٨ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة الطور : ١٧٥/٦ .

(٣) نقدم تخریج الحديث من الصحيحين أول السورة .

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البناات ، وحلهم للملائكة إناثا ، ولختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث ، بحيث إذا بشر أحدهم بالأشئ ظل وجهه مسودا وهو كظيم . هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله . وعبدوهم مع الله . فقال : (أم له البنات ولكم البنون ؟) - وهذا تهيدا شديدا أو وعيدا أكيدا ، (أم تألهم أجرا ؟) أى : أجره على إبلاغكم إياهم رسالة الله ؟ أى : لست تأسلم على ذلك شيئا . (فهم من مغرم مثقلون) ، أى : فهم من أخطئ شيء يتبرمون منه . ويتكلمهم ويشق عليهم ، (أم عندهم الغيب بهم يكتبون) ، أى : ليس الأمر كذلك . فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض النيب إلا الله ، (أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) . يقول تعالى : أم يريد هؤلاء فوهم هذا في الرسول وفي الدين فرور الناس وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وياله على أنفسهم . فالذين كفروا هم المكيدون . (أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون) . وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله . ثم تزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون ، فقال : (سبحانه الله عما يشركون) .

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿١١﴾ فَلَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْعًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُجُومِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى غيرا عن المشركين العناد والكابرة المحسوس : (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا) : أى : عليهم يعلمون به . لما صدقوا ولما أيقنوا ، بل يقولون : هذا (صاحب مركوم) أى : مراكم . وهذه كقوله تعالى : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون) فقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحزون (١) . قال الله تعالى : (هل لهم) ، أى : دعهم - يا محمد - (حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) ، وذلك يوم القيامة ، (يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا) ، أى : لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذى استعملوه في الدنيا ، لا يجندى عنهم يوم القيامة شيئا ، (ولا هم ينصرون) .

ثم قال : (وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك) . أى : قبل ذلك في الدار الدنيا . كقوله : (ولنلقينهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ، لهم يرجعون (٢)) . ولما قال : (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ، أى : نعلمهم في الدنيا . ونبيطهم فيها بالمصائب ، لهم يرجعون ويتبنون ، فلا يفهمون مايراد بهم . بل إذا جئنى عنهم مآكنا توافه ، عادوا إلى أسوأ مآكنا توافه عليه ، كما جاء في بعض الأحاديث : « إن المتأفف إذا مرض وعوفى مثله في ذلك كمثل البعير : لا يدري فيا عصفوه ولا فيا أرسوله (٣) » . وفى الأثر الإلهي : كم أصيبك ولا تعاتبني ؟ قال الله : يا صبدى ، كم أفاطك وأنت لاتدري ؟

(١) سورة الحجر ، آية : ١٤ - ١٥ .

(٢) سورة السجدة ، آية : ٢١ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الجنائز ، المجلد ٣٠٨٩ : ١٨٢/٣ .

وقوله: (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) ، أى : اصبر على أذاهم ولا تسألهم ، فإنك بما رأى مناوحت ككلامنا ، والله يصمك من الناس .

وقوله : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) - قال الفساحك : أى إلى الصلاة : سبحانه اللهم ونعمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جليلك ، ولا إله غيرك (١) .

وقد روى مثله عن الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهما .

وروى مسلم في صحيحه ، عن عمر أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة (٢) ، وزواه أحمد وأهل السنن ، عن أبي سعيد وغيره ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يقول ذلك (٣) .

وقال أبو الجوزة : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) ، أى : من نومك من فراشك واختاره ابن جرير . ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد :

حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني عُمَيْرُ بْنُ هَانِءٍ ، حدثني جندب بن أبي أمية ، حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من تَعَارَ (٤) من الليل قال : لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : رَبِّ اغْفِرْ لِي ، أَوْ قَالَ : ثُمَّ دَعَا - اسْتَجِيبَ لَهُ ، فَإِنْ عَزِمَ فَوْضًا ثُمَّ صَلَّى تَعَبُّتُ صَلَاتَهُ (٥) » .
وأخرجه البخاري في صحيحه ، وأهل السنن ، من حديث الوليد بن مسلم ، به (٦) .
وقال ابن أبي شيبة ، عن مجاهد : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) ، قال : من كل مجلس .

وقال الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) ، قال : إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال : سبحانه اللهم ونعمدك (٧) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم النخعي ، حدثنا محمد بن شعيب ، أخبرني طلحة ابن عمرو الحضرمي ، عن عطاء بن أبي رباح : أنه حدثه عن قول الله : (وسبح بحمد ربك حين تقوم) ، يقول : حين تقوم من كل مجلس ، إن كنت أحسنت ازددت خيرا ، وإن كان غير ذلك كان هذا كفارة له ،

(١) تفسير الطبري : ٢٣/٢٧ .

(٢) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب : ما يجب من قال : لا يجهز بالبسطة : ١٢/٢ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥٠/٣ ، ٦٩ . ونسفة الأحمدي ، أبواب الصلاة ، باب : ما يقول عند افتتاح الصلاة : ٥٠ .
الحديث : ٢٤٢ / ٢ - ٤٧ / ٢ - ٥٠ . والنسائي ، كتاب الافتتاح ، باب : نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة وبين القراءة : ١٣٢ / ٢ .
وسنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب : افتتاح الصلاة ، الحديث : ٨٠٤ : ٢٦٤ / ١ .
(٤) أى : استقبل .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٤١٢ / ٥ .

(٦) البخاري ، كتاب التهجيد ، باب : فصل من تمارن الليل فصل : ٦٨ / ٧ ، ونسفة الأحمدي ، أبواب الدعوات ، باب : ما جاء في الدعاء إذا أُنْتَبِهَ مِنَ اللَّيْلِ : ٣٤٧ : ٣٥٩ / ٩ - ٣٦٠ . وقال الرملي : حسن صحيح غريب .
وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب : ما يدعو به إذا أُنْتَبِهَ مِنَ اللَّيْلِ ، الحديث : ٣٨٧ : ١٢٧٦ / ٢ .

(٧) تفسير الطبري : ٢٢ / ٢٧ - ٢٣ .

وقد قال عبد الرزاق في جامعه : أخرنا معمر ، عن عبد الكريم الجزري ، عن أبي عثمة التميمي : أن جبريل عليه السلام - صلى الله عليه وسلم - إذا قام من مجلسه أن يقول : سبحانك اللهم وعملك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . قال معمر : وسمت غيره يقول : هذا القول كفارة للجاني .

وهذا مرسل ، وقد وردت أحاديث مستندة من طرق - يقوى بعضها بعضا - ملك ، فمن ذلك حديث ابن جريج ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « من جلس في مجلس فكثر فيه لخطئه قال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وعملك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » .

رواه الترمذي - وهذا لفظه - والنسائي في اليوم والليلة ، من حديث ابن جريج . وقال الترمذي : حسن صحيح (١) ، وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال : « إسناده على شرط مسلم ، إلا أن البخاري رحمه الله » (٢) .

قلت : رحمه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو حاتم ، وأبو زرعة ، والدارقطني ، وغيرهم . ونسبوا الزعم فيه إلى ابن جريج . على أن أبانود قد رواه في سننه من طريق غير ابن جريج إلى أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بنحو (٣) . ورواه أبو داود - واللفظ له - والنسائي ، والحاكم في المستدرک ، من طريق الحجاج بن دينار ، عن هاشم ، عن أبي العالية ، عن أبي بزة الأسلمي قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول بأخيرة إذا أراد أن يقوم من المجلس : « سبحانك اللهم وعملك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » . قال رجل : يا رسول الله ، إنك لتقول قولاً ما كنت تقول له فإمضي ؟ قال : « كفارة لما يكون في المجلس » (٤) .

وقد روى مرسلان عن أبي العالية ، والله أعلم . وهكذا رواه النسائي والحاكم ، من حديث الربيع بن أنس ، عن أبي العالية عن رافع بن خديج ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - مثله سواء (٥) . وروى مرسلان أيضا ، والله أعلم . وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو أنه قال : « كليات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه ، ولا يقولن في مجلس خبر ومجلس ذكر إلا تحشم له من كما يحتم بالنائم لا على الصحيفة » (٦) : سبحانك اللهم وعملك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك (١) . وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة ، وصححه ، ومن رواية جبير بن مطعم (٢) . ورواه أبو بكر الإمامي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، كلهم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد أفردت لذلك جزءا على حديثه بطريقه وألفاظه رحمه الله . وما يضاف به ، والله الخبير والعلّام .

-
- (١) تحفة الأحرف : أبواب المنعرات ، باب « ما يقول إذا قام من مجلسه » : للحديث ٣٩٤/٤ - ٣٩٤ - ٣٩٥ .
 - (٢) المستدرک ، كتاب الدعاء ، باب « الاستغفار عند القيام من المجلس » : ٥٣٦/١ - ٥٣٧ .
 - (٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في كفارة المجلس » .
 - (٤) سنن أبي داود ، في الكتابين والباب المختصين . والمستدرک ، في الكتاب والباب المختصين أيضا : ٥٣٧/١ .
 - (٥) ما بين القوسين عن سنن أبي داود .
 - (٦) المستدرک ، كتاب الدعاء ، باب « الاستغفار عند القيام من المجلس » : ٥٣٧/١ .

وقوله : (ومن الليل ففسحه) ، أى : اذكره واعبده بال تلاوة والصلاة فى الليل ، كما قال : (ومن الليل فتعبد به نافلة لك عسى أن يهلك ربك مقاماً محموداً) (١) .

وقوله : (وإدبار النجوم) - قد تقدم فى حديث ابن عباس (٢) أنها الركعتان الثانى قبل صلاة الفجر ، فأنها مشروعتان عند إدبار النجوم ، أى : عند جنوبها للتيبوية . وقد روى ابن سيران ، عن أبى هريرة مرفوعاً : « لا تمدّوها ، وإن طردنكم الحيل » . يبنى ركعتى الفجر (٣) ، رواه أبو داود . ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب الإمام أحمد القول ' يوجبها ، وهو ضعيف لحديث : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » . قال : هل على غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » (٤) . وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر (٥) . وفى لفظ لمسلم : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » (٦) .

آخر تفسير سورة الطور

(١) سورة الإسراء آية ٧٩ .

(٢) انظر تفسير الآية الأربعين من سورة وق .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، أبواب التطوع ، باب « تخفيف ركعتى الفجر » .

(٤) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « الزكاة من الإسلام » : ١٨/١ ، وكتاب الصوم ، باب « وجوبه صوم رمضان » : ٣١/٣ .

وكتاب الحيل ، باب « فى الزكاة وأن لا يفرق بين مجتمع ... » : ٢٩/٩ - ٣٠ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان الصلوات التى هى أحد أركان الإسلام » : ٣١/١ - ٣٢ . وسنن أبى داود ، أول كتاب الصلاة ، و« انفسك » كتاب الصلاة ، باب « كم فرست فى اليوم والليلة » : ٢٢٩/١ - ٢٢٨ .

(٥) البخارى ، كتاب التهجيد ، باب « تطاعت ركعتى الفجر » ، ومن سهاها تطوعاً : ٧١/٢ - ٧٢ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « استحباب ركعتى الفجر ... » : ١٦٠/٢ .

(٦) مسلم ، فى الكتاب والباب المتفقين .

تفسير سورة النجم

وهي مكية

قال البخاري : حدثنا نصر بن علي ، أخبرني أبو أحمد ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن الأسود بن يزيد ، عن عبد الله قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) : قال : فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وسجد من خلفه ، إلا رجلا وأيته أخذ كفاً من ثراب فسجد عليه ، فرايته بعد ذلك قُتل كافراً ، وهو أمية بن خلف (١) .
وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع ، ومسلم وأبو داود والنسائي ، من طرق ، عن أبي إسحاق ، به (٢) . وقوله في المتن : إنه أمية بن خلف في هذه الرواية مشكل ، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنْتَظِرُ الْهُوَىٰ ③ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَعْدٌ يُوعَىٰ ④

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخوف لا ينتهي له أن يقسم إلا بالخالق . رواه ابن أبي حاتم . واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : (والنجم إذا هوى) فقال ابن أبي نجيب ، عن مجاهد ، يعني بالنجم : الثريا إذا سقطت مع الحجر . وكذا روى عن ابن عباس ، وسفيان الثوري . واختاره ابن جرير . وزعم السدي أنها الزهرة . وقال الضحاك : (والنجم إذا هوى) : إذا وُعدى به الشياطين . وهذا القول له إجماع .
وروى الأعمش ، عن مجاهد في قوله : (والنجم إذا هوى) ، يعني : القرآن إذا نزل (٤) . وهذه الآية كقوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقرآن عظيم . إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يسره إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين (٥)) .

وقوله : (ما ضل صاحبكم وما غوى) : هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة بالرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بأنه بارئ راشد تابع للحق ليس بضال ، وهو : الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم . والغاوى : هو العالم بالحق العادل

(١) البخاري ، تفسير سورة والنجم : ١٧٧/٦ .

(٢) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب : ما أتى النبي - صل الله عليه وسلم - وأصحابه من المفكرين بكفة ، ٥٧/٥ . وكتاب المغازي ، باب : قتل أبي جهل : ٩٦/٥ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب : سجود التوبة : ٨٨/٢ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، أبواب السجود ، باب : من رأى فيها (أي في الفصل) السجود . وسنن الإمام أحمد : ٤٤٢ ، ٤٢٧ ، ٢٨٨/١ .

(٣) في المخطوطة : « حجة بن شيبة » . ولكتبت عن الطبعات السابقة .

(٤) انظر تفسير الطبري : ٢٤/٢٧ .

(٥) سورة الواقعة ، الآيات ٧٥ - ٨٠ .

حتى قصد إلى غيره ، فتره الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود ، ومن عام الشيء وكبرائه والعمل بخلافه ، بل هو - صلوات الله وسلامه عليه - وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاحتدال والسداد ، ولهذا قال : (وما ينطق عن الهوى) ، أى : ما يقول قولاً عن هوى وغرض ، (إن هو إلا وحي يوحى) ، أى : إنما يقول ما أمر به ، يبلغه إلى الناس كاملاً موقراً من غير زيادة ولا نقصان ، كما رواه الإمام أحمد :

حدثنا حريز بن عثمان ، عن عبد الرحمن بن ميسرة ، عن أنى أمارة أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ليلخلن الجنة بشفاعه رجل ليس بني مثل الحسين - أو : مثل أحد الحسين - : ربيعة ومضر » . فقال رجل : يا رسول الله ، أو ما ربيعة من مضر ؟ قال : « إنما أقول ما أقول » (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عبيد الله بن الأحنس ، أخبرنا الوليد بن عبد الله ، عن يوسف ابن مائهك ، عن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أريد حفظه ، فنهني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - [بشر] ، يتكلم في الغضب . فأمسكت عن الكتاب (٢) ، ففكرت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « أكتب ، فوالذي نفسي بيده ما يخرج مني إلا حق » (٣) .

ورواه أبو داود عن مسدد وأبي بكر بن أبي شيبة ، كلاهما عن يحيى بن سعيد التميمي ، به (٤) . وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث ، عن ابن عجلان ، عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما أخبركم أنه الذي من عند الله ، فهو الذي لا شك فيه » . ثم قال : لا تعلمه يروى إلا بهذا الإسناد :

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا ليث ، عن محمد ، عن سعيد بن أبي سعيد ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لأقول إلا حقاً » . قال بعض أصحابه : فأنك تدعين يا رسول الله ؟ قال : « وإني لأقول إلا حقاً » (٥) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٥٧/٥ . وانظر أيضاً المسند : ٢١٦/٥ ، ٢١٧ .

(٢) أى : عن الكتابة .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٦٢/٢ ، ١٩٢ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب العلم ، باب : « في كتاب العلم » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٤٠/٢ ، وانظر أيضاً المسند : ٣٦٠/٢ . وأخرجه الترمذي عن طريق سعيد المقبري : انظر

تحفة الأحوص ، أبواب البر ، باب : « ما جاء في الملاح » ، الحديث ٢٥٥٨ : ١٢٦/٦ - ١٢٧ .

عَلَيْهِ شَدِيدُ الْقُوَى ④ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ⑤ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ⑥ ثُمَّ دَنَا ⑦ فَتَدَلَّى ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ⑨ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ⑩ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ⑪ أَفَتُمَكِّنُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ⑫ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ⑬ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ⑭ عِنْدَ جَنَّةِ الْمَأْوَى ⑮ إِذْ يَنْفَى السُّدْرَةَ مَا يَفْتَنَى ⑯ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ⑰ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ⑱

يقول تعالى عبراً عن عبده ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه علمه الذي جاء به إلى الناس (شديد القوى) ، وهو جبريل - عليه السلام - كما قال : (إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين) (١) ، وقال هاهنا : (ذو مرة) ، أى : ذو قوة . قال مجاهد ، والحسن ، وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن (٢) :
لوقال قتادة : ذو خلق طويل حسن .

ولا منافاة بين القولين ، فإنه عليه السلام ذو منظر حسن ، وقوة شديدة . وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبي هريرة وابن عمر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « لأجل الصدقة لفتى ، ولا للى مرة سوى (٣) » .

وقوله : (فاستوى) يبنى : جبريل عليه السلام . قال مجاهد والحسن وقاتدة ، والربيع بن أنس . (وهو بالأفق الأعلى) ، يبنى : جبريل ، استوى في الأفق الأعلى . قاله حكيم وخبر واحد . قال حكيم : والأفق الأعلى الذى يأتى منه : المصباح ، وقال مجاهد : هو مطلع الشمس . وقال قتادة : هو الذى يأتى منه النهار . وكذا قال ابن زيد ، وغيرهم

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا مصرف بن عمرو البياى أبو القاسم ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحة ابن مصرف ، حدثني أبي ، عن الوليد - هو ابن قيس - عن إسحاق بن أبي الكهشكة (٤) - أنه ذكره عن عبد الله بن مسعود - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم ير جبريل في صورته إلا مرتين ، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسأه الأفق . وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فظلك قوله : (وهو بالأفق الأعلى)

وقد قال ابن جرير هاهنا قولاً لم أره لغيره ، ولا حكاة هو عن أحد ، وحاصله : أنه ذهب إلى أن للفتى : (فاستوى) ، أى : هذا الشديد القوى ذو المرة وعبد - صلى الله عليه وسلم - بالأفق الأعلى ، أى : استريا جميعاً بالأفق ، وذلك لبله الإسماء . كما قال ، ولم يرافقه أحد على ذلك . ثم شرع يوجه ما قال من حيث التورية فقال : وهذا كقولهم تعالى : (أنزلنا

(١) سورة التكمير ، الآيات : ١٩ - ٢١ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٧ / ٢٥ .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي في كتاب التزكية . انظر سنن أبي داود : باب « من يمشي للصدقة وجه التقي » . وخفة الأوصاف ، باب « من لا تقل له الصدقة » ، الحديث ٦٤٧ ، ٣ / ٣١٦ - ٣١٧ . وابن ماجه ، باب « من سأل من ظهر غنى » ، الحديث ١٨٣٩ ؛ ١٤ / ٥٨٩ . والبيهقي ، باب « إذا لم يكن له درهم وكان له صاع » ؛ ٥ / ٩٩ . وأخرجه الإمام أحمد عن رجل من بني حنبل ؛ ٤ / ٦٢ ؛ ٥ / ٣٧٥ .

(٤) إسحاق طه مترجم في الإبراهيم والتصيل لابن أبي حاتم ؛ ١ / ٢٣٢ / ١٤٦ .

كما تراءى وأبانتا ، فحفظ بالآباء على المكتسبي (كتاب من غير إظهار) عن ، فكذاك قوله : (فاستوى وهو) : قال : وذكر القراء من بعض العرب أنه أشده (١) :

لَمْ تَرَ أَنَّ النَّبِيَّ يَصْلُبُ حُودُهُ وَلَا يَسْتَوِي وَالْحَرُوعُ الْمَكْتَسَبُ (٢)

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرواية لجبريل لم تكن ليلة الإسماء ، بل قبلها ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الأرض ، فخطب عليه جبريل - عليه السلام - وتلقى إليه ، فاقرب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها ، له سنانة جناح ، ثم رآه بعد ذلك نزل أخرى عند صدره المتسبي ، يعني ليلة الإسماء ، وكانت هذه الرواية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل - عليه السلام - أول مرة ، فأوحى الله إليه صدره سورة اقرأ ، ثم قرأ الرحي فترة ذهب النبي - صلى الله عليه وسلم - فيها مراوا ليردى من رؤوس الجبال ، فكلما همم بذلك ناداه جبريل من المواء : يا محمد ، أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل . فيسكن لذلك جأشه ، وقر عينه ، وكلما طال عليه الأمر عاد لظلمها ، حتى تبتدى له جبريل ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الأبطح في صورته التي خلقه الله عليها ، له سنانة جناح قد سد له عظم خلقه الأخرى ، فاقرب منه ، وأوحى إليه عن الله - عز وجل - ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة ، وجلا له قد رآه وهو على مكانته عند خلقه الذي بعثه إليه . فلما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حيث قال :

حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن أبي عمران الجوني ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « بينا أنا قاعد (٣) إذ جاء جبريل - عليه السلام - فوكن بين كفي ، فحسب لي شجرة فيها كثر كثرى الطير ، فقدم في أحدها وقعدت في الآخر ، فقسمت وأرقت حتى سدت الخلقين وأنا أقلب طرفي ، ولو شئت أن أمس السماء لمست ، فالتفت إلى جبريل كأنه حلس لاني (٤) ففرقت فضل علمه بالله على . وفتيح في باب من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم ، وإذا دون الجباب رفقة النور والياقوت . وأوحى لي ما شاء الله أن يوحى »

ثم قال البزار : لا يرويه إلا الحارث بن عبيد ، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة (٥) .

قلت : الحارث بن عبيد هذا هو أبو قدامة الإيادي ، أخرج له مسلم في صحيحه إلا أن ابن معين قبحه ، وقال : ليس هو بشيء . وقال الإمام أحمد : مضطرب الحديث . وقال أبو حاتم الرزقي : يكتب حديثه ولا يحتج به . وقال ابن حبان : كثر وسمه فلا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد (٦) . فهذا الحديث من غرائب رواياته ، فإن فيه تكراراً وضرباً ألفاظاً وسيافاً عجيباً ، ولعله منام ، والله أعلم .

(١) البيت بغيره ، انظر ديوانه : ٢٩٨ ، والفتاوى : ٥٩٦/٢ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٥/٢٧ - ٢٦ .

(٣) تقدم في سورة الإسماء : « بينا أنا قائم » .

(٤) في الضميمة : « لاني » . وللتبني من السنانة التي تقدمت في سورة الإسماء .

(٥) تقدم الحديث منه تفسير الآية الأولى من سورة الإسماء ، وشرحت هناك غريبه . انظر : ٨٩/٩ - ٩٠ .

(٦) انظر ترجمة الحارث بن عبيد في المرجع . وللتبني لابن أبي حاتم : ٨١/٢٥١ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شريك ، عن عاصم ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته وله سيّاة جناح ، كل جناح منها قد سدّ الأثر ، يسقط من جناحه من النوايل والور والياقوت مائة به طبع . انفراد به أحمد (١) .

وقال أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن إدريس بن مئينة ، عن (٢) وهب بن منبه ، عن ابن عباس قال : سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - جبريل أن يراه في صورته ، فقال : ادعوك . فدعاه - هو وجبل - فطلع عليه سواد من قبل المشرق ، فجعل يرتفع وينتشر ، فلما رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - صعب ، فأناه فَنَعَسَهُ (٣) ومسح الزرق عن شدة (٤) .

انفراد به أحمد . وقد رواه ابن صاكر في ترجمة : حبة بن أبي لب (٥) ، من طريق محمد بن إسحاق ، عن عذبان ابن حمره بن الزهر ، عن أبيه ، عن هبار (٦) بن الأسود قال : كان أبو لب وابنه حبة قد تجهزا إلى الشام ، فتجهزت معها ، فقال ابنه حبة : والله لأظننك إلى محمد ولأؤدبته في ربه - سبحانه - فأنطلق حتى ألقى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد ، هو يكفر باللي حتى قتل ، فكان قاب قوسين أو أدنى . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : اللهم أبعث لي كلبا من كلابك . ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال : يا بني ، ما قلت له ؟ فذكر له ما قال له ، قال : فما قال لك ؟ قال : قال : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك . قال : يا بني ، والله ما آمنُ عليك دُعاءه . فسرنا حتى نزلنا الشراة (٧) ، وهي مأسدة (٨) ، ونزلنا إلى صومعة واهب ، قال الراهب : يا مبشر العرب ، ما أتاكك لهما البلاد ، لأنها تسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم ؟ فقال لنا أبو لب : إنكم قد حرثتم كبر سنن وحقي ، وإن هذا الرجل قد دعا على أبيي دعوة - والله - ما أنهما عليه ، فاجمعوا ما حكم إلي هذه الصومعة ، وارثوا لابني عليها ثم ارثوا حولها ، فنقلنا ، فجاء الأسد فَنَسَمَ وجرونا ، فلما يجد ما يريد تَنَسَّسَ ، فوثب ، فلما هو فوق الخناع ، فشم وجهه ثم حرره حرمة (٩) فَنَسَمَ (١٠) رأسه . قال أبو لب : قد عرفنا أنه لا ينفلت من دعوة محمد .

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٩٥/١ . والطر المسند أيضا في : ٣٩٨/١ ، ٤٠٧ .

(٢) في المسند : « من أبيه وهب بن منبه » .

(٣) أي : وضعه .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٢٢/١ .

(٥) لم نجد ترجمة : حبة بن أبي لب ، ولا ترجمة : هبار . في مصورات وتاريخ دمشق وبعده المخطوطات وجامعة الدول العربية . وقد أخرج أبو نعيم في الدلائل هذا الحديث من طريق عبد بن إسحاق : به ، انظر : ١٦٢ - ١٦٣ .

(٦) في مخطوطة الأزهر : « وحدثنا بن الأسود » . وهو خطأ ، والصواب : « عن ترجمة : هبار بن الأسود » في الإصابة : ٥٦٥/٤ . ودلائل النبوة لأن نعيم .

(٧) في المخطوطة : « نزلنا أبراه » . والمثبت من الدلائل . وفي مرادف الأصلاح - ٧٨٨ : « الشراة : جبل شام مرتفع من دون صفان تأويه القردة . والشراة أيضا : صقع بالشام ، بين دمشق ومدينة الرسول » . وفي اللسان : « والشراة : موضع تسلب إليه الأسد » يقال الشجمان : ما هم إلا أسود القري . وقيل : هو شري الثمرات وناسجه ، وبه عياض وآجام وعاسة ... والقري : طريق في سلسل كبير الأسد » .

(٨) في المخطوطة : « وهي بلسك » . والمثبت من الدلائل . والمأسة : الأرض كبيرة : الأسود .

(٩) أي : حرره حرمة .

(١٠) في المخطوطة : « فَنَسَمَ » . والمثبت من الدلائل . وهو المنسب هنا ، وفي اللسان : « فَنَسَمَ : كسر كل شيء أجوف » نحو الرأس والبلعج ، فَنَسَمَ يَنْسَمُ فَنَسَمًا وفَنَسَمَ وفَنَسَمَ رأسه : فَنَسَمَ » .

وقوله : (فكان قاب قوسين أو أدنى) ، أى : فالترب جبريل إلى محمد لا يبط عليه إلى الأرض ، حتى كان بينه وبين محمد - صلى الله عليه وسلم - قاب قوسين ، أى : يقدروها إذا مدّا ، قاله مجاهد ، وتنادة .

وقد قيل : إن المراد بذلك بُعد ما بين وتر القوس إلى كتفها (١) .

وقوله : (أو أدنى) ، قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات الخبر عنه ونفى مازاد عليه ، كقوله : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) (٢) ، أى : ما هي بألين من الحجارة ، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة . وكذا قوله : (يحشون للناس كشفاة الله أو أشد خشية) (٣) ، وقوله : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) (٤) ، أى : ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة ، أو يزيدون عليها . فلو لم نحقق للمخبر به لا شك ولا تردد ، فإن هذا مجتمع هاهنا ، وهكذا هذه الآية : (فكان قاب قوسين أو أدنى) .

وهذا الذى قلناه من أن هذا المقرب الدانى الذى صار بينه وبين محمد - صلى الله عليه وسلم - إنما هو جبريل عليه السلام ، هو قول أم المؤمنين عائشة ، وابن مسعود ، وأبي ذر ، وأبي هريرة ، كما تنوّد أحاديثهم قريبا إن شاء الله . وروى مسلم في صحيحه ، عن ابن عباس أنه قال : « رأى محمد ربه بفؤاده مرتين » (٥) . فيجمل هذه إحداهما . وجاء في حديث شريك بن أبي نمر ، عن أنس ، حديث الإسراء : « ثم دنا الجبار رب العزة فقتل » (٦) . ولهذا تكلم كثير من الناس في تنبؤ هذه الرواية ، وذكروا أشياء فيها من الغرابة ، فإن صبح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فإن هذه كانت ورسول الله صلى الله عليه وسلم - إلى الأرض لا ليلة الإسراء ، ولهذا قال بعده : (ولقد رآه نزلة أخرى . عند مغرة الملتقى) ، فهذه هي ليلة الإسراء ، والأولى كانت في الأرض .

وقد قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا سليمان الشيباني ، حدثنا زر بن حبیش قال : قال عبد الله بن مسعود في هذه الآية : (فكان قاب قوسين أو أدنى) ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : « وأيت جبريل له سبعة جناح » (٧) .

وقال ابن وهب : حدثنا ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة ، عن عائشة قالت : كان أول شأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه رأى في منامه جبريل بأجباد ، (٨) ثم إنه خرج ليقتضى حاجته فصاح به جبريل : يا محمد ،

(١) كنه كل شيء ، وسطه . وكبه القوس : ما بين طرق الملاحة . وقيل : قدر فواضع من مقبضها .

(٢) سورة البقرة ، آية ٧٤ . وانظر ما قيل في هذه الآية في ١٦٣/١ .

(٣) سورة النساء ، آية ٧٧ .

(٤) سورة السجدة ، آية ١٤٧ . وانظر كذلك ٣٥/٧ - ٣٦ .

(٥) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب معنى قول الله عز وجل : (ولقد رآه نزلة أخرى) : ١٠٩/١ - ١١٠ .

(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ، وغريبتنا هناك . انظر ٥/٥ .

(٧) تفسير القرطبي ٢٧/٢٧ .

(٨) أجباد : موضع يسلم مكة .

يا محمد . فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مبتأ وشمالاً فلم ير شيئاً - ثلاثاً - ثم رفع بصره فإذا هو ثابٍ إحدى وجليه مع الأخرى على أذن السقاء فقال : يا محمد ، جبريل جبريل - يُسَكِّنُهُ - فغرب النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى دخل في الناس ، فنظر فلم ير شيئاً . ثم خرج من الناس ، ثم نظر فرآه ، فدخل في الناس فلم ير شيئاً ، ثم خرج فنظر فرآه ، فذلك قول الله عز وجل : (والتبسم إذا هوى) . إلى قوله : (ثم دنا فتدلى) ، يعني جبريل إلى محمد ، (فكان قاب قوسين أو أدنى) . ويقولون : القاب نصف الإصبع . وقال بعضهم : قواهن كان بينهما .

رواه ابن جرير (١) وابن أبي حاتم ، من حديث ابن وهب . وفي حديث الزهري عن أبي سلمة ، عن جابر شاهد لهذا .
 (٢) وروى البخاري عن طلق بن غنام ، عن زائدة ، عن الشيباني قال : سألت زراً عن قوله : (فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى) ، قال ، حدثنا عبد الله أن صمداً - صلى الله عليه وسلم - رأى جبريل له مناة جناح (٣) .
 وقال ابن جرير : حدثني ابن بزيغ البتدادي ، حدثنا إسماعيل بن منصور ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله : (ما كذب القواد ما رأى) ، قال : رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل عليه السلام (٤) .

فعل ما ذكرناه يكون قوله : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) ، معناه : فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى .
 أو : فأوحى الله إلى عبده (٥) محمد ما أوحى بواسطة جبريل . وكلا للمعنيين صحيح . وقد ذكر عن سعيد بن جبير في قوله : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) ، قال : أوحى إليه : ألم أجعلك نبياً ، (ولفنا لك ذكرك) .
 وقال غيره : أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأم حتى تدخلها أمك .

وقوله : (ما كذب القواد ما رأى . أنهارونه على ما يرى) - قال مسلم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن زياد بن حصين ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس : (ما كذب القواد ما رأى) ، (ولقد رآه نزلة أخرى) ، قال : وآه بقواده مرتين (٦) .

وكذا رواه مالك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، مثله (٧) . وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما : إنه وآه بقواده مرتين . (وقد خالطه ابن مسعود وغيره (٨)) ، وفي رواية عنه أنه أطلق الروية ، وهي بصولة على القليلة بالقواد :

(١) تفسير الطبري : ٢٧/٢٧ .

(٢) من هنا ساقط من غلظة الأخر ، وقد أئتمناه من الطبعات السابقة .

(٣) البخاري ، تفسير سورة (والتبسم) : ١٧٦/٦ .

(٤) أي : حدثنا من دبرناج .

(٥) إل هنا بنى السلف الذي أئتمناه من الطبعات السابقة ، وانظر تفسير الطبري : ٢٩/٢٧ .

(٦) ما بين قوسين أيضاً من الطبعات السابقة .

(٧) تقدم تخريج الحديث من قريب .

(٨) تفسير الطبري : ٢٧ - ٢٨ .

(٩) ما بين قوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه في المخطوطة يافى بقوله كالمعبر .

ومن روى عنه بالبحر قد أغرب ، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم - وقول الباقين في تفسيره :
ونخب جماعة إلى أنه رآه بعينه ، وهو قول أنس والحسن وعكرمة - فيه نظر ، والله أعلم .

وقال الترمذي : حدثنا محمد بن عمرو بن نبيهان بن صفوان ، حدثنا يحيى بن كثير العبدي ، عن سكين بن جعفر ،
عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : رأى عكرمة . قلت : أليس الله يقول : (لا تدركه الأبصار) وهو
بفكره الأبصار ؟ قال : وبذلك ! ذاك إذا تبجلى بنوره الذي هو (١) نوره ، وقد رأى ربه مرتين .

ثم قال : « حسن غريب (٢) » .

وقال أيضا : حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن مجاهد ، عن الشعبي قال : لى ابن عباس كعباً بمرقة ، فسأله
عن شيء فكثير حتى جابوته الجبال (٣) ، فقال ابن عباس : إنا بنو هاشم . فقال كعب : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين
عبد وموسى ، فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين . وقال مسروق : دخلت على عائشة فقلت : هل رأى محمد ربه ؟
فجالت : فقد تكلمت بشيء ثقيل (٤) له شعري . فقلت : رؤيتاً ، ثم قرأت : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ،
فقلت : أين يلقى بك ؟ إنما هو جبريل ، من أنعمك أن محمداً رأى ربه أو كتم شيئاً مما أمر به ، لا أو يعلم الخمس (٥)
التي قال الله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) ، فقد أعظم الغيبة ، (ولكنه (٦) رأى) جبريل ، لم يره
في صبرته إلا مرتين ، مرة عند سيرة المنتهى ومرة في جنياد ، وله سيارة جناح قد سد الأفق (٧) .

وقال السائي : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس
قال : أتبعوني أن تكون الخلفة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والروية محمد عليهم السلام ؟ !

وفي صحيح مسلم ، عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى
لواه » . وفي رواية : « رأيت نوراً » (٨) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن موسى بن هبيلة ، عن محمد بن كعب قال :
قالوا : يا رسول الله ، رأيت ربك ؟ قال : « رأيتهم يفزادى مرتين » ثم قرأ : (ما كذب القواد ما رأى) .

(١) يقول ابن عباس : إن المراد بالآية نفي الإحاطة به عنه ورؤياه ، لا نفي الرؤية أصلاً .

(٢) نسخة الأجنوى : تفسير سورة التيمم ، الحديث ٣٣٣ : ١٦٩ / ٩ ، والى في نسخة الأجنوى : « هذا حديث حسن » .

(٣) أى : كبير تكبير مرتقفاً بما صوته ، حتى جابوته الجبال بالمدى ، كأنه استعظم ما سأله عنه فكبر لذلك ، ولعل ذلك
السؤال هو رؤية الله تعالى .

(٤) أى : وقلب من القفرح .

(٥) في المخطوطة : « ما أمره لكن قال .. » والمثبت من الترمذي والطحاوي السابقة .

(٦) ما بين التوسمين من الترمذي والطحاوي السابقة ، ومكانه في المخطوطة : « لى » .

(٧) نسخة الأجنوى : تفسير سورة القدر ، الحديث ٣٣٣ : ١٦٩ / ٩ - ١٦٨ .

(٨) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب في قوله عليه السلام : « نور الله أراه » ، ٤ : ١١١ .

ورواه ابن جرير ، عن ابن حميد ، عن مهران ، عن موسى بن عبيدة (١) ، عن محمد بن كعب ، عن بعض أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : قلنا : يا رسول الله ، هل رأيت ربك ؟ قال : « لم أره بعين ، ورأيت بغيري مرتين » . ثم تلا : (ثم خدا قتل) .

ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، أخبرني عبيد بن منصور قال : سألت عكرمة : (ما كذب القواد ما رأى) ، فقال عكرمة : تريد أن أخبرك أنه قد رآه ؟ قلت : نعم ، قال : « قد رآه ، ثم قد رآه . قال : فسألت عنه الحسن فقال : رأى جلاله وعظمته وورده » .

وحدثنا أبي ، حدثنا محمد بن مجاهد ، حدثنا أبو عامر العقدي ، أخبرنا أبو خلفة ، عن أبي العالقة قال : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هل رأيت ربك ؟ قال : « رأيت نهرا ، ورأيت وراء النهر حجابا ، ورأيت وراء الحجاب نورالم أر شيئا » .

وذلك قريب جدا ، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد :

حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « رأيت ربي عز وجل » (٢) .

فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح ، لكنه مختصر من حديث الثام كما رواه الإمام أحمد أيضا :

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة عن ابن عباس : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسن بعني في النوم - فقال : يا محمد ، أتدري فيم يختصم للأهل ؟ قال : قلت : لا . فوضع يده بين كفي حتى وجلت برؤسها بين يدي - أو قال : بحري - فعلمت ماني السموات وماني الأرض ، ثم قال : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم للأهل ؟ قال : قلت : نعم ، يختصمون في الكفارات والدرجات ، قال : وما الكفارات والدرجات ؟ قال : قلت : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجمعات (٣) وإبلاغ الوضوء في المكاره (٤) . من فعل ذلك عاش بغير ومات بغير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يا محمد إذا صليت : اللهم ، إني أسألك الخبرات وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبض إليك غير مفتون . قال : والدرجات بذل الطعام ، وإنشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام (٥) » .

(١) في تفسير الطبري : « موسى بن عبيد الحميري » . ولم نجده ، وفي الجرح والتعديل ٤ / ١ / ١٥١ : « موسى بن عبيد البرقي » . وفي ترجمته أنه يروي عن محمد بن كعب .

(٢) تفسير الطبري : ٢٧ / ٢٧ .

(٣) وقع لنا الحديث في المسند من رواية الإمام أحمد عن عفان ، عن عبد الصمد بن كيسان ، عن حماد ، به . انظر المسند ١ / ٢٩٠ .

(٤) في المخطوطة : « العجبات » . والمثبت عن المسند ، وانظر نيل أقدم : ٧ / ٧١ .

(٥) المكاره : جميع مكروه ، وهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه . والمعنى : أن يتبرع مع البرد الشديد والعلل التي يتأذى منها جس الماء ، ومع إغوائه والحاجة إلى طلبه ، والسعي في تحصيله ، أو إتيائه بآمن المال ، وما أشبه ذلك من الأسباب الشاقة .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١ / ٣١٨ .

وقد تقدم في آخر سورة هـ ص ٤٤٤ من معاذ ، نحوه (١) . وقد رواه ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس ، وفيه سياق آخر وزيادة غريبة فقال :

حدثني أحمد بن عيسى التميمي ، حدثني سليمان بن عُمَرَ (٢) بن سيار ، حدثني أبي ، عن سعيد بن زُري ، عن عمر ابن سليمان ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي : يا همد ، هل تدري فيم يخصم الملائكة الأهل ؟ قلت : لا ، يا رب . فوضع يده بين كفتي فوجدت برزخاً بين يدي ، فعلمت ما في السموات والأرض ، قلت : يا رب ، في الدرجات والكفارات ، ونقل الأقدام إلى الجحومات (٣) ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . قلت : يا رب ، إنك أنزلت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً ، وفعلت وفعلت ، فقال : ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أضل بك ؟ ألم أضل ؟ قال : فأفنى إلى بأشياء لم يؤذن لي أن أذكرها . قال : فذلك قوله في كتابه : (ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الوفاء ما رأى) ، فجعل نور بصري في فؤادي ، فنظرت إليه بفؤادي (٤) . » إسناده ضعيف .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر بسنده إلى هبَّار (٥) - بن الأسود - رضى الله عنه - : أن حبة بن أبي لبب لما خرج في تجارة إلى الشام قال لأهل مكة : اعلموا أني كافر بالله فادخلوا . فبلغ قوله رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال : سكت الله عليه قلباً من كلامه . قال هبار : فكنيت معهم ، فتر لنا بأرض كثيرة الأسد ، قال : فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يشتم رموس القوم ولحداً واحداً ، حتى تخطى إلى حبة فاقطع رأسه من بينهم .

وذكر ابن إسحاق وغيره في السيرة : أن ذلك كان بأرض الزرقاء ، وقيل بالسرقة ، وأنه غاف لينتد ، وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله ، فجاء الأسد فجعل يزرر ، ثم تخطاهم إليه فضمهم (٦) رأسه لفته .

وقوله : (ولقد آتاه نزلة أخرى . عند سكرة المنتهى . عندها جنة المأوى) ، هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها ، وكانت ليلة الإسراء . وقد تقدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة «سبحان» بما أغنى عن إعادته هاهنا ، وتقدم أن ابن عباس - رضى الله عنهما - كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء ، ويستشهد بهذه الآية . وتابعه جماعة من السلف والخلف ، وقد خالفه جماعات من الصحابة - رضى الله عنهم - والتابعين وغيرهم .

(١) انظر تفسير الآية التاسعة والستين من سورة ص ٧١ / ٧

(٢) كذا في المخطوطة : « عمر » ، دون وار . وفي تفسير الطبري : « عمرو » . ولم تقع لنا ترجمته .

(٣) في المخطوطة : « الجحومات » . والمثبت من تفسير الطبري .

(٤) تفسير الطبري : ٢٧ / ٢٨ - ٢٩ .

(٥) لم تقع لنا ترجمة هبار ، ولا ترجمة «حبة» في مصورات تاريخ دمشق التي يجهل المخطوطات بمجاعة للدول العربية ، وقد لفتنا من قريب من ذلك .

(٦) أي : مضى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم بن هذيلة ، عن زوّ بن حبّيش ، عن ابن مسعود في هذه الآية : (ولقد رآه نزلة أخرى) عند سورة المائدة ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « رأيت جبريل وله سبّعة جناح ، ينثر من ريشه التهاويل (١) : الدر والياقوت (٢) » . وهذا إسناد جيد قوى ،

وقال أحمد أيضا : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا شريك ، عن جامع بن أبي راشد ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل في صورته وله سبّعة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به علم (٣) . إسناده حسن أيضا .

وقال أحمد أيضا : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني حسين ، حدثني عاصم بن هذيلة قال : سمعت لشقيق (٤) بن سلمة يقول : سمعت ابن مسعود يقول قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « رأيت جبريل على سورة المائدة ، وله سبّعة جناح » . سألت عاصبا عن الأجنحة ، فأبى أن يخبرني ، قال : فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب (٥) وهذا أيضا إسناد جيد .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني حسين ، حدثني [عاصم بن هذيلة (٦)] : حدثني [شقيق (٧)] قال : سمعت ابن مسعود يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أتاني جبريل - عليه السلام - في غصن (٨) معلق به الدر (٩) » . إسناده جيد أيضا ،

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن إسماعيل ، حدثنا عامر قال : أتى مسروق عائشة فقال : يا أم المؤمنين ، هل رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - حريمه زوجا ؟ قالت : سبحان الله . لقد تفتّ (١٠) شعري لما قلت ، أين أنت من ثلاث من حكّ كلبك : من حدثك أن محمدا رأى به قد كذب ، ثم قرأت : (لا تتركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ، (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب) ، ومن أخبرك أنه يعلم ما (١١) في غد فقد كذب ، ثم قرأت : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام) .. الآية ، ومن أخبرك أن محمدا قد كتم ، فقد كذب ، ثم قرأت : (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك) . ولكنه رأى جبريل في صورته مودع (١٢) ،

(١) التهاويل : الألباء المختلفة الألوان .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١ / ٤٦٠ .

(٣) وقع لنا هذا الحديث في المستند من رواية حجاج ، عن شريك ، عن عاصم ، عن أبي وائل . انظر : ١ / ٢٩٠ .

(٤) في المخطوطة : « منصور بن سلمة » . والخلف من المستند . والقطب السابعة من هذا التفسير .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١ / ٤٠٧ .

(٦) ما بين القوسين عن المستند ، ومكانه في المخطوطة : « حسين » .

(٧) ما بين القوسين أيضا عن المستند ، ومكانه في المخطوطة : « صفوان » .

(٨) في المستند : ١٢٠ / ٦ من عائشة : « وعليه ثياب ستحي » .

(٩) مسند الإمام أحمد : ١ / ٤٠٧ .

(١٠) أي : وقت .

(١١) في المستند : « أخبرك بما في غد » . ونحسب أن فيه مقطلا

(١٢) مسند الإمام أحمد : ٦ / ٤٩ - ٥٠ .

وقال أحمد أيضا : حدثنا محمد بن أبي حنبل ، عن داود ، عن الشعبي ، عن مسروق قال : كنت عند عائشة قلت : ليس الله يقول : (ولقد آتاه بالآق المين) ، (ولقد آتاه نزلة أخرى) ؟ قالت : أنا أول هذه الأمة سأله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنها ، قال : « إنما ذلك جبريل » - لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين ، وآه منهبط من السماء إلى الأرض ، ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض (١) »

أنخرجه في الصحيحين ، من حديث الشعبي ، به (٢) »

رواية أبي ذر ، قال الإمام أحمد : حدثنا حفان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبي ذر : لو رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لساكنه . قال : وما كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأى ربه مر وجل ؟ قال : إني قد سأله فقال : « قد رأيته تورا أنى أراه (٣) » .

كلما وقع في رواية الإمام أحمد ، وقد أنخرجه مسلم من طريقين بلفظين فقال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا وكيع ، عن يزيد بن إبراهيم ، عن قتادة ، عن عبد الله بن شقيق ، عن أبي ذر قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هل رأيت ربك ؟ قال : « تور أنى أراه (٤) » .

وقال : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي ، عن قتادة ، عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبي ذر : لو رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لساكنه . قال : عن أى شيء كنت تسأله ؟ قال : قلت : كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألت فقال : « رأيت تورا (٤) » .

وقد حكى الخليل في حله أن الإمام أحمد سئل عن هذا الحديث فقال : ما زلت منكراً له ، وما أدري ما وجهه .

وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عون الواسطي ، أنبأنا هشيم ، عن منصور ، عن الحكم ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبي ذر قال : رأه بقلبه ، ولم يره ببعينه .

وحاول ابن خزيمة أن يدعى انقطاعه بين عبد الله بن شقيق وبين أبي ذر ، وأما ابن الجوزي فاوله على أن أبا ذر لم يله سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل الإسراء ، فأجاب به بما أجابه به ، ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات . وهذا ضعيف جدا ، فإن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - قد سألت عن ذلك بعد الإسراء ، ولم يثبت لها الرواية . ومن قال : إنه خاطبها على قدر عقلها ، أو حاول تحطتها فما ذهبت إليه - كإبن خزيمة في كتاب التوحيد - فانه هو المخطئ ، والله أعلم .

وقال السائي : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشام عن منصور ، عن الحكم ، عن يزيد بن شريك ، عن أبي ذر قال : رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حربه بقلبه ولم يره ببصره .

(١) مسند الإمام أحمد : ٦ / ٢٤١ . وانظر أيضا : ٦ / ٢٣٦ .

(٢) البخاري ، تفسير سورة الفتح : ٦ / ١٧٥ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب معنى قوله تعالى : (ولله وآله نزلة أخرى) : ١١٠ / ١ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١٤٧ / ٥ .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب في قوله عليه السلام : « تور أنى أراه » : ١١١ / ١ .

وقد ثبت في صحيح مسلم ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن علي بن مسهر ، عن عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء ابن أبي رباح ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال في قوله : (ولقد رآه نزلة أخرى) ، قال : رأى جبريل عليه السلام (١) .

وقال جاهد في قوله : (ولقد رآه نزلة أخرى) ، قال : رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل في صورته مرتين (٢) . وكذا قال قتادة ، والربيع بن أنس ، وغيرهم .

وفيه تعالى : (إذ ينشئ السورة ما يشئ) ، قد تقدم في أحاديث الإسرائ أنه خشبها لللائكة مثل الغريبان ، وخشبها نور الرب ، وخشبها الأران ما أقرى ما هي ؟

وقال الإمام أحمد : حدثنا مالك بن مثنى ، حدثنا الزبير بن عدي ، عن طلحة ، عن مرة ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : لما أرسى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - انتهى به إلى سورة المنتهى ، وهي في السماء السابعة ، إليها ينتهي ما يخرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يجذب به من فوقها فيقبض منها ، (إذ ينشئ السورة ما ينشئ) ، قال : فرائض من ذهب ، قال : وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى عوالم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المصححات (٣) . انفرد به مسلم (٤) .

وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، عن أبي هريرة أو غيره - شك أبو جعفر - قال : لما أرسى برسول الله انتهى إلى السورة ، فقيل له : هذه السورة ، فخشبها نور الخلاق ، وخشبها اللائكة مثل الغريبان حين يقعن على الشجر ، قال : فكله عند ذلك ، فقال له : سل (٥) .

وقال ابن أبي نجيب ، عن جاهد : (إذ ينشئ السورة ما ينشئ) ، قال : كان أعصاب السورة لوكراً وبالقوا وزبرجدا ، فرأها محمد ، ورأى به بقلبه .

وقال ابن زيد : قيل : يا رسول الله ، أي شيء رأيت ينشئ تلك السورة ؟ قال : رأيت ينشأها قرائش من ذهب ، ورأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله عز وجل .

وقوله : (ما زاغ البصر وما طغى) ، قال ابن عباس ما ذهب عينا ولا شيلا ، (وما طغى) : ما جاوز ما أمر به .

وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة ، فانه ما فعل إلا ما أمر به ، ولا سأل فوق ما أعطى . وما أحسن ما قال الناظم :

رأى جنة المأوى وما فوقها ، وكثر رأى غيره ما قد رآه لئلا

(١) مسلم في الكتاب السابق ، باب متى قول الله عز وجل : (ولقد رآه نزلة أخرى) : ١ / ١٠٩ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٧ / ٣٠ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١ / ٢٢٢ . والمصححات : الفئود الخظام التي تقسم أصحابها في النار ، أي : تلقى فيها .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : في ذكر سورة المنتهى : ١ / ١٠٩ .

(٥) أخرجه للطبري عن طريق أبي جعفر : ٢٧ / ٢١ ، ٢٥ .

وقوله : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، كقوله : (لتريك من آياتنا (١)) ، أي : الدالة على قدرتنا وعظمتنا . وبآيتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك الناس ، وقد تقدم تقرير ذلك في سورة « مباحن » . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا محمد بن طلحة ، عن الوليد بن قيس ، عن إسحاق بن أبي الكهشكة - قال محمد : أظنه عن ابن مسعود - أنه قال : إن محمدا لم ير جبريل في صورته إلا مرتين ، أما مرة فانه سأله أن يريه نفسه في صورته ، فأراه صورته فسد الأفق : وأما الأخرى فانه صعد معه حين صعد به . وقوله : (وهو بالأفق الأعلى) . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى) ، قال : (فلما أحسن (٢) جبريل ربه - عز وجل - عاد في صورته وسجد ، فقوله : (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندنا جنة المأوى . إذ ينشئ السدرة ما يشئ) ما زاع البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، قال : خلت جبريل عليه السلام (٣) .

هكذا رواه الإمام أحمد ، وهو غريب :

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۚ ﴿١﴾ وَمَنْوَةَ الْغَابِغَةِ ۚ أَلَا يُنْزِلُنَّ إِلَّا سَمًا مَّاءً ۚ بَلَّغْنَاكَ اللَّهُ الْأَمَنَىٰ ۚ ﴿٢﴾ تِلْكَ إِذْ أَوَّصَيْتَنِي ۚ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَمْسَاءٌ سَمِيَّتُوهَا ۚ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَتَّبِعُونَ إِلَّا نَفْسُ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۚ ﴿٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَىٰ ۚ ﴿٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۚ ﴿٥﴾ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا يَقْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَيَرْفَعُ ۚ ﴿٦﴾

يقول تعالى مفرطاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأولان ، وأنها ذمها البيوت مضاهاةً للعبادة التي بناها خليل الرحمن - عليه السلام - : (أفرايتم اللات) ؟ ، وكانت « اللات » صخرة بيضاء مقوشة وعليها بيت بالطائف له أسرار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم تقيف ومن تابها يفتخرون بها على من عداها من أحياء العرب بعد قريش :

قال ابن جرير : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا : اللات ، يعنون مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم حلوا كبيراً . وحكى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والربيع بن أنس : أنهم قرعوا « اللات » بنشيد التاء ، وفسروه بأنه كان رجلاً يكسب الحبيص في الجاهلية السويق ، فلما مات حكموا على قبره فقبلوه (٤) .

وقال البخاري : حدثنا مسلم - هو ابن إبراهيم - حدثنا أبو الأشهب ، حدثنا أبو الجوزاء ، عن ابن عباس : (اللات والعزى) ، قال : كان اللات رجلاً يلت السويق (٥) الحاج (٦) .

قال ابن جرير : وكلتا العزى من العزير -

(١) سورة طه : آية : ٢٢ .

(٢) في المخطوطة : « أنجر » . والمثبت عن المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١ / ٤٠٧ .

(٤) انظر تفسير الطبري : ٢٧ / ٣٤ - ٣٥ .

(٥) لفظ البخاري : « يلت سويق الحاج » .

(٦) البخاري ، تفسير سورة (والنجم) : ٦ / ١٧٦ .

وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا الزى ولا عزى لكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا الله مولانا ولا مولى لكم (١) »
وروى البخارى من حديث الزهري ، عن حميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من حلف فقال في حلقه : « وللات والزى » فليقل : « لا إله إلا الله » : ومن قال لصاحبه : « تعال أقسرك » فليصدق (٢) » .

وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك ، كما كانت ألستهم قد احتاحت : في زمن الجاهلية ، كما قال النسائي : أخبرنا أحمد بن بكار وعبد الحميد بن محمد قالا : حدثنا مخلد ، حدثنا يونس ، عن أبيه : حدثني مصعب بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه قال : حلفت باللات والزى ، فقال لي أصحابي : بش ما قلت ! قلت همجرا ! فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكرت ذلك له ، فقال : « قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . وانف عن شيالك ثلاثا ، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم لا تعد (٣) » :

وأما مائة فكانت بالمسكّل - عند قُديد ، بين مكة والمدينة - وكانت خزاعة والأوس والنخلاج (٤) في جاهليتها يعظمونها ، ويهلون منها الحج إلى الكعبة . وروى البخارى عن عائشة غيرة (٥) . وقد كانت جزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كعظيم الكعبة ، بها مدنة وحجاب ، وتهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتلوف بها ككوثفاتها بها ، وتحر عندها ، وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ، ومسجده . فكانت لقريش وبني كنانة العزى بنخلة ، وكانت سدنتها وحجباها بنى شيان من سليم حلفاء بنى هاشم (٦) .

قلت بعث إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد فلهما ، وجبل يقول :
يَا حَزَّ ، كُفِّرْكَ لَكَ لا صُحْبَكَ لَكَ إلى رأيت الله قد أهانك (٧) ؟

وقال النسائي : أخبرنا علي بن المنذر ، أخبرنا ابن فضيل ، حدثنا الوليد بن جُحج ، عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها الزى ، فأثابها خالد وكانت على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها . ثم أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره ، فقال : وارجع

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الحادية عشرة من سورة محمد وجرته هناك ، انظر ٧ / ٢٩٤ .

(٢) البخارى تفسير سورة « والنجم » ١٧٦ / ٦ .

(٣) النساء ، كتاب الإيمان ، باب « الحلف باللات والزى » ٤ / ٨٠ .

(٤) الأصنام للكلبي ١٢ .

(٥) البخارى ، تفسير سورة « والنجم » ١٧٦ / ٦ - ١٧٧ .

(٦) سيرة ابن هشام ١ / ٨٣ - ٨٤ ، ٢ / ٤٢٦ .

(٧) الأصنام للكلبي ٢٦ .

فإنك لم تصنع شيئاً . فرجع خالد ، فلما أبصرته السنة - وهم حجبتها - آمنوا في الحبل وهم يقولون : « يا هزى ، يا هزى » . فأثامها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحزن الرب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فأخبره ، فقال : « تلك الهزى » .

قال ابن إسحاق : وكانت اللات لتضيف باللطائف ، وكان سكتها وحجابها بنى مُعْتَب (١) .

قلت : وقد بعث إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المغيرة بن شعبه وأبا سفيان صخر بن حرب ، فهولاهما وجعلاهما مكانها مسجد اللطائف .

قال ابن إسحاق : وكانت مائة للأوس والخزرج ومن دان يدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المُشَكَل بقديد ، فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها . ويقال : على أبي طالب (٢) .

قال : وكانت ذو الخلصة لدروس وختم وبجيلة ، ومن كان ببلادهم من العرب يتنبأ له (٣) .

قلت : وكان يقال لها : الكعبة البانية ، والكعبة إلى مكة الكعبة الشامية .

فبعث إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جرير بن عبد الله البجلي فهدمه (٤) .

قال : وكانت فكس (٥) لطبيء ولبن يلبها بجني طبيء من (٦) سكي وأجا .

قال ابن هشام : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث إليه على بن أبي طالب فهدمه ، واصطفي منه سيفين : الرسوب والخذم ، فنقله إبراهيم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فهما سيفان على (٧) .

قال ابن إسحاق : وكان لحمر وأهل اليمن بيت يصنعاء يقال له : وياض (٨) : وذكر أنه كان به كلب أسود ، وأن الحمرين اللذين ذهبوا مع [تبع] استخرجاه وقتلاه ، وهما البيت (٩) .

قال ابن إسحاق : وكانت رُضَاء بنتا لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ولها بقول المستور بن ربيعة ابن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام :

وَلَكِنَّهُ شَدَدْتُ هَلَى رُضَاءَ شَدَّةً فَتَرَكْتُهَا قَعْرًا يَفْقَاحُ اسْحَمًا

(١) سيرة ابن هشام : ١ / ٨٥ . وفي كتاب الأسماء للكلبي : ١٦ : « وكان سكتها من قريش بنو حنابل بن مالك » .

(٢) سيرة ابن هشام : ١ / ٨٥ - ٨٦ ، وانظر الأسماء للكلبي : ١٥ .

(٣) لقالة : موضع بين مكة واليمن . انظر الأسماء : ٣٤ .

(٤) سيرة ابن هشام : ١ / ٨٦ .

(٥) في المخطوطة : « قلس » ، بالقاف . والمثبت عن سيرة ابن هشام : ١ / ٨٧ ، وكتاب الأسماء للكلبي : ١٥ ، ٥٩ .

(٦) في سيرة ابن هشام : ١ / ٨٧ : « يعني سكي » .

(٧) سيرة ابن هشام : ١ / ٨٧ .

(٨) انظر سيرة ابن هشام : ١ / ٢٧ - ٢٨ .

قال ابن هشام : إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة ، وهو القائل :

وَلَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَحَمَرْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِّ مَعَيْنَا
مِائَةً حَدَّثَهَا بَعْدَ مَا مِثْقَالُ لِي (١) مِنْ عَدَدِ الشُّهُورِ مِثْقَالُ
حُلٍّ مَا بَقِيَ إِلَّا كَمَا قَدْ فَاتَنَا يَوْمَ يَمُرُّ وَلَيْلَةٌ تَحْدُوثُ

قال ابن إسحاق : وكان ذو الكعبات لبحر ونظب ابني وائل ، ولياد يستند (٢) وله يقول أعشى بني نيسابن لعيلة :

بَيْنَ الْغُرُورِ وَالسَّيْرِ وَالْمَارِ وَالْيَدِ ذِي الْكَعْبَاتِ مِنْ سَنَدٍ (٣)

وهذا قال : (أرأيت ثلاث والعزى ، ومائة الثالثة الأخرى ؟) .

ثم قال : (ألكم الذكر وله الأنثى ؟) ، أى : أنجلون له ولدا ، وتعملون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ، ظهر اتساع أتم وغلوق مطلق هذه القسمة لكات (قسمة فيزي) ، أى : جورا باطلة ، فكيف تقاسمون ويكم هذه القسمة التى لو كانت بين غلوقين كانت جورا وسفها .

ثم قال متكررا عليهم فيها ابتدعوه وأحدلوه من الكلب والافتراء والكفر ، من عبادة الأصنام وتسميتها كلة (٤) (إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم) ، أى : من تقاد أنفسكم (ما أنزل الله بها من سلطان) ، أى : من حجة ، (إن يبعون إلا الظن ، وما نبوى بالأنفس) ، أى : ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلخوا هذا المسلك الباطل فيهم ، وإلا حظ نفوسهم فى رياستهم وتعليل آبائهم الأقدمين ، (ولقد جامعهم ربهم المذى) ، أى : ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما ابجروا ما جاءهم به ، ولا اتقوا الله .

ثم قال : (أم للإنسان ما تمنى) ، أى : ليس كل من تمنى غيرا حصل له ، (ليس بأمانىكم ولا أمانى أهل الكتاب) (٥) ، أى : كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من وعد شيئا يحصل له :

قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق ، حدثنا أبو حنيفة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يمنى ، فإنه لا يرى ما يكتب له من أميته (٦) ، فرديه أحمد .

(١) فى المخطوطة : وحمرت من عدد ، والثبت من سيرة ابن هشام .

(٢) سنداد - بكرر السين وفتحها - : منازل لإياد أسفل سواد الكوفة .

(٣) سيرة ابن هشام : ١ / ٨٧ - ٨٨ .

(٤) سورة النساء ، آية : ١٢٣ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١ / ٢٥٧ ، ٢٨٧ .

وقوله : (قلله الآخرة والأولى) ، أى : إنما الأمر كله لله ، مالك الدنيا والآخرة ، والمصرف فى الدنيا والآخرة ، فهو الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ، كقوله : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه) (١) ، (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) (٢) ، فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أبها الجاهلون شفاعته هذه الأصنام والأنداد عند الله ، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها ، بل قد نبى عنها كل ألسنة جميع رسله ، وأنزل بالنبى عن ذلك جميع كتبه ؟

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ۚ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَنْهَوْنَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ إِنَّكَ مُبْتَلًى مِنْ أَلَمِمْ ۖ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ۚ

يقول تعالى منكرا على المشركين فى تسميتهم للملائكة تسمية الأنثى ، وجعلهم لها أنها بنات الله كما قال : (وجعلوا للملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ مستكبر شهادتهم ويسألون (٣)) . ولهذا قال : (وما لهم به من علم) أى : ليس لهم علم صحيح يصحده ما قالوه ، بل هو كلب وزور واقتراه وكفر شنيع . (إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا) ، أى : لا يجنى شيئا ، ولا يقوم أبدا مقام الحق . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : (إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث (٤)) .

وقوله : (فأعرض عن من تولى عن ذكرنا) ، أى : أعرض عن الذى أعرض عن الحق واهجره .

وقوله : (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) ، أى : وإنما أكثر همه ومبلغ حمله الدنيا ، فذلك هو غاية مالا خير فيه . ولذلك قال : (ذلك مبلغهم من العلم) ، أى : طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه . وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دار من لا دار له ، وما لمن لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له (٥) » . وفى الدعاء المأثور : « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا (٦) » .

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٥ .

(٢) سورة سبأ : آية ٢٣ .

(٣) سورة الزخرف : آية ١٩ .

(٤) البخارى ، كتاب الرضايا ، باب قول الله تعالى : (من يبدو وصية يوصى بها أو دين) : ٤ / . وكتاب النكاح ، باب : ولا يضبط على عطية أنثى حتى يتكبر أو يذبح : ٧ / ٢٤ . وكتاب الفرائض ، باب : تعليم الفرائض : ٨ / ١٨٥ . وكتاب الأدب ، باب : ما ينهى عن التحاملة والتناذر : ٨ / ٢٣ . ومسلم ، كتاب البر ، باب : « تعزيم اللعان والتجسس » : ١٠ / ٨ . ونحوه الأحرش ، أبواب البر ، باب : ما جاء فى ظن السود : الحديث ٢٠٥٥ - ٦ - ١٢٣ - ١٢٤ . وقال الترمذى : « حسن صحيح » . ومسنود الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢ / ٢٤٥ ، ٢٨٧ ، ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٤٧٠ ، ٤٨٢ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٥٠٤ ، ٥١٧ ، ٥٣٩ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦ / ٧١ .

(٦) تحفة الأشراف ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٦٩ : ٩ / ٤٧٥ - ٤٧٧ ، وقال الحافظ أبو النمل صاحب تحفة الأحرش معنيا على قول الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » ، قال : « وأخرجه النسائى والحاكم وقال : « صحيح على شرط البخارى » .

وقوله : (إن ربيك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى) ، أى : هو الخالق لجميع المخلوقات ، والعالم بمصالح عباده ، وهو الذى يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وذلك كله من قدرته وعلمه وحكمته ، وهو العادل الذى لا يجرؤ أبداً ، لا فى شرعه ولا فى قدره .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ ﴿٣١﴾
الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّغَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَعْفَرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُذِّبِكُمْ إِذْ أَنَسَاكُمْ مِنْ
الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أَجْتُمْتُمْ فِي ظُلُونِ أُمْتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّبَعَ ﴿٣٢﴾

يجزى تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الذى هما سواء ، الحاكم فى خلقه للعالم ، وخالق الخلق بالحق ، (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) ، أى : يجازى كلا بعمله ، إن خيرا الجزى ، وإن شرا فشره . ثم فسر المصنف بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أى : لا يتعاملون بالمعصيات والكبائر وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يفرط لهم ويسر عليهم ، كما قال فى الآية الأخرى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ، نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مخرجا كريما) (١) . وقال هاهنا : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللغم) . وهذا استثناء منقطع ، لأن اللغم من صغائر الذنوب وعقوبات الأعمال .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبهَ باللغم ما قال أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم (٢) قال : هـ إن الله - تعالى - كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فرأى العين النظر ، وزنا اللسان للنطق ، والنفس تمنى وتشتى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذب (٣) .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث عبد الرزاق ، به (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن قور ، حدثنا معمر ، عن الأعمش ، عن أبي الضمخشى أن ابن مسعود قال : زنا العين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا الدين البطش ، وزنا الرجلين المشى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذب به ، فإن تقدم فرجه كان زانيا ، وإلا فهو النائم (٥) . وكذا قال مسروق ، والنسفي .

(١) سورة النساء : آية : ٣١ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من خطوطة الأزهري ، وقد أثبتناه من نسخة الإمام أحمد والطبقات السابقة .

(٣) نسخة الإمام أحمد : ٢٧٦/٢ . وانظر أيضا : ٣٤٣/٢ ، ٣٧٩ ، ٤٣١ ، ٥٣٦ .

(٤) البخاري ، كتاب الاستئذان ، باب : زنا الجوارح دون الفرج : ٦٧/٨ ، وكتاب الفجر ، باب : (وجرام على

فرقة أهلكناها أنهم لا يرجعون) : ١٥٦/٨ . ومسلم ، كتاب الفجر ، باب : قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره : ٥٢/٨ .

(٥) تفسير الطبري : ٢٩/٢٧ .

وقال عبد الرحمن بن نافع - الذي يقال له : ابن لُبابة (١) الطائفي - قال : سألت أبا هريرة عن قول الله : (إِلاَّ اللَّهُمَّ) ، قال : اللببة ، والمعزة ، والنظرة ، والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا (٢) .
وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (إِلاَّ اللَّهُمَّ) ، إِلاَّ ما سلف . وكذا قال زيد بن أسلم .
وقال ابن جرير : حدثنا ابن [المقفي] (٣) ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن مجاهد أنه قال : في هذه الآية : (إِلاَّ اللَّهُمَّ) ، قال : الذي يلم بالذنب ثم يَدَّعه ، قال الشاعر :
إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيَّ حَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا ؟

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد في قول الله : (إِلاَّ اللَّهُمَّ) ، قال : الرجل يلم بالذنب ثم يتبرع عنه ، قال : وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون :
إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيَّ حَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا ؟
وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعا (٤) .

قال ابن جرير : حدثني سليمان بن عبد الجبار ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن عمرو بن دينار ، عن عطية ، عن ابن عباس : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والقوا حشواً إِلاَّ اللَّهُمَّ) ، قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب .
وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيَّ حَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا ؟

هكذا رواه الترمذي ، عن أحمد بن عثمان أبي عثمان البصري ، عن أبي عاصم النبيل . ثم قال : « هذا حديث حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إِلاَّ من حديث زكريا بن إسحاق (٥) » . وكذا قال البزار : لا نعلمه يروى متصلاً إِلاَّ من هذا الوجه . وساقه ابن أبي حاتم والبيهقي من حيث أبي عاصم النبيل ، وإنما ذكره البيهقي في [تفسير] « سورة تنزيل » ، وفي صحته مرفوعاً نظراً .

ثم قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا يونس ، عن الحسن ، عن أبي هريرة - أراه رحمه - : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والقوا حشواً إِلاَّ اللَّهُمَّ) ، قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، قال : ذلك الإلزام (٦) .
وحدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن أبي عدي ، عن حوف عن الحسن ، في قول الله : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والقوا حشواً إِلاَّ اللَّهُمَّ) ، قال : اللمة من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ، ثم لا يعود .

(١) في المخطوطة : « لباته » . والمثبت من تفسير الطبري . وفي الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢ / ٢٩٤ : « عبد الرحمن ابن نافع بن لبابة الطائفي » . وقال السيد محقق الجرح مقبلاً على « لبابة » : « بلا نقط في الأصابع » والمعروف بهذا الشكل (لبابة) وادّأمل .

(٢) تفسير الطبري : ٣٩ / ٢٧ .

(٣) في المخطوطة : « ابن عيسى » . والمثبت من الطبري .

(٤) تفسير الطبري : ٢٧ / ٣٩ / ٤٠ .

(٥) تحفة الأحرف ، تفسير سورة النجم ، للمحدث ٣٣٨ / ٩ : ١٧٢ .

(٦) تفسير الطبري : ٢٧ / ٣٩ .

وحدثني يعقوب ، حدثنا ابن علي ، عن أبي رجاء ، عن الحسن في قول الله : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللجم) ، قال : كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقولون : هو الرجل يصيب اللمة من الزنا ، واللمة من شرب الخمر ، فيجتنبها ويتوب منها (١) .

وقال ابن جرير ، عن عطاء ، عن ابن عباس : (إلا اللجم) : يلجمها إلى الحين : قلت : الزنا ؟ قال : الزنا ثم يتوب (١) .
وقال ابن جرير أيضا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : اللجم الذي يلجم المرأة .

وقال السدي : قال أبو صالح : سئلت عن اللجم قلت : هو الرجل يصيب اللجم ثم يتوب ، وأخبرت بذلك ابن عباس فقال : لقد أحاطت عليها منك كريمة . حكاه البغوي .

وردى ابن جرير من طريق الثوري بن الصباح - وهو ضعيف - عن عمرو بن شعيب : أن عبد الله بن عمرو قال : اللجم : مادون الشرك (١) .

وقال سفیان الثوري ، عن جابر الجعفي ، عن عطاء ، عن ابن الزبير : (إلا اللجم) ، قال : ما بين الحدين : حد الدنيا (٢) ، وحداب الآخرة . وكذا رواه شعيب ، عن الحكم ، عن ابن عباس ، مثله سواء (١) .

وقال الموق ، عن ابن عباس في قوله : (إلا اللجم) : كل شيء بين الحدين : حد الدنيا وحد الآخرة ، تكفروه الصلوات ، وهو اللجم ، وهو دون كل موجب ، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا ، وأما حد الآخرة فكل شيء خضعه الله بالنار ، وأخر عقوبته إلى الآخرة (١) . وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك .

وقوله : (إن ربك واسع المغفرة) ، أي : رحمة وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها إن تاب منها ، كقوله : (قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله) ، إن الله يفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم (٢) .

وقوله : (هو أعلم بكم ، إذ أنشأكم من الأرض) ، أي : هو بصير بكم ، علم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تصدر عنكم وتقع منكم ، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر (٤) ، ثم قسمهم فريقين : فريقا الجنة وفريقا السعير . وكذا قوله : (وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم) : قد كتب الملك الذي يؤكل به رزقه وإجلته وهمله ، وشئ أم سعيد ؟ .

قال مكحول : كنا أجنة في بطون أمهاتنا ، فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بين ثم كنا مواضع فهلك منا من هلك . وكنا فيمن بين ثم صرنا يتسمعون ، فهلك منا من هلك . وكنا فيمن بين ثم صرنا شيايا فهلك منا من هلك . وكنا فيمن بين ثم صرنا شيوخا - لا أبالك - فلماذا بعد هذا تنتظر ؟ واه ابن أبي حاتم حته .

(١) تفسير الطبري : ٢٧ / ٤٠ .

(٢) في المخطوطة : « حد الزنا » . والمثبت من تفسير الطبري .

(٣) سورة الزمر ، آية : ٥٣ .

(٤) الفر : القمل الأحمر الصغير .

وقوله : « فلا تركوا أنفسكم » ، أى : تخدموها وتشكروها وتغنوا بأعمالكم ، (هو أعلم بمن اتقى) . كما قال :
(ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون شيئا) (١) .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا عمرو الناقد ، حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سميت ابنتي برة ، فقالت لى زينب بنت أبي سلمة : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نبى عن هذا الاسم ، وسميت برة فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تركوا أنفسكم ، إن الله أعلم بأهل البر منكم » . فقالوا : بم نسميها ؟ قال : « سموها زينب » (٢) .

وقد ثبت أيضا فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا خالد الحذاء ، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة ، عن أبيه قال : مدح رجل رجلا عند النبی - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « وبك ! قطعت حق صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلانا - والله صيبه ، ولا أذكرى على الله أحدا - أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك » (٣) .

ثم رواه عن شندّر ، عن شعبة ، عن خالد الحذاء ، به (٤) : فوكذا رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، عن طريق ، عن خالد الحذاء ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، وعبد الرحمن قال : حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام بن الحارث قال : جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه فى وجهه ، قال : فجعل المقتدبان الأسود بخير فى وجهه التراب ويقول : اسرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا لقينا المداحين أن نخوف فى وجوههم التراب (٦) .

ورواه مسلم وأبو داود ، عن حديث الثورى ، عن منصور به (٧) .

(١) سورة النساء : آية ٤٩ .

(٢) مسلم ، كتاب الآداب ، باب : استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن ، وتغيير اسم برة إلى زينب وجورية ونحوها . ١٧٤ - ١٧٣/٦ .

(٣) مستدرك الإمام أحمد : ٥٠ / ٥ - ٤٦ .

(٤) مستدرك الإمام أحمد : ٥١ / ٥ .

(٥) البخارى ، كتاب الآداب ، باب : ما يكره من التاج : ٢٢/٨ . وباب : ما جاء فى قول الرجل : وبك : ٢٢/٨ .
(٦) ٤٦ - ٤٧ . مسلم ، كتاب الزهد ، باب : النهى عن المنح إذا كان فيه إغراء وخيف منه فتنة على الممنوع : ٢٢٧/٨ - ٢٢٨ .
وسنن أبي داود ، كتابه الآداب ، باب : وفى كراهية التاج : . وابن ماجه ، كتاب الآداب ، باب : المنح : . الحديث ٣٧٤٤ : ١٢٣٢/٢ .

(٧) مستدرك الإمام أحمد : ٥٦/٦ .

(٧) مسلم ، فى الكتاب والآداب السابقين : ٢٢٨/٨ ، وسنن أبي داود فى الكتاب والآداب السابقين أيضا .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَدْعُو ۖ وَاعْتَلَىٰ قَلْبًا وَكُذَّبَ ۖ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ۖ أَمْ لَمْ يَلْبَسْ عَمًى فِيْ صُفْحِ مُوسَىٰ ۖ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۖ أَلَا تَرَىٰ ذُرِّيَّتَهُ وَذُرِّيَّاتَكَ ۖ وَتَبْنِي الْإِنْسَانَ إِلَّا مَاسِعًى ۖ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۖ ثُمَّ يَجْزِيهِ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ ۖ

يقول تعالى ذاما لمن تدعى عن طاعة الله : (فلا صدق ولا ضل . ولكن كلب وتولى (١)) ، (واعطى قليلا واكدي) ، قال ابن عباس : أطاع قليلا ثم قطعه (٢) . وكلنا قال بجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقادة ، وغير واحد - قال عكرمة ، وسعيد : كمثل القوم إذا كانوا يعفرون بنرا ، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل ، فيقولون : « أكدينا » ، ويرتكون العمل .

وقوله : (أعنده علم الغيب فهو يرى ؟) ، أى : أعتد هذا الذى قد أمسك يده بحفية الإنفاق ، وقطع معروفا ، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما فى يده ، حتى قد أمسك عن معروفا ، فهو يرى ذلك هيانا ؟! أى : ليس الأمر كذلك ، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة غلا وشحا وحلما ، ولما جاء فى الحديث : « أفنى بلالا ، ولا نخش من ذى الرى ش إلا لالا (٣) » ، وقد قال الله تعالى : (وما أنفقتم من شئ فهو خسران) (٤) ،

وقوله : (أم لم يلبس عما فى صُفْحِ موسى وإبراهيم الذى وفى ؟) ، قال سعيد بن جبير ، والثورى : أى يُلْغِ جميع ما أمر به .

وقال ابن عباس : (وفى) فة بالباغ . وقال سعيد بن جببر : (وفى) ما أمر به : وقال قتادة : (وفى) طاعة الله ، وأدى رسالته إلى خلقه . وهذا القول هو اختيار ابن جرير (٥) ، وهو يشمل الذى قبله ، ويشهد له قوله تعالى (وإذا بطل إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن ، قال : إني جاعلك للناس إماما (٦)) ، فقام بجميع الأوامر ، وترك جميع التواهي ، وبلغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يقتدى به فى جميع أحواله وأفعاله وأقواله ، قال الله تعالى : (لم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من للمشركين (٧)) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن حوف الحمصى ، حدثنا ... (٨) ، حدثنا آدم بن أبى إياس السلفاني ، حدثنا حماد

(١) كذا ، والآيات من سورة التوبة : ٣٩ - ٤٢ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٧ / ٤٢ .

(٣) أخرجه البراز ، والطبراني فى المعجم الكبير ، وأبو يعلى . انظر الكتز الثمين لمحمد بن الصديق ، الحديث ١٢٢٩ .

١٢٣ .

(٤) سورة سبأ : آية : ٣٩ .

(٥) تفسير الطبري : ٢٧ / ٤٢ .

(٦) سورة البقرة : آية : ١٢٤ .

(٧) سورة النحل : آية : ١٢٣ .

(٨) كذا فى خطوطه الأخرى .

ابن سلمة ، حدثنا جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية : (وإبراهيم الذي وفى) ، قال : « أتدري ما وفى ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « وفى على يومه بأربع ركعات من أول النهار » .
ورواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير ، وهو ضعيف (١) .

وقال الترمذي في جامعه : حدثنا أبو جعفر السناني (٢) ، حدثنا أبو مسهر ، حدثنا إسماعيل بن هياش ، عن بَحِيرِ بْنِ سَعْدٍ ، عن خالد بن معدان ، عن جبير بن بُخَيْرٍ ، عن أبي النرداء وأبي ذر ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الله عز وجل أنه قال : « ابن آدم ، اركع في أربع ركعات من أول النهار ، أكفك آخره » (٣) .

قال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا أبي ، حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زبائن ابن خالد ، عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ألا أخبركم لم سعى الله لإبراهيم خليله الذي وفى ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) . حتى ختم الآية »
ورواه ابن جرير عن أبي كريب (٤) عن رَشِيدِ بْنِ سَعْدٍ ، عن زَيْنَانَ (٥) .

لم شرح تعالى بين ما كان أرواحه في صحف إبراهيم وموسى فقال : (أن لا ترز وزارة وزر لغيري) ، أى : كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فلما عليها وزرها ، لا يجعله عنها أحد كما قال : (وإن تدع مظلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) ، (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) ، أى : كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو نفسه . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي - رحمه الله - ومن اتبعه أن القراءة لا يسئل إهداء لولها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولما لم يندب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمته ولا يحثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إجماع ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة - رضى الله عنهم - ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه حل النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فاما الدعاء والصدقة فذلك جميع على وصولها ، ومتصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به » (٦) - فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله ، كما جاء في الحديث : « إن أطيّب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه » (٧)

(١) تفسير الطبري : ٢٧ / ٤٣ .

(٢) في تحفة الأوسى : « حدثنا أبو جعفر السناني ، أخبرنا محمد بن الحسين ، أخبرنا أبو مسهر » . ونسب ابن أبي عمير ما في التحفة : « حدثنا أبو جعفر السناني محمد بن جعفر ، أخبرنا أبو مسهر » ، ففى الخلاصة أن أبا جعفر السناني هو محمد بن جعفر ، يروى عن أبي مسهر .

(٣) تحفة الأوسى : أبواب القهر ، باب « ما جاء في صلاة النسي » ، الحديث ٤٧٣ : ٧ / ٨٥٠ ، وقال الترمذي « حديث غريب » .

(٤) تفسير الطبري : ٢٧ / ٤٣ . ووقع في مسنده : « عن سهل بن معاذ ، عن أنس » ، والصواب ما هنا ، انظر الخلاصة .

(٥) مسلم ، كتاب الوصية ، باب « ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته » : ٧٣ / ٥ .

(٦) السناني ، كتاب « البيوع » ، باب « الحديث على الكسب » : ٧ / ٢٤٠ / ٢٤١ . وابن ماجه « كتاب التجارات » ، باب

« الحث على المكاسب » ، الحديث ٢١٣٧ : ٢ / ٧٢٤ . ومسنده الإمام أحمد من عائشة : ٦ / ٣١ : ٤٢ : ١٢٦ ~ ١٢٧ .

والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقته ، وقد قال تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي اللَّوْحَ ، وَنَكْتُبُ مَا نُلْقِي)^(١) ... الآية . والعلم الذي نشره في الناس فاقده في الناس بعده ، هو أيضا من سميحه وعمله ، وثبت في الصحيح ، ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن يتشفع من أجورهم شيئا^(٢) :

وقوله : (وَأَنْ سَمِعَهُ سَوْفَ يَرَى) ، أي : يوم القيامة كما قال تعالى : (وَقُلْ : أَعْمَلُوا فَسِرَ اللَّهُ عَنْكُمْ دُورَكُمْ)^(٣) ، وسردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون^(٤)) ، أي : فيخبركم به ، ويجزيكم عليه أتم الجزاء ، إن خيرًا فخير ، وإن شرا فشر . وهكذا قال هاهنا : (ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى) ، أي : الأول .

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمَنَتُ^(٥) وَأَنَّهُ هُوَ أَصْحَابُكَ وَأَنَّكَ هُوَ آتِيكَ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَّا وَأَحِبُّ^(٦) وَأَنَّهُ خَلَقَ الرَّجُلَ الْأُنْثَىٰ^(٧) وَأَلَّا تُنْثَىٰ^(٨) مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ^(٩) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ^(١٠) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ^(١١) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ^(١٢) النَّعْرَىٰ^(١٣) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ^(١٤) وَنَعَمًا قَوْمًا أَبْنَىٰ^(١٥) وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ^(١٦) وَأَطْلَمَ^(١٧) | وَالْمُؤَنِّدُكَ أَهْرَىٰ^(١٨) فَفَشَّنَا مَا غَشَّى^(١٩) فَيَا أَيُّهَا الْآلَاءُ رَبِّكَ تَنَمَّرَىٰ^(٢٠)

يقول تعالى : (وأن إلى ربك المنة) ، أي : للمعاد يوم القيامة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سفيان بن سعيد ، حدثنا مسلم بن خالد ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن هرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بني أود ، إلى رسول الله إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار .

وذكر البغوي من رواية أبي جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (وأن إلى ربك المنة) ، قال : لا فكرة في الرب .

قال البغوي : وهذا مثل ما روي عن أبي هريرة مرفوعا : « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ، فإنه لا يحيط به الفكرة » .

كلما أورد ، وليس محفوظ بهذا اللفظ ، وإنما الذي في الصحيح : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعمل بالله ولجته »^(١) . وفي الحديث الآخر الذي

(١) سورة يس : آية : ١٢ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب « لزوم السنة » . والنسائي ، كتاب الزكاة ، باب « التحريض على الصدقة » : ٥ / ٧٦ - ٧٧ . وابن ماجه ، المقنعة ، باب « من سن سنة حسنة أو سيئة » ، الأحاديث ٢٠٣ - ٢٠٧ : ١ / ٧٤ - ٧٥ . ومسنن الإمام أحمد عن أبي هريرة : ٢ / ٣٨٠ ، ٣٩٧ - ٥٠٤ - ٥٠٥ ، ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٣) سورة التوبة ، آية : ١٠٥ .

(٤) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « سفة إبليس وجنوده » : ١٤٩ / ٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجعها » : ١ / ٨٨ .

في السنن (١) : « تفكروا في مخلوقات الله ، ولا تفكروا في ذات الله ، فإن الله خلق ملكا ما بين شحمة أذنه إلى حافته مسيرة ثلاثمائة سنة » ، أو كما قال .

وقوله : « وأنه هو أضحك وأبكى » ، أى : خلق في عباده الضحك والبكاء وسبهما وهما غنفلان ، « وأنه هو أمات وأحيا » ، كقوله : « الذى خلق الموت والحياة (٢) » « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » من نقطة إذا نفث ، كقوله : « ليحسب الإنسان أن يترك سدى » ألم يك نقطة من مني يعنى . لم كان حلقة فخلق عسرى . فحصل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يعيى الموتى (٣) ؟ .

وقوله : « وأن عليه النشأة الأخرى » ، أى : كما خلق البداة هو قادر على الإعادة ، وهى النشأة الآخرة يوم القيامة ، « وأنه هو أفضى وأقضى » ، أى : ملكك عبادة المال ، وجهله لم تفتية مقيا عندهم ، لا يحتاجون إلى بيعة ، فهلا تمام النعمة عليهم (٤) . وحل هذا يدور كلام كثير من المفسرين ، منهم أبو صالح ، وابن جرير ، وغيرهما . وعن مجاهد : « أفضى » : موك ، « وأقضى » : لتعلم . وكلنا قال فتادة .

وقال ابن عباس ، ومجاهد أيضا : « أفضى » : أعطى ، « وأقضى » : وصى .

وقيل : معناه أفضى نفسه وأقر لملائيق إليه ، قاله الحضرى بن لاحق .

وقيل : « أفضى » من شاء من خلقه و « أقضى » : أقرر من شاء منهم ، قاله ابن زيد . حكاهما ابن جرير (٥) ، وهما بعيدان من حيث اللفظ .

وقوله : « وأنه هو رب السمى » ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وفتادة ، وابن زيد وغيرهم : هو هذا التجم الوقاد الذى يقال له « مبرزم الجوزاء » ، كانت طائفة من العرب يبدونه .

« وأنه أهلك عادا الأولى » ، وهم : قوم هود . ويقال لهم : عادين إرم بن سام بن نوح ، كما قال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات المماد . التى لم يخلق مثلها في البلاد ؟ (٦) » ، فكانوا من أشد الناس وأقوام واعتماد على الله وعلى رسوله ، فأهلكهم الله (بريح صرصر عاتية . صخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما (٧)) .

وقوله : « ونودو فإبى » ، أى : صدمهم فلم يبق منهم أحدا ، « وقوم نوح من قبل » ، أى : من قبل هؤلاء ، « إنهم كانوا هم أغلظ وأظنى » ، أى : أشد تمردا من الذين من بعدهم ، « والمؤتفة أهوى » ، يعنى ملأين لوط ، قلبها

(١) ما بين القوسين من العليمات السابقة . ومكانه في المخطوطة يهائى ، ولم نجد الحديث في السنن ، ونحسب أن إثبات كلمة « السنن » من عمل النسخ أو الطابع ، والذى وجدناه في سنن أبي داود ، كتاب السنن ، باب « في الجهمية » ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي - صل الله عليه وسلم - قال : « أذن لي أن أحدث من ملك من ملائكة الله من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى حافته مسيرة سبعمائة عام » . وفي المسند عن ابن عمر نحوه : ٢٦/٢ ، وعن ابن عباس في مسند عائشة نحوه أيضا : ١١٦/٦ - ١١٧ .

(٢) سورة الملك : آية : ٢ .

(٣) سورة النبیمة : الآيات : ٣٦ - ٤٠ .

(٤) تفسير الطبري : ٤٤/٢٧ - ٤٥ .

(٥) سورة النجر : الآيات : ٦ ، ٨ .

(٦) سورة الحاقة : آية : ٦ ، ٧ .

عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود . ولما قال : (ففشاها ما غشي) ، يعني من الحجارة إلى أرسلها عليهم (وأمطرنا عليهم مطرا فشاء مطر للثقلين (١)) .

قال قتادة : كان في مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان قاتضرم عليهم الوادي شيئا من نار ونبط وقطران كظم الأثون . رواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن محمد بن وهب بن عطية ، عن الوليد بن مسلم ، عن خليل ، عنه ، به . وهو غريب جدا .

(فأي آلاء ربك تبارى ؟) ، أي : فأي نعم الله عليك أيها الإنسان تحمى ؟ قاله قتادة .
وقال ابن جريج : (فأي آلاء ربك تبارى ؟) يا عمد . والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير (٢) .

هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّارِ الْأُولَى ۖ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ۖ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۖ أَقْبِنَ هَذَا الْحَدِيثُ تَعَجُّبُونَ ۖ وَتَفْضَحُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۖ وَأَنْتُمْ سَمِيلُونَ ۖ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۖ ﴿١٠﴾

(هذا نذير ، يعني محمدا - صلى الله عليه وسلم - (من النار الأولى) ، أي : من جنهم ، أرسل كما أرسلوا ، كما قال تعالى : (قل ما كنت بدعا من الرسل (٣)) .

(أزفت الأرفة) ، أي : اقتربت القرية ، وهي القيامة ، (ليس لها من دون الله كاشفة) ، أي : لا يذهبها إذا لم دون الله أحد ، ولا يطلع على علمها سواه .

ثم قال تعالى منكرنا على المشركين في استباحهم القرآن وإمراضهم عنه وتلهيهم : (تعجبون) من أن يكون صحيحا ، (وتفضحون) منه استهزاء ومغفرة ، (ولا تبكون) ، أي : كما يفعل الموقنون به ، كما أخبر عنهم : (ويخرون للأذن) ليكون ويذيعهم خشوعا (٤) .

وقوله : (وأنتم سامدون) ، قال سفيان الثوري ، عن أبيه ، عن (٥) ابن عباس قال : الثناء هي بمثابة اسمك لنا نحن لنا (٦) . وكلما قال عكرمة .

وفي رواية عن ابن عباس : (سامدون) : معرضون . وكلما قال بجاهد ، وعكرمة . وقال الحسن : غافلون . وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . وفي رواية عن ابن عباس : تستكبون . وبه يقول السدي (٧) .

ثم قال أمر لعباده بالاجود له والعبادة المتابعة لرسوله - صلى الله عليه وسلم - والتوحيد والإخلاص : (فاسجدوا لله واعبدوا) ، أي : فاختصروا له وأخلصوا ووحلوا .

(١) سورة الشعراء ، آية : ١٧٣ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٧ / ٤٧ .

(٣) سورة الأحقاف ، آية : ٩ .

(٤) سورة الإسراء ، آية : ١٠٩ .

(٥) في تفسير الطبري : عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس .

(٦) تفسير الطبري : ٢٧ / ٤٨ .

تفسير سورة القمر

وهي مكية

قد تقدم في حديث (١) أني وأند : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ آخاف ، وأقرب الساعة ، في الأضحي والقنطر ، وكان يقرأ بها في الخلال الكبار ، لأجلها على ذكر الوعد والوعيد وبه الخلق ، وإعادته ، والتوحيد وإثبات النبوة ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْتَ أَقْرَبُ ① وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا جِئُوا بِمِثْلِ هَؤُلَاءِ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ③ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ④ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجٌ ⑤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ لِّمَا تُفْنِ الْأَنْبَاءُ ⑥

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها ، كما قال تعالى : (أني أمر الله فلا تستعجلوه) ، وقال : (الغرب لتأس حسابه وم في خفة معرضون) . وقد وردت الأحاديث بذلك ، قال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا محمد بن المنقر وعمر بن علي قال : حدثنا خلف بن موسى ، حدثني أبي ، عن قتادة ، عن أنس : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عتَبَ أصحابه ذمت يوم ، وقد كادت الشمس أن تَغْرُبَ فلم يبق منها إلا شَفْءٌ (٢) يسير ، فقال : « والذى نفسي بيده » ، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه ، وما نرى من الشمس إلا يسيراً .

قلت : هذا حديث مداه على خلف بن موسى بن خلف العمري ، عن أبيه . وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : رجحاً أخصاً .

حديث آخر يصفه الذي قبله ويفسره ، قال الامام أحمد : حدثنا الفضل بن دكين ، حدثنا شريك ، حدثنا سلمة ابن كهيل ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : كنا جلوساً عند النبي - صلى الله عليه وسلم - والشمس على فَعْفَيْحَانِ (٣) بعد العصر ، فقال : « ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما هي من النهار فيما مضى » (٤) .

(١) انظر ٧ / ٣٧١ .

(٢) في المخطوطة : « سف » ، بالسین المهملة . وما أثبتناه من النهاية ، قال ابن الأثير : الشف : بقية النهار .

(٣) فَعْفَيْحَان : جبل بمكة .

(٤) سنن الإمام أحمد : ١١٥ / ٢١٦ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين ، حدثنا محمد بن مطرف ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ هَكَذَا » . وأشار بأصبعيه : الساعة والوسطى (١) .
أخرجه من حديث أبي حازم سلمة بن دينار (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن حبيب ، حدثنا الأعمش ، عن أبي خالد ، عن وهب السَّوَّائِي قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « بَشَتْ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَلِهِ مِنْ هَلِهِ إِنْ كَادَتْ لِتَصْبِهَا » (٣) - وجمع الأعمش بين الساعة والوسطى (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا الأزاعي ، حدثني إسماعيل بن هيب الله قال : قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك ، فسأله : ماذا سمعت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذكر به الساعة ؟ فقال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « أَنَّمِ السَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » (٥) .

تقدم به أحمد - رحمه الله - وشاهد ذلك أيضا في الصحيح في أسماء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أنه الحاشر الذي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيْهِ (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزن بن أسد ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، حدثنا حميد بن هلال ، عن خالد بن حمير قال : شطب عتبة بن جبروان - قال يزن : وقال قبل هذه المرة - خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قال : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « وَأَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَذْنَتْ بِصَرْمِ » (٧) وولت حَذَاهُ ، ولم يبق منها إِلَّا صَبَاةٌ كَصَبَاةِ الْإِنَاءِ يَخْتَصِمُ بِهَا صَاحِبُهَا ، وَإِنَّكُمْ مَقْتُولُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوْلَ لَهَا ، فَانْتَقِلُوا بِغَيْرِ مَا يَحْضُرُكُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْحِجْرَ يُلْقَى مِنْ شَكْرِ جَهَنَّمَ فِيهِوِي فِيهَا سَبْعِينَ أَمَامًا مَا يَدْرِكُهَا قَمَرٌ ، وَإِنَّهُ لَيَمُوتُ ، أَمْجِبْتُمْ ! وَإِنَّهُ لَقَدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعِي (٨) لِلْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ أَمَامًا ، وَلِيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَطَيْفِ (٩) الزَّحَامِ (١٠) ... وذكر تمام الحديث ، انفرد به مسلم (١١) .

(١) مستد الإمام أحمد : ٣٨٨/٥ .

(٢) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « بَشَتْ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » : ١٣١/٨ .

ومسلم ، كتاب الفتن ، باب « قرب الساعة » : ٢٠٨/٨ .

(٣) ما بين القوسين عن المستد .

(٤) مستد الإمام أحمد : ٣٠٩/٤ .

(٥) مستد الإمام أحمد : ٢٢٢/٣ .

(٦) البخاري ، كتاب المناقب ، باب « ما جاء في أسماء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - » : ٢٢٥/٤ . ومسلم

كتاب ، الفضائل ، باب « في أسماءه - صلى الله عليه وسلم - » : ٨٩/٧ .

(٧) بصرم : ياتقطع . حذاه : مسرعة . والصباة : بقية قليلة . يصابها : يشربها .

(٨) في المستد : « مصارع » .

(٩) أي : مثل .

(١٠) مستد الإمام أحمد : ١٧٤/٤ . وانظر أيضا : ٦١/٥ .

(١١) مسلم ، كتاب الزهد : ٢١٥/٨ - ٢١٦ .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثني يعقوب ، حدثني ابن علية ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا المدائن فكنّا منها على فرسخ ، فجاعت الجمعة ، فحضر أبي وحضر معه ، فخطبنا حليفة فقال : ألا إن الله يقول : (اقربت الساعة وانشق القمر) ، ألا وإن الساعة قد اقربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد أكدت يفرأق ، ألا وإن اليوم للمضار (١) . وغدا السباق ، فقلت لأبي : أيسق الناس غدا ؟ فقال : يا بني ، إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال . ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرتا فتحلب حليفة فقال : ألا إن الله - عز وجل - يقول : (اقربت الساعة وانشق القمر) ، ألا وإن الدنيا قد أكدت يفرأق ، ألا وإن اليوم للمضار وغدا السباق ، ألا وإن الغاية التار ، والسابق من سبق إلى الجنة (٢) .

وقوله : (وانشق القمر) : قد كان هذا في زمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : « خمس قد مضين : الروم ، والدخان ، والقرآن ، والبطنة ، والقمر (٣) » . وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

رواية أنس بن مالك

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : سألت أهل مكة النبي - صلى الله عليه وسلم - آية ، فأنشئ القمر بمكة مرتين ، فقال : (اقربت الساعة وانشق القمر) (٤) .

ورواه مسلم ، عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق (٥) .

وقال البخاري : حدثني عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا بشر بن الفضل ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن أهل مكة سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يرويه آية ، فأراه القمر شيئين ، حتى رأوا سحراه بينهما (٦) .

وأخرجه أيضا من حديث يونس بن محمد المذنب ، عن شيان ، عن قتادة (٧) . ورواه مسلم أيضا من حديث أبي داود سليمان ، وبطي القطان ، وغيرهما ، عن قتادة ، به (٨) .

(١) أي : اليوم العمل في الدنيا لاستيقاق الجنة . والمضار : الموضع الذي يفسر فيه الخيل . وتفسير الخيل : أن تملكه حتى تسبى ، ثم لا تملك ، إلا قوتا لتنفذ . وقيل : تشد عليها سروجها وتجعل بالأجلة حتى ترقق تمها ، فيلعب رجليها ويشتد لعبها .

(٢) تفسير الطبري : ٥١/٢٧ .

(٣) تقدم الحديث أول سورة الروم وخرجه هناك ، وفرحنا غريبه . انظر : ٣٠٥/٦ .

(٤) سند الإمام أحمد : ١٦٥/٣ .

(٥) مسلم ، كتاب صفه القليلة والجنة والنار ، باب : انشقاق القمر : ١٢٣/٨ .

(٦) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب : انشقاق القمر : ٦٢/٥ .

(٧) البخاري ، تفسير سورة : اقربت الساعة : ١٧٨/٦ . ومسلم ، كتاب صفه القليلة والجنة والنار ، باب : انشقاق القمر : ١٢٣/٨ .

رواية جبير بن مطعم رضي الله عنه :

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سليمان بن كثير ، عن حصّين بن عبد الرحمن ، عن محمد بن جُبَيْر ابن مُطْعِم ، عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا (١) محمد . فقالوا : إن كان سحرنا (١) فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم (٢) . ثم روي الإمام أحمد من هذا الوجه ، وأسنده البيهقي في «الدلائل» من طريق محمد بن كثير ، عن أخيه سليمان بن كثير ، عن حصّين بن عبد الرحمن . وهكذا رواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل وغيره ، عن حصّين ، به (٣) . ورواه البيهقي [أيضا من طريق إبراهيم بن طهان وهشيم ، كلاهما عن حصّين ، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، عن جده فذكره (٤)] .

رواية عبد الله بن عباس :

قال البخاري : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا بكر ، عن جعفر ، عن عراك بن مالك ، عن هيب الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس قال : انشق القمر في زمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم (٥) .

ورواه البخاري أيضا ومسلم ، من حديث بكر بن مضر ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عراك ، به مثله (٦) . وقال ابن جرير : حدثنا ابن مني ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : (اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يرضوا ويقولوا : سحر مستمر) ، قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه (٧) .

وروي العوّذ ، عن ابن عباس نحو هذا (٨) .

وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن عمرو البزّاز ، حدثنا محمد بن يحيى القطّاعي ، حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ابن جبريّ ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كُشِفَ القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : سحر القمر . فتركت : (اقتربت الساعة وانشق القمر) إلى قوله : (مستمر) .

رواية هيب الله عمر :

قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قالا : حدثنا أبو العباس الأعم ، حدثنا العباس بن محمد الدوري ، حدثنا وهب بن جرير ، عن شُعْبَةَ ، عن الأصمّ ، عن مجاهد ، عن عبد الله ابن عُمَرَ بن قُتَيْبَةَ ، عن علي بن عيسى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كُشِفَ القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) في المخطوطة : « محمد » . والمثبت من المستند ، ودلائل النبوة البيهقي .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٨١٤ - ٨٢ .

(٣) تفسير الطبري : ٥١٢٧ .

(٤) دلائل النبوة البيهقي ، مطبوع بدار الكتب برقم ٧٠٩ حديث ، الجزء الثاني ، ورقة : ٦٥ .

(٥) البخاري ، تفسير سورة « اقتربت الساعة » : ١٧٨/٦ .

(٦) البخاري ، كتاب المناقب ، باب « سؤله المشركين أن يرجع النبي - صلى الله عليه وسلم - آية » فأراه انشقاق القمر .

٢٥١/٤ .

(٧) تفسير الطبري : ٥١٢٧٥ .

انشققتين : فلقه من دون الجبل ، وفلقه من خلف الجبل ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اشهد (١) »
وهكلا رواه مسلم والترمذي ، من طريق عن شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، به . قال مسلم كرواية مجاهد عن أبي
معمر عن ابن مسعود (٢) . وقال الترمذي : حسن صحيح (٣) .

رواية عبد الله بن مسعود .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن أبي معمر ، عن ابن مسعود قال : انشق القمر على
عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شقين حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اشهدوا (٤) »
وهكلا رواه البخاري ومسلم ، من حديث سفيان بن عيينة ، به . وأخرجاه من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبي
معمر حيد الله بن مسخيرة ، عن ابن مسعود ، به (٥) .

وقال ابن جرير : حدثني عيسى بن ميثان بن عيسى الرمي ، حدثنا حمى يحيى بن عيسى ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ،
عن رجل ، عن عبد الله قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى فانشق القمر ، فأخذت فرقة خلف الجبل ،
فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اشهدوا ، اشهدوا (٦) » .

قال البخاري : وقال أبو الضحى ، عن مسروق عن عبد الله بن مسعود (٧) .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا أبو عوانة ، عن المغيرة ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود
قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة (٨) : قال :
فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السكّار (٩) ، فان عملاً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . قال : فجاء السكّار فقالوا
ذلك (١٠) .

وقال البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا العباس بن محمد الدوري ، حدثنا
سعيد بن سليمان ، حدثنا هشيم ، حدثنا مغيرة ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله قال : انشق القمر بمكة حتى

(١) دلائل النبوة البيهقي ، خطوط بهار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، ورقة : ٦٥ .

(٢) مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « انشقاق القمر » : ١٣٢/٨ .

(٣) تحفة الأعراف ، تفسير سورة القمر ، الحديث ٣٣٤٢ : ١٧٥/٩ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٧٧/١ .

(٥) البخاري ، تفسير سورة « التريت الساعة » : ١٧٨/٦ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب

« انشقاق القمر » : ١٣٢/٨ - ١٣٣ .

(٦) تفسير الطبري : ٥٠/٢٧ .

(٧) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب « انشقاق القمر » : ٦٧/٥ .

(٨) كان المتركون يفسدون النبي - صلى الله عليه وسلم - إل أبي كبشة ، وهو رجل من غزاة خالف قريشا في عبادة
الأوثان ، وحيد الشعري ، فلما خالفهم في عبادة الأوثان شبهوه به . وقيل : إنه كان جد النبي - صلى الله عليه وسلم - من قبل
أبيه ، فأرادوا أنه لنزق في الشبه إليه .

(٩) يقال : « سمرت أسفر سفودا » : خرجت إلى السفر ، فأنا سافر ، وقوم سفر ، مثل صاحب وصحب ، وسافر

مثل راكب وركاب .

(١٠) منة المبود ، أبواب ما جاء في معجزاته - صلى الله عليه وسلم - باب : « ومن معجزاته - صلى الله عليه وسلم -

انشقاق القمر » : ١٣٢/٢ .

صار فرقتين ، فقال كفار قريش أهل مكة : هذا سحرٌ سحركم به ابن أبي كبشة ، انظروا السَّحَّارَ فان كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سيحورٌ سحركم به . قال : فسُئِلَ السَّحَّارُ ، قال : وقدّموا من كل وجهة ، فقالوا : رأيناه (١) .

رواه ابن جرير من حديث المغيرة ، به وزاد : فأنزل الله عز وجل : (اقتربت الساعة وانشق القمر (٢)) . ثم قال ابن جرير :

حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، أخبرنا أيوب ، عن محمد - هو ابن سيرين - قال : لبثت أن ابن مسعود رضي الله عنه - كان يقول : لقد انشق القمر (٣) .

وقال ابن جرير أيضا : حدثني محمد بن حمارة ، حدثنا عمرو بن حماد ، حدثنا أسباط ، عن سفيان ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عبد الله قال : لقد رأيت الجبل من قرع القمر حين انشق (٤) :

ورواه الإمام أحمد عن مؤمل ، عن إسرائيل ، عن سفيان ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عبد الله قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر (٥) .

وقال ليث ، عن مجاهد : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصار فرقتين ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر : « اشهد يا أبا بكر » . فقال المشركون : سحبر القمر حتى انشق (٦) .

وقوله (وإن يروا آية) ، أي : دليلا وحجة وبرهانا (يعرضوا) ، أي : لا ينقادون له ، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ، (ويقولوا : سحر مستمر) ، أي : ويقولون : هذا الذي شاهدناه من الحجيج ، سحر سحرنا به .

ومعنى (مستمر) ، أي : ذائب . قاله مجاهد ، وقادة ، وغيرهما ، أي : باطل مضمحل ، لا دوام له . (وكلبوا واتبعوا أهوامهم) ، أي : كذبوا بالحق إذ جامعوهم ، واتبعوا ما أمرتهم به آراءهم وأهوائهم من جهلهم وسخافة عقولهم :

وقوله (وكل أمر مستقر) ، قال قدامة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير ، والشر واقع بأهل الشر ،

وقال ابن جرير : مستقر بأهله . وقال مجاهد : (وكل أمر مستقر) ، أي : يوم القيامة ،

وقال السدي : (مستقر) ، أي : واقع .

وقوله : (ولقد جامعوهم من الأنباء) ، أي : من الأخبار عن قصص الأمم المكذبتين بالرسول ، وما حل بهم من العقاب والشك والعلاب ، مما ينزل عليهم من هذا القرآن ، (ما فيه مزدجر) ، أي : ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتأدي على التكليف .

(١) دلائل نبوة النبي ، مخطوط بدار الكتب برقم ٧٠١ حديث ، الجزء الثالث ، ورقة : ٦٤ .

(٢) تفسير الطبري : ٥٠/٢٧ - ٥١ .

(٣) تفسير الطبري : ٥١/٢٧ .

(٤) تفسير الطبري : ٥٠/٢٧ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٤١٣/١ .

(٦) تفسير الطبري : ٥١/٢٧ - ٥٢ .

وقوله : (حكمة بالغة) ، أى : فى هدايته تعالى من هده واضلله لمن أضله ، (فأتنى النار) ، أى : أتى شئ تنفى النار عن كعب الله عليه الشقاوة ، وخُتِمَ على قلبه ؟ فمن الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى : (قل : غلله الحجة البالغة ، فلو شاع لمداكم أجمعين (١)) : وكذا قوله تعالى : (وما تنفى الآيات والنار من قوم لا يؤمنون) (٢) .

فَقَوْلُهُمْ يَوْمَ يَلْعَقُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ ① خُشْعًا أَبْصَرَهُمْ بِحُجُوجٍ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ② مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ③

يقول تعالى : قول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رآوا آية يعرضون ويقولون : هذا سحر مستمر ، أمضى عنهم وانتظروهم يوم يلعق الداع إلى شئ نكر ، أى : إلى شئ منكر فظيع ، وهو موقف الحساب ، وما فيه من البلاء ، بل والزلازل والأحوال ، (خاشعاً) (٣) أبصارهم ، أى : ذليلة أبصارهم ، (بحجوج من الأجداث) ، وهى القبور ، (كأنهم جراد منتشر) ، أى : كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى (جراد منتشر) فى الآفاق ، ولهذا قال : (مهطعين) ، أى : مسرعين (إلى الداعى) ، لا يخافون ولا يتأخرون ، (يقول الكافرون : هذا يوم عسير) ، أى : يوم شديد المهل جوس قمطير (فلذلك يومئذ يوم عسير : على الكافرين غير يسير (٤)) .

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ① فَقَدَرَهُ بَأْىَ مَقْلُوبٍ فَأَنْتَصِرَ ② فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا هُمْ مُمْنِرٌ ③ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ④ وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ⑤ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ⑥ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدْكِرٍ ⑦ فَكَفَيْكَ كَانَ عَلْدَانِ يَنْذِرُ ⑧ وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقَوْمَ أَنَّ لِلَّذِينَ قَبْلَهُمْ مَدْكِرٌ ⑨

يقول تعالى : (كذبت) قبل قومك يا محمد (قوم نوح فكذبوا عبدا) ، أى : صرحوا له بالكليب وأهموه بالجنون (وقالوا : مجنون وازدجر) - قال مجاهد : (وازدجر) ، أى : استعجز جنونا . وقيل : (وازدجر) ، أى : انتهبوه وزجروه وأعدوه : (لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) (٥) . قاله ابن زيد ، ولهذا متوجه حسن . (فقدرا به أنى مغلوب فانتصر) ، أى : إلى ضعيف عن هولاء وعن مقاومتهم (فانتصر) أنت لبيك . قال الله تعالى : (فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر - قال السدى : هو الكثير - (وفجرتنا الأرض عيونا) ، أى : نبئت جميع أرجاء الأرض ، حتى انتابن إلى هى محتال النيران نبئت عيونا) ، (فاللقى الماء) ، أى : من السماء ومن الأرض (على أمر قد قدر) ، أى : أمر مستقدر .

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٤٩ .

(٢) سورة يونس ، آية : ١٠١ .

(٣) كلما فى خطوطة الأثر : «خاشعاً» ، وهى قرأته أبى وابن مسعود . انظر البحر المحيط لأبى حيان : ١٧٥/٨ .

(٤) سورة المدثر ، آية : ٩ - ١٠ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٧/٥٤ .

قال ابن جرير ، عن ابن عباس : (فتحت أبواب السماء ماء منهمر) كثير ، لم تخطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده ، ولا من السحاب ؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فالتقى الماء على أمر قد قدر .
وروى ابن أبي حاتم أن ابن الكواهمه سأل علياً عن المسجرة فقال : هي شرح (١) السماء ، ومنها فتحت السماء ماء منهمر (وحملناه على ذات ألواح ودسر) ، قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والقرظي ، وقتادة ، وابن زيد : هي المسامير . واختاره ابن جرير ، قال : وواحدها دسار ، ويقال : دسبر كما يقال : حببك وحباك ، والجمع حببك (٢) .
وقال جاهد : الدسر : أضلاع السفينة . وقال عكرمة والحسن : هو صدرها الذي يضرب به الموج .
وقال الضحاك : الدسر : طرفاها وأصلها .
وقال العوفي ، عن ابن عباس : هو ككلكتلها (٣) :

وقوله : (نجري بأعيننا) ، أي : بأمرنا بما رأينا وتحت حفظنا وكلامنا ، (جزاء لمن كان كفر) ، أي : جزاء لمن حل كفرهم بالله واتصافاً لنوح عليه السلام .

وقوله : (ولقد تركناها آية) ، قال قتادة : أبقي الله سفينة نوح حتى أذكرها أول هذه الأمة . والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن ، كقوله تعالى : (وآية لم أنا حملنا فريقتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لم من مثله ما يركبون) (٤) . وقال : (إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) لتجملها لكم لتذكروا وتنبها أذن واعية) . ولهذا قال هاهنا : (فهل من مُدْكَر) ، أي : فهل من يذكر ويحفظ ؟

قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن الأسود ، عن ابن مسعود قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم - : (فهل من مُدْكَر) .

[فقال رجل : يا أبا عبد الرحمن ، مُدْكَر أو مُدْكَر ؟ قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم مُدْكَر] (٥) ، وهكذا رواه البخاري : حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن الأسود بن يزيد ، عن عبد الله قال : قرأت على النبي - صلى الله عليه وسلم - : (فهل من مُدْكَر) . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : (فهل من مُدْكَر) (٦) .

وروى البخاري أيضاً من حديث شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن الأسود ، عن عبد الله قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ : (فهل من مُدْكَر) (٦) ؟

وقال : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا زهير ، عن أبي إسحاق : أنه سمع رجلاً يسأل الأسود : (فهل من مُدْكَر) ، أو :

-
- (١) المسجرة - يفتح فسكون - : منيل الماء من الحرة إلى السهل ، والشرح جنس لها . وفي اللسان : « والمسجرة : شرح السماء ، يقال : هي بابها ، وهي كهيئة القبة . وفي حديث ابن عباس : المسجرة باب السماء ، وهي البياض المتعرض في السماء » .
 - (٢) تفسير الطبري : ٥٥/٢٧ .
 - (٣) الكلكل : القصد من كل شيء .
 - (٤) سورة يس : آية : ٤١ - ٤٢ .
 - (٥) ما بين القوسين من مسند الإمام أحمد : ٣٩٥/١ . وتحتوي أن يكون قد سقط من الخطوط .
 - (٦) البخاري ، تفسير سورة « اتقرب الساعة » : ١٧٩/٦ .

(مُذَكَّر) ؟ قال : سمعت عبد الله يقرأ : (فهل من مُذَكَّر) . وقال سمعت ومول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأها : (فهل من مُذَكَّر) دالا (١) .

وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه ، من حديث أبي إسحاق (٢) .

وقوله : (فكيف كان عذاب ونثر) ، أى : كيف كان عذاب من كفرني وكلب رسل ولم يمتثل بما جاءت به نذري ، وكيف انصرت لهم ، وأخذت لهم بالكأر ؟

(ولقد يسرنا القرآن للذكر) ، أى : سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه لمن أراده ، لينتكر الناس : كما قال : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) (٣) . وقال تعالى : (فأما يسرّرتنا بلسانك لتبشّر به المتقين وتتلوه به قوماً لذا) (٤) .

قال عياض : (ولقد يسرنا القرآن للذكر) ، يعنى : هوّنّا قراءته (٥) .

وقال السدي : يسرنا تلاوته على الألسن .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : لولا أن الله يسره على لسان آدميين ، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل .

قلت : ومن تيسره - تعالى - على الناس ثلاثة القرآن ما تقدّم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : وإن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف (٦) . وأوردنا الحديث بطريقه وألفاظه بما أفنى عن إعادته هاهنا ، وفي الحمد والمئة .

وقوله : (فهل من مُذَكَّر) ، أى فهل من متذكر بهذا القرآن الذى قد يسّر الله حفظه ومعناه ؟

وقال محمد بن كعب القرظي : فهل من مترجم عن المعاصي ؟

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسن بن واقع ، حدثنا ضمرة ، عن ابن شاذيب ، عن مطر - هو الوراق -

في قوله تعالى : (فهل من مُذَكَّر) ، هل من طالب علم فيمان عليه ؟

وكذا قلته البخاري بصيغة الجزم ، عن مطر الوراق . ورواه ابن جرير (٧) ، وروى عن قتادة مثله .

(١) البخاري ، تفسير سورة القدر والساعة : ١٧٨/٦ .

(٢) تحفة الأحوي ، أبواب القراءات ، الحديث ٤٠٠٧ : ٢٥٨/٨ ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » .
وقال الحافظ أبو العلي صاحب تحفة الأحوي : « وأخرجه الشيخان وأبو داود والنسائي » .

(٣) سورة ص : ص : آية ٢٩ .

(٤) سورة مريم : آية ٩٧ .

(٥) تفسير الطبري : ٥٧/٢٧ .

(٦) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب « أنزل القرآن على سبعة أحرف » : ٢٢٢/٦ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه : ٢٠٢/٢ . وسنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، أبواب الوتر ، باب « وأنزل القرآن على سبعة أحرف » . وتحفة الأحوي أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف » . الحديث ٤٠١٣ - ٣٠١٤ : ٢٦٣/٨ - ٢٦٧ . والنسائي ، كتاب الافتتاح ، باب « ما جاء في القرآن » : ١٥٠/٢ . وحسن الإمام أحمد عن أبي بكرة : ٤١/٥ . وعن عباد بن الصامت ، عن أبي أيوب بن كعب : ١١٤/٥ . وعن سليمان بن صرد ، عن أبي بن كعب : ١٢٤/٥ . وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أبي بن كعب : ١٢٧/٥ ، ١٢٨ . وعن زر بن حبیش ، عن أبي بن كعب : ١٣٢/٥ .

(٧) تفسير الطبري : ٥٧/٢٧ .

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَتْ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿١٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١١﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ خِجْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿١٢﴾ فَكَيْفَ كَانَتْ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿١٤﴾

يقول تعالى خبراً عن عاد قوم هود إنهم كذبوا رسولهم أيضاً ، كما صنع قوم نوح ، وأنه تعالى أرسل (عليهم رعا صرصراً) ، وهي ال바ردة الشديدة البرد ، (في يوم نحس) ، أي : عليهم . قاله الضحاك ، وقناة ، والسدي ، (مستمر) عليهم نحسه وعمارته ، لأنه يوم اتصل فيه عليهم الدنيوى بالأخروى .

وقوله : (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) ، وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تنفيه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فيسقط إلى الأرض ، فتخلغ (١) رأسه فينبى جثة بلا رأس ، ولهذا قال : (كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذيرى . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿١٥﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا ضَلُّكِي وَسُعْرٍ ﴿١٦﴾ أَتَيْنَاكَ لِيُزِيلَ عَنْهُمْ يَبِينَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿١٧﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿١٨﴾ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَيَنْتَهِ لَهَا فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿١٩﴾ وَبَيْنَهُمْ أَنْ أَلْمَأْ قَسَمَةَ بَيْنَهُمْ كُلَّ شَرْبٍ مُخْتَصِرٌ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢١﴾ فَكَيْفَ كَانَتْ عَذَابِي وَنَذِيرِي ﴿٢٢﴾ إِنَّا رَسَلْنَا عَلَيْهِمْ صِيعَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَيْئَةِ الْمُحْطَرِّ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿٢٤﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً ، (فقالوا : أبشر ! منا واحد نتبعه ! إنا إذا لبئنا ضللكي وسعر) ، يقولون : لقد سمعنا وخبرنا إن سلمنا كلنا قيادة لواحد منا ! ثم تبعوا من إلقاء الوحى عليه خاصة من دونهم ، ثم رموه بالكذب فقالوا : (بل هو كذاب أشير) ، أي : متجاوز في حد الكذب . قال الله تعالى : (سيعلمون عذاب الكذاب الأشير) . ولهذا تهجد لم شديد ووحيد أكيد .

ثم قال تعالى : (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم) ، أي : اجتباراً لهم ، أخرج الله لهم ناقة عظيمة عصفراء من صخرة صماء طبعاً ماسالوا ، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح - عليه السلام - فيجاهم به .

ثم قال أمراً لعبد ورسوله صالح : (قارتبهم واصطبر) ، أي : انتظر ما يؤول إليه أمرهم ، واصبر عليهم ، فإن العاقبة والنصر لك في الدنيا والآخرة . (وبينهم أن الماء قسمة بينهم) ، أي : يوم لهم ويوم لنا . كقوله : (قال : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم (٢)) .

وقوله : (كل شرب مختصر) - قال مجاهد : إذا غابت حضروا الماء ، وإذا جاءت حضروا اللبن (٣) .

(١) أي : تشلحه .

(٢) سورة الشعراء ، آية : ١٥٥ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٧٧ / ٩٠ .

ثم قال تعالى : (فبادوا أصحابهم فتعاطى فخر) — قال المفسرون : هو عاقر الناقة ، واسمه قُدْكَر بن سالف ، وكان أشد قوم . كقوله : (إذا نبئت أشقاها (١)). (تعاطى ، أى : فحَسِرَ (٢) فخر . فكيف كان عداوى وتلار ؟
أى : فما قبضتهم فكيف كان عداوى على كفرهم فى وتكذيبهم رسولى ؟ (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) ،
أى : فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية ، وخسروا وهَمَّوْا كما بهم يَبِيسُ الزرع والنبات ، قاله غير واحد من
المفسرين . والمحتظر — قال السدى — : هو المرمى بالصحرَاء حين يمس ونحرق ونسفته الريح .

وقال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حَقْلًا رَأً على الإبل والمواشى من يَبِيسِ الشوك ، فهو المراد من قوله : (كهشيم المحتظر) .

وقال سعيد بن جبْرِ : (هشيم المحتظر) : هو التراب المتناثر من الحائط . وهذا قول غريبه ، والأول أنزى ، والله أعلم .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ ﴿١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٢﴾ نِعْمَةٌ مِنَّا لِلَّذِينَ
كَذَّبُوا فَهُمْ بِهِ يَنسَوْنَ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْهُمْ بِطُفُنَّا فَتَمَارَوْا بِالَّذِينَ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسَتْ
أَعْيُنُهُمْ لُذُوقُوا عَذَابِي وَتُذِرِ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٦﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَتُذِرِ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلَّذِينَ هُم بِمَدْكِرٍ ﴿٨﴾

يقول تعالى خبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور ، وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين . ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل — عليه السلام — بحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَتَانَ الساء ، ثم قلبها عليهم وأرسلها ، وأتيت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال هاهنا . (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) ، وهى : الحجارة ، (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) ، أى : خرجوا من آخر الليل فتنجوا بما أصاب قومهم ، ولم يزل لوط من قومه أحد ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها . وخرج نبي آل لوط وبنات له من بين أظهرهم سلاماً مَسْمُوعَةً . ولهذا قال تعالى : (كذلك نجزي من شكر) . ولقد آنزاهم بطشتاً ، أى : ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد آنزاهم بأس الله وعذابه ، فالتفتوا إلى ذلك ، ولا أصغوا إليه . بل شكروا فيه وغاروا به ، (ولقد راودوه عن ضيفه) ، وذلك ليلة وَرَدَ عليه لللائكة : جبريل ، وميكائيل ، وإسراييل فى صورة شباب مُرَدِّ حسان مَحَنَةٍ من الله بهم ، فأضاههم لوط ، وبشت امرأته المجوزُ السوء إلى قومها ، فألحظهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يَهْرَعُونَ إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهن الباب ، فجلسوا يحاولون كسر الباب ، وذلك حشية ، ولوط — عليه السلام — يدافعهم ويمنعهم دون أضيافه ، ويقول لهم : (هؤلاء بناتى) يعنى نسائهم ، (إن كنتم فاعلين

(١) سورة الشمس ، آية ١٢ .

(٢) أى : أفسد .

قَالُوا : لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا فِي بَيْتِكُمْ مِنْ حَقِّ (١) ، أَي : لَيْسَ لَنَا فِيهِمْ أَرْبَابٌ ، (وَلَيْتَكُمْ لَكُمْ مَا لَرَبِّد) . فَلَمَّا اشْتَدَّ الْحَالُ وَأَبْرَأَ إِلَّا الدُّخُولَ ، خَرَجَ عَلَيْهِمْ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَضْرَبَ أَعْيُنَهُمْ بِطَرْفِ جَنَاحِهِ ، فَانْطَلَسَتْ أَعْيُنُهُمْ . يَمَالُ : لَهَا غَارَتْ مِنْ وَجْهِهِمْ . وَقِيلَ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَمْ يَبْقَ عَيْنٌ بِالْكَلْبَةِ ، فَارْجِعُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ يَتَحَسَّسُونَ بِالْخَيْطَانِ ، وَيَتَوَعَّدُونَ لَوَطَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى الصَّبَاحِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ صَبَحَ بَكْرَةَ حَلَابَ صَبْرًا) ، أَي : لَا يَحِيدُ لَمْ يَحْهَ ، وَلَا انْفَكَكَ لَمْ يَمْنَعْ ، (فَلَوْ قُوا حَلَابَ) وَلَوْ . وَلَقَدْ يَسِرْنَا الْقُرْآنَ لَذَكَرَ فَعَلْ مِنْ مَذَكَرَ) ،

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿١١﴾ كَذِبُوا بِعَاقِبَتِنَا كَلِمًا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ﴿١٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّيْرِ ﴿١٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ كُلُّنَا مُنْتَصِرٌ ﴿١٤﴾ سَيُزْجِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدَّبِيرَ ﴿١٥﴾ بَلَى السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى خَبْرًا مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَنَّهُمْ جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونُ بِالْبَيِّنَاتِ إِنْ آمَنُوا ، وَالتَّلَاةُ إِنْ كَفَرُوا ، وَأَيَّدَهُمَا مُعْجَزَاتٌ عَظِيمَةٌ وَأَيَّاتٌ مُتَعَدَّةٌ ، فَكَلَبُوا بِهَا كَلِمًا ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ، أَي : فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ خَيْرٌ وَلَا هَيَا وَلَا أُنْزَارٌ .

لَمْ يَمَنْ قَالَ : (أَكْفَارُكُمْ) ، أَي : أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ كَفَرْتُمْ (خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ) ، يَعْنِي مِنَ الَّذِينَ تَقْدِمُ ذِكْرَهُمْ مِنْ أَهْلِكُوا بِسَبَبِ تَكْلِيمِهِمُ الرُّسُلَ ، وَكَفَرَهُمْ بِالْكِتَابِ : أَنْتُمْ خَيْرٌ أَمْ أَوْلَئِكَ ؟ (أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّيْرِ) ، أَي : أَمْ مَعَكُمْ مِنَ اللَّهِ بَرَاءَةٌ أَمْ لَا يَتَأَلَّمُ حَلَابَ وَلَا تَكَالُ ؟ .

لَمْ يَمَنْ قَالَ خَبْرًا عَنْهُمْ : (أَمْ يَقُولُونَ : كُلُّنَا مُنْتَصِرٌ) ، أَي : يَتَوَكَّلُونَ أَنَّهُمْ مُتَاحِرُونَ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا ، وَأَنْ جَمْعَهُمْ يَعْنِي عَنْهُمْ مِنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (سَيُزْجِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدَّبِيرَ) ، أَي : سَيُتْرَقُ حَمَلُهُمْ وَيُغْلَبُونَ .

قَالَ الْبُخَارِيُّ : حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ ، حَدَّثَنَا خَالِدٌ ، عَنْ خَالِدٍ - وَقَالَ أَيُّضًا : حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْلَمَةَ (٢) عَنْ وَهْبٍ ، عَنْ خَالِدٍ ، عَنْ عِكْرَمَةَ ، عَنْ ابْنِ حَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ لَهُ يَوْمَ يَدْرُ : (أَنْشُدْكَ هَذَا وَوَعَدْتُكَ) لِلَّذِينَ لَمْ يَتَّعِدُوا يَوْمَ الْيَوْمِ أَنَّهُمْ . فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِيَدِهِ وَقَالَ : حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَلْحَسْتُ عَلَى رَيْكَ . فَخَرَجَ وَهُوَ يَبِي فِي الدَّرْعِ وَهُوَ يَقُولُ : (سَيُزْجِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدَّبِيرَ . يَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمُ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ (٣)) .

(١) سورة الحجر : آية : ٧١ - ٧٢ .

(٢) في البخاري : محمد بن عوف ، عن وهب ، وللكثير عن البخاري .

(٣) البخاري : تفسير سورة الواقعة الساعة : ١٧٩/١ - ١٨٠ .

وكذا رواه البخارى والنسائى في غير موضع ، من حديث خالد - وهو مهرا بن الحذاء - (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الربيع الزهرانى ، حدثنا حماد ، عن أيوب ، عن حكيمه قال : لا تركت سيهزم الجمع ويولون الدبر) ، قال عمر : أى جمع يهزم ؟ أى جمع يظلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذب في الدرع ، وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . فعرفت تلويها وعط .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف : أن ابن جريج أخبرهم : أخبرني يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين ، قالت : نزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - بحكمة وإني لجارية ألب (١) بال الساعة يومئذ ، والساعة أدنى وأمر (٢) . هكذا رواه هاشم بن عمار . ورواه في فضائل القرآن مطبوعا (٣) ، ولم يخرج مسلم .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۖ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۚ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۚ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحْدَةً نُّصَرِّحُ ۚ وَلَقَدْ أَفْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدْرِكٍ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي آثَرٍ ۚ وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُنْتَظَرٌ ۚ إِنَّ الْمُتَفِينِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۚ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ۚ

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في خلال من الحق ، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من انصف بملك من كافر ومبتدع من سائر الفرق .

ثم قال : (يوم يسحبون في النار على وجوههم) ، أى : كما كانوا في سُعُر وشك وتردد أروهم ذلك النار وكما كانوا ضلالا ، سحبوها فيها على وجوههم ، لا يدرون أين يلهيرون ويقال لم تقرها وتوبخا : (فذوقوا مس سقر) .

وقوله : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) ، كقوله : (وخلق كل شيء بقدره تقدير) (١) . وكقوله : (سميع اسم يدك الأهل . الذى خلقه سوى . والذى قدره لى) (٢) ، أى : قدر قدرنا ، وحدى الخلاقين إليه . ولهذا يستعمل جهله الآيات الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقهم ، وهو علمه الأكشياء [قبل] كونها وكتابه لما قبل برئها ، وردوا جهله الآية وما شاكلها من الآيات ، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الصفة القدرية اللين لغيرها (٣) في أواخر

(١) انظر البخارى ، كتاب الجهاد ، باب وما قيل في ددج لى - صلى الله عليه وسلم - والتمس في الحرب : ٤٩/١ . ومسنده الإمام أحمد : ٣٢٩/١ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة العنقرت الساعة : ١٨٩/٦ - ١٨٠ .

(٣) البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب « تأليف القرآن » : ٢٢٨/٦ .

(٤) سورة الفرقان : آية ٢ .

(٥) سورة الأمل ، الآيات ١ : ٣ .

(٦) أى : خرجوا .

عصر الصحابة . وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً ، وماورد فيه من الأحاديث في شرح « كتاب الإيمان » من « صحيح البخاري » - رحمه الله - ولندكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة :

قال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان الثوري ، عن زياد بن إسماعيل السهمي ، عن محمد بن عباد بن جعفر ، عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يخاضعون في القدر ، فزلت : (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر (١)) .

وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجه ، من حديث وكيع ، عن سفيان الثوري ، به (٢) .
وقال البراء : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا الفضالك بن عجلد ، حدثنا يونس بن الحارث ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : ما نزلت هذه الآيات : (إن للمجرمين في ضلال وسمر . يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، إلا في أهل القدر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سهل بن صالح الأنطاكي ، حدثني قرة بن حبيب ، عن كنانة ، حدثنا جرير ابن حازم ، عن سعيد بن عمرو بن جندب ، عن ابن زُرارة ، عن أبيه ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه تلا هذه الآية : (ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، قال : « نزلت في أناس من أمي يكونون في آخر الزمان ، يكذبون بقدر الله » .

وحدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا مروان بن شجاع الجعزي ، عن عبد الملك بن جريج ، عن عطاء بن أبي رباح قال : أتيت ابن عباس وهو يتنزع (٣) من زمزم ، وقد ابتلت أسنانه ثيابه ، فقلت له : قد تكلّم في القدر . فقال : أو فعلوا ؟ قلت : نعم . قال : فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم : (ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، أولئك شرار هذه الأمة ، فلا تمردوا مرضاهم ، ولا تمسكوا على موتاهم ، إن رأيت أحدا منهم فقلت عني يا صبي هاتين .

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر ، وفيه مرفوع ، فقال :

حدثنا أبو الهيثبة ، حدثنا الأوزاعي ، عن بعض إخوته (٤) ، عن محمد بن عبيد المكي ، عن عبد الله بن عباس قال : قيل له : إن رجلا قدم علينا يكتّ ببالقدر . فقال : دلوني عليه - وهو (٥) أعى - قالوا : وما تصنع به يا أبا عباس قال : والذي نفسي بيده لن استمكت منه لأعصن - أنه حتى أقطعه ، ولن وقت رقبته في يدي لأدقنها ، فاني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « كائن يساه يني فيهر يطلعن بالخروج ، تصطلق آياتين مشركات ،

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٤٤/٢ ، ٤٧٦ .

(٢) مسلم ، كتاب القدر ، باب « كل شيء بقدر » : ٥٢/٨ . وتحفة الأحرار ، تفسير سورة القمر ، الحديث ٣٣٤٤ : ١٧٦/٩ - ١٧٧ . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » . وابن ماجه ، المقتضب ، باب في القدر ، الحديث ٨٣ : ٣٢٢ - ٣٣ .

(٣) أي : يمشي بالذلول .

(٤) في المسند : « إخوانه » .

(٥) في المسند : « وهو يومئذ قد مضى » .

هذا أول شرك هذه الأمة ، واللى نفسى بيده ليستين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قَدَرٌ خيرا ، كما أخرجوه من أن يكون قَدَرٌ شرا (١) .

ثم رواه أحمد عن أبي الخثيرة ، عن الأوزاعي ، عن العلاء بن الحجاج ، عن محمد بن عبيد ، فذكر مثله (١) . لم يخرجوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا سعيد بن ١ (٢) ، أبي أيوب ، حدثني أبو صخر ، عن نافع قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه ، فكتب إليه عبد الله بن عمر : إنه بائع أنك تكلمت في شيء من القدر ، فإياك أن تكتب إلى ، فاني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « سيكون في أمي أقوام يكلبون بالقدر » (٣) . رواه أبو داود ، عن أحمد بن حنبل ، به .

وقال أحمد : حدثنا أنس بن مياض ، حدثنا عمر بن عبد الله مولى عُمرَة ، عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لكل أمة عيوس ، و عيوس أمي الذين يقولون : « لا قدر » . إن مرضوا فلا تعودهم ، وإن ماتوا فلا تشهدهم » (٤) .

لم يخرجوه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه ،

وقال أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا رشدين ، عن أبي صخر حميد بن زياد ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « سيكون في هذه الأمة مسخ ، ألا وذلك في المكلفين بالقدر والزندقية » (٥) . ورواه الترمذي وابن ماجه ، من حديث أبي صخر حميد بن زياد ، به . وقال الترمذي : « حسن صحيح غريب » (٦) . وقال أحمد : حدثنا إسحاق بن الطباع ، أخبرني مالك ، عن زياد بن سعد ، عن عمرو بن مسلم ، عن طاوس البائي قال : سمعت ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كل شيء بقدر ، حتى العجز والكيس » (٧) . ورواه مسلم منفردا به ، من حديث مالك (٨) .

وفي الحديث الصحيح : « استعن بالله ولا تعجز » ، فإن أصابك أمر قتل : قَدَرُ الله وما شاء فعل ، ولا تفل : لو أني فعلت لكان كذا ، فإن لو قطع حمل الشيطان (٩) .

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٣٣٠ .

(٢) في المخطوطة : « سعيد ، عن أبي أيوب » . والكتب من الستة .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٩٠ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٨٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/١٠٨ .

(٦) تحفة الأحرف : أبواب القدر ، الحديث ٢٢٤٣ : ٦/٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/١١٠ .

(٨) مسلم ، كتاب القدر ، باب « كل شيء بقدر » : ٨/٥١ - ٥٢ .

(٩) مسلم ، كتاب القدر ، باب « في الأمر بالقوة وترك العجز » ، والاصطلاح « الله وهوى التلايم » : ٨/٥٦ .

وسن ابن ماجه ، للمقدمة ، باب « في القدر » ، الحديث ٧٩ : ١/٣١٤ .

وفي حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ، لم ينجيهم الله لك ، ولم ينفعوك . ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك ، لم يضروك . جفت الأقلام وطويت الصحف (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن سوار ، حدثنا الليث ، عن معاوية ، عن أيوب بن زياد ، حدثني عبادة بن الوليد ابن عبادة ، حدثني أبي قال : دخلت على عبادة وهو مريض أنحامل فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه ، أوصني واجتهد لي . فقال : أجلسوني . فلما أجلسوه قال : يا بني ، إنك لم تطلع من طعم (٢) الإيمان ، ولم تبلغ حتى حقيقة العلم بالله ، حتى تؤمن بالقدر غير وشره . قلت : يا أبتاه ، وكيف لي أن أعلم ما غير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك . يا بني ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم . ثم قال له : اكتب . فجري في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » . يا بني ، إن ميت ولست على ذلك دخلت النار (٣) .

ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى البليخي ، عن أبي داود الطيالسي ، عن عبد الواحد بن سليم ، عن عطاه بن أبي رباح ، عن الوليد بن عبادة ، عن أبيه ، به . وقال : « حسن صحيح غريب (٤) » .

وقال سفيان الثوري ، عن منصور ، عن ربيعة بن خراش ، عن رجل ، عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، بعضى بالحق لا يؤمن بالموت (٥) » . لا يؤمن بالهت بعد الموت ، ويؤمن بالقدر غير وشره » .

وكذا رواه الترمذي من حديث النضر بن شميل ، عن شعبة ، عن منصور ، به . ورواه من حديث أبي داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن منصور ، عن ربيعة ، عن علي فذكره وقال : « هذا عندي أصح (٦) » . وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك ، عن منصور ، عن ربيعة ، عن علي (٧) ، به .

وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره ، عن أبي هانئ الخولاني ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بمائتين ألف سنة ، زاد ابن وهب : (وكان عرشه على الماء (٨)) . ورواه الترمذي وقال : « حسن صحيح غريب (٩) » .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٩٣/١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ .

(٢) ما بين القوسين من المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣١٧/٥ .

(٤) تحفة الأحرفى ، أبواب القدر ، الحديث ٢٢٤٤ : ٣٦٩/٦ - ٣٧١ .

(٥) ما بين القوسين من الترمذي .

(٦) تحفة الأحرفى ، أبواب القدر ، باب « ما جاء أن الإيمان بالقدر غير وشره » ، الحديث ٢٢٢٢ : ٣٠٧/٦ - ٣٥٨ .

(٧) سنن ابن ماجه ، المقمة ، باب « في القدر » ، الحديث ٨١ : ٣٢/١ .

(٨) مسلم ، كتاب القدر ، باب « حجاج آدم وموسى عليهما السلام » : ٥١/٨ .

(٩) تحفة الأحرفى ، أبواب القدر ، الحديث ٢٢٤٥ : ٣٧٠/٦ - ٣٧١ .

وقوله : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) . وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم . فقال : (وما أمرنا إلا واحدة) : أى : إننا نأمر بالشيء مرة واحدة ، لا نحتاج إلى تأكيد ثانية ، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلًا موجدًا كلمح البصر ، لا يتأخر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ، وَهُوَ فَعْدُ (١)

وقوله : (ولقد أهلكنا أشياعكم) ، يعنى أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكلنين بالربلس ، (فهل من مدكر) ، أى : فهل من منتهى بما أنخرى الله أولئك ، وقدر لهم من العذاب . كما قال : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، (٢) .

وقوله : (وكل شيء فعلوه في الزبر) ، أى : مكتوب عليهم في الكعبة التى بأبلى الملائكة - عليهم السلام -
(وكل صغير وكبير) ، أى : من أعمالهم (مسطر) ، أى : مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم ، لا يفتقر صغيرة
ولا كبيرة إلا أحصاها .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم بن بكثك: سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير، حدثني حروف بن الحارث - وهو ابن أختي حاشية لأما - عن عائشة أنها قالت: رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «يا عائشة، إياك وعصمت الذنوب فإن لها من الله طالبا (٢)».

ورواه النسائي وابن ماجه ، من طريق سعيد بن مسلم بن يانك^(٤) : وثقه أحمد ، وابن معين ، وأبو حاتم^(٥) وغيرهم .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر ، ثم قال سعيد : فحدثني بهذا الحديث هاشم بن هاشم فقال له : ويحك يا سعيد بن مسلم ، لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأثابه آت في منامه فقال له : يا سليمان :

لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرًا (٦) إِنَّ الصَّغِيرَ هَذَا يَعُودُ كَبِيرًا

إِنَّ الصَّغِيرَ وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ عِنْدَ الْإِلَهِ مُسَطَّرٌ تَحْطِيرًا

فَإِذَا جُرْهُوَ أَلَهُ هَنِ الْبَطَالَةِ، لَا تَكُنْ صَعْبَ الْقِيَادِ، وَفَسْمَرْنُ نَشْمِيرَا

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٨١ من سورة «يس» : ٨٢/٦ .

(٢) سورة سبا ، آية : ٥٤ .

(٣) مست الإمام أحمد : ١٥١/٦ . وانظر أيضاً : ٧٠/٦ .

(٤) ابن ماجه ، كتابه الزهد ، باب ذكر اللغو ، الحديث ٤٢٤٣ و ١٤١٧/٢ .

(هـ) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٦٥/١/٢ .

(٦) في قانون مدينة دمشق، وجنيرة،

إِنَّ الْحَبِيبَ إِذَا أَحَبَّ إِلَهَهُ طَارَ الْفَرَادُ وَالْهَمُّ التَّكْفِيرُ
فَسَأَلَ هَذَا يَتَكَ إِلَاهَ بَنِيهِ فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (١)

وقوله : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » ، أى : بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسر ، والسحب في النار على وجوههم ، مع التبريح والتفريع والتهديد .

وقوله : « فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ » ، أى : في دار كرامة الله ورضوانه وفضله ، وامتنانه وجوده وإحسانه ، (عند ملك مقتدر) ، أى : عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها ، وهو مقتدر على ما يشاء عما يطلبون ويريدون ، وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن عمرو بن أوس ، عن عبد الله بن عمرو - يَبْلُغُ به النبي صلى الله عليه وسلم - قال : « الْمُقْسُطُونَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢) عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ » ، عن عَمْرِو بْنِ الرَّحْمَنِ ، وَكُنَّا يَدِيهِ عَمِينَ : الَّذِينَ يَمْدُلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا لَوْ (٣) » .

أفرد بأخراجه مسلم والنسائي ، عن حديث سفيان بن عيينة ، بإسناده مثله (٤) :

آخر تفسير سورة « القدر » ، والله الخبير والكنة وبه التوفيق والمصمة (د)

(١) تاريخ مدينة دمشق ، ميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، تاريخ ١٢٥٠ ، الجزء الرابع ، ورقة : ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) ما بين القوسين من المصحف .

(٣) مصنف الإمام أحمد : ١٦٠/٢ .

(٤) مسلم ، كتاب الإمامة ، باب « فضيلة الإمام المادل ... » : ٧/٦ . والنسائي ، كتاب آداب القضاء ، باب « فضل الحاكم المادل في حكمه » : ٢٢١/٨ - ٢٢٢ .

(٥) وقع بمده في مخطوطة الأزهر : « وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . حسبنا الله ونعم الوكيل . يتلوه - إن شاء الله تعالى - في أول الصلوة تفسير سورة الرحمن عز وجل ، والحمد لله رب العالمين » . وفي أول الجزء السابع : « بسم الله الرحمن الرحيم . وبه أعتد على إمامه » .

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، عن عاصم ، عن زو ، أن رجلاً قال : لا ين مسعود (١) ! كيف تعرف هذا الحرف : (ما غير ياسن أو كسن) ؟ فقال : كل القرآن قد قرأت ، قال : إني لأقرأ المفصل (أجمع) (٢) في ركة واحدة . فقال : أهدأ كهذا الشعر (٣) لا أبالك ؟ قد علمت قرائن النبي - صلى الله عليه وسلم - التي كان يترن قريتين قريتين من أول المفصل ، وكان أول مفصل ابن مسعود (الرحمن) (٤) .

وقال أبو عيسى الترمذي : حدثنا عبد الرحمن بن واقد أبو مسلم ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن زهير بن محمد ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : أخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه قرأ عليهم سورة الرحمن ، من أولها إلى آخرها ، فسكتوا فقال : لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن صروداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : (فبأى آلاء ربكما تكبران) ، قالوا : لا شيء من نعمتك - ربنا - نكلم ، فلك الحمد (٥) .

ثم قال : هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم ، عن زهير بن محمد ، ثم حكى عن الإمام أحمد أنه كان لا يعرفه ، ينكر رواية أهل الشام عن زهير بن محمد هذا .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار ، عن عمرو بن مالك ، عن الوليد بن مسلم . وعن عبد الله بن أحمد بن شبيب ، عن هشام ابن عمار ، كلاهما عن الوليد بن مسلم ، به . ثم قال : لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا محمد بن عباد بن موسى وعمرو بن مالك البصري (٦) ، قال : حدثنا يحيى بن سلم (٧) عن إسماعيل بن أمية ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ سورة الرحمن ، - أو : فترت

(١) ما بين القوسين من المتن .

(٢) في المخطوطة : والمثبت من المتن . وفي البحر المحيط أبي حيان ٧٩/٨ : « وقرأ ابن كثير وأهل مكة (كسن) كل وزن قائل من « أسن » - بفتح السين . وقرأ (ياسن) ، بالياء . قال أبو علي : « وذلك على تخفيف الحذف » .

(٣) أي : أقصرح في قراءته كما أقصرح في قراءة الشعر ١٢

(٤) مست الإمام أحمد ١١٢/١ .

(٥) تحفة الأحرار ، تفسير سورة الرحمن ، الحديث ٣٣٤ : ١٧٧/٩ - ١٧٨ .

(٦) في تفسير الطبري : « البصري » ، بنون وضاد محجمة . ولعل الصواب ما هنا . وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ، ترجمة عمرو بن مالك الرازي أبي حيان البصري : ٢٥٩/١/٣ .

(٧) في تفسير الطبري : « سليمان » . والصواب ما هنا . انظر أيضاً الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ، ترجمة يحيى بن سلم الطائي الخزاز أبي زكريا : ١٥٦/٢٤٤ .

عنه - قال : وما لي أسمع الجن أجواباً لربها منكم ؟ قالوا : وما ذلك يا رسول الله ؟ قال : « ما أتيت على قول الله : **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** (٢) إلا قالت الجن : لا بشيء من نعمه (١) » ربنا نكذب .

ورواه الحافظ البزار ، عن عمرو بن ماله ، به . ثم قال : « لا نعلمه يروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا من هذا الوجه ، بهذا الإسناد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ ۝
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ
بِالْقَيْسِ ۝ وَلَا تَحْسِرُوا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَكِكْهُمُ ۝ وَالنَّعْلُ ذَاتُ الْأَكْبَامِ ۝
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ۝ وَالرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝

يجب تعالى من فضله ورحمته بحالته : أنه أنزل على عباده القرآن ، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه ، قال : (الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان) - قال الحسن : يعني التلقين . وقال الضحاك ، وقنابة ، وغيرهما : يعني الجبر والشر . وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى ، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير التلقين على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من اللحن والبأسان والثقتين ، على اختلاف مخارجها وأنواعها .

وقوله : (الشمس والقمر محسبان) ، أي : يجريان متعاقبين بحساب محسب لا يخلف ولا يضلرب ، (لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون (٢)) . وقال تعالى : (فائق الإصباح وجاعل (٣) الليل سكناً والشمس والقمر حسيبانا ، ذلك تقدير العزيز العظيم (٤)) .

وعن حكمة أنه قال : لوجهل الله نور جميع أعيان الإنس والجن والدواب والطير في حقيق عيده ، ثم كشف حجاباً واحداً من سبعين حجاباً دون الشمس ، لما استطاع أن ينظر إليها . و [نور] الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرمي ، ونور الكرمي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، ونور العرش جزء من سبعين جزءاً من نور السر . فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور في عينيهِ لوقت النظر إلى وجهه الكريم حيّاً . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : (والنجم والشجر يسجدان) - قال ابن جرير : يختلف المفسرون في معنى قوله (والنجم) بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق ، فروى على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : النجم ما انبسط على وجه الأرض - يعني من التبات (١) . وكذا قال سعيد بن جبّير ، والسدي ، وسفيان الثوري . وقد اختاره ابن جرير رحمه الله .

(١) ما بين القوسين من تفسير الطبري .

(٢) تفسير الطبري : ٧٢/٢٧ .

(٣) سورة يس ، آية : ٤٠ .

(٤) كلما في خلوة الأثر ، وقد فُتِحَ على هذه القراءة عند هذه الآية : ٢٩٧/٤ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ٩٦ .

(٦) تفسير الطبري : ٦٨/٢٧ .

وقال مجاهد : التجم الذي في السماء ، وكلنا قال الحسن ، وقناة . وهذا القول هو الأنهر ، والله أعلم ، لقوله تعالى :
(ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبيل والشجر والنبات ، وكثير
من الناس (١)) ... الآية .

وقوله : (والسماء رفعها ووضع الميزان) ، يعني العدل ، كما قال : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب
والميزان ليقوم الناس بالقسط (٢)) . وهكذا قال هاهنا : (ألا تظفروا في الميزان) ، أي : خلق السموات والأرض بالحق
والعدل ، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل . ولهذا قال : (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ، أي : لا تبخسوا
الوزن ، بل وزنوا بالحق والقسط . كما قال : (وزنوا بالقسطاس المستقيم (٣)) .

وقوله : (والأرض وضعها للأنام) ، أي : كما رفع السماء وضع الأرض مهيأها ، وأرسلها بالجبيل الراسيات
الشامخات ، لتستقر على وجهها من الأنام ، وهم : الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم والأنهم وألستهم ، في سائر أقطارها
وأرجائها .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقناة ، وابن زيد : الأنام : الخلق : (فيها فاكهة) ، أي : مختلفة الألوان والطعم
والروائح ، (والتخل ذات الأكمام) : أمره بالذكر لشرفه ونفحة ، وطيا وياسا . والأكمام — قال ابن جريج ، عن
ابن عباس : هي أوعية الطلع . وهكذا قال غير واحد من المفسرين ، وهو الذي يطلق فيه القنن ثم ينشق عن المقنن .
فيكون يسرا ، ثم وطيا ، ثم ينضج ويتأخر يتعده (٤) واستولوه .

قال ابن أبي حاتم : ذكر عن عمرو بن علي الصيرفي : حدثنا أبو قتبية ، حدثنا يونس بن الحارث الطائي ، عن الشعبي
قال : كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب : أخبرك أن رسول أتني من قبلك ، فوعت أن قبلكم شجرة ليست بخليفة لشيء من
الخير ، تنجز مثل آذان الحمير ، ثم تشقق مثل اللؤلؤ ، ثم تخضر فتكون مثل الزمرد الأخضر ، ثم تحمر فتكون كالياقوت
الأحمر ، ثم ينع وتضج فتكون كأطيب فالودج أكل ، ثم تبيس فتكون عصمة للمقيم وزاد المسافر ، فإن تكن رسول
صدقتي فلا أرى هذه الشجرة إلا من شجر الجنة . فكتب إليه عمر بن الخطاب : من أمر المؤمنين إلى قيصر ملك الروم
إن رسولك قد صدقك ، هذه الشجرة عندنا ، وهي الشجرة التي أنبتا الله على مريم حين نعت بميسى ابنها ، فاتق الله
ولا تتخذ عيسى إلها من دون الله فإن (مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك
فلا تكن من الممترين) .

(١) سورة الحج : آية : ١٨ .

(٢) سورة الحديد : آية : ٢٥ .

(٣) سورة الشعراء : آية : ١٨٢ .

(٤) في المخطوطة : « وفيه » . ولعل الصواب ما أنبتاه . والنعج : النضج .

وقيل : الأكمام : رفاتنا ، وهو : اليف الذي على عتق النخلة : وهو قول الحسن وقتادة :

(والحب ذو العصف والريحان) ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : (والحب ذو العصف) : يعني : الكين ،

وقال العرق ، عن ابن عباس : (العصف) : ورق الزرع الأخضر الذي قطع رموسه ، فهو يسمى العصف إذا يبس (١) ، وكلما قال قتادة : والضحاك : وأبو مالك : عصفه : تبته :

وقال ابن عباس : وجهاد ، وغير واحد : (والريحان) : يعني : الورد :

وقال الحسن : عروجاتكم هذا :

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (والريحان) : مختصر الزرع (٢) ،

ومعنى هذا — والله أعلم — أن الحب كالتقمح والشعير وغيرهما له في حال نباهه عصف ، وهو : ما على السنبلة ، وريحان ، وهو : الورد للثقف على ساقها :

وقيل : العصف : الورد أول ما ينبت الزرع بقلا : والريحان : الورد ، يعني : إذا أذجن وانتقد فيه الحب : كما قال زهيد بن عمرو بن نفيل في قصيدته المشهورة (٣) :

وَقُولُوا لَهُ: مَنْ يَنْتَبِثُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى فَيُصْبِغُ مِنْهُ الْبَلَّ بِهَيْئَتِ رَبِّهِ؟

وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُؤُوسِهِ؟ فَمَنْ ذَلِكَ آيَاتًا لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا

وقوله : (فبأي آلاء ربكما تكلبان) ، أي : فبأي الآلاء — يا معشر العقلاء — من الإنس والجن — تكلبان ؟ قاله جهاد ، وغير واحد : ويقل عليه السياق بعده ، أي : التعمُّ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها ، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها ، فنحن نقول : كما قالت الجبن المؤمنون : اللهم ، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد ، وكان ابن عباس يقول : لا ، فأيا رب : أي : لا نكذب بشيء منها .

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة ، عن أسماء بنت أبي بكر : قالت : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يقرأ ، وهو يصلي نحو الركن قبل أن يتصدع بما يؤمر ، والمشركون يستمعون (فبأي آلاء ربكما تكلبان؟) (٤)

(١) تفسير الطبري : ٧١/٢٧ .

(٢) تفسير الطبري : ٧٢/٢٧ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٢٢٨/١ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٤٩/٦ .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَطَرِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝
 رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝
 بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُخْرِجُ مِنْهُمَا الْمَوْءُودُ وَالْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنَفَّعَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝

يلذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفطّر ، وخلق الجن من مارج من نار ، وهو : طرف لها . قاله الضحاك ،
 عن ابن عباس (١) . وبه يقول عكرمة ، وجاهد ، والحسن ، وابن زيد .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : (من مارج من نار) : من لب النار ، من أحسنها .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (من مارج من نار) : من خالص النار : وكلما قال عكرمة ، وجاهد ،
 والضحاك ، وغيرهم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارج لمن نار » ، وخلق آدم مما وصف لكم (٢) .
 ورواه مسلم ، عن محمد بن رافع وحيد بن حريد ، كلاهما عن عبد الرزاق ، به (٣) .

وقوله : (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) ، تقدم تفسيره : (رب المشرقين ورب المغربين) ، يعني مشرق البيت
 والشام ، ومغرب البيت والشام . وقال في الآية الأخرى : (فلا أقسم برب المشارق والمغارب (٤)) ، وذلك باختلاف
 مطالع الشمس وتقلها في كل يوم ، وبرزها منه إلى الناس : وقال في الآية الأخرى : (رب المشرق والمغرب) ، لا إله إلا هو
 فاغتنه وكيلا (٥) . وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب ، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح المخلوق
 من الجن والإنس قال : (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) .

وقوله : (مرج البحرين يلتقيان) - قال ابن عباس : أي أرسلهما (٦) .

أوفوله : (يلتقيان) قال ابن زيد : أي منهما أن يلتقي ، بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما (٧) .

(١) تفسير الطبري : ٧٤/٢٧٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٦٨/٦ .

(٣) مسلم : كتاب الزهد ، باب في أحاديث مطهرة : ٢٢٦/٨ .

(٤) سورة الماعج : آية ٤٠ .

(٥) سورة الزمل : آية ٩ .

(٦) تفسير الطبري : ٧٤/٢٧٧ .

(٧) ما بين القوسين من التلخيص السابقة . والشر تفسير الطبري : ٧٦/٢٧٧ .

والمراد بقوله (البحرين) : الملح والخلو ، فالخلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، وقد قدمنا الكلام على ذلك في «سورة الفرقان (١)» عند قوله تعالى : (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا مضجرا) (٢) ، وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين : بحر السماء وبحر الأرض . وهو مروى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، وابن أبي

قال ابن جرير : لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء ، وأصداق بحر الأرض (٣) : وهذا وإن كان هكذا ليس المراد ما ذهب إليه ، فإنه لا يساعده اللفظ ، فإنه تعالى قد قال : (بينها برزخ لا يبغيان) ، أي : وجعل بينهما برزخاً ، وهو : الحاجز من الأرض ، لئلا يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر ، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه . وبما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً وحجراً مضجراً .

وقوله : (يخرج منها اللؤلؤ والمرجان) ، أي : من مجموعها ، فإذا وجد ذلك لأحدهما كفى ، كما قال تعالى : (يا معشر الجن والإنس ، ألم يأنكم أرسل منكم ؟) . والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن ، وقد صح هذا الإطلاق . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان فقيل : هو صغار اللؤلؤ (٤) . قال مجاهد وقطادة وأبرزين والضحاك . وروى عن علي بن زبير : كباره وجسيده . حكاه ابن جرير عن بعض السلف : ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس ، وحكاه عن السدي عن حدثه ، عن ابن عباس . وروى مثله عن علي ، ومجاهد أيضاً ، ومرة أحمد بن

وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون ، قال السدي (٥) : «من أبي مالك ، عن مسروق ، عن عبد الله قال : المرجان : أخضر الأحمر» - قال السدي وهو البُسْدُ (٦) بالفارسية .

وأما قوله : (ومن كل تأكلون لحماً طرياً ، وتستخرجون حلية تلبسونها) (٧) ، فاللحم من كل لبن : الأجاج والملب ، والحلية إنما هي من الملح دون الطيب .

قال ابن عباس : ما سقطت قطرة من السماء في البحر ، فوقع في صدقة إلا صار منها لؤلؤة . وكلما قال حكمة ، وزاد : فإذا لم تقع في صدقة نبت بها عثيرة . وروى عن غيره عن ابن عباس نحوه .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش عن عبد الله بن عبد الله ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : إذا أمطرت السماء ، فضحت الأصداف في البحر أفواهاها ، فما وقع فيها يضي من قطر فهو اللؤلؤ .

(١) انظر : ١٢٦/٦ .

(٢) سورة الفرقان ، آية : ٥٣ .

(٣) تفسير الطبري : ٧٥/٢٧ .

(٤) تفسير الطبري : ٧٦/٢٧ .

(٥) ما بين القوسين من الطبقات السابقة ، ومكانه في المخطوطة : «ابن عباس» .

(٦) في المخطوطة : «الكبد» . والمثبت من تفسير الطبري ٧٦/٢٧ - ٧٧ . وفي المربح الجواب : تعليق الأستاذ الشيخ أسعد شاكرك ٣٧٧ : «وقد ذكر المرجان بأنه صغار اللؤلؤ» ، فمر أيضاً بأنه هذا الخضر الأحمر المعروف ، ويسمى (البسْد) - بضم الباء الموحدة وتشديد السين المهملة المفتوحة - وآخره ذال معجمة . وهو سحر لائق في قعر البحر» .

(٧) سورة طاهر ، آية : ١٢ .

إسناده صحيح ، ولا كان إقناعاً هذه الحلية نعمة على أهل الأرض ، آمن بها عليهم فقال : (فأبى آلام وبكنا تكذبان ؟) ١
وقوله : (وله الجوار المنشآت) يعنى السفن التي تجرى في البحر ، قال مجاهد : ما رافع قلعه من السفن فهي منشأة وما لم يرفع قلعه فليس بمنشأة ، وقال قتادة : (المنشآت) : يعنى المخلوقات . وقال غيره : المنشآت - بكرم الشين - : يعنى البادات .

(كالأعلام) ، أى : كالجبال في كبرها ، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع . ولهذا قال : (فأبى آلام وبكنا تكذبان ؟) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أنى ، حدثنا موسى بن إسحاق ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا العرعر بن سويد ، عن حمزة ابن سعد (١) قال : كنت مع علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - على شاطئ الفرات إذ أقبلت سبعة مرفوع شراعها ، فبسط على يديه ثم قال : يقول الله عز وجل : (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) . والذي أنشأها تجرى في بحره ما قلت حينئذ ، ولا مالت على قلعه .

كُلٌّ مِّنْ عِندِ فَإِنَّ ۖ وَيَسْئَلُ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۖ فَإِبْأَىٰ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذِّبَاتِ ۖ
يَسْأَلُهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۖ فَإِبْأَىٰ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذِّبِينَ ۖ

خبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيدهون ويعتزون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات ، إلا من شاء الله ، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب - تعالى وتقدس - لا يموت ، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً .
قال قتادة : أبأى ما خلق ، ثم أبأى أن ذكك كُله كان .

وفي الدعاء المأثور : يا حي ، يا قيوم ، يا بديع السموات والأرض ، باذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت ، برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك .

وقال الشعبي : إذا قرأت : (كل من عليها فان) ، فلا تسكت حتى تقرأ : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) .
وهذه الآية كقوله تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه) (٢) . وقد نمت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكرمة بأنه (ذو الجلال والإكرام) ، أى : هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يطاق فلا يخالف ، كقوله : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) (٣) ، وكقوله إخباراً عن المتصدقين : (إنما نطعمكم لوجه الله) (٤) .

قال ابن عباس : (ذو الجلال والإكرام) : ذو العظمة والكبرياء (٥) .

ولما أخبر عن تساوى أهل الأرض كلهم في الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة ، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام يحكم العدل قال : (فأبى آلام وبكنا تكذبان) .

(١) في المخطوطة ١ : من حنرة بن سويد . والمثبت عن المرح والتمديد لابن أبي حاتم : ٤٥/٢/٣ .

(٢) سورة القصص ، آية : ٨٨ .

(٣) سورة الكهف ، آية : ٢٨ .

(٤) سورة الإنسان ، آية : ٩ .

(٥) تفسير الطبري : ٩٥/٢٧٧ .

وقوله : (يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن) ، وهذا إخبار عن غناه عاصوا ، واقتداره الخلاق إلى في جميع الآلات ، وأنهم يسألونه بلسان حالم وقالم ، وأنه كل يوم هو في شأن .
قال الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبيد بن عمر : (كل يوم هو في شأن) ، قال : من شأنه أن يجيب داعيا ، أو يعطي ساللا ، أو يملك عاتيا ، أو يشفي سكيئا (١) .

وقال ابن أبي نجيج ، عن مجاهد قال : كل يوم هو يجيب داعيا ، ويكشف كريأ ، ويجيب مضطرا ، ويغفر ذنبا .
وقال قتادة : لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض ، يحيي حيا ، ويميت ميتا ، ويربي صغيرا ، ويملك أسيرا ، وهو مستغنى حاجات الصالحين وعسرهم ، ومتغنى شكواهم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو البان الحمصي ، حدثنا حريز بن عثمان ، عن سويد بن جبلة - هو الفزاري - قال : إن ربكم كل يوم هو في شأن ، فيحيي رعايا ، ويعطي رعايا ، ويقحم عقابا .

وقال ابن جرير : حدثني عبد الله بن محمد بن عمرو الغزالي ، حدثني إبراهيم بن محمد بن يوسف القرطبي ، حدثني عمرو ابن بكر السكسكي ، حدثنا الحارث بن عتبة بن رباح النخعي ، عن أبيه ، عن منبج بن عبد الله بن منبج الأزدي ، عن أبيه قال : تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية (كل يوم هو في شأن) ، قلنا : يا رسول الله ، وما ذاك الشأن ، قال : « أن يغفر ذنبا ، ويفرج كريأ ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين » (٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن حمار ، وسليمان بن أحمد الواسطي قالوا : حدثنا الوزير بن صبيح الثقفي أبو روح النخعي - والسياق هشام - قال : سمعت يونس بن ميسرة بن حكيم يحدث عن أم الدرداء عن أبي الدرداء ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « قال الله عز وجل : (كل يوم هو في شأن) ، قال : من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كريأ ويرفع قوما ، ويضع آخرين » (٣) .

وقد رواه ابن صاكر من طرق متعددة ، عن هشام بن حمار ، به . ثم ساقه من حديث أبي حمار (٤) الوليد بن شجاع ، عن الوزير بن صبيح قال : « وذكرنا (٥) » عليه الوليد بن مسلم ، عن مطرف ، عن الشعبي ، عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكره . قال : « والصحيح الأول ، يعني إسناده الأول » .

(١) تفسير الطبري : ٧٨/٢٧ .

(٢) تفسير الطبري : ٧٩/٢٧ . وانظر الحديث في أسد الغابة ، ترجمة « عبد الله بن منبج الأزدي » : ١٠٢/٣ .
تصحفتنا .

(٣) أخرجه ابن ماجه من حديث هشام بن حمار ، به . انظر المقدمة ، باب « فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ٢٠٢ : ٧٢/١ .

(٤) ما بين القوسين من تاريخ مدينة دمشق لابن صاكر ، مسودة بمجلة الدول العربية ، تاريخ ١٢٥ : ترجمة الوزير ابن صبيح .

(٥) ما بين القوسين من المصدر المتقدم ، ومكانه يباين في المخطوطة . وللفظ تاريخ مدينة دمشق : « حدثنا الوزير بن صبيح ودلنا عليه ... » .

قلت : وقد روي موقوفا ، كما علقه البخاري بصيغة الجزم ، فجعله من كلام أبي الدرداء (١) ، فالحق أعلم .
وقال البراء : حدثنا محمد بن المني ، حدثنا محمد بن الحارث حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن اليلاني ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : (كل يوم هو في شأن) ، قال : « ينظر ذنبا ، ويكشف كربا » .
ثم قال ابن جرير : وحدثنا أبو كريب ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن أبي حمزة الثعالبي ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس : أن الله خلق لوحا عسوطا من حرة بيضاء ، فدناه ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثة وستين نظرة ، يخلق في (٢) كل نظرة ، ويعي ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء (٣) .

سَفَرُغُ لَكَ رَأْيُ الْفَقْلَانِ ﴿١٨﴾ قَبَائِيءَ آلِ رِبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿١٩﴾ يَمْشُرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ إِنْ اسْتَفْهَمُوا أَنْ
تَنْفَعُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاتَّقُوا لَّا تَنْفَعُوا لَّا يَسْطُرُونَ ﴿٢٠﴾ قَبَائِيءَ آلِ رِبِّكَ تُكَذِّبَانِ
﴿٢١﴾ يَرْسُلُ عَلَيْكَ سَوَاطِدَ مِنْ نَارٍ وَخُحَّاسَ فَلَا تَنْصِيرَانِ ﴿٢٢﴾ قَبَائِيءَ آلِ رِبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (سفرغ لكم أبا الفضلان) ، قال : وعيد من الله العباد ، وليس بالله شغل وهو فارغ . وكذا قال الضحاك . وهذا وعيد . وقال قتادة : قد دنا من الله فراغ لخلقه . وقال ابن جريج : (سفرغ لكم) ، أي : سيقضي لكم .

وقال البخاري : سنحاسبكم ، لا يشغاه شيء عن شيء ، وهو معروف في كلام العرب ، يقال : « لا تفرغ من ذلك » - وما به شغل ، يقول : « لا تخلدك على شغرتك » (٤) .

وقوله : (أبا الفضلان) ، الفضلان : الإنس والجن ، كما جاء في الصحيح : « يسمعا (٥) كل شيء إلا الفضلين » (٦) وفي رواية « إلا الجن والإنس » . وفي حديث الصور : « الفضلان الإنس والجن » (٧) . (قبائى آل ربك تكذبان) ؟

ثم قال : (يا مشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنقلوا من أقطار السموات والأرض فانقلوا ، لا تنفعلوا إلا سلطانا) ،

(١) البخاري ، تفسير « سورة الرحمن » : ١٨١/٦ .

(٢) لفظ الطبري : « بكل نظرة » .

(٣) تفسير الطبري : ٧٩/٢٧ .

(٤) البخاري ، تفسير سورة الرحمن : ١٨١/٦ .

(٥) في المختلطة : « يسمعا » . وثلثت من البخاري ومسنود الإمام أحمد ، ولفظ البخاري : « ليصبح صبيحة يسمعا من يلوه إلا الفضلين » .

(٦) البخاري ، كتاب الجنائز ، باب « الميت يسبح بحق النعال » : ١١٣/٢ . وروى « ما جاء في طاب القبر » : ١٢٣/٢ . ومسنود الإمام أحمد عن أنس : ٤/٣ .

(٧) ما يبيع القوسين عن الطبقات السابقة ، ومكانه ، نياض في ضلوة الأثر . ولم يقع لنا هذا النص ، وانظر حديث الصور يباه في سورة الأنعام : ٢٧١/٣ - ٢٨٢ . وانظر أيضا آية الكهف : ٩٩ ، رده : ١٠٢ ، والفرستون : ١٠١ ، والفضل : ٨٧ ، وفس : ٥٦ ، والزمر : ٦٨ .

أى : لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم ، لا تقفرون على التخلص من حكمه ، ولا تفرون من حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم . وهذا في مقام الخسر ؛ للملائكة مُحَلَقَةٌ بالخلق ، سبع صفوف من كل جانب ، فلا يفر أحد على اللهاب (إلا سلطان) ، أى : إلا بأمر الله ، (يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ كلا لاوذر . إلى ربك يومئذ المسقر (١)) . وقال تعالى : (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئةً بمثلها وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم ثوباً من الليل مظلاً ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢)) . ولهذا قال : (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنصران) .

قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الشواظ : هو لب النار (٣) .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : الشواظ : الدخان .

وقال مجاهد : هو : اللهب الأخضر المقطع . وقال أبو صالح : الشواظ : هو اللهب الذى فوق النار ودون الدخان .

وقال الضحاك : (شواظ من نار) : سيل من نار .

وقوله : (ونحاس) ، قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (ونحاس) : دخان النار . وروى مثله عن أبي صالح ، وسعيد بن جبير ، وأبي سنان .

قال ابن جرير : والعرب تسمى الدخان نُحَاساً - يسمون التون وكسرها ، والقراء بجملة على النسم ، ومن النحاس بمعنى الدخان قول نابغة جعدة (٤) :

يُخْصِي كُفُوفَهُ سُرُجُ السَّيِّئِ ط ، لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاساً

بمعنى دخاناً ، هكذا قال .

وقد روى الطبرانى من طريق جوير ، عن الضحاك : أن نابغة بن الأزرق سألت ابن عباس عن الشواظ فقال : هو اللهب الذى لا دخان معه . فسأله شاعداً على ذلك من اللغة ، فأنشده قول أمية بن أبي الصلت (٥) : فحسان :

ألا من مُبْلَغٍ حَسَّانٍ حَتَّى مَكْنُفَكَ (٦) تَدْبُ إِلَى مَكْنُفِ
الْبَسِّ أَبُوكَ فَيَبْتَكَانَ قَتِيًّا (٧) لَدَى الْقَتِينَاتِ فَسَلَّ فِي الْحَمَاطِ
بِمَتَانِيٍّ يَطْلُ كَيْدٌ كَبِيرٌ (٨) وَيَنْفُخُ دَأْبِيَّ لَهَبِ الشَّوَاظِ (٩)

(١) سورة القلمة ، الآيات ١٠ - ١٢ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٢٧ .

(٣) تفسير الطبرى : ٨١/٢٧ .

(٤) في تفسير الطبرى : نابغة بن ذبيان . ولم أجده في ديوانه . والبيت في مجاز القرآن ، لأبي حبيدة مشهوراً : نابغة الجندى :

٢٤٥ - ٢٤٥ / ٢ : والبيت أيضاً في ديوان الجندى ، واللسان مادة : نفس .

(٥) كذا ، والآيات في ديوان حسان ، واللسان منسوبة إلى أمية بن خلف .

(٦) للعلقة : الرسالة .

(٧) القين : البعد . القسل : التلذذ . الحفاظ : المحافظة على المهرم .

(٨) الكبير : مبلغ الخداد .

(٩) ديوان حسان ، ط بيروت ١٤١١ . ولسان العرب ، مادة : شواظ .

قال : صدقت ، فإنا النحاس ؟ قال : هو النحاس الذي لا يلب له . قال : فهل تعرفه العرب ؟ قال : نعم ، أما سمعت نابتة بن دبيان (١) يقول :

يَضْبِيْ كَضْوَةِ سِرَاجِ الْمَكِّي ط ، لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نَحَاسًا

وقال مجاهد : النحاس : الصنفر ، يذاب فيصب على رؤوسهم (٢) . وكذا قال قتادة . وقال الضحاك : (ونحاس) : سيل من نحاس .

واللهي على كل قول : لو ذهب هاربن يوم القيامة لردتكم الملائكة والزانية بإرسال الله من النار والنحاس المذاب عليكم لرجعوا ، ولهذا قال : (فلا تنصرون . فإني آله ربكم تكلبان ؟) ،

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿١٩﴾ فَإِنِّي آله رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْمِعُنَّ دُخَانُهُ
 أَنفُسَ وَلَا جَبَّانِ ﴿٢١﴾ فَإِنِّي آله رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٢﴾ يُعَرِّفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالْأَنفُسِ وَالْأَقْدَامِ
 ﴿٢٣﴾ فَإِنِّي آله رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٤﴾ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٥﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا فِي حِمْيمٍ ءَانِ
 ﴿٢٦﴾ فَإِنِّي آله رَبُّكَ تَكْذِبَانِ ﴿٢٧﴾

يقول : (فإذا انشقت السماء) يوم القيامة ، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها

كقوله : (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) ، وقوله : (ويوم تنشق السماء بالغمام ونزل الملائكة تزيلاً) ، وقوله : (إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت) .

وقوله : (فكانت وردة كالدهان) ، أي : تلوب كما يلوب الدُّرَى والفضة في البهك ، وتلون كما تلون الأصباغ التي يصبها ، فارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الصهباء ، حدثنا نافع أبو خالب الباهلي ، حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطغى عليهم (٣) » ، قال الجوهري : الطغى : لظفر الضعيف .

(١) كلما وقد سبق تفريغ البيت ووجهه إلى الجمل .

(٢) تفسير الطبري : ٨٢٧/٢٧ .

(٣) سند الإمام أحمد : ٢٦٦٣ - ٢٦٦٧ .

وقال الضحاك : عن ابن عباس في قوله : (وردة كالدنان) ، قال : هو الأديم الأحمر : وقال أبو كندبة عن قابوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (فكانت وردة كالدنان) : كالقرص الورد (١) . وقال العوفي ، عن ابن عباس : تغير لونها . وقال أبو صالح : كالورد والورد ، ثم كانت بعد كالدنان .

وحكى البصري وغيره : أن القرص الورد تكون في الربيع صفراء ، وفي الشتاء حمراء ، فإذا اشتد البرد اغبر لونها . وقال الحسن البصري : تكون ألوانا . وقال السدي : تكون كلون البقلة الوردية ، وتكون كالمهل كدرى الزيت . وقال مجاهد : (كالدنان) : كالوان الدنان . وقال عطاء الخراساني : كلون دهن الورد في الصفرة . وقال قتادة : هي اليوم خضراء ، ويومئذ لونها إلى الحمرة ، يوم نبي ألوان . وقال أبو الجوزاء : في صفاء الدهن . وقال ابن جريج : تصير السياه كالدهن اللائب ، وذلك حين يصيبها حتر جهنم .

وقوله : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ، وهذه كقولها : (هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتلون) (٢) ، فهذا في حال ، وتم حال يسأل الخلاق (٣) فيها (٤) عن جميع أعمالهم ، قال الله تعالى : (فوريك لتسلنهم أجمعين ، مما كانوا يعملون) (٥) . وهذا قال قتادة : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) ، قال : قد كانت مسألة ، ثم ختم على أفواه القوم ، وتكلمت ألسنتهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : لا يسأل : هل عملتم كلنا وكلنا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول : لم عملتم كلنا وكلنا ؟ فهذا قول ثان .

وقال مجاهد في هذه الآية : لا يسأل للملاكمة عن المجرم ، يحركون بسيماهم . وهذا قول ثالث : وكان هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار ، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم ، بل يقادون إليها ويلقون فيها ، كما قال تعالى : (يعرف المجرمون بسيماهم) ، أي بعلامت تظهر عليهم .

وقال الحسن وقتادة : يعرفهم بأسوداد الوجوه وزرقة العيون .

قلت : وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتججيل من آثار الوضوء .

وقوله : (فيؤخذ بالنواصي والأقدام) ، أي : تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ، ويلقونه في النار كذلك .

وقال الأعمش ، عن ابن عباس : يؤخذ بناصيته وقدمه ، فيكسر كما يكسر الخطب في التنوير .

وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره :

وقال السدي : يجمع بين ناصية الكافر وقدميه ، فتربط ناصيته بقدمه ، ويقتل ظهره .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام : أنه سمع أبا سلام - يعني جده - أخبرني عبد الرحمن ، حدثني رجل من كندة قال : أتيت عائشة فدخلت عليها ،

(١) تفسير الطبري : ٨٢/٢٧ .

(٢) سورة المرسلات : آية : ٣٥ - ٣٦ .

(٣) ما بين القوسين زيادة أضفناها ليستقيم السياق .

(٤) سورة الحجر : آية : ٩٢ - ٩٣ .

ويبقى وبينها حجاب ، قلت : حدثك رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يأتي عليه ساعة لا عليك لأحد فيها شفاعة ؟ قالت : نعم ، لقد سأله عن هذا وأنا وهو في شكار واحد ، قال : نعم ، حين يوضع الصراط ، لا أم لك لأحد فيها شفاعة ، حتى أعلم أين يسلك بي ؟ ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، حتى أنظر ماذا يفعل بي - أو قال : يوحى - وعند الجسر حين يستحد ويستح ، فقالت : وما يستحد وما يستح ؟ قال : يستحد حتى يكون مثل شفرة السيف ، ويستح حتى يكون مثل الجمرة ، فأما المؤمن فيجزيه (١) لا يضره ، وأما المنافق فيعلق حتى إذا بلغ أوسطه غرّ من قدمه فيهوى بيده إلى قدميه - قالت : فهل رأيت من يسمى حافيا فتأخذه شوكة حتى تكاد تنفذ قدميه ، فأنا كذاك يهوى بيده ورأسه إلى قدميه ، فضره الزبانية بخطاف في ناصيته وقدمه ، فخلقه في جهنم ، فيهوى فيها مقدار خمسين عاما . قلت : ما ثقل الرجل ؟ قالت : ثقل عشر خنكفات (٢) ميان ، فيؤمّد يعرف المجرمون بسببهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام (٣) . هذا حديث غريب ، وفيه ألفاظ منكر رفعها ، وفي الإسناد من لم يُسم ، ومثله لا يحتج به ، والله أعلم .

وقوله : (هذه جهنم التي يكلب بها المجرمون) ، أي : هذه النار التي كنتم تكلبون بوجودها هاهي حاضرة تشاهدونها هيأتا ، يقال لم ذلك قريبا وتويخا وتصغيرا وتخييرا .

وقوله : (يطوفون بينها وبين حميم آن) ، أي : تارة يمسكون في الجحيم ، وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس اللباب ، يقطع الأمعاء والأعضاء . وهذه كقوله تعالى : (إذا الأفاعيل في أعناقهم والسنابل يسحبون . في الحميم ثم في النار يسجرون (٤)) .

وقوله : (آن) ، أي : حار ، قد بلغ الغاية في الحرارة ، لا يستطاع من شدة ذلك ،

قال ابن عباس في قوله : (يطوفون بينها وبين حميم آن) ، أي : قد انتهى غليته ، واشتد حره (٥) . وكلما قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والحسن ، والثوري ، والبدعي .

وقال قتادة : قد أتى طبعه منذ خلق الله السموات والأرض (٥) . وقال محمد بن كعب القرظي : يؤخذ العبد فيحركه بناصيته في ذلك الحميم ، حتى يلوب اللحم ويبنى العظم والنيان في الرأس . وهي كالتى يقول الله تعالى : (في الحميم ثم في النار يسجرون) . والحميم الآن : ينى الحار . وعن القرظي رواية أخرى : (حميم آن) ، أي : حاضرا . وهو قول ابن زيد أيضا ، والحاضر ، لا ينافي ما روى عن القرظي أولا أنه الحار ، كقوله تعالى : (نسى من حين آتية) (٦) ، أي : حارة شديدة الحولا تستطاع ، وكقوله : (خير ناظرين إناهم) (٧) ، ينى استواءه ونضجه . قوله : (حميم آن) ، أي : حميم حار جدا . ولما كان ماقية الصماء المجرمين وتعيم المؤمنين من فضله ورحمته وعذله

(١) أي : يقطعه .

(٢) الخلفات : جميع خلفه - يفتح فكسر - وهي : الخلد من النوك .

(٣) أخرجه السيوطي بنحوه من عهد قرزاق ، انظر لاهد للثور ١٤٥/٦ .

(٤) سورة غافر ، آية ٧١ - ٧٢ .

(٥) تفسير الطبري ٨٤/٢٧ .

(٦) سورة النافثة ، آية ٥ .

(٧) سورة الأحزاب ، آية ٥٣ .

ولطفه خلقه ، وكان إنذاره لهم خطاباً وبأسه مما يزرعهم عمام فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك ، قال مبتلا بملك
على بترته : (فأي الآلهة تكذبان ؟) .

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴿١٦﴾ فَيَايَ الْآلِهَةِ تَكْذِبَانِ ﴿١٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿١٨﴾ فَيَايَ الْآلِهَةِ تَكْذِبَانِ ﴿١٩﴾
فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَايَ الْآلِهَةِ تَكْذِبَانِ ﴿٢١﴾ فِيهِمَا مَنْ كُلٌّ فِي كَهْفٍ زَوْجَانِ ﴿٢٢﴾ فَيَايَ الْآلِهَةِ تَكْذِبَانِ ﴿٢٣﴾

قال ابن شوذب ، وعطاء الخراساني : نزلت هذه الآية : (ولن خاف مقام ربه جنتان) في أبي بكر الصديق .
وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن مصفى ، حدثنا بقيقه ، عن أبي بكر بن أبي مريم ، عن عطية بن قيس
في قوله : (ولن خاف مقام ربه جنتان) : نزلت في الذي قال : أحرقوني بالنار لنمل أضل (١) الله ، قال : تاب يوما
وليلاً بعد أن تكلم جهلاً ، فقبل الله منه وأدخله الجنة (٢) .

والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره ، يقول تعالى : ولن خاف مقامه بين يدي الله عز وجل
يوم القيامة ، (ونهى النفس عن الهوى) ، ولم يطلع ولا أثر الحياة الدنيا ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى ، فأدى فرائض الله
واجتنب محارمه ، فله يوم القيامة عتد ربه جنتان ، كما قال البخاري رحمه الله :

حدثنا عبد الله بن أبي الأسود ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد العنسي ، حدثنا أبو عمرو الجوني ، عن
أبي بكر بن عبد الله بن قيس ، عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « جنتان من فضة ، آتيتهما وما فيهما ،
وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه
في جنة عدن » (٣) .

وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود ، من حديث عبد العزيز ، به (٤) .

وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبي بكر بن أبي موسى ، عن أبيه - قال حماد : ولا أعلمه إلا قد رفعه -
في قوله تعالى : (ولن خاف مقام ربه جنتان) ، وفي قوله : (ومن دونهما جنتان) : جنتان من ذهب للمعربين ،
وجنتان من وري لأصحاب اليمين) .

وقال ابن جرير : حدثنا زكريا بن يحيى بن أبان المصري (٥) ، حدثنا ابن أبي مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر ،
عن محمد بن (أبي) حملة ، عن عطاء بن يسار ، أخبرني أبو الدرداء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوماً

(١) أي : أفوته ويغنى عليه مكافئ . وقيل : لنمل أفتب من طباب الله تعالى .

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم : ١٤٦/٦ .

(٣) البخاري ، تفسير سورة الرحمن : ١٨١/٦ .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « إثبات رواية المؤمنين في الآخرة وهم سبحانه وتعالى » : ١١٢/١ . وتحفة الأحوف ،
أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء في صفة غرف الجنة » ، الحديث ٢٦٤٨ : ٢٢٢/٧ - ٢٣٤ . وابن ماجه ، المقاسة ، باب
« فيها أكثر البهيمية » ، الحديث ١٨٦ : ١٨٦/١ - ٦٧ .

(٥) ما بين القومين عن تفسير الطبري . ولم تقع لنا ترجمته ، وانظره أيضاً في تفسير الطبري ، الأثر ٥٩٧٣ : ١٩٠/٥ ،
محقق الأستاذ محمود عبد شاكور .

- (١) البيان في تفسير الطبري غير منسوخ : ٨٦/٢٧ . والاول في اللسان : مادة و حكي .
- (٢) في خطرة الأثر : و طارفاً و المثلث عن الطبعات السابقة والنسخ المتشعب : ١٤٧/٦ . وفي تفسير الطبري : ١ و طارفاً و .
- (٣) أي : مبالغة الحم .
- (٤) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .
- (٥) تفسير الطبري : ٨٥/٢٧ .
- (٦) لفظة الطبري ٨٦/٢٧ : يعني فصلهما وسميها على من سواهما .

وقال سفيان الثوري - أو : شريك - : بطاقتها من إستبرق ، وظواهرها من زور جامد .

وقال القاسم بن محمد : بطاقتها من إستبرق ، وظواهرها من الرحمة .

وقال ابن شاذيب ، عن أبي عبد الله الشامي : ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر . وعلى الظواهر الخافض (١) ، ولا يعلم ما تحت الظاهري (١) إلا الله : ذكر ذلك كله الإمام ابن أبي حاتم .

(وجنى الجنتين دان) ، أي : نمرهما قريب إليهم ، متى شاموا تناولوه ، على أي صفة كانوا : كما قال : (قطوفها دانية) (٢) ، وقال : (وحانية عليهم ظلالها ، وذلكت قطوفها تليلاً (٣)) ، أي : لا تمتنع عن تناولها ، بل تنحط إليه من أغصانها ، (فيأي الآله ويكما تكلبان) .

ولا ذكر القروش وعظمها قال بعد ذلك : (فيهن) ، أي : في القروش (قاصرات الطرف) ، أي : غضبضات من غير أزواجهن ، فلا يرين شيئاً أحسن في الجنة من أزواجهن ، قاله ابن عباس ، وقادة ، وعطاء الخراساني ، وابن زيد .

وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبطها : والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك ، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك .

(لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان) ، أي : بل من أبكار عرب أنراب ، لم يطمئن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجان ، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمنين للجن الجنة .

قال أروطة بن المنذر : سئل غمرة بن حبيب : هل يخل الجن الجنة ؟ قال : نعم ، وينكحون ، للجن جنيات ، وللإنس إنسيات (٤) . وذلك قوله : (لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان . فيأي آله ويكما تكلبان) .

ثم قال ينعن الخطاب : (كأنهن الباقوت والمرجان) ، قال مجاهد ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم : في صفاء الباقوت وبياض المرجان ، فجمعوا المرجان هاهنا للؤلؤ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن حاتم ، حدثنا عبيدة بن حميد ، عن عطاء بن السائب ، عن عمرو بن ميمون الأودي ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إن المرأة من النساء أهل الجنة ليري بياض ساقها من وراء سبعين حلقة من الحرير حتى يرى عتتها» وذلك أن الله تعالى يقول : (كأنهن الباقوت والمرجان) ، فأما الباقوت فانه حنجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيت لرأيت من ورائه .

وهكذا رواه الرمثي عن حديث عبيدة بن حميد وأبي الأحوص ، عن عطاء بن السائب ، به . ورواه موفقا ، ثم قال : وهو أصح (٥) .

(١) في المخطوطة : والخاص . والمحاسب : جمع ومحس - بكر الميم ، وهو ما ينسب كل وجه للفراش الخمر .

(٢) سورة الحاقة : آية ٢٢ .

(٣) سورة الإنسان : آية ١٤ .

(٤) تفسير الطبري : ٨٨/٢٧ .

(٥) تحفة الأعرابي : أبواب صفات الجنة ، باب ما يحد في صفة لسائر أهل الجنة ، الحديث ٢٦٥٥ ، ٢٦٥٦ ، ٢٦٩٧ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا يونس ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حلة ، يرى مخ ساقهما من وراء الثياب (١) » .

نفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه : وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن عُلَيْبَةَ ، عن أيوب ، عن محمد بن سيرين قال : إما فُخِّخُوا وإما تُلَاكِرُوا ، الرجال أكثر في الجنة أم النساء ؟ قال أبو هريرة : أولم يقل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضواء كوكب دُرِّي في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان ، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم ، وما في الجنة أحزب (٢) » .

وهذا الحديث مُخْتَرَجٌ في الصحيحين ، من حديث هَمَّام بن مَثَبَةَ وأبي زُرْعَةَ ، عن أبي هريرة رضى الله عنه (٣) . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو التمر ، حدثنا محمد بن طلحة ، عن حميد ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « للجنة في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولقَاب قوسٍ أحَدكم - أو موضع قبده - يعني سوطه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلمت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لالأت ما بينهما رِيحًا ، ولطاب ما بينهما ، ولتصفيها (٤) على رأسها خير من الدنيا وما فيها (٥) » .

ورواه البخاري من حديث أبي إسحاق ، عن حُجَيْبٍ ، عن أنس بنحوه (٦) .

وقوله : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ، أى : ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة ، كما قال تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة (٧)) .

وقال الباقون : أخبرنا أبو سعيد الشَّيْبَانِيُّ ، حدثنا أبو إسحاق الطَّلَبِيُّ ، أخبرنا ابن قُتَيْبَةُ ، حدثنا ابن ذُئيبٍ ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن سَلام ، حدثنا الحجاج بن يوسف للكتب ، حدثنا بشر بن الحسين ، عن الزبير بن صدق ، عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ، وقال : « هل تدرون ما قال ربيكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » .

ولما كان في الذي ذُكِرَ تَمَّ عَظِيمَةٌ لا يقاومها عمل ، بل مجرد تفضل وامتنان ، قال بعد ذلك كله : (فبأى آلاميكما تكذبان ؟) ،

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٤٥/٢ .

(٢) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب : « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم » :

١٤٥/٨ - ١٤٦ .

(٣) مسلم ، في الكتاب والباب السابقين : ١٤٦/٨ . والبخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب : « ما جاء في صفة الجنة وأهلها » :

مظلة : ١٤٢/٤ .

(٤) أى : خارجها .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٤١/٣ .

(٦) البخاري ، كتاب الجهاد ، باب : « الحور العين » : ٢٠/٤ - ٢١ .

(٧) سورة يونس ، آية : ٢٦ .

قال ابن عباس في قوله : (مدهامتان) : قد أسودتا من الخضرة ، عن شدة الرى من الماء ،

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن فضيل ، حدثنا عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : (مدهامتان) ، قال : خضراوان . وروى عن أبي أيوب الأنصاري ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وعكرمة ، وسعيد بن جبّير ، وبجاءه - في إحدى الروايات - عطاء ، وعطية النوفى ، والحسن البصرى ، ويحيى بن زافع ، وسفيان الثوري ، نحو ذلك .

وقال محمد بن كعب : (مدهامتان) : مملتان من الخضرة . وقال قتادة : خضراوان من الرى ناعمتان . ولا شك في نضارة الأفصان على الأشجار المشبكة بعضها في بعض . وقال هناك : (فيهما عيتان نجريان) ، وقال هاهنا : (نضاختان) ، قال حل بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : أى نضاختان . والجري أقوى من النضج .

وقال الفصحاء : (نضاختان) ، أى : مملتان لا تضطمان .

وقال هناك : (فيهما من كل فاكهة زوجان) ، وقال هاهنا : (فيهما فاكهة ونخل ورمان) ، ولا شك أن الأولى أمم وأكثر في الأفراد والتنوع على (١) لفاكهة ، وهى لكرة في سياق الإثبات لاتمم . ولهذا فُسر قوله : (ونخل ورمان) من باب عطف الخاص على العام ، كما قرره البخارى وغيره ، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرها .

قال عبد بن حميد : حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا حصين بن عمر ، حدثنا هارث ، عن طارق بن شهاب ، عن عمر بن الخطاب قال : جاء أناس من اليهود إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا محمد ، أئى الجنة فاكهة ؟ قال : نعم فيها فاكهة ونخل ورمان . قالوا : أئى أكلون كما يأكلون في الدنيا ؟ قال : نعم وأضماف . قالوا : فيقضون الحرائج ؟ قال : لا ، ولكنهم يتركون ويرشون ، فيلهب الله مائى بطونهم من أذى .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا الفضل بن دكين ، حدثنا سفيان ، عن حماد ، عن سعيد بن جبّير ، عن ابن عباس قال : نخل الجنة سفها كسوة لأهل الجنة ، منها مَنَطَحَانِمْ ، ومنها حَلَطَانِمْ كَرَبِيْهَا (٢) ذهب أحمر ، وجلوها زمرد أخضر ، وثمرها أحل من العسل ، وألين من الزبد ، وليس له عَجَم (٣) .

وحدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسحاق ، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - عن أبي هارون ، عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها كمثل العبر المشتب (٤) » .

ثم قال : (فيهن خبرات حسان) . قيل : المراد خبرات كثيرة حسنة في الجنة ، قاله قتادة . وقيل : خبرات جمع خيرة ، وهى المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه ، قاله الجمهور ، وروى مرفوعا عن أم سلمة . وفى الحديث

(١) كلاً ، والباية غير مستقيمة .

(٢) الكربة - ينفع الكاف والراء - أصل العث . وقيل : ما يقع من أصوله في التظلة بعد التقطع .

(٣) السيم - يفتحين - الثوى .

(٤) أى : لئى قد عليه التفت ، وهو رجل صغير على قدر مقام العبر .

الآخر الذى سنورده في سورة الواقعة (١) : « أن الحور العين يفتنن » نحن المبرات الحسناء ، خلقنا لأزواج كرام ، ولهذا قرأ بعضهم : (فيهن خشيّرات (٢)) ، بالتشديد (حسن . فبأى آلاء ويكما نكلمان)

ثم قال : (حور مقصورات في الخيام) ، وهناك قال : (فيهن قاصرات الطرف) ، ولا شك أن الذى قد قصّرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصّرت ، وإن كان الجميع غفيرات ،

قال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأوسى ، حدثنا وكيع عن سفيان ، عن جابر ، عن القاسم بن أبي بزة ، عن أبي عبيدة (٣) ، عن مسروق ، عن عبد الله قال : إن لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب ، يدخل عليها (٤) كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك ، لأمراء (٥) ولا طمّاحات (٦) ، ولا فخرات (٧) ولا خفريات ، حور عين ، كأنهن بيض مكنون ،

وقوله : (في الخيام) ، قال البخارى :

حدثنا محمد بن الفضل ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد ، حدثنا أبو عمران الجوني ، عن أبي بكر بن عبد الله ابن قيس ، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة بجوفة ، عرضها ستون ميلا ، في كل زاوية منها أهل ما يتركون الآخرون ، يطوف عليهم المؤمنون (٧) » .

ورواه أيضا من حديث [أبي] عمران ، به وقال : « ثلاثون (٨) ميلا » ، وأخرجه مسلم من حديث أبي عمران ، به ، ونقله : « إن المؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة بجوفة ، طولها ستون ميلا ، المؤمن فيها أهل (٩) يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا (١٠) » ،

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن أبي الربيع ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، أخبرني حنظلة العنصرى ، عن أبي اللرداء قال : الخيمة لؤلؤة واحدة ، فيها سبعون بابا من در

(١) وذلك عند الآيات : ٣٥ - ٣٨ من هذه السورة .

(٢) القيس المحيط لأبي حيان : ١٩٨/٨ - ١٩٩ .

(٣) كلا ، وفي تفسير الطبري ٩٢٢/٧ : « عبيد »

(٤) في المخطوطة : « يدخل عليه » . والمثبت عند الكثير : ١٥٠/٦ .

(٥) في المخطوطة : « مرسات » . وفي الطبقات السابقة : « مرسات » . والمثبت عند الكثير : « والمرأة الطامحة : الأشر والبطر » .

(٦) في المخطوطة كلمة غير واضحة ، وفي الطبقات السابقة : « طمّاحات » . والمثبت عند الكثير أيضا ، والمرأة الطامحة : هى التى تكثر بظنّها ميمّا وقبّالا إلى غير زوجها .

(٧) البخارى ، تفسير سورة الرحمن : ١٨٢/٦ .

(٨) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « ما جاء في صفة الجنة وأهلها مخلوقة » : ١٤٢/٤٠ - ١٤٣ .

(٩) للفرد مسلم : « لطلون »

(١٠) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « في صفة خيام الجنة » : ١٤٨/٨ .

وحدثنا أبي ، حدثنا حميد بن أبي قاطمة ، حدثنا جرير ، عن هشام ، عن محمد بن المنذر ، عن ابن عباس في قوله :
(حور مقصورات في الخيام) ، قال : خيام اللؤلؤ ، وأن في الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة ، أربعة فراسخ في أربعة
فراسخ ، عليها أربعة آلاف مصراع من الذهب .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنا عمرو أن دراجا أبا السمح حدثه ، عن أبي الميثم ، عن أبي سعيد ، عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : « أخذ أهل الجنة منزلةً التي له ثمانون ألف خادم ، واثنتان وسبعون زوجة ، وتنصيب له قوة
من لؤلؤ وزهر جدوياقوت ، كما بين الجابية (١) وصنعاء » .

ورواه الترمذي من حديث عمرو بن الحارث (٢) .

وقوله : (لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان) : تقدم مثله سواء ، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله : (كانوا
الجانوت والرجان : فجاء الآدميكما تكلبان) .

وقوله : (متكئين على رفرف خضر وعقري حسان) ، قال جل بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الرفرف :
المهايس (٣) . وكلما قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهما : هي أمهاس ، وقال العلامة
ابن بشر : الرفرف على السرير ، كهيئة المهايس للثعلب .

وقال عاصم الجعدي : (متكئين على رفرف خضر) ، يعني : الوسائد ، وهو قول الحسن البصري في رواية عنه .
وقال أبو داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير في قوله : (متكئين على رفرف خضر) ،
قال : الرفرف رياض الجنة .

وقوله : (وعقري حسان) ، قال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، العنبري : الزرائي ، وقال سعيد
ابن جبير : هي عناق الزرائي ، يعني : جيادها (٤) .

وقال مجاهد : العنبري الديباج .

ومسئل الحسن البصري عن قوله : (وعقري حسان) ، فقال : هي بسط أهل الجنة -- لا أبالكم -- فاطلبوها .
ومن الحسن رواية : أنها المرافق : وقال زيد بن أسلم : العنبري : أحمر وأصفر وأخضر ، وسئل العلامة بن زيد عن
العنبري فقال : البسط أسفل من ذلك : وقال أبو حنيفة : يعقوب بن مجاهد : العنبري : من ثياب أهل الجنة ، لا يبرقه
أحد : وقال أبو العالية : العنبري : الطنافس المضمكة ، إلى الرقة ما هي . وقال الفتح : كل ثوب صوّفى عند العرب
عنبري . وقال أبو حنيفة : هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشى (٥) . وقال الخليل بن أحمد : كل شيء يسر (٦)

(١) الجابية : قرية بالشام .

(٢) تحفة الأوسى : أبواب صفوة الجنة ، باب : ما لأهل الجنة الكرامة . الحديث ٢٦٨٧ : ٢٧٤ / ٧ - ٢٨٠ .

(٣) تقدم تفسير هذه الكلمة من قريب .

(٤) تفسير الطبري : ٩٥٪ ٢٤ .

(٥) جاز القرآن لأبي حنيفة : ٢٤٦٪ ٢ .

(٦) كلما في المخطوطة . وفي النسخات السابقة : كل شيء ليس .

من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب حَبْرًا . ومنه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - في عمر : « فلم أرَ حَبْرًا يَحْبُرُ قَوْمَهُ » (١) .

وعلى كل تقدير فصفة « مرافق » أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة ، لأنه قد نال هناك : (متكبرين على فرش بطائنها من إستبرق) ، فتمت بطائن فرشهم وسكت عن ظواهرها ، اكتفاء بما صدح به الطائفتان بطريق الأولى والأخرى . ونظام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المنظمة : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟) فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات ، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ، ثم الإيمان ، ثم الإحسان ، فوله وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأولين على هاتين الآخرين ، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من « أهل الأولين » .

ثم قال : (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) ، أي : هو أهل أن يجل فلا يسمى ، وأن يحرم فبهده ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ،

وقال ابن عباس : (ذي الجلال والإكرام) : ذي العظمة والكبرياء .

وقال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، عن عاصم بن حاني ، عن أبي العلاء ، عن أبي النرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أجبوا الله بيقبركم » (٢) .

وفي الحديث الآخر : « إن من إجلال الله لإكرام ذي الشئبة للمسلم ، وذي السلطان ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجاني منه » (٣) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو يوسف الحاربي ، حدثنا مؤمك بن إسحاق ، حدثنا حماد ، حدثنا حمصبة الطويل ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألبظوا (٤) بياذا الجلال والإكرام » .

وكذا رواه الترمذي ، عن محمود بن غيلان ، عن مؤمك بن إسحاق ، عن حماد بن سلمة ، به ثم قال : « غلط المزمّل فيه ، وهو غريب وليس بمحفوظ ، وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن الحسن ، عن النبي صلى الله عليه وسلم » (٥) .

(١) أي : يسلم حله . والحديث أخرجه البيهقي في كتاب المنتقب ، باب « فضل عمر » ١٣/٥ ، وسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل عمر » ١١٢/٧ - ١١٣ . وانظره في أمه القلية : ١٦٦/٤ .

(٢) مستد الإمام أحمد : ١٩٩/٥ . وبعده : « قال ابن ثوبان : يني أسلموا » .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في تزييل الناس منزلة » .

(٤) أي : اترجموه وأجسروا عليه وأكثروا من قره والتلفظ به في محالكم .

(٥) تحفة الأسوذي ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٩٤ ، ١١٢/٩ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن يحيى بن حسان التميمي ، عن
ويبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أَلْظُوا بِنِي (١) الْجَلالَ وَالْإِكْرَامَ (٢) » .

ورواه النسائي من حديث عبد الله بن المبارك ، به .

قال الجوهري : أَلْظَ فلان بفلان : إذا لزمه .

وقول ابن مسعود « أَلْظُوا بِيَاذَا الْجَلالَ وَالْإِكْرَامَ » ، أي : الزموا . ويقال : الإلتفاظ هو الإلحاح .

قلت : وكلاما قريب من الآخر - والله أعلم - وهو المداومة والازم والإلحاح . وفي صحيح مسلم والسنن
الأربعة ، من حديث عبد الله بن الحارث ، عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سَلَّمَ لا يَفْعَدُ
بني بعد الصلاة إلا قدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ذا الجلال والإكرام (٣) » .

آخر تفسير سورة الرحمن ، والله الحمد

(١) في المتن : « بياذا » .

(٢) حسد الإمام أحمد : ١٧٧/٤ .

(٣) مسلم ، كتاب المساجد ، باب « أصحاب الذكر بعد الصلاة ويأمن صلاته » : ٩٤/٢ - ٩٥ ، وصن أبي داود ، كتاب
الوتر ، باب « ما يقول الرجل إذا سلم » . وتحفة الأحراف ، أبواب الصلاة ، باب « ما يقول إذا سلم » ، الحديث ٢٩٢/٢ : ٢٩٢/٢ -
١٩٢ . والنسائي ، كتاب السجود ، باب « الذكر بعد الاستغفار » : ٦٩/٣ . وصن ابن ماجة ، كتاب إقامة الصلاة ، باب
« ما يقال بعد التسليم » ، الحديث ٢٩٢٤ : ٢٩٨/٦ .

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية

قال أبو إسحاق ، عن حكيمه ، عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ، قد شئت ؟ قال : لا ، فينتي هرهه ،
والواقعة ، والمرسلات ، وحتمهم يطأطون ، وإذا الشمس كورت .

رواه الترمذي وقال : حسن غريب (١) .

وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن مسعود بسنده إلى عمرو بن الربيع بن طارق المصري : حدثنا السري
ابن يحيى الشيباني ، عن أبي شعاع ، عن أبي ظبية قال : مرض عبد الله مَرَضَهُ الَّذِي تَوَفَّى فِيهِ ، فَبَادَهُ عُمَانُ بْنُ عَفَانَ
فَقَالَ : مَا تَشْتَكِي ؟ قَالَ : خَوْفٌ . قَالَ : فَا تَشْتَكِي ؟ قَالَ : وَحْمَةٌ رُبِّي . قَالَ : أَلَا أَمْرُكَ بِطَيْبٍ ؟ قَالَ : الطَّيِّبُ
أَرْضِي . قَالَ : أَلَا أَمْرُكَ بِطَافٍ ؟ قَالَ : لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ . قَالَ : يَكُونُ لِيَتَأْتِكَ مِنْ بَعْدِكَ ؟ قَالَ : أَتَشْكِي حُلَّ بَنَانِي
لَلْقُرْ ؟ إِنِّي أَمَرْتُ بَنَانِي بِقِرْآنِ كُلِّ لَيْلَةٍ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ
الْوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تَصِبْ فَاقَةً أَبَدًا » .

ثم قال ابن عساكر : « كلنا قال : والصواب عن شعاع » ، كما رواه عبد الله بن وهب ، عن السري .
وقال عبد الله بن وهب : أخبرني السري بن يحيى أن شعاعاً حدثه ، عن أبي ظبية ، عن عبد الله بن مسعود قال :
سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » ، فكان أبو ظبية
لأبدها .

وكلما رواه أبو يعلى ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن محمد بن منبج عن السري بن يحيى ، عن شعاع ، عن أبي
ظبية عن ابن مسعود به . ثم رواه عن إسحاق بن أبي إسرائيل ، عن محمد بن منبج المدني ، عن السري بن يحيى ،
عن أبي ظبية ، عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه
فاقة أبداً » لم يذكر في سنده شعاعاً ، قال : وقد أمرت بناتي أن يقرأنها كل ليلة : وقد رواه ابن عساكر أيضاً من
حديث حجاج بن نصير وعثمان بن أبيان ، عن السري بن يحيى ، عن شعاع ، عن أبي فاطمة قال : مرض عبد الله ،
فأتاه عثمان بن عفان يهرده ، فذكر الحديث بطوله . قال عثمان بن أبيان : كان أبو فاطمة هذا مولى لعلي بن أبي
طالب (٢) .

(١) تحفة الأحقاف ، تفسير سورة الواقعة ، الطبع ١٣٥١ : ١٨٤٧٩ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ، مسودة بمحمد المخطوطات بمجلسة الدول العربية برقم ١٢٥ تاريخ ، ورقة : ٢٩٤ .
وانظر الأثر في لسان النابتة ٣٨٩/٣ - ٣٩٠ بمصنفنا .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا إسرائيل ويحيى بن آدم ، حدثنا إسرائيل ، عن صالح بن حرب : أنه سمع جابر بن سمرة يقول : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان خفيف ، كانت صلاته أنحف من صلاتكم ، وكان يقرأ في القبر « الواقعة » ونحوها من السور (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا وَفَّعَتِ الرَّاقِعَةَ ❶ لَيْسَ لَوْفَعَتَا كَاذِبَةً ❷ خَافِضَةً ❸ رَافِعَةً ❹ إِذَا رَجَبَتِ الْأَرْضُ رَجًّا ❺ وَسَيَّتِ الْجِبَالُ ❻ بَيًّا ❼ فَكَتَّتْ حَبَاءً مُنْبَتًّا ❶ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ❷ فَاصْحَبْ أَلْمِيمَةَ مَا اصْحَبَّ أَلْمِيمَةَ ❸ وَاصْحَبْ أَلْمَشَقَمَةَ مَا اصْحَبَّ أَلْمَشَقَمَةَ ❹ وَالسَّيُّونَ السَّيُّونَ ❺ أُولَئِكَ أَلْمَقْرُوبُونَ ❻ فِي جَنَّتٍ أَلْنَعِيمِ ❼

الواقعة : من أساء يوم القيامة ، سميت بذلك لتحقق كونها وجودها ، كما قال : (فيومئذ وقعت الواقعة (٢)) .
وقوله : (ليس لوفعتا كاذبة) ، أي : ليس لوفعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها ، ولا دافع يدفعها ، كما قال : (استجبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) (٣) ، وقال : (سأل سائل بعذاب واقع - للكافرين ليس له دافع (٤)) ، وقال تعالى : (ويوم يقول كن فيكون ، قوله الحق وله الملك ، يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكم الخبير (٥)) .

ومعنى (كاذبة) كما قال محمد بن كعب : لابد أن تكون . وقال قتادة : ليس فيها مثوبة (٦) ولا ارتداد ولا رجعة (٧) .

قال ابن جرير : والكاذبة : مصدر كالعاقبة والغاية (٧) .

وقوله : (خافضة رافعة) ، أي : تخفض أقواما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم ، وإن كانوا في الدنيا أحراراً ، وترفع آخرين إلى أعلى عِلِّيِّينَ إلى النعيم المقيم ، وإن كانوا في الدنيا وُضْعَاءَ . وهكذا قال الحسن ، و قتادة وغيرهما .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يزيد بن عبد الرحمن بن مصعب المعنى ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرواسي ، عن أبيه ، عن صالح ، عن حكومة ، عن ابن عباس : (خافضة رافعة) : تخفض أناساً وترفع آخرين .

وقال عبيد الله العتكي ، عن عثمان بن سراق (٨) ابن خالة عمر بن الخطاب : (خافضة رافعة) الساعة خيمت أعداء الله إلى النار ، ورفعت أولياء الله إلى الجنة .

(١) حسنة الإمام أحمد : ١٠٤/٥ .

(٢) سورة الحاقة ، آية : ١٥ .

(٣) سورة القدر ، آية : ٤٧ .

(٤) سورة المعارج ، آية : ١ ، ٢ .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ٧٣ .

(٦) أي : استند .

(٧) تفسير الطبري : ٩٦/٢٧ .

(٨) كذا ، وقد ترجم له في الفهرح والتبديل ١١٥٥/٣ : « عثمان بن عبد الله بن سراق » . وفي الخلاصة مثله ، وفيها

أيضاً أنه يروي عن خاله ابن عمر . وانظر الأثر في تفسير الطبري : ٩٦/٢٧ .

وقال محمد بن كعب : نقص رجلاً كانوا في الدنيا مرتضين ، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا محضين .
وقال السدي : خفضت الشكرين ورفعت المتواضعين .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : خافضة رافعة) : أسمت التريب والعيد . وقال عكرمة : خفضت فأسمت الأذى ، ورفعت فأسمت الأكسى . وكلنا قال الضحاك ، وقتادة .

وقوله : (إذا رجت الأرض رجا) ، أى : حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها ؛ ولهذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغير واحد في قوله : (إذا رجت الأرض رجا) ، أى : زلزلت زلزلاً ،

وقال الريح بن أنس : تَرَجَّ بما فيها كَرَجَ الغراب بما فيه :

وهذه كقوله تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالاً) (١) ، وقال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم) (٢) .

وقوله : (وبست الجبال بسا) ، أى : فُتَّتْ فَتْناً . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وغيرهم .
وقال ابن زيد : صارت الجبال كما قال تعالى : (كليباً مهيبلاً) .

وقوله : (فكانت هباء منبثاً) ، قال أبو إسحاق ، عن الحارث ، عن علي بن رضى الله عنه - : (هباء منبثاً) كرهق الخبار يسلم ثم يذهب ، فلا يبقى منه شئ .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : (فكانت هباء منبثاً) : الهباء الذى يطير من النار إذا اضطربت بطير منه الشر ، فهاذا وقع لم يكن شيئاً .

وقال عكرمة : المنبث : الذى قد ذرته الريح وبثته . وقال قتادة : (هباء منبثاً) كيبس الشجر الذى تلوه الرياح .

وهذه الآية كأنها البالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتبديلها ونسفها - [أى قلعها]
وصبروتها كالمهن المنفوش .

وقوله : (وكنت أزواجا ثلاثة) ، أى : ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ، ويوتون كتبهم بآيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين . قال السدي : وهم جمهور أهل الجنة ، وآخرون عن يسار العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويوتون كتبهم بشمالهم ، ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار - عباداً باقة من صنيعهم - وطائفة سابقون بن يديه وهم أنص وأحقى وأقرب من أصحاب اليمين [الذين] هم مباحثهم ، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين ؛ ولهذا قال : (فاصحاب المينة ما أصحاب المينة . واصحاب المشلة ما أصحاب المشلة . والسابقون السابقون) : وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم ، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى : (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا

(١) سورة الزلزلة ، آية : ١

(٢) سورة الحج ، آية : ١

من عبادة ، فنعلم ظالم نفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله (١) : الآية ، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه كما تقدم بيانه .

قال سلمان التوري ، عن جابر الجعفي ، عن مجاهد ، عن ابن عباس في قوله : (وكنتم أزواجا ثلاثة) ، قال : هي التي في سورة المائدة : (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فنعلم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) .

وقال ابن جرير ، عن ابن عباس : هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون في آخر السورة وفي سورة المائدة .

وقال يزيد الرقاشي : سألت ابن عباس عن قوله : (وكنتم أزواجا ثلاثة) ، قال : أصنافا ثلاثة .

وقال مجاهد : (وكنتم أزواجا ثلاثة) ، يعني : فرقا ثلاثة . وقال ميمون بن مهران : أفواجا ثلاثة : وقال هبة الله القعقبي ، عن عثمان بن سُرَّة ، ابن خالة عمر بن الخطاب : (وكنتم أزواجا ثلاثة) : اثنان في الجنة ، وواحد في النار (٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا الوليد بن أبي ثور ، عن سيك ، عن التميمي ابن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وإذا النفوس زوجت) ، قال : الضرياء ، كل رجل من كل قوم كانوا يعملون عمله ، وذلك بأن الله يقول : (وكنتم أزواجا ثلاثة : فأصحاب الجنة ما أصحاب للجنة ، وأصحاب النار ما أصحاب للنار) ، قال : هم الضرياء .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبد الله بن الخثعم ، حدثنا البراء الفتيوي ، حدثنا الحسن ، عن معاذ بن جبل : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلا هذه الآية : (وأصحاب اليمين) ، (وأصحاب الشمال) ، فقبض بيده فيضين فقال : هذه الجنة ولا أبالي ، وهذه النار ولا أبالي (٣) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لمية ، حدثنا خالد بن أبي هرمان ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (أندرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سُئِلوه بذلوه ، وحكموا للناس بحكمهم لأنفسهم (٤)) .

وقال محمد بن كعب وأبو حُرَّة يعقوب بن مجاهد : (والسابقون السابقون) : هم الأنبياء عليهم السلام . وقال السدي : هم [أهل] عليين . وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : (والسابقون السابقون) ، قال : يوشع ابن نون ، سيق إلى موسى ، ومؤمن آل يس ، سبق إلى عيسى ، وعلي بن أبي طالب سبق إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه ابن أبي حاتم ، عن محمد بن هارون القلاس ، عن عبد الله بن إسماعيل الدائلي البراز ، عن شبيب (٥) بن الضحاك الدائلي ، عن ميثان بن عبيدة ، عن ابن أبي نجيح ، به .

(١) سورة طه ، آية : ٣٢ .

(٢) تفسير الطبري : ٩٨/٢٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٢٩/٥ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٦٧/٦ ، وانظر أيضا : ٦٩/٦ .

(٥) في الخطوط : « ميثان بن عبيدة » . والمثبت من البحر والتسجيل لابن أبي حاتم : ٢٤٨/١٧٢ - ٢٤٩/٢٢٢ .

وقال ابن أبي حاتم : وذكر محمد بن أبي حماد ، حدثنا مهران ، عن عمارية ، عن قرّة ، عن ابن سيرين :
(والسابقون السابقون) . اللجج سوا القبايل .

ورواه ابن جرير من حديث عمارية ، به (١) .

وقال الحسن وقتادة : (والسابقون السابقون) ، أى : من كل أمة .

وقال الأوزاعي ، عن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية . (والسابقون السابقون . أولئك المقربون) ، ثم قال :
أولهم روكحاً إلى المسجد ، وأولهم خروجاً في سبيل الله (١) .

ولهذه الأقوال كلها صحة ، فإن المراد بالسابقين هم السابقون إلى فعل التبرعات كما أسروا ، كما قال تعالى :
(وسارحو إلى مضفرة من ربكم ورجة عرضها السماوات والأرض (٢)) ، وقال : (سابقوا إلى مضفرة من ربكم ورجة
عرضها كعرض السماء والأرض (٣)) ، فمن سابق في هذه الدنيا وسبّس إلى الخير ، كان في الآخرة من السابقين إلى
الكرامة ، لأن الجزء من جنس العمل ، وكما تدلّ ثلثان . ولهذا قال تعالى : (أولئك المقربون) في جنات النعيم) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن زكريا القزويني (٤) الرازي ، حدثنا عمارية بن مُصعب ، عن زيد
ابن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو قال : قالت الملائكة : يا رب ، جعلت لبي آدم الدنيا فهم يأكلون
ويتزوجون ، فاجعل لنا الآخرة . فقال : لا أفعل . فراجعوا ثلاثاً ، فقال : لا أجعل من خلقت يدي كمن
قلت له : كن ، فكان . ثم قرأ عبد الله : (والسابقون السابقون . أولئك المقربون . في جنات النعيم) .

وقد روى هذا الأثر الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه الرد على الجهمية ، ونلفظه : فقال الله عز وجل :
« لا أجعل صالح ذرية من خلقت يدي ، كمن قلت له : كن ، فكان » .

ثُمَّ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۝ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ ۝ مُتَجِدِّينَ ظُهُبًا مُتَقَابِلِينَ ۝
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخْتَلِفُونَ ۝ ذَا كُوْابٍ وَأَبَارِقٍ ۝ وَكَأْسٌ مِنْ مَعِينٍ ۝ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُتَغَوَّنَ ۝
وَلَكُمْ فِيهَا مِمَّا يُبْتَغَىٰ مِنْهَا نِسَاءُ النَّاسِ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَلِ الْأَلْوَانِ الْمَكْنُونِ ۝
بِزَآءٍ ۝ يَمْ كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝

يقول تعالى ضميراً من هؤلاء السابقين المقربين أنهم ثلث ، أى : جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين . وقد
انتظروا في المراد بقوله (الأولين) و (الآخرين) . قيل : المراد بالأوليين الأمم الماضية ، وبالآخرين هذه الأمة ،

(١) تفسير الطبري : ٩٩/٢٧ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٣٣ .

(٣) سورة الحديد ، آية : ٢١ .

(٤) في الخطوط : « للرازي » . والمثبت من ترجمة يحيى : في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١٢٥/٢/٤ .

هذا رواية من جملة ، والحسن البصري ، رواها عنهما ابن أبي حاتم . وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة (١) » . ولم يحك خبره ، ولا عزّاه إلى أحد .

وعما يستأنس به لهذا القول ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا شريك ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : لما نزلت : (ثلث من الأولين - وقيل من الآخرين) ، شق ذلك على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فتركت : (ثلث من الأولين - وثلة من الآخرين) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة - أو : شطر أهل الجنة - وثلاثونهم النصف الثاني » .

ورواه الإمام أحمد ، عن أسود بن عامر ، عن شريك ، عن محمد بن يعقوب الملاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، فذكره (٢) . وقد روى من حديث جابر بن عبد الله ، ورواه الحافظ ابن حبان عن طريق هشام بن عمار : حدثنا عبد ربه ابن صالح ، عن حُرّة بن رُوَيْم ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : لما نزلت (إذا وقت الواقعة) ، ذكر فيها ثلث من الأولين وقليل من الآخرين ، قال عمر : يا رسول الله ، ثلث من الأولين وقليل منّا ؟ قال : فأمسك ! كسر السورة ستة ، ثم نزل (٣) : (ثلث من الأولين وثلة من الآخرين) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا عمر ! ، هناك فاسم ما لقد أنزل الله : (ثلث من الأولين وثلة من الآخرين) ، ألا وإن من (٤) آدم إلى ثلث ، وأنت ثلث ، ولن تستكمل لثلاثاً حتى تسعين بالسودان من رعاة الإبل عن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له (٥) » .

هكذا أوردته في ترجمة « حُرّة بن رُوَيْم » ، إسناده [ومثناه] ، ولكن في إسناده نظر . وقد وردت طرق كثيرة متعددة بقوله صلى الله عليه وسلم : « إني لأرجو أن تكونوا ربيع أهل الجنة » ... الحديث بتمامه ، وهو مفرد في « صفة الجنة » وثله الحمد والمثنة . وهذا الذي اختاره ابن جرير هاتنا فيه نظر . بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الآية هي خير الأهم ينص القرآن ، فيبعد أن يكون للمقريون في خبرها أكثر [منها] . اللهم إلا أن يقابل مجموع الأهم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقريين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم ، فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله (ثلث من الأولين) ، أي : من صدر هذه الأمة ، (وقليل من الآخرين) ، أي : من هذه الأمة .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حنان ، حدثنا عبد الله بن بكر المزني ، سمعت الحسن ، أتى على هذه الآية : (والسابقون السابقون : أولئك المقربون) ، فقال : أما السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أهل اليمن .

ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا السري بن يحيى قال : قرأ الحسن : (والسابقون السابقون : أولئك المقربون) في جنات النعيم : ثلث من الأولين) ، قال : ثلث من مضى من هذه الأمة .

(١) لم يستأنس ابن جرير هذا الحديث ، انظر : ٩٩/٢٧ .

(٢) سنة الإمام أحمد : ٣٩١/٢ .

(٣) في الترخيع مبنية مشق لا بن حبان : « ثم أنزل الله تبارك وتعالى » .

(٤) في المخطوطة : « ألا وإن من بني آدم » . والمثبت من تاريخ مدينة دمشق .

(٥) تاريخ مدينة دمشق لابن حبان : ميكروفيلم في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، يوم ٢٤/١٢/٢٠٠٧ ، القسم

وحدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة المقتري ، حدثنا أبو حلال ، عن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية :
(ثمة من الأولين ، وقليل من الآخرين) ، قال : كانوا يقولون أو يرجون أن يكرتوا كلهم من هذه الأمة ، فلهذا ترك
الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شك أن أوله كل أمة غير من آخرها ، فيحمل أن يتم الأمر بجميع
الأمم كل أمة بسببها ، ولهذا ثبت في الصحيح وغيرها من غير وجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير القرون
قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (١) ، الحديث بتمامه : فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد ،

حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا زياد أبو حمز ، عن الحسن ، عن حماد بن يasar قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« مثل أمي مثل لوط ، لا يدرى أوله خير أم آخره » (٢) ، - فهذا الحديث بعد الحكم بصحة إسناده محمول على أن
الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاجه إلى من يعلم ، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها ، وتثبت
الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والتفضل للمتقدم ، وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى اللطيف الأول وإلى اللطيف الثاني ،
ولكن السدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه أكد ، فإنه لو لم يأت في الأرض ، ولا يلق ، أساسه فيها ،
ولذا قال عليه السلام : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة »
- وفي لفظ : « حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » (٣) ، والنرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم ، وللقريون فيها
أكثر من غيرها وأعلى مرتبة ، لشرف دينها وحقق نبيها ، ولهذا ثبت بالواتر من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، وفي لفظ : « مع كل ألف سبعون ألفا » ، وفي آخر :
« مع كل واحد سبعون ألفا » (٤) .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني ، حدثنا هشام (٥) بن يزيد الطبراني ، حدثنا عمه - هو ابن إسماعيل بن حاشم -
حدثني أبي ، حدثني ضيفم (٦) - يعني ابن زرة - عن شريح - هو ابن حيد - عن أبي مالك قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « أما والذي نفسي بيده ، ليمنن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض ،
تقول للملائكة تسجد مع محمد صلى الله عليه وسلم أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام » .

وحسن أن يذكر هاتنا الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في « دلائل النبوة » حيث قال : أخبرنا أبو نصر
ابن قتادة ، أخبرنا أبو عمرو بن مطر ، حدثنا جعفر بن محمد بن المستنضئ القرطبي ، حدثني أبو وهب الوليد بن عبد الملك

- (١) البخاري ، فوسائل أصحاحه الثاني ، ٥٥٠/٢-٣ . ونفقة الأخرى ، أبواب الفتن ، باب ما جاء في القرن الثالث
الحديث ٢٣٢٠ ، ٤٦٩/٦ - ٤٧١ . وابن ماجه ، كتاب الأحكام ، باب « كرامة الشهادة لمن لم يستبده » ، الحديث ٢٢٢٢ .
- ١٦١/٢ . وصلة الإمام أحمد : ٣٧٨/٥ .
- (٢) مسند الإمام أحمد : ٣١٩/٤ .
- (٣) البخاري ، كتاب الاحتصام ، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « لا تزال طائفة من أمتي » ١٢٤/٩ .
- ١٢٥ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « قول عيسى بن مريم حاكماً بشرية نبيها محمد صلى الله عليه وسلم » ٩٥/١ .
- (٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية المباشرة بعد المائة من سورة آل عمران ، وخرجناه هناك . انظر : ٧٨/٢ - ٨٢ .
- (٥) في المخطوطة « هاشم » . والمثبت من الطبقات السابقة ، والمجم الصغير ، ١٢٩/٢ . وفي المجم أيضاً « هاشم بن مزيد » .
وقد ثبتنا على « مزيد » ، فلا كثيراً .
- (٦) في المخطوطة : « ابن عسقم » ، والصواب ما أثبتناه . انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٦٨٤/١٤٤ هـ .

ابن عبد (١) الله بن مسروق الحراني، حدثنا سليمان بن عطاء السمرقاني، عن مسلمة (٢) بن عبد الله الجهني، عن عمه أبي مشجعة بن ربي، عن ابن زميل الجهني - رضى الله عنه - قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الصبح قال: «وكان وجهه: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله إن الله كان تواباً» - سبعين مرة - ثم يقول: «سبعين سبعين» لا خير لمن كانت ذنوبه في يوم واحد أكثر من سبعين: «ثم يقول ذلك مرتين، ثم يستقبل الناس بوجهه، وكان يصحبه الرؤيا، ثم يقول: «هل رأى أحد منكم شيئاً؟» قال ابن زميل: قلت: أنا يا رسول الله؟ فقال: «خير لقاء، وشر نقاء، وشر لنا، وشر على أعدائنا، والحمد لله رب العالمين، انصص رؤياك». قلت: وأبى جميع الناس على طريق ربح سهل لأحب (٣)، والناس على الجادة (٤) منطلقين، فبينما هم كذلك إذ أثنى (٥) ذلك الطريق على حرج لم تترصني مثله يرف رفيفا، يقطر ماءه، فيه من أنواع الكلال، قال: وكأني بالرحلة (٦) الأولى حين أشفوا على الرج كبروا، ثم أكبروا (٧) رواحلهم في الطريق، فلم يظلموه (٨) عينا ولا شهلا، قال: فكأنني أنظر إليهم منطلقين، ثم جاءت الرحلة الثانية وهم أكثر منهم أضماقا، فلما أشفوا على الرج كبروا ثم أكبروا رواحلهم في الطريق فنهزم المرتع (٩)، ومنهم الأخذ للضفت (١٠). ومضوا على ذلك. قال: ثم قدم حطيم الناس (١١) فلما أشفوا على الرج كبروا وقالوا: (هذا خير للزل). كأني أنظر إليهم يملون عينا وشمالا، فلما رأيت ذلك لزمت الطريق حتى أتى أقصى المرح، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات وأنت في أعلىها درجة، وإذا من بينك رجل آدم شكل (١٢) أقي (١٣)، إذا هو تكلم يسمو فيقرع (١٤) الرجان طولا، وإذا من يسارك رجل ريمة باذ (١٥) كثير خيال (١٦) الوجه، كأنما حشم شعره (١٧) بالماء، إذا هو تكلم أصغيت لكرامته له: وإذا أمام ذلك

(١) في المخطوطة: «عبد الله». والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ١٠/٢/٤. وانظر أسد الغابة: ١/٣٩٩.

(٢) في المخطوطة: «مسلم». والمثبت من الجرح والتعديل: ١/٤/٢٦٩. وأسد الغابة: ١/٣٩٩.

(٣) أي: واسع لا ينقطع.

(٤) الجادة: وسط الطريق.

(٥) أي: أعرف.

(٦) الرحلة - قطع أراء، وسكون العين المهملة - : القطة من الفرسان. وفي المخطوطة: «وكانوا بالرحلة». والمثبت من النهاية لابن الأثير: مادة: رحل.

(٧) أي: الزموا الطريق. قال ابن الأثير في النهاية: مادة: كب: «فيل والصواب كبروا، أي: الزموا الطريق، يقال: كبه فأكب، وأكب الرجل يكب على عمل عمله، إذا لزمه».

(٨) أي: فلم يمدوا عنه.

(٩) أي: الذي يزل ركابه قرع.

(١٠) القمط بكسر فسكون مالم من الحشيش المختلط وقيل: الحزبة منه رواه أشبه من البقول. أراد: ومنهم من نال من الدنيا شيئا.

(١١) أي: منطهم.

(١٢) أي: غليظ الأصابع عشنا، يقال: «رجل شغل الأصابع عشنا».

(١٣) يقال: رجل أقي وامرأة قنواء. ولقنا: ارتفاع في أصل الأنف والحداب في وسطه.

(١٤) أي: يطوهم.

(١٥) في المخطوطة: «باز»، وبارز. ولعل الصواب ما أثبتناه، يقال: يد الحية وباز الحية، أي: وث الحية، والمراد وصفه - عليه السلام - بالترافع.

(١٦) الخيلان: جمع خال، وهو الشامة في الوجه.

(١٧) أي: سود بالماء، لأن الشعر إذا شمت أغبر، فلذا غسل بالماء ظهر سواده. ويرى: «جسم» «بالجم»، أي: يجعل شعره جمه والجمعة - بضم الجيم - من شعر الرأس: ما سقط على الكتفين.

وجعل شيخ أشبه الناس بك خلقاً ووجهاً ، كلكم تَؤَمُّونَهُ تريدونه ، وإذا أمام ذلك ناقة عبقلة شارف (١) ، وإذا أنت يا رسول الله كأنك تبعها . قال : فانتقم لونُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سرى عنه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما ما رأيت من الطريق السهل الرحب اللحيب ، فذلك ما حُصِّلَ من الخلدى وأنتم عليه ، وأما المرج الذى رأيت فالدنيا (٢) ، مضيت أنا وأصحابي لم تتعلق منها بشيء ، ولم تتعلق منا ، ولم تردنا ولم تردنا ، ثم جاءت الرملة الثانية من بعدنا وهم أكثر منا أضغاثاً ، فنهض المرتع ومنهم الأخلد الضفث ، ونجوا على ذلك . ثم جاء عظمُ الناس فالوا فى المَرَج بينا وشيلاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولما أنت فضيت على طريقة صالحة فلن تزال عليها حتى تلقانى ، وأما المنبر الذى رأيت فيه سبع درجات وأنا فى أعلاها درجة ، فالدنيا سبعة آلاف سنة ، أنا فى آخرها ألفاً ، وأما الرجل الذى رأيت على يميني الأدم الشكل ، فذلك موسى عليه السلام ، إذا تكلم يلو الرجال بفضل كلام الله إياه ، والذى رأيت عن يساري الباذ (٣) الرمة الكثير غيلائن الوجه كأنما حُصِّم شعره بلاء ، فذلك عيسى بن مريم ، تُكْرَمُهُ لإكرام الله إياه . وأما الشيخ الذى رأيت أشبه الناس بخلقها ووجها فذلك أبو ناه إبراهيم ، كنا تَوَمَّه وتقتدى به ، وأما الناقة التى رأيت ورأيت أبنتها ، فهى الساعة ، علينا تقوم ، لاني بعدى وأمة بعد لمتى . قال : فما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم — عن رؤيا بعد هلا إلا أن يجيء الرجل ، فيحدث بها متبرعا .

وقوله : (على سرر موضوعة) — قال ابن عباس : أى مرمولة باللحى ، بئى : متسوجة به . وكلما قال مجاهد وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، وغيره . وقال السدى : مرمولة باللحى والؤلؤ . وقال حكمة : مشبكة بالبر والياقوت . وقال ابن جرير : ومه مسمى وتزين الناقة التى تحت بطنها ، وهو فصيل بمعنى مفعول ، لأنه مضفور ، وكذلك السرر فى الجنة مضفورة باللحى والآلى (٤) .

وقال : (متكئين عليها متقابلين) ، أى : وجوه بعضهم إلى بعض ، ليس أحد وراء أحد . (يطوف عليهم ولدان مخلدون) ، أى : مخلدون على صفة واحدة ، لا يكبرون عنها ولا يشيرون ولا يتنبرون ، (بأكواب وأباريق وكأس من معين) ، أما الأكواب فهى : الكيزان التى لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق : التى جمعت الوصفين . والكؤوس : المنايات (٥) ، والجمع من خر من عين جارية متعين ، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ ، بل من عيون سارحة . وقوله : (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) ، أى : لا تصدع رموسهم ولا تنزف عقولهم ، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة والذلة الخاصلة .

وردى الضحاك ، عن ابن عباس أنه قال : فى الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول . فذكر الله خر الجنة وزمها من هذه الخصال .

(١) الشارف : الناقة المسنة .

(٢) فى الطبعات السابقة : « فالدنيا وغداوة حيثها ، مضيت »

(٣) تقدم تفسير حله الكلمة .

(٤) انظر لفظ الطبرى فى : ٩٩/٢٧ .

(٥) كلا .

وقال حماد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومطية ، وقناعة ، والسدي : (لا يصدعون عنها) ، يقول : ليس ثم فيها ضلع وأسى .

وقالوا في قوله : (ولا يتزفون) ، أى : لا تكلمهم بقولهم .

وقوله : (ولاكمة مما يتخبرون . ولم طبر مما يشتهون) ، أى : ويطوفون عليهم بما يتخبرون من الثمار .

وهذه الآية دليل على جواز أكل الثفافة على صفة التخفيف لها ، ويدل على ذلك حديث « عكرش بن ذؤيب » الذى رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى - رحمه الله - فى مسنده : حدثنا العباس بن الوليد الترسى ، حدثنا العلاء بن الفضل ابن عبد الملك بن أبى سريّة ، حدثنا عبيد الله بن عكرش ، [عن أبيه عكرش] بن ذؤيب قال : بعث [بنو (١)] مرة فى صدقات أموالهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقدمت المدينة فإذا هو جالس بين المهاجرين والأنصار ، وقدمت عليه بابل كأنها عروق الأرطى (٢) ، قال : من الرجل ؟ قلت : عكرش بن ذؤيب . قال : « ارفع فى النسب » ، فالتفت له إلى « مرة بن عبيد » ، وأهله صدقة مرة بن عبيد . فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « هذه ليل قوى » ، هذه صدقات قوى : ثم أمر بها أن تؤسّم بميسم ليل الصدقة وتضم إليها . ثم أخذ يبدى فأنزلنا إلى منزل أم سلمة ، فقال : هل من طعام ؟ فثبتنا بجمعة كثيرة الثريد والودّ (٣) ، فجعل يأكل منها ، فثقلت أمحيط يدي فى جوانبها ، فقبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده اليسرى على يدي اليمنى ، فقال : يا عكرش ، كل من موضع واحد ، فانه طعام واحد . ثم أتينا بطبق فيه تمر - أو رطب ، شك عيد الله وطبا كان أو تمرًا - فجعلت أكل من بين يدي ، وجالت يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الطبق ، وقال : يا عكرش ، كل من حيث شئت ، فانه غير لون واحد . ثم أتينا بما فسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ومسح ببسلك كفيه وجبهته وفراجه ورأسه ثلاثاً ، ثم قال : يا عكرش ، هذا الغرضوم مما خبرت النار .

وهكذا رواه الترمذى مطولاً وابن ماجه جميعاً ، عن محمد بن يشار ، عن أبى المذّكى العلاء بن الفضل ، به . وقال الترمذى : « غريب لا نعرفه إلا من حديثه (٤) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يهز بن أسد وعفان - وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا شيبان - قالوا : حدثنا سليمان ابن المغيرة ، حدثنا ثابت قال : قال أنس : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تعبه الروثا ، فرما رأى الرجل الروثا قدس له حتى إذا لم يكن يعرفه ، فإذا أنسى عليه معروفه كان أحصب لروثاه إليه ، فثنت امرأة فقالت : يا رسول الله ،

(١) ما بين القسمين عن الترمذى .

(٢) الأرطى : شجر ، حروقه حمر طراخ ذاهبة فى ثرى الرمال المطبورة فى الشتاء ، تراها - إذا أثبتت - حمراً مكتنزة ترف يقطر منها الماء ، فيه بها الإبل فى اكتنازها وحسرة ألوانها .

(٣) الودّ - يفتح فسكون - : قطع من اللحم لا عظم فيها ، واستحبها وطيرة .

(٤) تحفة الأرواح : أبواب الأعيمة ، باب « ما جاء فى التسمية على الطعام » ، الحديث ١٩١٩ : ٥٩٧/٥ - ٥٩٤ ، وابن ماجه ، كتاب الأعيمة ، باب « الأكل ما يليك » ، الحديث ٣٧٧٤ : ١٠٨٩/٢ - ١٠٩٠ . وانظر أسد الغابة : للرحمة ٢٧٢٤ : ٦٩٠/٤ - ٧٢٠ ، بصحيفتنا .

وَأَيْتَ كَأَنِّي أَنبِئُ فَأَخْرِجْتَ مِنَ الدِّينَةِ فَأَدْخَلْتَ الْجَنَّةَ ، فَسَمِعْتُ وَجِبَةً انْتَحَبَتْ (١) هَا الْجَنَّةَ ، فَتَنَزَّلْتُ فَأَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، وَفُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، فَسَمِعْتُ أَنِّي عَشْرَ رَجُلًا ، كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ بَعَثَ مَرَّةً قَبْلَ ذَلِكَ ، فَجِئْتُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ طَلْسُ (٢) تَشْخَبُ (٣) أَوْ دَاجِمُهُمْ ، قَبِيلٌ : انْخَبُوا بِهِمْ إِلَى نَهْرِ الْيَبْدَخِ - أَوْ : الْيَلْبَخِ (٤) - قَالَ : فَفَعَسُوا فِيهِ ، فَخَرَجُوا وَوَجَّهَهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَرِّ ، فَأَتُوا بِصَفْحَةٍ مِنْ نَحْبٍ فِيهَا يَسِرُ فَأَكَلُوا مِنْ يَسْرِهِ مَا شَاءُوا ، فَأَيَّقَلْبُونَهَا مِنْ وَجْهِهِ إِلَّا أَكَلُوا مِنَ النَّكَاحَةِ مَا أَرَادُوا ، وَأَكَلْتُ مِنْهُمْ ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ مِنْ تِلْكَ السَّرِيَّةِ ، فَقَالَ : كَانَ مِنْ [أَمْرِنَا (٥)] كَذَا وَكَذَا ، وَأَصِيبُ فُلَانٍ وَفُلَانٍ . حَتَّى عَدَّ أَنِّي عَشْرَ رَجُلًا ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَرْأَةَ فَقَالَ : قَصِي رُؤْيَاكَ . فَقَصَصْتُهَا ، وَجَعَلْتُ تَقُولُ : فَجِئْتُ بِفُلَانٍ وَفُلَانٍ كَمَا قَالَ (٦) ،

هَذَا لِقَطْعِ أَبِي يَحْيَى ، قَالَ لِخَافِظِ الْقُضَيْيَا : « وَهَذَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ »

وَقَالَ الْخَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبْرَانِيُّ : حَدَّثَنَا مَاذَيْنُ بْنُ لُثَيْمٍ ، حَدَّثَنَا حُلَيْ بْنُ الْمَدِينِيِّ ، حَدَّثَنَا رِيحَانُ بْنُ سَعِيدٍ ، عَنْ عِيَادِ بْنِ مَنْصُورٍ ، عَنْ أَبِي يَرْبُوعٍ ، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ ، عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ ، عَنْ ثَوْيَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الرِّجُلَ إِذَا تَزَوَّجَ لَمَرَّةً فِي الْجَنَّةِ ، حَادَتْهُ مَكَانُهَا لِمَرَّةٍ » ، وَفَرَّقَهُ : « وَلَحْمٌ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهَوْنَ » ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ :

حَدَّثَنَا سَيَّارُ بْنُ حَاتِمٍ ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سَالِيَانَ الْفَيْهِيُّ ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ طَيْرَ الْجَنَّةِ كَأَنَّهَا الْبُخْتُ (٧) يُرْوَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ » . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذِهِ لَطَيْرٌ نَاعِمٌ . فَقَالَ : « أَكَلْتُمُهَا أَنْتُمْ مِنْهَا - قَالُوا ثَلَاثًا - وَإِنِّي لَأُرْجُو أَنْ تَكُونَ عَنْ يَأْكُلُ مِنْهَا » : فَتَمَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ (٨) ،

وَرَوَى الْخَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُضَيْيُّ فِي كِتَابِهِ « صِفَةُ الْجَنَّةِ » مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ الْخُطَلَبِيِّ ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْخُطَلَوِيِّ ، عَنْ عَبْدِ الْجَبَّارِ بْنِ حَاصِمٍ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، عَنْ زُرْعَةَ ، عَنْ نَافِعٍ ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ذَكَرْتُ حَسَنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طَوْبَى ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَا أَبَا بَكْرٍ هَلْ بَلَغْتُكَ مَا طَوْبَى ؟ » قَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « طَوْبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، مَا يَعْلَمُ طَوْلُهَا إِلَّا اللَّهُ ، يَسِيرُ الرَّاكِبُ تَحْتَ غِصَنِ مِنْ أَغْصَانِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا ، وَرَقُهَا الْحُكْلُ ، يَقَعُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ كُلُّهَا الْبُخْتُ » . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا لَطَيْرٌ نَاعِمٌ ؟ قَالَ : « أَنْتُمْ مِنْهُ مَنْ يَأْكُلُهُ ، وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . »

- (١) كَلَّمَا فِي الطَّبَايِعِ السَّابِقَةِ . وَفِي الْخُطْرَةِ : « وَانْتَبَهْتُ » . وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدُ : « أَرْتَجِبُ » . وَالرَّجَبِيَّةُ : السَّقْمَةُ .
- (٢) لَيْ : مَجْرُة .
- (٣) لَيْ : تَجَلُّلٌ .
- (٤) كَلَّمَا فِي الطَّبَايِعِ السَّابِقَةِ ، وَتَدْرُجُ فِي الْخُطْرَةِ دُونَ نَقْطٍ . وَفِي الْمُسْنَدِ : « إِذَا نَهَرَ الْبَلْخُ - أَوْ قَالَ : نَهَرَ الْبَلْخُ » .
- (٥) فِي الْخُطْرَةِ : « وَقَالَ : مَا كَانَ مِنْ دُونِيَا كَذَا وَكَذَا » فَأَصِيبُ : وَالْخَبْرُ عَنْ مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدُ .
- (٦) فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدُ : ١٣٥/٣١ .
- (٧) الْبُخْتُ : نَوْعٌ مِنَ الْإِبِلِ .
- (٨) مُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدُ : ٢٢١/٣ .

وقال قتادة في قوله : (ولهم طير ما يشتهون) : ذكر لنا أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، إنى أرى طيرها ناعمة كما أهلها ناعرون ، قال : « من يأكلها - والله يا أبا بكر - أنتم منها ، وإنها لأمثال البُخْت ، وإنى لأحسب على الله أن يأكل منها يا أبا بكر » .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني بجاد بن موسى ، حدثنا معمر بن عيسى ، حدثني ابنُ أنس بن شهاب ، عن أبيه ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكوثر فقال : « ثمر أعطانيه ربى - عن رجل - في الجنة ، أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها يحيى كأصناف الجوز » (١) . فقال عمر : إنها لناعمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آكلها أنتم منها » .

وكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن القعنبي ، عن محمد بن عبد الله بن مسلم بن شهاب ، عن أبيه ، عن أنس وقال : حسن (٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسى ، حدثنا أبو معاوية ، عن عبيد الله بن الوليد الوصافى ، عن عطية المرقى ، عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة لطيراً فيه سبعون ألف ريشة ، فيقع على صفحة الرجل من أهل الجنة فيتنفض ، فيخرج من كل ريشة - يلقى لونا أبيض من اللبن ، وألين من الزبد ، وأهدب من الشهد ، ليس منها لون يشبه صاحبه ثم يطير » .

هذا حديث قريب جداً ، والوصافى وشيخه ضميضان : ثم قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث ، حدثنا الليث ، حدثنا خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن أبي حازم ، عن عطاء ، عن كعب قال : إن طائر الجنة أمثال البُخْت [يأكل] مما خلقت من ثمرات الجنة ، ويشرب من أنهار الجنة ، فيصطفن له ، فإذا اشتهى منها شيئاً أتاه حتى يقع بين يديه ، فيأكل من خارجه ودخله ، ثم يطير لم ينقص منه شيء .

صحيح إلى كعب .

وقال الحسن بن حرقه : حدثنا خلف بن خليفة ، عن حميد الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لتنتظر إلى الطير في الجنة تشتهي ، فيخرى بين يديك مشوياً » .

وقوله : (وحورٌ عِينٌ ، كأنهن اللؤلؤ المكنون) : قرأ بعضهم بالرفع ، وتقديره : ولهم فيها حور عِينٌ ، وقرأة الجر تحتل معنيهاً ، أحدهما : أن يكون الإعراب على الإتياع بما قبله ، لقوله : (يطوف عليهم ولدان مخلدون ، يأمرهم وباريق وكأس من معين ، لا يصدحون عنها ولا يترفون) ، فإما كما يتخبرون : ولهم طير ما يشتهون ، وحور عِينٌ (٣) .

(١) الجوز - يضم الجيم والزاى - سبع جزور ، وهو الجوز .

(٢) تحفة الأحرش ، أبواب صفة الجنة ، باب وما جازى صفة طير الجنة ، الحديث ٢٦٦٥ ، ٢٤٩٦ ، ٢٥٠٠ .

(٣) انظر تفسير الطبري ، ١٤٢٧ : ١٠٠ .

كما قال : (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم (١)) ، وكما قال : (هاليم ثياب ستلحس هضر واسترق (٢)) ، والاحتمال الثاني : أن يكون مما يطوف به الرلدان المخلدون عليهم الخور العين ، ولكن يكون ذلك في القصور ، لا بين بعضهم بعتضا ، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالخور العين ، والله أعلم .

وقوله : (كأئمال اللؤلؤ المكنون) ، أى : كأئمال اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفاته ، كما تقدم في « سورة الصافات » : (كأئمال بيض مسنون (٣)) : وقد تقدم في « سورة الرحمن وصفته أيضا ، ولعلنا قال : (جزاء عما كانوا يعملون) ، أى : هذا الذى أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل :

ثم قال : (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيا . إلا قيلا سلا سلا) ، أى : لا يسمعون في الجنة كلاما لاغيا ، أى : هتكا خاليا من المعنى ، أو مشتملا على معنى حقير أو ضعيف ، كما قال : (لا تسمع فيها لاغية (٤)) ، أى : كلمة لا غية (ولا تأثيا) ، أى : ولا كلاما فيه قبح ، (إلا قيلا سلا سلا) ، أى : إلا التسليم منهم بعضهم على بعض ، كما قال : (نحيثهم فيها سلام (٥)) وكلامهم أيضا سالم من اللغو والإثم ،

(١) سورة المائدة ، آية : ٦ .

(٢) سورة الإنسان ، آية : ٢١ .

(٣) سورة الصافات ، آية : ٤٩ .

(٤) سورة النازية ، آية : ٦١ .

(٥) سورة إبراهيم ، آية : ٢٣ .

الفهارس

١ - الأعلام

٢ - اللغة

٣ - الطوائف والقبائل

٤ - الأماكن والبلدان

٥ - الشعر

٦ - الموضوعات

فهرس أعلام التفسير والفقه

١٣٢ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ،
 ١٩٦ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢٣ ، ٣٤٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ،
 ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ ،
 ٤٥٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،
 ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ،
 الحسن بن علي : ٣٨٧ ،
 حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن همام : ٣٧٩ ،
 أبو حصين : ٤٣ ،
 أبو حمزة الثمالي : ٢٨٠ ،
 خصيف : ٨ ، ٣٩١ ، ٤٧٧ ،
 خليل المصري : ١٣ ،
 أبو النرداه : ١١٦ ، ٢٤٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ،
 ذر بن عبد الله المديني : ١٢٢ ،
 أبو ذر الغفاري : ٢٥٢ ، ٤٢٢ ، ٤٢٨ ،
 الربيع بن أنس : ٣٠ ، ٢٩ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٢٣٨ ، ٣٩١ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤١٩ ، ٤٣٠ ،
 ٤٧٧ ،
 أبو زرة : ٥٤ ،
 الزهري : ٢٨ ، ١٦٥ ، ٣٢٧ ، ٣٩٤ ،
 ٣٩٥ ،
 زيد بن أسلم : ٣ ، ٦ ، ١٠ ، ١١ ، ٢٣ ، ٢٨ ،
 ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩٣ ،
 ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢١٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨ ، ٤٨٤ ،
 ٤٩٥ ،
 ابن سابط : ٢٨ ،
 السدي : ٣ ، ٦ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،
 ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ،
 ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٨ ،

إبراهيم التيمي : ٥٦ ،
 إبراهيم النخعي : ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ ،
 ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠٨ ،
 أني بن كعب : ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٣٢٧ ،
 أحمد بن حنبل : ٢٩ ،
 الأحنف بن قيس : ٣٧٧ ،
 إسماعيل بن أبي خالد : ٤٣ ،
 أبو أمامة الباهلي : ١٦٨ ، ٣٨٧ ،
 أنس : ٤٢٤ ،
 الأوزاعي : ٣٥٨ ،
 البخاري : ٢٢٩ ، ٤٧١ ، ٤٨٢ ،
 البغوي : ١٣٣ ، ١٨٢ ، ٢٠٣ ، ٤٧٤ ،
 أبو بكر الصديق : ١٦٤ ،
 أبو بكر بن هياش : ٢٥٩ ،
 بلال بن سعد : ١٢٥ ،
 تميم الداري : ٢٥٣ ،
 ثابت : ١٦٦ ،
 الثوري : ١٤٢ ، ١٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٤٥ ،
 ٣٦٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٢ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ،
 ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٦٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ،
 جابر بن عبد الله : ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
 ابن جريج : ٨٠ ، ١٢٦ ، ٢٦٦ ، ٢٩٠ ، ٣٢٠ ،
 ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ،
 أبو الجوزاء : ٤١٤ ، ٤٧٤ ،
 الجوهري : ٢٢ ، ٤٨٦ ،
 جوير : ٣٢٠ ،
 حذيفة بن اليمان : ١٧٧ ،
 الحسن البصري : ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٠ ،
 ٢١ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٥ ،
 ٥٧ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٩٨ ، ١٢٢ ،

حشمان بن حنّان : ٢٦٤ ، ٢٨٥ ، ٣٤٣ ، ٣٧٩ ،
حروة : ٢٠ .

حطاه : ٧٨ ، ٧٩ ، ٣٢٠ .
حطاه الخراساني : ١٦ ، ١٧ ، ١٣ ، ٣٥ ،
١٧١ ، ٢٤١ ، ٢٩٥ ، ٣٢٧ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ،
٤٧٩ .

حطاه بن أبي رياح : ٢٤٤ ، ٣٢٧ ، ٣٩٥ ، ٤٧٧ ،
حطاه بن السائب : ٣٤ ، ٤٧٩ .
عطية العوفي : ٢٣٣ ، ٣٩١ ، ٤٦٨ ، ٤٧٨ ،
٤٨٢ .

عكرمة : ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٧٨ ،
٣٢ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ١١٨ ، ١٣٣ ،
١٥٥ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،
٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٣٩٢ ،
٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤١٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ،
٤٤٣ ، ٤٥٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ، ٤٧٧ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ،
٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ .

العلاء بن يشر : ١٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤٨٤ .

العلاء بن زياد : ٢٠٠ .

أبو العلاء : ٩ .

علي بن الحسين : ١٨٨ .

علي بن أبي طالب : ٢٦ ، ٧٨ ، ٢٩ ، ٤٢ ،
١١٤ ، ١٦٣ ، ٢٠٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،
٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٣٢٧ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٤٠٤ ،
٤٠٥ ، ٤٤٣ ، ٤٥٢ ، ٤٦٩ .

عمران بن حصين : ١٩٦ .

أبو عمران الجوني : ١٣٣ ، ٤٧٨ .

عمر بن الخطاب : ٦ ، ٧ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ١١٨ ،
١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢١٤ ، ٢٦٨ ،
٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٤٥٧ ،
٤٦٥ .

عمر بن عبد العزيز : ١٧٦ ، ٢١٩ ، ٣٩٦ .

عمرو بن شعيب : ١٨٨ .

أبو عمرو بن العلاء : ٢٩ .

٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ،
٣٥٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ،
٣٨٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ،
٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ،
٤١١ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ،
٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ،
٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ،
٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ،
٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ،
٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٥ .

عبد الله بن حديد بن حمير : ٤٧٠ .

عبد الله بن حمير : ٢٩ ، ٧٩ ، ٨٩ ، ١٦٨ ،
٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٣٠٥ ، ٣٢٧ ، ٤٤٨ .

عبد الله بن عمرو : ١٨١ ، ٢٣٨ ، ٢٥١ ، ٣٩١ ،
٤٣٧ ، ٤٩١ .

عبد الله بن مسعود : ٣ ، ٥ ، ١٨ ، ٢٧ ، ٧٨ ،
٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ١١٦ ،
١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٧ ، ١٦٨ ، ١٩٢ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ،
٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٨٠ ، ٢٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٢٢ ،
٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ،
٤٥٣ ، ٤٦٣ ، ٤٧٨ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

عبد الرحمن الأحمري : ٢٣٣ .

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ٨ ، ١٠ ، ٧٥ ،
٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ،
١٠٢ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٧ ، ١٥٥ ،
١٥٨ ، ١٨٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
٢٣٨ ، ٢٢٢ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٣٧ ،
٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤١٩ .

عبد الرحمن بن أبي ليلى : ٣٢٠ ، ٣٥٢ .

هيب بن حمير : ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٨٣ .

أبو هيب القاسم بن سلام : ١١٧ .

حشمان بن حاصر : ٢٨ .

حشمان بن أبي زائدة : ٧ .

اقرأ : ٢٢ : ٣٨٩

فراش بن ثعلبة البهراني : ١٤

القضيل بن حياض : ٢٠٠

القاسم بن أبي نزة : ٢٨

قاعدة : ٣ : ٥ : ٦ : ٨ : ١٠ : ١١ : ١٣

١٦ : ١٩ : ٢٠ : ٢٢ : ٢٤ : ٢٨ : ٣٠ : ٣٢ : ٣٤

٣٥ : ٣٨ : ٤٣ : ٤٤ : ٤٧ : ٤٨ : ٤٩ : ٥٠ : ٥١

٥٧ : ٥٨ : ٦٦ : ٦٨ : ٧٣ : ٧٤ : ٧٥ : ٧٧ : ٧٨

٨٤ : ٨٥ : ٨٩ : ٩٣ : ٩٦ : ١٠٢ : ١١٣ : ١١٤

١١٧ : ١١٨ : ١١٩ : ١٢٢ : ١٢٣ : ١٢٥ : ١٢٦

١٢٩ : ١٣٣ : ١٣٥ : ١٣٧ : ١٥٣ : ١٥٥ : ١٥٨

١٦٣ : ١٦٦ : ١٧١ : ١٨٤ : ١٨٧ : ١٩٣ : ١٩٤ : ٢٠٥

٢٠٦ : ٢٠٧ : ٢١٢ : ٢١٣ : ٢١٥ : ٢١٦ : ٢١٨

٢١٩ : ٢٢٠ : ٢٢٢ : ٢٢٣ : ٢٢٤ : ٢٢٨ : ٢٣٠

٢٣٧ : ٢٣٨ : ٢٤٠ : ٢٤١ : ٢٤٤ : ٢٥١ : ٢٥٩

٢٦٠ : ٢٦٧ : ٢٦٨ : ٢٦٩ : ٢٩٠ : ٢٩١ : ٢٩٥ : ٣٠٦

٣١١ : ٣٢٠ : ٣٢٣ : ٣٢٥ : ٣٢٧ : ٣٤٥ : ٣٥٢

٣٥٦ : ٣٧٧ : ٣٨٠ : ٣٨١ : ٣٨٣ : ٣٨٥ : ٣٨٦

٣٨٧ : ٣٨٩ : ٣٩١ : ٣٩٢ : ٣٩٥ : ٣٩٩ : ٤٠٠

٤٠٤ : ٤٠٥ : ٤٠٨ : ٤١٠ : ٤١٩ : ٤٢٢ : ٤٣٧

٤٣٩ : ٤٤٢ : ٤٤٣ : ٤٥٠ : ٤٥٢ : ٤٥٣ : ٤٥٤

٤٦٥ : ٤٦٦ : ٤٦٨ : ٤٦٩ : ٤٧٠ : ٤٧١ : ٤٧٣

٤٧٤ : ٤٧٥ : ٤٧٧ : ٤٧٨ : ٤٧٩ : ٤٨٢ : ٤٨٤

٤٨٨ : ٤٨٩ : ٤٩١ : ٤٩٥ : ٤٩٦ : ٤٩٨ : ٤٩٩

كثير بن مرة : ٣٨٤

كعب الأحبار : ٢٨ : ٦٥ : ٦٩ : ١٤١ : ١٤٢

١٥٧ : ٢٣٨ : ٢٤٣ : ٢٥٥ : ٢٨٨ : ٢٩٨

الكبي : ٢٩ : ٤٧٧

مالك بن أنس : ٢٥٣ : ٢٦٢ : ٣٤٣

مالك بن دينار : ٥٤ : ٦٧

أبو مالك : ٤٤ : ٧٧ : ١٢٣ : ١٨٧ : ٢٢٣

٣٨٣ : ٣٩١

عاجل بن جبر : ٣ : ٥ : ٦ : ٧ : ٨ : ١٠ : ١١

١٢ : ١٣ : ١٦ : ١٨ : ١٩ : ٢٠ : ٢٣ : ٢٤ : ٢٦

٢٨ : ٢٩ : ٣٥ : ٣٧ : ٣٩ : ٤٤ : ٤٧ : ٤٨ : ٤٩

٥٠ : ٥١ : ٥٦ : ٥٧ : ٥٨ : ٥٩ : ٦٧ : ٦٨ : ٧٠

٧١ : ٧٢ : ٧٧ : ٧٩ : ٨٧ : ٨٩ : ٩٠ : ٩٣ : ١٠٢

١٠٣ : ١١٧ : ١٢٢ : ١٣٥ : ١٤٠ : ١٤٥ : ١٤٩

١٥٣ : ١٥٥ : ١٦٥ : ١٧١ : ١٧٢ : ١٧٥ : ١٨٢

١٨٤ : ١٨٧ : ١٩٦ : ٢٠١ : ٢٠٥ : ٢٠٦ : ٢١١

٢١٢ : ٢١٣ : ٢١٦ : ٢١٩ : ٢٢٠ : ٢٢١ : ٢٢٤

٢٢٧ : ٢٣٠ : ٢٣٢ : ٢٣٣ : ٢٣٨ : ٢٤٠ : ٢٤١

٢٤٥ : ٢٥١ : ٢٥٥ : ٢٥٩ : ٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٦٦

٢٨٠ : ٢٩٠ : ٢٩٢ : ٣٠٦ : ٣٢٢ : ٣٢٣ : ٣٢٧

٣٤٢ : ٣٤٥ : ٣٥٢ : ٣٥٦ : ٣٦٥ : ٣٦٦ : ٣٧٤

٣٧٧ : ٣٨٠ : ٣٨١ : ٣٨٣ : ٣٨٥ : ٣٨٦ : ٣٨٧

٣٨٩ : ٣٩١ : ٣٩٢ : ٣٩٣ : ٣٩٥ : ٣٩٦ : ٣٩٨

٣٩٩ : ٤٠٠ : ٤٠٤ : ٤٠٥ : ٤٠٦ : ٤٠٧ : ٤٠٨

٤٠٩ : ٤١٧ : ٤١٩ : ٤٢٢ : ٤٢٩ : ٤٢٩ : ٤٣٦

٤٣٩ : ٤٤٢ : ٤٤٣ : ٤٥٠ : ٤٥١ : ٤٥٢ : ٤٥٣

٤٦٥ : ٤٦٦ : ٤٦٧ : ٤٦٨ : ٤٦٩ : ٤٧٠ : ٤٧٢

٤٧٣ : ٤٧٤ : ٤٧٥ : ٤٧٧ : ٤٧٩ : ٤٨٢ : ٤٨٤

٤٨٩ : ٤٩٥ : ٤٩٦

أبرج : ٢١٩ : ٢٦٨

محمد بن إسحاق : ٢٤ : ٣٢ : ٣١٤ : ٣٢٣

٣٣٥ : ٣٣٦ : ٣٣٧

محمد بن جبر الطبري : ١٢ : ١٤ : ٢٨ : ٣٠

٣٤ : ٣٥ : ٤٣ : ٤٩ : ٥١ : ٥٧ : ٥٨ : ١٢٢ : ١٢٩

١٣٥ : ١٣٩ : ١٤٠ : ١٤١ : ١٤٥ : ١٥٣ : ١٥٦

١٦٦ : ١٦٧ : ١٧٢ : ١٧٣ : ١٩٢ : ١٩٣ : ٢١٦

٢١٧ : ٢١٨ : ٢٢٣ : ٢٣٠ : ٢٣٣ : ٢٣٤ : ٢٥٩

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

٢٦٠ : ٢٦٢ : ٢٨٨ : ٢٢٠ : ٢٢٣ : ٢٢٣ : ٢٨٠

مسعر بن كنان : ١٦٦

المسور : ٢٢٧

- أبو هريرة : ٢٩ ، ٢٢٣ ، ٣٢١ ، ٣٧٩ ، ٣٨٧ ،
 ٤٢٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٥٨ ، ٤٨٠ .
 المزيل بن شرحبيل : ١٣٨ .
 حلال بن يصف : ٣٥ ، ٢٦٢ .
 الوليد بن عبد الله بن أبي ميث : ٣٩ .
 وهب بن منبه : ١٧ ، ١٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ،
 ٢٤٩ .
 يزيد بن الأصم : ١١٧ .
 يزيد الرشك : ٨ .
 يزيد بن رومان : ٣٥٢ .
 يزيد بن أبي زياد : ٢٤٠ .
 يوسف بن عبد الله بن سلام : ٢٦٢ .
 يوسف بن مهران : ٢٨ .

- مطرف بن عبد الله بن الشخير : ١٢٢ ، ٣٩٣ ،
 معاذ بن جبل : ١٩٣ ، ٣٩٢ ، ٤٤١ .
 معاوية بن قرة : ١٥٣ .
 مقاتل : ٢٨ ، ٢٩٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦ .
 مكحول : ٢٨ ، ٣٥ ، ٤٣٧ ، ٥٥ .
 منصور : ٧٨ .
 المنهال بن عمرو : ٣٩١ .
 أبي ميسرة : ٢٧ ، ٢٨ .
 ميمون بن مهران : ١٢٥ .
 نافع مولى بن عمر : ٣٩٥ .
 النعمان بن بشير : ٥٦ .
 أبو الهليل : ٢٨ .
 ابن أبي الهليل : ٢٧ .

فهرس غريب اللغة

٣٣٩	جسم : وينا جِسمَانَة
١١٣	جندل : فيها جَنَابِلُ اللّوَاوُ
٣٢١	جنن : للجنَانِ اللّطَرَفَة
١٢٩	جهرم : التَّجْهَرُمُ
٢٩٦	جوب : في جَوْبَة

(ح)

٤٧٩	حيس : ولا يعلم ما تحت الطَّيْسِ إِلَّا الله
٣٩١	حيك : وَإِنْ رَأْسُهُ مِنْ وَلَوْ لَحَيْكُ حَيْكُ
١١١	حني : ثلاث حَقَائِدَ
٣١٦	حرفه : أَيْنَ حَقِيقَتُكَ
٣٦٦	حجن : يَسْتَحْجِنُ فِي يَدِهِ
٤٤٦	حلد : وَلَيْتَ حَكَاهُ
٣٦١	حلو : فَيَحْلُوْنَ مِنْهَا الْحَلْوَة
١٤٠	حرب : اللَّيْلُ الْحَرْبُ
٣٩٥	حرف : هُوَ الْخَارِيفُ
٣٧٩	حصص : وَهُوَ حَصَاصُ
٣٠٠	خفر : فَأَخْفَتِ بِحِكْمِ الرَّحْمَنِ
٤٢٠	حلس : كَأَنَّهُ حَلَسَ

(خ)

١٤٤	خبل : طَيْبَةُ الْخَبَالِ
١٢٨	حرق : مُمْتَخِرَةً
٣٣٢	خلأ : عَاثَلَتْ الْقَصَوَاءَ
٤٧٥	خلف : عَشَرَ خَلْفَاتٍ
٣٦١	حش : يَحْشُونَ وَجْهَهُمْ

(د)

٤٠٠	دبر : أَمْلَكْتُ عَادَ بِاللَّيْثِ
٩٣	دخل : بِدَاخِلَةِ لِزَارِهِ
٣٩٦	دخل : دَوَّخَلَةٌ مِنْ رَطْبٍ
١١٣	درملك : دَرَمَكَةُ يَيْضَاهُ

(ا)

٣٥٠	أبن : وَيُلَاحِظُ الْإِنْسَانُ الَّذِي أَرَادَ
٣٦٣	أدم : بِهَيْئَةِ أَصْحَابِي لِيَتَوَكَّمَهُمْ
٢٩٥	أسن : فَهُوَ أَسْنٌ وَغَيْرُ أَسْنٍ
٣٨	أعط : أَمَلْتُ السَّمَاءَ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَعْطَى
٣٩٤	أفن : يُوَفِّقُنْ عَنْهُ مِنْ أَفْنٍ
١١٠	ألو : بِجَانِبِهِمُ الْأَلْوَةُ
١١٦	ألق : فِي رَوْضَاتٍ أَثَانَتْ فِيهِنَّ

(ب)

٣٦٦	بذأ : أَنْ يَكُونَ بَذِيًّا خَيْلًا
٤٩٤	بذذ : وَجِلُّ رِيحَةٍ بِأَذٍ
٤٦٨	بسد : الْبِسْدُ
٣٣٢	برض : يَتَرَفِّعُهُ النَّاسُ فَيَبْرُضُوا
٣٢٩	بظر : أَمَضُّهُ يَبْظُرُ اللَّاتِ
٣٣٣	بظر :
٣٣٢	بلح : لَمَّا يَلْحَقُوا عَلَى
١٥١	بني : وَالَّذِي نَصَبَهَا بِتَنْجِيَةٍ
٣٥٩	بست : قَدْ بَهَتَتْ

(ت)

١٣٤	لبيب : فِي تَبَابٍ
٣٧١	نمر : كَانَ تَنْتَوَرًا وَتَنْتَوَرًا نَبِيٍّ

(ث)

١١١	ثرب : تَتَلَقَّى الرِّبَايَةَ الْكَفْرَةَ بِالْتَرِيبِ
٤٥٤	ثلغ : فَتَلْغُ رَأْسَهُ
٣٣٢	ثمد : عَلَى تَمَدٍّ قَلِيلٍ لِمَاءٍ
٤٨٨	ثني : لَيْسَ فِيهَا مَثْنِيَةٌ

(ج)

٢٨٦	جذح : بِالْيَتْنِ أَكُونُ فِيهَا جَذَحًا
٣٩٤	جفل : لِيَهْفَلَ النَّاسُ إِلَيْهَا

٤٢١	ففتح رأسه	ففتح
٢٦٧	ففضض من لغة الله	فضض
٣١٠	فقطر حتى تضطر رجلاه	قطر
٨٨	فيفلجرون عليه	فلج
٣٨٤	فوجد وادياً أبيض	وجد

(ق)

٤٨٢	ق كذل العبر للقتب	قتب
٣٩٠	ق وحمله على قتب	قتب
٣٢٨	ق قرة الجيش	قمر
٣٣٢	ق قرة الجيش	قمر
٤٢٩	ق القشحات	قحم
١٩٩	ق قنعم لماننة	قحم
٣٦٣	ق طعام مقدر	قادر
٣٣٧	ق حذو القنكة بالقنكة	قذذ
٢٣٤	ق وهم يقرطلون	قرطلم
٣٨٢	ق قدومي قدقي	قد
١٨٩	ق بحر قصبه	قصب
٤٨	ق جبل لنا قنطا	قنطط
٣٨١	ق قنط قنط	قنط
١١٨	ق مقطعات مينة	قطلع
٢٩٣	ق تيس جده القنطيفة	قنطف
٤٢٧	ق لقد قنط شمري	قنطف
٣٢٨	ق قليب من تلك القليب	قليب
١٠	القنطرنج	قنطج
٤٩٤	ق شكل أني	قنر
٢٥٠	ق أني في قبيله	قنول
١١٤	ق إنما أنا قنيمك	قنوم
١٤٩	ق نعال الخراف	قنيل

(ك)

٤٩٤	ك ثم أكبروا وواظمهم	كبيب
١٠	ك كنودة	كنبر
١٢٠	ك من الكرويين	كرب
٢٨٧	ك ولم يكره	كرث
٣٢٤	ك يبر صلاح ولا كراع	كرع

(ظ)

٤٩٤	ظ ظلم يظلموه بيتاً ولا مثيلاً	ظلم
-----	-------------------------------	-----

(ع)

٣٦٦	ع عبيبة الجاهلية	عيب
٣٦٢	ع ودماً عبيطاً	عبط
٢٧٦	ع العجاجة السوداء	عجيج
٢٨٣	ع العجاجة السوداء	عجيج
٣٣٩	ع ما يباهون من العجف	عجف
٤٨٢	ع وليس له عجم	عجم
٣٨٠	ع عرصة الحساب	عرص
١١٠	ع العرصات	عرص
٢٨٤	ع فذهب إلى المنرك	عرك
٢٨٣	ع صبيه من نخل	عصب
٣٦٢	ع فجاء بهن أو قنح	عسس
١٥٥	ع العصب	عصب
١١٢	ع عصفاد في الباب	عصفد
٣٥٤	ع وجعلها في عصبية	علو
٢٨٠	ع عصفاً من النار	عنتى
٣٨١	ع عصفاً من النار	عنتى
٣٢٧	ع العود للمطافيل	عود
٣٣٠	ع وأن يبتا عيبة مكفولة	عيب

(غ)

٤٧	غ غيبة ما قالوا	غيبه
٣٣٠	غ غرزة	غرز
١٤٩	غ عالم يقرخر	غرد
١٢	غ الغرق	غرقاً
٤٧٢	غ مغلغلة	غلغل
٣٣٩	غ حميرة	غمر

(ف)

٤٩٤	ف إذا هو تكلم يسو فيفرع الناس طولاً	فرع
٤٧٢	ف فسل في الحفاظ	فسل
٣٤	ف ففشف	فشف
١٧٨	ف فيفصم من	فصم

٣٣٩	نحر	لو انصروا من ظهورا
٢٧٩	نذب	للو ندبة
٦٥	لدر	وكان له اندران
١١٨	لرح	فاحسن الترع
٢٨١	نشب	فا نشبتا ان قيل
٤٨٠	نصف	ولنصفها على رأسها
٣٣٩	نطع	الانطاع
٢٩٩	نقض	لنقض كتفه
٣٣٩	نقر	انكم لتقرن نقر الظباء
٢٩٣	نقش	انتقش

(هـ)

٣٨٨	هطع	مهطعين
٤٢٧	هول	التهاويل
٢٧٩	هول	فجعلت امانا
٣٨٩	هيد	فلا يهدك

(و)

٣٠٨	وجفت	هوجنا مع الناس نوجفت
٣٠٩	ورم	حتى ترم قدماه
١٥٢	وسط	من السلطة في العشرة
٢٧٠	وخر	استوقفت

(ي)

٤٦٥	ينع	ويشاهي ينه
-----	-----	------------

١١٢	كفظ	وهو كظيف
٤٤٦	كفظ	وهو كظيف
٤٥٢	كلكي	هو كلكها

(ل)

٤٩٤	لحب	سهل لاحب
٥	لؤب	لاؤب
٤٢٠	لفظ	حليس لافا
٤٨٥	لفظ	ألفوا ياذا الجلال
٤٨٦	لفظ	ألفوا ياذا الجلال
٣٧٦	لم	لذلك لة
٢٧٠	لر	لراته
١٠٧	لوط	يلوط حرقه

(م)

١١٩	هل	ما حلوا بالشبهة
٢٤٢	ملر	شكروا مكو
٣٧٣	مرج	مريج
٤٨٣	مرح	لامرأحات
١٥	مرد	لم لمردا
١٢١	مزن	للمزن
٣٩١	مزن	للمزن
١٥	ملا	للملح الفرق
٨٢	ملط	ملاطها للملك

(ن)

٤٥٧	نبح	الذين نبحوا في أوامر حصر الصحابة
٤٩٧	وجب	سبعت وجبة

فهرس القبائل والامم والطوائف

(ج)

غنم : ٤٣٢ .
خزاعة : ١٨٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٤٣١ ،
النزوح : ٤٣١ ، ٣١٨ ، ٤٣٢ .
المولوح : ٣٥٣ .

(د)

دوس : ٤٣٢ .

(ر)

الروم : ١٤٠ ، ١٩٠ ، ٢٤٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ،
٤٦٥ .

(س)

سبا : ٢٤٢ .
سلج : ٤٣١ .

السودان : ١٩ .

(ش)

شيان : ٤٣١ .

(ص)

الصقاله : ١٩ .

(ط)

الطوائف : ٢٠ .

(ظ)

الظاهريه : ٢٥٤ .

(ع)

عاد : ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٤٠٠ .
البلات : ٣١٧ .
بنو السبيلان : ٣٤٧ .

أسد : ٣٢

بنو اسرائيل : ١٤ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ١٤١ ،
٧١٧ ، ٧٢٠ ، ٧٢٢ ، ٧٤٣ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ،
٧٤١ ، ٧٥١ ، ٧٦٢ ، ٣١٨ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢ .
الأكراد : ٣٢١ .
الأنصار : ١٨٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٩ ،
الأوس : ٤٣١ ، ٤٣٢ .

(ب)

بنو معوية : ٢٦١ .
بجيلة : ٤٣٢ ، ٤٥٧ .
بكر : ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
بكر : ٤٣٣ .

(ت)

تالة : ٤٣٢ .
تبع : ٣٧٥ ، ٢٤٢ .
الترك : ١٩ ، ٣٢١ .
تغلب : ٤٣٣ .
تميم : ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ .
تقيف : ٣٧٠ ، ٤٣٠ .
تمود : ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .

(ج)

الجاية : ٤٨٤ .
جرهم : ٢٤٣ .

(ح)

الحروية : ٣٣٦ .
حبر : ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣٦٥ .

(ج)

الصجم : ٤٦ .

حدائق : ٢٤٢ .

(هـ)

قارس : ١٩ ، ١٩٣ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ .

القمر : ٢٤٢ .

(ق)

القبط : ١٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ٢١٧ ، ٢٣٧ .

٢٤٢ .

قسطان : ٢٤٢ .

قريش : ٢٧ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٦٢ .

١٣١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ٢٢٠^٢ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ،

٢٦٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،

٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٧٠ ،

٣٧٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ .

(كـ)

كتمان : ٢٥ ، ٤٣١ .

كتانة : ٣٣٣ .

كتلة : ٢٢٢ .

(م)

مدين : ٤ ، ١٤٠ .

مر المصطفى : ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،

لمترة : ٢٦ ، ٣٥٢ ، ٣٩٩ .

المواجرون : ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٨٧ .

مهرية : ٢٧٠ .

(ن)

النخع : ١٩٣ .

نمبر : ٣٧ .

(هـ)

بنو هاشم : ٤٣١ .

الفنود : ٢٧٨ .

هوازئ : ٢٨٣ ، ٣٢٠ .

(ي)

أجوج وماجوج : ٢٢٣ .

اليمن : ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٨ .

اليهود : ٧٨ ، ١٤٠ .

اليونان : ١٩ .

فهرس الاماكن

(ا)

- أحد : ٢٩٤ ، ٢٤٤ ، ٢٢٩ ، ٢٠٤
الأخفاف : ١٥٧
الإسكندرية : ٢٢٩
أسوان : ٢٢٩
أجناد : ٤٢٢

(ب)

- بدر : ١٨٩ ، ١٧٨ ، ١٧٥ ، ١٤٧ ، ٤٨ ، ٤٠
٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣١٨ ، ٣٧٣
البصرة : ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢٠٠ ، ١١٢ ، ٣٦ ، ٥٠
البلخام : ١٧١
بطحاء : ٥٦
بطن نخلة : ٥٥
بعلبك : ٣٢
بفداد : ١٥٨
يقبع الفرقد : ٢٨٣
بيت المقدس : ٦٢ ، ٦٣ ، ٣٨٨

(ت)

- تبوك : ٣٢٠ ، ٥٦
تهامة : ٢٧٢

(ث)

- ثبير : ٢٧ ، ١٢٦

(ج)

- جبلى نخلة : ٥٥
جزيرة العرب : ١٤٠ ، ١٤٧
جمرة العقبة : ٢٤

(ح)

- الحففة : ٢٤٢
الحجاز : ٣٦٥
حراء : ٤٤٧

(ا)

- الحجون : ٢٧٥ ، ٢٧٧
الحلبية : ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ١٩٨
٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩
الحلبية : ٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢١
٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧
٣٤٠ ، ٣٣٨

(ب)

- براء : ٢٧٥

(ج)

- الجزيرة : ١٧٩

(د)

- حضر موت : ٢٧١ ، ٢٦٨

(هـ)

- حنين : ٣٦٩ ، ١٨٩

(ز)

- الجزيرة : ٢٤٢

(ح)

- حراسان : ١٣

(ط)

- الطنق : ٥٦ ، ٥٧ ، ٢٠٠

(ي)

- خير : ٣١٩ ، ٣٠٨ ، ١٩٨ ، ٥٦ ، ٤١ ، ٤٠

(ك)

- ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧

(ل)

- لجلة : ٣٤

(م)

- دمشق : ٣٢ ، ١١٦ ، ١٨٨ ، ٤٧١ ، ٤٧٠

(ن)

- نمياط : ٢٢٩

(هـ)

- ذات القراع : ١٩٨

(ز)

- ذوالخليفة : ٣٣٤

(ح)

- حنى طوى : ٩٠١ ، ٣٢٨

(ط)

- وشيد : ٢٣٩

(ي)

- الربكة : ٢٦٩

(ك)

- كزوقاء : ٤٢٦

(ل)

- لزمزم : ٣٠

(م)

المدينة : ٥ ، ٦٢ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٨٩ ،
١٩٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٢ ،
٢٧٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٨ ،
٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٧٠ ، ٣٩٤ ،
• ملحج : ١٩٣ ،
• مَرَّ الظُّهْرَانِ : ٣٣٩ ،
المسجد الأقصى : ٢٣٤ ،
المشال : ٤٣٧ ،

مصر : ١٣٣ ، ٢١٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
• مكة : ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٩ ، ١١٢ ، ١٤٠ ، ١٤٧ ،
١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،
٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
٢٨٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،
٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ،
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٧٠ ، ٤١٧ ،
٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥٧ ،
منف : ٢٢٩ ،
مضى : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٢٤ ،

(ن)

نخلة : ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٤٣١ ،
نصيبين : ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ،
• نر عيسى : ١٥٨ ،
النيل : ٢٢٩ ،
نبنوى : ٢٧٩ ،

(هـ)

هجر : ١١٢ ،
المند : ٢٨١ ،

(ي)

يأجج : ٣٣٨ ،
يثر ب : ٣٤٠ ،
اليرموك : ٤٠٠ ،
اليمامة : ٣٤٧ ، ٣٩٥ ،
اليمن : ٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ٢٧١ ،
٣٤٥ ،

(س)

صابور : ١٥٥ ،
سليم : ٣٧٥ ،
السراة : ٤٧٦ ،
سردوس : ٢٣٩ ،
سمرقند : ٢٤٢ ،
سنداد : ٤٣٣ ،
السودان : ٢٧٨ ،
سوق عكاظ : ٢٧٢ ،

(ش)

الشام : ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ١١٨ ، ١٩٣ ، ٢٧١ ،
٢٢٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٥ ، ٢٩١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٣٥٣ ،
٤٢١ ، ٤٢٦ ، ٤٨٤ ،
الشراة : ٤٢١ ،

(ص)

الصفاء والروية : ٣٤٠ ،
صنماء : ٤٨٤ ، ٤٣٢ ، ٢٤٣ ،

(ط)

الطائف : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٧٣ ، ٣٤٨ ، ٤٣٠ ،
٤٣١ ، ٤٣٢ ،
طور سيناء : ٣٢ ،

(ع)

عبد : ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٩٦ ،
العراق : ٣٥٣ ،
عسقلان : ٣٣١ ،
عكاظ : ٣٣٢ ،

(غ)

غزة : ٢٧١ ،

(ف)

فاران : ٢٣ ،
الفرات : ٤٦٩ ،
القيروم : ٢٣٩ ،

(ق)

قديد : ٤٣٢ ،
قُصَيْقَمَان : ٣٤٠ ، ٤٤٥ ،

(كـ)

الكعبة : ٢٤ ، ٣٠ ، ١٣٠ ، ١٥٦ ، ١٦١ ،
١٩٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٤٠٣ ،
٤٣٠ ، ٤٠٤ ،

الكوفة : ٢١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٨١ ، ٣٩٠ ،

فهرس الشعر

الصفحة	الشاعر	القافية	الصفحة	الشاعر	القافية
٢١٠		قصرا	(ا)		
٢١٠		أن يزودا	٤٤	أبو زيد الطائي	بقاء
٤٦٢		التفكير		(ب)	
٤٦٢		نصيراً	١٤٢		يفضبه
١٢٨٢		يا كورها	٣٨٥	امرؤ القيس	يا لإيا به
٢٨٢		كأخيارها	٢٨٢	سواد بن قارب	بكاذب
٢٨٢		ككفارها	٢٨٢		غالب
٤٦١		كبيراً	٢٨٢		المساسب
٤٦١		تسطيراً	٢٨٢		خائب
٤٦١		تشميراً	٢٨٢		الأطاييه
٤٤		تذكر	٢٨٢		الذوالب
	(س)		٢٨٢		قارب
٤٧٢ ، ٤٧٣		ثابته جديده	٢٨٢		يا أفتابها
٢٨٠		أنكاسها	٢٨٢		كأذئابها
٢٨٠		وأحلاسها	٢٨٢		نابها
٢٨١		بأحلاسها		(د)	
٢٨٢		كارجاسها	١٢٠	أميه بن أبي الصلت	مرصد
٢٨٢		رأسها	١٢٠		يتورد
	(ظ)		١٢٠		منجلد
٤٧٢	أميه بن أبي الصلت	عكاظ	٤٣٣	أعشى قيس بن ضلابة	مسنداد
٤٧٢		الحفاظ		(ز)	
٤٧٢		الشراظ	٣٧٨	حاتم الطائي	الصلبر
	(غ)		١٧٥	أبو جعفر الرضوي	معتبر
٢٨٠		منها	١٧٥		عبر
	(ف)		١٧٥		الكبر
٢٧٣		قاف	١٧٥		اليسر
٤٢٠		المقصفت	١٧٥		الحار
	(ق)		١٧٥		القدر
٣٧٨		مدقوق			
٢٨٧		مهران			

الصفحة	الشاعر	الصفحة	الشاعر	الصفحة	الشاعر
٢٢٨	ظلال	٤٣١	(ك)	٢٤٣	النسيم
٤٣٦	ما ألبس		خالد بن الوليد	٢٤٣	صم
٤٣٧	أسحبا		(ل)	٢٤٣	عتم
١١٧	التقدم	٤٠٦	الأعشى	٤٧٧	حماما
٤٥	مستدّم	٣٩١	زيد بن عمرو بن نفيل	٤٧٧	قطاما
٤٦١	فيكون	٥٣٨	عبد الله بن ربيعة الأنصاري		
٧٩	قرأنا	٣٣٨			
٤٤	القريتا	٣٣٨			
٣٢	إسرائيلنا	٣٣٨			
٤٣٣	مئينا	٣٣٨			
٤٣٣	سينتا	٣٣٨			
٤٣٣	نملونا	٣٣٨			
١١	مكتون	١١			
٨٦	يلتقي	٢٦٥			
٤٢٩	لناها	٢٤٥	القرزوق		
٢٢٣	حمامها		(م)		
	(ن)		وهم الأوسط : أسعد أبو كرب اليماني		
٤٦٦	وايها				
٤٦٦	وايها				
٣٤	ضاحيا				
٢٣	لألياً				

فهرس م: موضوعي

- (غ)
 العاقبة للمومنين : ٤٠ .
 (ف)
 فضل المسلمين : ٣ .
 (ق)
 قتال المشركين : ٩ .
 قصة نوح عليه السلام : ١٩ - ٢٠ .
 قصة ابراهيم عليه السلام : ٢٠ - ٢١ .
 قصة موسى وهارون عليه السلام : ٣١ .
 قصة ايلياس عليه السلام : ٣١ .
 قصة لوط عليه السلام : ٢٢ - ٢٣ .
 قصة يونس عليه السلام : ٣٣ - ٣٦ .
 (ك)
 تلاوم الكفار : ٧ - ٨ .
 (ن)
 لعم الكفار يوم القيامة : ٦ .
 (د)
 التوحيد : ٤ - ٩ .
 موقف الكفار من الرسالة : ٩ .
 (هـ)
 يوم القيامة : ٦ .
 سورة ص
 (ب)
 استبعاد الكفار تخصيص الرسول باتزال التران عليه
 : ٤٧ .
 (ج)
 جزاء السعداء : ٦٧ - ٦٨ .
 جزاء الأشقياء : ٦٩ - ٧٠ .
 (ح)
 حكمة تعلق : ٥٥ .

- سورة الصافات
 الملائكة : ٣٩ - ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ .
 الأمم الماضية : ١٨ .
 (ب)
 البعث : ٥ - ٦ .
 (ج)
 الجزاء : ٩ - ١٢ .
 الجنة : ٩ - ١٦ .
 جهنم : ١٦ - ١٨ .
 (خ)
 الحشر : ٦ - ٩ ، ٧ .
 حفظ السماء : ٤ - ٥ .
 (غ)
 خلق الإنسان : ٥ .
 (د)
 دعوى للمشركين أن الملائكة بنات الله : ٣٦ - ٣٧ ، ٤١ .
 (د)
 الدعي من هو : ٢٧٢ - ٣٠ .
 (ز)
 زينة السماء : ٤٠ .
 (ش)
 للمشركون : ٢٨ .
 الشياطين : ٤ - ٥ .
 (ص)
 الاستطاف في الصلاة : ٣ .
 (ض)
 فضائل من سبق : ١٨ .

(ح)

الحمد : ١١٥ .

(خ)

خلق السموات والأرض : ٧٦ ، ٩٤ ، ١٠٧ .

خلق الإنسان : ٧٦ .

الخوف من المصيبة : ٨٠ .

(س)

سبح القرآن : ٨٥ .

(ش)

للمشركون : ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

الشفاعة : ٩٣ .

(ض)

الضمر : ٨٠ .

(ط)

طبيعة الإنسان : ٧٧ ، ٩٦ .

(ظ)

عبادة الأصنام : ٨٠ ، ٨١ ، ٩١ ، ٩٣ .

حبل الله : ٧٧ ، ١١٥ .

تصليب الأمم للماضية : ٨٦ .

عظمة الله : ١٠٣ ، ١٠٦ .

العلم : ٧٩ .

(غ)

غنى الله : ٧٧ .

(ق)

القلوب : ٨١ .

القرآن : ٧٤ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٢ .

الفتن : ٩٧ ، ١٠١ .

(ك)

الكفر : ٧٧ .

(م)

الأمثال : ٨٦ ، ٨٩ .

للكل : ١٠٣ ، ١٠٧ .

للماء : ٨٣ .

(ع)

خلق آدم وإخباره للآلئكة : ٧٢ ، ٧٤ .

(ذ)

الذكر : ٤٣ ، ٧٣ .

(س)

سؤال للمشركين تسجيل الملائكة : ٤٨ ، ٤٩ .

ع

تسبب الكفار من أن الرسول بشر : ٤٥ .

(ي)

قصة داود عليه السلام : ٤٩ ، ٥٤ .

قصة سليمان عليه السلام : ٥٥ ، ٦٤ .

قصة أيوب عليه السلام : ٦٥ ، ٦٦ .

قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ٦٦ ، ٦٧ .

(ل)

استكبار الكفار : ٤٣ .

(م)

للملك لله : ٤٧ .

(ن)

الرسول منظر : ٧٠ .

(هـ)

الفرجة للمكذبين : ٤٨ .

إهلاك الأمم للماضية : ٤٤ ، ٤٨ .

(و)

التوحيد : ٤٥ ، ٤٧ ، ٧٠ .

الروح : ٧١ .

سورة الزمر

(ت)

التوبة : ٩٧ ، ١٠١ .

(ج)

جزاه المملاء : ٨١ ، ٨٧ ، ١٠٩ ، ١١٢ .

جزاه الأتقياء : ١٠٨ ، ١٠٩ .

لجنة : ١١٢ .

(ج)

- جاء الله ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧
 عظيمة الله ١٢٤ - ١٢٦
 حاقبة الكفر ١٢٧ - ١٢٨ ، ١٢٨ - ١٤٨ ، ١٤٩

(غ)

- المظفرة ١١٧ - ١١٨ ، ١٢١ ، ١٤١

(ف)

- فضل سورة غافر ١١٦

(ق)

- قصة موسى عليه السلام ومؤمن آل فرعون ١٢٨
 ١٣٨

(م)

- مكت الكافرين أنفسهم يوم القيامة ١٢٢
 الموت ١٢٢ - ١٢٣

(ن)

- نصر الله لرسله ١٣٩ - ١٤٠

(و)

- التوحيد ١٢٤ ، ١٤٤ - ١٤٥

(ي)

- يوم القيامة ١٢٢ ، ١٢٦

أ سورة فصلت

(ا)

- آيات الله ١٧٠ - ١٧١ ، ١٧٠ - ١٧٦

(ب)

- بشرية الرسول ١٥٢

(ح)

- أحسن التوك ١٦٧

- الحشر ١٥٩ - ١٦٢

(خ)

- خلق السموات والأرض ١٥٤ - ١٥٧

(د)

- لطف الرسول ١٧١

- الساعة ١٧٣

[٥]

- تزيه الله من الولد : ٧٥
 النعمة : ٩٦

(هـ)

- المجرة : ٧٩

(و)

- التوحيد : ٧٤ ، ٨٠ ، ٩٤

- للتوكل على الله : ٩٠ - ٩١

- الوفاة : ٩٢ - ٩٣

(ي)

- يوم القيامة : ١٠٢ ، ١٠٦ - ١٠٨

سورة غافر

(ا)

- للاذكاة : ١٢٠ - ١٢١

[ب]

- للبحث : ١٤١ - ١٤٢

(ج)

- الجناب في آيات الله : ١١٩ - ١٤٦

(ح)

- حملة العرش : ١٢٠ - ١٢١

(خ)

- تخاصم أهل النار : ١٣٩

- خلق السموات والأرض : ١٤١ - ١٤٢ ، ١٤٤

(د)

- الدعاء : ١٤٢ - ١٤٤

(ن)

- الرزق : ١٢٣ ، ١٤٨

(ص)

- لطف الرسول : ١١٩ ، ١٤٧

(ض)

- الصبر : ١٤٧

- صلاح الآباء : ١٢١ - ١٢٢

(ض)

الإضلال : ١٦٢ .

(ط)

طبيعة الإنسان : ١٧٤ - ١٧٥ .

(ع)

حاقبة للمشركين : ١٥٣ .

حاقبة المؤمنين : ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٧٣ .

علم الله : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ .

للعلماء : ١٥٠ .

لعمل الصالح : ١٦٨ .

(ق)

مقابلة المدينة بالحسنة : ١٦٩ .

القرآن : ١٥٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ .

قصة عاد ولهمود : ١٥٧ - ١٥٨ .

(و)

التوحيد : ١٧٥ .

موقف الكفار من القرآن : ١٦٣ .

سورة التهودى

(ا)

المؤمنون : ١٩٧ - ١٩٨ .

آيات الله : ١٩٦ - ١٩٧ .

(ب)

البقرة : ١٩٢ .

(ج)

الحكم لله : ١٨٢ .

(خ)

خلق السموات والأرض : ١٩٤ .

(د)

للبحرة : ١٨٢ .

(ر)

الرزق : ١٩٣ - ١٩٤ .

(س)

الساعة : ١٨٥ .

(ض)

الصد عن سبيل الله : ١٨٤ .

للمصائب : ١٩٤ - ١٩٦ .

(ض)

الإضلال : ٢٠١ .

(ط)

طبيعة الإنسان : ٢٠٢ .

(ع)

أولو العزم من الرسل : ١٨٢ .

عظمة الله : ١٧٩ ، ١٨٢ .

حاقبة الإحسان والظلم : ١٨٦ .

(ق)

القصص : ١٩٨ - ٢٠١ .

(ل)

لطف الله : ١٨٥ .

(م)

مناج الدنيا : ١٩٧ .

الملك لله : ٢٠٣ .

(هـ)

الهداية : ١٨١ ، ١٨٣ .

(و)

الوحى : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٢٠٣ - ٢٠٤ .

للودة في القرن : ١٨٧ - ١٩١ .

الوعد : ١٨٤ .

الأولياء : ١٨١ .

(ي)

يوم القيامة : ٢٠٢ .

سورة الزخرف

(خ)

خلق السموات والأرض : ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(ر)

الرزق : ٢١٣ - ٢١٤ .

الرسالة : ٢١٢ - ٢١٣ ، ٢٣٠ .

وكوب النابة وما ورد فيه من الأحاديث : ٢٠٧ .

(ق)

ليلة القدر : ٢٣١ - ٢٣٢ .

القرآن : ٢٣١ .

قصة موسى عليه السلام : ٢٣٧ - ٢٤١ .

(ي)

يوم القيامة : ٢٣٧ - ٢٣٧ .

سورة الجاثية

(س)

الساعة : ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(ش)

المشركون : ٢٥٣ - ٢٥٥ .

(ع)

حاقة السعده : ٢٥٦ - ٢٥٧ .

حاقة الأثقياء : ٢٥٧ .

(ف)

فضل المؤمن : ٢٥٧ .

التفكر في آلاء الله : ٢٤٩ - ٢٥١ .

(م)

الملاك لله : ٢٥٥ .

(ن)

نعم الله : ٢٥٠ - ٢٥١ .

(و)

الوحي : ٢٥٢ .

سورة الاحقاف

(ب)

البر بالوالدين : ٢٦٣ - ٢٦٦ .

البعث : ٢٨٧ .

(ج)

الجن : ٢٧٢ - ٢٨٧ .

(د)

الرسول : ٢٦٠ .

(ش)

المشركون : ٢٥٨ - ٢٦٣ .

(س)

الساعة : ٢٢٣ - ٢٢٥ .

(ش)

المشركون : ٢٠٦ ، ٢٠٩ - ٢١٣ .

(ع)

الإعراض عن الذكر : ٢١٤ .

حاقة السعده : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

حاقة الأثقياء : ٢٢٧ - ٢٢٨ .

تمت كفار قريش : ٢٢٠ .

(ق)

القرآن : ٢٠٥ ، ٢١٦ .

قصة ابراهيم عليه السلام : ٢١٧ .

قصة موسى عليه السلام : ٢١٧ - ٢١٩ .

قصة عيسى عليه السلام : ٢٢٠ - ٢٢٣ .

(و)

التوحيد : ٢١٦ ، ٢٢٩ - ٢٢٩ .

الوحي : ٢١٦ .

سورة النخان

(ب)

البعث : ٢٤٧ .

(ع)

تبع : ٢٤٢ - ٢٤٤ .

(د)

النخان : ٢٣٢ - ٢٣٥ .

(ش)

المشركون : ٢٣٢ : ٢٤٢ .

(ع)

حقل الله : ٢٤٤ .

حاقة الأثقياء : ٢٤٥ - ٢٤٦ .

حاقة السعده : ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(ف)

فضل سورة النخان : ٢٣١ .

سورة الفتح

(ب)

بيعة الرضوان : ٣٠٧ - ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ -
٣١٨ ، ٣٢١ - ٣٢٢ .

(ث)

الثناء على الرسول وأصحابه : ٣٤١ - ٣٤٤ .

(خ)

المتخلفون في غزوة الحديبية : ٣١٩ - ٣٢١

(د)

روايا الرسول بسخن مكة : ٣٣٧ - ٣٤١ .

(ش)

للمشركون : ٣٢٥ .

(ق)

قصة الحديبية : ٣٢٧ - ٣٣٦ .

(ن)

انصر المؤمنين : ٣٢٢ - ٣٢٥ .
للمنافقون : ٣١١ .

سورة الحجرات

(ا)

الإيمان : ٣٥٢ - ٣٥٣ ، ٣٦٨ .

(ث)

التثبت في خبر القاسق : ٣٥٠ .

(ج)

احترام الرسول : ٣٤٥ - ٣٤٩ ، ٣٥٢ .

(س)

السخرية : ٣٥٦ - ٣٥٧ .

الإسلام : ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(ض)

الإصلاح بين المؤمنين : ٣٥٣ - ٣٥٥ .

(ظ)

ظن : ٣٥٧ - ٣٦٤ .

(ف)

تفاضل الناس بحسب الطاعة : ٣٦٤ - ٣٦٧ .

(هـ)

الصبر في البلاغ : ٢٨٨ .

(ع)

عند الله : ٢٥٨ .

عاقبة الأمم لناضية : ٢٧١ - ٢٧٢ .

للعفوق : ٢٦٦ - ٢٦٨ .

(ق)

قصة فرد عليه السلام : ٢٦٨ - ٢٧١ .

(و)

التوحيد : ٢٥٨ - ٢٥٩ .

الوحي : ٢٦٠ - ٢٦١ .

سورة القتال

(ا)

الإيمان : ٢٨٩ ، ٢٩٢ .

(ج)

الجنة : ٢٩٥ - ٢٩٧ .

(ح)

الحرب : ٢٨٩ - ٢٩١ ، ٢٩٩ .

(د)

الارتداد : ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(س)

الساعة : ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(ع)

عاقبة الأمم للماضية : ٢٩٣ .

عاقبة المؤمنين : ٢٩٤ .

(ف)

فضل المؤمن : ٢٩٥ .

(ق)

اقرآن : ٣٠٣ .

(ن)

الإففاق في سبيل الله : ٣٠٦ .

للمنافقون : ٢٩٧ ، ٣٠٤ .

(و)

الفرحيد : ٢٩٨ - ٢٩٩ .

صلة الأرحام : ٣٠٠ - ٣٠٣ .

(و)

موقف الناس من الرسل : ٤٠١ .

سورة الطور

(پ)

البلاغ : ٤١١ .

(س)

التسبيح : ٤١٤ - ٤١٦ .

(ص)

الصبر على البلاغ : ٤١٤ .

(غ)

خطاب الله لأعدائه : ٤٠٣ .

حاقبة المظنن : ٤٠٧ - ٤١١ .

عتاد للمشركين : ٤١٣ .

(و)

التوحيد : ٤١٢ - ٤١٣ .

موقف للمشركين من الرسول : ٤١١ - ٤١٢ .

سورة التجم

(ا)

الملائكة : ٤٣٤ .

(پ)

البعث : ٤٤١ - ٤٤٢ .

(ج)

جبريل عليه السلام : ٤١٩ .

(ح)

المحسنون : ٤٣٥ .

(د)

رؤية الله : ٤٢٣ - ٤٣٠ .

رحمة الله : ٤٣٧ .

المشركون : ٤٣٠ ، ٤٣٤ - ٤٣٥ .

شهادة الله لرسوله بأنه تابع للحق : ٤١٧ - ٤١٨ .

(ص)

الأصنام : ٤٣٠ - ٤٣٤ .

سورة قی

(پ)

البعث : ٣٧٣ - ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٨ - ٣٨٩ .

(ج)

الجنة : ٣٨٣ - ٣٨٥ .

جهنم : ٣٨١ - ٣٨٣ .

(ح)

حزب المقصّل : ٣٧٠ - ٣٧١ .

الحساب : ٣٧٩ - ٣٨١ .

(خ)

خلق السموات والأرض : ٣٧٤ - ٣٧٥ ، ٣٨٦ .

(س)

التسبيح : ٣٨٦ - ٣٨٨ .

(ص)

الصبر في البلاغ : ٣٨٦ .

(ع)

حالة الأمم للمنافية : ٣٧٥ ، ٣٨٥ .

(ق)

قدرة الله على الإنسان وعلمه به : ٣٧٦ .

سورة النّاريات

(ا)

آيات الله : ٣٩٦ - ٣٩٧ ، ٤٠٠ - ٤٠١ .

(پ)

البعث : ٣٩١ .

(ح)

الإحسان : ٣٩٣ - ٣٩٦ .

(ش)

المشركون : ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(ع)

حاقبة السعداء : ٣٩٣ .

(ق)

قصة خيف إبراهيم عليه السلام : ٣٩٧ - ٣٩٩ .

قصة موسى عليه السلام : ٣٩٩ .

قصة لوط عليه السلام : ٤٥٥ - ٤٥٦

قصة فرعون وقومه : ٤٥٦

(و)

موقف الرسول من الذين يعرضون عن آيات الله :

٤٥١

سورة الرحمن

(ج)

البقرة : ٤٧٦

جنهم : ٤٧٥

(ح)

الحساب : ٤٧١

(خ)

خلق الإنس والجن : ٤٦٤

(د)

رحمة الله : ٤٦٤

(ع)

عاقبة المتقين : ٤٧٦

(ف)

القضاء : ٤٦٩

(ق)

قصة الله : ٤٧١ - ٤٧٢

القرآن : ٤٦٤

(ن)

نعم الله : ٤٦٤ - ٤٨٦

(ئ)

يوم القيامة : ٤٧٣

(ع)

عدل الله : ٤٤٠

(ق)

قصة الله : ٤٤٢ - ٤٤٣

القيامة : ٤٤٣ - ٤٤٤

(م)

ملح النفس : ٤٣٨

ملك الله : ٤٤٥

(و)

البرى من طاعة الله ونهه : ٤٣٩

سورة القم

(س)

الساعة : ٤٤٥ - ٤٤٧ ، ٤٥٦

(ش)

لشركون : ٤٥٦

الشقاق القم : ٤٤٧ - ٤٥١

(ح)

عاقبة الأتقياء : ٤٥٧

عاقبة السعداء : ٤٦٢

(ق)

القدر : ٤٥٧

قصة الله : ٤٦١

القرآن : ٤٥٣

قصة لوط عليه السلام : ٤٥١ - ٤٥٣

قصة هود عليه السلام : ٤٥٤

قصة صالح عليه السلام : ٤٥٤ - ٤٥٥

صواب الخلل

الصفحة	السطر	صوابه	الخلل
٢٢	١٣	كل نعم	كل نعم
٢١٦	٨	وكتاة	وكتاة
٢٦٦	١٠	أُخْرِج	أُخْرِج
٢٦٦	١٣	النار	نار
٢٦٦	١٤	الهُون	الهون
٢٦٦	١٥	تَفْسُقُونَ (٢٠)	تَفْسُقُونَ
٢٦٨	١٧	أُودِيَتِهِمْ	أُودِيَتِهِمْ
٢٦٨	١٩	لِلجَرَمِينَ (٢٥)	لِلجَرَمِينَ
٢٩٢	١٥	الدَّيْنِ	الدين
٣٢٨	٥	قُتِرَ	قُتِرَ
٣٢٨	١٣	عَبَبَ رَسُول	عَبَبَ فِي رَسُول
٣٧١	٦	ضَمْرَ	ضَمْرَ

استعمل

في ص ٤٠٦ ، السطر ١١ وقع هذا النص : « فرأى لها رقرة » : وقتنا في التعليق : « في الأصل : ربا لها ربرة » ، بالباء
ولعل الصواب ما ذكرناه ، ورتا : أى خطأ وقفز . وثبت هنا أنه مازال في نفسنا شيء من هذا التعليق ، وأتينا نحيل الآن
إلى أن الصواب ما في المخطوطة ، وهو « ربا لها ربرة » ، فبن اللسان : « والربرة : النفس - بفتحين - العالى » ، فلعل
الحسن - رضى الله عنه - شفق شهقة عالية عند قراءة هذه الآية ، ولقد أعلم ،



Bibliothèque Alexander
0272979